﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾

الآية هنا بمعنى الشيء العجيب الخارق للعادة ، والعظيم الأثر الذى لم يَرَ الناسُ مثله ، فالمراد الآيات الكونية ، كما قال سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. ۝٥ ﴾ [الزمر] وقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. ۝٣٧ ﴾ [فصلت]

ومع أن هذه الآيات واضحة الدلالة على قدرة الله ووجوب الإيمان به وتصديق رسوله إلا أنهم قابلوها بالإعراض والانصراف ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا .. ۝٢ ﴾ [القمر] أعرضوا حتى عن الآية التى اقترحوها وطلبوها من رسول الله ، حتى جاءتهم كفلق الصبح ، وهذا يدل على استكبارهم عن قبول الحق ، وعنادهم لرسول الله رغم وضوح الآية ، فشدة العناد والكراهية لرسول الله أعمتْ أعينهم عن الحق .

ويكفى هنا أنْ نذكر موقف عمه أبى لهب ، وكان قد زوَّج ولدين من أولاده بنتين من بنات رسول الله ، فلما صدع رسول الله بدعوته ، وحدثتْ العداوة من ناحية عمه آل على نفسه إلا أنْ يُطلِّق ابنتى رسول الله وبالفعل طلَّقتا .

وهذه فى حدِّ ذاتها لم تُغظ رسول الله ، لكن غاظه أنْ يمر عليه أحد[1] هذين الولدين ، ثم يتفل ناحيته فدعا عليه رسول الله وقال :

---

(١) قيل فى اسمه ثلاثة أقوال : لهب ، عتبة ، عتيبة . ذكرها البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٢٣٨) .

أكلك كلب من كلاب الله[1] . فلما سمع أبو لهب بدعوة رسول الله على ولده توجّس خيفة منها ، لأنه يعلم فى قرارة نفسه أن ابن أخيه على الحق .

فلما جاء موعد القافلة التى سيخرج فيها ولده للتجارة أوصى رفاقه ألاَّ يتركوه ، وقال لهم : إذا بتُّم فاجعلوا ولدى فى وسطكم ، فإنى أخشى عليه دعوة محمد .

وبالفعل فى ليلة من ليالى القافلة جاءه أسد ، فأخذه من بينهم فأكله . والطريف هنا أن رسول الله قال : كلب من كلاب الله ، وهذا أسد ؟ قالوا : لأن الكلب إذا نُسب إلى الله فلا بُدَّ أنْ يكون أسداً .

إذن : هذه آية أخرى حدثتْ مع هذا الصِّنديد المعاند بشخصه ، وليست بعيدة عنه ، ومع ذلك لم يؤمن ولم يَرِقّ قلبه لدعوة الحق التى جاء بها ابن أخيه .

ومن رحمة الله تعالى بهذه الأمة أنه سبحانه لم يهلك المكذبين منهم ، ولم يستأصلهم كما حدث للأمم السابقة ، فقوم سيدنا عيسى

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٦٢٣) أن أم كلثوم ابنة رسول الله كانت فى الجاهلية تحت عتيبة بن أبى لهب ، وكانت رقية تحت أخيه عتبة ، فلما أنزل الله ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) ﴾ [المسد] قال أبو لهب لابنيه عتبة وعتيبة رأسى ورؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد ، وسأل النبى ﷺ عتبة طلاق رقية وسألته رقية ذلك ، وقالت له أم كلثوم بنت حرب بن أمية وهى حمالة الحطب : طلِّقها يا بنى فإنها قد صبت فطلقها ، وطلق عتيبة أم كلثوم ، وجاء النبى ﷺ حين فارق أم كلثوم ، فقال : كفرت بدينك وفارقت ابنتك لا تحبنى ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشقَّ قميصه ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنى أسأل الله أن يسلط عليه كلبه » قال عروة بن الزبير : أن الأسد لما طاف بهم تلك الليلة انصرف عنهم فناموا وجعل عتيبة فى وسطهم ، فأقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأس عتيبة ففدغه (أى شقّه) .

قالوا ﴿ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا .. (١١٤) ﴾ [المائدة] هذه آية حسِّية اقترحوها ، فردَّ الله عليهم : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) ﴾ [المائدة]

كذلك قوم صالح لما عقروا الناقة قال الله فيهم : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَـٰصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) ﴾ [الأعراف]

أما أمة محمد فلم يعاملهم الحق سبحانه هذه المعاملة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال]

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا .. (٢) ﴾ [القمر] يعنى : أنهم رأوها بأعينهم على الحقيقة ، فلماذا يُكذِّبون بها ؟ قالوا : عناداً وإصراراً على التكذيب ، لأنهم ظنوا أن محمداً يريد من دعوته شيئاً لنفسه يريد الوجاهة والرياسة بين قومه ، يريد علواً فى الأرض .

لذلك لما أرسلوا وفدهم إليه ﷺ قالوا له : يا محمد إن كنتَ تريد مُلْكاً ملَّكناك علينا ، وإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا .. إلخ فقال لعمه قولته المشهورة : والله يا عمِّ لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر ما تركتُه ، حتى يُظهره الله أو أهلك دونه[1] .

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤٩٥) وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « يا عم لو وُضعت الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فى طلبه » . وأورده ابن كثير فى السيرة النبوية (١/٤٧٤) والسهيلى فى الروض الأنف (٢/٦) .

ثم لم يقفوا عند حدِّ الإعراض والتكذيب ، بل تعدَّوْه إلى السَّبِّ والإيذاء .

﴿ يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) ﴾ [القمر] واتهام الرسل بهذه التهمة أمر قديم وعادة عند جميع المكذِّبين على مَرِّ العصور ، فهؤلاء بعدما عاينوا انشقاق القمر تأبى طباعهم السقيمة أنْ يعترفوا بالحق فيُلفّقون له التهم ، ماذا يقولون ؟

يقولون : هذا ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) ﴾ [القمر] أى : دائم[1] كأن محمداً يأتيهم بسلسلة من أعمال السحر واحدة بعد الأخرى . وقلنا : هذا اتهام باطل وأهون ما يقال فى الرد عليه : إذا كان محمد ساحراً فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً كما سحر المؤمنين به ؟

ومعلوم أن السحر تخييل للعين وليس حقيقة ، كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه] أما الآيات التى جاء بها محمد فكلها حقيقة وعليها دليل هم يعرفونه ويعترفون به .

﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) ﴾

(١) حكى ابن الجوزى ثلاثة أقوال فى معنى ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) ﴾ [القمر] :
الأول : ذاهب . من قولهم : مرّ الشىء واستمر : إذا ذهب . قاله مجاهد وقتادة والكسائى والفراء ، فعلى هذا يكون المعنى : هذا سحر والسحر يذهب ولا يثبت .
الثانى : شديد قوى . قاله أبو العالية والضحاك وابن قتيبة . وهو مأخوذ من المرَّة . والمرَّة : الفَتْل .
الثالث : دائم . حكاه الزجاج .

معنى ﴿ وَكَذَّبُوا .. (٣) ﴾ [القمر] أى : كذّبوا بالآيات الواضحات ، والكذب قولٌ يخالف الواقع وهو صفة مذمومة عند الناس جميعاً ، وهؤلاء كذَّبوا عناداً واتباعاً لهواهم ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ .. (٣) ﴾ [القمر]

فالهوى يدعوه لأنْ يكذّب بالحق ليحقق ما يهواه ، والهوى لا يدعو صاحبه إلى خير ، إنما يدعوه إلى الشر والهلاك ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ[1] فُرُطًا (٢٨) ﴾ [الكهف] وقال فيهم الحق سبحانه ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ .. (٢٣) ﴾ [النجم] فهوى النفس متحكم فيهم مسيطر على تصرفاتهم .

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) ﴾ [القمر] كل أمر من الكفر أو الإيمان ، الطاعة أو المعصية ، كلّ أمره مستقر إلى غاية معلومة وأجل يعلمه الله ، وعلم الله بالأشياء أزلىّ ، يعنى قبل أنْ يحدث الحدث يعلمه الله وسجلته الكتبة .

فالحق سبحانه حينما قضى بكفر الكافر لم يرغمه على الكفر ، إنما ترك له الاختيار ، لكن لعلمه الأزلى كتب عليه ما سيحدث منه ، وهذه من عظمته تعالى وإحاطة علمه سبحانه بما كان وما يكون وما لم يكن .

وقد ذكرنا هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ

(١) قوله ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾ [الكهف] فيه أربعة أقوال :
الأول : أنه أفرط فى قوله ، لأنه قال : إنَّا رؤوس مضر ، وإن نسلم يسلم الناس بعدنا . قاله أبو صالح عن ابن عباس .
الثانى : ضياعاً . قاله مجاهد . وقال أبو عبيدة : سرفاً وتضييعاً .
الثالث : ندماً . حكاه ابن قتيبة عن أبى عبيدة .
الرابع : كان أمره التفريط . والتفريط تقديم العجز . قاله الزجاج .

(١) ما أغنى عنه ماله وما كسب (٢) سيصلى نارا ذات لهب (٣) وامرأته[1] حمالة الحطب (٤) في جيدها[2] حبل من مسد (٥) ﴾ [المسد]

فقد نزلتْ هذه الآيات وتُليت على أسماع أبى لهب ، وهو ما يزال فى سعة الدنيا وفى سعة الاختيار[3] ، وكان فى إمكانه أنْ يُكذِّب هذه الآيات ، وأنْ ينطق بالشهادتين ولو نفاقاً ، لكنه لم يفعل ولم يقدر حتى على هذه ، ونفذ فيه حكم الله عليه وعلى زوجته . لماذا ؟ لأن الله تعالى قضاء لا يرده أحد ، وكلمته لا يُعقِّب عليها أحد .

هذا معنى ﴿ وكُلُّ أمرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) ﴾ [القمر] نعم مستقر ففى علم الله ، فلا تُتعب نفسك يا محمد ولا تُجهد نفسك فى دعوة هؤلاء ، وما عليك إلا البلاغ ، أما الإيمان والكفر فقد سبق فى علم الله أن هذا سيؤمن ومُستقره فى الجنة ، وهذا سيكفر ومُستقره فى النار ..

فهوى هؤلاء المكذِّبين لن يغير من هذا المستقر شيئاً ، لأنه واقع ومُستقر فى اللوح المحفوظ فى أم الكتاب الذى لا يغيره أحد .

---

(١) امرأة أبى لهب : هى أم جميل واسمها أروى بنت حرب بن أمية وهى أخت أبى سفيان بن حرب ، عمة معاوية بن أبى سفيان وكانت تقول : مذمماً عصينا .. وأمره أبينا . وكانت تطرح الشوك فى طريق رسول الله ﷺ ، فكانت شديدة العداوة لرسول الله . وكانت عوراء . قاله أبو بكر بن العربى .

(٢) جيدها : الجيد بكسر الجيم العنق . [القاموس القويم ١٣٨/١] . وقيل : مقدم العنق . وقيل مُقلَّده أى : موضع القلادة منه . وقد غلب على عنق المرأة . [لسان العرب – مادة : جيد] .

(٣) نزلت هذه السورة فى أبى لهب عم النبى ﷺ ، ولم يمت إلا بعد ١٥ سنة بعد نزولها ، وهو أخ غير شقيق لعبد الله بن عبد المطلب والد النبى محمد ، وقد هلك بعد وقعة بدر بسبع ليال بمرض كالطاعون وبقى ثلاثة أيام حتى أنتن ، فلما خافوا العار حفروا له حفرة ودفعوه إليها بعود حتى وقع فيها .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾

الكلام هنا عن المكذبين من كفار مكة ، وكيف أن الله تعالى أخبرهم بخبر الأمم السابقة ، وما آلوا إليه من الهلاك والدمار لما كذَّبوا رسلهم ، بل إن آثار هذه الأمم باقية عندهم يمرون عليها : ﴿ وإنَّكُمْ لتمُرُّونَ عليْهِم مُّصْبحين (١٣٧) وباللَّيْلِ أفلا تعْقلُون (١٣٨) ﴾ [الصافات] وقال سبحانه : ﴿ وإنَّها لبسَبيلٍ مُّقيمٍ (٧٦) ﴾ [الحجر] أى : أن هذه الآثار موجودة بطرق مسلوكة ومعلومة لهم يمرون بها ﴿ مُّقيمٍ (٧٦) ﴾ [الحجر] يقيم الآيات .

ومعنى ﴿ الأنباءِ .. (٤) ﴾ [القمر] الأخبار مفردها نبأ ، وهو الخبر الهام الذى يترتب عليه الاتعاظ وأخْذ العبرة ، ومن هذه الأنباء ما أخبرهم به من نبأ عاد وثمود وقوم لوط والأحقاف ، وغيرها .

ومعنى ﴿ ما فيه مُزْدَجرٌ (٤) ﴾ [القمر] أى : لهم عبرة وعظة فيمَنْ سبقهم من الأمم المكذِّبة الذين أهلكهم الله ، فهذا زاجر لهم عن الوقوع فى التكذيب والتصدى لدعوة الحق .

﴿ حكْمَةٌ بالغةٌ.. (٥) ﴾ [القمر] الحكمة : وضْع الشىء فى موضعه ﴿ بالغةٌ ..(٥) ﴾ [القمر] أى : بلغت الغاية ، فلا حكمة أعلى منها ، لأن الحكمة تختلف باختلاف العقول التى تأتى بها .

إذن : فالبشر يُوصفون بالحكمة التى تناسب عقولهم ، والحق سبحانه له حكمة هى الحكمة العليا ، كما قلنا فى صفة الخَلْق ، فأنت تُوصف بهذه الصفة حينما تخترع شيئاً لم يكن موجوداً ، فأنت خالق والله سبحانه أحسن الخالقين .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى فى قصة تحريم التبنى مع رسول الله وزيد بن حارثة ، فقال تعالى : ﴿ ادْعُوهُم لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الأحزاب]

إذن : حكم رسول الله بتبنى زيد قسط وعدل ، لكن حكم الله أقسط وأعدل ، ما فعله سيدنا رسول الله عدالة بشرية وتكريم لمن فضّله على أبيه وأهله ، وما حكم الله به من دعوة الشخص لأبيه الحقيقىَ أعدل .

لأنه يعطى للأب الحقيقى حقه ، فهو سببُ الحياة وسبب الوجود المباشر للإنسان ، وفى تقدير الأب تقدير للرب الخالق والمُوجد الأول للجميع .

ولذلك قرن الحق سبحانه بين عبادته وبين بر الوالدين ، فقال فى أكثر من موضع : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٣٦) ﴾ [النساء] وقال : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٢٣) ﴾ [الإسراء] لذلك جعل عقوق الوالدين من الكبائر[(١)] ، وهى كبيرة شائعة فى كل الجوارح كما بيّنا .

وقوله : ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) ﴾ [القمر] النذر : قالوا هى الرسل التى تنذرهم وتحذرهم العذاب وعاقبة التكذيب ، جمع نذير . والمعنى : أنهم لم ينتفعوا بها ، ولم تؤثر فيهم دعوات الرسل .

(١) عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما الكبائر ؟ قال : الإشراك بالله . قال : ثم ماذا ؟ قال : ثم عقوق الوالدين . قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس . قلت : وما اليمين الغموس ؟ قال : الذى يقتطع مال امرىء مسلم هو فيها كاذب . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٠٩) ، وأخرجه أحمد فى مسنده (٦٧٠٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « إن أكبر الكبائر عقوق الوالدين . قال : قيل وما عقوق الوالدين ؟ قال : يسب الرجلُ الرجلَ فيسبّ أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ[(١)] إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) ﴾

الأمر هنا لسيدنا رسول الله ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ .. (٦) ﴾ [القمر] أعرض عنهم ودعهم ، كما قال سبحانه : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ﴾ [النجم] وهذا يعنى أنهم لا فائدة منهم .

وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) ﴾ [القمر] أى : ينادى المنادى والمراد النفخة الثانية التى يقوم الناس فيها لرب العالمين ، ومعنى ﴿ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) ﴾ [القمر] أى شىء منكر لا يعرفه الناس ولا عهدَ لهم به لبشاعته وفظاعته ، لذلك تنكره النفس .

لكن ما العلاقة بين ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ .. (٦) ﴾ [القمر] و ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ (٦) ﴾ [القمر] قالوا : يعنى أعرض عنهم من الآن ، فلا تقلْ لهم شيئاً عن هذا اليوم ، وقالوا : المراد تولّ عنهم ولا تشفع لهم فى هذا اليوم .

﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ[(٢)] كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ[(٣)] (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) ﴾

(١) الداعى هنا هو إسرافيل عليه السلام . ذكره القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٢٩) وقال ابن الجوزى فى زاد المسير « الداعى : إسرافيل ينفخ النفخة الثانية » .

(٢) الأجداث : القبور . جمع جدث . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) ﴾ [يس].

(٣) هنا قال ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) ﴾ [القمر] وفى آية أخرى قال : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) ﴾ [القارعة] قال القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٥٣٠) : « هما صفتان فى وقتين مختلفين :

أحدهما : عند الخروج من القبور يخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون ، فيدخل بعضهم فى بعض ، فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه فى بعض لا جهة له يقصدها .

الثانى : فإذا سمعوا المنادى قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر ، لأن الجراد له جهة يقصدها » .

السياق هنا موصول بقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾ [القمر] ففى هذا اليوم يأتى هؤلاء المكذبون ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ۝٧﴾ [القمر] خُشَّع جمع خاشع .

الحقُّ سبحانه يصف حالهم فى هذا اليوم يوم ينادى عليهم المنادى فيخرجون ﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ .. ۝٧﴾ [القمر] من القبور وهم أذلاء صاغرون ، بصرهم ذليل منكسر ، ينظر إلى أسفل ولا يَقْوى على أنْ يرفع بصره .

إذن : حركة العين للرؤية لها دلالات ولها انفعالات ، وحركة العين ترتبط بحالة صاحبها ، فأهل الحق أعينهم قوية جريئة ، أما أهل الباطل فأعينهم ذليلة منكسرة ، لذلك نعيب على أهل الباطل حينما يتبجحون بباطلهم . نقول : فلان يقول كذا وعينه قوية (يندب) فيها رصاصة ، نعم لأنه خالف طبيعة الموقف الذى يعيشه .

وقوله : ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر] أى : حين خروجهم من القبور يخرجون منتشرين كالجراد ، والمراد الكثرة والتفرّق هنا وهناك ، وتصوّر لو أخذنا أىّ رقعة من المعمورة كم دُفن فيها جيل بعد جيل من لَدُن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ، فكم فيها من القبور ؟

ثم تأمل بناء الفعل ﴿يَخْرُجُونَ .. ۝٧﴾ [القمر] للمعلوم ، فلم يقل يُخرجون للمبنى للمجهول ، إنما يخرجون كأنهم يخرجون بأنفسهم فى وقت واحد بعد أنْ أحيتهم النفخة الثانية بإذن الله فيقومون ويخرجون .

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ .. ۝٨﴾ [القمر] أى : مسرعين ، ومَنْ

يستطيع فى هذا الموقف أنْ يتباطأ أو يتلكأ ؟ والمهطع هو الذى يمد عنقه إلى الأمام ليندفع فى سيره ، ولك أنْ تتأمل حال هؤلاء فى الدنيا ، وكيف أخذهم الكبر والغطرسة والعناد فأبعدهم عن الجادة ، والآن يأتون منكسرين أذلاء صاغرين مسرعين إلى الغاية التى طالما كذّبوا بها كالمجرم يُساق إلى العقاب .

لذلك قال بعدها : ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر] فخصّ الكافرين بهذا القول ، نعم يوم عسر شديد لأنه لا فكاكَ منه ولا مهرب ، ولا مدافع ولا نصير ، وكيف يكون لهم مهرب أو نصير والآلهة التى عبدوها من دون الله ويظنون أنها تشفع لهم سيسبقونهم إلى جهنم .

قال سبحانه عن فرعون : ﴿يَقْدُمُ[1] قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ۝٩٨﴾ [هود] وهذا تيئيس لهم وقطع لأملهم .

ثم يترك السياق قريشاً ويُحدِّثهم عن قوم آخرين من المكذِّبين هم قوم سيدنا نوح عليه السلام ، فيقول :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا
وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩﴾

كأنه تعالى يقول لكفار مكة : لستم بعيدين عن هذا المصير الذى آل إليه غيركم من الأمم المكذّبة ، لأنكم لم تقفوا عند حدِّ التكذيب ،

(١) يقدم قومه : يتقدمهم إلى النار . قال الشوكانى فى فتح القدير فى تفسير الآية : « أى : يصير متقدماً لهم يوم القيامة سابقاً لهم إلى عذاب النار . وقال الزمخشرى : « كما كان قدوة لهم فى الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه » .

بل آذيتم رسول الله بكلِّ ألوان الإيذاء ، آذيتموه بالقول وبالفعل ، آذيتموه علانية وجهراً ، فلما لم تصلوا إلى شيء آذيتموه بالكيد والمكر والتبييت .

بل استعنتم على إيذائه بكيد الجن فسحرتموه[1] ، وحاولتم قتله بالسُّم فلم تستطيعوا[2] . إذن : أريحوا أنفسكم فدعوة محمد ماضية فى طريقها لا يُثنيها شيء ، فانتهوا عن مصادمتها ، وما قومُ نوح منكم ببعيد .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ .. ⑨ ﴾ [القمر] إذن : خذوا منهم العبرة ، وبدأ بقوم نوح لأن سيدنا رسول الله بُعث للناس كافة فى كل زمان ومكان ، وسيدنا نوح أُرسل لقومه ، وعمومية رسالته محصورة فى هؤلاء ، ليس فى الزمان والمكان ، ثم حُصِروا بعد ذلك فى أهل السفينة .

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سحر رسول الله ﷺ رجل من بنى زريق يقال له لبيد ابن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله » أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٣٢١ ، ٥٣٢٤ ، ٥٩١٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٠٥٩) كتاب السحر . قال المازرى فيما نقله عنه ابن حجر فى فتح البارى : « أنكر المبتدعة هذا الحديث وزعموا أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها ، وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعه من الشرائع إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ثم ، وأنه يوحى إليه بشيء ولم يوح إليه بشيء ، قال المازرى : وهذا كله مردود لأنه الدليل قد قام على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى وعلى عصمته فى التبليغ » .

(٢) عن أنس بن مالك أن يهودية أتت النبى ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها فقيل : ألا نقتلها ؟ قال : لا . فما زلتُ أعرفها فى لهوات رسول الله ﷺ [أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٢٤) ومسلم فى صحيحه (٤٠٦٠) بأبسط منه] .

ثم إن سيدنا نوحاً عليه السلام لبث فى دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فالتكذيب فى قصته واضح ، وقد سلك معهم كل سبيل فلم يؤمنوا ، فجعلهم الله عبرة ومثلاً لمَنْ جاء بعدهم من المكذبين .

ألا ترى أن هذه الآية ذكرت تكذيبهم لنبيهم مرتين ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ .. ⑨ ﴾ [القمر] ثم ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا .. ⑨ ﴾ [القمر] فتكذيبهم فاق كل تكذيب ، لذلك كان سيدنا نوح أطولَ الرسل عمراً ، ودعوته أطول الدعوات .

وقوله سبحانه ﴿ عَبْدَنَا .. ⑨ ﴾ [القمر] أى : سيدنا نوح ، وهذا تشريف له عليه السلام أن الله تعالى يقول عنه عبدنا ، ومثلها قوله تعالى فى قصة إسراء سيدنا رسول الله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ① ﴾ [الإسراء]

لذلك فالإخلاص فى العبودية يستجلب عطاء الربوبية ، وقلنا : العبودية للبشر مذلة ، والعبودية لله عزّة وشرف ، فالعبد فى العبودية للبشر يعطى خيره لسيده ، أما العبد لله فيأخذ خير سيده ، فهى إذن عبودية السيادة .

ثم لم ينتهوا عند التكذيب لنبى الله ، بل تعدوا ذلك إلى الإيذاء ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ⑨ ﴾ [القمر] فاتهموه بالجنون وقلنا : إنها تهمة واهية مردود عليها ، وإنْ دلتْ فإنما تدل على سفاهة هؤلاء وإفلاسهم .

﴿ وَازْدُجِرَ ⑨ ﴾ [القمر] أى : أنهم زجروه ومنعوه من إتمام دعوته وتبليغ رسالته .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ
ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى
ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ
وَدُسُرٍ(١) ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾

بعد هذا الصبر الطويل من سيدنا نوح لم يؤمن معه إلا القليل(٢) من القوم حتى يئس من هدايتهم ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ** ﴿١٠﴾ ﴾ [القمر] أى : انتصر لى منهم لأنى لا طاقة لى بهم ، يُقال : انتصر له . أى : أخذ له الحق الذى يعجز أنْ يأخذه بنفسه ، لذلك قال تعالى عن الكافرين ﴿ **وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ** ﴿٢٩﴾ ﴾ [الروم] لا ينتصرون لأنفسهم ، ولا يجدون مَنْ ينصرهم .

---

(١) فى الدسر أربعة أقوال (ذكرها ابن الجوزى فى زاد المسير) :
أحدها : أنها المسامير . رواه الوالبى عن ابن عباس . وبه قال قتادة والقرظى وابن زيد .
الثانى : أنه صدر السفينة ، سُمِّى بذلك لأنه يدسر الماء أى يدفعه . رواه العوفى عن ابن عباس ، وبه قال الحسن وعكرمة .
الثالث : أن الدُّسُر أضلاع السفينة ، قاله مجاهد .
الرابع : أن الدُّسُر طرفاها وأصلها . والألواح جانباها . قاله الضحاك .
(٢) اختُلف فى عددهم على ثلاثة أقاويل :
أحدها : ثمانون رجلاً منهم جرهم . قاله ابن عباس .
الثانى : أنهم ثمانية . قاله ابن جريج .
الثالث : سبعة ، قاله الأعمش ومطر ، وكان فيهم ثلاثة بنين : سام وحام ويافث ، وثلاث بنات له ونوح معهم فصاروا سبعة . [ذكرها الماوردى فى تفسيره لآية هود ٤٠] .

فلما دعا نوح بهذا الدعاء استجاب الله له ﴿ **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ** ..﴿١١﴾ ﴾ [القمر] أى السحاب ﴿ **بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ** ﴿١١﴾ ﴾ [القمر] ينصبّ بغزارة ﴿ **وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا** ..﴿١٢﴾ ﴾ [القمر] انشقتْ الأرض عن عيون الماء ﴿ **فَالْتَقَى الْمَاءُ** .. ﴿١٢﴾ ﴾ [القمر] ماء السماء من أعلى ، وماء الأرض من أسفل ﴿ **عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ** ﴿١٢﴾ ﴾ [القمر] على أمر قدَّره الله وقضاه ، وهو هلاك هؤلاء المكذّبين ونجاة المؤمنين ، فهذا أمر قدِّر أزلاً .

وفى موضع آخر أتى تفصيل هذه القصة ، فقبل أنْ ينصبّ عليهم الماء من السماء ويتفجَّر من عيون الأرض أمره ربه أنْ يصنع السفينة ﴿ **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا** .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود] لأنها أول سفينة تُصنع على وجه الأرض ، ولا عهدَ للناس بهذا الشىء ، فعلَّمه الله كيف يصنعها .

ويُقال : إن الله تعالى أعطاه أول الخيط الذى يقوده فى صناعتها حينما أراه جذوع الشجر تطفو على سطح الماء ولا تسقط ، وهذه لها قانون خاص بالحجم والكثافة ، فلما رأى نوح هذه الظاهرة فاهتدى إلى أنْ يجمع الجذوع ويجمعها إلى بعضها بالحبال ، ثم اهتدى إلى فكرة المسامير .

وهنا قال : ﴿ **وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ** ﴿١٣﴾ ﴾ [القمر] والمراد السفينة . والدُّسُر هى المسامير التى يجمع بها ألواح الخشب ، وبعد أن انتهى من صنع السفينة ﴿ **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ** ﴿١١﴾ ﴾ [القمر]

وقوله سبحانه ﴿ **تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا** .. ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر] أى : السفينة تجرى على صفحة الماء ﴿ **بِأَعْيُنِنَا** .. ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر] بقدرتنا ورعايتنا

وحفظنا ومراقبتنا ، ومنه قوله تعالى فى سيدنا موسى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه] ولولا عناية الله ، ما كان لهذه السفينة أنْ تستقر على هذا الموج المتلاطم .

﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر] أى : أن هذه السفينة وما كان من نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين جزاء لنوح الذى كفر به قومه وكذَّبوه ، فهو الذى كُفر أى كُفر به ، فجزاؤه والذين آمنوا معه أنْ أنجاه الله وأنجى المؤمنين به .

ويجوز أن تكون جزاء لمَنْ كَفر[١] وجزاؤهم الإغراق .

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾

الكلام عن السفينة ﴿ تَّرَكْنَاهَا آيَةً .. ﴿١٥﴾ ﴾ [القمر] عبرة وعظة للأمم بعد نوح ، قالوا : والترك قد يُراد به تركناها قصة تُتلى فى كتاب محفوظ إلى يوم القيامة هو القرآن ، يقصُّها على الناس على مرِّ العصور ، ليأخذوا منها العبرة .

أو : تركناها آية باقية بعينها فى المكان الذى استقرتْ عليه بعد أن جَفَّ الماء ، وهو جبل الجودى[٢] الذى قال الله فيه ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى

(١) قرأها : لمن كان كفر . يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد نقله القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٢٣) .

(٢) الجودى : جبل فى تركيا يقع فى جنوب شرق تركيا بالقرب من الحدود العراقية السورية . وهو يقع إلى الشمال من مدينة زاخو بحوالى ٢٠ كم ، والشواهد أن هذا الجبل هو المقصود كثيرة ، فأسماء القرى والمدن المحيطة بها منسوبة إلى نوح عليه السلام ، فأول قرية تقع إلى الجانب الشمالى من الجبل تسمى هشقيان أى قرية الثمانين وهو عدد من كانوا مع نوح . [موقع زاخو التى بها جبل الجودى] .

الْجُودِيِّ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود] ويقال : إنه موجود فى تركيا ، وأظنكم قرأتم بحثاً فى هذه المسألة ، يثبت وجود آثار فى هذه المنطقة ، وقد يكون هذا إلهاماً من الله لنصل إلى هذه الآية العجيبة التى أنجى اللهُ بها المؤمنين وأغرق الكافرين .

ولأنها آية ينبغى التأمل فيها والاعتبار بها ، يقول سبحانه : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [القمر] أى مُتذكر ، مُفكر فيها ، متعظ بها ؟

ثم يعود السياق لمخاطبة سيدنا رسول الله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾ [القمر] استفهام لتقرير الحقيقة ، الحق سبحانه يسأل رسول الله ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾ [القمر] أى : إنذارى . فهناك إذن علاقة بين العذاب والنذر .

فالحق سبحانه لم يظلمهم ولم يأخذهم على غفلة ، إنما قدَّم لهم الإنذار ، وأى إنذار بعد دعوة استمرتْ ألف سنة إلا خمسين عاماً أنذرهم فيها نوح بعذاب الله ، وكما يقولون : قد أعذر من أنذر ، مَنْ أنذرك فقد قطع عذرك ، فلا عذرَ لك بعد ذلك .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

اللام للتوكيد ، وقد حرف تحقيق ، فالحق سبحانه يريد أنْ يؤكد على هذه الحقيقة ، وهى أن القرآن سهل ميسَّر ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ..﴿١٧﴾ ﴾ [القمر] يسَّرنا قراءته وتلاوته ، ويسَّرنا الاستماع إليه ويسَّرنا فهمه وتذوقه والانفعال به .

فالقرآنَ هو الكتاب الوحيد الذى تزداد له حباً كلما كررته ،

وتزداد له فهماً وتذوقاً واستكشافاً لكنوزه ، فعجائبه لا تنتهى ، وعطاءاته لا تنفد ، لأنها فيوضات المتكلم بهذا القرآن .

لذلك يقول ﷺ عن القرآن : « لا تنقضى عجائبه ، ولا يخْلَق عن كثرة الرد »(1) ذلك لأنك حين تتكلم تعطى كلامك من المعانى على قدرك ، وعلى قدر كمالاتك الأدبية والعقلية .

فإذا كان المتكلم هو الحق سبحانه وتعالى فإن عطاءاته لا تتناهى ، وما دام ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ، فسوف يظل القرآنُ بكْراً يعطيك من فيوضاته إلى يوم القيامة .

ثم إن كلام الله صفته وصفة الكامل كاملة ، لذلك قال عن القرآن ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ [فصلت]

وقالوا فى القرآن :

بيِّـن فيـه كُـلَّ شـىء ... وَمِنْه آخذ قدْرَ ذِهْنه كُلّ تَال

ولو تأملتَ مثلاً تفسير القرآن على مرِّ العصور لوجدتَ عجباً ، فلو كان التفسير مقصوراً على أحد لكان رسول الله الذى نزل عليه

(1) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ألا إنها ستكون فتنة . فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه » . قال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول وفى الحارث مقال .

القرآن أَوْلَى بتفسيره ، لكنه ﷺ ترك هذه المهمة .

ولو فسَّره رسول الله لمَا كان لأحد أنْ يزيد عليه ، لكن تركه للأجيال يأخذ منه كلّ جيل على قدر إدراكه وتطوره ومستجداته وما تصل إليه من أسرار ، كما قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

ولو أن القرآن أعطى جيل الصحابة مثلاً كلّ عطاءاته لاستقبلتْ باقى الأجيال القرآن بلا عطاء ، والله يريد عطاء الله دائماً إلى يوم القيامة .

فقال ﴿ سَنُرِيهِمْ .. (٥٣) ﴾ [فصلت] يقرأها كلّ جيل بهذه الصيغة المستقبلية ، مهما أخذوا من عطاءات ، لأنهم يأخذون من معين لا ينضب .

ومن التيسير فى قراءة القرآن أنْ يقرأه العربى والأعجمى ، وتتعجب وأنت فى الحرم حينما تسمع القرآن من أناس أعاجم لا يعرفون من العربية جملة واحدة ، ومع ذلك يقرأون القرآن بلسان عربى ، نعم يتعتعون فيه ويجدون فى قراءته مشقة ، ولولا أنهم يجدون له لذة ما تحملوا هذه المشقة فى القراءة .

ثم يقرأه الطفل الصغير ، بل ويحفظه وهو فى سنِّ السابعة ، ولو أتيتَ له بأىِّ كتاب بشرى لما استطاع أنْ يحفظه .

هذا كله فيض من قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ .. (١٧) ﴾ [القمر] ولولا هذا التيسير ما حفظه الطفل الذى لم يكتمل عقله بعد فيحفظه . وهو لا يعرف معناه ، ولا يعرف ما فيه من أحكام .

وقد علَّمنا النبى ﷺ أن القرآن ليس جُملاً ، إنما يُحسب بالحروف ،

كلُّ حرف له سرّ وله عطاء ، بل وله ملَك موكّل[1] به ، فحين تود قراءة القرآن فإنما تود ملائكة الحق ، فساعة تريدها تأتيك وتسعفك .

وجرِّب نفسك مع القرآن وأنت تقرأ بتأنٍّ وتأمل ثم تنسى حرفاً أو كلمة فتعيد السياق على ذهنك وسرعان ما تأتيك ، لأنها تودّك كما تودّها مثل العبد الذى يوده سيده ، فساعة يستدعيه يسرع إليه ، وأنتم تعرفون هذا الحديث : « .. لا أقول ألف لام ميم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[2] .

لذلك رأينا عجائب فى مسابقات القرآن الكريم للأطفال والشباب ، فكيف تمتحن مثلاً سبعمائة متسابق فى وقت محدود ، لذلك كانت هناك أسئلة فنية يمكن بها أنْ تقيس حفظ المتسابق للقرآن كله بسؤال واحد ، فمثلاً تقول له :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) ﴾ [المزمل]

اقرأ :

فإنْ كان الولد حافظاً يقول : من أين أقرأ ؟ لأنها فى أكثر من موضع ومن الأسئلة التى نظموها شعراً :

كم فى كتاب الله جمع الناسِ ... قد يوم ندعو أخرجوا وأناسى

ففى الشطر الأول : كم مرة ذكر جمع الناس فى القرآن الكريم ؟

والإجابة فى الشطر الثانى : يقصد ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ .. (٢٠) ﴾ [البقرة]

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣٥) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٩٢٨) من حديث ابن مسعود . قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب .

(٢) عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣٥) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٩٢٨) .

وبيوم ندعو : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ .. (٧١) ﴾ [الإسراء]

وبأخرجوا : ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) ﴾ [الأعراف]

﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾ [النمل]

وبأناسى : ﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) ﴾ [الفرقان]

هكذا يجيب عن سؤال الشطر الأول ، بالشطر الثانى وأن المواضع ستة :

واحدة فى البقرة الآية ٢٠ ، اثنان فى الأعراف الآيتان ٨٣ ، ١٦٠ ، واحدة فى الإسراء الآية ٧٠ ، واحدة في الفرقان الآية ٤٩ ، واحدة فى النمل الآية ٥٦ .

لماذا ؟ لأنه ميسَّر : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ (١٧) ﴾ [القمر]

وقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾ [القمر] فهل لهذا القرآن الذى يسَّرناه أحد يعتبر به ويتعظ بما فيه من الآيات .

لكن تيسير القرآن لمن ؟ الله يسَّر القرآن لمن آمن بقائل القرآن وآمن بالنبى الذى أنزل عليه القرآن ، وإلا فهناك مَنْ يستمع القرآن وهو لاه منصرف ، ومَنْ يستمع القرآن ويستهزىء به ، وقد حكى القرآن عن هؤلاء :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ..(١٦) ﴾ [محمد] يقولون هذا استهانة وسُخْرية من القرآن .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ..(٤٤) ﴾ [فصلت] فالقرآن واحد كما قلنا ، لكن المستقبل مختلف .

لذلك رأينا الوليد[1] لما هدأت نفسه وأحب أنْ يستمع ، وأحسن استقبال

(١) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو عبد شمس ، من قضاة العرب فى الجاهلية ومن زعماء قريش ومن زنادقتها ، ولد ٩٥ قبل الهجرة ، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاوم دعوته ، هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر ودفن بالحجون ، وهو والد خالد بن الوليد . [الأعلام للزركلى ٨/١٢٢] .

كلام الله حَنَّ إليه وانفعل به ، فأثَّر فيه القرآن وهو ما يزال على الكفر .

فقال : والله لقد سمعتُ كلاماً ما هو بسحر ، ولا بشعر ، ولا كهانة ، والله إنَّ أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه[1] .

وتأمل أول تأثير للقرآن فى نفس هذا الرجل وما يزال على كفره ، وكيف عبَّر عنه هذا التعبير الرائع الجميل : إن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق .

فشبَّه القرآن بالشجرة المثمرة من أعلى ، والخضراء النضرة من أسفل ، والمعروف أن الشجرة تثمر من أعلاها ، فى حين يكون أسفلها ورقاً جافاً يتساقط ، أما القرآن فهو خير كله ، عطاء كله فى كل حرف من حروفه .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا صَرْصَرًا[2] فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ
نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ[3] ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾

---

(١) أورده ابن كثير فى السيرة النبوية (١/٤٩٩) والشامى فى سبل الهدى والرشاد (٩/٤٠٨) . وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣٨٣١) والبيهقى فى دلائل النبوة (٥٠٥) وكذا فى شعب الإيمان (١٢٦) من حديث ابن عباس .

(٢) الريح الصرصر فيه ثلاثة أوجه :
أحدها : باردة . قاله قتادة والضحاك .
الثانى : شديدة الهبوب . قاله ابن زيد .
الثالث : التى يُسمع لهبوبها صوت . [ذكر هذه الأقوال الماوردى فى تفسيره] .

(٣) قال ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية : « معنى الكلام كأنهم أصول نخل منقعر أى منقلع .. وقال مقاتل : شبههم حين وقعوا من شدة العذاب بالنخل الساقطة التى لا رؤوس لها ، وإنما شبههم بالنخل لطولهم » .

القرآن يُعدِّد للمكذبين برسول الله والمعادين لدعوته ، يُعدِّد لهم الأمم المكذِّبة على مرِّ التاريخ كلمهم عن قوم نوح وما حلَّ بهم ، ثم يُحدِّثهم عن قوم عاد ماذا فعل بهم لما كذَّبوا رسولهم هوداً عليه السلام .

وعاد هى التى فى الأحقاف جنوباً ، وكانت لهم حضارة عظيمة قال الله عنها : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر] إذن : هى أعظم من حضارة الفراعنة فى مصر ، والحضارة الفرعونية أذهلت العالم كله ، ومع التقدم العلمى الآن لم يصلوا إلى أسرار هذه الحضارة ، وما تزال الأهرامات عجائب لم تُعرف أسرارها حتى الآن .

وحضارة عاد كانت أعظم منها ، لكنها مطمورة تحت التراب لأنها بيئة صحراوية تكثر فيها العواصف والرمال فطمرها مرور الزمان عليها ، لذلك قالوا عن رمال الأحقاف أنها يمكن أنْ تطمر قافلة كاملة إذا هبَّتْ عليها العاصفة ، لذلك نجد آثار هذه الأمة التى أهلكها الله تحت طبقات الثرى .

وقال فى عاد كما قال فى قوم نوح ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾ [القمر]

فالعذاب لم يأتهم فجأة ، ولم يأخذهم ربهم على غرَّة إنما قدَّم لهم الإنذار على يد نبيهم هود عليه السلام ، لكنهم لم ينتفعوا به. ومن أنذر فقد أعذر .

ثم يبين سبحانه كيف أهلكهم ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ [القمر] الصرصر هى الريح شديدة البرودة ، يصاحبها صوت مزعج يزلزلهم .

وفى آية أخرى سمَّى هذا الصوت (الصيحة) والصيحة تكون مصحوبة إما بريح شديدة تدمر أو نار حامية تحرق ﴿ فِي يَوْمِ

نَحْسٍ ..(١٩)﴾ [القمر] يوم شؤم ودمار ﴿مُّسْتَمِرٍّ (١٩)﴾ [القمر] أى : استمر عليهم مدة قدَّرها الله حتى أهلكهم عن آخرهم .

ومعنى ﴿تَنزِعُ النَّاسَ ..(٢٠)﴾ [القمر] أى : أن هذه الريح الشديدة كانت تنزعهم من أماكنهم وتقتلعهم ، وترمى بهم ، وتطيح بمتاعهم .

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠)﴾ [القمر] تعرفون أصل النخلة حينما يُقطع جريدها ، ثم تُجز من الأرض وتقتلع ، فكأن الرِّيح لشدتها تقتلعهم من أصولهم ، وتأخذهم من بيوتهم ، وترمى بهم كما تُقتلع النخلة من جذرها .

ثم يكرر : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (٢١)﴾ [القمر] كررها ليُكرر العظَة ، ولأن العذاب النازل بهؤلاء متنوع يأخذ كلاً منهم بما شاء من ألوان عذابه وانتقامه ، وهذه من طلاقة القدرة فى الجزاء ، فلله تعالى طلاقة قدرة فى النعمة ، وكذلك له سبحانه طلاقة قدرة فى النقمة .

قال سبحانه : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[1] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت]

ثم يعيد السياق ويكرر أيضاً :

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢)﴾

ليؤكد على هذه الحقيقة ، وهى تيسير القرآن ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢)﴾ [القمر] كأنه يلتمس واحداً يتعظ ، ياناس ألاَ من مُتذكر معتبر بما فى هذا القرآن من آيات ؟

(١) حاصباً : حصبه قذفه بالحصى . والحاصب إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا
نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَءُلْقِىَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ
مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ
الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦)﴾

يُحدثنا الحق سبحانه عن قوم سيدنا صالح عليه السلام وهم ثمود ، ومساكنهم هى مدائن صالح قريباً من المدينة ، وقال ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣)﴾ [القمر] جمع نذير وهو الرسول ، وقد خاطب الله نبيه بقوله : ﴿إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣)﴾ [فاطر] ما أنت إلا نذير .

وجاء بصيغة الجمع هذه لأن الذى يكذب برسوله كأنه كذّب بجميع الرسل ، لأن هدفهم واحد ، ومنهجهم واحد ، ينتهى إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

واقرأ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ .. (٨١)﴾ [آل عمران] فالرسول عليه أنْ يوصى قومه إذا جاءهم رسول جديد بمثل المنهج الذى جاء به - يوصى قومه أن يتبعوه ، وأنْ يؤمنوا به وينصروه .

فالعادة أن القوم يتعصّبون لرسولهم ، فيعلمهم أن الهدف واحد والمنهج واحد ، فإنْ جاءكم مَنْ هذه صفته فاتبعوه ولا تصادموه ، فكلنا نأخذ من مشكاة واحدة .

ثم يذكر سبحانه صيغة التكذيب التى نطق بها القوم ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا .. (٢٤)﴾ [القمر] وهذا القول شبيه بقول قريش : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

فثمود تستنكر أنْ يتبعوا رجلاً واحداً منهم هو سيدنا صالح وهو بشر ،

فاعترضوا على كونه بشراً وعلى كونه رجلاً واحداً ، إذن : ماذا تريدون ؟ يريدون جماعة تتعاون فى حمل هذه الرسالة بحيث يعدل بعضهم لبعض .

والواقع أن النبى لا يأتى بشىء من عنده ولا من عند غيره ، إنما يأتى بوحى من الله ، وشبهة البشرية فى النبى أو الرسول مردود عليها فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام] ثم إن الملك لا تحدث به القدوة للبشر .

وقولهم : ﴿ إِنَّا إِذًا .. (٢٤) ﴾ [القمر] أى : إذا اتبعنا واحداً ﴿ لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) ﴾ [القمر] السُّعُر يُطلق على الجنون ، ويُطلَق على سعير النار[1] .

وقولهم : ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا .. (٢٥) ﴾ [القمر] استفهام يقصدون منه التعجب والاستنكار لهذا ، فكيف يُلقى إليه الذكر وتنزل عليه الرسالة من دوننا ، وهم بهذا القول يسوُّون بينهم وبين نبى الله صالح ، فالنبوة ليست مجالاً للمساواة ، لأن الله تعالى يصطفى لها مَنْ يشاء من عباده ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤) ﴾ [الأنعام] ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) ﴾ [الحج]

ثم يتعدَّونَ مرحلة الاستنكار إلى الاتهام صراحةً بالكذب ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) ﴾ [القمر] والكذَّاب هو الذى يقول خلاف الواقع ، وهذا اتهام باطل لأن سيدنا صالحاً لم يخبرهم بشىء مخالف للواقع أبداً .

﴿ أَشِرٌ (٢٥) ﴾ [القمر] شديد البطر والتكبُّر والتعالى ، يعنى : أنه لم يقنع بما هو فيه ، ولم يرضَ بما عنده ، بل يريد أنْ يستعلى علينا ،

---

(١) سُعُر : السُّعر الجنون . وبه فسر الفارسى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) ﴾ [القمر] قال : لأنهم إذا كانوا فى النار لم يكونوا فى ضلال لأنه قد كشف لهم ، وإنما وصف حالهم فى الدنيا ، يذهب إلى أن السُّعر هنا ليس جمع سعير الذى هو النار . [لسان العرب – مادة : سعر] .

ويجعل نفسه رئيساً فى قومه ، والجمع تابع له .

فيردُّ الله عليهم : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا .. (٢٦) ﴾ [القمر] أى : يوم القيامة والجزاء ، وكلمة الغد تطلق على المستقبل القريب ، وهو اليوم الذى يلى يومك الحاضر ، لكنه قال عن القيامة غداً ، لماذا ؟

لأنها فى الواقع قريبة منا بالفعل ، فليس بينك وبينها إلا أنْ تموت .

لذلك قال عنها : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ (٥٧) ﴾ [النجم] وقال : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) ﴾ [الأنبياء] وقال هنا : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. (١) ﴾ [القمر]

﴿ مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ (٢٦) ﴾ [القمر] وهذا تهديد لهم وردّ للتهمة عليهم ، بل أنتم الكذابون وأنتم الأشرون ، لأنكم كرهتم صالحاً وحسدتموه ، لأن ربه اختاره للنبوة من بينكم ، وهذا فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء ، فكان ينبغى عليكم أنْ تُصدِّقوه لا أنْ تُصادموه .

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ
قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ[1] (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى[2] فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ[3] الْمُحْتَظِرِ (٣١) ﴾

---

(١) محتضر : أى كل نصيب من الماء يحضره صاحب نوبته ، أو كل وقت للشرب يحضره صاحبه فى موعده المحدد له ، وكان النبى صالح قد طالب قومه بأن يتركوا لناقته يوماً تشرب فيه ولهم يوم آخر معلوم يشربون فيه فلم يرعوا ذلك وعقروا الناقة فغضب الله عليهم وسوّى بهم الأرض وأهلكهم .

(٢) فتعاطى : أى تصاول على الناقة وهى واقفة وتناولها فعقرها ونحرها ، ويتضمن معنى تجرّأ عليها واعتدى عليها . [القاموس القويم ٢/٢٦] .

(٣) هشيم المحتظر : الهشيم ما يبس من الورق وتكسَّر وتحطم ، فكانوا كالهشيم الذى يجمعه صاحب الحظيرة أى قد بلغ الغاية فى اليبس حتى بلغ أن يُجمع . [لسان العرب – مادة هشم] . والمحتظِر (بكسر الظاء) الذى يعمل الحظيرة . والمحتظَر (بفتح الظاء) أى الحظيرة .

الناقة هى الآية التى جاء بها سيدنا صالح ، وهى آية ظاهرة مشاهدة اقترحوها بأنفسهم ، فقالوا لنبيهم : أخرج لنا ناقة من هذه الصخرة[1] ، وبالفعل خرجتْ الناقة من الصخرة بشكل معجز .

فقال تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ..(٢٧) ﴾ [القمر] أى : اختبار وامتحان لهم ، أيؤمنون بالله أم يكفرون ؟ ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ ..(٢٧) ﴾ [القمر] انظر ماذا يكون ردّ فعلهم ؟ ﴿ وَاصْطَبِرْ (٢٧) ﴾ [القمر] اصبر على عنادهم ، واصبر على أذاهم وتكذيبهم ولا تتعجل فى دعوتهم .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ .. (٢٨) ﴾ [القمر] وما دام أنها معجزة فلها وضع خاص فى طعامها وشرابها ، وقد أوضح لهم أن الماء الذى يشربون منه قسمة بينها وبينهم .

﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) ﴾ [القمر] كل منهما يحضر مَشْربه ويلتزم بدوره ، فهم يشربون فى يومهم ، ولا يقربون الماء فى يوم شُرْبها ، ثم يوم لا يشربون من الماء تعطيهم الناقة من لبنها ما يكفيهم ويُغنيهم عن الماء فى هذا اليوم .

وفى سورة الأعراف تحدثتْ الآيات عن أكلها : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) ﴾ [الأعراف]

لكنهم ما فهموا هذا التحذير ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ .. (٧٣) ﴾ [الأعراف]

(١) قال ابن كثير فى تفسير آية الأعراف ٧٣ : « كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه أن تخرج لهم من صخرة صماء عيّنوها بأنفسهم ، وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر ، يقال لها الكاتبة فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض » .

وما صدقوا بهذه الآية فتواطئوا على قتل الناقة وتمالئوا على ذلك ، فقام رجل أحمق منهم شرير طائش ، كما نقول (بلطجى) قالوا عنه : أحيمر ثمود ، واسمه كما ذكر المفسّرون قيدار بن سالف .

والدليل على أنه أحد سفهاء القوم وأشقيائهم أنه لما أراد عقر الناقة لم يكُنْ معه شىء يعقرها به ، فخطف سيفاً من أحدهم فعقرها ، وحملوا جميعاً تبعة هذا الفعل لأنهم اتفقوا عليه وتعاونوا .

فلما فعلوا ذلك استوجبوا أنْ ينزل بهم العذاب ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ..(٣١) ﴾ [القمر] الصيحة هى الصوت المزعج المدمر . قالوا[1] : صيحة صاحها جبريل فكانت كافية لإهلاكهم وإبادتهم .

﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) ﴾ [القمر] شبَّههم الحق سبحانه بالهشيم ، وهو القشّ المفتّت الذى تذروه الرياح ﴿ الْمُحْتَظِرِ (٣١) ﴾ [القمر] هو الفلاح[2] الذى يصنع بهذا القش حظيرة لمواشيه ، إذن : لما حلَّت بهم هذه الصيحة أخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، وجعلتهم فتاتاً كالهشيم .

ثم تكرر الآيات :

(١) قال الطبرى فى تفسير سورة هود آية ٩٤ : « قيل : إن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة أخرجت أرواحهم من أجسامهم »
وقد ذكر الماوردى فى تفسيره ثلاثة أقوال :
أحدهما : أن جبريل عليه السلام صاح بهم .
الثانى : أن الله تعالى أحدثها فى حيوان صاح بهم .
الثالث : أن الله أحدثها من غير حيوان .

(٢) فى الصحاح : المحتظر الذى يعمل الحظيرة . وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية (المحتظَر) بفتح الظاء أرادوا الحظيرة . وقرأ الباقون بكسر (الظاء) أرادوا صاحب الحظيرة .. فمن كسره جعله الفاعل ، ومن فتحه جعله المفعول به . [تفسير القرطبى ٩ / ٦٥٤٢] .

﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٣٢ ﴾

نلاحظ أن السياق يذكر هذه الآية ويأتى بذكر القرآن بعد كل حديث عن أمة من الأمم المكذبة ، ذلك لأن القرآن هو الكتاب الخاتم والمهيمن على كلِّ الكتب قبله كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ..(٤٨) ﴾ [المائدة]

﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ
حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ(١) ٣٤ نِّعۡمَةٗ
مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥ ﴾

بعد أنْ حدَّثتنا الآيات عن الأمم المكذِّبة للرسل بداية من قوم نوح ثم عاد ثم ثمود تُحدِّثنا هنا عن إخوانهم من قوم لوط ، فهذه الأمم جمعهم شيء واحد هو تكذيب رسل الله ، لذلك نلاحظ على الأداء القرآنى أنه يقول فى كل أمة من هذه الأمم أنها كذبت ﴿ بِالنُّذُرِ (٣٣) ﴾ [القمر]

وقلنا : النُّذر جمع نذير وهو الرسول لأن الذى يُكذِّب برسول واحد كأنه كذَّب بكل رسل الله ، لأن هدفهم واحد ومنهجهم واحد والآيات هنا تنقلنا مباشرة إلى مشهد العقاب والانتقام .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ..(٣٤) ﴾ [القمر] الحاصب هى ريح قوية

(١) السَّحَر : بفتح السين والحاء ، الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر وجمعه أسحار . [القاموس القويم ١/٣٠٥] .

تهبُّ عليهم وترميهم بالحصباء ، وهى حجارة صغيرة مُهلكة أمطرهم الله بها .

﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) ﴾ [القمر] فلم يستثْنِ من هذا العذاب إلا آل لوط ، أى أهله والمؤمنين به ﴿ بِسَحَرٍ (٣٤) ﴾ [القمر] أى : فى وقت السحر ، وهو آخر الليل قبيل الفجر .

﴿ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ..(٣٥) ﴾ [القمر] أى : نجاة لوط وأهله والمؤمنين به ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) ﴾ [القمر]

﴿ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ(١) بِٱلنُّذُرِ ٣٦
وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ
عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ
مُّسۡتَقِرّٞ ٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٩ وَلَقَدۡ
يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٤٠ ﴾

أى : لوط عليه السلام ﴿ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا .. (٣٦) ﴾ [القمر] حذَّرهم عذابنا وأخْذتنا القوية لمن كذَّب بالرسل ، وفى آيات أخرى تفصيل لهذه القصة وبيانٌ لمناقشة سيدنا لوط لقومه : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) ﴾ [هود]

(١) تماروا : تجادلوا وتشككوا فيه ، ويتضمن معنى التكذيب . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) ﴾ [القمر] أى : تشككوا وكذبوا . [القاموس القويم ٢/٢٢٤] .

لكنهم كذَّبوا لوطاً ﴿ فَتَمَارَوْاْ بِالنُّذُرِ (٣٦) ﴾ [القمر] لما أنذرهم بطشتنا تمادوا أى : شككوا فيها وكذَّبوا بها ، ثم تمادوا فى الفاحشة التى يرتكبونها ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ .. (٣٧) ﴾ [القمر] أى : ضيوف سيدنا لوط عليه السلام .

وكلمة ضيف تُطلق على المفرد والجمع معاً ، لأن الضيف إذا جاءك واحد أو اثنان أو جماعة فإياك أنْ تميز ضيفاً على ضيف ، بل تجعلهم كضيف واحد ، لذلك تحدث عنهم السياق القرآنى فى أكثر من موضع بصيغة المفرد .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) ﴾ [الحجر] وقال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) ﴾ [الذاريات] وضيف إبراهيم لم يكُنْ واحداً ، بل كانوا جماعة .

ومعنى ﴿ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ .. (٣٧) ﴾ [القمر] طلبوا منه أنْ يترك لهم ضيوفه يفعلون بهم ما يريدون من الفاحشة التى فشتْ فيهم ، لأنهم رأوا أمامهم أناساً على أجمل ما يكون ، فأول ما يخطر ببالهم هو هذا الفعل الفاضح الذى يفعلونه .

ولا يعلمون أن هؤلاء ليسوا بشراً بل هم ملائكة ، لذلك تدخلت السماء فوراً تدافع عن لوط عليه السلام وتحفظ كرامته .

﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ .. (٣٧) ﴾ [القمر] قالوا : أعماهم الله وأخذ أبصارهم ، وقالوا : بل طمس الله عيونهم فى وجوههم كأنْ لم تكُنْ وليس لها أثر فى وجوههم .

﴿ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٧) ﴾ [القمر] نلاحظ أن السياق فى الحديث عن الأمم السابقة كان يختم الحديث بقوله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ

(٣٠) ﴾ [القمر] أما هنا مع قوم لوط فقد وجّه الحديث إليهم هم ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٧) ﴾ [القمر] أى : ذوقوا ما تستحقونه من العذاب ، وكلمة ذوقوا فيها سخرية منهم واستهزاء بهم ، هذا لِكبَر جرمهم وبشاعة فعلتهم .

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) ﴾ [القمر] صبَّحهم العذاب أى نزل عليهم فى الصباح الباكر ، كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات] ولنزول العذاب على المكذِّبين فى الصباح خاصة لحكمة ، لأن الصباح الباكر غالباً يكون الناس نائمين أو قائمين من نومهم .

وحين ينزل العذاب فى هذا الوقت يفاجئهم فلا يستطيعون تفادى ما ينزل بهم ، وهذا أنكى وأشدّ عليهم ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ (٣٧) ﴾ [القمر] وأيضاً يأتى بذكر القرآن : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾ [القمر]

لأن كل قصة من قصص هؤلاء المكذِّبين فيها عبرة ، فيكرر مع كل قصة ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠) ﴾ [القمر] أى : متعظ معتبر من هؤلاء .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا
فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) ﴾

يحدثنا هنا عن جماعة أخرى من المكذِّبين هم قوم فرعون ، فقد كذَّبوا سيدنا موسى عليه السلام وكذَّبوا ما جاء به من الآيات البينات ، وهى الآيات التسع التى جاء بها : العصا واليد .. وغيرها .

فكانت النتيجة ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)﴾ [القمر] والأخْذ فى الأصل الجذب بشدة ، فالأخْذة إذن تتناسب وقوة الآخذ ، والأخذة هذه لله تعالى فهى شدة ، ثم أضيفتْ إلى صفتين لله تعالى ﴿عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)﴾ [القمر] العزيز هو الذى يغلب ولا يُغلب ، والمقتدر هو الذى يملك القدرة المطلقة التى لا تنفد .

وقلنا : إن مهمة موسى عليه السلام مع فرعون أنْ ينقذ بنى إسرائيل من قبضته ، ومن العذاب الذى يتعرضون له من آل فرعون ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ..(٤٧)﴾ [طه]

كانت هذه هى المهمة الأساسية ، ثم جاءتْ دعوة موسى لفرعون على هامش هذه المهمة ، فأخذ يدعوه إلى الله ويشرح له العقائد وأمور الدين .

وسبب العداء بين الفراعنة وبنى إسرائيل أن ملوك الهكسوس(١) لما دخلوا مصر عاونهم بنو إسرائيل وساعدوهم وأعانوهم على الفراعنة ، وكان بنو إسرائيل فى هذا الوقت هم مَنْ تبقى من قوم سيدنا يوسف فى مصر .

فلما تغلب الفراعنة على الهكسوس وطردوهم من مصر رجعوا إلى بنى إسرائيل بالمعاملة السيئة وساموهم سوء العذاب ، فأرسل الله تعالى سيدنا موسى لا ليدعو فرعون وقومه ، بل ليستخلص بنى إسرائيل من هذا العذاب .

---

(١) الهكسوس : كلمة من المصرية القديمة تعنى الملوك الرعاة (هكاسوس) وهو شعب سامى بدوى غزا أرض شمال مصر فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد وحكمها لأكثر من ٢٥٠ سنة ، حكموا الدلتا حكماً مباشراً ، أما مصر العليا (طيبة) وبلاد النوبة فكانتا تخضعان لهم اسمياً وتؤديان نوعاً من الجزية السنوية طيلة قرن ونصف إلى ملك الهكسوس فى عاصمته زوان . [موسوعة ويكيبيديا] .

وتعرفون قصة خروج سيدنا موسى ببنى إسرائيل ، وأن فرعون تبعه وجنوده ، وما كان من حادثة انشقاق البحر ونجاة موسى وبنى إسرائيل بمعجزة بينة واضحة ، لما ضرب البحر بالعصا فانفلق فكان كل فرْق كالطود(١) العظيم .

قالوا : أنهم لما نجوا من فرعون ونجوا من الغرق مرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا : ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. (١٣٨)﴾ [الأعراف] قال المفسرون : أنهم طلبوا من موسى هذا المطلب وما تزال أقدامهم مبللة من عبورهم البحر(٢) .

إذن : كذَّبوا بالآيات فى وقت كانوا فيه أجدر وأحق أن يؤمنوا بالله الذى أنجاهم وأنقذهم من العذاب .

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ(٣) (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦)﴾

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالى . وفى حديث عائشة تصف أباها أبا بكر الصديق : ذاك طود منيف أى جبل عالٍ . [لسان العرب مادة : طود] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢)﴾ [الأنفال] أن رجلاً يهودياً لقى ابن عباس فقال اليهودى : ممن أنت ؟ قال : من قريش . فقال اليهودى : أنت من القوم الذين قالوا : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ .. (٣٢)﴾ [الأنفال] فهلا عليهم أن يقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له إن هؤلاء قوم يجهلون . قال ابن عباس : وأنت يا إسرائيلى من القوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذى أغرق فيه فرعون وقومه وأنجى موسى وقومه حتى قالوا : (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فقال لهم موسى : ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)﴾ [الأعراف] فأطرق اليهودى مفحماً » .

(٣) الزبر : زبر الكتاب كتبه فهو مزبور وزبور أى مكتوب . قال تعالى : ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣)﴾ [النساء] أى كتاباً وجمعه زبر . [القاموس القويم ١/٢٨٣] .

بعد أنْ قصّ علينا القرآن قصص الأمم المكذِّبة للرسل بداية من قوم نوح ، ثم عاد قوم هود ، ثم ثمود قوم صالح ، ثم قوم لوط يعود إلى كفار مكة الذين كذّبوا بمحمد وعاندوه ووقفوا فى وجه دعوته ، عاد ليقول لهم : هذا موكب الرسالات على مرِّ العصور قبلكم وحال المكذبين الذين سبقوكم .

﴿أَكُفَّارُكُمْ .. ﴿٤٣﴾﴾ [القمر] كفار مكة ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ .. ﴿٤٣﴾﴾ [القمر] خير من هؤلاء المكذبين الذين نزل بهم انتقام الله وعذابه ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر] أم أعطاكم الله عهداً أنه لن يعذبكم كما عذبهم ، ويترككم بدون عقاب .

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [القمر] أى : جميع المكذبين سيُكتب لهم النصر والغلبة ، فهم إذن مغترُّون بجمعهم واجتماعهم على الباطل ، وأن هذا الجمع سيضمن لهم الغلبة .

إذن : القرآن نزل يناقش كفار مكة ويُقنعهم ، فخيَّرهم بين هذه الثلاثة الأمور : أأنتم خيرٌ من المكذِّبين قبلكم الذين أهلكهم الله ؟ أم عندكم براءة وعهد فى الكتب السابقة أن الله لن يعذبكم ؟ أم أنَّ جمعكم وكثرتكم ستغنى عنكم ؟

وهذه الثلاثة مردود عليها بالنفى ، فليستْ لكم خيرية على سابقيكم ، وليستْ لكم براءة من العذاب ، لأن الله تعالى لم يُعْطِ براءة لأحد ، ولم يُرخِّص فى تكذيب رسله .

بقيتْ الثالثة ، فقال فيها ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] هذا الجمع الذى تغترون به سيُهزم[1] .

(١) قال ابن عباس : كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين . [قاله القرطبى فى تفسيره ٩/٦٥٤٦] .

ونزلت هذه الآية فى وقت كان الكفار أشدَّ ما يكونون على المسلمين ، والمسلمون قلة لا يستطيعون حماية أنفسهم ، لذلك عندما سمع سيدنا عمر هذه الآية قال : أىُّ جمع هذا الذى سيُهزم ونحن عاجزون عن حماية أنفسنا وتأمين حياتنا[1] ؟ فلما حدثتْ غزوة بدر وهزِم الجمع فعلاً قال : نعم صدق الله : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر]

لذلك ساعة ترى القرآن يُسجِّل على نفسه هذه الحقائق بصيغة المستقبل فاعلم أنها حق ، ولا بد أنْ تحدث ، لأن القرآن يُسجلها ويحفظها ، والعادة أن الإنسان يحفظ ما له لا ما عليه ، مثل (الكمبيالة) يحفظها صاحبها لا مَنْ أخذت عليه (الكمبيالة) .

فالقرآن هو الذى حفظ ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ .. ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] ولا يمكن أنْ تأتى الأحداث بما ينقض هذا الحكم ، كما قال سبحانه ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات] فطالما توفرتْ الجندية لله تعالى توفر لها النصر ، فإنْ خالفوا شروط الجندية خالفهم النصر ، كما رأينا فى أُحُد لما خالفوا أمر رسول الله[2] .

﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] يفرون منهزمين ، وهذا فى الدنيا ، أما عقاب الآخرة فشىء آخر ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ .. ﴿٤٦﴾﴾ [القمر]

(١) أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أنزل الله على نبيه بمكة قبل يوم بدر ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله ﷺ فى آثارهم مصلتا بالسيف وهو يقول : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] وكانت ليوم بدر . ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير الآية .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٧٣٧) وأبو داود فى سننه (٢٢٨٨) وأحمد فى مسنده (١٧٨٥٣ ، ١٧٨٥٩) من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه .

القيامة موعد الجزاء والعقاب ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر] نعم أدْهى أشد داهية وأفظع من عقاب الدنيا .

﴿وأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر] أشد ألماً ومرارة مما عانوه فى الدنيا ، لأن داهية الدنيا لها نهاية ومصيبتها تُجبر ، أما الآخرة فهى الطامة الكبرى التى ليس لها نهاية ولا جبر .

والعجيب هنا أن سيدنا رسول الله وقف فى الميدان قبل الحرب وأخذ يشير بعصا بيده ويقول : هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان يقصد صناديد[(١)] قريش ، وفعلاً قُتل هؤلاء فى نفس الأماكن التى أشار إليها سيدنا رسول الله ، انظر إلى هذه الثقة فى نصر الله لرسوله ، فهو يُخبر بهذا ولا يخاف أنْ يُكذِّبه واقع المعركة وهى كَرٌّ وفَرٌّ ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يتوقع ما يحدث بهذا التفصيل وبهذه الدقة . لكنه إخبار مَنْ لا ينطق عن الهوى .

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾

نعم ﴿فِى ضَلالٍ ..﴿٤٧﴾﴾ [القمر] لأنهم عرفوا الحق فلم يتبعوه ﴿وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [القمر] السُّعُر يأتى على معنيين : إما نار مُسعرة

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٣٣٠ ، ٥١٢٠) وأبو داود فى سننه (٢٣٠٦) والنسائى فى سننه (٢٠٤٧) وأحمد فى مسنده (١٧٧ ، ١٢٨١٩ ، ١٣٢٠٧) قال : إن رسول الله ﷺ كان يُرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله . فقال عمر : فوالذى بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التى حد رسول الله ﷺ ، فجُعلوا فى بئر بعضهم على بعض » الحديث .

مشتعلة أو السُّعُر يعنى الجنون ، والآية التى بعدها ترجح أن تكون بمعنى النار المستعرة .

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ..﴿٤٨﴾﴾ [القمر] أى : يوم القيامة يُسحب هؤلاء المجرمون على وجوههم فى النار ، والوجه أكرم ما فى الإنسان . لذلك يحاول الحفاظ عليه ويُجنِّبه الأذى ، فهو عنوانه وأعزُّ ما فيه ترتفع إليه اليدان تلقائياً ، ودون أنْ تفكر لتحمى وجهك أولاً لو مرَّتْ مثلاً بجانبك سيارة و (طرطشت) عليك الماء .

إذن : منتهى الذلة والإهانة فى هذا الموقف يوم يُسحبون فى النار على وجوههم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر] كلمة ذوقوا فيها استهزاء بهم وسخرية منهم ، وقال ﴿مَسَّ .. ﴿٤٨﴾﴾ [القمر] لأن مسّها كاف لأنْ يذيقهم العذاب والإهانة ﴿سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر] اسم من أسماء النار . وقيل : وادٍ فى جهنم .

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾

الضمير فى ﴿إِنَّا .. ﴿٤٩﴾﴾ [القمر] للحق سبحانه وتعالى ﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر] كل شىء فى الكون صغيراً أو كبيراً من الذرة إلى المجرة ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر] بحساب دقيق وقدر مقدور من الله تعالى القادر على إنفاذ ما قدّره ، لأنه سبحانه إله

واحدٌ لا شريكَ له ، وليس هناك قوة تغير الذى قدَّره وقضاه .

لذلك قلنا فى شهادة أن لا إله إلا الله : أن هذه الشهادة قبل أنْ يشهد بها الخَلْق شهد بها الخالق لنفسه ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ..(١٨)﴾ [آل عمران] ولولا هذه الشهادة لم يكُنْ فى جراة أن يقول للشىء : كن فيكون ، لأنه سبحانه وتعالى لو كان له شريك لكان بإمكانه أنْ يقول للشىء : لا تكُنْ .

إذن : الخَلْق كله لله وحده والأمر له وحده ، لذلك قال سبحانه عن الأرض وهى خَلْق من خَلْق الله : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢)﴾ [الانشقاق] يعنى : سمعتْ وأنصتت لتلقى الأمر .

وفى قصة أم موسى قال لها الحق سبحانه : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ (١) وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص]

الحق يُطمئن أم موسى ويُعطيها هذا الوعد أنه سينجو ، بل وسيكون من رسل الله ، لأن البحر بحره وخلقه يأتمر بأمره أنْ يحفظ هو الوليد ، وأنْ يُلقى به فى مكان كذا .

إذن : الحق سبحانه شهد لنفسه أنه لا إله غيره ، ثم قضى قضاءه فى كونه قضاءَ مَنْ يرى أنه لا إله غيره ، ولا أحدَ ينقض أمره ، وبعد أنْ قالها سبحانه لم يكذبها الواقع أبداً .

---

(١) قال البغوى فى تفسيره : اليم البحر . وأراد هنا النيل . قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة يمم) : « يقع اسم اليم على ما كان ماؤه ملحاً زعاقاً وعلى النهر الكبير العذب الماء » .

لذلك قلنا : أول دليل على الإيمان بالله أنه تعالى هو الذى أخبر أنه وحده الخالق ، ولم يقُمْ له منازع ، لذلك قال سبحانه : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الإسراء]

وقوله سبحانه : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)﴾ [القمر] أى : أننا لا نكرر الأمر لأن أمرنا نافذ ، فيصدر مرة واحدة ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)﴾ [النحل]

هكذا كلمة واحدة من حرفين (كن) فيستجيب على الفور (فيكون) والفاء للترتيب والتعقيب . وقال سبحانه ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ..(٢١)﴾ [مريم] وقال : ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾ [إبراهيم]

وتأمل هنا سرعة الاستجابة فى ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)﴾ [القمر] واللمح هو الرؤية الخاطفة التى ليس لها ثبوت ، والحق سبحانه يشبه سرعة الاستجابة بأسرع شىء وأعجل شىء يعلمه الإنسان وهو لمح البصر .

فهذه الأشياء مخلوقة لله وتعرف خالقها وتسرع بالاستجابة لأمره ولا يشذ منها شىء لأنها مُستجيبة طائعة بالفطرة ، قال تعالى :﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ (١) فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ
فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣)﴾

---

(١) أشياعكم : أى أمثالكم من الأمم الماضية ومن كان مذهبه مذهبهم . [لسان العرب – مادة : شيع] .

الخطابُ لكفار مكة ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ..(٥١) ﴾ [القمر] أهلكنا أمثالكم ومَنْ على ملتكم من العناد والتكذيب ومصادمة الرسل على مرِّ عصور الرسالات.

﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) ﴾ [القمر] متعظ معتبر من دروس التاريخ ومن سنة الله فى الرسالات .

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ ..(٥٢) ﴾ [القمر] من التكذيب ﴿ فِي الزُّبُرِ (٥٢) ﴾ [القمر] مسجل فى الكتب مسطور محفوظ ليكون حجة على صاحبه ، قال تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾ [ق]

وإذا كنا الآن نشاهد الأحداث بالصوت والصورة وبكل تفاصيلها ، فلم نستبعد ذلك على قدرة الله ؟ فالعقل الذى ينظر فى التطور العلمى و(التكنولوجى) فى مجال تسجيل الصوت والصورة لا بدّ أنْ يصل إلى الإيمان بالحفظة الذين يسجلون الأعمال .

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) ﴾ [القمر] مسطور ومكتوب فى اللوح المحفوظ .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (١) (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾

(١) ذكر هنا (نهر) بالمفرد وهو يقصد الجمع أى أنهار الماء والخمر والعسل واللبن ودليله قوله تعالى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٧) ﴾ [الفتح] . وقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ..(١٥) ﴾ [محمد] وظاهر هذه الآية أنها ليست أربعة أنهار ، بل هى أنهار من كل صنف .

وقال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٤٩) : « وقرأ أبو مجلز وأبو نهيك والأعرج وطلحة بن مصرف وقتادة (ونُهُر) بضمتين » .

هذه هى خلاصة الأمر ، والغاية التى ينبغى أنْ نسعى إليها ، وهى تحقيق التقوى التى تؤدى بنا إلى جنات ونهر . فلم يقل جنة بل للمتقى جنات ، وكذلك ﴿ وَنَهَرٍ (٥٤) ﴾ [القمر] أى : أنهار .

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ .. (٥٥) ﴾ [القمر] مقعد مكان القعود أو مجلس صدق ، لأن الإنسان قد يجلس مجلساً بالصدق أى مجلس خير هو أهْل له ويستحقه ، وآخر يجلس مجلس شر مجلساً بالباطل ، لا يستحقه وليس أهلاً له .

فالمؤمن الذى حقق التقوى أهْلٌ لأنْ يجلس هذا المجلس ويسعد به ، لذلك نجد حينما نستقصى كلمة الصدق هذه فى القرآن نجدها مطلباً ودعاء لأهل الإيمان ، اقرأ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) ﴾ [الإسراء]

فإذا أردتَ أنْ تدخل فى عمل فاطلب من الله وادْعه أنْ يُدخلك فيه مدخلاً صحيحاً نافعاً ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ..(٨٠) ﴾ [الإسراء] بحيث يُعينك عليه فتؤديه بحقٍّ وتؤديه بإخلاص ، وتؤديه على الصورة التى يرضاها الله ورسوله .

كذلك فى الخروج من العمل ، ادْعُ الله أنْ يُخرجك منه مخرج صدق ، وأنْ يُتمه لك على الصدق الذى بدأتَ به .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) ﴾ [الشعراء] اللسان هنا يُراد به الذكر والمدح ، فسيدنا إبراهيم عليه السلام يدعو الله أنْ يجعل الثناء عليه ، ومدحه بالصدق وبالحق لا بالباطل ، يريد أنْ يكون أهلاً للمدح لا أنْ يمدح كذباً أو نفاقاً يقول : اجعلهم يمدحوننى صدقاً لا كذب ، وبواقع ما عندى من

الخير الذى تتناقله عنى الأجيال .

إذن : مَنْ يحرص على الصدق فى الدخول ، والصدق فى الخروج ، والصدق فى المدح والثناء ، مَنْ يحرص على الصدق فى حياته ينتهى به إلى الصدق فى الآخرة ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ ..(٥٥)﴾ [القمر] أين ؟ ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر]

ووالله لو كان هذا المقعد عند ملك من ملوك الدنيا لكان عزاً وشرفاً ، فما بالك إذا كان هذا المقعد عند الله المليك : أى الذى يملك الملوك وما تملك الملوك .

اللهم أنلْنَا هذه الغاية وألهمنا جميعاً فى قلوبنا العقيدة الصحيحة ، وأعِنْ جوارحنا على تنفيذها تنفيذاً صحيحاً على وفق سنة سيدنا رسول الله ، ليأخذ بأيدينا جميعاً إلى حضرته فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . آمين .

كلمة ﴿ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر] من أسمائه تعالى المقتدر وتدل على القوة والبطش .

ومن سمات الأسلوب القرآنى أنْ يجمع بين المعنى ونقيضه ، لأن الضدَّ يُظهر حُسْنه الضِّدُّ .

ولما انتهتْ هذه السورة باسم المقتدر بدأت الرحمن بقوله تعالى :

(الرَّحْمَن) فنقرأ : ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر] ﴿الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن] فالمليك المقتدر هو الرحمن .

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

سورة الرحمن(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝١ ﴾

الرحمن : اسم من أسماء الله الحسنى ، وهى من صفة الرحمة ، وتعنى إسداء النعم وإنْ كان المنعَم عليه لا يستحقها ، لذلك علّمنا أنْ نقول حينما نقبل على الأعمال « بسم الله الرحمن الرحيم » لأنك ربما كنتَ عاصياً وتستحى أنْ تُقبل على العمل باسم مَنْ تعصاه ، فيقول لك : قُلْها لأننى أنا الرحمن .

والمبالغة فى الرحمة تأتى بمعنيين : مبالغة فى ذات الصفة أى رحمة واسعة ، ومبالغة تأتى من تعدُّد الرحمات بتعدُّد المرحومين ، يعنى : لا رحمةَ تغنى عن رحمة .

---

(١) سورة الرحمن هى السورة رقم (٥٥) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس : إلا آية فيها هى قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ.. ۝٢٩ ﴾ [الرحمن] . وقال ابن مسعود ومقاتل : هى مدنية كلها . قال القرطبى في تفسيره (٩/٦٥٥١) : « القول الأول أصح » . عدد آياتها ٧٨ آية .

وهذا هو معنى الرحمن أى الذى تعمُّ رحمته المؤمنَ والكافر أيضاً ، حيث لم يضنّ عليه لو أخذ بالأسباب ، كما قال سبحانه : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ** (٢٠) ﴾ [الشورى] فكأن العصاة والكفار ينعمون فى الدنيا بحضانة كلمة (الرحمن).

إذن : فالحق سبحانه رحمان الدنيا ، أما الرحيم ففى الآخرة ، لذلك يقولون رحمان الدنيا ورحيم الآخرة لأن رحمته تعالى فى الآخرة لا ينالها إلا مؤمن ، وليس للكافر نصيب منها .

﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾

أى : نزّله على رسول الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿ **عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى** (٥) **ذُو مِرَّةٍ**[1] **فَاسْتَوَى** (٦) ﴾ [النجم] وقال عنه : ﴿ **ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ** (٢٠) ﴾ [التكوير]

إذن : جاء العلم من السماء لا من الأرض ، والعلم هو معرفة قضية تعود على الإنسان فى سلوكه بالخير المطلق ، أما العلم إنْ جاء من الأرض خلط بين الخير والشر .

لذلك قلنا : إن الأمية فى ذاتها عيب وضعف ومهانة ، أما الأمية فى حق سيدنا رسول الله فشرف ، لأنها تعنى فى حقه ﷺ أنه لم يأخذ علمه من بشر ، إنما أخذ كلَّ ما يعلم من السماء .

---

(١) ذو مرَّة : أى ذو قوة ، وأصل المرّة : الفتل . قال المفسرون : وكان من قوته أنه قلع قريات لوط وحملها على جناحه فقلبها ، وصاح بثمود فأصبحوا خامدين . [زاد المسير لابن الجوزى] .

حتى فى الأمة كان من حكمة الله أنْ تكون أمة محمد أمة أمية ، بدو ليس لهم حضارة ولم يُعرف عنهم تقدّم علمى أو غيره من مجالات الحياة ، فلما بعث فيهم رسول الله أقام لهم حضارة جديدة ، وجعل لهم قوة دكّتْ حضارة الفرس والروم فى وقت واحد .

وهذا يعنى أن قوتهم جاءت من هذا الدين الذى جاء من السماء ، وأخذ تعاليمه لا من البشر بل من ربِّ البشر .

والعجيب أن الحق سبحانه قدَّم ﴿ **عَلَّمَ الْقُرْآنَ** (٢) ﴾ [الرحمن] على ﴿ **خَلَقَ**[1] **الإِنسَانَ** (٣) ﴾ [الرحمن] ليعلمنا أهمية العلم ووَضْع المناهج والأسس قبل أنْ نُقدم على العمل ، فقبل أنْ يخلق الإنسان وضع له منهج حياته ، مثل الذى يصنع صنعة فيضع لها (الكتالوج) الذى يضمن صيانتها ، ونحن نرى الآلة تعطب وتفسد إذا لم تُستخدم وفق المنهج الذى يصلحها ، كذلك الإنسان لا يصيبه العطب إلا إذا خالف منهج ربه .

إذن : ﴿ **عَلَّمَ الْقُرْآنَ** (٢) **خَلَقَ الإِنسَانَ** (٣) ﴾ [الرحمن] تعنى : أن وَضْع المنهج سابق على خَلْق الإنسان ، فجاء الإنسان فوجد المنهج الذى يُحدِّد له : افعل كذا ولا تفعل كذا ، هذا حلال وهذا حرام ، هذا خير وهذا شرّ .

ومن معانى الرحمة فى القرآن أنْ يعتنى الراحم بالمرحوم عناية

---

(١) الإنسان هنا مقصود به أحد ثلاثة :

أولها : أنه اسم جنس فالمعنى خلق الناس جميعاً . قاله الأكثرون .

الثانى : أنه آدم . قاله ابن عباس وقتادة .

الثالث : أنه محمد ﷺ ، علّمه بيان ما كان وما يكون . قاله ابن كيسان . [زاد المسير لابن الجوزى] .

تحفظ له مقوِّمات حياته ، فى سلامة ليس معها عطل ولا عطب ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء] قالوا : شفاء للداء الذى يطرأ عليك نتيجة الغفلة عن المنهج ، والرحمة ألاَّ يحدث الداء أصلاً .

وقالوا فى سبب نزول هذه الآيات أن كفار مكة اتهموا رسول الله بأنه يذهب إلى رجل أعجمى يعلمه القرآن ، فقالوا كما حكى القرآن ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل] فردَّ الله عليهم رداً منطقياً ، فقال : ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وقال هنا : ﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) ﴾ [الرحمن] وكيف لرجل أعجمى لا يعرف العربية أنْ يأتى بهذا القرآن الفصيح ، إذن : فالقرآن جاء من العلو ، نزل من السماء لم يخرج من الأرض .

ثم نقف على معنى آخر للرحمن فى قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ .. (١١٠) ﴾ [الإسراء] فجاء بصفة الرحمة بعد صفة الألوهية ، لأن الألوهية تكليف ، والتكليف قد يشقّ على النفس ، فناسب بعدها أنْ يذكر صفة الرحمة .

كأنه سبحانه يقول لك : لا تقلق ، فالذى كلَّفك هو الرحمن الذى تسع رحمته الجميع ، وتعم رحمانيته المؤمن والكافر .

وفى مسألة بدء الخلق ، قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) ﴾ [الفرقان]

فالحق سبحانه بعد أن خلق الخلق استوى على عرشه تعالى ،

والاستواء يعنى السيطرة واستتباب الأمر له سبحانه ، فيذكر هنا صفة الرحمة ليقول لنا : إنها ليست سيطرة قهر وبطش وجبروت ، إنما سيطرة رحمانية .

حتى فى موقف الآخرة وما فيها من أهوال يذكر صفة الرحمة ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) ﴾ [مريم] الله سبحانه يتحنّن إلى خَلْقه ويعطيهم الأمل فى عطفه ومحبته لهم .

وهنا جاءت الرحمن آية مستقلة ﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) ﴾ [الرحمن] لأنها حين تُطلق لا تنصرف إلا إلى الحق سبحانه ، وتجمع كل هذه المعانى وسيالها السارى فى كل تكليف .

وفى تقديم ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) ﴾ [الرحمن] على ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) ﴾ [الرحمن] تكلموا فى الغاية والوسيلة أيهما تسبق الأخرى ، والمعلوم عادة أن الغاية تأتى بعد الوسيلة ، فلو أنك تريد الذهاب مثلاً إلى الإسكندرية فأنت تركب وسيلة مواصلات ، وتسلك طريقاً يُوصلك ، وباستخدام الوسيلة تصل إلى غايتك وهى الإسكندرية .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى ، فقال :

أَلاَ مَنْ يُرِينى غَايَتِي قَبْلَ مَذْهَبِى ... وَمِنْ أَيْنَ وَالغَايَاتُ بَعْدَ المَذَاهِبِ

نعم البشر عاجزون عن معرفة الغايات مُقدماً ، لكن رب البشر يعرفها مقدماً وأزلاً ، فيخبر بغايتك قبل أنْ تُخلق ، وقبل أنْ تسلك إليها الوسيلة ، وعليه يمكن أنْ تقدم الغايات على الوسائل . نقول : أنت لم تسلك السبيل إلى الإسكندرية إلا وهى فى بالك ، فالغاية موجودة قبل الوسيلة .

ويمكن أنْ نجمع بين الرأيين لو قلنا بأن الغاية أولاً تخطيط ، لأنك تُحدِّد الغاية قبل الشروع فى الوسيلة ، والوسيلة أولاً واقع وتنفيذً . إذن : ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن] هى الوسيلة التى تُوصلنا إلى الغاية المرجوة ؛ فالوسيلة بعد الغاية تخطيطاً ، ولكن الغاية بعد الوسيلة واقعاً . أو بتعبير آخر : الغاية قبل الوسيلة دافعاً ، ولكنها تأتى بعد الوسيلة واقعاً .

والقرآن كله مقصده العقائد والأحكام والآداب والقصص ، فالعقائد لُبُّها فى القلب ، وهى أنْ نؤمن بإله واحد أحد لا نشرك به شيئاً ، وهذا الإيمان له جناحان هما الخوف والرجاء ، فإذا كنتَ فى خير وأمن وسلامة لا تأمن مكر الله .

وإذا كنتَ فى شدة وبُؤْس لا تقنط من روح الله ، ولو أُشْرِبَ القلبُ هذه العقيدة الصحيحة لَضخَّها إلى باقى الجوارح ، فجاء سلوك الجوارح موافقاً لعَقيدة القلب .

وحين تتبع أحكام القرآن وأوامره وآدابه تجد رحمانية (الرحمن) سيالاً عاماً فى كلّ الجوارح ، وأول جارحة فى التكليف هى اللسان ثم الأذن ، لأن اللسان هو المبلِّغ ، والأذن هى التى تتلقى ، والاستقبال الأول من الله تعالى لا بدّ أن يتوفر فيه الصدق والأمانة لأنه مبلِّغ عن الله .

لذلك قلنا فى الثناء على سيدنا رسول الله : الصلاة والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله ، يا أذن الخير التى استقبلتْ آخر رسالات السماء ، ويا لسانَ الصدق الذى بلّغ عن الحق مراده من الخلق .

وقد أعدَّ الله رسوله محمداً لهذه المهمة ، وجعل فيه من مواصفات التلقى والبلاغ ما يُؤهله لها ، وقد شهد له قومه حتى قبل بعثته ، ورأينا أن الذين سبقوا للإيمان بمحمد قبل أنْ يروا له معجزة تؤيده

آمنوا به لسابقة علمهم بسلوكه وأخلاقه .

لذلك لما عرَّفه الله لقومه قال لهم : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ..(٢٩)﴾ [الفتح] أى : محمد هذا الذى تعرفونه وتشهدون له ، ولا تختلفون على صدقه وأمانته ، هو رسول الله إليكم فكأن كلمة محمد واسمه ذاته هو حيثية كَوْنه رسولَ الله .

والمنهج القرآنى هو (الكتالوج) الذى يصلح حركة حياة البشر قد جاء بما يحفظ اللسان ، فأمرك بذكر الله وقَوْل الحق ، ونهاك عن قَوْل الزور والباطل واللغو ، وبما يحفظ الأذن ، فأمرك بسماع ما هو خير لك مفيد لحياتك ، ونهاك عن سماع الباطل.

اقرأ : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ .. (٦٨)﴾ [الأنعام] وقال سبحانه : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾ [النساء]

وهكذا تجد المنهج القرآنى يحفظ عليك كلَّ الجوارح بما بيَّنه لك من الحلال والحرام ، والخير الذى أمرك به ، والشر الذى نهاك عنه ، وحين تتأمل فى هذه الأوامر وهذه النواهى تجد أنها مظهر من مظاهر رحمة الله بنا ، وتجد سيال الرحمانية فيها كلها .

فحركة الحياة إنْ قامت على وفق منهج الله ساد الأمن والرخاء ، وحفظ لكلِّ ذى حقٍّ حقه ، وإنْ قامت على غير هذا المنهج ضاعت الحقوق وعَمَّ الفساد وانتُهكتْ الأعراض .

فمن رحمة الله أنْ يحرم قول الزور وشهادة الزور[1] ، لأنها تنقل الحق لغير صاحبه وتحرم صاحب الحق من حقه ، وتأمل الفساد الذى يستشرى فى المجتمع نتيجة ضياع الحقوق .

فشهادة الزور والغش والسرقة والخطف والغصب والاختلاس والرشوة والتدليس والمحسوبية وغيرها من المحرمات نهى عنها الشرع ، وسماها القرآن أكل أموال الناس بالباطل ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ .. (٢٩) ﴾ [النساء] أليست هذه من رحمة الله بنا ، نعم يرحم بعضنا من ظلم بعض ؟

إذن : نقول سيال (الرحمن) فى كل الأحكام وفى كل المنهج حتى حينما يأمرنا بالقصاص ، وأن القاتل يُقتل ، حتى فى القتل رحمة ، لأنه يحمى القاتل ، ويحمى المقتول ، ويحمى المجتمع بأسْره ، فلو علم القاتل أنه سيُقتل ما تجرأ على القتل .

وكلُّ التكاليف الشرعية تنطلق من هذه الرحمانية منذ أن خلق الله آدم عليه السلام ، وأسكنه الجنة ، وأجرى له هذه التجربة التمرينية فى الانقياد للأمر ، فلما أقام آدم على أمر الطاعة استقرّ فى الجنة وتمتع بها ، فلما خالف الأمر شقى وبدتْ عورته وساء حاله .

ومن هذه التجربة عرفنا موقف الشيطان من الإنسان ، وعلينا أن نعتبر بالدرس الذى عاشه أبونا آدم ، وأن نحذر مخالفة منهج الله .

واقرأ : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ذكر رسول الله ﷺ الكبائر أو سئل عن الكبائر ، فقال : الشك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين ، فقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قال : قول الزور أو شهادة الزور . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٥٢٠) وكذا مسلم فى صحيحه (١٢٨) .

هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا[1] وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا[2] وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) ﴾ [طه]

إذن : جاء التكليف كله من سيال الرحمانية ، حتى فى حالة الخروج عن المنهج وحدوث المخالفة لا يتخلى عنك ربك ، ولا تفارقك هذه الرحمة ، إنما يشرع لك التوبة ويفتح لك باب الرجعة إلى ساحته تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ [النساء] فمشروعية التوبة فى حدِّ ذاتها من سيال الرحمانية .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ [الرحمن] لنفهم هذا المعنى نعود إلى ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) ﴾ [الرحمن] حيث لم يخبر الحق سبحانه علَّم مَنْ ، لأنه سبحانه قال ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) ﴾ [الرحمن] وليس هناك أحد يعلمه . إذن : ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) ﴾ [الرحمن] يعنى : جهَّزه وأعدَّه للعلم به ، فلما خلق الخلق قال : ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ [الرحمن] أى : علّم الإنسان الخليفة فى الأرض .

(١) ضنك : قال ابن الجوزى فى زاد المسير : للمفسرين فى المراد بهذه المعيشة خمسة أقوال :
أحدها : أنها عذاب القبر . لحديث أبى هريرة وقاله ابن مسعود وأبو سعيد الخدرى والسدى.
الثانى : شدة عيشه فى النار . رواه الضحاك عن ابن عباس وبه قال الحسن وقتادة وابن زيد .
والثالث : أنه ضغطة القبر حتى تختلف أضلاعه فيه .. رواه عطاء عن ابن عباس .
الرابع : أن المعيشة الضنك هى كسب الحرام . (قال ابن عباس : المعيشة الضنك أن تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدى لشىء منها وله معيشة حرام يركض فيها .

(٢) فنسيتها : أى أعرضت عنها وتركتها ولم تنظر فيها . [قاله الشوكانى فى فتح القدير تفسير آية [١٢٦ طه] .

والبيان هو أنْ تستطيع أنْ تعبر عما فى نفسك بأسلوب بيِّن واضح يفهمه المخاطب ، وهذا يعنى أننا لا بدّ أن نلتقى على شئ واحد نفهمه ، وهو اللغة ، وهذه هى التى علَّمها آدم عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١) ﴾ [البقرة] ليستطيع أنْ يعبِّر بها عما فى نفسه ، ومعنى علَّمه الأسماء كلها أى : أسماء الأشياء[1] ، فآدم عليه السلام هو مصدر اللغة .

وقلنا : إننا لو سلسلنا تعليم اللغة لَعُدنا به إلى آدم ، فالابن تعلَّم من أبيه ، وأبوه تعلَّم من أبيه إلى أنْ نصل إلى آدم ، وآدم علَّمه مَنْ ؟ علَّمه ربه عز وجل .

ولقائل أنْ يقول : علَّم الله آدم أسماء الأشياء الموجودة فى بيئته ، فعرف أسماء السماء والأرض والشمس والقمر والأشخاص والحيوانات وغير ذلك ، فما بال الأسماء التى استُجدتْ بعده ؟

نقول : معنى علّمه الأسماء أوسع مما نفهمه من مسألة التعليم ، فالمراد علّمه ما يقيم منطقه ليستطيع التعبير عما يستجد أمامه من أسماء ، ويستطيع أنْ يستخدم ما علّمه فى الوصول إلى الجديد الذى لا يعلمه .

(فالتليفزيون) مثلاً لم يكُنْ له اسم قبل أنْ يُوجد ، لكن لما وُجد وضعوا له اسماً اتفقوا عليه ، وهذا يُنهى الخلاف مع الذين يقولون أن اللغة توقيفية . نقول : لا ليستْ توقيفية فيما يَستجد عليها من أسماء .

(١) يقول تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١) ﴾ [البقرة] قال الماوردى فى تفسير الآية : « فى الأسماء التى علمها الله تعالى آدم ثلاثة أقوال : أحدها : أسماء الملائكة . الثانى : أسماء ذريته . الثالث : أسماء جميع الأشياء . وهذا قول ابن عباس وقتادة ومجاهد » .

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ (٥) وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ (٦) ﴾

والشمس والقمر آيتان من الآيات الكونية فى السماء ، ومعنى ﴿ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] بحساب دقيق ، نقول : حسبتُ الأمر حساباً وحُسْباناً ، لأنهما يجريان بحساب دقيق وقدر قدَّره الخالق سبحانه ، كما نقول نحن (الشئ دا ميخرش الميه) . يعنى : دقيق دقة متناهية .

وفى موضع آخر عبَّر القرآن عن هذه الدقة ، فقال : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ[1] يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

فمنذ خلق الله الشمس والقمر وهما يدوران كُلٌّ فى مداره لا يشذ عنه ، ولأنهما بهذه الدقة جعلهما الله ميزاناً ودليلاً على ضبط الأوقات ، فالساعة فى يدك إنْ لم تكُنْ فى ذاتها منضبطة لا تصلح لضبط الوقت .

فالشمس تضبط لنا حساب اليوم والليلة ، والقمر يضبط لنا حساب الشهر ، والشمس بالشروق والغروب ، والقمر بمراحله التى يمرُّ بها خلال الشهر ، حيث يبدأ هلالاً ثم يكبر حتى يصير بدراً فى منتصف الشهر ، ثم يأخذ فى التناقص حتى يعود كما كان فى أول الشهر ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ[2] الْقَدِيمِ (٣٩) ﴾ [يس]

(١) فلك : الفلك : المدار يسبح فيه الجرم السماوى ، قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء] أى فى مدار تدور فيه [القاموس القويم ٢/٨٩] .

(٢) العرجون : أصل عذق النخلة ، ومنه تتفرع شماريخ البلح ، ويكون فى أول ظهوره أخضر ثم يبيض ثم يصفر عند نضج البلح ، فإذا قطع وجفّ صار أبيض وشبه به القمر آخر الشهر لأنه يكون ملتوياً كجزء من القوس أبيض قليل الضياء . [القاموس القويم ٢/٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ[(١)] لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) ﴾ [يونس]

فالشمس لها ضياء ولها حرارة ، والقمر له نور لأنه يعكس ضوء الشمس فليس له حرارة ، ونلاحظ أن شهر القمر أقل من شهر الشمس لاختلاف حركة دوران كل منهما ، والشمس لها كل يوم مطلع .

لذلك لاحظوا فى معابد الفراعنة أن بها ٣٦٥ طاقة ، تدخل الشمس من واحدة منها كل يوم ، وبذلك استطاعوا بحسابات دقيقة أنْ يجعلوا الشمس تتعامد على وجه رمسيس فى يوم معين .

ومن حكمته تعالى أنْ جعل العبادات والصلوات اليومية مرتبطة بالشمس ، وجعل العبادات الشهرية أو السنوية مرتبطة بالقمر فلو ارتبط رمضان مثلاً بحركة الشمس لظلَّ فى زمن واحد لا يتغير أبداً .

فلو جاء مثلاً فى بؤونة[(٢)] يظل فى بؤونة طوال العمر ، ولو جاء فى طوبة يظل فى طوبة كذلك ، لكن ارتباطه بحركة القمر جعله يأتى على مدار العام كله ، وكلٌّ منا فى رحلة حياته صام رمضان فى الصيف وصامه فى الشتاء ، كذلك الحال فى عبادة الحج .

وتعلمون أن هذا التغيير يأتى من ١١ يوماً هى الفرق بين توقيت

(١) منازل القمر : هى مجموعة النجوم التى يقطعها القمر فى دورة له تامة حول الأرض فى ٢٨ يوماً ، وعدد منازل القمر ٢٨ منزلاً ينزل القمر كل ليلة بمنزل منها ، وتسمى هذه المنازل الطوالع .

(٢) بؤونة : شهر مصرى ، أصله بالهيروغليفية (با أونى) أى إله المعادن ، لأن فيه تستوى المعادن والأحجار ، ولذا يسميه العامة بؤونة الحجر نسبة لشدة الحر فيه .

الشمس وتوقيت القمر ، وهذا يُسهِّل أمر التكاليف العبادية ، ويعطى الغاية بدون عطب فى الكون ، لأن الشمس والقمر آياتٌ كونية عظيمة لا تتناولها أيدى الصيانة ، فهى تؤدى مهمتها بقدرة الله منذ خلقها الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) ﴾ [الرحمن] كلمة النجم تُطلق على النجم فى السماء ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل] والنجم أيضاً هو العشب والنبات الذى ليس له ساق .

فالآيتان جمعتا بين جنسين من الآيات الكونية : الشمس والقمر من آيات السماء ، والنجم والشجر من آيات الأرض ، وقد جمعتهما كلمة النجم ، فالشمس والقمر منسجمان لأنهما من جنس واحد ، والنجم والشجر أيضاً من جنس واحد ، هذا فى السماء وهذا فى الأرض .

ومعنى ﴿ يَسْجُدَانِ (٦) ﴾ [الرحمن] يخضعان لمراد الخالق ، وفى آيات كثيرة بيَّن الحق سبحانه أن هذه الجمادات والنباتات تسجد لله وتُسبِّح الله بما يناسبها .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) ﴾ [الحج]

لذلك نسمع علماء الطبيعة يقولون : أن النبات يمتصّ الغذاء من الأرض بخاصية الأنابيب الشعرية ، نعم فى النبات أنابيب شعرية لكن فيها إعجاز وفيها حياة وفيها قدرة ، فلو أنك جئت بحوض به ماء ووضعت به أنابيب شعرية فإنها تمتص الماء كله بكل عناصره .

أما امتصاص النبات فأمر آخر ، لأن النبات يمتصُّ من عناصر التربة ما يحتاجه ، ويميز بين عنصر وعنصر ، ألا ترى أن قصب السكر يمتصُّ الحلاوة ، والفلفل مثلاً يمتص الحرارة .

واقرأ : ﴿ وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾ [الرعد]

إذن : المسألة ليستْ مسألة الشعيرات ، إنما مسألة آية من آيات الله : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) ﴾ [الأعلى]

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾

والسماء معطوفة على النجم والشجر ﴿ رَفَعَهَا .. (٧) ﴾ [الرحمن] تراها فوقك بلا عمد ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) ﴾ [الرحمن] أنزل أسس العدالة والحق ، والميزان هو الآلة التى تضبط الحق والباطل[1] .

(١) قال الحسين بن الفضل : هو القرآن ، لأن فيه بيان ما يحتاج إليه . نقله القرطبى فى تفسيره (٩/ ٦٥٥٤) أما الحسن وقتادة والضحاك فقالوا : هو الميزان ذو اللسان الذى يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض . قلت : وهو الأولى فى تأويل (الميزان) للآيات بعده الناهية عن الطغيان فى الميزان والآمرة بإقامة الوزن بالقسط .
[عادل أبو المعاطى]

ثم أمرنا سبحانه بأنْ نقيم ميزان العدالة ﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ (٨) ﴾ [الرحمن] الطغيان هو مجاوزة الحد ، أى : لا تتجاوزوا الحقَّ إلى الباطل . إذن : الآيات تحدثنا عن منظومة كونية قامتْ على الحق وعلى نظام دقيق لا يشذ ولا يتخلف .

وميزان العدالة يحكم حركة الشمس والقمر كما يحكم حركة الإنسان ، اقرأ : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس] فلم يطغ شىء على شىء ، كذلك الإنسان .

﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ (٨) ﴾ [الرحمن] فالأجرام والأفلاك السماوية لما استقامتْ على ما خُلقت عليه وعلى مراد الله منها استقامتْ حركتها فى أداء مهمتها فى الكون ، فلم نَرَ مثلاً بين هذه الأجرام تصادماً ، كذلك أيها الإنسان إنْ أردتَ أنْ تستقيم حركة حياتك فسرْ فيها على هذا الميزان الذى وضعه الله لك .

وبعد أنْ نهى سبحانه عن الطغيان فى الميزان يأمرنا سبحانه : ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن] أى : بالعدل بحيث يأخذ كلّ ذى حَقٍّ حقه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) ﴾ [الشعراء] فإقامة الشىء تعنى آداؤه على أكمل وجه ، فلأن الميزان هو الضابط فلا بدّ أنْ يكون دقيقاً قائماً على القاعدة التى أرادها الله وهى العدالة .

ثم يؤكد الأمر السابق بنهى ﴿ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

قالوا أى : لا تُنقصوا الميزان ، لكن نقص الميزان قد يكون له صور مختلفة ، فالذى يغشّك ويضع لك الفاكهة المعطوبة على أنها سليمة يُنقص الميزان .

والذى يتلاعب فى آلة الوزن ينقص الميزان ، فالحق سبحانه يريد أنْ يحفظ للعباد حقوقهم ، وهذه من سيال رحمانيته تعالى .

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ
وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ
وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾

الحق سبحانه قال عن السماء ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴿٧﴾ ﴾ [الرحمن] وقال عن الأرض ﴿ وَضَعَهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الرحمن] أى : جعلها منخفضة ومنبسطة ، وقال سبحانه : ﴿ الأَرْضَ مَهْدًا ..﴿٥٣﴾ ﴾ [طه] فهى ممهدة وقال : ﴿ مِهَادًا ﴿٦﴾ ﴾ [النبأ] تحمل الإنسان كما حمل المهد الطفل . فالأرض وُضعتْ ليستقرَّ عليها الإنسان .

ومعنى ﴿ لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرحمن] لبنى الإنسان ، وقالوا : بل يدخل فى الأنام كلُّ ذى روح ، فالحيوانات بهذا المعنى هى من الأنام ، لأنها تأكل من زرع الأرض وتعيش عليها . وقالوا : الجن أيضاً من الأنام .

ونلاحظ فى هذه الآية العموم فى الأرض فلم يُخصصها أرض مَنْ ، وهذا يعنى الشمول ، فالأرض أى كل أرض فى أىّ مكان ، كذلك

﴿ لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرحمن] أىّ أنام[1] فأرض الله فى كلِّ مكان لعباد الله فى كلّ مكان .

وهذا المعنى نفهمه من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَـٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء]

فأرض الله للجميع ، إذا ضاقتْ عليك الحياة هنا فاذهب إلى مكان آخر فيه متسع ، وهذه فى حدِّ ذاتها كفيلة بأن تحل مشاكل العالم اليوم لو أخذوا بها ، لكن الحاصل أنهم قطَّعوا أوصال هذه الوحدة الطبيعية التى أرادها الخالق للخَلْق ووضعوا فيما بينهم الحدود والحواجز .

ومن العجيب أنْ نراهم يختلفون على عدة أمتار على حدودهم وهم يعيشون على مئات بل آلاف الكيلو مترات من أرض الله ، ثم لك أنْ تتأمل الخريطة وترى رسم الحدود بين الدول الآن ، هل تراها على شكل مستقيم ؟

---

(١) فى الأنام ثلاثة أقوال :
أحدها : أنهم الناس . قاله ابن عباس .
الثانى : الأنام الإنس والجن . قاله الحسن .
الثالث : الأنام جميع الخلق من كل ذى روح . قاله مجاهد وقتادة والسدى ، سمى بذلك لأنه ينام . [الماوردى فى تفسير الآية ١٠ الرحمن] .

لا بل هى متعرجة وملتوية ومتداخلة بعضها فى بعض ، فهكذا أرادها الحق سبحانه ، الأرض كلُّ الأرض للأنام كلّ الأنام .

ونحن الآن نرى أرضاً تكاد تنفجر من كثرة عدد السكان لكن فيها قلة موارد ، وعلى النقيض نرى أرضاً خالية من السكان مليئة بالموارد المهملة التى لا تجد مَنْ يستخرجها ، فهل هذا هو الميزان العادل الذى قامت عليه أمور الخلق ؟ لا والله بل هذا جور وطغيان فى الميزان .

ولك أنْ تنظر إلى الحدود المصطنعة والأسوار والمطارات والبواب وما يحكمها من قوانين صارمة وتأشيرات دخول وشروط ، حتى أنك تستغرق شهراً وشهوراً تعد فى أوراق وتأشيرات لتتمكن من دخول بلد كذا وكذا .

ثم ترتّب على هذا الفصل بين الحدود وجود الخلافات الدولية ، والتمييز العنصرى ، وانفراد أصحاب الثروات بثرواتهم ، فنشأت الحروب والصراعات كما ترون .

ثم تُعدِّد الآيات طرفاً من نعَم الله فى الأرض : ﴿فِيهَا ..(١١)﴾ [الرحمن] أى فى الأرض ﴿فَاكِهَةٌ . (١١)﴾ [الرحمن] الفاكهة ما يتفكّه به، فهى من الكماليات والزيادة عن الطعام الأصلى ، وأتى بالفاكهة قبل البُرِّ والقمح وغيره من الحبوب .

﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ (١١)﴾ [الرحمن] جمع كم ، وهو الغطاء الذى يكون على الثمرة قبل نُضْجها ، والأكمام هنا المراد بها الطلع .

﴿وَالْحَبُّ .. (١٢)﴾ [الرحمن] مثل القمح والشعير والذرة وغيرها من المطعومات .

﴿ذُو الْعَصْفِ .. (١٢)﴾ [الرحمن] هو القشرة التى تغطى الحبة ، وذِكْر العصف يدل على أهميته الغذائية ، وقد توصل العلماء إلى أن لقشرة القمح فوائد صحية عظيمة[1] ، وأن حبة القمح لا تؤدى مهمتها إلا مع قشرتها .

وقد حذر العلماء من تناول الدقيق الفاخر أو (العلامة) خالية من قشرتها ، والذى أسرف فى تناول الدقيق الفاخر ، يُضطر فى مراحل تقدُّم السن إلى أنْ يأكل الخبز من الردة أو السِّن ، لذلك نجد رغيف السِّن أغلى من رغيف (الفينو) .

إذن : نفهم من ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ..(١٢)﴾ [الرحمن] أن نأخذ الحب كما خرج من أرضه بعَصْفه فهذه ميْزته ، وقد وردت كلمة العصف أيضاً فى قوله تعالى فى قصة أصحاب الفيل : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)﴾ [الفيل] يعنى : فتات وبقايا الأكل .

﴿وَالرَّيْحَانُ (١٢)﴾ [الرحمن] قالوا : هو لُبُّ الحبة .

وقالوا : هو النبات ذو الرائحة الطيبة المعروف بهذا الاسم .

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن] الخطاب للثقلين الجن والإنس ، لذلك سيخاطبهم بعد ذلك ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١)﴾ [الرحمن] وهنا يخاطبهم الحق سبحانه بهذا الاستفهام : هذه نعم الله

(١) قشرة القمح هى قشرة رقيقة فيها ستة فيتامينات ب١ إلى ب٦ بالإضافة إلى عدة فيتامينات أخرى وفيها مادة فسفورية هى غذاء للدماغ والأعصاب وفيها الحديد الذى يهب الدم قوة وحيوية ويعين على اكتساب الأكسجين من الرئتين وفيها كالسيوم الذى يبنى العظام وفيها السيليكون الذى يقوى الشعر ، وفيها اليود الذى ينشط عمل الغدة الدرقية .. وهكذا .. ونحن ننزع عن حبة القمح قشرها ونرميه للبهائم ونأكل نحن النشا الصافى .

وآلاؤه ، فبأىِّ هذه النعم تكذِّبان أيها الإنس وأيها الجان ؟

ومن أساليب القرآن الكريم أن الحق سبحانه حينما يريد أنْ يقرر حكماً ويؤكد عليه لا يأتى به فى صورة الخبر ، إنما يأتى فى صورة الاستفهام ، كأنه يقول لهم : قولوا أنتم ، وحين تبحث عن الجواب للاستفهام لا بد أنْ تقول : ولا بشىء من نعمتك ربنا نكذب .

وأنت لا تسلك سبيل الاستفهام إلا وأنت واثق من أن الجواب سيأتى ولا بد كما تريد ، كالذى ينكر مثلاً فضلك عليك ، فتقول له : ألم أفعل معك كذا وكذا ؟

كلمة ﴿ آلاءِ .. ﴾ [الرحمن] أى نعم جمع أل مثل حمل وأحمال . وهذه الآية :﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن] تكررتْ فى هذه السورة عدة مرات ، وهذا له مزيّة وحكمة ، كما فى قوله تعالى فى السورة قبلها :﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾ [القمر] ومثل ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) ﴾ [القمر] ومثل هذا التكرار له حكمة ، ويضيف جديداً ، وإلا كان زيادة ، والقرآن مُنزَّه عن هذا .

فالأسلوب هنا حينما يكرر ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن] تأسيس لكل نعمة مخصوصة ، فمع كل نعمة يعيد هذا الأسلوب ، فيجعل كلّ نعمة على حدة مسئولاً عنها هذا السؤال .

وقد تكررت هذه الآية فى سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة فكأن الحق سبحانه يريد أنْ يؤكد لنا على سيال الرحمانية فى سورة الرحمن فيذكرها فى كل نعمة ، هل تكذِّبون بكذا ؟ هل تكذِّبون بكذا ؟

وكيف لنا أنْ نكذِّب ونحن نتقلّب فى هذا النعيم لـيل نهار ، لذلك سَنَّ لنا رسول الله حينما نقرأ هذه الآية أنْ نقول : ولا بشىء من نعمائك ربنا نكذّب .

فقد ورد أن سيدنا رسول الله ﷺ قال : قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم من الجن ، فكانوا أحسن استجابة منكم ، كانوا كلما قرأتُ ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن] قالوا : ولا بشىء من نعمائك ربنا نكذب فلك الحمد(١).

وهذا يعنى أننا حينما نستمع للقرآن يجب أنْ ننفعل به ونتدبر معناه ، لا أنْ يمرّ على آذاننا هكذا كغيره من كلام البشر ، وقد رأينا أهل الإيمان والقرب من الله ، يفعلون ذلك ، فإذا ذُكر اسم الله قالوا سبحان الله ، أو جَلّ جلاله ، وإذا ذُكر رسول الله قالوا : صلى الله عليه وسلم . إذا ذُكرتْ الجنة سألوها ، وإذا ذُكرتْ النار استعاذوا بالله منها ، وهكذا يتفاعل المؤمن مع كلام الله . فأين نحن من هؤلاء ؟

ولقد استمعتُ إلى القرآن فى أحد المآتم ، وكان الشيخ يقرأ آيات العذاب ويذكر النار وجهنم ، فإذا بواحد من المشجِّعين له يقول : إيه العظمة دى ، اللهم زيدك يا شيخ !!

---

(١) أخرج الترمذى وأبو الشيخ فى العظمة والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا ، فقال : مالى أراكم سكوتاً لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله (فبأى آلاء ربكم ما تكذبان) قالوا : ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير الآية ١٠ سورة الرحمن .

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)
وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ[١] مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) ﴾

الصلصال هو الطين الذى جف وتيبَّس ، والصلصال مرحلة من المراحل التى مرَّ بها الإنسان فى الخَلْق الأول لادم عليه السلام ، فقد أخبرنا الحق سبحانه أن الإنسان خلِق من ماء ، ومن طين ، ومن تراب ، ومن حمأ[٢] مسنون ، وكلها مراحل حتى صار صلصالاً كالفخار .

هى إذن مراحل للشىء الواحد ، فالتراب بالماء يصير طيناً ، والطين لو تُركَ فترة يختمر ، ويأكل بعضه بعضاً ، وتتغير رائحته فيصير حمأ مسنوناً ثم يجف فيصير صلصالاً .

وليس مرحلة من هذه المراحل هى بداية الخَلْق ، إنما كلها مجتمعة هى بداية الخَلْق ، والحق سبحانه أخبر : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. (٥١) ﴾ [الكهف]

فنحن لا نعرف كيف خُلِقنا إلا من خلال ما أخبرنا الله به ، لذلك

(١) مارج : المارج الشعلة الساطعة ذات اللهب ، أو اللهب المختلط بسواد النار . [القاموس القويم ٢/٢٢١] .

(٢) حمأ مسنون : الحمأ : الطين الأسود المنتن . [لسان العرب - مادة : حمأ] . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

يقول سبحانه بعدها : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف] المضلون هم الذين يخبرون عن الخَلْق بغير ما أخبر الحق ، كالذى طلع علينا يقول[١] إن الإنسان فى أصله قرد ثم تطور إلى الإنسان ، فالقرآن يسبق الزمن ويخبر بما سيكون ، ويحذرنا من تصديق هذه الافتراءات والكذب على الله تعالى .

والحق سبحانه وتعالى حينما يُحدِّثنا عن أمر غيبى يقف العقل أمامه ، يوضحه لنا بأمر مشاهد يدلّ عليه ، فنحن نعم لم نَرَ الخَلْق الأول فهو أمر غيبى ، لكن رأينا نقيضه وهو الموت وشاهدناه ، الموت ينقضُ الحياة وعادةً الهدم يأتى عكس البناء ، فما بُنى أولاً يهدم آخراً ، وما بنى آخراً يُهدم أولاً .

فالخَلْق بدأ من ماء وتراب وطين ، ثم حمأ مسنون ، ثم صلصال كالفخار ، ثم بعد ذلك نفخ الله فيه من روحه فدبَّتْ فيه الحياة ، أما الموت فيبدأ بخروج الروح ، ثم يتيبس الجسد فيشبه الصلصال ، ثم تتغير رائحته كالحمأ المسنون ، ثم يتبخر الماء ، ولا يبقى بعد ذلك إلا عناصر تصير إلى تراب .

إذن : نأخذ من الموت الذى شاهدناه دليلاً على الغيب فى ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) ﴾ [الرحمن]

وقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ .. (١٥) ﴾ [الرحمن] أى : الجن ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) ﴾ [الرحمن] المارج هو لهب النار الصَّافى الذى لا يخالطه دخان ، وطبيعة النار ألطف من طبيعة الطين ، لأن النارَ لها

(١) تشارلز داروين : عالم حيوان إنجليزى ولد ١٢ فبراير ١٨٠٩ م عالم تاريخ طبيعى ، له كتاب (أصل الأنواع) عام ١٨٥٩ م ، توفى عام ١٨٨٢ عن ٧٣ عاماً .

سيالٌ نافذ على خلاف الطين ، فليس له هذا النفاذ .

مثلاً لو معك تفاحة فى حجرة وأنت فى الحجرة المجاورة ، فهل تجد للتفاحة أثراً فى الحجرة الأخرى ؟

أما النار فعلى خلاف ذلك لأنها تنفذ من الجدار ، فتشعر بحرارتها من خلف الجدار ، وقدرة الجن تأتى من هذا النفاذ .

فلديهم القدرة على أنْ ينفذوا من الأشياء لا يعوقهم شيء مادى ، وهذا يعنى أنهم خُلقوا من شفافية النار، ونحن من كثافة الطين ، لذلك هم يرَوْننا ولا نراهم ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن]

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) ﴾

الحق سبحانه يذكر المشرقين والمغربين فى سياق نعمه تعالى ، وهذا يعنى أن فيهما ينطوى كثير من النعم .

وحينما نستقرىء هاتين الكلمتين فى القرآن نجدهما بالمفرد مرة ، وبالمثنى مرة ، وبالجمع مرة أخرى ، فقال : ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .. (٩) ﴾ [المزمل] وقال : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) ﴾ [الرحمن] وقال : ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ .. (٤٠) ﴾ [المعارج]

وهذا التعدد يأتى من تعدد المكان ، ففى المكان الواحد مشرق ومغرب للشمس ، لكن الشمس حينما تشرق عندك تغرب عند آخرين ، فكلُّ مشرق معه مغرب ، وكل مغرب معه مشرق .

إذن : هما مشرقان ومغربان ، إذن مع دوران الأرض وحركتها تعطينا فى كل لحظة مشرقاً ومغرباً ، فهى إذن مشارق ومغارب ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) ﴾ [الرحمن]

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(١) (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ .. (١٩) ﴾ [الرحمن] أى خلط ﴿ الْبَحْرَيْنِ .. (١٩) ﴾ [الرحمن] العذب والمالح ﴿ يَلْتَقِيَانِ (١٩) ﴾ [الرحمن] قالوا : يتجاوران أو يتعاقبان ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ .. (٢٠) ﴾ [الرحمن] أى : حاجز يحجز هذا عن هذا فلا يختلطان ﴿ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) ﴾ [الرحمن] لا يتعدَّى أحدهما على الآخر .

وهذه آية من آيات الخَلْق أنْ يلتقى العَذْب بالمالح دون أنْ يذوب هذا فى هذا ، لذلك حينما تذهب إلى العريش مثلاً تجد على شاطىء البحر أجود أنواع النخيل ، ولو كان هذا يتغذّى على الماء المالح ما كان على هذه الصورة من الحلاوة ، لكن قدرة الله .

---

(١) قال الماوردى فى تفسيره للآية ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) ﴾ [الرحمن] ، أما البحران ففيهما خمسة أوجه :

أحدها : أنه بحر السماء وبحر الأرض . قاله ابن عباس .

الثانى : بحر فارس والروم . قاله الحسن وقتادة .

الثالث : أنه البحر المالح والأنهار العذبة . قاله ابن جريج .

الرابع : أنه بحر الشرق وبحر المغرب يلتقى طرفاها .

الخامس : أنه بحر اللؤلؤ وبحر المرجان .

واقرأ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ .. (٢١)﴾ [الزمر] وقال سبحانه :﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨)﴾ [المؤمنون]

فقدرة الله حفظتْ الماء العذْب فلا يختلط بالمالح ، لذلك تجد مستوى الماء العذب أعلى من مستوى المالح ، وإذا ذهبتَ إلى دمياط ستجد الماء العَذْب فى النيل يمتدُّ لمسافات داخل المالح دون أنْ يطغى المالح على العذب ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)﴾ [الرحمن]

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣)﴾

معنى ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا .. (٢٢)﴾ [الرحمن] أى : من البحرين العذب والمالح ، مع أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من الماء المالح ، وهذه المسألة حلَّها لنا حاجب المحكمة الذى ذهب لخطبة سنية بنت محضية ، فسألوه : ماذا تعمل ؟ قال : أنا حاجب المحكمة ، قالوا : كم راتبك من هذا العمل ؟ قال : أنا والقاضى نأخذ مائة جنيه .

فقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا (٢٢)﴾ [الرحمن] أى : من مجموعهما معاً[(١)] ،

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٦٣) : « قال (منهما) وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما ، كقوله تعالى : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ .. (١٣٠)﴾ [الأنعام] وإنما الرسل من الإنس دون الجن . قاله الكلبى وغيره » . فقال (منكم) مع أن الرسل من الإنس فقط .

والآن يقول العلماء أن اللؤلؤ والمرجان لا يوجدان إلا فى مَصبِّ الماء العذب[(١)] ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣)﴾ [الرحمن]

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَهُ .. (٢٤)﴾ [الرحمن] أى : لله تعالى ﴿الْجَوَارِ .. (٢٤)﴾ [الرحمن] جمع جارية وهى السفينة التى تجرى على صفحة الماء ﴿الْمُنشَآتُ .. (٢٤)﴾ [الرحمن] التى أنشئتْ وصُنعتْ فى البحر ﴿كَالأَعْلَامِ (٢٤)﴾ [الرحمن] أى : كالجبال العالية التى تُرى مثل العَلَم أو مثل القصور الشاهقة ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)﴾ [الرحمن]

والعجيب أنْ يخبر بهذا سيدنا رسول الله ، وهو لم يركب البحر ولم يعرف هذا النوع من السفن ، فالسفن التى كانت موجودة على عهد سيدنا رسول الله كانت صغيرة مسطحة ومن دور واحد ، ولم تعرف السفن ذات الأدوار إلا فى القرن الثامن عشر الميلادى ، إذن : هذه الآية من الإعجاز ومن علامات النبوة ، ودليل على صدقه ﷺ فى الإخبار والبلاغ عن الله .

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)﴾

---

(١) حتى العلماء القدامى نقلوا هذا ، فقد نقل القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٦٤) هذا القول فى سياق حديثه عن اللؤلؤ ، فقال : إن العذب والملح قد يلتقيان فيكون العذب كاللقاح للملح ، فنسب إليهما كما يُنسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى » ثم قال : « لذلك قيل : إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقى فيه العذب والملح » .

قوله تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا ..(٢٦)﴾ [الرحمن] أى : على الأرض، والأرض لم يأت لها ذِكْر هنا حتى ينصرف إليها المعنى ، لكن قالوا : الضمير يعود على مذكور أو على معلوم بالبديهة كما هنا ﴿فَانٍ (٢٦)﴾ [الرحمن] أى : هالك .

﴿وَيَبْقَىٰ .. (٢٧)﴾ [الرحمن] أى : بعد فناء كل شىء ﴿وَجْهُ رَبِّكَ ..(٢٧)﴾ [الرحمن] الوجه يُعبَّر به عن الذات ، لأن الوجه فى الخَلْق جميعاً هو المميِّز للشخص ، بحيث لا يتشابه اثنان تشابهاً تاماً ، فأطلق الوجه ليدل على الذات .

﴿وَجْهُ رَبِّكَ .. (٢٧)﴾ [الرحمن] أى : ذاته سبحانه وتعالى ، وهذه المسألة نرد بها على مَنْ لا يرى تأويلاً فى القرآن ، وإلا فكيف نقول فى هذه الآية[1] ؟

ومعنى ﴿ذُو الْجَلالِ .. (٢٧)﴾ [الرحمن] أى : صاحب العظمة ، وصاحب الغنى المطلق ﴿وَالإِكْرَامِ (٢٧)﴾ [الرحمن] صاحب الكرم المطلق والفضل التام ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)﴾ [الرحمن]

﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ (٢٩) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)﴾

(١) مقصود الشيخ رحمه الله أننا إن لم نقل أن وجه ربك هنا تعنى ذاته سبحانه فهذا يقتضى أن الله سبحانه مكوَّن من أجزاء ستفنى كلها مع ما سيفنى ويبقى وجهه فقط . وقد ذهب العلماء إلى أن (وجه ربك) هنا تعنى الذات . قاله الألوسى فى روح المعانى ، والشوكانى فى فتح القدير قال : « الوجه عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده » . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير : « أى : ويبقى ربك » . [عادل أبو المعاطى]

قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ ..(٢٩)﴾ [الرحمن] أى : الحق سبحانه وتعالى ﴿فِى شَأْنٍ (٢٩)﴾ [الرحمن] اليوم زمن يستغرق الوقت كله اليوم والليلة ، فمعنى ﴿كُلَّ يَوْمٍ ..(٢٩)﴾ [الرحمن] أى : كل آن وكل وقت هو سبحانه فى شأن جديد ، ففى كل لحظة يحدث أمر ، ويظهر قدر مما قدَّره الله أزلاً .

وقد سُئل المأمون[1] فى هذه المسألة : ما شُغل ربك الآن وقد جَفَّ القلم ، ومع ذلك قال ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ (٢٩)﴾ [الرحمن] ؟ فقال : أمور يبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ويضع آخرين[2] .

وقد بينَّا أن الأقدار قُدِّرتْ أزلاً ، وهى محفوظة فى اللوح المحفوظ ، فالذى يحدث الآن هو ظهور هذا المقدور فى أرض الواقع ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)﴾ [الرحمن]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢)﴾

(١) هو : عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدى العباسى ، سابع الخلفاء من بنى العباس فى العراق ، أحد أعاظم الملوك فى سيرته وعلمه وسعة ملكه ، ولد ١٧٠ هـ ، ولى الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة (١٩٨ هـ) ، أطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الدجل والفلاسفة ، توفى فى « بذندون » عام (٢١٨ هـ) ودُفن فى طرسوس . [الأعلام للزركلى ٤/١٤٢] .

(٢) هذا لا يستطيع المأمون أن يقوله من عند نفسه ، ولكن روى عن رسول الله ﷺ أنه تلا قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ (٢٩)﴾ [الرحمن] فقيل له : ما هذا الشأن ؟ فقال : من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين .

قال فى البحر المديد (٦/٢٠٨) : « المراد بهذه الشؤون أمور يبديها ولايبتديها ، فقد جفَّ القلم بما هو كائن إلى ما لا نهاية له » .

هذا أسلوب تهديد ، وما بالك بالتهديد إنْ كان من الله ؟ ومَنْ يتحمله ؟ لكن تبقى الرحمانية نتعلق بها ونطمع فيها ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ..(٣١) ﴾ [الرحمن] تهديد كما تقول لخصمك : غداً (أفضى لك) ، يعنى (هوريك شغلك) .

فالحق سبحانه وتعالى يقول : سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بعد أنْ أمهلناكم ، فلن تفلتوا منا .

﴿ أَيُّهَا الثَّقَلان (٣١) ﴾ [الرحمن] الثقلان هما الجن والإنس ، وسُمِّيا الثقلان لأنهما أثقلا[1] الأرض ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) ﴾ [الرحمن]

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ[2] (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) ﴾

هذا نداء لجماعة الجن والإنس ، وقد خاطبهم فى الآية السابقة ﴿ أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١) ﴾ [الرحمن] وهنا يتحدى الجميع ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ، وقال الماوردى فى تفسيره : سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض . وقال الشوكانى فى فتح القدير : سُمى الجن والإنس ثقلين لعظم شأنهما بالنسبة إلى غيرهما من حيوانات الأرض .

(٢) قوله ﴿ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن] فيه ثلاثة أقوال :
أحدها : لا تنفذون إلا فى سلطان الله وملكه لأنه مالك كل شىء . قاله ابن عباس .
الثانى : لا تنفذون إلا بحجة . قاله مجاهد .
الثالث : لا تنفذون إلا بمُلك ، وليس لكم مُلك . قاله قتادة . ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير فى تفسير الآية .

تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا ..(٣٣) ﴾ [الرحمن] وهذا يعنى أن الجن والإنس لن يستطيعوا ذلك ﴿ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن] أى : من الله فلو أعطى هذه القوة لأحد من خلقه لاستطاع .

لذلك البعض فهم أن صعود الإنسان للقمر نفاذ من أقطار السموات والأرض ، فكيف إذن نفهم ﴿ لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن] قالوا : أى سلطان العلم الذى مكّنهم من ذلك .

والواقع أن ارتقاء الإنسان لسطح القمر ليس نفاذاً ، لأن القمر ما هو إلا ضاحية من ضواحى الأرض ، هو كحلوان بالنسبة للقاهرة ، ولو تأملنا المسافات بين الكواكب لسهل علينا هذا الفهم .

فقد أثبت العلماء أن بيننا وبين الشمس ثمان دقائق ضوئية ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة[1] مائة سنة ضوئية ، والثانية الواحدة فى سرعة الضوء فيها ثلاثمائة ألف كيلو متر ، فما بالك بباقى كواكب هذه المجموعة ؟ أما القمر فهو تابع من توابع الأرض .

والاستثناء فى ﴿ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن] يثبت صدق سيدنا رسول الله فيما أخبر به من حادثة الإسراء والمعراج ، وإلا لقالوا كيف هذا ؟ لأنه فوق إمكانيات البشر . إذن : إلا بسلطان منا فمَنْ أردنا له أنْ ينفذ ينفذ بقدرتنا نحن .

(١) المرأة المسلسلة : هى إحدى كوكبات نصف الكرة السماوية الشمالى وتظهر فى ليالى الشتاء والخريف . وفى هذه الكوكبة يوجد سديم المرأة المسلسلة الذى يُرى بالعين المجردة . ويقدر بُعده عن الأرض بحوالى ٣١ بارسك أى مائة سنة ضوئية . [الموسوعة الفلكية – ص ١٨٩ ، ٤٦٥] .

وذكر سبحانه الجن هنا قبل الإنس ، لأنهم أخفّ منا وأسرع فى الحركة ، لذلك رأينا فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام لما أراد أنْ يأتى بعرش بلقيس فقال لمساعديه : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا .. (٣٨) ﴾ [النمل] لم يتكلم أحد من الإنس ، لأنه يريده أمامه على وجه السرعة ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾ [النمل] والحادث أنهم فى الطريق إليه .

والإنس لا يملكون هذه السرعة ، أما الجن فقد قال واحد منهم ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩) ﴾ [النمل] هذا عفريت من الجن وليس من الجن العادى ، وهذا يعنى أن من الجن النشط الماهر ومنهم (لبخة) لا يستطيع أنْ يؤدى هذه المهمة .

وهذا العرض من العفريت يستغرق وقتاً لأنه لا يقوم من مقامه إلا بعد ساعات ، فقال الأمهر منه وهو الذى عنده علم من الكتاب ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

وطرفة العين لحظة لا تستغرق وقتاً ، فلما كان الجن بهذه المهارة فى الحركة بدأ الحق سبحانه بهم لأنه فى مجال التحدى .

ثم إن التحدى فى السموات جمع سماء ، وحركة الإنس فى صعودهم للقمر ، وحركة الجن فى عملية استراق السمع كلها فى مجال السماء الدنيا ، فأين الإنس والجن من باقى السموات ؟

هذه السموات التى اخترقها سيدنا رسول الله فى صحبة سيدنا جبريل حتى وصل إلى منتهاها عند سدرة المنتهى . إذن : ﴿ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن] ليس سلطان العلم ، بل سلطان قدرة الله ، وإلا فقد مرَّ رسول الله فى أماكن ليس فيها هواء للتنفس ، فكيف

يفعل العلم فى هذه ؟

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾

الخطاب للجن والإنس : إنْ أردتما النفاذ من أقطار السموات والأرض دون سلطان من الله ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن] وهذا يعنى أن للجن والإنس حدوداً فى الحركة لا يستطيعون تجاوزها .

ومعنى ﴿ شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ .. (٣٥) ﴾ [الرحمن] أى : لهب النار الصافى الخالص الذى لا دخان فيه ، وهذا اللهب يكون أشد حرارة .

﴿ وَنُحَاسٌ .. (٣٥) ﴾ [الرحمن] أى المذاب وهو من أدوات العذاب ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) ﴾ [الرحمن] لا تتمكنان من النفاذ ، ولا تجدان مَنْ يدفع عنكما العذاب .

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ[1]
(٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ
إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) ﴾

(١) الدهان : فى الدهان قولان : أحدهما أنه مفرد وهو الأديم الأحمر . قاله ابن عباس . والثانى أنه جمع دهن والدهن تختلف ألوانه بخضرة وحمرة وصفرة . حكاه اليزيدى . وقال الفراء : شبه تلوُّن السماء بتلون الوردة من الخيل . وشبه الوردة فى اختلاف ألوانها بالدهن . [زاد المسير لابن الجوزى] .

نلاحظ أن هنا أسلوبَ شرط ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ ..(٣٧)﴾ [الرحمن] وجوابه ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩)﴾ [الرحمن] وفَصل بين الشرط والجواب ، لأن فى كل منها آية وعجيبة ، وكل منهما من آلاء الله ، فجاء بكل جزء منهما فى آية وذيلها بقوله ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨)﴾ [الرحمن]

وانشقاق السماء من علامات القيامة يوم الحساب ويوم يسأل كلاً عن عمله ، لذلك وقف بعض المستشرقين عند هذه الآية يقولون إنها تتعارض مع قوله تعالى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾ [الصافات]

وهذا التعارض الذى يرونه فى الآية ناتج عن عدم إلمامهم بملكة اللغة وتذوقها ، لأن السؤال فى العربية له وجهان : التلميذ يسأل المعلم ليعلم منه الحق ، والمعلم يسأل التلميذ ليقرره بالحق .

فقوله تعالى :﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤)﴾ [الصافات] سؤال إقرار ليقروا على أنفسهم .

ومعنى ﴿لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩)﴾ [الرحمن] نعم لأننا لسنا فى حاجة إلى كلامهم ولا اعترافهم ، لأننا سجلنا عليهم وكتبتْ ملائكتنا عليهم أعمالهم فلا داعى لأن نسألهم عنها .

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي[1] وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢)﴾

هذا موقف من مواقف القيامة ، حيث تعرف ملائكة العذاب المجرمين بعلامات مميزة ، فأهل الإجرام يُعرفون ﴿بِسِيمَاهُمْ (٤١)﴾ [الرحمن] أى : بعلامتهم بسواد وجوههم ، فيأخذونهم من نواصيهم أى : شعر مقدمة الرأس يجمعونها مع الأقدام ، ثم يُلقون بهم فى جهنم والعياذ بالله ، وهذا الأخذ فيه إذلال وإهانة ، فضلاً عن العذاب لأن الناصية محلّ عزّة الإنسان وكرامته .

﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾

الحق سبحانه وتعالى يُقرعهم ويُؤنبهم ويزيد من حسرتهم ، فتقول لهم ملائكة العذاب ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ ..(٤٣)﴾[الرحمن] أى : التى ترونها وتقاسون حرّها الآن هى التى كنتم تكذِّبون بها فى الدنيا ، فذوقوا حرّها الآن .

وتلاحظ أن السياق استخدم الفعل المضارع الدال على الاستمرار ﴿يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣)﴾[الرحمن] أى : فى الدنيا ، أما الآن فهم

(١) النواصي : جمع ناصية وهو ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس فوق الجبهة . ومعنى ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ (٤١)﴾ [الرحمن] أي : يُجر المجرمون من نواصيهم وأقدامهم كناية عن إذلال المجرمين وإهانتهم يوم القيامة إذ يُطوى كل مجرم فتربط ناصيته مع قدميه ويؤخذ فيلقى في النار عاجزاً مهاناً . [القاموس القويم ٢/ ٢٧٠] .

يعاينونها ويباشرون حرَّها .

إذن : أراد أنْ يستصحب التكذيب منهم فى الدنيا ، وكأنه واقع منهم الآن ، وهذا أنكى لهم . وأشد فى تأنيبهم .

وقوله تعالى : ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا ..(٤٤)﴾[الرحمن] أى : بين جهنم ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤)﴾[الرحمن] وبين الشراب الحميم الذى تناهى حرُّه حتى بلغ الغاية فيُقطِّع أمعاءهم ، فكلما اشتدت عليهم حرارة جهنم طلبوا الشراب الذى يخفف عنهم فيذهب بهم إلى الحميم .

وهم يأملون شراباً يلطف من حرارة جهنم ، فإذا به يزيدهم حرارة ، فهم كالمستجير من الرمضاء بالنار ، ومع ذلك نرى الأداء القرآنى يُذيِّل الآية بقوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾ [الرحمن]

فهذا الحديث وهذا الوصف للعذاب يُعد من آلاء الله ومن نعم الله علينا ، لأنه يجعلنا نهرب من هذا المصير ونتلاشى الوقوع فى أسبابه .

ثم يأتى الحق سبحانه بالمقابل :

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
(٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ[1] (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ
تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ
زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣)﴾

(١) الأفنان : جمع فنن وهو الغصن المستقيم من الشجرة ، والأفنان تحمل الثمار ولها ظل ظليل وذلك كناية عن النعيم الذى يلاقيه أهل الجنتين . [القاموس القويم ٢/٨٩] .

أى : خاف صفات الجلال من الله تعالى ، خاف حسابه وعقابه ، ما جزاؤه ؟ له ﴿جَنَّتَانِ (٤٦)﴾[الرحمن] لا جنة واحدة ، وهنا أيضاً وقف المستشرقون يقولون : أهى جنة أم جنتان ؟ قالوا : جنتان باعتبار أنه تعالى يتكلم عن الإنس والجن ولكلٍّ جنته .

وآخرون أخذوها بمعنى آخر ، فقالوا : جنة المؤمن التى أعدها الله له فى الآخرة ، وجنة الكافر التى أعدها الله له إنْ آمن ، فلما لم يؤمن ورثها عنه المؤمن ، كما سبق أنْ أوضحنا ، وهكذا يكون للمؤمن جنتان .

وهذه الآية وقف عندها سيدنا شقيق البلخى[1] وهو أحد العارفين بالله ، وكان له تلميذ اسمه حاتم وغلب عليه لقب الأصم[2] وكان لهذا اللقب قصة تُرينا مدى الارتقاء فى الخَلْق عند هؤلاء الناس الذين خافوا مقام ربهم .

قالوا : إن امرأة جاءته فى حاجة لها ، فلما دخلتْ عليه غلبها ما يغلب الناس من الضراط ، فقال لها : ما تريدين ؟ وأعادها كأنه لا يسمع ما حدث منها تأدباً منه ، لذلك لُقِّب بالأصم[3] .

(١) هو : شقيق بن إبراهيم بن على الأزدى البلخى أبو على ، زاهد صوفى من مشاهير المشايخ فى خراسان ، وكان من كبار المجاهدين استشهد فى غزوة كولان (عام ١٩٤ هـ / ٨١٠ م) [الأعلام للزركلى ٣/١٧١] .

(٢) هو : حاتم بن عنوان أبو عبد الرحمن المعروف بالأصم زاهد اشتهر بالورع والتقشف ، له كلام مدون فى الزهد والحكم ، من أهل بلخ ، زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل ، شهد بعض معارك الفتوح ، توفى عام (٢٣٧ هـ / ٨٥١ م) [الأعلام للزركلى ٢/١٥٢] .

(٣) ذكر الأبشيهى فى كتابه « المستطرف فى كل فى مستظرف » أن سبب تسميته بالأصم ما حكاه أبو على الدقاق أن امرأة جاءت تسأله عن مسألة ، فاتفق أنه خرج منها صوت ريح فخجلت المرأة ، فقال حاتم : ارفعى صوتك وأراها أنه أصم فسُرَّت المرأة بذلك . فغلب عليه هذا الاسم . [باب فى الخير والصلاح] .

الشاهد أن البلخى سأل تلميذه حاتم الأصم : كم مُكْثك معى ياحاتم ؟ قال : ثلاث وثلاثون سنة ، قال : فماذا أفدتَ منى فى هذه المدة ؟ قال : مسائل .

قال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، طوال هذه المدة ما أفدتَ غير مسائل ؟ قال : هو كما أخبرتك قال : ما هى ؟ فقال : أحببتُ الجنة لأننى رأيتَ الخلق الذين أعاصرهم كلهم غل وحقد بعضهم على بعض فكرهتُ هذه الخصال ، فلما قال الله تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ .. (٤٣)﴾[الأعراف] اشتقتُ للجنة التى لا يُوجد فيها غلٌّ ، قال : أحسنت فما الثانية ؟ قال : عرفت أن السبيل إليها مخافة الله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾[الرحمن] فخفتُ مقام ربى ، ونزعت من نفسى هواها فاستقامت لى الطاعة ، يشير إلى قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَىٰ (٤١)﴾ [النازعات]

فقال : أحسنتَ يا حاتم ، فما الثالثة ؟ فقال : استقرأتُ الخَلْق فوجدتُ لكلٍّ واحد منهم حبيباً يحبه ويصاحبه ، لكن مهما كان الحب بينهما فإنه يفارقه عند دخوله القبر ، فأحببت أنْ يكون لى صاحب لايفارقنى فى قبرى ، فلم أجد غير عملى .

فقال : أحسنتَ يا حاتم ، فما الرابعة ؟ قال : رأيت الخَلْق كُلٌّ منهم يحب شيئاً يحافظ عليه ، ومع ذلك قد يسرقه منه لص أو تنتابه الأغيار ، لذا جعلت عملى كله لوجه الله ليكون ربى هو الأمين عليه .

قال : فما الخامسة ؟ قال : علمتُ أن الناس يتعادون ويتحاسدون ويتباغضون ، فلما بحثتُ فى سبب ذلك وجدته سعة الرزق عند هذا ، وضيق الرزق عند ذاك ، فلما قرأتُ قوله تعالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٣٢)﴾ [الزخرف] فاطمأن قلبى وألقيتُ عنى الغل والحقد والحسد .

قال : فما السادسة ؟ قال : رأيتُ ما بين الناس من عداوات فقرأتُ : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ..(٦)﴾ [فاطر] فتركتُ عداوة الخَلْق ووجهت عداوتى كلها للشيطان .

قال : فما الأخيرة يا حاتم ؟ قال : وجدتُ الناس يثقون فى أشيائهم من مال وعقار أو تجارة وصناعة ، وأنها تفوت صاحبها ، فتوكلت على الحىِّ الذى لا يموت ولا يفوت .

وقوله تعالى : ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨)﴾ [الرحمن] أى : الجنتان فيهما أفنان ، جمع فنن ، وهو الغصن ، فالجنتان مليئتان بالأغصان الكثيرة الملتفة المتشابكة ، بحيث تجن أو تستر مَنْ يسير فيها.

﴿فِيهِمَا ..(٥٠)﴾[الرحمن] أى : الجنتين ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠)﴾ [الرحمن] أى : بالماء العذب ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢)﴾ [الرحمن] أى : صنفان ، قالوا : صنف تعرفه وصنف لا تعرفه ، فإذا كان هذا حال التفكه وهو زيادة ورفاهية ، فما بالك بالضروريات ؟

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ
بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ[1] وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ[2] إِنسٌ قَبْلَهُمْ
وَلَا جَآنٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ
وَٱلْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) ﴾

تستمر الآيات فى تعداد مظاهر النعيم وألوانه فى الجنة ، ومنها أنْ ترى أهل الجنة ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا .. (٥٤) ﴾ [الرحمن] أى : حشْوها ﴿ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ .. (٥٤) ﴾ [الرحمن] وهو الحرير الغليظ .

﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) ﴾ [الرحمن] الجنَى : هو الثمر الذى نضج وحان وقت جَنْيه ﴿ دَانٍ (٥٤) ﴾ [الرحمن] قريب فى متناول الأيدى ، لا يمنعك عنه مانع ، ولا يحول دونه حائل ، فهو قريب من يدك أينما كنتَ وعلى أىِّ هيئة ، تناله وأنت قائم ، وتناله وأنت قاعد أو نائم على سريرك تتقلَّب فى هذا الحرير .

بل فيها أكثر من ذلك ، فمجرد أنْ يخطر الشىء ببالك تجده بين يديك[3] دون أنْ تُحرك ساكناً ، ودون أنْ تبذل أىَّ مجهود ﴿ لَهُم مَّا

---

(١) إستبرق : قال الزجاج : هو الديباج الغليظ الحسن . فهو حرير سميك [لسان العرب - مادة : استبرق] .

(٢) يطمثهن : الطمث : المسّ ، ويكنى به عن المباشرة الجنسية لأول مرة واستعمل فى افتضاض العذراء . [القاموس القويم ١/٤٠٦] .

(٣) أخرج ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة والبزار وابن مردويه والبيهقى فى البعث عن عبد الله ابن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً » . ثم أورده السيوطى فى تفسيره الدر المنثور فى تفسير آية ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) ﴾ [الواقعة] .

يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾ [ق]

ثم يحدثنا عن لون آخر من نعيم الجنة وهو الحور العين ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. (٥٦) ﴾ [الرحمن] أى : نساء حسناوات قصرْنَ أبصارهن على أزواجهن ولم يتعدينهم إلى غيرهم .

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) ﴾ [الرحمن] أى : لم يسبق لهُنَّ الزواج ولم يفُض بكارتهن أحد ، لا من الإنس ولا من الجن[1] ، وهذا يعنى أنهن محفوظات مقصورات لأهل الجنة ﴿ كَأَنَّهُنَّ .. (٥٨) ﴾ [الرحمن] أى : فى الحسْن والجمال ﴿ الْيَاقُوتُ[2] وَالْمَرْجَانُ (٥٨) ﴾ [الرحمن]

ولك أنْ تسأل : ما السبيل إلى كلِّ هذا النعيم ؟ فتجيبك الآيات :

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ (٦٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) ﴾

فالجزاء من جنس العمل ، ولما أحسن المؤمن أحسن الله إليه ، وتداركته رحمة الله فيما قصّر فيه ، وإلا فالعمل وحده لا يكفى لبلوغ هذه المنزلة .

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
(٦٣) مُدْهَآمَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) ﴾

---

(١) قال مجاهد : إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) ﴾ [الرحمن] قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٨١) : « ذلك بأن الله تبارك وتعالى وصف الحور العين بأنه لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . يعلمك أن نساء الآدميات قد يطمثهن الجان ، وأن الحور العين قد برئن من هذا العيب ونُزهن والطمث الجماع » .

(٢) قال الحسن البصرى : هُنَّ فى صفاء الياقوت وبياض المرجان . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٩/٦٥٨٢] .

أى : من دون الجنتين السابقتين ، وأقل منهما فى المنزلة جنتان أخريان ، ذلك لأن الجنة منازل ودرجات بحسب الأعمال والإخلاص فيها لله تعالى ، وسيأتى فى سورة الواقعة بيان لهذه المنازل ، فالجنتان السابقتان بكل هذا النعيم هى درجة المقربين ، ومَنْ دونهما ، وأقل منهما جنتان لأهل اليمين .

ومعنى ﴿ مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) ﴾ [الرحمن] أى : الجنتان مدهامتان ، والمدهام هو اللون الأخضر الذى اشتدتْ خُضْرته حتى مال إلى السواد من كثرة الخضرة فيه ، وهذا اللون لا تجده إلا فى الأرض الخصبة التى توفَّر لها الارتواء بالماء العذب .

لذلك بعد أنْ وصف الجنتين بأنهما مدهامتان قال :

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ[1] (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ[2] (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) ﴾

أى فى هاتين الجنتين عينان تفوران بالماء ، والماء العذب هو مصدر النماء ومصدر النضرة فى النبات . ثم ذكر من نعيم هذه المنزلة ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) ﴾ [الرحمن] وفى المنزلة الأعلى قال : ﴿ مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) ﴾ [الرحمن]

---

(١) المعنى نضاختان بالخير والبركة . قاله الحسن ومجاهد . وقال ابن مسعود وابن عباس أيضاً : تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور فى دور أهل الجنة كما ينضح رش المطر . [قاله القرطبى فى تفسيره ٩/٦٥٨٥] .

(٢) ذكر الله الفاكهة ثم أفرد النخل والرمان ولم يعدهما من الفاكهة فثمرة النخل فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء . فلم يخلصا للتفكُّه .

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ[1] حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) ﴾

هذا وصف أيضاً لنساء الجنة فهُنَّ خيْرات قالوا فى الأخلاق والشِّيَم ، وحسان الوجوه والمنظر ، وهُنَّ ﴿ حُورٌ .. (٧٢) ﴾ [الرحمن] الحوَر مما تُمدح به المرأة وهو شدة بياض العينين وشدة سوادهما ﴿ مَّقْصُورَاتٌ .. (٧٢) ﴾ [الرحمن] محفوظات مُخدرات فى بيوتهن لا يبتذلن ولا يخرجن للعمل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ[2] خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ[3] حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) ﴾

---

(١) فَهُنَّ خيرات أى ذوات خير وقيل : مختارات اختارهن الله فأبدع خلقهن باختياره سبحانه ، فاختيار الله لا يشبه اختيار الآدميين . وهُنَّ حسان بوصف الخالق لهن بالحسن ، لا بوصف البشر ، فانظر ما حُسْنهن .

(٢) الرفرف : اشتقاق الرفرف من رف يرف إذا ارتفع ، ومنه رفرفة الطائر لتحريكه جناحيه فى الهواء . والرفرف أيضاً جوانب الفسطاط (الخيمة) لأنها ترتفع مع الهواء . فالمعنى على هذا أنهم متكئون على وسائد مرتفعة . قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٥٩١) روى لنا فى حديث المعراج أن رسول الله ﷺ لما بلغ سدرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مسند العرش ، فذكر أنه قال : « طار بى يخفضنى ويرفعنى حتى وقف بى بين يدى ربى » .

(٣) قال الخليل : كل جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقرى . [تفسير القرطبى ٩/٦٥٩٢] .

قالوا ﴿ رَفْرَفٍ .. (٧٦) ﴾ [الرحمن] هو الوسادة التى يُتكأ عليها ، أو الفرش الذى يجلس عليه .

﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) ﴾ [الرحمن] العبقرى : البساط الذى بلغ الغاية فى حُسْنه ، وعبقرى فى لغة العرب نسبة إلى وَاد فى الجزيرة العربية اسمه وادى عبقر ، يعتقدون أنه تسكنه الجان ، فمَنْ أتى بشىء بديع يقولون أنه عبقرى . يعنى : ذهب إلى هذا الوادى وعلَّمته الجن ، وأصبحوا يقولون للشىء الذى بلغ فى الحُسْن مبلغاً يفوق صناعة البشر : عبقرى .

ثم يختم الحق سبحانه وتعالى هذه السورة بالثناء على نفسه سبحانه فقال :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ (٧٨) ﴾

كلمة (تبارك) من البركة ، فأثبتت البركة للاسم نفسه ، فمجرد الاسم فيه بركة .

وكلمة (تبارك) لا يُشتق منها غير هذا اللفظ ، فلا يأتى منها المضارع ولا الأمر ولا اسم الفاعل . ومعناها : كَثُر خير الله وزاد ، وعَظُم هذا الخير ، وتنزَّه عن النقص .

الحق سبحانه وتعالى فى مواضع أخرى قال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ .. (١) ﴾ [الفرقان] وقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ .. (١) ﴾ [الملك] فتوجهت الصفة إلى المسمى وإلى ذاته تعالى .

أما هنا فقال : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ .. (٧٨) ﴾ [الرحمن] فاثبت الصفة

للاسم ، فكيف يكون الاسم مُعظماً كثير الخير وهذه الصفة تكون فى المسمى ؟

قالوا : لأن الأسماء حين تُوضع يُراعى فيها التفاؤل بمَنْ يُوضع له الاسم ، فنسمى المولود مثلاً ذكى أملاً فى أن يكون ذكياً ، وسعيد أملاً فى أنْ يكون سعيداً وهكذا .

وبعد ذلك يأتى واقع المسمى على خلاف اسمه وعلى نقيضه ، نسميه أميناً فيكون خائناً ، إذن : تبارك الاسم حين يصدق الوصف على الموصوف به فنسميه سعيداً ويكون فى الواقع سعيداً .

إذن : حصل للاسم بركة المسمى بأنْ وافقه ولم يُكذّبه ، لذلك قال سبحانه ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ .. (٧٨) ﴾ [الرحمن] فهو سبحانه أحق الأسماء بهذه البركة .

ومعنى ﴿ ذِى الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٧٨) ﴾ [الرحمن] صاحب العظمة وصاحب الهيبة المرهوبة وصاحب القوة والبطش والجبروت ، وسبق أنْ قلنا : إن لله تعالى صفات جلال هى هذه الصفات ، وصفات جمال هى الرحمة والرأفة والمغفرة والتوبة وغيرها .

فحين يتجلى الحق سبحانه عليك بصفات الجلال ترى ما يُخيفك ويُرهبك ، وحين يتجلى عليك بصفات الجمال ترى ما يُريحك ويسعدك ويسرُّك .

لذلك لما قال أحد الإخوان : إننى أجد نفسى فى المدينة غير ما أجدها فى مكة ، قلنا : لأن الله تعالى يتجلى فى مكة بصفات الجلال ،

ويتجلى فى المدينة بصفات الجمال .

وكما أنه تعالى ﴿ذِى الْجَلالِ (٧٨)﴾ [الرحمن] هو أيضاً - وفى نفس الوقت - ذو الإكرام وذو الفضل والإنعام والإحسان إلى الخلق .

سورة الواقعة

سورة الواقعة(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾

كلمة وقع تدل على أن شيئاً سقط من أعلى سقوطاً لازماً لايستطيع أحد أنْ يمنعه . ونقول : إن الجاذبية هى التى أسقطته . وتأتى هذه المادة (وقع) فى المسائل الهامة التى فيها هيبة ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ .. (٨٢)﴾ [النمل] وقال : ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨)﴾ [الأعراف] وقال : ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ (٧١)﴾ [الأعراف]

(١) سورة الواقعة هى السورة رقم (٥٦) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٩٦) آية . وهى سورة مكية نزلت فى مكة فى قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها نزلت بالمدينة وهى قوله تعالى : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾ [الواقعة] نزلت سورة الواقعة بعد سورة طه وقبل سورة الشعراء . [تفسير القرطبى ٩/٦٥٩٥ ، والإتقان للسيوطى ١/٢٧] .

إذن : وقع تدل على أمر حاسم وحاصل بذاته بأمر الله الذى قدَّره وضبطه على أنْ يقع بهذه الصورة ، كما تضبط المنبه ليُوقظك لصلاة الفجر ، وحين يرن المنبه فى وقت الفجر ويُوقظك لا يكون الفضل والعظمة للمنبه ، إنما للذى ضبطه على هذا الوقت ، كذلك إذا وقع الحق تكون العظمة لمن أوقعه .

فكلمة (وقعت) يعنى : هى أمر واقع لا مردَّ له ، فقال سبحانه : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١﴾ [الواقعة] أى : القيامة واقعة أزلاً وتدبيراً ، كأنها وقعتْ بالفعل لأن الذى يتكلم بهذا الكلام هو الحق سبحانه الذى لا رادّ لأمره .

لذلك سماها أزلاً وقال بعدها ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة] لأنهم كانوا يُكذِّبون بها وينكرون الرجعة بعد الموت ، فالحق سبحانه يخبر عن القيامة بأنها وقعتْ بالفعل ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة] كأنها حدثت .

فالله تعالى سماها أزلاً الواقعة ، وجعل لها وقتاً مضبوطاً عنده تعالى ، ثم قال أن الواقعة التى أخبرنا بها سابقاً وقعتْ بالفعل الآن ، وساعة ما أخبرنا بها كان هناك تكذيب بها ، ولكن بعد أنْ وقعت ليس هناك تكذيب .

والواقعة اسم من أسماء القيامة ، ولها أسماء عدَّة لكل منها معنى ، ويعطينا لقطة من هذا اليوم الخطير المفزع ، تأمل فهى : الطامة والحاقة والقارعة والصاخة والواقعة ، فلكل منها ملحظ وهى جامعة لكل هذه المعانى من زوايا مختلفة فى الوقت الواحد .

وباستقراء مادة وقع فى القرآن نجدها تدل على شىء مخيف إلا

فى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. ۝١٠٠﴾ [النساء]

أى : سقط أجره على الله ، وحتى نفهم معنى (وقع أجره على الله) علينا أن نقرأ قوله الحق ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ .. ۝٨٢﴾ [النمل]

والوقوع هنا السقوط ولكنه ليس كالسقوط الذى نعرفه ، بل هو الذهاب إلى الله ، ولماذا يستخدم الحق هنا (وقع) بمعنى (سقط) هو سبحانه يلفتنا إلى ملحظ هام ، حيث يكون الجزاء أحرص على العبد من حرص العبد عليه ، فإذا أدرك العبدَ الموتُ فالجزاء يسعى إليه وهو عند الله ويعرف الجزاء من يذهب إليه معرفة كاملة .

ومعنى ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة] أى : ساعة أنْ تقع ليس لأحد أنْ يُكذِّب بها ، مثل : ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ .. ۝٧٨﴾ [الإسراء] فاللام لام العندية : أى عند دلوك الشمس .

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤
وَبُسَّتِ[1] ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾

أى : خافضة لقوم رافعة لآخرين ، خافضة للكافرين الذين كذبوا بها فلم يعملوا حسابها ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[2] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ

(١) بسَّه : فتَّه وجعله أجزاء دقيقة . قال تعالى : ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ [الواقعة] أى : فُتت تفتيتاً شديداً . [القاموس القويم ١/٦٦] .

(٢) القيعة : جمع قاع كجار وجيرة . والقاع أيضاً واحد القيعان كما يقال جار وجيران وهى الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب .

فوفاه حسابه والله سريع الحساب (٣٩) ﴾ [النور]

وهى رافعة للمؤمنين بها الذين عملوا لها وكانوا ينتظرونها ويحتسبون أجرهم فيها ، فترفعهم فى درجات الجنات ، قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق .. (١٨) ﴾ [الشورى] إذن : القيامة خافضة للكافرين فى دركات جهنم ، رافعة للمؤمنين إلى درجات الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ إذا رجت الأرض رجا (٤) ﴾ [الواقعة] هذه الأرض المثبّتة بالجبال الرواسى ترج وتهتز ، وقد أخذنا من ذلك أن الأرض خلقها الله تعالى على هيئة الحركة ثم ثبّتها بالجبال ، ولو كانت على هيئة الثبات ما احتاجت إلى الجبال فوقها ، إذن : تثبت الآيات أن الأرض تتحرك وتدور .

والرجّ خلخلة الشىء من مكانه وهزّه هزاً عنيفاً كما تخلع الوتد ، فلا تنزعه من مقابض الأرض عليه مرة واحدة ، إنما تحركه لتخلع جذوره وتُخفف قبضة الأرض عليه ، فيسهل عليك انتزاعه ، كذلك ترج الأرض وتهز بقوة .

وقد عبّر عن هذا المعنى بالزلزلة : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها (١) ﴾ [الزلزلة] وقال : ﴿ إن زلزلة الساعة شىء عظيم (١) ﴾ [الحج] ولأن هذا الرج بقوة وعنف أكد قوته بالمفعول المطلق المبيِّن للنوع ، فقال ﴿ رجت الأرض رجا (٤) ﴾ [الواقعة] أى : رجاً قوياً عنيفاً ، وما بالك إذا كان الفعل لله تعالى ؟!

وقوله تعالى : ﴿ وبست الجبال بسا (٥) ﴾ [الواقعة] هذه نتيجة الرجة العنيفة التى تفتت هذه الجبال الصلبة الجامدة وتجعلها كما

نقول فى الريف (بسيسة) ، ومعنى بُسَّت أى : تفتتت فصارت كالدقيق .

﴿ فكانت هباء منبثا (٦) ﴾ [الواقعة] أى : كالغبار الذى لا يُرى بالعين المجردة إلا فى شعاع الشمس لدقّته وصغره ﴿ مُنبثا (٦) ﴾ [الواقعة] متفرقاً .

وفى آية أخرى عبر القرآن عن هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿ وتكون الجبال كالعهن[1] المنفوش (٥) ﴾ [القارعة] أى : الصوف المندوف ، والصوف حينما تتفرّق شعيراته تكون كالهباء المنتشر المتفرق .

إذن : القيامة تبدأ بتهدُّم هذا الكون كله ، كل ما يحيط بك من عناصر الكون الثابتة تزول ، فالسماء تنفطر وتتشقق ، والنجوم تنكدر ، والجبال تُنسف ، ثم يأتى الدور عليكم وتقفون للحساب :

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً (٧) فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ﴾

أى : سيكون الخلق فى هذا الموقف على ثلاثة أصناف ، أولها أصحاب الميمنة وفى موضع آخر قال (أصحاب اليمين) وهم الذين

(١) العهن : الصوف المصبوغ بأى لون أو ألوان مختلفة . [القاموس القويم ٢/ ٤٠] .

يأخذون كتبهم باليمين ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾ [الواقعة] تفخيم وتعظيم لهذه المرتبة ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ [طه]

واليمين تدل على الخير لذلك تستخدم اليد اليمنى فى الأعمال الخيّرة المفضلة ، لذلك أمرنا الشرع بالتيمُّن ، وفضل اليمين لا تُحرم منه الشمال ، فأنت حينما تمسك بالمقص مثلاً لتقصّ أظافرك ، فاليمين تقصّ للشمال بدقة وأمان ، أما الشمال فتقصّ اليمين هكذا كيفما اتفق وبلا دقة .

وهذا يُعلِّمنا درساً فى الحياة هو أننا يمكن أنْ نستفيد بمَنْ هو أفضل منا فلا نحقد عليه ولا نحسده ، لأنه يكمل ما عندنا من نقص ، وخيره سيعود علينا ، فيتحمل هو شيئاً من نقصك .

ومن هنا حثَّ الشارع على أنْ نتعلم العلم ونُعلّمه ، وننشر فى المجتمع الفضيلة ، ونأمر بها وننهى عن الفحش والرذيلة ، لأن الخير عند غيرك سينالك منه وكذلك الشر ، ولو التزم الناس بالمنهج لاستراحوا وأراحوا .

وقد أخبر الحق سبحانه عن أهل الميمنة أنهم يفتخرون بكتبهم حينما يستلمونها باليمين ويتباهوْنَ بها ، يقول قائلهم : ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الحاقة] هؤلاء هم الذين رفعتهم القيامة .

الصنف الثانى هم أصحاب المشأمة والعياذ بالله ، وهم الذين يأخذون كتبهم بالشمال ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾﴾ [الواقعة] فاليمين تيمُّن وخير ، والشمال شُؤْم وشرٌّ .

وقد حكى القرآن عنهم حينما يأخذون كتبهم بالشمال ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة] فيؤمر به : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ[1] ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا[2] سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة]

والصنف الأخير هم ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الواقعة] كررها للتعظيم ، وهؤلاء وإنْ أتوا فى الذكر مؤخراً إلا أنهم فى الترتيب أولاً ، وهم أعلى الدرجات بدليل أنه سبحانه أخبر عنهم بقوله : ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة] أى : مقربون من العرش ، فإنْ أردت الترتيب من أعلى ، فالسابقون ثم أصحاب الميمنة ثم أصحاب المشأمة .

إذن : هذه مراتب ثلاث احتلها أصحابها فى الآخرة بحسب أعمالهم فى الدنيا : فالسابق إنسان باكر حياته بعمل الخير منذ صِغَره ، ثم ظل على هذا حتى قضى فسبق إلى الجنة ، وصاحب اليمين أو الميمنة إنسان باكر حياته منذ صغره بعمل الشر ، لكن تداركته نفسه اللوّامة فتاب وأناب وظل على عمل الخير حتى قُبض ، وصاحب المشأمة هو الرجل الذى باكر حياته بعمل الشر ، وظل على ذلك حتى قُبض .

والجنة هى عطاء الله ، وفيها يجتمع أصحاب الميمنة والسابقون ، إلا أن السابقين يكونون فى منزلة أعلى وأقرب من العرش ﴿أُولَئِكَ

(١) صلُّوه : أى أدخلوه النار . صلاه الله النار تصلية : أدخله النار . وقوله ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة] أى إدخال الجحيم . [القاموس القويم ١/٣٨٢] .

(٢) ذرعها : قال ابن عباس : بذراع الملَك . وقال نوف الشامى : كل ذراع سبعون باعاً . الباع أبعد مما بينك وبين مكة . وقال سفيان : كل ذراع سبعون ذراعاً . [زاد المسير لابن الجوزى الحاقة ٣٢] .

الْمُقَرَّبُونَ (١١)﴾ [الواقعة] أين ؟ فى جنات النعيم ، ونفهم هذا من قوله تعالى فى سورة الزمر :

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)﴾ [الزمر] .. ثم قال بعدها : ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ..(٧٥)﴾ [الزمر]

إذن : القرب هنا يعنى القرب من العرش .

والسابق هنا هو الذى ينافس غيره ليسبقه ، والمسابقة هنا فى الخير وهو أمر مطلوب شرعاً ، لذلك أمرنا الحق سبحانه بأنْ نسارع وأنْ نسابق : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَـٰوَاتُ وَالْأَرْضُ ..(١٣٣)﴾ [آل عمران] وقال : ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ..(٢١)﴾ [الحديد]

والسباق هو سباق إيمان وعمل صالح ، سباق مَنْ يريد أنْ يسبق ، وفى نفس الوقت يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، سباق ليس فيه حقد ولا أنانية .

المؤمن يسابق غيره ، والمسألة واضحة فى ذهنه ، فالجوائز تنتظر مَنْ يسبق ، والعطاء عطاء لا ينفد . والعجيب أن المؤمن يسرع فى عمل الخير فى حياته ، وقد يسرع حتى فى موته شوقاً إلى الجنة التى رأى علاماتها وهو فى سكرات الموت .

لذلك عندنا فى الفلاحين يحكون أن فلاناً أسرع به النعش ، فالبعض ينكر عليهم ويقولون : هذا وهم ، لكن ثبت أن النعش قد يسرع ببعض الناس الطيبين ، ومن سيرتهم نعلم أنهم كانوا على خير وأنهم يسرعون تشوّقاً إلى الجوائز ، والذين يباشرون شئون الموتى يعلمون أن الميت تظهر عليه علامات حُسْن الخاتمة ، أو العياذ بالله علامات سوء الخاتمة .

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦)﴾ (١)

هذا الكلام متصل بما قبله ، فالسابقون المقرَّبون تجدهم ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣)﴾ [الواقعة] أى : جماعة تمثل كثرة ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣)﴾ [الواقعة] أى : من الأولين فى الإسلام السابقين إليه وهم جماعة الصحابة رضى الله عنهم .

فالسابقون المقربون كُثْر فى عصر الصحابة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤)﴾ [الواقعة] أى : هؤلاء قلة فى العصور التالية ، قلة هم الذين يُوصفون بأنهم سابقون مُقربون فى عصرنا وفى العصور السابقة علينا فى هذه الأزمان المتأخرة .

وكثيراً ما نسمع جدالاً بين الناس يقولون : فلان رجل طيب يفعل كذا وكذا من أعمال الخير وهو أشبه بالصحابة ، فيرد الآخر يقول : لا ليس بيننا أحد كالصحابة ، ولا يرقى عملنا مهما كان لدرجتهم .

لكن القرآن يحسم لنا هذه القضية ، فالسابقون المقربون موجودون فى أمة الإسلام ، فى الأولين الذين عاصروا رسول الله

---

(١) قال عروة بن رويم : لما أنزل الله تعالى ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤)﴾ [الواقعة] بكى عمر وقال : يا رسول الله آمنا بك وصدقناك ومع هذا كله من ينجو منا قليل ، فأنزل الله تعالى : ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (٤٠)﴾ [الواقعة] فدعا رسول الله ﷺ عمر فقال : يا عمر بن الخطاب قد أنزل الله فيما قلت ، فجعل ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، فقال عمر : رضينا عن ربنا وتصديق نبينا . فقال رسول الله ﷺ : من آدم إلينا ثلة ، ومنى إلى يوم القيامة ثلة ، ولا يستتمها إلا سودان من رعاة الإبل ممن قال لا إله إلا الله . [أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول ص ٢٢٩] .

والتابعين لهم ، وموجودون كذلك حتى عصرنا الحالى لكنهم كثيرون فى الأولين قليلون فى الآخرين .

قليلون إما لكثرة الناس فيظهر السابقون بينهم قلة ، وإما لتفشى الفتنة وكثرة الفساد ، إذن : هم موجودون . لذلك قال الشاعر :

إنَّ الذى جَعلَ الحَقيقةَ عَلْقماً ... لَمْ يُخلِ مِنْ أَهلِ الحَقيقةِ جِيلا
وَلَرُبّما قَتلَ الغرامُ رِجَالَها ... قُتل الغَرام كَم اسْتَباحَ قَتيلاَ

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾[الواقعة] أى : جزاؤهم وإقامتهم فى الجنة ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾[الواقعة] أى منسوجة نَسْجاً دقيقاً متداخلاً بخيوط الذهب ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ..﴿١٦﴾ ﴾[الواقعة] أى : على هذه السُّرر ، والاتكاء وضع يدل على الطمأنينة والراحة والرفاهية .

﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[الواقعة] أى : أنهم فى وضع التقابل لا التدابر ، وجوههم متقابلة ، وهذا الوضع يدل على الأُنْس والراحة ، حيث تتقابل الوجوه التى يملؤها البِشْر والسرور ، وهذا الوضع متوفر لهم دائماً حتى مع حركتهم لا يتدابرون .

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ(١) ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

(١) الولدان : الغلمان . وقال الحسن البصرى : هؤلاء أطفال لم يكن لهم حسنات فيجزون بها : ولا سيئات فيعاقبون عليها ، فوُضعوا بهذا الموضع . وفى المخلدين قولان : أحدهما أنه من الخلد ، والمعنى أنهم مخلوقون للبقاء لا يتغيرون وهم على سن واحد .
والثانى أنهم مُقرَّطون ويقال مسوَّرون . ذكره الفراء وابن قتيبة . أى أنهم يلبسون الأقراط والأساور . [زاد المسير لابن الجوزى – آية ١٧ الواقعة] .

ومن نعيم الجنة الذى يتنعَّمون به ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[الواقعة] يطوف عليهم بأكواب الشراب ويقوم على خدمتهم ولدان ، وهم الصبيان الصغار حسان الوجوه ، فرؤية الوجه الحسن من النعمة ، وهؤلاء يبقون على هذا الشكل وفى هذا السن لا يكبرون .

وهذا حال أهل الجنة عامة أنهم يبقون على سنٍّ واحدة هو سنّ الشباب والفتوة ، لا يصيبهم هرم ولا كِبَر ، لذلك قال فى النساء ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾[الواقعة] أى : فى سنٍّ واحدة .

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾[الواقعة] أى : يطوف عليهم الولدان الحسان بأكواب جمع كوب و (أباريق) جمع إبريق ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾[الواقعة] أى : من ماء عذب يجرى من العيون ، أو من خمر ، وهذه هى أدوات الشراب .

الفرق بينها أن الكوبَ إناء يُشرب فيه ليس له يد تمسكه منها ، وليس له (بزبوز) يُصبُّ منه الماء ، فإنْ كان للإناء يد و(بزبوز) فهو إبريق ، أما الكأس فهو الكوب شريطة أنْ يكون ممتلئاً .

وهم فى هذا النعيم ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا .. ﴿١٩﴾ ﴾[الواقعة] طالما قال ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [الواقعة] إذن : الكلام عن شراب الخمر ، فلا بُدَّ أنْ يُنزهها عن خمر الدنيا ، فقال ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴿١٩﴾ ﴾ [الواقعة] أى : لا يصيبهم ما يصيب شارب الخمر فى الدنيا ، لا يصيبهم صداع .

﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[الواقعة] لا تذهب الخمر بعقولهم كما تفعل خمر الدنيا ، وهكذا يكون خمر الآخرة متعة صافية ، خلصت من كل شائبة ومن كل نقيصة .

وخمر الدنيا أول ما تعطى شاربها تُعطيه صداعاً ، ثم يشعر أنه يريد أنْ يستفرغ أو يقىء ما فى بطنه ، وهذا معنى ﴿وَلاَ يُنْزِفُونَ (١٩)﴾[الواقعة] فخمر الآخرة لذة لا يشعر شاربها بهذا الشعور ، فهى متعة وسرور خالص من كل ما يكدر .

والعجيب أنْ نرى كثيراً من شاربى الخمر يشربونها ، لأن عندهم هماً يريدون الخلاص منه ، فيستر عقله ، ويُذهبه بشرب الخمر حتى لا يُفكر فى همه ، وهكذا تتعقد الأمور ولا تحل مُشكلة ، فستْر الهَمِّ لا يُذهبه ، والعاقل هو الذى يواجه المواقف ، وينظر فى أسباب الخروج من الهَمِّ بالتفكير والتأمل والبحث عن حلول عملية .

والقرآن لما تكلم عن الخمر قال : ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ..(١٥)﴾ [محمد] فجاء لهم بشىء كانوا يرتبطون به ويحبونه ويجدون فيه متعة فجعله من نعيم الآخرة ، لكن صفّاه مما يشوبه من نقائص شراب الدنيا ، فقال ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ (١٩)﴾ [الواقعة]

﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ (٢١)
وَحُورٌ عِينٞ (٢٢) كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ (٢٣) جَزَآءَۢ بِمَا
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٢٤)﴾

أى : ومن نعيم الجنة أيضاً أنهم يجدون الفاكهة أمامهم ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠)﴾[الواقعة] هم ومما يحبون ، يتخيّرونها من بين أنواع كثيرة ليعرفوا الفرق بين هذه وهذه ، والاختيار يدل على كثرة المعروض عليهم .

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١)﴾[الواقعة] أى : مما يُفضلون ومما يُحبون .

وهكذا أتى لهم بالطعام والشراب والفاكهة ، فماذا تبقى من متعة الإنسان فى الدنيا ؟ قالوا : متعة النساء ، فقال بعدها : ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢)﴾[الواقعة] ليستوعب كلَّ المتع .

والحور جمع حوراء ، والحَوَر صفة جمال فى المرأة ، وهى شدة سواد العين مع شدة بياضها ، سواد ناصع وبياض ناصع مع اتساع العين ، لذلك مدح الشاعر العربى القديم هذه الصفة فقال :

إنَّ العُيُونَ التى فى طَرْفِها حَوَرٌ   قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلانَا
يصرعن ذَا اللبِّ حَتَّى لاَ حِرَاكَ بِهِ   وَهُنَّ أضْعَفُ خَلْقِ اللهِ إنْسَانَا

ثم وصف هؤلاء الحور العين ، فقال ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣)﴾ [الواقعة] واللؤلؤ جميل بذاته وله بريق وجاذبية ، وهو مع ذلك ﴿الْمَكْنُونِ (٢٣)﴾[الواقعة] أى : محفوظ ومصون لا يلحقه غبار يُقلل من جماله وبريقه .

ونفهم من معنى ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣)﴾[الواقعة] أن الحور العين لسْنَ فى المتعة كنساء الدنيا فإن اشتهيت النساء تجد مشاعر أرقى ولذة أرقى من هذا الذى يحدث مع نساء الدنيا .

وهذه اللذة ترتقى حتى تصل إلى درجة العليين ، وهذه الدرجة ليس فيها متعة من طعام أو شراب أو نساء ، إنما يكفيهم لذة النظر إلى الله عز وجل .

هذا كله ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾[الواقعة] أى : بسبب

أعمالهم الطيبة نالوا هذا الجزاء ، وهذا يعنى أن الأعمال ليست مقابل الجزاء ، وإلا فقد ورد فى الحديث الشريف أن سيدنا رسول الله قال : « لا يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمدنى الله برحمته »[1]

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ ﴾

أى فى الجنة ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا .. ﴿٢٥﴾ ﴾[الواقعة] اللغوُ هو الكلام الذى لا خير فيه أو هو الباطل ﴿ وَلا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾[الواقعة] لا يؤثم بعضهم بعضاً لأنهم لا يفعلون فيها الإثم ﴿ إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴿٢٦﴾ ﴾[الواقعة] أى : لا يسمعون فيها إلا هذه الكلمة كلمة السلام .

بمعنى أنْ يسلم بعضهم على بعض أو تسلم عليهم الملائكة ، أو أشرف من هذا ، وهو أن يُسلِّم عليهم الحق سبحانه وتعالى ، كما قال فى (يس) : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس]

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾
وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾
وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾
وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (حديث ٥٠٣٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « ما من أحد يدخله عمله الجنة . فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى ربى برحمة » .

سبق أنْ حدثتنا الآيات عن مراتب ثلاث : أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، ثم السابقون ، ثم بينتْ جزاء السابقين ، وأنهم كثرة فى الأولين وقلة فى الآخرين . والآن تذكر الآيات جزاء أصحاب اليمين .

وسوف نلاحظ أن جزاءهم فى الجنة أقل مرتبة من السابقين المقربين ، فكأن السياق القرآنى يُفصِّل القول فى هؤلاء الثلاثة بعد إجمال .

يقول تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾[الواقعة] فكررها هنا بعد (ما) التعجبية ليفيد التعظيم والتفخيم لهؤلاء ، كما تقول : أعطيته ما أعطيته وكما فى قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [النجم] يعنى : أوحى إليه شيئاً عظيماً يجلّ عن الوصف أو الحصر .

﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الواقعة] السدر : جمع سدرة وهى شجرة النبق ، وهذه الشجرة لها مزية كبيرة ، وهي أن سدرة المنتهى شجرة نبق ، وإن كانت في الحقيقة ليست كشجرة النبق التى نعرفها .

لذلك لما وصف ثمرها قال « كقلال هجر »[1] وثمر النبق حينما يستوى وتكون شجرته فى أرض طيبة وبيئة صالحة تجده لذيذاً حلواً

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٤١٧/١) من حديث أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يخرج من تحت سدرة المنتهى أربعة أنهار ، اثنان باطنان واثنان ظاهران ، ورأيت ورق الشجرة كآذان الفيلة وحملها كقلال هجر » . وقال : حديث صحيح مشهور من حديث قتادة عن أنس .

تأكله واحدة بعد الأخرى ، لا تحب أنْ تتركه .

والذى يعكر هذه اللذة أن شجرة السدر لها شوك يؤذيك كلما أردتَ أنْ تتناولَ ثَمرة منها ، وكثيراً ما نرى الشوك فى الأشجار النفيسة لحماية ثمارها ، كما فى الورد وفى النخل يحميه من الفئران ومن الحشرات .

أما فى الجنة فقلنا : إن النعيم فيها خَالٍ مما يشُوبه ومما يعكر صفوه ، فسدْر الجنة ﴿ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ ﴾[الواقعة] أى : مقطوع منه الشوك ، نزعنا منه ما يؤذى وأبقينا على المتعة واللذة ، والجنة ليس فيها آفات ولا حشرات تحتاج إلى أشواك لحماية الثمرة .

ومعنى ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الواقعة] الطلح شجر الموز[1] ﴿ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الواقعة] منظوم مرصوص بعضه فوق بعض ، كما نرى فى سباطة الموز ، وما فيها من تنسيق وترتيب بين أصابع الموز .

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[الواقعة]ظل ممتد دائم لا يزول ، ومعلوم أن الشمس هى التى تزيل الظل ، والجنة ليس فيها شمس ، فظل هذه الأشجار ظل دائم ممدود .

---

(١) الطلح : فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الطلح الموز . قاله ابن عباس وأبو سعيد الخدرى وأبو هريرة والحسن وعكرمة .

الثانى : أنها شجرة تكون باليمن وبالحجاز كثيراً تسمى طلحة .

الثالث : أنه الطلع . قاله على . [تفسير الماوردى آية ٢٩ - الواقعة] .

﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ[1] ﴿٣١﴾ ﴾[الواقعة] ثم ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾[الواقعة]بالله بعد أنْ استوفى لذة الطعام والشراب والتفكه ، ماذا يبقى من متع للإنسان ؟

يبقى مُتعة النساء فيعبر عنها السياق القرآنى هذا التعبير الأدبى اللطيف ، ويُكنِّى عنها بقوله سبحانه : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾[الواقعة] والفُرُش جمع فراش ، والفراش هو المحل ، ولذلك يُسمُّون المرأة فراش الرجل ، وهذا تعبير راقٍ لهذه المتعة التى تقوم على الستر والصيانة ، لذلك قال بعدها :

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا[2] ﴿٣٧﴾
لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾
وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

إذن : فهمنا من الفُرش أنها كناية عن النساء أنه سبحانه قال بعدها ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ ﴾[الواقعة] أى الحور العين أنشأهن الله

---

(١) ماء مسكوب : قال القرطبى فى تفسيره (٩/٦٦١٠) « أى : جار لا ينقطع. وأصل السكب الصب . أى وماء مصبوب يجرى الليل والنهار فى غير أخدود لا ينقطع عنهم » .

(٢) عرباً أتراباً : العُرُب : جمع العَرُوب : المرأة المتحببة إلى زوجها . [القاموس القويم ٢/١٣] .
أما الأتراب فهن اللاتى على ميلاد واحد متماثلات مستويات فى سن واحدة ثلاث وثلاثين سنة . [تفسير القرطبى ٩/٦٦١٢] .

وخلقهن خلقاً جديداً ونشأة جديدة .

فلا تأخذ الصورة التى عندك فى الدنيا فتقول أنها ستكون معى أيضاً فى الآخرة ، نعم ستكون معك إنْ كانت من أهل الجنة ، لكنها ستكون على صورة أخرى مُنقاة مُطهرة مما كان يشوبها فى الدنيا ، خالية من كلّ ما لا يعجبك منها .

لذلك قال تعالى : ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ .. (١٥)﴾ [آل عمران] مثل واحد صاحبنا كنا نتكلم فى قوله تعالى : ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦)﴾ [يس] فقال : آه يعنى فلانة ستكون معى حتى فى الجنة ؟ فقلت له : نعم لكن بعد أنْ يُطهرِّها الله من الذى لم يعجبك فيها فى الدنيا .

ومعنى : ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦)﴾ [الواقعة] يعنى : كل ما الواحد يعمل العملية يجدها بكراً فلا يزهد فيها ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧)﴾ [الواقعة] عُرباً جمع عَرُوب وهى المرأة المتحبِّبة لزوجها ﴿أَتْرَابًا (٣٧)﴾ [الواقعة] أى : فى سن واحدة ، وهذا يعنى أن العين لا تمتد إلى غير الزوجة .

وقوله تعالى : ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ (٤٠)﴾ [الواقعة] يعنى : هذه المرتبة وهم أصحاب اليمين منهم كثرة من الأولين وكثرة من الآخرين ، فهم متساوون هنا وهنا ، أما فى المرتبة الأعلى وهم السابقون فكانوا كثرة فى الأولين وقلة فى الآخرين .

ثم يُحدِّثنا عن الصنف الأخير والعياذ بالله :

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ(1) وَحَمِيمٍ (٤٢)
وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ(2) (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ
مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ(3) ٱلْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا۟
يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧)
أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ (٤٩)
لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠)﴾

أصحاب الشمال هم الذين يأخذون كتبهم بالشمال والعياذ بالله ، وقال هنا أيضاً : ﴿مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١)﴾ [الواقعة] تعجباً من حالهم ، وأن ما يُقاسونه من ألوان العذاب يفوق الوصف .

فهم ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢)﴾ [الواقعة] أى : مظروفون فى سَمُوم وحميم . والسَّموم ريح شديدة الحرارة تخترق مسام الجسم ، والحميم الماء الذى بلغ غاية الحرارة .

---

(١) سموم : الريح الحارة المؤذية التى تؤثر فى الأجسام كأنها مادة سامة تنفذ فى المسام . [القاموس القويم ١/٣٢٩] والسموم أيضاً نار جهنم قال تعالى : ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧)﴾ [الطور] .

(٢) كريم : فيه قولان :

الأول : لا بارد المدخل ، ولا كريم المخرج . قاله ابن جريج .

الثانى : لا كرامة فيه لأهله . ويحتمل ثالثاً : أنه يريد لا طيب ولا نافع . [تفسير الماوردى - آية ٤٤ الواقعة] .

(٣) الحنث : الذنب والإثم . [القاموس القويم ١/١٧٥] وقيل : هو الشرك لأنه أعظم الذنوب .

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الواقعة] اليحموم : دخان أسود شديد الحرارة ، فإذا رأوه ظنّوه ظلاً فإذا به نار تحرقهم ، ثم يصف هذا الظل بأنه ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الواقعة] لأن الظل عادة نأمل فيه أنْ يكون بارداً لطيفاً يحمينا حرارة الشمس ، وكريم يُكرم فيه الإنسانُ ويستريح ، أما ظل هؤلاء والعياذ بالله فيظلهم الدخان الملتهب .

ثم يجيبُ القرآن الكريم على هذا السؤال : لماذا فعل الله بهم هذا ؟ فيقول : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الواقعة] أى فى الدنيا ، فالجزاء من جنس العمل ، فقال فى السابقين : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة]

كذلك أصحابِ الشمال يواجهون هذا المصير لأنهم كانوا فى الدنيا مترفين ، والترف فى ذاته ليس ذنباً ، أما هؤلاء فقد قصروا الترف على أنفسهم ولم يعدوه إلى غيرهم ، بل بخلوا به على الناس الذين لا ترفَ عندهم ، ولا يؤدون حقّ الله فيما أترفوا به ، هذا هو المترف .

أما الذى يؤدى حقّ الله وينفع بترفهه الغير فلا يُعَدُّ مُترفاً لأنه بترفه يحقق للآخرين شيئاً ضرورياً ، فالذى يجدد فى منزله أو يغير أثاث بيته لا يُسمّى هذا ترفاً لأنه أخرج من ماله للنفع العام ، وحقق ضرورة للطبقات الأدنى التى تنتفع من ذلك .

وقوله سبحانه : ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الواقعة] الحنث : الذنب والمعصية والمخالفة التى تُوقع صاحبها فى الإثم . وقالوا الحنث : الشرك لأنه وصف بالعظيم ، والشرك أعظم الذنوب .

إذن : جمعوا بين الترف والنعمة ومعصية المنعم سبحانه وتعالى

بقمة العصيان وهو الكفر به سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

بل وأعظم من ذلك ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الواقعة] فينكرون البعث لأنهم ما قدَّموا شيئاً ينفعهم فى هذا اليوم ، فلو حدث البعث والحساب فعاقبتهم سوداء ، فحظهم إذن أنْ ينكروا البعث ، أو لو كان البعث فى بالهم ما تجرأوا على المعصية ، وما وقعوا فى الكفر والشرك .

فردَّ الله عليهم بما يؤكد لهم هذه الحقيقة التى ينكرونها ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الواقعة] وقد سبق أن أكدها فى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الواقعة]

لذلك قال مسروق [(١)] رضى الله عنه : مَنْ أراد علم الأولين والآخرين ، والدنيا والآخرة والثواب والعقاب فليقرأ سورة الواقعة [(٢)] .

ويُروى أن سيدنا عثمان رضى الله عنه بلغه شيء عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقطع عنه عطيته ، فلما مرض ابن مسعود ذهب إليه عثمان يعوده ، فقال : ما تشتكى ؟ فقال : أشتكى ذنوبى –

(١) مسروق بن الأجدع بن مالك الهمدانى الوادعى ، أبو عائشة ، تابعى ثقة من أهل اليمن . وقدم المدينة فى أيام أبى بكر وسكن الكوفة وشهد حروب على ، وكان أعلم بالفتيا من شريح . توفى ٦٣ هـ / ٦٨٣ م (الأعلام للزركلى ٧/٢١٥) .

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (كلام مسروق ٩) : « من سره أن يعلم علم الأولين والآخرين وعلم الدنيا والآخرة فليقرأ سورة الواقعة » . وأورده القرطبى فى تفسيره وكذا ابن عادل فى تفسير اللباب وإسماعيل حقى فى تفسيره .

وهذا حال الذين يعيشون بالله ومع الله - فلم يقل : أشتكى رأسى ولا بطنى ، فقال : وماذا ترجو ؟ قال : أرجو رحمة ربى ، فقال له : نُرجع لك العطاء الذى كان لك ؟ فقال : منعته عنى وأنا صحيح ، وتريد أنْ تعطينى إياه وأنا أحتضر ؟ فقال : يكون لأولادك ، فقال : ليسوا فى حاجة إليه لأنى علَّمتهم سورة الواقعة ، وقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ سورة الواقعة لا تصيبه فاقة أبداً »(1) .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ٥١ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ٥٣ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ٥٤ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ(2) ٥٥ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ٥٦ ﴾

بعد أنْ أكّد لهم الحق سبحانه أنهم مبعوثون ومجموعون ليوم معلوم ، أخذ يُبيِّن لهم جزاءهم فى هذا اليوم . وشجرة الزقوم فُصِّل القول فيها فى موضع آخر ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ٤٦ ﴾ [الدخان]

---

(1) أخرجه البيهقى فى شُعب الإيمان (٢٣٩٦ ، ٢٣٩٧) مختصراً بلفظ « من قرأ سورة الواقعة فى كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » . وقد أورده القرطبى فى تفسيره بطوله وعزاه لأبى عمر بن عبد البر فى التمهيد والتعليق والثعلبى أيضاً . وكذا النسفى فى تفسيره (٣/٣٩٦) .

(2) شرب الهيم : الهيم : جمع أهيم أو هيماء وهى الإبل الظماء . هام البعير : اشتد عليه الظمأ فإذا رأى إناء اندفع إليه فأكثر من شربه . [القاموس القويم ٢/٣١٢] .

وقال عنها : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ٦٥ ﴾ [الصافات]

يريد أن يُبشِّع منظرها ، فشبّهها بشىء فظيع لم يره أحد وهو رؤوس الشياطين ليذهب الناس فى تصور بشاعتها كل مذهب ، ولو شبّهها بشىء بشع معلوم للناس لوقفوا عنده فى بشاعته ، وسبق أنْ أوضحنا أننا لو أعلنّا عن مسابقة بين الرسامين لرسم صورة للشيطان فسوف يتقدم كلُّ رسام بصورة بشعة تختلف عن التى يقدمها غيره ، ويمكن أنْ نجمع ملايين الصور البشعة للشيطان ، فلكلِّ رسام تصوّره فى البشاعة .

لذلك شبّه القرآن شجرة الزقوم وهى شىء مجهول برؤوس الشياطين ، وهى أيضاً مجهولة على خلاف العادة فى التشبيه ، وهى أنْ نشبه مجهولاً بمعلوم . وقلنا : إن الإبهام هنا هو عين البيان ، كما أبهم وقت الموت وقيام الساعة .

ومعنى : ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ٥٣ ﴾ [الواقعة] دليل على أنه لا طعام لهم غيره يملأون منه بطونهم ، وهذا لون آخر من العذاب أن تمتلىء بطونهم منه ، هذا عن الطعام ، فماذا عن الشراب والعياذ بالله ؟ ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ٥٤ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ٥٥ ﴾ [الواقعة]

والحميم هو الماء الحار الذى تناهى حرُّه وبلغ الغاية .

﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ٥٥ ﴾ [الواقعة] الهيم : الإبل العطاش التى تشرب بكثرة ولا تروى . إذن : يملأون بطونهم من شجرة الزقوم ، ثم يحتاجون للشراب الذى يُلطف حرارتها فيسقون الحميم ، وأيضاً يشربون منه ملء بطونهم ، وفى آية أخرى قال عن الحميم :

﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد]

وبعد هذا العذاب يُوبِّخهم الحق سبحانه فيقول : ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الواقعة] لأن النُّزُل ما أُعدَّ لاستقبال الضيف وألوان الطعام والشراب ، فقال هنا ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [الواقعة] على سبيل الاستهزاء بهم والسخرية منهم .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ[1] ﴿٥٨﴾
ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ
ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ
وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

مسألة الخَلْق مُسلَّم بها لله وحده ولم يدَّعها أحد ، لذلك عبَّر عنها بهذا الأسلوب المؤكد ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [الواقعة] فقصر الخلق عليه سبحانه ﴿ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الواقعة] يعنى : إذا قلتُ لكم هذه الحقيقة فلا تُكذِّبوا بها ولا تُصدِّقوا المضلين الذين يُحدِّثونكم عن عملية الخَلْق ، لأنهم كاذبون .

﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[2] ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف] وقلنا : إن الدعوى تثبت

(١) مَنَى وأمنى : قذف من فرجه الماء الذى يتكوَّن منه الجنين ولو فى الحلم وهو نائم ويسمى الماء منياً . [القاموس القويم ٢/٢٤١] .

(٢) عضداً : أعواناً . وعضد الرجل : أنصاره وأعوانه . وفلان يعضد فلاناً أى يعينه . [لسان العرب – مادة : عضد] .

لصاحبها ما لم يَقُم لها معارض ، ولم يعارض أحد فى مسألة الخَلْق حتى الكفار ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء]

وقوله سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الواقعة] هذه مرحلة من مراحل الخَلْق ، الذى بدأ أولاً من طين ، كما أوضحت الآيات التى فصَّلت مراحل الخلق : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ[1] ﴿٨﴾ ﴾ [السجدة] فالمرتبة الأولى كان خَلْق آدم عليه السلام من الطين ، والمرتبة الأخرى خلق ذريته من ماء مهين .

وأنتم تشاهدون عملية التناسل التى تتم بالتقاء الذكر والأنثى ، فخذوا منها دليلاً على صدقى فى الأولى ، لذلك قال : ﴿ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الواقعة] أى : فى وجودكم بالتناسل . وكلمة ﴿ فَلَوْلا .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [الواقعة] للحضِّ والحث والعرض .

لذلك يُحدِّثنا هنا عن هذه المرحلة : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الواقعة] والمنى هو ماء الرجل الذى يُقذف فى رحم المرأة والذى يكون منه الجنين .

وفى موضع آخر قال : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النجم]

فالنطفة هى الجرثومة التى يكون منها الإيجاد ، والمنى هو

(١) ماء مهين : ماء ضعيف . قاله مجاهد . [قاله الماوردى] وقال الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) : « ممتهن لا يُعتنى به وهو المنى » .

السائل الذى تعيش فيه النطفة . الحق سبحانه يقول : أرأيتم هذه النطفة التى لا تكاد تُرى ، أأنتم تخلقونها بشراً سوياً مكتملاً ، أم نحن الخالقون ؟

﴿ **أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ** (٥٩) ﴾[الواقعة] والاستفهام هنا للتقرير ، فليس هناك إلا جواب واحد هو أن الخلق لله وحده ، ولو كنتم أنتم الخالقين ما اشتكى أحد منكم من هذه المسألة وأنه لم ينجب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ **نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ** (٦٠) **عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ** (٦١) ﴾ [الواقعة]

بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن الخَلْق والإيجاد من عدم ، يقول لنا : إياكم أنْ تَغْترّوا بأنْ أوجدناكم فى أحسن تقويم ، فالذى وهبكم الحياة قادر على أنْ يسلبها منكم .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ **الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** (٢) ﴾ [الملك] فذكر الموت أولاً لنستقبل الحياة بلا غرور ، فالقوى لا يغتر بقوته وجبروته ، والغنى لا يغتر بغناه ، واذكر دائماً أنك ستموت ، لذلك قبل أنْ نستقبل الحياة استقبلنا الموت .

﴿ **وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ** (٦٠) **عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ** ..(٦١) ﴾[الواقعة] لا يغلبنا أحد ، ولا يمنعنا أحد أن نأتى بخَلْق جديد غيركم ﴿ **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** (١٩) **وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** (٢٠) ﴾[إبراهيم] وواقع الحياة يؤيد ذلك فقد خلقتُ قبلكم الجن ﴿ **وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ** (٦١) ﴾[الواقعة] أى : نخلقكم على صورة أخرى قبيحة بعد أنْ كنتم فى أحسن تقويم .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾

﴿ **عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ** ..(٦٢) ﴾[الواقعة] أى : الخَلْق الأول ، وهو خَلْق آدم عليه السلام من طين واستدللتم على صدقها بما شاهدتموه من النشأة الثانية أى الخَلْق بالتناسل ، وما دُمتم علمتم هذا ﴿ **فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ** (٦٢) ﴾[الواقعة] أى : هلاَّ تذكرون قدرة الله وتجعلونها دائماً على بالكم . وقالوا : النشأة الأولى أى : خَلْقكم الأول فى الحياة الدنيا .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّٰرِعُونَ (٦٤)
لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦)
بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾

بعد أن حدثنا الحق سبحانه وتعالى عن خلق الإنسان يحدثنا عن خلق النبات ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ** (٦٣) ﴾[الواقعة] والحرث مكان الزرع واستنباته ، لأن الفلاح قبل أنْ يبذر البذور يحرث الأرض ليُقلّب التربة فيتخللها الهواء وتزيد خصوبتها ، فمن الأرض خُلِق الإنسان الأول آدم ومن الأرض خلق النبات .

والحق سبحانه يسألنا وهو أعلم ، فالسؤال إذن سؤال تقرير ﴿ **أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** (٦٤) ﴾[الواقعة] فترك الحرث وذكر الزرع ، لأنه هو المراد والهدف من عملية الحرث .

الحق سبحانه يوضح لنا قدرته فى هذه المسألة فلا أحدَ يدَّعى أنه يُخرج هذا الزرع من الأرض ، فهى عملية خَلْق لم يدَّعها أحد .

وبعد أنْ ينمو الزرع ويزهر ، هل تقدرون على حمايته ؟

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥)﴾[الواقعة] فتاتاً وهشيماً تذروه الرياح ولا تنتفعون منه بشيء . إذن : أتى للإنسان بالحياة وما ينقضها من الموت ، ثم أتى بحياة النبات وذكر ما ينقضها من جفافه وجعله فتاتاً لا فائدة منه .

لذلك لما مثّل للحياة الدنيا قال سبحانه : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ..(٤٥)﴾ [الكهف]

إذن : إياك أنْ تغترّ بزرعك وجماله ونضرته ، فنحن فى الحقيقة الزارعون ، ونحن القادرون على الذهاب به ، فكلُّ دورك أيها الإنسان أنْ ترمى البذرة فى الأرض ، ولا دخلَ لك بعد ذلك فى عملية الإنبات وما فيها من إعجاز وقدرة هى لله وحده .

ونحن نرى محصول القطن مثلاً يزدهر ويُبشِّر بدخل وفير ، وفجأة وقبل أنْ يستوى للجنى تأتيه آفة فتقضى عليه ولا يستطيع أحدٌ منعها ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥)﴾[الواقعة] تنظرون فى تعجُّب ماذا حدث ؟ وكيف أخذ المحصول بهذه السرعة وتقولون : ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦)﴾[الواقعة] زرعنا ولم نحصد (١) ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)﴾[الواقعة] محرومون من ثمرة زرعنا .

(١) قال الضحاك وابن كيسان : هو من الغُرم ، والمغرم الذى ذهب ماله بغير عوض أى : غرمنا الحبَّ الذى بذرناه . [تفسير القرطبى ٩/٦٦٢١] .

﴿أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ
الْمُزْنِ(١) أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا
فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)﴾

بعد أنْ تحدَّث عن الطعام يتحدث عن الماء ، وهما العمدة فى مقوِّمات الحياة : الغذاء والماء ، وسبق أنْ أوضحنا أن مقومات الحياة ترتب بحسب الحاجة إليها ، فأولها الهواء ثم الماء ثم الغذاء ، فالهواء تحتاجه كل لحظة ولا تصبر على منعه عنك ، لأنه لو مُنِع عنك نَفَس واحد تموت .

لذلك من حكمة الله تعالى أنْ جعله مشاعاً لا يملكه أحد ، ثم تصبر على الماء حتى عشرة أيام ، لذلك فى العادة والغالب تجد الماء مجاناً وقلما تملَّكه الناس ، أما الطعام فيمكن أنْ تصبر عليه حتى شهر ، لأنك لو مُنِع عنك الطعام يتغذَّى الجسم على المخزون فيه من الدهون .

ونلاحظ على الأسلوب هنا أن الحق سبحانه وتعالى لما تكلم عن الحرث والزرع قال : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥)﴾ [الواقعة] بلام التوكيد ، أما فى الحديث عن الماء فقال : ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠)﴾[الواقعة] بدون توكيد للفعل جعل ، قالوا : لأن الإنسان له دَخْل فى عملية الزرع ، حيث يحرث ويبذر ويجنى .

أما الماء فلا دخل لأحد فيه ، فعملية إنزال المطر خاضعة لقدرة الله وحده ، ومَنْ يقدر على إنزال قطرة واحدة من المطر ؟ ولك أنْ

(١) المزن : السحاب . وقيل : السحاب الأبيض . [القاموس القويم ٢/٢٢٥] .

تتصوَّر المعاناة والتكلفة التى يتحملها مثلاً الصيدلى فى تحضير كوب واحد من الماء المقطر .

لذلك قال سبحانه ﴿أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩)﴾ [الواقعة] ولأن الإنسان لا دخلَ له فى عملية إنزال المطر ولا شبهة فيه كما فى الزرع . قال : ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا .. (٧٠)﴾ [الواقعة] أى : مالحاً لا تنتفعون به ﴿فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠)﴾[الواقعة] حضَّ أيضاً على الشكر لهذه النعم التى تُساق إليكم ولا تدرُون بها .

﴿أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ
نَحْنُ الْمُنشِـُٔونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ(١) (٧٣)
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾

معنى ﴿النَّارَ الَّتِى تُورُونَ (٧١)﴾[الواقعة] توقدون من أورى الزناد، يعنى قدحه لإشعال النار ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)﴾[الواقعة] كان أصل النار الخشب الذى يُؤخذ من الأشجار ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً .. (٧٣)﴾[الواقعة] تذكرة باقية لكم .

ألا ترى أن الحق سبحانه ذكر النعمة وما ينقضها ، فبعد أن تكلم عن خَلْق الإنسان قال : ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ .. (٦٠)﴾ [الواقعة] وبعد أنْ تحدَّث عن الزرع قال : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥)﴾ [الواقعة]

(١) المقوين : قال الضحاك : أى منفعة للمسافرين ، سموا بذلك لنزولهم القَّوى وهو القفر . قال الفراء : إنما يقال للمسافرين مقوين إذا نزلوا القِىَّ وهى الأرض القفر التى لا شىء فيها . [تفسير القرطبى ٩/٦٦٢٣] .

وبعد أنْ حدثنا عن الماء قال : ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا (٧٠)﴾ [الواقعة]

أما فى الحديث عن النار والعياذ بالله فقد تركها بدون أنْ يذكر ما ينقضها ، إنما قال بعدها : ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً .. (٧٣)﴾[الواقعة] جعلها هكذا قائمة لتكون تذكرة لكم ﴿وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣)﴾[الواقعة] المقوى هو الرجل المسافر المنقطع عن وطنه ، ويريد أنْ يشعل النار يستدفىء بها .

وبعد كل هذه النعم لم يبْقَ إلا أنْ نشكر الله عليها ، وأول الشكر أنْ تقول : سبحان المنعم علينا بكلِّ هذه النعم ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾[الواقعة] لذلك دائماً ما نرى كلمة سبحان الله بعد كل أمر عجيب ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١)﴾ [الإسراء] ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧)﴾ [الروم]

لذلك قال العلماء : منْ قال عند النعمة سبحان الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله لا يرى فيها مكروهاً ولا تُصيبها آفة لأنك نسبت النعمة لواهبها فهو يتكفّل بها ، كالصانع الذى يبيعك سلعة ، ويعطيك معها شهادة ضمان كذا سنة ، وإذا أعطاك الحق سبحانه شهادة ضمان فهى مفتوحة غير موقوتة .

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ
لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ
مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن
رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠)﴾

قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ .. (٧٥)﴾ [الواقعة] بمعنى الإثبات أقسم بمواقع النجوم ، والمستشرقون لم يفهموا هذا المعنى لذلك اعترضوا على الآية وقالوا : كيف يقول لا أقسم ثم يأتى بعده بجواب القسم ، كأن القسم موجود .

ولبيان هذه المسألة نقول : القسم يمين ، لذلك فى إثبات الحقوق يقولون : البينة على المدعى واليمين على مَنْ أنكر ، فإذا عزَّتْ البينة نلجأ إلى اليمين . إذن : لا يتأتى اليمين أو القسم إلا للتأكيد وفى حالة وجود إنكار .

فحين تسأل مثلاً : هل محمد فى البيت ؟ يقول لك : نعم ، ولا يقول مثلاً : والله العظيم محمد فى البيت لأنك لا تكذّبه ولا تنكر عليه . فإنْ رأى منك ذلك أكّد لك الكلام بالقسم فقال لك : والله العظيم كذا وكذا .

فكأنَ الحق سبحانه وتعالى حينما يقول لنا ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ[1] النُّجُومِ (٧٥)﴾ [الواقعة] أن المقسم عليه واضح لا يحتاج إلى دليل ، ولا إلى بينة ، ولا إلى تأكيد وقسم ، ولو كنت مُقسِماً لأقسمتُ بما أقول ، لا أقسم بكذا وكذا .

ولك أنْ تتأمل القسم الذى جاء منفياً هكذا وفى جوابه ، فسوف تراه أمراً واضحاً لا يحتاج فى إثباته إلى قسَم مثل : ﴿لا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا

---

(١) هناك قراءة أخرى فى هذه الكلمة (بموقع) وهى قراءة حمزة والكسائى وعبد الله بن مسعود والنخعى والأعمش وابن محيصن ورويس عن يعقوب . أما الباقون فهى على الجمع (بمواقع). قال القرطبى فى تفسيره (٦٦٢٥/٩) : « فمن أفرد فلأنه اسم جنس يؤدى الواحد فيه عن الجمع ، ومن جمع فلاختلاف أنواعه » .

الْبَلَدِ (١)﴾ [البلد] وتوكيد الشىء الواضح الذى لا يحتاج إلى قسم يدعو إلى الشك فيه ، فلا يصح أنْ يؤكد .

ومواقع النجوم المنازل التى تسير فيها ، وهذا خَلْق من خَلْق الله ، فيه ما فيه من الإعجاز ومن الأسرار ، ثم إن الحق سبحانه يُقسم بما يشاء من مخلوقاته على ما يشاء ، لأنه تعالى الأعلم بهذه المخلوقات .

وفى موضع آخر قال عن النجم : ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾ [النحل] والنجم حين يُشرق له أسرار ، وحين يغرب أو يهوى له أسرار نحن لا نعلمها ، لكن ربّ النجم يعلمها .

ويكفى لنا هذه الإشارة ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ [الواقعة] خذوا بالكم وانتبهوا فلكم فوائد كثيرة فى مواقع النجوم أنتم لا تعرفونها ، وعدم معرفتك للشىء لا تقدح فى أنك تستفيد به وتنتفع بحركته .

فالفلاح مثلاً لا يعرف شيئاً عن كيفية عمل (التليفزيون) ، ولا عن كيفية بَثِّ الإرسال ، ومع ذلك يفتح (التليفزيون) وينتفع بما يقدمه لو كان نافعاً .

فالمعنى : لو تعلمون أسراره وفوائده لكم لوجدتموه عظيماً ، ونحن نرى بعض المهتمين بحركة النجوم والبحث عن أسرارها يقولون بارتباط ما بين النجم والإنسان .

فلكلِّ إنسان منا نجمه فى السماء الذى يُشبهه ، فهناك نجوم ساطعة للمشاهير ، ونجوم دون ذلك ، ونجوم بعيدة لم يأتنا ضوؤها بعد ، لذلك يستخدمون تعبير : فلان هوى نجمه . يعنى : أفل وانتهى

دوره كناية عن نهاية الشخص .

ثم يأتى جواب القسم أو المقسم عليه ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧)﴾ [الواقعة] أى : هذا الكتاب الذى بين أيدينا كريم ، ونشعر هنا بمناسبة ، فالمقسم به النجوم والمقسم عليه أيضاً نزل مُنجماً على مراحل . إذن : ذكر النجم السماوى ومعه النجم القرآنى .

ووصف القرآن بأنه كريم ، لأن الكريم هو الذى يعطى ما عنده ولا يبخل عليك ، كذلك عطاء القرآن للأجيال المتعاقبة عطاء واسع لا ينتهى وفيض لا ينضب أبداً .

﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨)﴾ [الواقعة] محفوظ مُصان فى اللوح المحفوظ ، ومحفوظ فى الصدور ، ولمكانته وعلو شأنه ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ [الواقعة] مطهرون طهارة حسِّية من الحدث ، ومطهرون طهارة معنوية من التحريف والتدليس .

وختام هذه الصفات أنه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠)﴾ [الواقعة] فهو منسوب فى نزوله إلى رب العالمين الكريم للمؤمن والكافر ، واختيار صفة رب العالمين تدلنا على أن القرآن كتابٌ لكل العالمين .

فالذى نزّله ربّ العالمين الذى يعلم أحوال العالمين وما يصلحهم ، فهو خالقهم وأعلم بهم ، وقرآنه بالنسبة لهم هو كتالوج الصيانة الذى يحميهم ويحفظ سلامتهم بالمنهج ، فالذى خلق هو الذى أنزل هذا المنهج .

لذلك خاطب آدم وحواء بعد تجربة الأكل من الشجرة بقوله تعالى : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

لذلك قلنا : لو سار العبد على منهج ربه وخالقه ما أصابه عطب أبداً ، وإذا رأيتَ فى رحلة حياتك (زرجنة) فقف وانظر ماذا أحدثتَ من خروج على منهج ربك ، وكان أحد الصالحين يقول : إنى لأجد أثر المعصية فى خُلق زوجتى ودابتى ، نعم مجرد أنْ (تحرن)[1] منه دابته يقول : ماذا فعلتُ ؟ والله تعالى يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ..(١١)﴾ [الرعد]

والذى يدلنا على أن النجم المقصود هو النجم القرآنى الذى تنزل به الآيات أنه تعالى أقسم به أى بالقرآن : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧)﴾ [الواقعة] والكريم هو الذى يبذل الخير من عنده وعلى مقدار صفته فى الكرم ومدى استدامته .

ومن كرم القرآن أن عطاءه ممتد فى كل نواحى الحياة مادية ومعنوية ، ففى الزراعة والصناعة والاقتصاد والهندسة وفى اللغة والحكمة والقيم . ومن كرمه أنه لا يعطى عطاءه دفعة واحدة ، لأنه ما جاء لزمن بعينه إنما جاء للزمن كله إلى قيام الساعة .

ولو أن القرآن أفرغ عطاءه فى قرن واحد لاستقبلته بقية القرون بلا عطاء ، ونفهم هذا من السين فى قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا ..(٥٣)﴾ [فصلت] إذن : عطاء مستمر ومتجدد ، لأن ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ..(٩٦)﴾ [النحل]

ومن معانى الكريم أنه الشىء النفيس . ومنه قولنا حجر كريم . أى : هو فى ذاته كريم ، لذلك قال بعدها : ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ

(١) حرنت الدابة : التى إذا أريد جريها وقفت . وفرس حرون : لا ينقاد إذا اشتد به الجرى وقف . [لسان العرب – مادة : حرن] .

﴿٧٨﴾ [الواقعة] لأن الشىء النفيس لا بد أنْ يُحفظ فى خزانة تصونه .

فالقرآن مصون ومكنون عن أن تمسه إلا يد مطهرة ﴿ الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة] هم الملائكة ، والمطهر هو الذى طهَّره غيره ، فلم يقل المتطهرون ، لذلك يستدل بهذه الآية الفقهاء الذين يذهبون إلى جواز لمس المصحف للمحدث ، لأن المتطهر هو الذى يُطهر نفسه .

وهذه وردت فى مسألة الحيض : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ .. ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة] فمعنى : (يطهرن) يعنى : يمتنع دم الحيْض ، ومعنى (تطهرن) يعنى : اغتسلن ، إذن : يطهرن جاءت من الغير لأن قطع الحيض من الله ، على خلاف التطهر بالاغتسال .

أما الذى اشترط الوضوء لمسِّ المصحف فقد نظر إلى الآية نظرة عامة ، ليبين أن المصحف ليس كأىِّ كتاب آخر إنما له قداسة فى التناول ، لذلك يقول : أخذتموه من مُطهَّرين فلا تلمسوه إلا متطهرين .

إذن : وصف القرآن هنا بأوصاف ثلاثة أنه كريم ، وأنه محفوظ فى كتاب مكنون ، وأنه لا يمسُّه إلا المطهّرون ، يريد أنْ يقول سبحانه خذ هذا الكتاب بعناية ففيه عطاء لا ينفد ، ووصلك بأمانة كما أُنزِل من الله ، فحافظ عليه حتى من أنْ يمسه غير مطهر .

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الواقعة] هذه حيثية الأحكام المتقدمة كلها ، فهو كتاب كريم ولا يمسُّه إلا المطهّرون لأنه تنزيل من رب العالمين . ورب العالمين يعنى ربوبية وعطاء الربوبية وللكافر وللطائع وللعاصى ، فهو قرآن كريم فى عطائه من رب كريم يعطى عبده العاصى ولا يحرمه رغم عصيانه .

﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ
أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ[1] ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾
وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ
وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾
تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

كلمة (الحديث) يراد بها القرآن ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر] والحديث ما يتحدَّث الناس به ، والحديث الشىء الطارىء الجديد وقلنا : إن القرآن يعطينا كل يوم جديداً ، لذلك لا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد[2] .

ومعنى : ﴿ مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الواقعة] جمع مدهن ، وأصله الذى يأتى بدهان ويدهن الشىء ليلتصق بغيره ، ومعناه الملاينة والمصانعة ، وهنا بمعنى الشكِّ والتكذيب والاستهانة بهذا الحديث وهو القرآن .

وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : مُطر الناس على عهد رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر . قالوا : هذه رحمة وضعها الله تعالى . وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا . فنزلت هذه الآيات ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الواقعة] حتى بلغ ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة] أورده الواحدى النيسابورى فى (أسباب النزول) ص ٢٢٩ وعزاه لمسلم .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٣١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه رفعه إلى رسول الله ﷺ : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه » .

الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)﴾ [البقرة] وفى سورة القلم قال تعالى : ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)﴾ [القلم] أحبّوا أنْ تلاينهم وتصانعهم .

وقال تعالى : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾ [الواقعة] أى : تجعلون نصيبكم وحظكم من الدنيا أنْ تكذّبوا بهذا الكتاب ، والرزق الذى ساقه الله إليكم تجعلونه وسيلة تكذيب لمنهج الله بدل أنْ تشكروا الرازق سبحانه الذى خلقكم من عدم ، وأمدكم من عُدْم .

فصدق فيهم قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ[1] (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)﴾ [إبراهيم]

ثم يذكر هؤلاء المكذبين بنهايتهم التى لا مفر منها : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)﴾ [الواقعة]

الضمير فى ﴿بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣)﴾ [الواقعة] ليس له عائد لأنه معلوم للجميع وهو الروح ، كما فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)﴾ [ص] والمراد الشمس . وكما فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ..(٤٥)﴾ [فاطر] والمراد ظهر الأرض لأنه معلوم بداهة . صحيح أن الضمير لا يعود إلا على اسم ظاهر ، لكن إذا اتضح أمره واشتهر يمكن أنْ يعود على غير مذكور لأنه ما حُذف إلا للعلم به .

وبلوغ الروح الحلقوم يعنى الاحتضار ، فاذكروا أيها المدهنون

(١) دار البوار : دار الهلاك وهى النار . يبور : يبطل ويزول ولا يؤدى الغرض منه . [القاموس القويم ١/٨٩] .

هذا الموقف ، ماذا ستفعلون فيه ، وهل ستكذبون أيضاً فى هذا الموقف ؟

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤)﴾ [الواقعة] تنظرون إليه وهو يحتضر فلا تملكون له شيئاً ، ولا تدفعون عنه الموت ، لأن الموت من الأمور المملوكة لله تعالى ليس لأحد فيها اختيار .

كلمة ﴿فَلَوْلَا ..(٨٦)﴾ [الواقعة] حرف يفيد الحضّ والحثّ مثل هلاّ فعلت كذا . والحلقوم : أول القصبة الهوائية ، وهى موضع خروج الروح ، فقالوا أنها لا تخرج من القناة الهضمية ومجرى الطعام ، إنما تخرج من مجرى النفَس لأنه الأهم فى حياة الإنسان ، كما سبق أنْ رتّبنا أولويات الطعام والشراب والهواء . وقلنا : إن أهمها الهواء لذلك لا يصبر الإنسان على منعه أبداً ، ولو منعك النفَس لشهيق أو زفير تموت .

وقوله تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾ [الواقعة] أى : فى هذا الموقف وفى وقت حشرجة الروح والنزع الأخير فى الوقت الذى لا حيلة لكم فيه نكون نحن أقرب إليه منكم ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾ [الواقعة]

هذه الكلمة ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾ [الواقعة] حلت لنا إشكالات متعددة ، لأن البعض يفهم مسألة معية الله فى مثل : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ..(٤٠)﴾ [التوبة] و ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا ..(١٢٨)﴾ [النحل] أنها معية علم ، ولو كانت كذلك ما قال سبحانه ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾ [الواقعة]

إذن : هى معية حقيقية ولو كان عندكم بصر حديد يُمكّنكم من الرؤية لرأيتم ، فلم لا يتسع التصور فى المعية بدون تحيُّز ، ولك فى

نفسك مثال : فالروح التى تدير حركة حياتك كلها ، هل تعلم أين هى من جسمك ؟

إذن : أنت لا تدركها وهى فيك ، فما بالك بالحق سبحانه وتعالى الذى يدير هذا الكون كله ، فمعية الله بذاته التى ليستْ كالذوات ، فإذا كنتَ لا تدرك مخلوقاً لله فهل تطمع فى أنْ تدرك معية الله لك ؛ إذن فمخلوق لله لا يُدرَك ، فكيف تريد أن تدرك من خلق ما لا يُدْرَك !!

﴿فَلَوْلا إن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧)﴾ [الواقعة] يعنى : فهلا ترجعونها أى الروح ، وهل لكم قدرة على ذلك ، والحال : أنكم بالفعل مدينون لنا وفى قبضتنا ، وأنكم مملوكون لنا ولا قدرة لكم على إرجاع هذه الروح التى قضينا بخروجها ، إذن : أنتم فى قبضة القدرة وإنْ كنتم خُلقتم مختارين .

ومعنى : ﴿إن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧)﴾ [الواقعة] أى : فى زعمكم بعدم وجود بعث وحساب .

﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ[1] وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١)﴾

حدَّثتنا السورة فى بدايتها عن هؤلاء الثلاثة ، وفى نهايتها يذكر

(١) الرَّوْح : الرحمة . وقال الزجاج : معناه فاستراحة وبرد وتأويل الروح بالرحمة قال تعالى : ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ (٨٧)﴾ [يوسف] أى من رحمة الله ، سماها روحاً لأن الروح والراحة بها . والرَّوْح أيضاً : السرور والفرح . والروح : برد نسيم الريح . [لسان العرب مادة روح بتصرف] .

الحق سبحانه موجزاً جزاء كل نوع منهم ، فأولهم وأعلاهم درجةً هم السابقون أو المقربون . وقلنا : إنهم مُقربون من الله ومن الجنة ، وهم الذين بادروا بطاعة الله وداوموا عليها ولم يُدنسوا أنفسهم بمعصية فنالوا هذه المنزلة .

وجزاؤهم : (فروح) ، قالوا : يعنى رحمة من الله وسرور بنعمة الله . والرحمة تتناسب سعتها وعلوها بقدر الراحم ، فإذا كانت الرحمة من الله فهى رحمة لا حدود لها .

﴿وَرَيْحَانٌ ..(٨٩)﴾ [الواقعة] نبات أخضر غضّ طرى له رائحة طيبة ، وهو نبات معروف ، وقد ورد فى قوله تعالى : ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ[1] وَالرَّيْحَانُ (١٢)﴾ [الرحمن] لكن ريحان الجنة شىء آخر غير الذى نعرفه فى الدنيا .

وقد بيَّن لنا سيدنا رسول الله ذلك ، فقال عن الجنة ونعيمها : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[2] .

ومعلوم أن ما رأتْ العين أقل مما سمعت الأذن ، لأن ما تراه العين محدود بقدرتها على الرؤية ، أما السمع فيسمع ما تراه العين وما لا تراه ويراه الآخرون ، فالأذن أوسع إخباراً ، وفوق ذلك

(١) العصف : التبن ، قال ابن عباس : العصف تبن الزرع وورقه الذى تعصفه الرياح ، وعن ابن عباس أيضاً : العصف ورق الزرع الأخضر إذا قطع رءوسه وييبس . [تفسير القرطبى ٩/٦٥٥٦] .

(٢) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٠٥ ، ٤٤٠٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لا يخطر على القلب ولا يتصوره العقل ولا ورد على البال ، فما رأته العين موجود ، وما سمعته الأذن موجود ، لكن ما لا يخطر على البال هو شئ جديد لم نعهده ، ولا حتى يخطر لنا على بال من النعيم .

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى لما أراد أنْ يعطينا وصفاً لنعيم الجنة لم يصف النعيم ذاته إنما وصف مثالاً له وكأنه فوق أنْ يُوصف بكلمات نعرفها نحن ، فقال سبحانه : ﴿ **مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ** .. (٣٥) ﴾ [الرعد]

والمتأمل فى نعيم الجنة يجد أنه يستوعب جميع حواس الإنسان ، ففيه متعة التذوق فى الطعام والشراب فى الفاكهة والماء والعسل واللبن ، وفيه متعة الرؤية فى رؤية الحور العين كاللؤلؤ المكنون ، ورؤية الغلمان الحسان وغيرها .

وفيه متعة اللمس فى لمس الحرير والإستبرق والسُّندس[1] ، وفيه متعة السمع ﴿ **لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا** (٢٥) **إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا** (٢٦) ﴾ [الواقعة] وفيه متعة الشم فى الريحان الذى نحن بصدد الحديث عنه .

ومعنى ﴿ **وَجَنَّةُ نَعِيمٍ** (٨٩) ﴾ [الواقعة] النعيم ما تستطيبه النفس وتتنعم به دون ألم يتأتى منه منغصات ، فهو نعيم خالص لأنك قد تأكل الأكلة أو تشرب الشربة فى الدنيا وتتمتع ، وقد تجد لها لذة صحيح لكن بعد قليل تجد لها ألماً أو آثاراً غير مرغوب فيها .

(١) السندس : رقيق الحرير الذى يتلوَّن ألواناً . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

لذلك قال سبحانه عن طعام الجنة ﴿ **فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا** (٤) ﴾ [النساء] فهو هنىء فى تناوله له لذة ومتعة ومرىء بعد ذلك لا يتعبك ولا تجد له منغِّصات .

﴿ **وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ** (٩٠) **فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ** (٩١) ﴾ [الواقعة] أصحاب اليمين هم النوع الثانى ولم يُفصِّل القول فى النعيم الذى يجدونه ، واكتفى بأنْ يخبر عنهم بما يدل على النعيم فهم فى سلام ، يُسلِّم بعضهم على بعض ، كلّ فوج يُسلم على الآخر ، أو تُسلم عليهم الملائكة ، أو يسلم عليهم الحق سبحانه وتعالى كما قال فى (يس) :﴿ **سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** (٥٨) ﴾ [يس] وتحت هذا السلام من الرب الرحيم تنطوى النعم .

﴿ **وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ** (٩٢) **فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ** (٩٣) **وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ** (٩٤) ﴾

هؤلاء والعياذ بالله أهل الشقاوة وجزاؤهم فى النار ﴿ **فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ** (٩٣) ﴾[الواقعة] النُّزل ما أُعدَّ للضيف من قِرَى ، لذلك نسمى الآن الفنادق نزل ، فهؤلاء أُعدَّ لهم الحميم طعاماً والحميم هو الماء الذى تناهى حَرُّه ، وأُعِدَّتْ لهم الجحيم يصلوْنَها ويُقاسُون حرارتها وآلامها .

﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** .. (٥٦) ﴾ [النساء] وقلنا : فى هذه الآية مظهر من مظاهر الإعجاز القرآنى ، فهو أول مَنْ أثبتَ للعالم أن الجلد هو مركز الإحساس فى الجسم .

هذا نُزل الكافـرين المكذِّبين ، ويقابله نُزُل المـؤمنين وهو الجنة ، الذى وصفه الحق سبحانه بقوله : ﴿ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت] وللعاقل أنْ يقارن وأنْ يختار أىَّ النُّزُلين يريد .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٩٦) ﴾

قلنا : إن العلم على مراتب ثلاث : علم اليقـين وعين اليقين وحقّ اليقين . وبعد أن ذكر الحق سبحانه نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، قال سبـحانه : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) ﴾ [الواقعة] أى : حين يباشرون نعيم الجنة ويدخلونها بالفعل ، وأهل النار يُقاسُونَ حرارتها بالفعل ، هذا هو حق اليقين وهو آخر مرحلة فى العلم .

وقد ذكرنا أن العلم درجات : علم اليقيـن وعين اليقين وحقّ اليقين ، وفى سورة التكاثر ذكر الأولى والثانية : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ﴾ [التكاثر]

فعلم اليقـين حينما يخبرك الصـادق بالخبر ، وعين اليقـين حينما ترى بعينك ، وحقّ اليقين حينما تباشر الشىء بنفسك .

والحديث هنا عن المـرحلة الأخيـرة ، وهى يوم القـيامـة حينمـا يباشر أهل الجنة نعـيمها ، ويُقاسى أهل النار عـذاباتها ، والجزاء فى الآخرة جـزاء عادل جـزاء مَنْ لا يظلم الناس مثـقال ذرة ، ولولا هذا الجزاء ما استقامت للناس حياة فى الدنيا .

فالعـصاة والأشقيـاء الذين شَقِى بهم المجتـمع وذاقَ الأمرَّين من تجاوزاتهم لا يمكن أنْ يستووا مع المؤمنين الذى سعد بهم مجتمعهم

وانتفع ببرِّهم وكرمهم وصلاحهم .

فكأنَّ الحق سبـحـانه وتعـالى يَغار على خَلْقـه ويغـضب لهم ويحمـيهم من مَـراتع الهلكة ، وإلا فالحق سـبحانه وتعـالى الغنى عن خَلْقـه لا تنفعـه طاعة ولا تضـره مـعصـية ، لذلك كـان على الخَلْق أنْ يستقبلوا الجزاء فى الآخرة بحمد الله وتسبيحه ، لأنه أسدى إليهم نعمة الجزاء فى الآخـرة ولم يتركهم هملاً حتى النار وعـذابها من نعم الله ، لذلك ختمت الآيات بهذا الأمر : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

إذن : جاء التسبيح نتيجـة لما ذكره الحق سبحانه من نعيم دائم للمؤمنين وعـذاب مقيم للكافرين ، وهو يستـحق منا أنْ نسبح الله أى نُنزِّهه سبحانه عن كل نقص ونُنزهه سبحانه عن مشابهة الخَلْق ، وأنْ نثبت له سبحانه كلّ صفات الجلال والكمال والجمال ، وأنْ نؤمن بأنه سبحانه ليس كمثله شىء .

والحق سـبـحـانه يعطينا مـن واقع حـيـاتنا آية تدلـنا على ذلك فالتاريخ ملىء بالجبابرة والعتـاة مثل فرعون ومَنْ على شاكلته ، وقد وصل الحـد بالناس إلى أنْ جعلُوهم آلهـة من دون الله ، وقدمـوا لهم فروض الولاء والطـاعة لكن لم يقُلْ لهم أحـد أبداً سبـحانك ، لأن هذا اللفظ لا يقال إلا لله وحده ، ولا يجرؤ أحد أنْ يقوله لغير الله .

كما قلنا فى لفظ الجلالة (الله) فـمع وجود الكافرين والملحدين إلا أنهم لم يجـرؤ أحد منهم على أنْ يُسمـى هذا الاسم ، وما هذا إلا لأنهم يعلمون فى قـرارة أنفسهم أن الله حَـقٌّ ، وأنهم لو تجرأوا على هذا الاسم لأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، لذلك قال سبحانه ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) ﴾ [مريم]

ومثل هذه الخصوصية وجدناها فى فريضة الصيام ، فالشهادة : لا إله إلا الله يمكن أنْ تُقال لبشر ، ويمكن أنْ نرى المنافقين والأفاقين يرفعون وينفخون فى أحد الطغاة الظالمين ويقولون له أنت ولا أحد بعدك ، كما قال فرعون ﴿ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِي .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [القصص] وفى التاريخ مواقف مثل هذا كثيرة .

والصلاة يمكن أنْ تجد من يسجد لبشر مثله وينحنى له ، والزكاة كذلك نرى مَنْ يقيم الحفلات و(يرش) من أجل فلان ، والحج يأتى كل أسبوع مثلاً ويُوقِّع فى دفتر التشريفات إظهاراً للولاء والتبعية .

أما الصوم فلم نجد أحداً تعبَّد به لأحد من البشر ، لذلك ورد فى الحديث « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به »(1) .

هذه مسائل ثلاث اختصّ بها الحق سبحانه نفسه ، ولا تكون إلا له سبحانه ، وهى دليل على طلاقة القدرة ، وعلى عظمة الذات العلية .

ومعنى ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة] أى : الذى لا تُستوعب عظمته ولا تُدرك ، ونحن نقولها فى كل ركعة فى ركوعنا (سبحان ربى العظيم) ومن جميل السَّبْك الأدائى فى القرآن أن السورة التى بعدها سورة (الحديد) تفتتح بقوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ [الحديد] فكأن السموات والأرض وما فيهن استجاب لهذا الأمر : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة] فسبَّح .

---

(1) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٧٧١) وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٤٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وكلمة (سبحان) مصدر . وحين تقول سبحان الله تثبت له سبحانه أنه مُسبَّح قبل أنْ يوجد مَنْ يُسبحه من خلقه ، كما قلنا فى صفة الخلق ، فالله متصف بهذه الصفة ، وخالق قبل أنْ يخلق شيئاً من خَلْقه ، فبصفة الخَلْق فيه تعالى خلق .

كذلك هو سبحانه وتعالى مُسبَّح أزلاً قبل أنْ يوجد أحد يُسبِّحه ، وهو راحم قبل أنْ يخلق مَنْ يرحمه .

إذن : صفات الله تعالى صفات ذاتية فيه سبحانه ، كما نقول فلان شاعر . لا نقولها لأنه قال قصيدة ، بل قال القصيدة لأنه شاعر ، ولو لم يكُنْ شاعراً بداية ما قالها .

وكلمة (سبحان) أتتْ فى القرآن عدة مرات مضافة للاسم الظاهر ، أو مضافة لكاف الخطاب ، أو مضافة لهاء الغائب ، فمع الاسم الظاهر جاءتْ ثمان عشرة مرة فى ثمان عشرة سورة أولها فى سورة (يوسف) : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف] وآخرها فى سورة (القلم) : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القلم] فى قصة أصحاب الجنة .

ثم أول مصدر مضاف إلى كاف الخطاب فى سورة (البقرة) : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة] وقد ورد بكاف الخطاب فى تسع سور ، وبهاء الغائب فى أربع عشرة سورة أولها فى سورة البقرة : ﴿ سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾[البقرة] هذه المواضع مع المصدر الذى يثبت الصفة لله تعالى أزلاً قبل أنْ يوجد من خلق الله مُسبح .

ثم بعد أنْ خلق الله الخَلْق من السموات والأرض وما فيهن من الملائكة ومن الإنس والجن وباقى الكائنات امتثلتْ أمر ربها بالتسبيح

فسبَّحتْ وما تزال ، لذلك وجدنا هذا الفعل فى القرآن بصيغة الماضى وبصيغة المضارع المستمر إلى يوم القيامة ، فهى منظومة دائرة فى الكون كله باقية ما بقى إلى يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. ①﴾ [الحديد]
وقال : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ①﴾ [الجمعة]
ثم جاء بصيغة الأمر : ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ⑦٤﴾[الواقعة] أى : يأيها الإنسان لا تشذ عن هذه المنظومة المسبّحة وسبّح أنت أيضاً .

والتسبيح أنْ نقول نحن العرب : سبحان الله ، وهذه لغة وألفاظ يُعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم ، فكُلٌّ يسبح الله بلغته ، حتى الجماد النبات والحيوان مُسبّح بلغة يعلمها الخالق سبحانه ، وليس بالضرورة أنْ نعلمها نحن ، فإذا كنا لا نعلم كثيراً من لغات البشر فهل يطمع فى أنْ نعلم لغات المخلوقات الأخرى ؟

لذلك قال تعالى : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ④٤﴾ [الإسراء] وهذا يعنى أنها تُسبِّح على وجه الحقيقة بلغة خاصة لا تسبيح دلالة كما يقولون .

ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ⑦٩﴾ [الأنبياء] وفى قصة سيدنا سليمان وجدنا للنمل لغة ، وللهدهد لغة وللطير لغة .

وقد امتنَّ الحق سبحانه على سيدنا سليمان عليه السلام ، فعلّمه هذه اللغة فعلمها وفهم عن هذه المخلوقات ما تريد ، فاللغة تقوم على التفاهم ، البشر يفهم لغة البشر ، والحيوان يفهم لغة الحيوان ، والنبات يفهم لغة النبات ، والجماد يفهم لغة الجماد .

سورة الحديد

سورة الحديد(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① ﴾

يعنى : ما من شىء موجود فى السموات ولا فى الأرض إلا يسبح لله تسبيحاً على الحقيقة بلغته التى خلقها الله فيه لا تسبيح دلالة (٢) كما يقولون بدليل ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] لذلك لما قالوا فى معجزاته ﷺ أن الحصى سبّح فى يده (٣)

---

(١) سورة الحديد سورة مدنية فى قول الجميع [قاله القرطبى فى تفسيره (٩/٦٦٣٧)] نزلت بعد سورة الزلزلة وقبل سورة محمد . عدد آياتها ٢٩ آية ترتيبها فى المصحف الشريف (٥٧) .

(٢) قال الزجاج : لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة ، فلم قال ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] وإنما هو تسبيح مقال ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] فلو كان هذا تسبيح دلالة فأى تخصيص لداود ؟ نقله القرطبى فى تفسيره (٩/٦٦٣٧) وقال : « ما ذكره هو الصحيح » .

(٣) قال أبو ذر : جاء أبو بكر فسلَّم وجلس عن يمين رسول الله ﷺ ، إذ جاء عمر فسلم وجلس عن يمين أبى بكر ، إذ جاء عثمان وجلس عن يمين عمر رضى الله عنه ، فتناول النبى ﷺ سبع أو تسع حصيات فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن ثم أخذهن فوضعهن فى يد أبى بكر فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عمر فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عثمان فسبّحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ثم وضعهن فخرسن . أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة (١/٤٧) .

ﷺ قلت : الصواب أن نقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى فى يده ، لأن الحصى مسبّح أياً كان حتى لو فى يد أبى جهل .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾ [الحديد] العزيز هو الغالب الذى لا يُغلب ، والعزيز الشىء النادر الذى ليس له مثيل ، فجمعتْ الآية المعنيين ، كما قال سبحانه : ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ ..(٨٨)﴾ [المؤمنون] وهو أيضاً سبحانه ﴿الْحَكِيمُ (١)﴾ [الحديد] والحكيم الذى يضع الشىء فى موضعه بحكمة وعلم ، حتى لا نأخذ العزة على أنها جبروت وبطش ، فهى عزة بحكمة وبقدر .

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢)﴾

قلنا : فى مادة (ملك) أنها تأتى بالفتح مَلْك كما فى قوله تعالى : ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ..(٨٧)﴾ [طه] والمَلْك المقدرة والإرادة ، وتأتى بالكسر مِلك وتعنى أىّ شىء تمتلكه فهو مِلك لك ، وتأتى بالضم كما هنا مُلك ، والمُلْك أنْ تملك مَنْ يملك ، فالأرض مثلاً ملك للناس ، والله سبحانه له مُلك هذه الأشياء يملكها ويملك مَنْ يملكونها .

والسموات والأرض ظرف لما فيهما من مخلوقات ، لذلك يقول فى موضع آخر :

﴿لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ..(٤)﴾ [الشورى] فهو سبحانه يملك الظرف والمظروف فيه ، السماء فيها الملائكة ، وفيها ما فيها من كواكب ونجوم ومجرّات ومخلوقات أخرى ، والأرض فيها

الإنس والجن ، وأيضاً فيها الحفظة من الملائكة .

وعادة كما ذكرنا نجد أن المظروف أنفسُ من المظروف فيه ، فعلى قدر نفاسة المحفوظ يكون الحافظ ، فإذا كانت السموات والأرض فى ذاتها عظيمة ، وكلها آيات وعجائب ، فالمظروف فيها أعجب منها وأعظم .

ثم هناك فى مُلْك السموات والأرض الغيبيات التى لا نعرفها ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٢٣)﴾ [هود] إذن : هذه مراحل ثلاث من ملك الله : له ملك السموات والأرض ، وله ملك ما فى السموات والأرض ، وله غيب السموات والأرض .

وكل يوم نكتشف فى مُلْك الله جديداً فى السموات وفى الأرض لذلك تلفتنا الآيات إلى ذلك : ﴿لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦)﴾ [طه] ﴿يُحْيِى وَيُمِيتُ ..(٢)﴾ [الحديد] يُحيينا نحن ويُميتنا ، أحيانا أولاً لما خلقنا من عدم ، ثم يميتنا ثم يحيينا فى الآخرة .

والإحياء والاماتة له وحده سبحانه لا يشاركه فيها أحد ، وقد قصَّ علينا القرآن الكريم قصة الذى حاجّ إبراهيم فى ربه ، وأنه ادعى الإحياء والإماتة فجادله سيدنا إبراهيم حتى كشف كذبه .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ ..(٢٥٨)﴾ [البقرة] وعندها أحسَّ سيدنا إبراهيم أن الرجل يريد الجدل ، فقطع عليه الطريق وأخذه إلى مجال لا جدالَ فيه ، ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ ..(٢٥٨)﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢)﴾ [الحديد] لايعجزه شيء ولا يمتنع منه شيء ، فالذى أوجد من عدم أقدر على الإعادة ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ[1] مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ [ق] وقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)﴾ [الروم] وليس فى حق الله هيِّن وأهون .

لكن الحق سبحانه يخاطبنا بما نفهم ، ويجارى الخصم حتى يقيم عليه الحجة ، لذلك قال : ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] أى : غلبته الحجة فلم ينطق ببنت شفه .

فالحق سبحانه مالك الملك ، وبيده الإحياء والإماتة ، فأوجد من عَدَم وأمد من عُدْم ، وله قيومية تبقيه على ما هو عليه ، فلم يخلق الخَلْق ثم تركه هملاً ، إنما قائم عليه بقيوميته سبحانه .

لذلك قال جَلَّ وعلا : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا .. (٤١)﴾ [فاطر] وهذه قيوميته سبحانه : ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)﴾ [فاطر] وهنا قال : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢)﴾ [الحديد] يعنى : بقدرته يخلق ما يشاء ، يخلق من عدم بداية ، ويخلق من موجود ، وبقيوميته يحتفظ بخَلْقه كما خلقه .

والضمير (هو) للغائب لا يأتى إلا إذا سبقه مرجع ، تقول : زارنى زيد فأكرمتُه . أى زيداً ، وهذا المرجع يُفهم من الكلام السابق

(١) اللبس : الشك . ولبس الشيء يلبسه : خلطه وعمَّاه وأبهمه وجعله مُشكلاً مُحيِّراً . [القاموس القويم ٢/١٨٨] .

كما قلنا فى ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢)﴾ [ص] والمراد الشمس .

كذلك هنا ضمير الغائب لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى ، الذى لا يشاركه أحد فى الملك ولا الخَلْق . ولا فى الإحياء والإماتة .

وقال سبحانه فى الأحدية : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص] فلا يصح هنا أنْ نقول الضمير (هو) عائد على متأخر ، لا بل عائد على متقدم وإنْ لم يُذكر ، لأنه لا ينصرف إلا لله الإله الواحد الأحد ، الواحد الفرد الذى لا ثانى له ، والأحد فى ذاته ليس مُركباً من أجزاء بحيث يحتاج جزء إلى جزء .

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾

ما دام أنه تعالى هو الذى أوجد كل موجود ، فهو بالتالى ﴿الْأَوَّلُ .. (٣)﴾ [الحديد] أى : قبل كل موجود ﴿وَالْآخِرُ .. (٣)﴾ [الحديد] الباقى بعد فناء كل موجود ، لذلك قلنا فى الثناء على الله : يا أول لا قبل آخر ، ويا آخر لا بعد أول ، ولكن ذاك فى ذاك ، فقف أيها العقل عند منتهاك .

﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ .. (٣)﴾ [الحديد] الظاهر لنا جميعاً ، والباطن أى المستور عنا جميعاً . فهو سبحانه ظاهر وباطن معاً ، ظاهر بآثاره وآياته فى الوجود التى لم يدَّعها غيره سبحانه ، والدَّعوى تسلم لصاحبها ما لم يقُم لها معارض ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧)﴾ [الزخرف] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٢٥)﴾ [لقمان]

وباطن بذاته : ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ (١٠٣)﴾ [الأنعام] فالأبصار لا تدرك إلا المحدود بحدود المكان والله تعالى لا يحدّه زمان ولا مكان ، لأن الزمان والمكان خَلْق من خَلْقه تعالى ، لذلك لا يقال فيه متى ولا أين ، فمنه جاءت متى وأين .

وواقع الحياة يدلنا على أن الأبصار لا تُدرك إلا المشاهد ، فهناك معنويات وغيبيات كثيرة لا تدركها الأبصار وهى موجودة .

خذ مثلاً معنى العدل الذى به يقوم ميزان الحق والباطل . والعدل أساس الملك ، لكن هل رآه أحد ؟ هل شممته أو لمسْته ؟ لكن عرفناه بآثاره فى إنصاف المظلوم ومعاقبة الظالم .

كذلك قلنا فى الروح هى موجودة بالفعل فى جسمك ، لكن هل تعرف أين هى منه ؟ فهل بعد ذلك نطمع فى أنْ نعرف أين الله ونحن خَلْق من خَلْقه وأثر من آثار قدرته تعالى ؟

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾[الحديد] أى : لا يخفى عليه شىء ، فهو سبحانه يعلم الباطن كما يعلم الظاهر ، لأنه سبحانه الظاهر الباطن .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)﴾

فالذى سبّحتْ له المخلوقات هو الخالق لها ، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ..(٤)﴾[الحديد] والكلام هنا عن مسألة الوقت

الذى استغرق ستة أيام ، وهو سبحانه لا يزاول الأشياء ، إنما يخلق بكُنْ فيكون ، لكن هناك شىء اسمه عمر التكوين وشىء اسمه مراد التكوين .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بصناعة كوب من الزبادى ، فمزاولة هذه العملية تحتاج إلى لحظات أنْ نأتى باللبن ونضع عليه قطعة من الخميرة ، هذا زمن مزاولة الفعل ، لكن يحتاج الزبادى بعد ذلك إلى عدة ساعات لتتفاعل الخميرة واللبن وتعطينا المادة المطلوبة . إذن : الستة أيام ليست هى وقت علاج ومزاولة من الخالق سبحانه ، بل الستة أيام عمرها عندك .

وقد وقف المستشرقون عند هذه المسألة وقالوا : كل الآيات التى تكلمت عن خَلْق السموات والأرض قالت ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ..(٤)﴾ [الحديد]

لكن فى سورة (فصلت) قال : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ .. (١٢)﴾ [فصلت]

إذن : أصبح لدينا ثمانية لا ستة ، وهذا الفهم ناتج عن عدم الإلمام بملكة اللغة ، لأن تقدير الكلام : فى تتمة أربعة أيام ، فالأرض خُلقتْ فى يومين ، ثم كان تمامها بخَلْق الرواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فيما يُتمم أربعة أيام .

ومثّلنا لذلك وقلنا : سافرتُ من القاهرة إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الإسكندرية فى ساعتين ، فجملة الزمن ساعتان لا ثلاث .

وقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ④﴾[الحديد] اختلف العلماء فى معنى الاستواء . بعضهم قال : استوى على وجه الحقيقة ، وابن القيم [1] قال : استوى بمعنى استقر . وبمعنى علا . وبمعنى صعد ، ونقول : لا صعد ولا علا ، لأن الحق سبحانه لم يعْلُ على العرش فحسب إنما علا على كل شىء .

والأقرب أن الحق سبحانه ما دام قد خلق الخَلْق وفرغ منه ، فالاستواء هنا بمعنى أنجز هذا الكون واستتبَّ له الأمر ، ونحن فى أعرافنا الدنيوية نرى الملك لا يجلس على عرشه إلا إذا استتبَّ له أمر المُلْك ، ولم يوجد مَنْ ينازعه أو يشاغبه .

وقد وردت مادة استوى فى القرآن الكريم فى سبعة مواضع ذكرها الناظم ، فقال :

وَذِكْرُ اسْتِوَاء الله فى كَلِمَاته ... عَلَى العرش فى سَبْعِ مَوَاضِع فَاعدد

فِى سُورَةِ الأعْرَاف ثمَّة يُونُسَ ... وَفِى الرَّعْد مَعَ طه فَللعَدِّ أكّد

وَفِى سُورَةِ الفُرْقَانِ ثمَّة سَجدة ... كَذَا فِى الحديدِ فَافْهَم فهْمَ مُؤيّد

ثم تستمر الآيات فى ذكر بعض آياته تعالى فى الخَلْق : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ..④﴾ [الحديد] أى : ما يدخل فيها وما يخرج منها ، ما يدخل فى الأرض هو المطر ينزل من السماء ويستفيد منه الخَلْق وينتفعون به وما زاد عن حاجتهم يسلكه ينابيع

---

(١) هو محمد بن أبى بكر الدمشقى أبو عبد الله شمس الدين ، ولد بدمشق (٦٩١هـ) تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية وسجن معه فى قلعة دمشق ، ألف كتباً كثيرة جداً منها (إعلام الموقعين) و(الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية) و (حادى الأرواح) ، توفى عام ٧٥١ هجرية . [الأعلام للزركلى ٦/٥٦] .

فى الأرض ، فهى مخزنٌ للماء العذب الذى يستنبطه الناس فى الأماكن التى ليس فيها أنهار فيجدونه فى أعماقها ، ثم ما يخرج منها هو النبات وهو قوام حياتنا .

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ..④﴾[الحديد] ينزل من السماء المطر ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ㉑﴾ [الحجر] وينزل من السماء ملائكة ، وتتنزل من السماء رحمات الحق بالخَلْق ، وينزل منهج الله الذى يُنظم للناس حركة حياتهم .

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ..④﴾[الحديد] يعنى : ما يصعد إلى السماء . وقال : السماء بصيغة المفرد ، وأراد الجنس لأن السموات سبع ، فعبّر عنها بجنسها ، والأصل فى (يعرج) أنْ نقول : يعرج إليها .

(فى) هنا فبمعنى اللام ، فعدل عن اللام واستخدم (فى) لأنها تدل على المبالغة ، ومثلها قوله تعالى عن الكافرين المكذِّبين بالرسل : ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ .. ⑨﴾ [إبراهيم]

فالأيدى تُرَدّ إلى الأفواه ، لكنه أراد المبالغة فجعلها فى أفواههم ، كأنه يقول سُك لسانك لا أريد أنْ أسمع منك . كذلك فى قوله تعالى : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ .. ⑲﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④﴾[الحديد] بعد الحديث عن السموات والأرض فيه إشارة كأنّ الحق سبحانه يريد أنْ يقول لنا أن السموات والأرض خَلْق طائع يؤدى مهمته ولا يشذ عما خُلِق له فهو غير محاسب ، أما أنتم فمُحاسبون لأنكم مختارون .

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ .. ﴿٤﴾﴾ [الحديد] يعنى : لا يحجبه ظاهر عن باطن ، ولا يحجبه باطن عن ظاهر .

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد] فهو سبحانه معكم وبصير بكم ، ولو كانت معية عين ما قال ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد] إذن : هى معية بصير ، ذكر سبحانه البصر وهو الرؤية ، ولا تتصور مثل هذه المسائل ، بل خذها بكمال الكمال فيه سبحانه .

وما دُمْنا فى معية الله وتحت بصره فلنراع ذلك ، ولنعمل له حساباً ، ولِمَ لا ونحن نعمل حساباً لمعيَّة البشر ونظرهم ، والآن يخترعون أجهزة للتجسس تعرف كلَّ ما يُدبَّر وكل ما يدور عند العدو وترصده بالصوت والصورة ، ترصد ما يدور بالليل قبل النهار ، نعم فعلوا ذلك لأنهم ليستْ لديهم ذاتية تعرف فاستعانوا بالآلة ، ومع ذلك أين علمهم من علم الله ؟ وأين عيونهم من عين الله !؟

ودائماً نقول فى حقه تعالى : ليسَ مع العين أين ، فكل ذرة فى كونه تعالى تحت بصره ولا تخفى عليه ، وقد ورد فى الحديث القدسى : « يا عبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟»[1]

كأنه تعالى يقول لنا : هل أنا أهون عليكم من خَلْقى وأنتم

(١) ذكره ابن عجيبة فى كتابه (البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد) (٣/١) قال : فى بعض الأخبار القدسية : « إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم » ، وقال رجل لوهيب بن الورد : عظنى . قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك .

تستترون منهم : ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ .. ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء]

والحق سبحانه وتعالى حينما يقول : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرْضِ ..﴿٤﴾﴾ [الحديد] يستخدم الفعل المضارع الدال على الحال والاستقبال ، لأنه تعالى يحكى لنا الواقع ، وإلا فعِلْم الله أزلاً يعلم ما يلج وما ولج منذ خلق سبحانه السموات والأرض .

فكل قطرة من ماء المطر امتصَّتها الأرض منذ خُلقَتْ يعلمها الله ، بل هى عنده فى اللوح المحفوظ قبل أنْ تُخلق .

وقد صَحَّ أن القَلَم قد جَفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة[1] .

لذلك قلنا : إن الملائكة تزداد تسبيحاً لله تعالى كلما رأتْ الواقع يأتى مطابقاً لما سُجِّل فى اللوح المحفوظ .

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى هنا أيضاً (له) لا ينصرف الضمير إلا إليه سبحانه : ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٥﴾﴾ [الحديد] وهذه دعوى أقامها

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (٢٦٦٦) من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له : إذا سألتَ فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، وإن أرادوا أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه .

الحق سبحانه ولم يَقُمْ لها منازع فتسلّم لصاحبها ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ۝ ﴾[الحديد] يعنى : المسألة ليست معيّة بصر وتسجيل لما يحدث وتنتهى المسألة ، لا بل لها فى النهاية مرجع لتصفية الحسابات فالله تعالى ما خلقكم عبثاً ، ولن يترككم سُدى ، بل لكم نهاية فتجهزوا لها .

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. ۝ ﴾[الحديد] أى : يُدخِل الليل فى النهار ، ويُدخل النهارَ فى الليل ، فكل منهما يحلُّ محلّ الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً[(١)] لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝ ﴾ [الفرقان] فكل منهما يخلفُ الآخر .

ومن آيات الليل والنهار أنْ نجد يوم الصيف طويلاً وليله قصير ، ويوم الشتاء قصير وليله طويل ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ ﴾ [الحديد] لأنه سبحانه قال قبل ذلك ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ ﴾ [الحديد]

يعنى : لا يقتصر علمه تعالى على الحركة والأحداث ، إنما يعلم أيضاً مكنونات الصدور ومطويات النفوس مما نفكر فيه ، ولم يترجم إلى عمل وحركة ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ ۝ ﴾ [غافر]

وهذه من خصائص علمه تعالى ، والعظمة ليست فى أنْ تعلم ما تُقهر عليه ، بل فى أنْ تعلم ما هو مختار فى أنْ يفعل أو لا يفعل .

مثلاً لو خرجتَ مع أهلك فى (مشوار) وتركتَ الأولاد بالبيت ، وقلتم لهم : الثلاجة فيها الأكل ، وكل واحد يأكل ما يعجبه ، وفى

---

(١) خلفة : أى يختلف كل منهما عن الآخر طولاً وقصراً ، أو يخلف كل منهما الآخر ويأتى بعده . [القاموس القويم ١/٢٠٦] .

الطريق قلتَ لأهلك : الولد فلان سيأكل كذا ، وفلان سيأكل كذا ، وبعد أنْ رجعتما إلى البيت وجدتم الأمر كما أخبرتَ أنت به .

فعظمة علم الله أنْ يعلم ما فى الصدور وما فى القلوب من نوايا ، مجرد نية ، ولعلمه تعالى بالنية جعلها أساساً للحكم على العمل : « إنما الأعمال بالنيات »[(١)] فكأن القلب سيطر بعقيدته على سلوك كل الجوارح ، فأنت حين تنفق مثلاً يعلم نيتك من هذا العمل ، فيحاسبك بالنية لا بالفعل ، فكأنه جعل النية تحرس العمل والحركة الظاهرة .

إذن : نفهم من ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ ﴾[الحديد] أى : بنت الصدور وهى النية ومحلُّها القلب ، لذلك ورد فى الحديث الشريف : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلَحت صلُح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[(٢)] حتى فى موقف القيامة يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ۝ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ ﴾ [الشعراء] أى : سليم القصد ، وسليم النية ، وخالٍ من العطب .

والقلب فى ظاهره مضخة تضخ الدم ، وهو سائل الحياة فى الجسم كله ، فإذا ما مُلِئ القلب باليقين وأُشربَ الإيمان ضخّه مع الدم إلى الأعضاء كلها ، وصار هذا الدم حلالاً صالحاً وصلحت

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١) وأبو داود فى سننه (١٨٨٢) وابن ماجه فى سننه (٤٢١٧) من حديث عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

(٢) حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) من حديث النعمان بن بشير .

بصلاحه الجوارح فى حركاتها ، فلا تتحرك إلا فى الحلال ، ولا تفعل إلا ما هو مطابق وموافق لهذه العقيدة ، فتأتمر بما أمرت وتنتهى عما نُهيت .

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ٧﴾

هنا علاقة ومناسبة بين ذات الصدور و ﴿**آمنوا بالله ورسوله** ..(٧)﴾ [الحديد] فالإيمان عمل قلبى محلُّه الصدر ، فإذا استقرَّ فيه سُمِّى عقيدة . أى شىء معقود لا يُفك ولا يُحلّ ، شىء ثابت مستقر لا يطفو إلى العقل مرة أخرى ليُناقش ، لأنه ما استقر فى القلب وصار عقيدة إلا بعد أنْ ناقشه العقل واختاره من بين البدائل .

لكن أيهما أسبق ، يعنى : هل آمنتَ بالله من أجل الرسول أم آمنتَ بالرسول من أجل الله ؟ وهذه مسألة سُئل فيها الإمام على رضى الله عنه : أعرفتَ ربك بمحمد ؟ ، أم عرفتَ محمداً بربك ؟ فقال : عرفتُ ربى بربى ، وجاء محمد فبلَّغنى مراد ربى منى .

وبعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله ذكر أمراً آخر لا تستقيم حياة المجتمع إلا بالقيام به ، وهو مسألة الإنفاق : ﴿**وأنفقوا مما جعلكم مُسْتَخْلَفِين فيه** ..(٧)﴾ [الحديد] أى : من كل شىء استخلفكم الله فيه مال أو غيره ، ذلك لأن الإنسان لا يؤدى مهمته فى الحياة ، ولا يتحرك إلا إذا توفرتْ له مُقوِّمات الحياة ، وأولها القوت الذى تنشأ منه الحركة ، وفى المجتمع عناصر عاجزة عن الكسب غير قادرة على

الحركة الإيجابية فى الحياة .

والحق سبحانه وتعالى لن يترك هؤلاء يضيعون بين القادرين ، فجعل الإنفاق عليهم ومساعدتهم جزءاً من إيمان المؤمن ، فيؤدى لهم حقاً هو حَقُّ الله فى الأساس ، ويجعل هذا الحق شكراً لله على النعمة ، وشكراً لله على الصحة والسلامة التى مكَّنته أنْ يعمل ويكتسب من الحلال وينفق .

ثم إن العاجز حينما يجد مَنْ يرعاه ويُعينه يسعد ويطمئن قلبه ، ويرى أن فى مجتمعه المؤمن عوضاً عما فاته ، فالنعمة تُساق إليه وتطرق عليه بابه وتحفظ ماء وجهه أنْ يذلّ للسؤال .

فهو مع عجزه عن الحركة مُسيِّد فى هذا المجتمع المؤمن ، فمن شرف الفقير أنْ جعله الله شرطاً فى إيمان الغنى ، وليس الغنى شرطاً فى إيمان الفقير ، والمراد فريضة الزكاة .

فالزكاة تُطيِّب خاطر الفقير وتُذهب ما فى نفسه من الحقد على الغنى ، وتجعله راضياً بقضاء الله فيه ، فلا يقول : لماذا خلَق هذا غنياً وأنا فقير ؟ لذلك جاء الأمر بالإنفاق تالياً للأمر بالإيمان ، فالإنفاق يعطى استبقاءَ الحياة ، والطاعات كلها فرع الحياة ، فحين تُوفر القوت للفقير تُعينه أولاً على طاعة الله .

ومعنى ﴿**مُسْتَخْلَفِين فيه** ..(٧)﴾ [الحديد] يعنى : ليس من عندك ، إنما من رزق الله الذى ساقه إليك وجعلك خليفة فيه ، فالله هو الرازق فى الحقيقة لأنه سبحانه خالق المادة التى تعمل فيها ، وخالق الجوارح التى تعمل بها ، وخالق الوقت الذى تعمل فيه ، وخالق فيك

القوة ، وخالق الأمن والسلامة التى تُعينك على العمل ، وخالق العقل الذى يدبر ويفكر .

إذن : لم تأتِ أنت بشىء من عندك ، والمال فى الحقيقة مال الله ، وأنت خليفته فيه ووكيله ، فلا تبخل بمال الله على عياله وهم الفقراء ، استدعاهم الله إلى الوجود وتكفَّل برزقهم .

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ .. ⑦ ﴾ [الحديد] أى : بالله ورسوله ﴿ وَأَنفَقُوا .. ⑦ ﴾ [الحديد] أى : مما استخلفوا فيه ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦ ﴾ [الحديد] نعم كبير لأنهم جمعوا بين أجر الإيمان بالله ورسوله وأجر الإنفاق وتنفيذ مطلوبات الإيمان ، لأن الإيمان لا يستقيم لصاحبه إلا بالعمل الصالح والتطبيق ، الإيمان أمر عقدىّ نظرى لا يُغنى عن العمل .

لذلك قُرن الإيمانُ دائماً بالعمل الصالح : ﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ③ ﴾ [العصر]

ثم إن الأجر كبير لأنك لا تأخذ من أجر الله على قدر ما تعطى ، إنما تأخذ على قَدْر المعطى الواهب الذى يُعطى الحسنة بعشر أمثالها ، ويزيد إلى سبعمائة ضعف وإلى أبلغ من ذلك ، قال تعالى : ﴿ يَمْحَقُ [1] اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي [2] الصَّدَقَاتِ .. (٢٧٦) ﴾ [البقرة] يزيدها ويُنميها لصاحبها .

---

(١) يمحق : ينقص ويذهب البركة . شىء ماحق : ذاهب . محقه الله : ذهب خيره وبركته . يمحق الله الربا : يستأصل الربا فيُذهب ريعه وبركته . [لسان العرب - مادة : محق] .

(٢) قال الماوردى فى تفسيره : فيه قولان أحدهما : يُثمر المال الذى خرجت منه الصدقة . والثانى : يضاعف أجر الصدقة ويزيدها .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً محسوساً من واقع حياتنا : ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ .. (٢٦١) ﴾ [البقرة] وفوق ذلك ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ .. (٢٦١) ﴾ [البقرة] فإذا كانت الجنة المخلوقة لله تعالى تعطى سبعمائة ضعف فما بالك بخالق الجنة ؟

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ⑧ ﴾

هنا استفهام للتعجب والإنكار ، يعنى : كيف يحدث منكم ذلك ؟ أمر عجيب ألا تؤمنوا بالله ورسول الله يدعوكم للإيمان ؟ ولم يقُلْ : لتؤمنوا بالله إنما ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ .. ⑧ ﴾ [الحديد] فالذى يجب أنْ تؤمنوا به هو ربكم .

والرب هو الخالق والمربِّى والرازق والمعطى الذى أعطاك وخلق لك قبل أنْ يخلقك ، ربٌّ ربَّاك بعد أنْ أوجدك وزرع محبتك فى قلب أمك وأبيك فتحمّلا متاعبك ومشاقّ تربيتك إلى أنْ تبلغ وتتولّى حركة حياتك بنفسك ، ألاَ يستحق منك هذا الرب أنْ تؤمن به على الأقل ؟

ألا يكفى أنْ تركك تربَع فى الكون ولم يطلب منك شيئاً ، ولم يكلفك بشىء حتى سنِّ البلوغ بعد أن استويتَ وأصبحت قادراً على السعى ، إذن : عطاء الربوبية شملك قبل أنْ تُخلق ، ثم جاء عطاء الألوهية بالتكليف .

فكأن عطاء الربوبية حيثية لقبول عطاء الألوهية ، وهو أيضاً فى

صالحك وأنت المنتفع به ، والله لا ينتفع منه بشىء ، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية ، فالله تعالى ما خلقك إلا بصفات الكمال فيه سبحانه .

فقولوا لنا إذن : لماذا لم تؤمنوا وقد بعثَ إليكم رسولاً يبلِّغكم رسالاته ويدلكم عليه ، ويبلغكم منهجه ؟ انظروا مثلاً إلى العامل الذى يعمل لك نظير أجر ، كيف يطيعك ويأتمر بأمرك ، ولا يخرج عنه قَيْد أنملة ، وأنت مع ذلك لا تعطيه إلا القليل الذى يسدُّ حاجته ليوم أو يومين ، فما بالك بمَنْ أعطاك بسخاء ، وأنعم عليك كلّ هذه النعم ، أليس أوْلَى بالطاعة والامتثال ؟

إذن : هذا أمر يدعو إلى العجب منكم ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ..(٨)﴾ [الحديد] يعنى : شىء لا يُتصوَّر منكم ، وفى سورة البقرة قال : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ..(٢٨)﴾[البقرة] كيف تجرأتم على ذلك والعقل مجرد العقل والتفكير يأبى ذلك . فواجب عليك أنْ تؤمن بالله خاصة والإيمان ليس تطوعاً منك ، إنما جاءك رسول يدلُّك ويُذكّرك .

وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨)﴾[الحديد] أى : أخذ عليكم العهد والميثاق والحجة أنْ تؤمنوا به ، فالإيمان إذن ميثاق قديم أقررتم به ووافقتم عليه فلم تنكرونه الآن ؟ وهذا الميثاق أخذه الله على بنى آدم وهم فى مرحلة الذر ، فيُروى أن الله تعالى مسح على ظهر آدم وأخرج ذريته وهى فى صُلْبه وأخذ عليهم هذا العهد :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ

(١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف]

وهذا العهد أخذه الله على بنى آدم جميعهم قبل أنْ توجد لهم نفس أمَّارة بالسوء ، فلما وُجدت النفس الأمّارة بالسوء نقضت هذا العهد ولم تُوف به ، ولما كنا جميعاً من آدم ففى كل واحد منا ذرة منه حية باقية لم يطرأ عليها عدم ، فأنا أخذتها من أبى وأبى أخذها من أبيه وهكذا .. إلى آدم .

ومن هذه الذرة نشأتْ الفطرة الإيمانية ونشأ الضمير والنفس اللوامة ؛ لذلك إذا فعل العبد ذنباً فى غفلة من الفطرة الإيمانية سرعان ما يستيقظ فيه هذا الوازع فيردّه إلى الجادة ، ويُصحِّح مساره على الإيمان الفطرى .

ثم أخذ الله ميثاقاً آخر على الأنبياء : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾ [آل عمران]

إذن : مطلوب من كُلِّ رسول أنْ يبلغ أمته والمؤمنين به : يا من آمنتم بى وصدقتمونى فيما جئتكم به اعلموا أنه سيأتى بعدى رسول صفته كذا وكذا ، فإذا عاصرتموه فإياكم أنْ تتعصَّبوا ضده ، لأنه ما جاء إلا ليتمم ما جئتكم به .

وهذه قالها موسى عليه السلام لقومه ، وقالها عيسى عليه السلام

(١) الإصر : بالكسر : القيد والثقل والعهد المؤكد . قوله : ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ..(٨١)﴾ [آل عمران] : أى : عهدى . [القاموس القويم ١/ ٢١] .

لقومه ، وقد وثَّقها القرآن وسجَّلها على اليهود فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

فقد كان اليهود فى المدينة يستفتحون على عُبَّاد الأصنام ببعثة محمد ﷺ ، ويقولون لهم : لقد أطلَّ زمانُ نبى جديد سيأتى ، وسوف نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم .

فلما جاءهم رسول الله ﷺ كفروا به وعاندوه وصادموا دعوته لأنه سيأخذ منهم السلطة الزمنية التى كانت لهم ، فلو أنهم أخذوها على أنها من الله ، وأن نبيهم أخبرهم بهذا الخبر ما كان منهم هذا اللدد وهذا العناد ، فكفار مكة وعبَّاد الأصنام أهون منهم ، لأنهم لم يبشَّروا بمقدمه ﷺ كما بُشِّر اليهود .

ونفهم من هذا أن الأديان السماوية كلها متكاتفة على الحق وعلى منهج واحد هو منهج عبادة الله وحده لا شريك له ، فالأديان المتعاقبة ما هى إلا مراحل فى منظومة واحدة هى إسلام الوجه لله تعالى ، فهى كما شبَّهها سيدنا رسول الله بناء واحد .

قال ﷺ : « إنما مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأكمله وأجمله إلا موضع لبنة فيه ، فأخذ الناس يمرون به ويقولون : ما أجمل هذا البيت لولا موضع هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »[1] .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٧١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وكذا الطبرانى فى مسند الشاميين (١٢٥) . ولفظ البخارى : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وُضعت هذه اللبنة . قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

إذن معنى : ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ .. (٨) ﴾ [الحديد] أى : ميثاق على الخَلْق جميعاً وهم فى مرحلة الذرِّ ، وميثاق على النبيين أنْ يُبلغوا أقوامهم أنَّ دين الله بُنى على التوافق لا على التعارض .

﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) ﴾

أى على نبيه ﷺ ﴿ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (٩) ﴾ [الحديد] واضحات الدلالة على الخالق سبحانه ، والآيات إما كونية كالشمس والقمر والليل والنهار .. أو معجزات وعجائب تصاحب بعثة الرسل لتثبت للناس صدق الرسول فى البلاغ عن الله ، ثم آيات الذكر الحكيم ، آيات القرآن حاملة المنهج والأحكام التى تنظم حركة الحياة بما يُوصِّل الناس إلى الغاية السعيدة .

إذن : هذه أشكال ثلاثة للآيات ، ولكل منها هدف وغاية ، وقد أجملها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (٩) ﴾ [الحديد] النور والظلمة ضدَّان ، نعرف النور بأنه هذا الأثر الذى نرى به الأشياء فله كيان معروف ، أما الظلمة فليس لها كيان بذاتها ، بل هى سلبية فى عدم وجود النور .

وقلنا : إن النور هو الذى يجعلنا نرى الأشياء ، فنسير على هدى لا نصطدم بشىء ، أما فى الظلمة فنتخبط نحطم الأضعف ويُحطمنا الأقوى . هذا عن النور الحسى ، مثله النور المعنوى ، وهو نور المنهج والقيم التى نهتدى بها فى دروب الحياة :

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ

رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة] فهو نور على نور .

وقال عن الكافرين الذين استدبروا منهج الله وصادموه : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [البقرة]

فالمراد إذن المعنويات : ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الحديد] الرأفة أنْ تزيل الألم والشقاء عن الشخص وتنزع عنه الداء ، والرحمة أن تصونه بعد ذلك من أن يصيبه ألم أو داء .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء] فالقرآن منهج الله فيه شفاء لداءات المجتمع ، يوقظهم من الغفلة وينأى به عن سُبل الفساد ويصلح ما به من عطب أو عوار ، ثم تأتى الرحمة تحصيناً لهم من الزلل وتحميهم ، فلا تصيبهم هذه الداءات مرة أخرى .

وقد مثَّلنا منهج الحق (بالكتالوج) فلو سِرْنا عليه ما أصابنا عطب أبداً ، فصانع الشىء أدرى بما يصلحه ، وأحرص عليه وعلى سلامته .

ثم يقول الحق سبحانه [١] :

---

(١) **سبب نزول الآية** : ذكر الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٣٠) عن الكلبى أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق . فعن ابن عمر قال : بينا النبى ﷺ جالس وعنده أبو بكر الصديق وعليه عباءة قد خلَّها على صدره بخلال ، إذ نزل عليه جبريل عليه السلام فأقرأه من الله السلام وقال : يا محمد مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلّها على صدره بخلال ؟! فقال : يا جبريل أنفق ماله قبل الفتح علىّ . قال : فأقرئه من الله سبحانه وتعالى السلام . وقل له : يقول لك ربك : أراضٍ أنت عنى فى فقرك هذا أم ساخط ؟ فبكى أبوبكر وقال : على ربى أغضب أنا عن ربى راضٍ » .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾

كما قال سبحانه فى الإيمان ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الحديد] قال هنا ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد] يعنى : كيف يحدث منكم هذا ، والمال مال الله وأنتم مستخلفون فيه ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد] إذن : هذه قاعدة عامة فى المال وغيره ، فالمُلْك مُلْك الله ولا بد أنْ يعود إليه .

وهل رأيتَ أحداً خرج من الدنيا بمال ؟ نعم يعطيك المال ويُملِّكه لك فترة بقائك فى الدنيا تتمتع به ، فإذا حان الأجل تتركه للورثة ، والعاقل حينما ينظر إلى المال يجد أن حوادث الدنيا تأخذ منه جانباً ، والباقى يتركه لورثته ، فأين أنت يا صاحب المال من مالك ؟ أليس من العقل أنْ تجعل لك منه نصيباً ؟

والرسول ﷺ يُعلِّمنا هذا الدرس فيقول : « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقتَ فأبقيتَ » [١] فتأمل يا صاحب المال .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٦٤ ، ٣٢٧٧) من حديث مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه . وكذا أحمد فى مسنده (١٥٧١٥) والحاكم فى مستدركه (٣٩٢٨ ، ٨٠٣٠). قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وتعلمون قصة الشاة التى أُهديتْ إلى بيت رسـول الله ﷺ ، فلما عاد آخر النهار سأل عنها ، وكان ﷺ يحب منها لحم الكتف - فقالت له السيدة عائشة رضى الله عنها : « ذهـبت كلها إلا كتفـها ، يعنى : تصـدقتُ بها كلـها ولم أُبْقِ لك يا رسـول الله إلا الكتف ، فـعدَّل لها رسول الله مقالتها وقال : بل بقيت كلها إلا كتفها »[1] .

ولما سُئِلَ الإمـام على رضى الله عنه : أريد أنْ أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال للسائل : الجواب عندك ، قال : كيف ؟ قـال : انظر إذا دخل عليك حامل هديـة وطالب عطية إلى أيِّهـا تبشُّ ، فإنْ كنتَ تبشّ للأول وتفرح به فـأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنتَ تبشُّ للآخرَ فأنت من أهل الآخرة .

إذن : الحق سبـحانه تعالى يريد أنْ يُحبِّبنا فى مسـألة الإنفاق ، لذلك تحـدَّث عنهـا القرآن كـثيـراً ، لأن الإنفاق عنصـر رئيسى فى استبقاء الحـياة ، فلا تقوم حياة الفقـير إلا به ، يعـنى : مسألة حياة أو موت .

ودائماً يُذكِّرنا القرآن بهـذه الحقيـقة : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ..﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد] وقال : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص] وقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم]

فإذا كان الحق سـبحانه وتعالى هو الوارث الحقـيقى للمال ، وإذا

---

(١) حديث صـحيح . أخـرجه أحمـد فى مسنده (٦ / ٥٠) والترمـذى فى سننه (٢٤٧٠) وقـال : هذا حديث صحـيح . وأخـرجه أبو نعـيم فى حليـة الأوليـاء (٥ / ٢٣) ولفظ الحديث عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقـال النبى ﷺ : « ما بقى منها ؟ قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلها غير كتفها » .

كنت لا بدَّ خارجاً من الدنيـا مجرداً من كل شىء كما جـئتَ إليها فلم تبخل على نفسك ؟

حتى فى مسألة الميـراث وتوزيع التركة يقول لك : ارفع يدك عنها فنحن الوارثون ونحن نقسمها كمـا نريد ، لهذا كذا ولهذا كذا لا تتدخل فى هذا الشأن ، فالمال مال الله يقسمه ما يريد . لا تقُلْ هذا أفضل من هذا : ﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ..﴿١١﴾ ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ..﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد] قالـوا : المراد بالفـتح فتح مكة ، لكن فـتح مكة لم يأت إلا نتيجـة لصلح الحديبيـة ، فـهـو إذن بداية الفتح ، لذلك قـال سيـدنا أبو بكر : لم يكن فتح فى الإسلام أعظمَ من فتح الحديبية[1] .

لمـاذا ؟ لأن قريشاً كـانت تهـاجم محـمداً ﷺ وتصادم دعـوته ، فـجاء صلح الحـديبيـة ، وجعل قـريشـاً تعترف بمحـمد وبدعـوته ، وتعاهده وتأخذ منه وتُعطيه ، وهذا فى حدِّ ذاته فتح .

ثم إنه مكّن رسـول الله من الفـراغ لنشـر الدعـوة فى المـدينة ، فالحـديبية أزاحت عن رسـول الله عبء قريش وعـداءها ، لذلك وجدنا بعد صلح الحديبية أن أرض الكفر تتناقص ، وأرض الإيمان تتزايد .

وميزان الحق لا يُسوِّى بين مَنْ أنفق قبل الفتح ومَنْ أنفق بعده ، لأن الذين أنفقـوا قبل الفـتح كانوا قلة ضعـفاء ، قليلى العُدة والعدد

---

(١) قاله الواقدى فى المغازى (١ / ٦١٠) أن أبا بكر الصديق قال : ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحـديبية . ونقله ابن حجـر العسقلانى فى الفـتح (٨ / ٢٨٣) وعزاه لابن شهاب الزهرى .

مستضعفين لا شوكة لهم فى وقت كانت القوة والسيطرة فى يد عدوهم ، أما بعد الفتح فقد انقلبت الصورة تماماً ، فأصبح المؤمنون قوة لهم عدد وعُدة ، واطمأنوا إلى أن الدنيا صارتْ معهم .

إذنْ : لا يستويان ، مَنْ أنفق قبل الفتح ، ومَنْ أنفق بعده ﴿أُوْلَـٰئِكَ .. (١٠)﴾ [الحديد] أى : الذين أنفقوا قبل الفتح ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ..(١٠)﴾ [الحديد] ومع ذلك لم يهضم الذين أنفقوا بعد الفتح حقهم ، فقال : ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ .. (١٠)﴾[الحديد] فالحُسْنى وعد من الله للفريقين ، لذلك كانوا يقولون : كفانا الحسنى من الله ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠)﴾ [الحديد]

﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا[1] فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ⑪﴾

الحق سبحانه وتعالى فرض الزكاة وجعلها ركناً من أركان الإسلام رعايةً لحقِّ الفقير ، واستبقاءً لحياة العاجز عن العمل ، ولو نظرتَ إلى واقع الحياة وتأملتَ حركة توزيع الثروات والموارد تجد أن

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد] قال أبو الدحداح الأنصارى : يا رسول الله وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح . قال : أرنى يدك يا رسول الله . قال : فناوله يده . قال : فإنى قد أقرضت ربى حائطاً وله حائط فيه ستمائة نخلة . وأم الدحداح فيه وعيالها . قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح . قالت : لبيك . قال : أخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل . وفى رواية أنها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها وإن رسول الله ﷺ قال : « كم من عذق رَدَاح (عظيم ضخم) فى الجنة لأبى الدحداح » وفى لفظ « رُبَّ نخلة مدلاة عروقها در وياقوت لأبى الدحداح فى الجنة » . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٣٠٧) وعزاه لابن أبى حاتم .

الخالق سبحانه وتعالى وفّر لخَلْقه ما يُغنيهم جميعاً ، ففى مال الغنى ما يسع الفقير ويُقيم حياته فى سعادة لا تقل عن سعادة الغنى .

فإنْ رأيتَ الصورة غير ذلك فاعلم أن فى الأمر خللاً إما أنْ يصير الغنىُّ بخيلاً ، أو يصير الفقير محتالاً ، لأن الخالق سبحانه وتعالى يدبر شئون الكون بما يُسعد عباده لا بما يُشقيهم .

ترى مثلاً أحد الأغنياء تتسع أملاكه فى بلد مثل طنطا ، فيشتاق إلى العيش فى بلد أخرى مثل الإسكندرية ، فيذهب إلى هناك وتصير له أملاك أخرى : مثل هذه الحركة ليست عبثاً ، إنما بتقدير من الله رب الجميع ، فمال هذا الرجل أصبح زائداً عن حاجة الفقراء فى طنطا ، فأراد الله له أنْ يفتح مجالاً جديداً للعطاء فى الإسكندرية ، وربما أنت تتعجب لماذا ينتقل هذا وهو غنى ، ماذا ينقصه ؟ لكنه تدبير الخالق الرازق الذى بيده مقاليد الأمور وأزمّتها .

ولأهمية الإنفاق وحاجة المجتمع إليه لم يكتف الشارع بفريضة الزكاة الواجبة ، إنما ترك باب العطاء مفتوحاً ليسع أريحية الغنى المعطاء الذى يريد أنْ يعطى أكثر مما فُرِض عليه فيتجاوز نسبة ٢,٥٪ إلى ٥ أو ١٠٪ .

لذلك عبّر القرآن عن الزكاة فقال : ﴿وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)﴾[المعارج] وعبّر عن الإنفاق فيما غير الزكاة فقال : ﴿وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾[الذاريات] ولم يقل هنا (معلوم) .

فالمعلوم هو الزكاة الواجبة ، والمطلق هو الصدقة ، وهى مقام الإحسان كما فى سورة الذاريات : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥)

آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

فمَنْ أدخل نفسه فى باب الإحسان ، وفرض عليها فوق ما فرض الشرع ، وألزم نفسه فوق ما فُرض عليه سوف يجد الجزاء أيضاً بالإحسان والزيادة ، فله خصوصية فى الجزاء مثل ما كان له خصوصية فى العطاء .

لذلك سمَّى القرآن هذا الإحسان وهذه الزيادة فى الإنفاق قرضاً ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (١١) ﴾ [الحديد] والقرض الحسن هو الذى تعطيه طيِّبة به نفسك ، ويشترط له أن يكون من مال حلال ومن كسب حلال ، لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً .

﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) ﴾ [المائدة] وألا يكون القرض من خبيث ما تملك ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ .. (٢٦٧) ﴾ [البقرة] وأنْ تعطيه وأنت محبٌّ للعطاء ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) ﴾ [الإنسان]

ثم لا تمنّ به بعد إخراجه ﴿ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى .. (٢٦٢) ﴾ [البقرة] وأنْ تتصدق فى خفاء حتى لا تحرج الآخذ ، كما بيّن سيدنا رسول الله ﷺ : « حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[2] ثم إن الصدقة فى الخفاء أبعد عن الرياء ، فإنْ أعطى عن رياء فقد أفاد

(١) يهجعون : ينامون ليلاً . وهجيع الليل : ساعة من الليل . ويقال : أتيت فلاناً بعد هجعة أى بعد نومة خفيفة من الليل . [لسان العرب – مادة : هجع] .

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ (١٥٠١) والبخارى فى صحيحه (٦٢٠، ١٣٣٤) والترمذى فى سننه (٢٣١٣) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأحمد فى مسنده (٩٢٨٨) كلهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، أوله : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » .

الآخذ ، وحرم نفسه ثواب عمله ، وضيَّع سعيه هباءً .

وأنت حين تقرض تحمى المحتاج وترحم وجهه من مذلة المسألة وطلب الصدقة ، لذلك ناس كثيرون تضطرهم الظروف وتُحوجهم بعد عزة وغنى ، فمثل هذا يناسبه القرض ليحفظ عليه عزته ، كما يقولون : ارحموا عزيز قوم ذل .

فحين تعطيه على سبيل القرض تخفف عنه المسألة ، وبعد ذلك إنْ قدر على الأداء فبها ونعمت ، وإنْ لم يقدر فأنت أمام أمرين كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ[1] إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) ﴾ [البقرة] إما أنْ تنظره إلى أنْ يتيسَّر له السداد ، أو تعفو عنه وتجعله صدقة .

إذن : الحق سبحانه وتعالى جعل لنا فى الإنفاق مراحل أولها الزكاة المفروضة ثم الزيادة عليها بالإحسان ثم القرض ثم العفو عن القرض والتصدُّق به .

وما دام أن الحق سبحانه وتعالى هو الذى تكلم بهذا الكلام ، فلا يأتى واقع الحياة ليُكذبه ، فعلى الغنى أنْ يتحلى بآداب الغنى ، وعلى الفقير والمحتاج أنْ يتحلى بآداب المسألة لنحقق مراد الله منا ، والحاصل الآن أن أكثر الأغنياء يبخل ، وأكثر الفقراء يلحف ويحتال .

ورسول الله ﷺ يُعلمنا هذا الدرس ، فيقول : « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه ، ومَنْ أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله »[2] .

(١) النَّظرة : الإمهال والتأخير وعدم الاستعجال . واستنظره : طلب منه النظرة واستمهله . [لسان العرب – مادة : نظر] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢١٢) وابن ماجه فى سننه (٢٤٠٢) وأحمد فى مسنده (٨٢٧٨ ، ٩٠٣٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

لذلك لما مات رجل ، وطُلِبَ من رسول الله أنْ يصلى عليه سأل : أعليه دين ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، فامتنع عن الصلاة عليه[1] .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذِّهن : وما ذنبه وقد مات ؟ لكن الحديث السابق يوضح المسألة ، فالمدين الذى يأخذ القرض وفى نيته أنْ يؤدى لا بدَّ أنْ يُعينه الله على الأداء ، بل يؤدى عنه دَيْنه ، ومعنى أنه مات دون أنْ يؤدى أن نيته فى الأداء لم تكُنْ صادقة ، وإلا لأدَّى الله عنه وأعانه .

وفى امتناع النبى ﷺ عن الصلاة عليه جانب آخر ، وهو أنْ يحثّ الناس على أنْ يُؤدوا عنه دَيْنه قبل أنْ يدفن رحمة به وتعليماً للناس وتعظيماً لأمر الدَّينُ فهو حقّ يتعلق بالعباد فلا تسامحَ فيه ، وحتى لا يستهين الناسُ بالدَّيْنِ ويأخذونه هكذا بلطجة وعنْوة ، لذلك قام الإمام على وقتادة يقول كل منهم : أنا أؤدى عنه يا رسول الله .

ثم إن رسول الله لما امتنع عن الصلاة على المدين لم يمنع الناس من الصلاة عليه ، إنما أمرهم بالصلاة عليه ، وقال : « صلُّوا على صاحبكم »[2] ، وهذا يعنى أن الرجل عنده نقص فى إيمانه وفى

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢٩٠٢) وأحمد فى مسنده (١٤٠٠٩ ، ٢١٥٠٣ ، ٢١٥٤٠) وابن حبان فى صحيحه (٣١٢٩) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه . وفيه : أنه ﷺ قال : صلوا على صاحبكم . فقال أبو قتادة الأنصارى : هو علىَّ يا رسول الله . قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٢١٢٧) عن سلمة بن الأكوع قال : كنا جلوساً عند النبى ﷺ إذ أتى بجنازة قالوا : صلِّ عليها . فقال : هل عليه دين ؟ قالوا : لا . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . فصلى عليه . ثم أتى بجنازة أخرى فقالوا : يا رسول الله صلِّ عليها . قال : هل عليه دين ؟ قيل : نعم . قال : فهل ترك شيئاً قالوا : ثلاثة دنانير فصلى عليها . ثم أتى بالثالثة فقالوا : صلِّ عليها . قال : هل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فهل عليه دين ؟ قالوا : ثلاثة دنانير . قال : صلوا على صاحبكم .

اتباعه لرسول الله حرمه هذا الفضل العظيم ، وهو أنْ يصلى عليه رسول الله ﷺ ، ولو كان الرجل متبعاً لأمر رسول الله فعلاً ما مات وهو مدين .

وذكرتُ أننا فى سان فرانسيسكو التقينا بأحد المستشرقين الدارسين للإسلام ، وكان يقول أنا عندى فقدان توازن ، لا أنا مسيحى ، ولا أنا مسلم ، وكان الرجل يميل إلى الإسلام لكن عنده بعض الشبهات ، وكان يقول لبعض الإخوان إن جاء فلان فأنا أريد مقابلته لأناقشه فى بعض المسائل .

وكان من الشبهات عنده مسألة الصدقة والقرض ، فسأل فى قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. ﴿١١﴾﴾ [الحديد] أى : يضاعفه عن الأصل ، والحسنة بعشر أمثالها يعنى عشرين ضعفاً ، وفى الحديث : « مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[1] .

إذن : نقص عن العشرين فألهمنا الله وقلنا له : أنت حين تتصدّق بدولار مثلاً يكون لك عند ربنا كم ؟ قال : وهو يشير بأصابعه عشرة ، قلت : هل استرددت دولارك الأول ؟ قال : لا ، قلت : إذن أخذت تسعة ، وحين تُضاعف تعطينا ثمانية عشر ؟ إذن : ليس هناك مخالفة بين النصين .

(١) أخرج الطبرانى فى المعجم الأوسط (٦٩٠٨) عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بى مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر ، فقلت : يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ فقال : إن السائل يسأل وعنده . والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » .

ولما نزلتْ هذه الآية : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (١١)﴾ [الحديد] قال بعض اليهود[1] : إن ربَّ محمد افتقر ويريد أنْ يقترض منا ، وساعتها ضربه أبو بكر على وجهه ، فقال له رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء . فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه ، فأنكر ذلك فنحاص وقال : ما قلت ذلك . فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً عليه وتصديقاً لأبى بكر :

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى : ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)﴾ [الحديد] بعد مضاعفة الأجر والحسنة بعشر أمثالها يعطيه أيضاً أجراً كريماً فضلاً منه تعالى ، فالمضاعفة عَدْل ، والأجر الكريم فَضْل ، ووَصْف الأجر ذاته بأنه كريم دليل على عِظمه ، فإذا كان العطاء ذاته كريماً فما بالك بالمعطى ؟

الحق سبحانه وتعالى فى مسألة القرض هذه يحفظ للمؤمن سَعْيه

(١) أخرج الطبرى فى تفسير آية ١٨١ سورة آل عمران عن ابن عباس (أثر رقم ٨٣٠٠) قال : دخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه بيت المدراس فوجد من يهود ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال له أشيع . فقال أبو بكر لفنحاص : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل . قال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة .

ويُقدِّر حركته فى الحياة ، ولا يبخسه حقه ، فيسمى النفقة على الفقير قرضاً ، مع أن المال فى الحقيقة مال الله لكنه يقترضه منك ، لا يقترضه لنفسه سبحانه إنما يقترض منا على خَلْقه .

وهذه موجودة فى واقع حياتنا ، يفعلها الأب مع أولاده ، مثلاً تجد الأب يعطى لأولاده المصروف ، فمنهم مَنْ يدخره فى حصالة ، فإذا ما احتاج الأب لمال لكى يُجرى عملية مثلاً لأحد الأبناء يقول للآخرين : هاتوا ما معكم لنفعل كذا وكذا ، وسوف أردها لكم فيما بعد وحين ميسرة ، فأخذها منهم على سبيل القرض وهى فى الواقع مِلْك له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم[1] بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم[2] بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)﴾

(١) قال قتادة : ذُكر لنا أن نبى الله ﷺ قال : « إن من المؤمنين من يضىء نوره كما بين المدينة وعدن – أو ما بين المدينة وصنعاء – ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضىء نوره إلا موضع قدميه » . [أورده القرطبى فى تفسيره ٩ / ٦٦٤٥] .

(٢) قوله (بأيمانهم) قال الفراء : الباء بمعنى (فى) أى فى أيمانهم . أو بمعنى (عن) أى عن أيمانهم . وقال الضحاك : (نورهم) هداهم . (وبأيمانهم) كتبهم . واختاره الطبرى . أى : يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم ، وفى أيمانهم كتب أعمالهم . فالباء على هذا بمعنى (فى) .

الفعل (ترى) هنا يُراد به الرؤية البصرية لأنه ورد فى أمر يقع تحت الحواس ، فإذا ورد فى أمر لا يقع تحت الحواس تكون بمعنى العلم كما فى قوله تعالى لسيدنا رسول الله : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)﴾ [الفيل] لأن رسول الله وُلد عام الفيل فلم يَرَ هذه الحادثة . إذن : ﴿أَلَمْ تَرَ.. (١)﴾ [الفيل] بمعنى ألم تعلم ، ولكنه عدل عنها إلى ﴿أَلَمْ تَرَ.. (١)﴾ [الفيل] ليبين أن علمك عن ربك أوثق من رؤية عينك .

والكلام هنا عن موقف من مواقف يوم القيامة : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ..(١٢)﴾ [الحديد] هذا النور نور الإيمان والأعمال الصالحة فى الدنيا يمشى أمامهم ويمشى عن أيمانهم ليُوصلهم إلى الجنة .

وقال : ﴿نُورُهُم ..(١٢)﴾ [الحديد] كأن النور ملك لهم ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ .. (١٢)﴾ [الحديد] فالنور هو البشرى ساعة يرونه يستبشرون به ويعلمون أنه هاديهم إلى الجنة ومُوصِّلهم إليها .

﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)﴾ [الحديد] نعم عظيم لأنه فوز دائم لاينقطع ولا يُنغِّصه شىء ، لأن الإنسان قد يجد فى الدنيا جنات وحدائق ونعيماً لكن يُنغِّصها عليه أنها لا تدوم ، إما أنْ يتركها أو تتركه ، أما نعيم الجنة فدائم باقٍ لا يحول ولا يزول أبداً .

وفى الوقت الذى يجد فيه المؤمنون نورهم يسبقهم ويقودهم فيستبشرون به يكون الكفار والمنافقون فى ظلمات تتقاذفهم ويتخبطون فيها ، فيأمر الله الملائكة أنْ تزجّ بهم إلى النار والعياذ

بالله : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[1] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)﴾ [الصافات]

يعنى : دُلُّوهم على طريق النار قِفُوهم على أول الطريق واتركوهم ، واستخدام لفظ الهداية هنا على سبيل السخرية منهم والتهكم بهم .

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ (١٣)﴾

﴿يَوْمَ ..(١٣)﴾ [الحديد] أى يوم القيامة يوم يرى المؤمنون نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يُوصلهم إلى الجنة ، فى نفس هذا اليوم ﴿يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا .. (١٣)﴾ [الحديد] أى : انتظرونا ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ..(١٣)﴾ [الحديد] نأخذ منه قبساً نستضىء به ونهتدى به ، فيُقال لهم : ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ..(١٣)﴾ [الحديد]

أى : عودوا إلى الدنيا فاطلبوا النور الذى يهديكم الآن ، لأن النور الذى نهتدى به الآن قدَّمناه عملاً صالحاً فى الدنيا يوم آمنَّا بالله ورسوله وأطعنا ، والآن نجنى ثمرة ما قدَّمناه ، وعليكم أنْ تستأنفوا حياة جديدة حيث التكليف والعمل ، فاليوم جزاء لا عمل .

---

(١) وأزواجهم : معناه نظراءهم وضرباءهم وأشكالهم . والزوج الصنف ومنه قوله تعالى : ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨)﴾ [ص] معناه ألوان وأنواع من العذاب وأصناف منه . [لسان العرب – مادة : زوج] .

وتأمل هنا عظمة الأداء القرآنى ، فالحوار يدور بين المؤمنين والمنافقين ، ومع ذلك بنى الفعل (قيل) للمجهول ولم يقل قال المؤمنون للمنافقين حتى لا يكون فى الموقف شماتة ، ولا يريد أنْ يُوقف المؤمنين هذا الموقف ، فكأن الصوت جاءهم من جهة لا يعرفونها .

وقوله تعالى : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم ..(١٣)﴾ [الحديد] بين المؤمنين والمنافقين ﴿ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ .. (١٣)﴾ [الحديد] وهكذا أنهى الحق سبحانه هذا الحوار وحجز المؤمنين عن المنافقين بسور له باب حتى لا يروْهم ولا يسمعوهم ، لأن المؤمن بطبعه رقيق القلب .

فربُّه عز وجل يحمى سمعه ويحمى بصره أنْ يتأذَّى بما يعانيه المنافقون فى جهنم والعياذ بالله ﴿ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ..(١٣)﴾ [الحديد] من ناحية المؤمنين ﴿ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣)﴾ [الحديد] من ناحية المنافقين .

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) ﴾

ما يزال الحوار مستمراً ، يقول المنافقون للمؤمنين وينادونهم ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ .. (١٤)﴾ [الحديد] أى فى الدنيا نصلى كما تصلُّون ، بل نسبقكم إلى الصفوف الأولى ، فماذا حدث ؟ ما الذى أدخلكم الجنة وألقى بنا فى النار وعملنا واحد ؟

فيردّ المؤمنون على المنافقين : ﴿ قَالُوا بَلَىٰ (١٤)﴾ [الحديد] صحيح كنتم معنا فى الدنيا تعملون كما نعمل وزيادة ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ..(١٤)﴾ [الحديد] كنتم معنا قوالب لا قلوب ، كنتم معنا نفاقاً ورياءاً وسمعة ، تقولون بألسنتكم ما ليس فى قلوبكم ﴿ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ .. (١٤)﴾ [الحديد] عرَّضتموها للفتنة بأيديكم [(1)] .

ومن هنا كان المنافق أشدَّ جُرْماً من الكافر واستحقّ أنْ يكون فى الدرك الأسفل من النار ، لأن الكافر صارح نفسه وصارح الناس وأعلن صراحة أنه كافر ، فعاملناه على هذا ولم يلتبس علينا أمره .

أما المنافق فهو واحد منا وفى صفوفنا وبين أظهرنا ونحن لا نعرف نواياه ولا دخيلة قلبه ، فعداؤه لنا مستتر ومواجهته شاقة صعبة .

﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ..(١٤)﴾ [الحديد] التربُّص : الانتظار ، أى : انتظرتم أنْ تحلّ المصائب والنكبات بالمؤمنين ، انتظرتم أنْ يزول هذا الدين ، انتظرتم أنْ يموت رسول الله فتموت معه دعوته .

وفى آيات أخرى الحق سبحانه وتعالى يوضح هذا الموقف ، فيقول عزوجل : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾ [التوبة]

---

(١) معنى ﴿ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ..(١٤)﴾ [الحديد] :
- أهلكتموها بالنفاق . قاله مجاهد .
- بالمعاصى . قاله أبو سنان .
- بالشهوات واللذات . رواه أبو نمير الهمدانى . [تفسير القرطبى ٩ / ٦٦٤٨] .

يعنى : ماذا تنتظرون لنا ؟ الأمر بالنسبة لنا إحدى الحسنيين : إما النصر وإما الشهادة ، أما أنتم فليس لكم إلا العذاب ، إما أنْ يعذبكم الله بأيدينا فى الدنيا ، أو يعذبكم بالنار فى الآخرة .

وفى الوقت الذى تتربصون فيه زوال الإسلام وأفول نجمه كان الإسلام ينتشر وتزداد رقعته : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** .. (٤١) ﴾ [الرعد] يعنى : تتناقص أرض الكفر ، وتزداد أرض الإيمان .

وقوله سبحانه : ﴿ **وَارْتَبْتُمْ** .. (١٤) ﴾ [الحديد] الارتياب : الشك ، أى : شككتم فى أمر الدعوة وفى صِدْق رسول الله فى البلاغ عن الله ﴿ **وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِىُّ** .. (١٤) ﴾ [الحديد] خدعتكم أمانيكم فى زوال هذا الدين بموت محمد وذهاب دعوته .

﴿ **حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ** .. (١٤) ﴾ [الحديد] إما بالانتصار عليكم أو موتكم ، أو جاء أمر الله بالقيامة ﴿ **وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** (١٤) ﴾ [الحديد] وهو الشيطان لأنه يغرُّ الناس ويخدعهم ويصرفهم عن الله ، وفى النهاية يفضحهم ويتبرأ منهم .

﴿ **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِىَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنفُسَكُم** .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

﴿ **فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِىَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** (١٥) ﴾

هذا قطع لآمالهم فى النجاة ، فالمصير الذى ينتظرهم لا مفر منه ولا مهرب ، حتى الفدية لا تؤخذ منهم إذا أراد الواحد منهم أنْ يفتدى نفسه من عذاب الله . وقد يظن ظانّ أن هذا الحكم خاص بالمنافقين الذين سبق الحديث عنهم ، لأن الله أخبر عنهم بأنهم ﴿ **فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** (١٤٥) ﴾ [النساء]

فيوضح سبحانه وتعالى أن هذا الحكم يشمل أيضاً أمثالهم من الكافرين : ﴿ **وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** .. (١٥) ﴾ [الحديد] لأن الكافرين أقلّ جُرْماً من المنافقين ، فقال : لا تُقبل الفدية لا من هؤلاء ولا من هؤلاء ، ولا بد أنْ يواجهوا هذا المصير .

﴿ **مَأْوَاكُمُ النَّارُ** .. (١٥) ﴾ [الحديد] مرجعكم ومثواكم الأخير ﴿ **هِىَ مَوْلَاكُمْ** .. (١٥) ﴾ [الحديد] أى : النار مولاكم ، لأن الإنسان يحتاج فى هذا الموقف إلى ولىّ يواليه ونصير ينصره ، ومن لم يكن الله وليَّه ونصيره فى هذا اليوم ، فالنار والعياذ بالله هى وليّه .

لذلك قال فى آية النساء : ﴿ **وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** (١٤٥) ﴾ [النساء] وقال : ﴿ **مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ** (٨) ﴾ [الشورى] ومَنْ كانت النار وليه ونصيره فبئس المولى وبئس النصير ، وبئس المرجع والمصير .

ثم يقول الحق سبحانه [(١)] :

---

(١) سبب نزول الآية : قال الكلبى ومقاتل : نزلت فى المنافقين بعد الهجرة بسنة . وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسى ذات يوم فقالوا : حدِّثنا عما فى التوراة فإن فيها العجائب ، فنزلت هذه الآية وقال غيرهما : نزلت فى المؤمنين .

فعن سعد بن أبى وقاص قال : أُنزل القرآن زماناً على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً ، فقالوا : يا رسول الله لو قصصتَ فأنزل الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣) ﴾ [يوسف] فتلاه عليهم زماناً فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ .. (٢٣) ﴾ [الزمر] قال : كل ذلك يؤمرون بالقرآن . قال خلاد : وزاد فيه آخر قالوا : يا رسول الله لو ذكّرتنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ .. (١٦) ﴾ [الحديد]

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

الهمزة استفهام يراد به التعجب أو الحث على المسارعة ، يعنى ألم يأتِ أوان أنْ تخشع قلوبهم ، ألم يحِنْ الوقت ، وكأنهم أخروا خشوع القلوب وتباطئوا فيه ، كما نقول مثلاً للشيخ الذى أسرف على نفسه وما يزال على هذا الحال مع كِبَر سنه : ألم يأنِ لك أن تتوب وترجع إلى الله ، فهذا يعنى أنه أخّر التوبة .

والكلام هنا عن الذين آمنوا بالفعل ، فهم مؤمنون لكن عندهم خلل وقصور ، إما أن أعمالهم قليلة ، أو أنهم يؤدون الأعمال دون استحضار القلب ، ودون الخشوع والخضوع المطلوب لله ﴿ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد] أى : عند تذكره وعند سماع آيات ، فمن صفات المؤمن أن ينفعل لآيات الله ، خاصة آيات التهديد والوعيد وذكر النار والحساب .

﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد] أى من الآيات ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد] وهم اليهود والنصارى ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد] طالتْ مدة التذكر فأصابتهم الغفلة ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد] صارت قاسية لا تلين لذكر الله ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد] خارجون عن طاعة الله .

ويُحكى فى معنى هذه الآية قصة ، قالوا : إن الفضيل بن عياض[1] وهو أحد الصوفية والعارفين بالله كان فى بداية أمره قاطع طريق ، وفى مرة تسوّر أحد الأسوار ليسرق فسمع هاتفاً يقرأ هذه الآية : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد] فقال : أنا يارب ونزل ، فكانت نقطة تحول فى حياته[2] .

وقد سأله سائل عن قصته العجيبة هذه ، وكيف تحول من قاطع طريق ولص إلى ولى صالح ، فقال له : أتذكر لك حسنة قبل أنْ يتوب الله عليك ؟ قال : والله لا أذكر لى إلا حسنة واحدة ، فقد مررتُ فى الطريق بورقة من كتاب الله مُلْقاة على الأرض والناس يدوسون عليها ، فأخذتها واحتفظتُ بها ولم يكُنْ معى إلا درهم واحد فاشتريت به عطراً فعطرتها به ، فسمعت هاتفاً يقول : والله لأبيضنّ اسمك كما بيضتَ اسمى .

---

(١) الفضيل بن عياض : شيخ الحرم المكى من أكابر العبّاد الصالحين ، كان ثقة فى الحديث ، أخذ عنه خلق كثير منهم الإمام الشافعى ولد فى سمرقند (١٠٥ هـ) ونشأ بأبيورد ودخل الكوفة وهو كبير وأصله منها ثم سكن مكة وتوفى بها عام (١٨٧ هـ) [الأعلام للزركلى ٥ / ١٥٣] .

(٢) أورده ابن الشجرى فى الأمالى الشجرية (التوبة وما يتصل بها) ، قاله إبراهيم بن الأشعث : كان مبتدأ توبة فضيل بن عياض أنه خرج عشية يريد مقطعة وكان يقطع الطريق فإذا بقوم حمارة معهم ملح فسمع بعضهم يقول : مروا مروا لا يفجأنا فضيل فيأخذ ما معنا ، فسمع ذلك فضيل فاغتم وتفكر ، وقال تخافنى الخلق هذا الخوف العظيم فتقدم وسلم عليهم وقال لهم وهم لا يعرفونه : تكونون الليلة عندى وأنتم آمنون من الفضيل فاستبشروا وفرحوا وذهبوا فأنزلهم وخرج يرتاد لهم علفاً ثم رجع فسمع قارئاً يقرأ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد] فصاح ومزق ثيابه على نفسه وقال : بلى والله لقد آن فكان هذا مبتدأ توبته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

ألا تلاحظون المناسبة هنا بين قسوة القلوب وتحجرها وبين إحياء الأرض بعد موتها ؟ كأن الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يقول لنا : إنْ كانت قلوبكم قد ماتت وقستْ ، وإنْ كانت تعاليم الدين قد ضاعت منكم فلا تيأسوا ، لأن الذى يحيى الأرض بعد موتها قادر على أن يحيى موات قلوبكم .

إذن : كانت بشارة لهم أنهم سيعودون إلى ساحة الإيمان بأفضل مما كانوا عليه ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحديد] ومن الآيات أن الله يُحيى القلوب بالذكر والآيات كما يُحيى الأرض بالمطر ، فكل منهما آية تحتاج منا إلى تفكير وتعقل وتأمل .

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

السياق القرآنى يعود بنا مرة أخرى إلى الحديث عن الصدقات والإنفاق فى سبيل الله لما له من أثر وأهمية فى حياة المجتمع ، فيقرر هذه الحقائق ويؤكد عليها لأن إنفاق المال بعد مشقة اكتسابه أمر صعب يشقّ على النفس ، فيحتاج إلى مجاهدة .

وإذا كان السياق قد قرر هذه المسألة قبل عدة آيات فإنه يؤكدها هنا كما أكد الآيات الكونية فى سورة (الرحمن) : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن] يكررها بعد كل آية .

كذلك هنا يؤكد على ضرورة الإنفاق والصدقة ، ويؤكد على الأجر الكريم الذى ينتظر المتصدِّقين ، ومعلوم أن المال مُحبَّب إلى النفس خاصة إذا جاء بعرق ومجهود .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾

قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الحديد] لأن الإيمان برسول واحد يقتضى الإيمان بجميع الرسل لأن رسالة السماء كما قلنا واحدة ، لذلك كان الإيمان بالرسل ركناً من أركان الإيمان .

ثم وصف المؤمنين بأنهم ﴿ هُمُ الصِّدِّيقُونَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الحديد] جمع صِدِّيق ، وهو الذى بالغ فى تصديق الرسول فى كل ما جاء به .

لذلك لُقِّب أبو بكر رضى الله عنه بالصِّدِّيق لأنه كان يصدق رسول الله فى كل ما يقول . كذلك وصف الله بها السيدة مريم : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ[1] .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة] لأنها صدَّقت ربها عز وجل فى الشىء الخارق لعادة الخَلْق فى مسألة الإنجاب .

﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الحديد] وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ

---

(١) صديقة أى مبالغة فى الصدق والتصديق . وقال الليث : كل من صدَّق بكل أمر الله لا يتخالجه فى شىء منه شك وصدَّق النبى فهو صِدِّيق . [لسان العرب – مادة : صدق] .

أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران] فهم أحياء عند ربهم لا عندنا ، لأنك ترى الشهيد بعد أنْ يُقتل ويُوضع فى كفنه ويُدفن فهو عندنا ميت ولو فتحت عليه قبره لوجدته ميتاً .

إذن : هم أحياء عند الله ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الحديد] أى : نورهم أيضاً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يهديهم ويدلّهم على أماكنهم فى الجنة .

ثم يذكر النقيض : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحديد] أى : مصاحبين لها ملازمين لحرِّها ، فكأنهم صاحبوا النار والنار صاحبتهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ (١) فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾

هذه الآية فضحت الدنيا وكشفت زيفها ، فالبعض يعمل فى الدنيا على أنها غاية وهى ليست كذلك ، فالحق سبحانه يصفها هنا بعدة أوصاف فى أسلوب قصر ، يعنى ما هى إلا كذلك .

---

(١) هاج النبات يهيج : أدرك النضج واصفرَّ . وهو وصف للنبات عند تمام نضجه أى يكثر ويزداد أو ييبس ويصفر . [القاموس القويم ٢/ ٣١٢] .

﴿ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد] واللعب حركة للإنسان ليس لها مقصد حسن ، مثل لعب الأولاد فى المنزل حينما يلعبون ويُكسرون ، وهذا اللعب مجرد تسلية لهم وشَغْل للوقت واستفراغ للطاقة ، واللعب يكون قبل زمن التكليف ، فإنْ كان بعد التكليف فهو لهو ، لأنه يُلهيك عن العمل الصالح .

والزينة الشىء الزائد عن قوام الحياة وضرورياتها ، فالإنسان له حدّ أدبى فى أكله وشُربه وملبسه بحيث يسدّ جوعه ويستر عورته ولو بأىّ شىء موجود ، فإذا أنعم الله عليه ووسّع رزقه يرتقى فى مأكله ومشربه وملبسه ومركبه .

وقد وضحت الآيات هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ..﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف] ومنه قولنا (فلان متريش) يعنى : عنده زيادة فى الملبس ، عنده زينة تتعدّى مجرد ستر العورة .

لكن مهما توفر لك الرياش فى الدنيا والزينة فلا تنسَ أنها دنيا ، وخالقها سبحانه هو الذى وصفها بهذا الوصف ، وإذا كانت هذه الحياة التى نحياها دنيا ، فلا بدّ أنْ يكون مقابلها العليا وهى الآخرة .

ويكفى فى دناءتها وحقارتها أن نعيمها منغّص وأن أمدها قصير ، فالدنيا بالنسبة لك مقدار عمرك فيها ولا صلة لك بأعمار الآخرين من آدم إلى قيام الساعة ، فمَنْ مات قامت قيامته (١) .

---

(١) أورده الطبرى فى تهذيب الآثار (٢٤٠) عن أبى قيس قال : رأيت علقمة فى جنازة فلم يزل قائماً حتى دفن فقال : « أما هذا فقد قامت قيامته » وكذا أورده الدولابى فى (الكنى والأسماء ١٢٠١) .

لذلك الحق سبحانه وتعالى لما مثّل لنا مثلاً للدنيا قال : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[1] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف]

وفى موضع آخر بيّن الحق سبحانه وتعالى المراد بالزينة ، فقال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ[2] الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾ [آل عمران]

والتفاخر أنْ تفخر على غيرك إما بشيء فى ذاتك كالصحة أو العافية أو الجمال . أو بشيء خارج عن الذات كالمال والأولاد والجاه والسلطان . والتكاثر كذلك هو التباهى والاستعلاء بما عندك من الأموال والأولاد .

ثم يضرب الحق سبحانه وتعالى مثلاً لهذا كله ليوضح لنا الصورة ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] أى : مطر نزل من السماء ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] الكفار هنا بمعنى الزُّراع وليست بمعنى الكفار المخالفين لمنهج الله .

وفى آخر سورة الفتح ضرب الحق سبحانه وتعالى مثلاً لمحمد ﷺ وأمته : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ[3] فَاسْتَغْلَظَ

---

(١) الهشيم : الحطب والخشب المحطَّم . والهشيم : النبات اليابس المتكسِّر المتحطم . تذروه الرياح لخفته وتكسُّره .

(٢) القنطار المقدار الكبير من المال جمعه قناطير . ومعنى أنها قناطير وأنها أيضاً مقنطرة أنها أموال كثيرة توزن بالقناطير ولا تُعد عداً . فهى أكثر من أن تعد بل توزن .

(٣) آزر الزرع : قوى واشتد ساقه . والأزر القوة . وآزره : قوّاه . [القاموس القويم : مادة أزر] .

فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الفتح] فقال هنا (الزرّاع) ليفرق بين المعنيين ، فالكفار هنا أى المخالفين لمنهج الله .

﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا .. (٢٠) ﴾ [الحديد] أى : يزدهر ويترعرع ثم سرعان ما يذبل ويصفرّ ويتحوّل إلى حطام وفتات ، كذلك حال الدنيا تضحك لأهلها وتعجبهم ، ثم تنتهى إلى لا شيء ، بل وتخلف بعدها التبعات .

﴿ وَفِى الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] لمن غرَّته الدنيا ، فأخذها لهواً ولعباً وزينة وتفاخراً تباهياً بين الناس ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] لمن لم يغتر بالدنيا ولم ينصرف عن منهج الله .

ثم تؤكد الآيات هذا المعنى ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) ﴾ [الحديد] أى : متاع خادع زائف لا يدوم . والغرور بالضم مصدر غرّ ، والغرور بالفتح هو الشيطان ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ [فاطر] أى : الشيطان وكل ما يغرّك من مال أو غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) ﴾

بعد أنّ ذكر الحق سبحانه وتعالى الدنيا وما فيها من لهو ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر قال : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (٢١) ﴾ [الحديد] كأنه سبحانه يقول لنا : اتركوا هذه الدنيا وما فيها من غرور ، فهى سراب لا طائل من ورائه ، وسابقوا إلى ما هو أبقى لكم .

﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ .. (٢١) ﴾ [الحديد] فكأن المغفرة هى الغاية وهى الهدف ، كما تقول سافرت من القاهرة إلى الإسكندرية ، وهذه الغاية لا تُدرك إلا بالمسابقة والسعى الجاد الدائب ، لا تُدرك المغفرة بالتهاون والتكاسل . والسباق هنا سباق فى الأعمال الصالحة وفى الطاعات ، سباق فى الانقياد لأوامر الله .

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣) ﴾ [آل عمران] والمسارعة والمسابقة تعنى مفاعلة ومشاركة ومنافسة بين المؤمنين المنقادين لمنهج الله كُلّ يريد أنْ يسبق وأنْ يرتقى إلى الغاية المنشودة لهم جميعاً وهى المغفرة ﴿ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (٢١) ﴾ [الحديد]

لكن فى آية أخرى قال فى شأن سيدنا زكريا وسيدنا يحيى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٩٠) ﴾ [الأنبياء] ولم يقل إلى الخيرات لأن الخيرات وسيلة وليست غاية فى ذاتها الخيرات وسيلة للغاية العظمى وهى المغفرة .

وقال (الخيرات) بصيغة الجمع لأنها مجال واسع يسع الطموح الإيمانى ، فكلّ مؤمن يأخذ منه على قدر أريحيته ويسارع فيه على قدر جهده وإمكانيته ، فعملَ الخير يتفاوت إذن كلما أوغلت فيه وسارعت أخذت من المنزلة على قدره .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ .. (٢٦) ﴾ [المطففين] أى : فى عمل الخيرات ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) ﴾ . [المطففين]

والنبى ﷺ يوضح لنا هذا المعنى بقوله : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله العلم فهو يقضى به بين الناس »[1] .

والحسد هنا بمعنى الغبطة والمنافسة الشريفة ، وأصل المنافسة من طول النفس ، لذلك سيدنا عمر قال لسيدنا العباس : هيا بنا نتنافس يعنى : نغطس فى الماء ونرى مَنْ منا أطول نفساً من الآخر[2] ؟ ومعلوم أن الإنسان كلما كانت رئته سليمة تتسع لأكبر قدر من الهواء كان نفسه وبقاؤه تحت الماء أطول .

إذن : نتسابق فى الخيرات لنرى مَنْ منَّا أسبق ، مَنْ منّا يصل إلى غايته أولاً . لذلك رُوِى أن حاتم الأصم[3] سأله شيخه البلخى[4] :

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧١ ، ١٣٢٠ ، ٤٦٣٧) وكذا مسلم فى صحيحه (١٣٥٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى عما يباح فى الإحرام : عن ابن عباس قال : ربما قال لى عمر بن الخطاب : تعال أباقيك فى الماء أينا أطول نفساً ونحن محرمون . وذكره المتقى الهندى فى كنز العمال وعزاه للشافعى والبيهقى فى السنن . وصححه الألبانى فى إرواء الغليل (١٠٢١ - مختصر) .

(٣) حاتم الأصم : هو حاتم بن عنوان أبو عبد الرحمن المعروف بالأصم ، زاهد اشتهر بالورع والتقشف ، له كلام مدون فى الزهد والحِكَم ، من أهل بلخ ، زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل وشهد بعض معارك الفتوح وكان يقال : حاتم الأصم لقمان هذه الأمة . توفى بواشجرد عام ٢٣٧ هجرية . [الأعلام للزركلى ٢ / ١٥٢] .

(٤) البلخى : هو شقيق بن إبراهيم الأزدى البلخى أبو على ؛ زاهد صوفى من مشاهير المشايخ فى خراسان ، كان من كبار الزهاد والمجاهدين ، استشهد فى غزوة كولان (بما وراء النهر) عام ١٩٤ هـ . [الأعلام للزركلى ٣ / ١٧١] .

فيمَ أفنيتَ عمرك ؟ فقال : فى أشياء : علمتُ أنِّى لا أخلو من نظر الله إلىَّ طرفة عين فاستحييتُ أنْ أعصيه . وعلمتُ أنْ لى رزقاً لا يتجاوزنى وقد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، وعلمتُ أن علىَّ ديناً لا يؤديه عنِّى غيرى فاشتغلتُ به ، وعلمت أن لى أجلاً يبادرنى فبادرته – وهذه هى المسابقة ، يعنى : أجل يبادرنى بالموت فبادرته أى : سابقته بالعمل الصالح[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٢١) ﴾ [الحديد] جاءت الجنة بعد المغفرة ، فالله يغفر لهم الذنوب أولاً ثم يدخلهم الجنة ، والقاعدة أن درء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ، وقلنا سابقاً : إن التخلية تسبق التحلية .

ومثَّلنا لذلك وقلنا : لو أن واحداً رماك بحجر وآخر رماك فى نفس الوقت بتفاحة ، فلا شكّ أنك تدفع الحجر عن نفسك أولاً . وهذا المعنى واضح فى قول الله تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

والمغفرة إما أنْ يسبقها ذنب فتمحوه المغفرة ، أو تكون المغفرة بستر الذنب عنك فلا يأتيك أصلاً .

والحق سبحانه وتعالى هنا يعطينا مثلاً وتوضيحاً للجنة لأنها

(١) ذكره ابن حمدون فى التذكرة الحمدونية (الفصل الرابع فى أخبار التابعين) أن رجلاً سأله : على ما بنيت أمرك هذا فى التوكل على الله ؟ قال : على خصال أربع : علمت أن رزقى لا يأكله غيرى فاطمأنت به نفسى ، وعلمت أن علىَّ ديناً لا يعمله غيرى فأنا مشغول به ، وعلمت أن الموت يأتينى بغتة فأنا أبادره ، وعلمت أنى لا أخلو من عين الله حيث كنت فأنا مُستَحٍ منه .

غيب عنا مجهولة لنا ، فيُقرِّبها للأذهان بشىء معلوم مُشَاهد ، ونحن نشاهد السماء والأرض واتساعهما طولاً وعرضاً .

فقال فى وصف الجنة ﴿ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٢١) ﴾ [الحديد] فالكاف هنا للتشبيه فهى فى عَرْضها تشبه عرض السموات والأرض ونحن ننظر إلى السموات وإلى الأرض فنجدها ممتدة لا نهاية لها ، فضرب لنا مثلاً بأوسع شىء نعرفه وهو السماء والأرض لما لا نعرفه وهو الجنة .

﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٢١) ﴾ [الحديد] فأتى بالعرض ولم يأت بالطول ، ومعلوم أن العرض دائماً أقلّ من الطول ، فإذا كان عرضها أى الجنة كعرض السموات والأرض فى اتساعه فما بالك بالطول ، فهذا كناية عن الاتساع .

وقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ .. (٢١) ﴾ [الحديد] أى : أُعدَّتْ بالفعل وجُهِّزت لاستقبال الذين آمنوا بالله ورسوله ، فهى مسألة مفروغ منها وليست تحت الإنشاء ، لذلك لما سأل سيدنا رسول الله ﷺ سيدنا حارث بن مالك : كيف أصبحتَ يا حارث ؟ قال : أصبحتُ بالله مؤمناً حقاً ، قال : لكلِّ حقٍّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفتْ نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها[1] ، وكأنِّى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون وإلى أهل النار فى النار

(١) المدر : قطع الطين اليابس . وقيل : الطين العلك (اللزج) الذى لا رمل فيه . وهو أيضاً الطين المتماسك . (لسان العرب – مادة : مدر) بتصرف .

يُعذَّبون ، فقال له : عرفتَ فالزم[١] .

فمعنى (أُعدت) بصيغة الماضى أنها موجودة من الآن ، وسيدنا رسول الله ﷺ فى مرحلة الإسراء والمعراج قال : وعُرضتْ علىَّ الجنة (أى الماكيت) ، ونحن حينما نريد أنْ نبنى عمارة مثلاً نعمل لها نموذجاً أو (ماكيت) يوضح كل تفاصيلها حتى الفرش والأثاث ، كذلك الحق سبحانه وتعالى عنده (الماكيت) الأعلى للجنة .

لذلك لما قال له : ما شُغل ربك الآن وقد صحَّ أن القلم قد جفَّ ؟ قال : أمور يُبديها ولا يبتديها يرفع أقواماً ويضع آخرين[٢] . معنى يُبديها يُظهرها للوجود ، فهى موجودة بالفعل فى عالم الغيب تنتظر الأمر بالظهور للوجود .

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد]

فكل من يدخل الجنة فبفضل الله سبحانه ، والفضل هو الأمر الزائد عن حاجتك الضرورية ، ولذلك يقول رسول الله ﷺ : « مَنْ

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (الجزء ٧ - باب ما ذكر فيما يطوى عليه المؤمن من خلال) أن رسول الله ﷺ قال : كيف أصبحت يا حارث ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً . قال : إن لكل قول حقيقة فما حقيقة ذلك ؟ قال : أصبحت عزفت نفسى عن الدنيا وأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكأنى أنظر إلى عرش ربى قد أبرز للحساب ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فى الجنة وكأنى أسمع عواء أهل النار . قال فقال له رسول الله : « عبد نوَّر الإيمان فى قلبه إنْ عرفت فالزم » .

(٢) جاء فى تفسير (البحر المديد) : « رُوى عنه ﷺ أنه تلاها ، فقيل له : ما هذا الشأن ؟ فقال : من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرّج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين . وقيل : نزلت آية الرحمن ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرحمن] فى اليهود حين قالوا : إن الله لا يقضى يوم السبت شأناً فردّ الله عليهم . والمراد بهذه الشؤون : أمور يُبديها ولا يبتديها ، فقد جفَّ القلم بما هو كائن إلى ما لا نهاية له

كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له »[١] هذا عن الفضل بالنسبة للبشر أما بالنسبة لله سبحانه فإن كل ما فى كون الله الآن وفى الآخرة فهو فضل الله لأنه زائد على حاجته ، فالله غير محتاج لخلقه ولا لكل نعمه التى سبقت والتى ستأتى .

ولذلك قال : ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد] أى ذو الفضل الهائل الزائد عن حاجته ، والفضل الحقيقى هو الذى من عند الله .

لذلك فإن الله سبحانه هو ذو الفضل العظيم لأنه غير محتاج إلى كل خلقه أو كونه ، لأن الله سبحانه كان قبل أن يوجد شىء ، وسيكون بعد ألا يوجد شىء ، وهذا ما يسمى بالفضل العظيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ[٢] إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

المصيبة : كل ما يصيب الإنسان ويسوءه ويُخرجه عن سلامة التنعم ، فاسمها يدل عليها فلا تسمى مصيبة إلا إذا وقعتْ . كالذى قال : الموت سَهْم أُرسلَ إليك وعمرك بقدر سفره إليك ، فالسهم أرسلَ بالفعل فإذا أصاب فهى المصيبة ، وهى الشىء الذى حكم بأنه واقع لا محالة .

فالحق سبحانه وتعالى يقول لك انظر إلى المصيبة ﴿ فِى الْأَرْضِ ..

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٣٢٥٨) وأبو داود فى سننه (١٤١٦) والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٢٣٦) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢) برأ الله الخلق : خلقهم . والبارى من أسماء الله عز وجل وهو الذى خلق الخلق لا عن مثال .

﴿٢٢﴾ [الحديد] كالقحط والجدب والحريق والفيضانات والزلازل وغيرها ﴿ ولا فِى أنفسكُمْ.. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحديد] المصيبة فى النفس هى المصيبة الخاصة بالشخص كالمرض والموت وفقدان الأهل أو المال .

فالمصيبة فى الأرض عامة وفى النفس خاصة ، وقد تأتى المصيبة فى النفس عامة كالقحط والفيضانات ، لأن الذنوب قد تحدث من الشخص فتأتى المصيبة خاصة به ، وقد تعم ويقع فيها كثير من الناس ، فتأتى المصيبة أيضاً عامة كما حدثت الذنوب عامة .

فالحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى] وهذه من رحمة الله بعباده . ويشرح لنا هذه المسألة فى آية أخرى فيقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ..﴿٤٥﴾ ﴾ [فاطر]

فمن صفاته تعالى الرحمة ، ومن أسمائه الرحمن الرحيم ، لذلك شرع لنا مواسم للرحمات ، فالجمعة إلى الجمعة ، والصلاة إلى الصلاة ، ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن إذا اجتُنبتْ الكبائر (١) .

إذن : الحق سبحانه يريد لنا الرحمة والمغفرة ولا يريد لنا العنت ، والمصيبة لا تنزل إلا بما كسبت أيدى الناس . وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ..﴿٤١﴾ ﴾ [الروم]

وتأمل مثلاً ما نعانيه الآن من تلوث الماء والهواء بل وكل شىء

(١) هذا مضمون حديثين ، أولهما أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٤٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغش الكبائر » . وثانيهما أخرجه أحمد فى مسنده (٨٨٣٠) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفِّرات ما بينهن ما اجتنبت الكبائر » .

فى حياتنا ، إنه نتيجة طبيعية لتجاوزات الناس . وقد أبدع الخالق سبحانه هذا الكون كله بكلّ ذرة فيه على هيئة الصلاح ، ثم أوصانا بأنْ نحافظ على هذا الصلاح ، فقال : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف]

وقوله سبحانه : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ..﴿٤٥﴾ ﴾ [فاطر] دلّ على سعة رحمة الله ، فلولا هذه الرحمة لهلك كلّ ما يدب على الأرض بشُؤم معصية البشر ويشرح لنا هذه النقطة الحديث القدسى : « ولولا أطفال رُضّع ، وشيوخ ركع ، وبهائم رُتّع لَصُبّتْ عليكم العذاب صباً » (١) فنحن إذن مرحومون بضعفائنا ، لذلك قال : بضعفائكم تُرزقون (٢) .

وقوله سبحانه : ﴿ إِلَّا فِى كِتَابٍ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحديد] يعنى : مُسجلة عندنا مقدورة ومقْضية ، والفرق بين المقدور والمقضى : القضاء حكم لازم لا دخْلَ لك فيه ، أما القدر فحكم لك فيه اختيار ، ولكن الله تعالى علمه أزلاً فكتبه مقدماً .

مثلاً وزير الزراعة يقول : قدّرنا محصول القطن هذا العام كذا قنطار ، ثم تأتى للقطن آفة فلا يأتى بهذا المحصول الذى حدده الوزير ، لأنه يقدِّر حسب علمه بظواهر الأشياء ولا دخلَ له بالغيبيات ، لذلك

(١) أخرجه البزار مرفوعاً ولفظه « لولا أطفال رضع ، وعباد ركع ، وبهائم رتع لصبّ عليكم العذاب صباً » ذكره فى كشف القناع عن متن الإقناع ، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤ / ٤٥٨) عن أبى هريرة .

(٢) عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص قال : رأى سعد رضى الله عنه أن له فضلاً على من دونه فقال النبى ﷺ : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٦٨١) .

يأتى تقديره خطأ .

أما الحق سبحانه وتعالى فإذا قدَّر شيئاً فلا بد أنْ يأتى الواقعُ موافقاً له ، فالقدر إذن شىء قدَّره الله ولك فيه أختيار علم الله هذا الاختيار فكتبه قبل أنْ يقع منك .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالمعلم الذى يتوقع لتلميذ من تلاميذه أنْ يكون متفوقاً فى امتحان آخر العام ، لقد حكم هذا الحكم بناءً على ما لاحظه على تلميذه من الذكاء والاجتهاد ، فالمقدمات تؤكد هذا الحكم ، لكن يأتى الامتحان ويُصاب التلميذ بدوار أو شىء طارئ فلا يحقق ما توقعه أستاذه .

إذن : جاءت النتيجة مخالفة لتوقع الأستاذ لخلل فى علمه ، أما الحق سبحانه وتعالى فله صفات الكمال وعلمه لا خلل فيه .

وقد شرحنا هذه المسألة أيضاً فى تفسير قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ [المسد]

وقد سمع أبو لهب هذه الآيات وقد كان بوسعه أنْ يؤمن كما آمن أمثاله : عمر وخالد وعمرو وعكرمة ، لكن هذا حكم الله أزلاً وقدره الذى علمه مقدماً أن أبا جهل لن يؤمن وأنه سيختار الكفر ، فالله تعالى لم يفرض عليه الكفر ولكن تركه لاختياره .

وقوله تعالى : ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا .. (٢٢)﴾ [الحديد] أى : من قبل أنْ نخلقها ونبرزها فى عالم الواقع ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)﴾ [الحديد]

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ[(١)] ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾

الحق سبحانه وتعالى يُعلِّمنا هنا ألاَّ نأسى وألاَّ نحزن على ما فات ، وما دام أن الأمر من الله بقضائه وقدره فلا يناسبك إلا التسليم والرضا ، لأن الحزن لن يغير الواقع ولن يعيد ما فات ، لذلك عندنا فى الفلاحين يقولون : العايط فى الفايت نقصان من العقل .

لذلك نقول للمرأة التى فقدت زوجها أو عزيزاً عليها وبالغت فى الحزن ولبس السواد : بالله عليك هل سيعيد الحزن ما فات ؟ ثم احذرى أنْ تألفى الحزن وتعشقيه فيُديمه الله عليك ، لأن الله تعالى يعين عبده على ما يريد وعلى ما يحب ، لذلك يختم على قلب الكافر حتى لا يدخله الإيمان ولا يخرج منه الكفر ، ففى الرضا إذن سعة للمؤمن .

وكذلك الحال فى الفرح : ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .. (٢٣)﴾ [الحديد] لأنك لا تدرى عاقبة ما آتاك الله من النعمة أتُوفَّق فيها أم لا ؟ أتعينك على الطاعة أم تفتح عليك باب معصية ؟ إذن : هى فى الواقع فتنة .

لذلك يقول تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤)﴾ [الأنعام] فليست النعمة بالضرورة دليلاً على رضا الله

---

(١) عن ابن مسعود أن نبى الله ﷺ قال : « لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » ثم قرأ ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ .. (٢٣)﴾ [الحديد] والحديث أخرجه ابن بطة فى الإبانة الكبرى (حديث ١٤٣٩) ولفظه « والذى لا إله غيره لا يذوق أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه » .

على العبد ، لذلك نرى كثيراً من أهل المعاصى والبُعْد عن الله فى سعة من الرزق يمد يده فى التراب فيصير ذهباً ، لماذا ؟

لأنهم لما نسُوا ما ذُكِّروا به نريد أنْ نعاقبهم ، وكيف نعاقبهم ؟ نرفعهم إلى أعلى منزلة حتى إذا أخذناهم كان الأخذ مؤلماً شديداً .

وسبق أنْ قلنا : إذا أردتَ أنْ تُوقع شخصاً لا توقعه من على الحصيرة ، بل لا بد أنْ ترفعه إلى أعلى ، وكلما رفعته كان السقوط مؤلماً .

حتى فى المعنى اللغوى يقولون : فتح له غير فتح عليه ، لذلك قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)﴾ [الفتح] (لك) أى : فتح فى صالحك لكن ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ ..(٤٤)﴾ [الأنعام] أى : ضدهم وفى غير صالحهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ..(٤٤)﴾ [الأنعام]

إذن : ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ..(٢٣)﴾ [الحديد] لأنه قد يكون فتنة لك وابتلاءً ، فيكون غيرك ممَّنْ حُرم خيراً منك وأحسنَ حالاً . والحق سبحانه وتعالى حينما يقول لنا : لا تأسوا ولا تفرحوا يريد أنْ يحفظ نفوس المؤمنين عما يُكدِّرها أو يُخرجها عن حال السلامة .

لذلك علماء النفس لما تكلموا فى هذه المسألة قالوا : ينبغى على الإنسان ألاّ يتأثر بالحزن ولا بالفرح تأثراً يُخرجه عن الطبيعة والاعتدال ، لأن الأحداث تمر بك وأنت عُرْضة فى رحلة الحياة لأنْ تحزن أو تفرح .

والتأثر بذلك والانفعال به يُحدث فيك تغييراً ، فالحزن يجعلك

تنقبض ، والفرح يجعلك تنبسط ، وأىّ عضو له كيان مخصوص لا يحب القبض ولا البسط ، فاحذر الحالتين والزم الاعتدال ليظلّ كيانك فى سلامة الفطرة وصلاح الجسد .

لذلك قال الشاعر فى هذا المعنى :

فكُنْ رَجُلاً كَالضِّرس يرسُو مكانه ليمضغ لاَ يَعنِيه حلْوٌ ولاَ مُر

والنهى عن الفرح هنا يُقصد به الفرح المذموم ، وهو الفرح الذى يدعو صاحبه إلى التباهى والغرور ويحمله على التعالى والتكبر ، الفرح الذى يورث صاحبه بطراً وغطرسة ، ومن هذا النوع قوله تعالى : ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٨١)﴾ [التوبة]

أما الفرح المحمود فهو الذى يُورث صاحبه انكساراً لصاحب النعمة ، ومنه قوله تعالى عن أهل الطاعات : ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس]

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾ [الحديد] أى : كلّه فرح يدعوه فرحه إلى الخيلاء وإلى التفاخر والتعالى . والخلاصة أن الأمور ما دامت بقدر وبقضاء ، وما دامت فى كتاب من قبل أنْ نبرأها[1] ، وما دُمتَ لا قدرةَ لك على استعادة ما فات ولا تضمن ما هو آت ، فالزم جانب الرضا والتسليم والاعتدال ، ولا مانع أنْ تفرح ، لكن الفرح الذى لا يؤدى إلى التعالى والخيلاء .

(١) نبرأها : نخلقها . وقال سعيد بن جبير : من قبل أن نخلق المصائب ونقضيها . [الماوردى فى تفسيره] وقال ابن كثير فى تفسيره : « أى من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة » وقال بعضهم : ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا .. (٢٢)﴾ [الحديد] عائد على النفوس . وقيل : عائد على المصيبة . والأحسن عوده على الخليقة والبرية لدلالة الكلام عليه » .

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ[1] وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى ينقلنا إلى معنى آخر وهو الإنفاق فى سبيل الله ، يريد سبحانه أنْ يُوسع قبضة المؤمن فى العطاء لإخوانه المؤمنين ، وقد جعل سبحانه الأمر بالإنفاق على مراحل : أولاً أمر القادر أنْ ينفق على غير القادر ، وهنا ينهى غير القادر عن أنْ يُثبطوا القادرين ويُزهِّدوهم فى العطاء .

فالإنسان قد يكون بخيلاً فى ذاته فيمسك يده عن العطاء ، وقد يتعدّى بُخله إلى غيره فيدعو غيره إلى أنْ يمسك يده ، أو يكون هو فقيراً ليس عنده ما يبخل به فيقول لغيره : لا تنفق واترك شيئاً لأولادك . على حدّ قول الفلاحين عندنا : (فلان لا بيرحم ولا يسيب رحمة ربنا تنزل) .

وهذه المسألة حدثت فى عهد رسول الله ﷺ ، لما قال المنافقون على أهل الصُّفّة[2] : ﴿ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون]

(١) ورد فى المقصود بالبخل هنا عدة أقوال :
– الذين يبخلون بالعلم . قاله سعيد بن جبير .
– البخل بأداء حق الله . قاله زيد بن أسلم .
– البخل بالصدقة والحقوق . قاله عامر بن عبدالله الأشعرى .
– البخل بما فى يديه . قاله طاوس .
وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى ، وكلها صحيح والأمر يجمع الأقوال كلها .

(٢) أهل الصُّفّة : هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه . والصُّفّة : الظلّة . [لسان العرب – مادة : صفف] .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحديد] يعنى : أنهم كانوا أغنياء عندهم ما ينفقون ولكنهم بخلوا به ، ثم تعدّى بُخلهم إلى غيرهم ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحديد] لذلك تحمل هؤلاء وزر بُخلهم ووزر بُخل غيرهم ، ومنعهم من الإنفاق .

ثم تقرر الآيات هذه الحقيقة : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحديد] يعرض عن الإنفاق ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحديد] يعنى : لا يهمنا بخلكم لأنكم تبخلون فى الواقع عن أنفسكم لأن المال مال الله والملك مُلكه ، وهو الغنى الحقيقى وهو الرازق للعباد .

وإنما فتح لكم مجال الإنفاق لتتماسكوا وتتكاتفوا فى رحلة الحياة ، وليقض على مشاعر الحقد والحسد من الفقير للغنى ، فالفقير حينما يجد فى المجتمع مَنْ يعطيه ويمدّ له يد المساعدة ، يحمد الله ويرضى بقضائه ، واليتيم حينما يجد مَنْ يحنو عليه تكون ثقته فيمَنْ أخذ كثقته فيمَنْ وهب فيعيش راضياً .

إذن : جاء الأمر بالإنفاق لأنه يعين المؤمن على إيمانه ويُحبِّب الناس فى شرع الله ويُرضيهم بقضائه ، فإنْ بخل القادرون فالمؤمن يعلم جيداً قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا .. ﴿٦﴾ ﴾ [هود]

وينبغى هنا أنْ نفرق بين البخل والشح : البخل أنْ يبخل الإنسان على غيره لكنه كريم على نفسه ، أما الشح فهو يبخل على غيره وعلى نفسه ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن]

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن مواكب الرسل ، فيقول :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ(١) فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾

بيّنا أن الرسـول هو من أوحى إليـه بشـرع يعمل بـه فى نفسـه ويُبلغه قومـه ، أما النبى فهو مَنْ أوحى إليـه بشرع يعمل به دون أنْ يُؤمر بتبليغه .

إذن : الأنبيـاء الذين ليس لهم كـتب ولا مـعـجـزات ، بل كـانت معجزاتهم معجزة مَنْ كان يعمل على مقتضى دينهم .

وآدم عليه السلام أول نبىّ وأول رسول ، لكن كيف وقد حدثتْ منه المعصية حينما أكل من الشجـرة ؟ قالوا : حدثت منه المعصية قبل ذلك ، وجـاءت المعـصيـة منه ليـتعلم ضـرورة تطبيق المنهج ، وأنه إذا أخلّ بالمنهج ظهرت عورته فتعلم آدم هذا الدرس وعلَّمه ذريته من بعده .

(١) القرآن يقطع بأن الحديد أُنزل إلى الأرض ، وهذا هو ما أثبتته الأبحـاث العلمية الحديثة فقد سئل البروفيسور أرمسترونج وهو أحـد أربعة فى وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) : كيف خُلق الحديد فى الأرض ؟ فـقال : الحديد يستـحيل أن يكون خُلق فى الأرض لابد أن يكون قـد خلق فى السـماء وأنزل إلى الأرض . لمـاذا ؟ قـال : لأن تكوين ذرة حـديد واحدة لمـا حسبناها وجدنا أنهـا تحتاج إلى طاقة مثل طاقة المـجموعة الشمسيـة أربع مرات ، فالحديد عنصر وافد من الكون .

وبعد ذلك تاب الله عليـه واجتبـاه للنبوة وللرسالة ، قـال تعالى :
﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾ [طه]

إذن : الاجتباء جاء بعد المعصية وهو بداية الرسالة والبلاغ ، لكن مَنْ يبلـغ وهو مـا يزال وحـده ؟ قـالوا : هذا مـثل قوله تعـالى :
﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) ﴾ [الرحمن]

إذن : تعلّم آدم المنهج أولاً لنفسه ، ثم لمـا جاءتْ الذرية بلغـهم الرسالة وعلّمهم القيم والأخـلاق لكن مع مرور الزمن تطرأ الغفلة على الناس ويكثر عددهم فيحتاجون إلى رسالة جديدة تذكرهم .

وقد لخص القرآن الكريم هذا الدرس الذى تعلَّمه آدم من مـعصيته فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

إذن : فاتباع منهج الله هو الذى يحفظ على الإنسان أمنه وسلامته ويجعله سعيداً فى دنياه سالمـاً فى أخراه ، أما مَنْ أعرض فله معيشة ضنكاً . والضنك لا يعنى الضيق والفقر كما يظن البعض .

الضنك معنى أوسع يشـمل كل حركة الحـياة تجد فـيها ضـيقاً ، لذلك عندما عملوا إحصاء لأكـثر دول العالم غنىً فكانت السويد ، ومع ذلك وجدوها أكـثر الدول أيضـاً فى عدد المنتحـرين والذين يصيبهم الجنون .

إذن : المسألة ليست مـسألة الرزق والأكل والشرب ، ونحن نرى كثيـراً من الفقراء يأكلون اللقـمة ويحمدون الله عليهـا ، نراهم راضين

سعداء وهم يرون بذخ الأغنياء من حولهم .

فليس الفقر ضنكاً ، إنما الضنك حالة نفسية وشعورية يضيق فيها الصدر لا الرزق ولا يجد صاحب هذه الحالة فكاكاً منها وتظل تُطبق عليه حتى تُلجئه إلى أنْ يُنهى حياته ليستريح .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى فقال :

لَيْسَ الحِملُ مَا أطَاقَ الظّهر   مَا الحِملُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ(١)

إذن : جاء آدم برسالة ومنهج علَّمه وبلَّغه ذريته ، لكن لما كَثُر الناس وحدثتْ الغفلة وتباعدتْ المسافات بين المجتمعات ، وكذلك تعددتْ الداءات فى كلِّ مجتمع لذلك تعددتْ الرسل .

قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : الآيات الواضحات التى تلفت الناس إلى وجود الحق سبحانه وتؤيد الرسل الذين بعثهم الله لهداية الخلْق .

والآيات إما كونية وإما معجزات تؤيد الرسل ، وإما آيات الكتاب الحكيم ، وهى التى تحمل المنهج وتحمل الأحكام من الله للخلق ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : الكتب التى نزلتْ من عند الله ، والكتاب هو الشىء المكتوب .

﴿وَالْمِيزَانَ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : ميزان الحق الذى يزن الأشياء

---

(١) بنحو هذا البيت جاء بيت لأحمد شوقى أمير الشعراء :

ليس بحمل ما يملُّ الظهر   ما الحمل إلا ما يعانى الصدر

وهو من قصيدة من بحر الرجز عدد أبياتها ١٢ بيتاً أولها :

كان على بعض الدروب جمل   حمَّله المالك ما لا يُحمل

ويُحدِّدها ويُبيِّنها ، والميزان لا يخصّ الأشياء المادية التى لها كثافة فقط ، بل ميزان يزن بالحق كل شىء مادى ومعنوى فقال فى الماديات : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .. (١٥٢)﴾ [الأنعام] وأمر بإقامة هذا الميزان فى كل شىء .

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ .. (٥٨)﴾ [النساء] حتى فى المحاكم تجدهم يتخذون الميزان رمزاً للعدالة ويرفعونه شعاراً لهم ، والميزان له كفتان متساويتان ليدلّ على الحكم العادل .

والميزان الذى جاء به الرسل هو الميزان الذى يُميز بين الحق والباطل ، فما دامت هناك رسل وآيات بينات ومنهج ينفع الناس وينظم حياتهم ، فلا بدّ أنْ تستقيم حركة الحياة .

لذلك قال حذيفة(١) : لقد مرَّ علىَّ زمان ما كنتُ أبالى أيكم بايعتُ ، فلئن كان مسلماً ليردّنه علىَّ دينه ، وإنْ كان يهودياً أو نصرانياً ليردنه علىَّ ساعيه - والساعى الذى يرقب حركة الناس ويتابعها - أما اليوم فما كنتُ لأبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً(٢) .

إذن : لا تستقيم الأمور إلا فى ظل هذا المنهج ، ولا سعادة

---

(١) هو حذيفة بن اليمان ، أبو عبد الله ، واليمان لقب حسل أبى حذيفة صحابى من الولاة الشجعان الفاتحين ، كان صاحب سر النبى ﷺ فى المنافقين لم يعلمهم أحد غيره ، استقدمه عمر إلى المدينة ، ثم أعاده إلى المدائن فتوفى فيها . له فى كتب الحديث ٢٢٥ حديثاً . توفى ٣٦ هجرية . [الأعلام للزركلى ٢/١٧١] .

(٢) من قول حذيفة ضمن حديث رسول الله ﷺ أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠١٦) عن رفع الأمانة ، وأن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال وأنه ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك » الحديث .

للخلق إلا به ، فإنْ طمس هذا المنهج فلا بدّ أنْ يحدث الخلل فى الميزان، فيصير الحق باطلاً والباطل حقاً .

وعندنا فى ساحات المحاكم تجد للمحامين ألاعيب ، منهم مَنْ يعتمد على لباقته فى إظهار الحجة حتى ولو بالباطل ، وتناسى حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىَّ ، ولعل أحدكم يكون ألحنَ بحجته - كما يقولون (كذب مساوى ولا صدق منعكش) فمَنْ قضيتُ له من حقِّ أخيه شيئاً بقوله ، فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها »[1]

إذن : ردَّ رسول الله الميزان إلى الدين والشرع ، وإلى الكتاب والبينات ، فمَن التزم بالكتاب والبينات لم يكُنْ عنده حقّ وباطل ، بل هو حقّ واحد بيِّن ليس غيره ، فإذا اختلف الناسُ فى البينات فلا بدّ أنْ ينشأ الباطل فيأتى الميزان ليميز بين الحق والباطل .

لذلك قال سبحانه بعدها : ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : العدل ، فالكتاب للتشريع وتنفيذ الأحكام ، والميزان للغفلة إنْ حدثت أو المخالفة ، فيبيِّن الحق والباطل .

وما دام يقوم الناسُ بالقسط والعدل كلّ الدنيا ترتاح ، إما قسط نابع من ضمير الأفراد ، وإما قسط من القضاء الذى يحكم بينهم ، لذلك قلنا : إنه من المصلحة فى التقاضى وبيان لحقوق ألاّ تطول مدة التقاضى لأن طول مدة التقاضى تزيد من ظلم المظلومين وتُغرى الظالم بالتمادى .

وبطول أمد التقاضى تبهت الجريمة وننسى المقتول ولا نذكر إلا

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢٧٨ ، ٢٤٨٣ ، ٦٤٥٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٢٣٢) من حديث أم سلمة رضى الله عنها .

القصاص من القاتل ، وكأننا نعتدى عليه وننشىء جريمة أخرى ، وهنا تنشأ عواطف تدعو إلى الرحمة بالقاتل فيختل الميزان .

لذلك حذرنا القرآن من التهاون فى هذه الحقوق ، فقال تعالى : ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ .. (٢)﴾ [النور] لأن الشفقة بالمجرم تدعو إلى استشراء الجريمة والإفساد فى الأرض .

ثم جعل إقامة الحدود علانية ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾ [النور] لماذا ؟ ليقوم الناس كلّهم بالقسط ساعة يرون الحكم العادل يُطبق فى وقته المناسب الذى يُحدث ما يراد منه من الردع .

أما إنْ سلك المحامى طريق الضلال ووقع القاضى فى منزلق الرشوة فلا بدّ أنْ يفسد حال البلاد والعباد . ويُحكى فى أيام المهدى[1] الخليفة العباسى أنه ولّى القضاء رجلاً شهد له بالنزاهة اسمه قامح إلا أنه فى يوم دخل على الخليفة ، وقال له : يا أمير المؤمنين أقِلْنى من القضاء ، فقال له : ولمن يكون العدل بعدك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين لم أعد أضمن نفسى فى القضاء فكما وثقتَ فىَّ وليتنى فثِقْ فىَّ أيضاً حينما أطلب منك أنْ تقيلنى ، وأنا لا أخلو عن حالين : إما كاذب وإما صادق ، فإنْ كنتُ كاذباً فلا تُبْق على قاض كذاب ، وإنْ كنت صادقاً فاقبل منى .

فقال له : إذن قُلْ لى ما سبب ذلك . فقال : خصمان عُرِضا علىّ

(١) المهدى العباسى هو محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن على العباسى أبو عبد الله المهدى بالله من خلفاء الدولة العباسية فى العراق ، ولد بإيذج [من كور الأهواز] عام ١٢٧ هـ وولى بعد وفاة أبيه وأقام فى الخلافة عشر سنين وشهراً ، مات فى ماسبذان صريعاً عن دابته فى الصيد وقيل مسموماً عام (١٦٩ هـ) . [الأعلام للزركلى ٦ / ٢٢١]

ولكل منهما حجته حتى أننى لم أحكم بينهما وكنت أؤجل هذه القضية مخافة أنْ أظلم ، وفى يوم من الأيام دخل علىَّ خادمى بطبق من رطب فلما سألتُه عن صاحبه وصفه لى فعرفتُ أنه أحد الخصمين فرددتُ إليه طبقه وقد اشتهر عنى أنى أحب الرطب .

وفى اليوم التالى وقف أمامى الخصمان فما استويا فى نظرى ووجدتُ فى نفسى ميلاً إلى صاحب الطبق مع أنى رددته عليه .

إذن : أنزلنا ﴿الْكِتَابَ (٢٥)﴾ [الحديد] للملتزم ﴿وَالْمِيزَانَ .. (٢٥)﴾ [الحديد] الذى يفرق بين الحق والباطل لغير الملتزم ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ .. (٢٥)﴾ [الحديد] جميعاً ﴿بِالْقِسْطِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] فحين يُقتصّ من القاتل وتُقطع يد السارق لا يجرؤ أحدٌ على القتل ولا على السرقة . ولم يقُلْ ليقوم المؤمنون بالقسط إنما الناس كلّ الناس .

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى : كما أنزلنا الكتاب وأنزلنا الميزان أنزلنا كذلك الحديد ، فالحديد وإنْ كان مكانه الأرض إلا أنَّ أصله من أعلى ، والحديد إشارة للقوة فمَنْ لم يردعه القرآن يردعه الحديد .

لذلك قال : إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن[1] ، فالعاقل تردعه البينة والجاهل لا يردعه إلا السيف والقوة .

فالحق سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ كما أعطيناك القرآن أعطيناك الحديد والسيف فافعل به ما تشاء وجَابِه به الكفار والعصاة

(١) أورده المتقى الهندى فى كنز العمال (حديث ١٤٢٨٤) باب الإمارة عن عمر قال : والله ما يزع الله بسلطان أعظم مما يزع بالقرآن . وعزاه للخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد .

الذين لا يُردعهم الكتاب ، وقد عبَّر الشاعر[1] عن هذا المعنى بقوله :

أَناة وحِلْم ثم عَقب بَعْدَهَا وَعِيداً ... فَإِنْ لَمْ يُغْنِ أغْنَتْ عَزَائمه[2]

وقال الآخر :[3]

فَمَا هُوَ إلاَّ الحلم أوْ حَدّ مُرهَف ... تُقيم ظباه[4] أخْدَعَىْ كُلِّ مَائل
فَهَذَا دواءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ عَاقل ... وَذَاكَ دواءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ جَاهل[5]

وقوله تعالى ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥)﴾ [الحديد] دلّ على أن الحديد أقوى عُدة فى الحياة ، والواقع يؤكد ذلك ، فمن الحديد نصنع الفأس والمحراث وكلّ الآلات التى تُستخدم فى القوة والحفر والحمل وغيره ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] فمع قوته فيه نفع مثل السكاكين والملاعق وغيرها من الأدوات .

(١) الشاعر هو : إبراهيم بن العباس الصولى ، كاتب العراق فى عصره أصله من خراسان ولد (١٧٦ هـ) . كان جده من رجال الدولة العباسية ودعاتها . له ديوان الرسائل ، وديوان شعر وكتاب الدولة . توفى عام ٢٤٣هـ عن ٦٨ عاماً .

(٢) لفظ البيت فى الموسوعة الشعرية :

أناة فإن لم تُغن أعقب بعدها ... وعيداً فإن لم يجد أجدت عزائمه

وهو بيت من قصيدة من بحر الطويل من بيت واحد . منسوب للصولى .

(٣) هو حبيب بن أوس الطائى أبو تمام ، ولد بجاسم (من قرى حوران بسورية) عام ١٨٨ هـ - نزل مصر وبغداد والموصل ، كان أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام ، فى شعره جزالة وقوة .

(٤) ظُبة السيف : طرفه . ويُجمع على الظُّباة والظُّبين . [لسان العرب - مادة : ظبب]

(٥) البيتان من قصيدة لأبى تمام من بحر الطويل عدد أبياتها ٣٢ بيتاً ، وهما فى الموسوعة الشعرية :

وما هو إلا الوحى أو حد مرهف ... تُميل ظباه أخدعى كل مائل
فهذا دواء الداء من كل عالم ... وهذا دواء الداء من كل جاهل

ثم هناك مهمة أخرى للحديد ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ..(٢٥)﴾ [الحديد] وهنا إشارة إلى السيف الذى تكون به النصرة ، فالسيف لمن لم يجد معه الكتاب والبينات .

وقوله تعالى : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ..(٢٥)﴾ [الحديد] أى : علم الواقع وإلا فالله تعالى يعلم كل شىء أزلاً ولا يخفى عليه خافية ، فليس المراد علم تقدير إنما علم واقع .

وقال : ﴿مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ ..(٢٥)﴾ [الحديد] لأن نُصْرة الله نُصْرة لرسل الله ونصرة رسُل الله نُصرة لله ، لذلك قال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٩٢)﴾ [المائدة] وقال : ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ..(٨٠)﴾ [النساء] لأن هنا تداخلاً فى الأحكام .

هناك أحكام قالها الله تعالى وقالها رسول الله ، وأحكام خاصة بالله وحده ، وأحكام خاصة برسوله ﷺ ، لذلك كرَّر الأمر بالطاعة مرة لله ومرة لرسوله ، ومعلوم أن السنة فصَّلَتْ ما أجمله القرآن .

وقوله ﴿بِالْغَيْبِ ..(٢٥)﴾ [الحديد] بالإيمان بالغيب ومشهد السيف ، هذا يدافع عن قضية غيبية هى القيامة والله الذى لا تراه يدافع عن قضية غيبية ، إنما عندما يحيى الملَك بالكتاب أو السيف .

لذلك لما أصرَّ الكفار على كفرهم قال الله لرسوله : ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ..(٢٩)﴾ [النجم] فالهمزة فى أعرض همزة الإزالة يعنى : دعهم وانصرف عن دعوتهم بالآيات والبينات .

ومعنى نصرة الله كما قال سبحانه : ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ..(٧)﴾ [محمد] إن تنصروا الله بقوتكم ينصركم بقوته ، إذن : أنت ما

عليك إلا أنْ توجه ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ..(١٧)﴾ [الأنفال]

فالله تعالى قادر على إبادة هؤلاء الكفار فى لمح البصر ، فلماذا الحرب؟ قالوا : لو أهلكهم الله بأمر غيبى وبدون تدخّل المسلمين فى حرب لقالوا آية كونية ، لذلك قال تعالى : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ..(١٤)﴾ [التوبة] بأيديكم أنتم فيكون الأمر أنكى .

وتختتم الآية بقوله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾ [الحديد] تؤكد أن الله تعالى هو صاحب القوة وصاحب العزة ، حتى لا نفهم من قوله تعالى : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ..(٢٥)﴾ [الحديد] أن الله يحتاج إلى النصرة من خلقه .

فالله هو ذو القوة الغالب العزيز الذى لا يُغلب ، وإنما قال لكم : انصرونى لتكون أيديكم فى يد الإمام وتكون النصرة بكم رفعة لكم ، وحين يُقهر الأعداء يقهرون بكم ويذلون لكم أنتم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (٢٦)﴾

الحق سبحانه وتعالى خص نوحاً عليه السلام بالذكر لأن رسالته بطبيعتها كانت رسالة عامة ليست عامة فى الزمان والمكان ، وإنما عامة لخصوص مَنْ حملهم معه فى السفينة ، وإبراهيم عليه السلام لأنه أبو الأنبياء وهو الذى وفَّى .

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .. (٢٦)﴾ [الحديد] فكلُّ الرسل

جاءوا من هذه الناحية ﴿النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ .. (٢٦)﴾[الحديد] فلما جاءهم النبوة والكتاب وبلغتهم الرسالة ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ .. (٢٦)﴾[الحديد] كعبد الله بن سلام أحد أحبار اليهود ، ومع ذلك لما بلغته دعوة محمد آمن به قال : والله لقد عرفتُ محمداً حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد[1] .

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦)﴾[الحديد] فأقلُّهم مهتد وأكثرهم فاسق، لذلك لما أراد عبد الله بن سلام أنْ يعلن إسلامه ذهب إلى سيدنا رسول الله وقال : يا رسول الله إن اليهود قوم بُهْت[2] ولقد انشرح صدرى للإسلام وأخاف إنْ أسلمتُ أنْ يقولوا فيَّ ما ليس فيَّ ، فاسألهم عنى .

فلما جاءوا رسول الله قال لهم : ما تقولون فى ابن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحبرنا وابن حبرنا ، فقال ابن سلام : أما وقد قالوا ما قالوا فإنى أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقالوا : بل أنت سفيهنا وابن سفيهنا .

فقال ابن سلام : ألم أقُلْ لكِ أنهم قوم بُهْت[3] ؟

---

(١) أورده البغوى فى تفسيره لآية ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ (٢٠)﴾ [الأنعام] أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام : كيف هذه المعرفة ، قال عبد الله : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما عرفت ابنى ومعرفتى بمحمد أشد من معرفتى بابنى . فقال عمر : كيف ذلك ؟ فقال : أشهد أنه رسول الله حق من الله تعالى وقد نعته الله فى كتابنا ولا أدرى ما تصنع النساء . فقال عمر : وفقك الله يا ابن سلام فقد صدقت .

(٢) قوم بُهت : كاذبون . والبُهت : الكذب . والبهتان : الباطل . والبهت أيضاً التحيُّر قال أبو إسحاق : البهتان الباطل الذى يتحير من بطلانه . [لسان العرب - مادة : بهت] .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٤٥ ، ٤١٢٠) وكذا أحمد فى مسنده (١١٦١٥ ، ١٣٣٦٥) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦)﴾[الحديد] أى : خارجون عن الطاعة .

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)﴾

معنى ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم ..(٢٧)﴾[الحديد] أى : أتبعناهم وجئنا من بعدهم ﴿بِرُسُلِنَا ..(٢٧)﴾[الحديد] أى : رسل متتابعين بعضهم فى إثر بعض ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. (٢٧)﴾[الحديد] وأتبعنا هؤلاء الرسل عيسى بن مريم عليه السلام .

إذن : نوح وإبراهيم مرحلة ، والرسل بعد إبراهيم مرحلة ، وعيسى عليه السلام مرحلة وهو آخر الرسل قبل رسالة محمد ﷺ ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ..(٢٧)﴾[الحديد] كتاب سيدنا عيسى عليه السلام .

ثم يصف أتباعه ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً ..(٢٧)﴾ [الحديد] الرأفة هى التى تزيل الآلام والشقاء ﴿وَرَحْمَةً ..(٢٧)﴾ [الحديد] والرحمة أنْ تعطى بالزيادة والإحسان .

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ..(٢٧)﴾[الحديد] الرهبانية هى المبالغة فى التعبد ، وقد بالغ أتباع عيسى فى التعبد ، فانقطعوا فى الصوامع

وحرموا أنفسهم من النساء ، وقد وردتْ الرهبانية فى كتاب ألّفوه سنة ١٩٣٥ ، هذا الكتاب تكلم عن وادى النطرون وعنوان الكتاب : وادى النطرون ورهبانه ، وقالوا : إن الرهبانية وُجدت من بعد عيسى بمائة وخمسين سنة[1] .

ومعنى ﴿ ابْتَدَعُوهَا ..(٢٧) ﴾ [الحديد] جاءوا بها من عند أنفسهم وألزموا أنفسهم بها ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ..(٢٧) ﴾ [الحديد] ما فرضناها عليهم ، بل فرضوها على أنفسهم للتقشف والزهد والانقطاع للعبادة .

وهذه أمور طيبة فى حد ذاتها لكن لم نكتبها عليهم لأنها تتعارض وطبيعة الإنسان العادى الذى لا تستقيم حياته إلا بأن يأخذ من كلٍّ بطرف ، يأخذ من الدنيا ويأخذ من الآخرة ، أما مسألة ترك النساء فهى تتعارض مع عملية التكاثر وإعمار الكون التى أمر بها الحق سبحانه .

وهذه الرهبانية لما ابتدعوها ابتدعوها ﴿ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ..(٢٧) ﴾ [الحديد] لكن الآفة أنهم خرجوا عن هذا القصد ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ..(٢٧) ﴾ [الحديد] ما حافظوا عليها وخرجوا عن حدودها حتى صاروا أسوة سيئة .

والذى يدخل فى هذا المقام مقام الإحسان عليه أنْ يراعى حدوده

(١) جاء هذا فى كتاب « وادى النطرون ورهبانه وأديرته » ص ٢٢ الباب الثانى (الرهبان قبل الفتح العربى) : « وقال كورزون فى كتابه (زيارات أديرة الشرق) ص ٧٦ : إن هذه الفكرة تحققت فى أواسط القرن الثانى الميلادى حوالى عام ١٥٠ م وإن القديس المذكور اعتزل الحياة فى هذا الوقت بوادى النطرون ومعه سبعون أخاً » مؤلف الكتاب (عمر طوسون) .

وألاّ يجرى عليه نقصان ، لأن النقصان هنا يفسد العقيدة ، لذلك الحق سبحانه وتعالى يُرغِّبنا فى النوافل وفى الدخول فى هذا المقام فيقول :

« ما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه[1] فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجلْه التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته » .

فالتقرب إلى الله بالنوافل دليل الحب ودليل القرب ، والحب يُدخلك فى مقام القرب ، وهذه لها مقاييس غير مقاييس الرجل العادى ، فأنت مثلاً لك معارف كثيرون ، لكن منهم أصدقاء ومنهم مقربون ، وكلّ واحد من هؤلاء له حساب . أنا مثلاً مرضت وبعضهم لم يأت لزيارتى ، وأنا لا أعتب عليهم جميعاً إنما أعتب على القريب منى الذى كان يتردد علىَّ دائماً ، ولما مرضت لم يعدنى .

أمَّا العتابُ فَبالأحبَّةِ أليَقُ ... وَالحبُّ يَصْلُح بِالعتَابِ ويَصْدُقُ[2]

كذلك الذى أدخل نفسه فى باب الود مع الله والقرب منه سبحانه لا يليق به التراجع ، ولا يليق به النكث أو حتى التقصير ، لأنه لو فعل ذلك ، فكأنه يقول لربه عزّ وجلّ : جرّبنا قربك فلم نجدك أهلاً

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٢١) والبيهقى فى السنن الكبرى ج ٣ وابن حبان فى صحيحه (٣٤٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) هذا البيت لأمير الشعراء أحمد شوقى المتوفى ١٩٣٢ م . وهو من قصيدة من بحر الكامل عدد أبياتها ١٢ بيتاً هذا أولها :

أما العتاب فبالأحبة أخلق ... والحب يصلح بالعتاب ويصدق

للقرب ، أو جرّبنا القرب منه فلم نجده نافعاً فزهدنا فيه .

وإذا كنا لا نرضى نحن بذلك ، فهل يرضى به الحق سبحانه وتعالى ؟

لذلك نقول : احذر الدخول فى هذا المقام فلا أحدَ يُجبرك عليه فقبل أنْ تلزم نفسك به اعرف حدوده وشروطه حتى لا تورط نفسك .

إذن : الرهبانية ليست مذمومة فى ذاتها ، لكن تُذم فى حالة عدم رعايتها حقَّ الرعاية ، لذلك لما حفروا حول بعض الأديرة وجدوا بقايا لأطفال صغار ، وهذا يعنى أن الخطيئة كانت تحدث منهم .

والعبد كلما اقترب من ربه عز وجل أفاض عليه من أنواره بحَسب قُرْبه ، وفى مسائل الدنيا تجد أموراً يعرفها عنك كلّ الناس ، وأموراً أخرى لا يعرفها إلا المقربون منك ، وأخرى لا يعرفها إلا الخاصة والملازمون لك .

كذلك الحق سبحانه كلما اقتربتَ منه يُعطيكَ شيئاً من فيوضاته وإلا لاكتفى الناس بالفرائض ولم نجد مَنْ يؤدى النوافل .

لذلك تجد الخَلْق فى منازل ومقامات مختلفة يتنافسون عليها ، وكلما ارتقى الواحد منا إلى منزلة وجد مَنْ سبقه إلى أعلى منها ، وسبق أنْ ذكرنا قصة الرجل البلخى لما سألوه : أتشتاق إلى ربك ؟ فقال : لا ، إنما يُشتاق لغائب ، ومتى غاب عنى حتى أشتاق إليه ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ..(٢٧) ﴾ [الحديد] استثناء من ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ..(٢٧) ﴾ [الحديد] أى : لم نكتبها لأننا خائفون أنْ يُقصروا ، فأنا أريد أنْ أبقى عليهم رضوانى بمجرد الفرض يؤدونه . ويكون قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ..(٢٧) ﴾ [الحديد] من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين[1] .

وقوله سبحانه : ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ .. (٢٧) ﴾ [الحديد] أخذوا أجرهم لأنهم آمنوا بمجرد أنْ جاء الرسول صدّقوه وآمنوا به ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾ [الحديد] خارجون عن الطاعة وتعصَّبوا لدينهم القديم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ[2] مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٨) ﴾ [الحديد] وصف لهم بالإيمان ، فكيف يقول لهم بعد ذلك ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ .. (٢٨) ﴾ [الحديد] ؟ قالوا : المعنى : يا مَنْ آمنتم بالله صلُوا إيمانكم بالله بإيمانكم برسوله المبلِّغ عنه ، والمبلغ عنه الذى كنتم تتبعونه جاء رسول بعده ، وكان المفروض أنْ يبينوا ذلك حتى لا يتعصبوا للقديم .

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره وعزاه للجنيد . وعزاه إسماعيل حقى فى تفسيره لأبى سعيد الخراز . وذكره العجلونى فى كشف الخفاء (١١٣٧) وقال : رواه ابن عساكر فى ترجمته .

(٢) الكفل : النصيب . والكفل : الحظ والضِّعف من الأجر والإثم . وقوله ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ..(٢٨) ﴾ [الحديد] معناه يُؤتكم ضعفين . وقيل : مثلين . [لسان العرب – مادة : كفل] .

وقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا.. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد] هنا أمر بالتقوى ، وقد سبقه وصْف الإيمان وبعده أمر بالإيمان ، ذلك لأن الإيمان ليس له فائدة إلا إذا نفذتَ أوامر مَنْ آمنتَ به .

وقوله سبحانه : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ..﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد] الكفل : النصيب والأجر ، وكفلين أجرين ونصيبين من رحمته تعالى : نصيب وأجر للإيمان بعيسى عليه السلام ونصيب وأجر للإيمان بمحمد ﷺ .

فالمراد بقوله تعالى : ﴿ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد] أى : برسوله الجديد الخاتم محمد ﷺ ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ..﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد] هو نور البصيرة ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ..﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد] يغفر لكم إنْ كنتم ترددتم فى مسألة الإيمان ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد]

﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ(1) أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

أى : لكى لا تقولوا آمنا بعيسى ولا نؤمن بمحمد ، وتحسدونه على أنْ مَنَّ الله عليه بالرسالة ، كما قال كفار مكة : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] فردّ الله عليهم :

---

(1) لئلا يعلم : أى ليعلم . قال الفراء : معناه لأن يعلم و « لا » صلة زائدة فى كل كلام يدخل عليه جحد . وقال مجاهد : قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبى يقطع الأيدى والأرجل ، فلما خرج من العرب كفروا فنزلت (لئلا يعلم) أى ليعلم أهل الكتاب (أن لا يقدرون) أى أنهم لا يقدرون . [تفسير القرطبى ٩/ ٦٦٧٠] .

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

فإذا كانوا لا يستطيعون قسمة أمور الدنيا الهيّنة أيقسمون فى الأمور الرفيعة العالية ؟ ثم إن هذا فضل الله ، وفضل الله لا يقيده أحد .

﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحديد] وحده لا شريك له ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ..﴿٢٩﴾ ﴾ [الحديد] ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف]

فكيف تحجرون على فضل الله وتحسدون محمداً ﷺ على ما أعطاه الله من الرسالة ، إنكم لا قدرة لكم على أمور الدنيا والتحكم فيها ، فكيف تتحكمون فى أمور الآخرة ؟

ثم تُختتم السورة بقوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحديد] نعم فضل عظيم ، لأنه سبحانه أوجدنا من عدم وأمدنا من عُدْم ، وتكفَّل بأرزاقنا وسخر لنا الكون كله ، وجعل لنا منهجاً يحمينا من العطب ، وأرسل لنا الرسل تُذكِّرنا إنْ أصابتنا الغفلة ، ثم فتح لنا باب التوبة رحمة بأهل المعاصى والذنوب ، وغير ذلك من آثار رحمته سبحانه بخلقه .

سورة المجادلة

سورة المجادلة(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١ ﴾

نزلت هذه الآية فى خولة بنت ثعلبة(٢) لما ظاهر(٣) منها زوجها أوس بن الصامت(٤) أخو عبادة بن الصامت ، والقصة أن قيساً رآها تصلى فأعجبته ، فلما قضتْ صلاتها دعاها ليقضى حاجته منها

(١) سورة المجادلة هى السورة رقم (٥٨) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مدنية . أخرجه ابن الضريس والنحاس وأبو الشيخ فى العظمة والبيهقى عن ابن عباس . وقال البيضاوى فى تفسيره قيل : العشر الأول مكى والباقى مدنى . عدد آياتها (٢٢) آية .

(٢) خولة بنت ثعلبة : ويقال خويلة . وقيل : خولة بنت حكيم . وقيل : خولة بنت ثعلبة . كانت زوجة أوس بن الصامت أخى عبادة بن الصامت ، وهى أنصارية .

(٣) ظاهر الرجل امرأته وهو أن يقول الرجل لامرأته : أنت علىَّ كظهر أمى ، وكانت العرب تطلق نساءها فى الجاهلية بهذه الكلمة ، وكان الظهار فى الجاهلية طلاقاً فلما جاء الإسلام نُهوا عنه وأوجب الكفارة على من ظاهر من امرأته . وهو الظهار . [لسان العرب - مادة : ظهر] .

(٤) أوس بن الصامت بن قيس الأنصارى ، شهد بدراً وأحداً وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وبقى إلى زمن عثمان بن عفان وهو الذى ظاهر من امرأته فوطئها قبل أن يُكفّر فأمره رسول الله ﷺ أن يكفِّر بخمسة عشر صاعاً من شعير على ستين مسكيناً [الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، لابن عبد البر (١ / ٣٧)] .

فامتنعتْ لكى تختم صلاتها ، فقال لها : أنت علىَّ كظهر أمى .

وكانت هذه الكلمة عند العرب أشنع من كلمة الطلاق ، لأنه شبَّه زوجته بأمه ، وأمه محرَّمة عليه ، فلما قال قيسٌ هذه الكلمة قالت خولة : والله لا تقربنى حتى أعرض الأمر على رسول الله ، فذهبتْ إلى رسول الله وقالت : يا رسول الله إن قيساً ظاهر منى . يعنى قال لها : أنت علىَّ كظهر أمى وقد أخذنى وأنا جميلة والآن قد كبر سنى ولى منه أولاد إنْ ضممتهم إلىَّ جاعوا ، وإنْ ضممتهم إليه ضاعوا .

وهذا هو المراد بقوله تعالى :﴿ تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ..(١) ﴾ [المجادلة] فكان رسول الله ﷺ كلما قالت شيئاً من ذلك يقول لها : لا أرى إلا أنكِ قد حَرُمتِ عليه .

هى تشتكى لرسول الله وتعرض أمرها ليحنّ لحالها وهو عليه الصلاة والسلام لا يملك إلا أنْ يقول لها : لا أرى إلا أنكِ قد حَرُمتِ عليه[1] وينتظر حكم السماء فى هذه الواقعة التى لم يسبق لها مثيل فى مجتمع المسلمين .

وبالفعل كانت خولة تحت نظر الله وسمعه ، وما إن إنتهت من

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره للآية من مرسل محمد بن كعب القرظى وفيه قال لها النبى ﷺ : « ما أراك إلا قد حرمت عليه . قالت : لا تقل ذلك يا نبى الله ، والله ما ذكر طلاقاً ، فرادت النبى ﷺ مراراً ، ثم قالت : اللهم إنى أشكو اليوم شدة حالى ووحدتى ، وما يشق علىّ من فراقه ، اللهم فأنزل على لسان نبيك ، فلم ترم مكانها (تبرحه) حتى أنزل الله ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. (١) ﴾ [المجادلة] إلى أن ذكر الكفارات فدعاه النبى ﷺ فقال : أعتق رقبة ، فقال : لا أجد . فقال : صم شهرين متتابعين . قال : لا أستطيع إنى لأصوم اليوم الواحد فيشق علىّ . قال : أطعم ستين مسكيناً ، أما هذا فنعم .

عرض شكايتها على رسول الله حتى نزل عليه جبريل بهذه الآيات التى تحمل حكم الظِّهار ، وتحمل الرحمة لا لخولة وحدها ، وإنما للمسلمين جميعاً : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) ﴾ [المجادلة]

وسُميت السورة كلها باسم المجادلة وهى خولة تكريماً لها ورداً لاعتبارها ، نزلت السورة لتحرِّم هذا القول وتشنّعه وتبين أنه قولٌ لا يليق ولا يصح .

فالأم التى ولدتْك ولها فضل كبير عليك لا يصح أنْ تشبه زوجتك بها لأن الظهر هنا بمعنى العلو ، والرجل لا يعلو أمه لأنها محرَّمة عليه ، ومن الشناعة أنْ يُذكر ذلك فى حَقِّ أمه .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ..(١) ﴾ [المجادلة] سُبق بـ(قد) التى تدل على التحقيق والتأكيد . وكلمة (قول) دلتْ على أنه سمع على الحقيقة ، وليس المراد بالسمع هنا الإجابة ، كما نقول فى تعاملاتنا اليومية : فلان سمع كلامك يعنى أجاب طلبك .

ونحن ينبغى أنْ نتأدب مع صفات الله التى تشبه صفات البشر ، وأنْ نأخذها فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى] . وكيف نطمع فى معرفة كُنْه السمع والبصر لله تعالى ، ونحن لا نعرف كُنْه مداركنا نحن ؟

أنت مثلاً فى حال اليقظة تسمع بالأذن وتبصر بالعين ، لكن فى حال النوم كيف ترى وكيف تسمع ، إنك تنام وترى أشخاصاً وترى

ألواناً وتميز بين الأحمر والأخضر وتسمع أصواتاً . فبأىّ الحواس تدرك ذلك ؟

إذن : لك مدارك غيب عنك لا تعرفها ، فكيف بالغيب المطلق الذى يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار ؟

لذلك رُوى عن السيدة عائشة أن سيدنا رسول الله كان عندها لما جاءته المجادلة ، وأنها كانت تُسرُّ إلى رسول الله قولها ، حتى أن السيدة عائشة لا تكاد تسمع شيئاً من قولها وهى قريبة منها ، ومع ذلك سمع الله قولها من فوق سبع سموات[1] .

وقوله تعالى : ﴿ تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا ..(١) ﴾ [المجادلة] من الجدال وهو الأخذ والردّ ، فهى تقول ورسول الله يردّ عليها ، إذن : هى تجادل رسول الله ، ورسول الله يجادلها فيما حدث .

أما الشكوى فلله ﴿ وَتَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ .. (١) ﴾ [المجادلة] لأن الله تعالى هو الذى يفرِّج عنها ويُنزل فيها حكماً يُرضيها ، ويرحم ضعفها ، ويرحم معها ضعفَ جميع المؤمنات ، فمَنْ أراد مفارقة زوجته فللمفارقة سبيلها وهو الطلاق ، أما الظهار فأمْرٌ لا يليق بجماعة المؤمنين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) ﴾ [المجادلة] فهو سبحانه سميع بصير

(١) أخرج البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها والنسائى فى سننه (٣٤٠٦) وابن ماجه (١٨٤) ، وأحمد فى مسنده (٢٣٠٦٤) أن عائشة قالت : « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبى ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا .. (١) ﴾ [المجادلة]

أزلاً ، أى قبل أن يخلق الخلق الذين سينشأ منهم ما يُبصَر وينشأ منهم ما يُسْمَع .

فالحق سبحانه سميع لما يُقال ، بصير بما يُفعل ، فالسمع يتعلق بالأصوات ، والبصر يتعلق بالأفعال ، فهو سبحانه سميع بصير لا يخفى عليه شىء .

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) ﴾

السياق القرآنى هنا يُوجِّه الحديث لهؤلاء الذين يقعون فى هذا القول المحرَّم وهذا التشبيه الآثم ، يقول لهم : احذروا هذا القول وفرِّقوا بين الأم والزوجة ، الأم هى الأم التى ولدتْ ، فالزوجة لا تكون أماً أبداً ولا يليق أنْ نُسميها أماً .

فضعوا الأمور فى نصابها ، الأم أم والزوجة زوجة ، ولكلٍّ منهما حدود ، ثم يُبيِّن لهم أن هذا القول (أنت علىَّ كظهر أمى) قول منكر ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا .. (٢) ﴾ [المجادلة]

المنكر هو القول الذى ينكره العقل وينكره الذوق السليم ، والزور هو الكذب والباطل ، فمن المنكر ومن الكذب أنْ تشبه الزوجة بالأم أو الأم بالزوجة ، يريد سبحانه أنْ يلغى هذا القول من ألسنة المسلمين ، كما ألغى

عملية التبنى فى قصة سيدنا زيد بن حارثة[1] التى تعرفونها .

وتختتم الآية بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ ﴾ [المجادلة] أى : لما سلف منكم وما سبق من تجاوزاتكم .

وبعد ذلك يحدثنا سبحانه عن حكم الظهار فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

معنى ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا .. ﴿٣﴾ ﴾ [المجادلة] يعنى : يعدلون عن كلمة الظهار ويتنازلون عنها ويريدون مراجعة الزوجة كما يراجع الزوجُ زوجته فى الطلاق ، هؤلاء عقوبتهم ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ .. ﴿٣﴾ ﴾ [المجادلة] عتق رقبة مملوك ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا .. ﴿٣﴾ ﴾ [المجادلة] التماسّ هنا كناية عن المعاشرة الزوجية أو الجماع .

(1) زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى ، صحابى ، اختطف فى الجاهلية صغيراً واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته إلى النبى ﷺ حين تزوجها فتبناه النبى – قبل الإسلام – وأعتقه وزوّجه بنت عمته ، وكان النبى ﷺ لا يبعثه فى سرية إلا أمّره عليها وكان يحبه ويقدمه وجعل له الإمارة فى غزوة مؤتة فاستشهد فيها . توفى ٨ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣ / ٥٧] وقد ذكره الله باسمه فى القرآن ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب] .

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [المجادلة] أى : لم يجد رقبة يعتقها ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ .. ﴿٤﴾ ﴾ [المجادلة] التتابع أى التوالى دون فاصل يفصل الصيام ، إلا إذا أفطر لعذر شرعى فلا يعد فاصلاً[1] .

﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [المجادلة] أى : الصيام المتتابع ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا .. ﴿٤﴾ ﴾ [المجادلة] إذن : يحاول أنْ يُصعِّب العقوبة لتكون رادعة ليقتلع جذور هذه العادة السيئة من ألسنة الناس .

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ .. ﴿٤﴾ ﴾ [المجادلة] وحدود الله أوامره ونواهيه ، قال فى الأوامر : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا .. ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [البقرة] وقال فى النواهى ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا .. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة]

والحد هو الفاصل بين شيئين ، وحدود الله هى التى تفصل بين الحلال والحرام ، ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿٥﴾ ﴾ [المجادلة] أى : يجعلون هواهم فى جانب وأوامر الله فى جانب آخر .

إذن : سمع الله قولَ المجادلة وأجابها بأنْ أنزل فى شأنها قرآناً يُتلَى إلى يوم القيامة ، وجعل للظهار حكماً لازماً وكفارة رادعة ، إذن : ليس مجرد سماع ، ونحن نقول عندما نرفع من الركوع : سمع الله لمن حمده ، أى : سمع وأجاب ، لأنه تعالى قال : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

(1) قال الشوكانى فى فتح القدير « فعليه صيام شهرين متتابعين متواليين لا يفطر فيهما ، فإن أفطر استأنف (أى بدأه من البداية) إن كان الإفطار لغير عذر ، وإن كان لعذر من سفر أو مرض فقال سعيد بن المسيب والحسن وعطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار والشعبى والشافعى ومالك : إنه يبنى (أى يكمل عدة الستين يوماً) ولا يستأنف . وقال أبو حنيفة : إنه يستأنف ، وهو مروى عن الشافعى » .

وعجيب أنْ يختلف العلماء على شخصية المرأة المجادلة لرسول الله من هى على أربعة أقوال[1] لأنه لا فائدة من تحديد شخصها ومعرفة اسمها لأن تحديد الشخصية يعنى تقييد الحكم بها ، والله يريده حكماً عاماً .

والقاعدة الفقهية أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فلو كان الحكم خاصاً بخَوْلة لاقتصر عليها ، إنما هو حكم عام لجميع المسلمين ، فهو إذن عطاء عام لا يهم فيه المرأة التى نزل الحكم بشأنها ، فهى مجرد سبب للنزول .

وهذه المسألة رأيناها مثلاً فى فتية أهل الكهف ، فلم يحدد لهم زماناً ولا مكاناً ولا أسماء ، إنما أشاعهم ليشيع فائدتهم فى الوجود كله زماناً ومكاناً ، ولو حدَّد لنا أشخاصهم لَقُلْنا أنه أمر خاص بهم دون غيرهم ، إنما أرادهم مطلق فتية ليكونوا قدوة لكل فتية آمنوا بربهم .

فالقصة بهذه الصورة تعطى خصوبة ، وتصبح ككلمة طيبة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

فإن احتاج الأمر إلى تحديد الشخصية فلا بدّ أنْ يحددها ويذكرها بالاسم كما فى قصة السيدة مريم فقال : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ ..

(1) ذكر هذه الأقوال الأربعة ابن الجوزى فى زاد المسير (الأحزاب ١)
أحدها : خولة بنت ثعلبة . رواه مجاهد عن ابن عباس وبه قال عكرمة وقتادة والقرظى .
والثانى : خولة بنت خويلد . رواه عكرمة عن ابن عباس .
والثالث : خولة بنت الصامت . رواه العوفى عن ابن عباس .
والرابع : خولة بنت الدليج . قاله أبو العالية .

(١٢)﴾ [التحريم] فذكر اسمها واسم أبيها ليزيل أىَّ لبس أو جهالة ، ذلك لأن لها حكماً خاصاً بها لن يتكرر فى غيرها فى العالم . إذن : فالتشخيص مهم هنا لأنه يقيد الحكم بها وحدها .

وكان الظهار فى الجاهلية يمثل أشدَّ أنواع الفرقة بين الرجل وامرأته حين يقول لها : أنت علىَّ كظهر أمى ، لأن الأم هى أول المحرَّمات من النساء ، قال تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ .. (٢٣)﴾ [النساء] فليس أشنع من أنْ تلد الأم ثم تكون موطئاً لولدها .

ومن هنا طُلب التباعد فى المصاهرة ، وقد رأينا هذا التباعد منذ النشأة الأولى للإنسان ، إذ كيف يكون التباعد فى أولاد آدم ؟ قالوا : كان من حكمة الله تعالى أنْ تلد حواء فى كل بطن ذكراً وأنثى ، فكانوا يُزوجون ذكر هذه البطن لأنثى البطن الأخرى ، فأوجدوا إذن نوعاً من التباعد لم يكُن متاحاً غيره آنذاك .

وقد أوصى سيدنا رسول الله بهذا التباعد فقال : « اغتربوا لا تضووا »[1] أى : تباعدوا فى الزواج حتى لا يصيب الذرية ضعف ووهن وهزال ، وقد أثبت العلم ذلك وأثبت أنّ زواج الأقارب يصيب الأبناء ببعض الأمراض .

لذلك رأينا كثيراً من الأبطال ممن جاءوا من عرب وعجم لأنهم

(1) روى إبراهيم الحربى فى غريب الحديث أن عمر قال لآل السائب : « اغتربوا لا تضووا » أى تزوجوا الغرائب لئلا تجيء أولادكم نحافاً ضعافاً . قاله الشيخ سيد سابق فى فقه السنة (٢ / ٨٦) وذكره أبو هلال العسكرى فى جمهرة الأمثال (١ / ١٦) قال : « مما رغَّب العرب فى التسرى أن أولاد القرائب عندهم ضاويون أى نحاف مهزولون » .

أخذوا خصائص الجنسين ، وقد عبَّر الشعراء عن هذه الحقيقة ، فقال أحدهم[1] فى المدح :

فتىً لم تَلِدْهُ بِنْتُ عَمٍّ قريبة فَيضْوَى وَقَدْ يَضْوى سَلِيلُ الأقارِبِ[2]

وقال الآخر :

تجَاوزْتُ بِنْتَ العَمِّ وَهْىَ حَبِيبَةٌ مَخَافَةَ أنْ يَضْوى علىَّ سَلِيلُها

إذن : لا تقُلْ للزوجة أنتِ علىَّ كظهر أمى ، لأن الله تعالى ينزه الأم أنْ تكون موطئاً لك ، وهى أبعد ما يكون عن هذا ، لذلك اعتبرت العرب هذه الكلمة أشدَّ من الطلاق .

ولا بد أنْ نقف عند قوله تعالى فى كفارة الظهار ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ.. (٣) ﴾ [المجادلة]

قالوا : ونحن الآن لم يعد عندنا رِقّ لأن القانون الآن يُلغى الرق ، وهذا كلام مدنى سياسى ، إنما إنْ وقعت حرب فمن الممكن أنْ نجد أسرى ويوجد الرق .

إذن : فَرْق بين أمر شرعى وأمر مدنى اتفقوا عليه .

(١) هو النابغة الذبيانى وهو زياد بن معاوية أبو أمامة شاعر جاهلى من الطبقة الأولى من أهل الحجاز ، كانت تُضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فيقصده الشعراء ، كان حظياً عند النعمان بن المنذر عاش عمراً طويلاً ، توفى عام ١٨ قبل الهجرة .

(٢) أوردته الموسوعة الشعرية ولكن بلفظ آخر :

فتى لم تلده بنت أم قريبة فيضوى وقد يضوى رديد الأقارب

وعزته الموسوعة للنابغة الذبيانى فى قصيدة من بحر الطويل عدد أبياتها بيتان . وأورده أبو حيان التوحيدى فى الإمتاع والمؤانسة (بنت عم) وكذا الجاحظ فى (البرصان والعرجان) والميدانى فى (مجمع الأمثال) .

وفى السعودية أراد الملك فيصل[1] أنْ يقضى على فلول الرق فاشترى العبيد وأعتقهم ، وكانت المفارقة أن العبيد عادوا يطرقون باب سادتهم يريدون العودة إلى حياة الرق[2] .

ذلك لأن العبد كان يأكل من أكل سيده ، والأمَة تلبس مثل سيدتها ، والرجل يمكن أنْ يتخذها فراشاً له .

والحكمة من تحرير الرقاب أن العبد كان مُقيداً مهدداً بالقتل لأنه اشترك فى حرب ضد المسلمين وأُسر ، وكان من الممكن أنْ يُقتل فرحمة الله تداركته ، رحمة الله بالإنسانية كلها حتى لو كانت كافرة ، فقال لك لا تقتله لأنه سيكون لك وتنتفع به .

فكأن الله تعالى حمى حياة الكافر بأنْ جعله عبداً ، إذن : لا تقارنْ بين رق وحرية ، إنما قارن بين رِقّ وقتل ، فالرقّ أرحم لأنه يحمى دم الكافر ، فالخالق سبحانه يحمى حياة عبده التى وهبها له ، ثم بعد ذلك يفتح المنافذ التى يُصفّى بها الرق ويقضى عليه .

وقد جاء الإسلام والرق نظام موجود فى المجتمع ، فكان الرجل يشترى الأرض بمن عليها من العبيد ، وكان للرق آنذاك أكثر من

(١) هو الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود ، ولد بالرياض ١٩٠٦ م ، وهو الابن الثالث من أبناء الملك عبد العزيز آل سعود الذكور ، أمه هى طرفة بنت عبد الله آل الشيخ من ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، حكم السعودية فى الفترة من ١٩٦٤م إلى ١٩٧٥م (١٢ سنة) . قُتل عام ١٩٧٥ على يد ابن أخيه فيصل بن مساعد .

(٢) تم إلغاء الرق نهائياً بمرسوم وزارى عام ١٩٦٢م ببيان ألقاه يومها رئيس مجلس الوزراء السعودى الأمير فيصل بن عبد العزيز آنذاك وفيه « تجد الحكومة الآن الفرصة مواتية لأن تعلن إلغاء الرق مطلقاً وتحرير جميع الأرقاء وستقوم الحكومة بتعويض من يثبت استحقاقه للتعويض » [صحيفة أم القرى العدد ١٩٤٤ السنة الأربعون ٩ نوفمبر ١٩٦٢] .

عشرين مصدراً ، فلما جاء الإسلام ضيَّق هذه المصادر حتى صار للرق مصدر واحد ، هو أنْ يُؤخذ أسيراً فى حرب شرعية .

وبعد أنْ ضيَّق منابع الرق وسَّع مصارفه ليقضى عليه تماماً ، إذن فالإسلام لم يأت بالرقِّ إنما أتى بالعتق ، وانظر إلى الكفارات التى فرض الله فيها عتق الرقاب ، والرقاب عامة سواء أكانت مؤمنة أم غير مؤمنة .

لذلك حينما نستقرئ القرآن لا تجد إلا آية واحدة مشروط فيها تحرير رقبة مؤمنة ، فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ .. (٩٢) ﴾ [النساء]

أما فى آية اليمين وكفارته فيقول سبحانه : ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ .. (٨٩) ﴾ [المائدة] ولم يقل مؤمنة .

لذلك علق أبو حنيفة على هذا وقال : قيدها هناك بشرط الإيمان وأطلقها هنا ، فدلّ على أنها تكون حتى للكافر ، فالإسلام فى كثير من المسائل لا يفرق بين المؤمن والكافر ، وأنه دين عام هدفه إصلاح الدنيا كلها .

وتذكرون قصة الدرع الذى سرقه طعمة بن أبيرق[1] وخبأه عند زيد بن السَّمين اليهودى فاتهموا اليهودى بالسرقة وأرادوا تبرئة

(١) هو : طعمة بن أبيرق بن عمرو الأنصارى ، شهد المشاهد كلها إلا بدراً .

المسلم . وحاولوا إقناع رسول الله بهذا حتى مال إلىٰ هذا الرأى حتى لا يُتهم مسلم بالسرقة ويُفتضح أمره[1] .

لكن الوحى تدارك الأمر ونزل يقول لرسول الله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ .. (١٠٥) ﴾ [النساء] ولم يفرق بين مؤمن وكافر ﴿ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء] أى : لا تدافع عن الخائن حتى إنْ كان مسلماً ، لأن العدالة الإلهية لا تفرق بين العباد .

لذلك لما بُرِّئ اليهودى وأُدين المسلم دون محاباة ودون مجاملة تسابق الناسُ إلى الدخول فى الإسلام ، وهذا من عظمة هذا الدين أنه لا يحمى الباطل ولا يتستر على الفساد إنْ جاء من ناحية أتباعه .

تلاحظ فى كفارة الظهار الترتيب بين عتق الرقبة ، ثم الصيام ، ثم الإطعام ليأخذ كُلٌّ ما يناسبه ، وأيضاً ليكون أمام الفقهاء فسحة لجعل هذه الكفارة رادعة ، لذلك رُوِى عن منذر بن سعيد[2] أحد فقهاء

(١) وذلك أن طعمة بن أبيرق سرق درعاً لعبادة بن النعمان وكان الدرع فى جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتشر من خرق فى الجراب ، ثم خبأها عند رجل من اليهود فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف ما لى بها علم فنظروا فى أثر الدقيق فانتهوا إلى منزل اليهودى فقالوا له فقال : دفعها إلىَّ طعمة . فقال قوم طعمة : انطلقوا إلى رسول الله ﷺ لنجادل عن صاحبنا فهمَّ أن يفعل وأن يعاقب اليهودى فنزل قوله ﴿ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء] [ذكره ابن الجوزى فى المنتظم ١ / ٣٣٧] .

(٢) هو منذر بن سعيد البلوطى أبو الحكم ، قاضى قضاة الأندلس فى عصره ، ولد (٢٧٣) بـ (فحص البلوط) بقرطبة ، كان فقيهاً خطيباً شاعراً فصيحاً ، رحل حاجاً سنة ٣٠٨ هـ فأقام فى رحلته ٤٠ شهراً أخذ بها عن بعض علماء مكة ومصر ، استمر فى قضاء قرطبة إلى وفاته عام ٣٥٥ هـ عن ٨٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٧ / ٢٩٤] .

الأندلس لما حلف الخليفة عبد الرحمن الناصر[(١)] يميناً وأراد له كفارة . فقالوا له : إطعام عشرة مساكين ، فلما علم المنذر بن سعيد بهذه الفتوى قال : أو يُزجر أمير المؤمنين بأنْ يطعم عشرة مساكين ، وهو يطعم كل يوم كذا وكذا ؟ إنما يُزجر بالصيام[(٢)] . إذن : أخذ روح الحكم ولم يأخذ نصه .

وبعد أنْ بيَّن سبحانه حكم الظهار وكفارته قال ﴿ **وَتِلْكَ** ..(٤) ﴾ [المجادلة] أى : هذه الأحكام التى ذُكرت ﴿ **حُدُودُ اللَّهِ** ..(٤) ﴾ [المجادلة] أى : أوامره ونواهيه ، والحد كما ذكرنا هو الفاصل بين شيئين فإنْ كان الحد بينك وبين الله فهو مرفوض .

قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ** (٦٣) ﴾ [التوبة] فالمطلوب من العبد ألاّ يفصل عن ربه عز وجل وأنْ يتصل به دائماً وفى كل وقت لا أنْ يجعل نفسه فى جانب وربه فى جانب ، فهذا مناف للمعية الإيمانية ، فربك يريدك معه لا تفارقه .

وهذا المعنى واضح فى آيات سورة الجمعة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ** ..(٩) ﴾ [الجمعة] ثم بعد الصلاة ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (١٠) ﴾ [الجمعة] إذن : أنت مع الله فى الصلاة ومع الله بعد الصلاة ، لا يغيب عن بالك طرفة عين .

---

(١) عبد الرحمن الناصر لدين الله أو عبد الرحمن الثالث ثامن أمراء بنى أمية فى الأندلس ولد ٢٧٧ هـ ، امتد حكمه ٥٠ عاماً ، أمه أم ولد اسمها (ماريا) أو (مزنة) بويع بالخلافة عام ٣٠٠ هـ توفى عام ٣٥٠ هـ . عن ٨٣ عاماً .

(٢) لم أقف على هذا الخبر ، ولكن أمر الكفارة دائر مع عسر المظاهر أو يسره ، فإن كان معسراً فكفارته الصوم ، وإن كان موسراً فعليه عتق رقبة ، فمن لم يجد فعليه إطعام ستين مسكيناً . قال القرطبى فى تفسيره للآية .

« ومن تظاهر وهو معسر ثم أيسر لم يجزه الصوم ، ومن تظاهر وهو موسر ثم أعسر قبل أن يكفّر صام ، وإنما يُنظر إلى حاله يوم يكفّر ، ولو جامعها فى عدمه وعسره ولم يصم حتى أيسر لزمه العتق » .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (٤) ﴾ [المجادلة] أى الذين لا يقفون عند حدود الله ، ولا يعملون بما حدّه الله لعباده ، فهؤلاء لهم (عذاب أليم) وهو عذاب جهنم ، وسُمِّى صنيعهم هذا كفراً تغليظاً وتشديداً .

فالذين لم يؤمنوا ولم يلتزموا بأحكام هذه الشريعة ووقفوا عند حدود الله فلا تعتقدوا أنهم ناجون من حساب الله وعقابه ، فليس الأمر كما زعموا ، بل لهم عذاب أليم فى الدنيا وفى الآخرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٥ ﴾

قلنا : ﴿ **يُحَادُّونَ اللَّهَ** .. (٥) ﴾ [المجادلة] أى : يجعلون هواهم فى حَدٍّ وأوامر الله فى حَدٍّ ﴿ **وَرَسُولَهُ** ..(٥) ﴾ [المجادلة] دلتْ على أن الرسول له تشريع خاص به لأنه مفوّض من الله فى أنْ يشرع ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** .. (٧) ﴾ [الحشر] لأن الأمر قد يكون من الله ومن رسول الله .

وقد يكون الأمر من الله وحده أو من رسول الله وحده ، لأن الحكم يكون من الله إجمالاً ومن رسول الله تفصيلاً ، لذلك جاءت الآيات تُفصِّل هذا فى قوله تعالى : ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** ..(٩٢) ﴾ [المائدة] وقال : ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ** .. (١٣٢) ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ **وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** ..(١٢) ﴾ [التغابن]

وبهذه الآيات نرد على هؤلاء الذين ينادون بالأخذ بكتاب الله فقط ويرفضون الأخذ بسنة رسول الله ، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن هؤلاء فقال : « ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث متكئاً على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله »(١) .

وهذه من معجزاته ﷺ ، وللرد على هؤلاء نقول لهم : بالله عليك قُلْ لنا كيف تصلى العصر أو المغرب ؟ ومن أين عرفت أن العصر أربع ركعات وأن المغرب ثلاث ؟ وهل هذا فى القرآن ، هل بيَّن القرآن مناسك الحج أو مقادير الزكاة ؟

وقوله ﷺ : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلى »(٢) وقال : « خذوا عنى مناسككم »(٣) يعنى : أن رسول الله ﷺ تميَّز بين الرسل بأنْ فوَّضه الله فى أن يشرع لأمته ، فالرسل قبل محمد لم يكن لهم إلا أنْ يُبلغوا عن الله الأحكام أما رسول الله فمبلِّغ ومشرع .

إذن : أطيعوا الله فى إجمال الحكم ، وأطيعوا رسول الله فى

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٥٨٨) وابن ماجه فى سننه (١٢) وأحمد فى مسنده (١٦٥٦٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٧٠٤٠) من حديث المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٢ / ٣٤٥) (٣ / ١٩٦) وكذا الدار قطنى فى سننه (١٠٧٩) والشافعى فى مسنده (٢١٨) وابن حبان فى صحيحه (١٦٨٥ ، ٢١٦٥) من حديث مالك بن الحويرث .

(٣) أخرجه بهذا اللفظ البيهقى فى السنن الكبرى (٥/ ١٢٥) عن جابر بن عبد الله قال : أفاض رسول الله ﷺ السكينة وأمرهم بالسكينة وأوضع فى وادى محسر وأمرهم أن يرموا الجمار مثل حصى الخذف وقال : خذوا عنى مناسككم لعلِّى لا أراكم بعد عامى هذا .

تفصيل الحكم ، ولو لم يكن الأمر كذلك ما قال الحق سبحانه ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ..(٨٠) ﴾ [النساء]

ومعنى ﴿ كُبِتُوا.. (٥) ﴾ [المجادلة] الكبت هنا بمعنى الذلة والمهانة أو الصدمة الشديدة التى تُسكت المرء فلا ينطق لهول ما يرى من المصيبة ، مثل قوله تعالى : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ..(٢٥٨) ﴾ [البقرة] أى : ذُهل .

فالذى يتعرض لصدمة شديدة يخرس لسانه فلا ينطق ولا يستطيع أنْ يُنفِّس عن نفسه أو يُخفِّف عنها ، وقد عبَّر الشاعر(١) عن هذا المعنى فقال :

ولا بدَّ مِنْ شكْوَى إلى ذِى مُرُوءَةٍ   يُواسِيكَ أو يُسلِّيكَ أوْ يتوجَّعُ(٢)

فصاحب المصيبة حينما يجد مَنْ يشتكى إليه ويسمع له يشعر بالراحة وتهدأ نفسه ، لأنه وجد مَنْ يخفف عنه ويشاركه مواجعه ، أمّا هؤلاء فقد كُبتوا كبتاً أسكتهم وأخرس ألسنتهم فأذلهم الله وأهانهم أعظم إهانة وأغاظهم أشد الغيظ .

﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ..(٥) ﴾ [المجادلة] يعنى : ليسوا هم

---

(١) هو : بشار بن برد العقيلى أبو معاذ ، أشعر المولدين على الإطلاق ، أصله من طخارستان غربى نهر جيحون ولد عام ٩٥ هـ ، كان ضريراً نشأ فى البصرة وقدم بغداد اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ودفن بالبصرة عام ١٦٧ هـ .

(٢) البيت لبشار بن برد من بحر الطويل . وقد استعاره ابن نباتة المصرى فى قصيدتين من قصائده الأولى من بحر الطويل عدد أبياتها (٣٣ بيتاً) . والثانية من نفس البحر عدد أبياتها (٣ أبيات) أولها :

وناعورة كانت قضيباً فأصبحت   إلى القضيب شوقاً كالحمامة تسجع

أول من كُبت إنما كُبِت المكذِّبون السابقون من قوم عاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون وغيرهم .

وكان أول كَبْت للعرب الكفار الذين وقفوا فى وجه الدعوة أنْ يهزموا أمام دعوة الحق وأنْ يتلاشى الكفر ويعم الإسلام ، قال سبحانه : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤٤) ﴾ [الأنبياء]

فكل يوم كانت تتناقص أعداد الكفار وتتناقص أرضهم وتزداد أعداد المسلمين وتزداد أرضهم وتتسع ، حتى أن خالد بن الوليد يقول لعمرو بن العاص : لقد استقام الميسم[1] لمحمد يا عمرو فهيا بنا نؤمن به . أى : استقام الأمر له واستتبَّ ولم تَعُدْ لنا طاقة بمقاومته .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١٠٣٣) باب إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وفيه أن عمرو بن العاص قال للنجاشى : والله لو ظننت أنك تكره هذا (أى تسليم جعفر بن أبى طالب له) ما سألتكه . قال : تسألنى أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى فتقتله ؟ قلت : أكذاك هو ؟ قال الملك : ويحك يا عمرو أطعنى واتبعه فإنه والله على حق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قلت : أتبايعنى له على الإسلام قال : نعم . فبسط يده فبايعته على الإسلام ثم خرجت على أصحابى وقد حال (تحول) رأيى عما كان عليه فكتمت أصحابى إسلامى ثم خرجت عامداً لرسول الله ﷺ بإسلامى . فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح وهو مقبل من مكة . فقلت : أين يا أبا سليمان (كنية خالد بن الوليد) قال : والله استقام الميسم وإن الرجل لنبى ، أذهب والله أسلم حتى متى ؟ قلت : فأنا والله ما جئت إلا للإسلام . فقدمنا على رسول الله ﷺ فتقدم خالد ابن الوليد فأسلم وبايع ثم دنوت فقلت : يا رسول الله إنى أبايعك على أن تغفر لى ما تقدم من ذنبى ولا أذكر ما تأخر . فقال رسول الله ﷺ : يا عمرو بايع فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله وإن الهجرة تجب ما كان قبلها . فبايعت ثم انصرفت . والميسم هو المكواة أو الشىء الذى يُوسم به الدواب وهى حديدة يُكوى بها [لسان العرب - مادة : وسم]

﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (٥) ﴾ [المجادلة] آيات واضحات يصدّقها العقل ، والفطرة السليمة تقبلها ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) ﴾ [المجادلة] أى : الذين يُكذّبون بهذه الآيات ولا يؤمنون بها مع وضوحها ومسايرتها للفطرة السليمة ، لهم عذاب مهين يُهينهم ويُخزيهم .

ذلك لأن قضية الإيمان بالله واضحة لا يملك أحد ردّها ، حتى هم لم ينكروها ، فأول شىء فى قضية الإيمان وجود رب قادر خالق لهم ، ولهذا الكون الذى يعيشون عليه .

وقد أقروا لله تعالى بالخلق : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٢٥) ﴾ [لقمان] وقال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧) ﴾ [الزخرف] وهل يجرؤ أحد منهم أنْ يقول غير هذا ؟ ومع هذا كذَّبوا وكفروا بالحق وبالآيات الواضحات التى لا يمكن أنْ يجهلها أحد ، وكان المفروض أنْ يعتبروا بها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) ﴾

يذكّرهم سبحانه بيوم البعث والحساب يوم يحاسبهم على كل شىء على كل صغيرة وكبيرة مما نسوه ، ولكن الله أحصاه وسجّله

عليهم وكتبته حفظته ، وأنت لو سألتَ رجلاً مثلاً فى الستين أو السبعين من عمره وقلت له : هل تحصى ذنوبك ؟ يقول لك : لا أستطيع لأن النسيان من طبائع الإنسان حتى لا يتضاءل أمام نفسه ، كأن صفات الكمال فى النفس الإنسانية لها تقدير ذاتى ليس تقديراً إضافياً .

فمثلاً شهادة الزور لا تقل نسبية قُلْ إضافية ، كيف ؟ هَبْ أن لك صديقاً يجلس فى مجلسك وأنت تعديتَ على شخص آخر وشتمته فأراد أنْ يستشهد بك ، فلما طُلِبَتْ منك الشهادة جاملتَ صديقك وقلت : لم يحدث هذا .

نعم هو مشهد لصالحك ووقع فى المحظور من أجلك ، ومع ذلك يسقط من نظرك وتحكم عليه بأنه شاهد زور ، حتى وإن كانت شهادته من أجلك ، فكأن الرذيلة رذيلة حتى عند صاحبها .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً وقلنا : لو أن جماعة كانت مسرفة على أنفسها وكانوا مثلاً لصوصاً وواحد منهم تاب فقالوا عنه : (دا جردل دا لخمة) ، ثم أراد أحد هؤلاء أنْ يزوِّج أخته أيزوّجها واحداً من اللصوص الذين معه أم يُزوّجها لهذا (الجردل) الذى تاب واستقام ؟ يُزوّجها لمن تاب واستقام ، فهو وإنْ كان منحرف السلوك إلا أنه لا يرضاه ولا يُقرّه .

لذلك رأينا كفار مكة يحاربون محمداً ويكفرون بدعوته ، ومع ذلك يأتمنونه على ودائعهم[1] لأنهم يعرفون أنه الصادق الأمين .

---

(١) وحدث فى الهجرة إلى المدينة أن على بن أبى طالب أقام بمكة بعد مخرج رسول الله ﷺ أياماً - قال بعضهم : ثلاثة - حتى أدى للناس ودائعهم التى كانت عند رسول الله ﷺ وخلفه ليردها [سبل الهدى والرشاد ٣/٢٦٧] . ومثله فى جوامع السيرة (٩٣/١)

﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ .. ⦗٦⦘﴾ [المجادلة] أحصاه لأنه المحصى سبحانه ، ونسوه لأنهم أهل للنسيان ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⦗٦⦘﴾ [المجادلة] لأنه قيّوم السموات والأرض ، لذلك قال فى الحديث القدسى : « يا عبادى : إن كنتم لا تعتقدون أنِّى أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنّى أراكم فلم جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم »[1] .

فقوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⦗٦⦘﴾ [المجادلة] كل شىء يعنى السور الكلى فلا يوجد شىء إلا والله شهيد عليه ، والإيمان بإله واحد شىء وهو سبحانه شهيد عليه .

لذلك قال : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ⦗١٨⦘﴾ [آل عمران] فقبل أن يطلب من الناس أنْ تشهد بهذا شهد هو به لنفسه سبحانه ، وكذلك رسول الله قبل أنْ يشهد الناس له بالرسالة شهد بها هو لنفسه ، لابد أنْ يشهد بها ويعتقدها .

وقد ورد فى الحديث أنه ﷺ قال : « أشهد أنّى رسول الله » فى قصة جابر بن عبد الله وقد كان عليه دينٌ ليهودى ، وقد حان وقت السداد ولكن جابراً لا يستطيع لأن بستانه لم يثمر نخيله الثمر الذى يكفى لسداد الديْن فكلّم جابر رسولَ الله أنْ يتوسَّط له عند اليهودى ليؤجل موعد السداد لكن اليهودى رفض فقد وجد الفرصة لإذلال المسلمين .

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى شرحه (فتح البارى شرح صحيح البخارى) كتاب الصلاة (١٧٢/٢) وعزاه لبعض العارفين : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك ، وكذا فى جامع العلوم والحكم فى شرح الحديث الثانى ، ثم ذكره فى شرح الحديث ١٨ أن رجلاً قال لوهيب بن الورد : عظنى . فقال : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك .

فقال رسول الله لجابر : ياجابر خُذْنىَ إلى حائطك وتجوَّل رسول الله بين النخيل ، ثم قال : ياجابر خُذْنى إلى عريشك فأخذه جابر إلى عريشه فأخذتْ رسول الله سنَةٌ من النوم ، فلما استيقظ قال : ياجابر جُذْ واقض ، فجذَّ جابر نخله وقضى ما عليه لليهودى وبقى له ما لم يكن يبقى فى الأعوام السابقة ، فلما بلغ ذلك رسول الله ضحك وقال : « أشهد أنّى رسول الله »[1] .

إذن : ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦)﴾ [المجادلة] شهد لنفسه شهادةَ الذات للذات ، وشهدتْ الملائكة شهادةَ المشهد ، وشهد أولو العلم شهادةَ دليل : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. (١٨)﴾ [آل عمران]

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ[2] ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧)﴾

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٢٣) من حديث جابر بن عبد الله وفيه أن رسول الله ﷺ قال : يا جابر جُذ واقض فوقف فى الجداد فجذذت منها ما قضيته وفضل منه ، فخرجت حتى جئت النبى ﷺ فبشرته فقال : « أشهد أنى رسول الله ».

(٢) النجوى : السرار . قاله ابن قتيبة . وهى المسارّة . وهى مأخوذة من النجوة وهى ما ارتفع من الأرض لأن المتسارين يخلوان وحدهما بنجوة من الأرض ، أو لأن السر يصان فكأنه رفع من حضيض الظهور إلى أوج الخفاء . [تفسير الألوسى روح المعانى]

قالوا فى تفسير ﴿أَلَمْ تَرَ.. (٧)﴾ [المجادلة] أنها بمعنى ألم تعلم لأنه يتكلم عن أشياء لم يرَهَا سيدنا رسول الله كما فى سورة الفيل : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)﴾ [الفيل] ورسول الله ﷺ لم ير هذه الحادثة فقالوا المراد : ألم تعلم .

والصواب أنها بمعنى (ترى) ولو أراد الله تعالى العلم لقال : ألم تعلم ، والحكمة من استخدام ترى هنا ليدل على أن إخبار الله لرسوله أصدقُ من رؤية عينه ، فمجرد أنْ يخبره الله يكون كأنه رأى بعينه .

وقوله تعالى : ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (٧)﴾ [المجادلة] دل على إحاطة علم الله بكل شىء كما قال سبحانه : ﴿وَمَا يَعْزُبُ[1] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾ [يونس]

فالله يعلم السموات والأرض كظرف ويعلم المظروف فيه ، فالأرض فى ذاتها عجيبة الخَلْق والتكوين ، وما فيها من مخلوقات أعجبُ منها ، وقلنا : إن المظروف أنفس من المظروف فيه ، وعلْم الله لا يقتصر على المشاهد ، بل يعلم سبحانه ما غاب عنّا من ملكوت السموات والأرض ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (١٢٣)﴾ [هود]

ومن إحاطة علمه تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ.. (٧)﴾ [المجادلة] فالله سبحانه يعلم ما فى السموات وما فى الأرض من مخلوقات ، وقد يقول قائل : يعلمها لأنها مخلوقاته وصَنْعة يده ، فقال : لا بل ويعلم المحدثات والمستجدات التى تحدث فى كونه فقال : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ .. (٧)﴾ [المجادلة]

والنجوى من الأغيار التى تحدث عنكم وبينكم سراً ، فالنجوى لا

(١) ما يعزب : ما يبعد ولا يغيب . قاله ابن قتيبة .

تكون إلا سراً نسترها عن الغير ، لذلك قال (ثلاثة) فهى أول الأعداد التى يُحتمل فيها النجوى .

وفى الحديث الشريف قال ﷺ : « لا يتناجى اثنان دون الثالث فإن ذلك يُحزنه »[1] .

فنجوى الاثنين تثير الشك والريبة فى نفس الثالث ، أما الحق سبحانه فيعلم كل شىء ، لذلك يقول لهم : تناجوا كما تريدون فأنا شاهدكم وأعلم نجواكم ، أنا رابع الثلاثة وسادس الخمسة .

﴿ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا .. (٧) ﴾ [المجادلة]

وهكذا استوعبتْ الآية جميع الاحتمالات وجميع الأعداد .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٧) ﴾ [المجادلة] لأن الحفظة سجلت عليهم أعمالهم ، ويوم القيامة سيُعطى كل إنسان كتابه ليقرأ ما فيه ويكون شاهداً عليه ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٠٥٤) وأبو داود فى سننه (٤٢١١) والترمذى فى سننه (٢٧٥١) وابن ماجه (٣٧٦٥) وأحمد فى مسنده (٣٣٧٩) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٢) سبب نزول الآية : قال ابن عباس ومجاهد : نزلت فى اليهود والمنافقين ذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا : ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا فى السرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة ، فيقع ذلك فى قلوبهم ويُحزنهم ، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم ، فلما طال ذلك وكثر ، شكوا إلى رسول الله ﷺ ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٣٣] .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا
عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ
الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ
وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ
حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) ﴾

الذين نُهوا عن النجوى هم جماعة من اليهود والمنافقين ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. (٨) ﴾ [المجادلة] يعودون إلى التناجى ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ .. (٨) ﴾ [المجادلة] فكأن النجوى فى ذاتها ليست محرمة إنما المحرم منها هو التناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، أما التناجى فى الخير فلا شىء فيه ، كالذى يُخفى صدقته حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه[1] .

﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

الحق سبحانه يفضح نفاقهم ويخبر رسوله بسوء نياتهم ، فالتحية منهم لرسول الله دليل النفاق (حَيّوكَ) و ﴿ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ .. (٨) ﴾ [المجادلة] دليل المخالفة ، لأنهم جاءوا بتحية غير تحية الله وهى السلام عليكم ، فكانوا يقولون لرسول الله : السام عليكم .

---

(١) حديث صحيح . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢٠ ، ١٣٣٤ ، ٦٣٠٨) وكذا الترمذى فى سننه (٢٣١٣) والنسائى فى سننه (٥٢٨٥) وأحمد فى مسنده (٢٩٨٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وقد أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧١٢) بلفظ : « حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله » .

والسام أى الموت جاءوا بكلمة قريبة فى نطقها من السلام .

وقد تنبهت السيدة عائشة لقصدهم وردَّتْ عليه تحية السوء هذه وقالت : بل السام عليكم واللعنة .(1) لذلك جعل الله المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، فهم أسوأ حالاً من الكافرين ، لأن الكافر كما بيَّنا واضح لسانه مع قلبه ، أمَّا المنافق فظاهره الإيمان ويُبطن الكفر .

وقولهم لرسول الله ﷺ : السام عليكم مثل قول إخوانهم اليهود حنطة ، لما قال الله لهم : ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ (٥٨)﴾ [البقرة] أى : يارب حُط عنا خطايانا فقالوا : حنطة . سخريةً واستهزاءً .

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ..(٨)﴾ [المجادلة]

هذا القول قالوه فى أنفسهم لم يقولوه لنا ومع ذلك أخبرهم به رسول الله ، فكان عليهم أنْ يأخذوا منه عبرةً وعظة ، وأنْ يتساءلوا مَنْ أخبر محمداً بهذا وقد قلناه فى أنفسنا .

كان عليهم أنْ يتخذوا من هذا الموقف سبباً للهداية والتصديق برسول الله .

ومعنى ﴿لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ..(٨)﴾ [المجادلة] يعنى : هلا يُعذِّبنا الله كأنهم يطلبون العذاب ، لكن العذاب لن ينزل بهم الآن ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ..(٨)﴾ [المجادلة] أى : يوم القيامة ﴿فَبِئْسَ

(1) عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليكم . قالت عائشة : ففهمتها وعليكم السام واللعنة . فقال رسول الله ﷺ : مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق فى الأمر كله . فقلت : يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا . فقال رسول الله ﷺ : قد قلت : وعليكم . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٥٦٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٠٢٧) .

الْمَصِيرُ (٨)﴾ [المجادلة] بئس المرجع وبئس النهاية ﴿حَسْبُهُمْ ..(٨)﴾ [المجادلة] كافيهم ﴿جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ..(٨)﴾ [المجادلة] يدخلونها ويقاسون حرَّها .

ثم يخاطب الحق سبحانه جماعة المؤمنين ويُعلِّمهم كيف تكون النجوى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩)﴾

الحق سبحانه وتعالى يجمع فى هذه الآية بين النهى عن النجوى المذمومة والتحذير منها هى ما كانت بالإثم والعدوان ومعصية الرسول فيقول تعالى : ﴿فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ..(٩)﴾ [المجادلة] والإثم هو الشىء الخبيث الذى يستحى منه الناس . والعدوان شراسة الاعتداء والكيد والتدبير السىء .

وما داموا يُخفون كلاماً ويُسرّونه فلا بد أنه مخالف للفطرة السليمة ، ولو كان حقاً لقالوه علانية فالنجوى دليل اتهامهم فى العقل وفى القلب وفى كل شىء ، وتأمر فى الوقت نفسه بالنجوى المحمودة .

﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ..(٩)﴾ [المجادلة] وقلنا : إن الجمع بين الأضداد يُوضحها ، إذن لا مانع من النجوى إنْ كانت فى سبيل البر والتقوى وفى سبيل نصْرة الدين وعزة المسلمين كالقادة مثلاً

يتناجون لعمل خطة حربية ، فمن الصواب ألاَّ يعرفها أحد حتى لا يأخذ الأعداء احتياطهم .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) ﴾ [المجادلة] اتقوا الله بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه ، فهو سبحانه ﴿ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) ﴾ [المجادلة] هذا أسلوب قصر . أى : إليه وحده تُحشرون وتُجمعون للحساب يوم القيامة .

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٠) ﴾

أى النجوى بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول هى فى الأساس من الشيطان لأن هذه مهمته منذ أنْ أخذ عهداً مع الله وقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] وفضح نفسه حينما أعلن عن خطته فى إغواء بنى آدم فقال : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]

لذلك قلنا : إنه لا يأتى إلى الخمارة إنما يأتى المسجد ليفسد على أصحاب الطاعة طاعتهم ، والعاقل لا يعلن خطته لعدوه ، لذلك يشكو الناس كثيراً من السهو فى الصلاة وهذا أمر طبيعى ، لأن عدو الله لن يدعك تؤدى الطاعة .

وقد أباح لنا الشرع حينما نجد هذا الوسواس الذى يُخرجنا عن مقام التواجد مع الله أنْ نقطع القراءة ونستعيذ بالله منه لأنه ساعة يسمع

الاستعاذة يُولّى كاللص يحوم حول البيت ، فإنْ وجدك متنبهاً له ينصرف ، فهو كما وصفه الحق سبحانه الوسواس الخناس ، يُوسوس لك فإنْ استعذت بالله منه خنس أى فرَّ وهرب ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ [فصلت]

والأمر فى قوله : ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ .. (٩) ﴾ [المجادلة] يعطى فرصة لمن يخطط لنصرة دين الله فيباح له التكتم والنجوى حتى لا يعرف أحدٌ تفاصيل خطته حتى لو كان مسلماً ، لأن من المسلمين مَنْ يضعف ويُفشى أسرار جيشه لأعدائه .

وتعرفون قصة حاطب بن أبى بلتعة(١) وكان واحداً من صحابة رسول الله ، ومع ذلك ضعف وأراد أن يخبر قريشاً بأن رسول الله يجهز لفتح مكة فكتب إليهم كتاباً وأرسله مع ظعينة(٢) ، ولكن الله تعالى أخبر نبيه بما فعل حاطب ، فبعث إلى سيدنا على وقال له : يا على اذهب فى طريق كذا وستجد ظعينة فى ضفائرها كتاب كذا وكذا ، فذهب علىٌّ فى إثرها وجاء بالكتاب إلى رسول الله فإذا به من حاطب ، فبعث إليه وقال له : ياحاطب ما حملك على أن فعلتَ ما فعلت ؟

فقال : يا رسول الله أنا رجل ليس لى عزوة ، وأحب أن يكون لى عند قريش يدٌ وأنا أعلم أن الله ناصرُك عليهم ، فقال رسول الله ﷺ : اتركوه لعلّ

(١) حاطب بن أبى بلتعة أبو عبد الله من ولد لخم بن عدى حليف الزبير بن العوام شهد بدراً والحديبية ومات سنة ٣٠ بالمدينة وهو ابن ٦٥ سنة وصلى عليه عثمان رضى الله عنه [الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ١/٩٣] .

(٢) الظعينة : المرأة فى الهودج . وقيل : سميت المرأة ظعينة لأنها تظعن مع زوجها وتقيم بإقامته ، وأصل الظعينة الراحلة التى يُرحل ويظعن عليها أى يُسار . وأظعنت المرأة البعير ركبته [لسان العرب – مادة : ظعن] .

الله قد اطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم[1] .

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ هذا الدرس ، فقال « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان »[2] ما دامت فى إطار البر والتقوى .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠) ﴾ [المجادلة] أى : ليُدخل عليهم الحزن ، هو يريد ذلك لكنه لا يستطيع ﴿ وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [المجادلة] مثل رجل توفرت له كل أسباب الشر ، الله أعطاه القوة والمال ومعه مسدس ويجيد (النشان) وتمكّن من عدوه لكن عندما صوَّب الرصاصة إلى قلب العدو تحرّك بعيداً عنها أو طرأ طارئ أطاش الرصاصة .

إذن : هو أراد لكن الله لم يرد ، شاء والله لم يشأ ، فكل حركة فى الكون صغيرة كانت أو كبيرة من حركة الذرة إلى حركة المجرة إنما تجرى بقدر الله وإرادته ، فالشيطان يريد الشرّ بالمؤمنين ولا يحدث شىء من هذا إلا ما أراده الله .

لذلك قال : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

وقلنا : السلطان إما قوة قهر تجبرك على الفعل ، أو قوة حجة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٨٥ ، ٣٩٣٩ ، ٤٥١١ ، ٥٧٨٩ ، ٦٤٢٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٥٥٠) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه .

(٢) أخرجه الخرائطى فى كتاب (اعتلال القلوب) من حديث عمر بن الخطاب (٦٦٥) ولفظه : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان لها فإن كل ذى نعمة محسود » . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤٧٣/٣) وعزاه لمعاذ بن جبل وقال : : رواه الطبرانى فى الثلاثة وفيه سعيد بن سلام العطار . قال العجلى : لا بأس به وكذَّبه أحمد وغيره وبقية رجاله ثقات إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ .

تقنعك به ، والشيطان لا يملك شيئاً من هذا ولا ذاك ، لا يملك إلا أنْ يوسوس وأنْ يزين لك الفعل ، كأنه يريد أنْ يقول لهم لقد كنتم رَهْن إشارتى ، مجرد أنْ أشرتُ لكم أتيتم ووقعتم فى المحظور .

ثم إن هناك معاصىَ تُرتكب ليس للشيطان دَخْلٌ فيها ، معاصٍ تُزيِّنها شهوة النفس الأمَّارة بالسوء والهوى ، لذلك ثبت أن الشيطان يُصفَّد فى رمضان[1] ومع ذلك تحدث منا معاصٍ وذنوب كثيرة .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى فقال :

إبْليسُ والدُّنيا ونَفْسى والهَوَى ... كَيْفَ السَّبيل وكُلُّهم أعْدَائى[2]

كذلك الحال فى مسألة السحر ، فكثير من الناس يملكون أدوات السحر ويمارسونه لكن لا يضرون أحداً إلا بإذن الله :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ[3] وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن النبى ﷺ كان يرغِّب فى قيام رمضان من غير عزيمة وقال : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب الجحيم وسلسلت الشياطين » . وأخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٣٤٤٨) أن رسول الله ﷺ قال : « رمضان شهر مبارك يفتح فيه أبواب الجنة ويغلق فيه أبواب السعير وتصفد فيه الشياطين وينادى مناد كل ليلة : يا باغى الخير هلم إلى الخير ، ويا باغى الشر أقصر » .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى (بحر الدموع) ص ٨١ وقال : أنشدوا بلفظ :

إبليس والدنيا ونفسى والهوى ... كيف التخلص من يدى أعدائى

وذكره ابن عربى فى الفتوحات المكية (٦٢٧) دون أن يعزوه لشاعر : بلفظ الشيخ هنا دون قوله (السبيل) فقال : الخلاص .

(٣) لما كثر السحرة الذين تتلمذوا على أيدى الشياطين فى عهد سليمان عليه السلام وادعوا النبوة وتحدوا الناس بالسحر أنزل الله ملكين من ملائكته الكرام وهما هاروت وماروت ليعلما الناس ما هو السحر فيتمكنوا من تمييز السحر من المعجزة . وليتجنبوا السحر الذى يجب تجنبه . فهاروت وماروت هما ملكان .

وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله .. (١٠٢) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون .. (١٠) ﴾ [المجادلة]
كلمة (على) هنا تعنى أن التوكل على الله خُذه مطية لك توصلك لغايتك . وكلمة (على) فى مثل هذه الآية وغيرها فى القرآن كثير ترد على الجماعة أهل التنوير ، وتبطل قولهم بأن التكاليف شاقة على النفس ، حتى من اسمها يدل على أن فيها مشقة .

والواقع أن التكاليف أمرها هيِّن وفى مقدور الجميع ولا يشعر بمشقتها إلا من ينظر إلى العاجل دون الآجل ، فأين هى مشقة التكاليف إذا قيست وقورنت بالثواب عليها .

ولو نظر المسلم إلى عقوبة المعصية ما تجرأ عليها ، ولو نظر إلى ثواب الطاعة لهان عليه كل شىء فى سبيلها .

وقوله تعالى : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون .. (١٠) ﴾ [المجادلة]
كما تقول : أترك هذا الموضوع علىَّ وإذا كنتَ أنت أيها الإنسان تعجز فالله لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ومعلوم أن التوكل على الله له شروط ، ولا يكون إلا بعد الأخذ بالأسباب .

ثم يوجِّه الحق سبحانه المؤمنين فيقول :[1]

---

(١) **سبب نزول الآية :** قال مقاتل بن حيان : كان النبى ﷺ فى الصُّفة وفى المكان ضيق وذلك يوم الجمعة ، وكان رسول الله يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجلس ، فقاموا حيال النبى ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم ، وشق ذلك على رسول الله ﷺ فقال لمن حوله من غير أهل بدر : قم يا فلان وأنت يا فلان ، فأقام من المجلس بقدر النفر الذين قاموا بين يديه من أهل بدر : فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبى ﷺ الكراهية فى وجوههم ، فقال المنافقون للمسلمين : ألستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس ؟ فوالله ما عدل على هؤلاء قوم أخذوا مجالسهم وأحبهم القرب من نبيهم أقامهم وأجلس من أبطأ عنهم مقامهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٣٤] وذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٢٥) وقال : رواه ابن أبى حاتم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ[1] فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ (١١) ﴾

نزلت هذه الآية لما كثر أصحاب رسول الله ﷺ وكثر مُحبّوه وأهل مجلسه ، حتى أنهم كانوا يتزاحمون على مجلس رسول الله ولا يجدون مكاناً ، فأمره الله تعالى أنْ يُوسِّع بعضهم لبعض ، فقال :

﴿ يـأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا .. (١١) ﴾ [المجادلة] أى : توسَّعوا وأوجدوا مكاناً لمن ليس له مكان ﴿ يفسح الله لكم .. (١١) ﴾ [المجادلة] إذن : عليكم أنْ تأخذوا بأسباب التوسعة ، والله تعالى يفسح لكم فى مجلسكم .

وإذا نسب الفعل إلى الله تعالى فهو فى طلاقة القدرة ، أنت تفسح على قدر طاقتك والله يُفسح لك على قدر طاقته سبحانه ، وهذه مثل قول سيدنا رسول الله ﷺ : « والله فى عوْن العبد ما كان العبد فى عوْن أخيه »[2] .

---

(١) انشزوا : قوموا . وفى المراد بهذا القيام خمسة أقوال :
أحدها : أنه القيام إلى الصلاة وكان رجال يتثاقلون عنها . قاله عكرمة والضحاك .
والثانى : أنه القيام إلى قتال العدو . قاله الحسن .
والثالث : أنه القيام إلى كل خير من قتال أو أمر بمعروف . قاله مجاهد .
والرابع : أنه الخروج من بيت رسول الله ﷺ ، وذلك أنهم كانوا إذا جلسوا فى بيت رسول الله أطالوا ليكون كل واحد منهم آخرهم عهداً به ، فأُمروا أن ينشزوا إذا قيل لهم انشزوا أى قوموا وانصرفوا ، قاله ابن زيد .
والخامس : أن المعنى قوموا وتحركوا وتوسعوا لإخوانكم . قاله الثعلبى .

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٤٨٦٧) وأبو داود فى سننه (٤٢٩٥) والترمذى فى سننه (١٣٤٥ ، ١٨٥٣ ، ٢٨٦٩) وابن ماجه فى سننه (٢٢١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ :: « الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » .

وهذه صفقة حسابية واضحة فأنت فى عون أخيك بقدرتك المحدودة وطاقتك المحدودة ، والله تعالى بحوله وقوته وطاقته الغير محدودة فى عونك ، فمَنْ إذن الرابح الكسبان ؟

وهذا المعنى عام فى التوسع ، وسّع لأخيك أو وسّع عليه يوسع الله لك من حيث لا تدرى ، وهذه التوسعة من الله بركة فى المكان وبركة فى الرزق وبركة فى كل شىء .

ويجب علينا جميعاً العمل بهذا التوجيه من الله ومن رسول الله وإلا أثمنا ، تذكرون قصة المدين الذى مات وعليه دَيْن فامتنع رسول الله ﷺ عن الصلاة عليه ، ولكن أباح لجماعة المسلمين أنْ يُصلوا عليه فقال : صلوا على صاحبكم[1] .

فما ذنب المدين وقد مات ؟ ولماذا امتنع رسول الله من الصلاة عليه ؟ قالوا : لأنه خالف توجيهاً لرسول الله حين قال : « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ، ومَنْ أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[2] .

وهذا المدين كونه مات دون أنْ يقضى دَيْنه . يعنى : أنه كان فى نيته عدم السداد فلم يُعَنْ عليه ، فأحب رسول الله أن يعلم أمته هذا الدرس ، فالمدين محروم من صلاة رسول الله عليه لمخالفته أوامره لكنه ليس محروماً من صلاة جماعة المسلمين عليه .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يُؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين فيسأل : هل ترك لدينه فضلاً ؟ فإن حدِّث أنه ترك لدينه وفاء صلى وإلا قال للمسلمين : صلوا على صاحبكم . فلما فتح الله عليه الفتوح قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى من المؤمنين فترك ديناً فعلىَّ قضاؤه ومن ترك مالاً فلورثته . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١٣٣ ، ٤٩٥٢) ومسلم فى صحيحه (٣٠٤٠) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢) وأحمد فى مسنده (٨٣ ، ٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . ومعنى أتلفه الله أى أتلف أمواله فى الدنيا بكثرة المحن والمغارم والمصائب ومحق البركة . قاله المناوى فى فيض القدير شرح الجامع الصغير (٦//٥٤) .

كما يفهم من هذه القصة حرص رسول الله ﷺ على سداد دين هذا المدين وتطهيره منه وهو مُقبل على الله ، لذلك حثّ الصحابة على أنْ يتصدقوا لسداد دَيْنه فأسرع الناسُ إلى ذلك حتى سدَّدوا دَيْنه[1] .

الحق سبحانه وتعالى يعطينا نموذجاً لهذه التوسعة فى رحم الأم الذى يستقبل الجنين وهو نطفة وميكروب مُتناه فى الصِّغر ثم ينمو ومع نموه يتسع الرحم بعد ضيق ، كذلك الحالُ فى مجالس المؤمنين يُوسِّعها الله على أصحابها شريطة أنْ يوسّع بعضهم لبعض ، مجرد أنْ تتزحزح من مكانك يوسِّع الله على الجميع فترى المكان الضيق يستوعب الأعداد الكثيرة .

إذن : إذا أردتم أنْ يوسِّع الله لكم فوسِّعوا لإخوانكم ، لذلك أباح الشرع فى حال الصلاة فى الزحام أنْ يصلى الرجل فيركع أو يسجد على ظهر أخيه .

وأيضاً : ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا.. (١١) ﴾ [المجادلة] يعنى : انهضوا وقوموا للتوسعة ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ.. (١١) ﴾ [المجادلة] يعنى : الذى يأتمر بهذه الأمور ويُطبِّقها كما أمر الله بها يرفعه الله درجات

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) ﴾ [المجادلة] فالحق سبحانه وتعالى

---

(١) عن سلمة بن الأكوع قال : : كنا جلوساً عند النبى ﷺ إذ أتى بجنازة فقالوا : صلّ عليها . فقال : هل عليه دين ؟ قالوا : لا . قال : فهل تركَ شيئاً ؟ قالوا : لا فصلى عليه ، ثم أتى بجنازة أخرى فقالوا : يا رسول الله صلّ عليها . قال : هل عليه دين ؟ قيل : نعم . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : ثلاثة دنانير فصلى عليها . ثم أتى بالثالثة فقالوا : صل عليها قال : هل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فهل عليه دين ؟ قالوا : ثلاثة دنانير . قال : صلوا على صاحبكم . قال أبو قتادة : صل عليه يا رسول الله وعلىَّ دَيْنه فصلى عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١٢٧) .

يريد أنْ يُقوِّى إيمان المؤمنين ويُوثق ثقتهم فى الله وفيما عنده من الجزاء . الله يريد منا شهداء يخوضون الحروب وهم واثقون أنهم سيجدون عند الله خيراً مما ترك ، وفى الوقت نفسه يريد جماعة تحمل المنهج وتدعو الناس إليه ، طائفة تتعلم الدين وتتفقه فيه وتعلّمه للناس .

فالدين يراعى هذين الاتجاهين ويسير بهما فى اتجاه واحد بالتوازى ، اتجاه الدفاع عن الدين وحمايته ، واتجاه الدعوة إلى دين الله ونشرها ، وإلا لو ذهبنا كلنا للجهاد فَمَنْ يبقى ليعلِّم الناس ويُفقههم فى أمور دينهم ؟

لذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾

بعد أنْ تحدثت الآيات عن المناجاة المذمومة المنهى عنها وتحدثت

---

(١) سبب نزول الآية : قال مقاتل بن حيان : نزلت الآية فى الأغنياء وذلك أنهم كانوا يأتون النبى ﷺ فيكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء على المجالس حتى كره رسول الله ﷺ ذلك من طول جلوسهم ومناجاتهم ، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية ، وأمر بالصدقة عند المناجاة ، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً ، وأما أهل الميسرة فبخلوا واشتد ذلك على أصحاب النبى ﷺ فنزلت الرخصة ، يقصد قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [المجادلة] أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول ص ٢٣٤) .

عن المناجاة الجائزة ، والآن تُحدِّثنا عن لون آخر من المناجاة وهى المناجاة الخاصة برسول الله ﷺ ورسول الله له خصوصياته .

أولها : ما جاء فى قوله تعالى ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا (٦٣) ﴾ [النور] يعنى : لا تنادوا رسول الله كما ينادى بعضكم بعضاً فلا تقولوا يا محمد .

الثانية : أننا إذا أردنا أنْ نناجى رسول الله فلا بد أنْ نقدم قبل المناجاة صدقة ، لماذا ؟ قالوا : كان هناك أناس يجلسون إلى رسول الله ويتناجون معه دون بقية الجالسين ليزدادوا بذلك شرفاً أنهم موضع سرِّ رسول الله ، وأنه يخصّهم بكلام غير الكلام العام .

فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يحد من هذه الظاهرة ، كيف ؟ بفرض هذه الصدقة كأنها رسوم لمناجاة رسول الله ، لا يأخذها رسول الله وإنما تقدّم للفقراء صدقة ، فلما نزلت هذه الآية ضَنَّ هؤلاء الذين كانوا يسارعون إلى رسول الله بهذا القصد فلم يعودوا للمناجاة .

إذن : كان المقصود من هذه الصدقة مجرد الحدّ من الأعداد الكثيرة التى كانت تتزاحم إلى مجلس رسول الله ، مثل الطبيب المشهور حينما يُضطر لأنْ يرفع قيمة الكشف لا لشىء إلا ليقلل أعداد المرضى الذين يترددون عليه .

ومعنى : ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً .. (١٢) ﴾ [المجادلة] أى : قبل المناجاة لا عندها ، كما فى قوله تعالى :﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ (٦) ﴾ [المائدة] ونحن لا نتوضأ عندما نقوم للصلاة ، إنما نتوضأ قبلها .

وهؤلاء الذين ضنُّوا بالصدقة على الفقراء ضنُّوا بها لأن المال

عندهم أهم من أنْ يزدادوا شرفاً بمناجاة رسول الله ، فالحق سبحانه وتعالى فضح ما فى نفوسهم . بقوله : ﴿ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً .. (١٢) ﴾ [المجادلة]

ذلك لأن وقت سيدنا رسول الله ﷺ كان موزّعاً إلى نواحٍ شتى ويجلس ﷺ للجميع ولا يريد أنْ يحتكره أحد للمناجاة ، لأن وقته يضيق عن مثل هذا ، بل ويضيق صدره من هذه المسألة لأن المطلوب منه كثير ، فله وقته مع الله ، ووقته مع أهله ، ووقته مع الخاصة ، ووقته مع العامة .

وقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ .. (١٢) ﴾ [المجادلة] أى : تقديم الصدقة قبل المناجاة ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ .. (١٢) ﴾ [المجادلة] أى : أطهر لقلوبكم ، وقوله :﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [المجادلة] دل على أن المسألة ليست فرضاً .

﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ج(١)
فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ
بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ﴾

(١) أخرج ابن حبان فى صحيحه عن على بن أبى طالب قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ..(١٢) ﴾ [المجادلة] قال النبى ﷺ لعلى : يا على مُرْهُم أن يتصدقوا . قال : يا رسول الله بكَمْ ؟ قال : بدينار . قال : لا يطيقونه . قال : فبنصف دينار . قال : لا يطيقونه . قال : فبكَمْ ؟ قال : بشعيرة فقال النبى ﷺ لعلى : إنك لزهيد . قال : فأنزل الله ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ..(١٣) ﴾ [المجادلة] فكان علىّ يقول : بى خُفِّفَ عن هذه الأمة .

لمَّا لم يقدِّموا الصدقة وضنُّوا بها كشفهم الله لرسوله ﷺ ، فقال : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ .. (١٣) ﴾ [المجادلة] أى : خفتم الفقر فلم تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا .. (١٣) ﴾ [المجادلة] لم تذهبوا لمناجاة رسول الله ، وكأنه يقول لهم : لقد ارتحنا منكم ومن مجيئكم عند رسول الله .

إلا الإمام على لما نزلت الآية تأمر بتقديم الصدقة . قال : لقد فعلتُ شيئاً ما فعله أحد قبلى ولا بعدى ، كان عندى دينار فاشتريتُ به دراهم ، وكنت كلما أردتُ الذهاب إلى مجلس رسول الله تصدَّقت بدرهم .

وبعد أنْ نزلت الآية ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ..(١٣) ﴾ [المجادلة] وألغتْ هذه المسألة ظل الإمام على يتصدّق بعدها ، لذلك قال : فعلتُ شيئاً لم يفعله أحد قبلى ولا بعدى[(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .. (١٣) ﴾ [المجادلة] أى : أعفاكم من تقديم هذه الصدقة ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (١٣) ﴾ [المجادلة] يعنى : ما عليكم إلا أنْ تؤدوا ما فرضه الله عليكم من طاعة أوامر الله وطاعة أوامر رسول الله ويكفيكم هذا .

﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ﴾ [المجادلة] والخبير هو العالم ببواطن الأمور ، الذى لا تَخْفى عليه خافية ، وكأنه يقول لنا : ما دُمْـتم لم تكلفوا إلا بالفرائض فأدّوها بإتقان وإخلاص ، فكأن هذا الإتقان للعبادة وهذا الإخلاص فيها (عربون) للمناجاة وبدلاً للصدقة التى أعفاكم الله منها .

(١) عن علىّ بن أبى طالب قال : إن فى كتاب الله لآية ما عمل بها أحد ولا يعمل بها أحد بعدى (آية النجوى) قال : كان عندى دينار فبعته بعشرة دراهم فناجيت رسول الله ، فكنت كلما ناجيت النبى ﷺ قدَّمت بين يدى نجواى درهماً ثم نسخت فلم يعمل بها أحد فنزلت : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ..(١٣) ﴾ [المجادلة] الحاكم فى المستدرك (٣٧٥٣) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

ولا يغيب عن بالكم أن الله الذى كلفكم خبير بأعمالكم ، لذلك فى وصاياه ﷺ لسيدنا أبى ذر رضى الله عنه قال له : « وأخلص العمل فإن الناقد بصير »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :[2]

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

الحديث هنا عن موالاة المنافقين لليهود ، يقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ ..﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة] يا محمد ﴿ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ..﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة] أى : المنافقين تولوا الذين غضب الله عليهم وهم اليهود ، يعنى اتخذوهم أولياء يناصرونهم .

﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ ..﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة] أى : ما هم من المؤمنين ﴿ وَلَا مِنْهُمْ ..﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة] ولا من اليهود . وفى سورة الفاتحة قال

(١) رُوى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر بعيد ، وأقل من الحمولة فإن الطريق مخوف ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير » ذكره ابن حجر الهيتمى فى الزواجر عن اقتراف الكبائر (٥١/١) وقال : روى الشيخ نصر المقدسى إمام الشافعية فى زمنه عن أبى ذر أنه قال : أوصانى حبيبى رسول الله بأربع كلمات هن أحبُّ إلىَّ من الدنيا وما فيها . ولكن ذكره التسترى فى تفسيره (٤٠٤/١) وعزاه لأبى الدرداء .

(٢) سبب نزول الآية : قال السدى ومقاتل : نزلت فى عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس النبى ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، فبينا رسول الله ﷺ فى حجرة من حُجره إذ قال : يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعينى شيطان ، فدخل عبدالله بن نبتل وكان أزرق ، فقال له رسول الله ﷺ : علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ذلك ، فقال له النبى ﷺ : فعلت ، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

تعالى : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة] قالوا : هم اليهود .

وسبق أنْ بيَّنا أن النفاق لم يظهر فى مكة إنما ظهر فى المدينة ، وهذه ظاهرة صحية تدل على قوة الدين ، فلا يُنافَق إلا القوى فالإسلام فى مكة كان ضعيفاً لا يضطر أحد إلى أن ينافقه .

أما فى المدينة فقد قويتْ شوكته ، وأصبح له مكانة بين الناس ، لذلك ظهر النفاق هناك ، وكان عبد الله بن أُبىّ أُسَّ المنافقين فى مدينة رسول الله ، ذلك لأنهم كانوا يعدون له التاج ليُنصِّبوه ملكاً عليهم[1] .

فلما جاء رسول الله المدينة قضى على منزلة عبد الله بن أُبىّ وانصرف الناس عنه ، فظلت هذه فى نفس ابن أُبىّ فأظهر الإسلامَ ليتمتع بمزاياه وأبطن الكفر والنفاق ، أما ابنه عبد الله فقد أسلم وحَسُن إسلامه وأخلص فيه ، وكان فى أشد الحزن لنفاق والده .

ويُروى أن عبد الله ذهب إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله أعطنى بقية من الماء الذى تشرب منه لأسقيها لأبى ، لعلّ الله أن يطهر بها قلبه من هذا النفاق ، فلما أخذ بقية الشربة وذهب بها إلى أبيه ، فقال : اشرب هذا يا أبى . فقال : وما هذا ؟ قال : هذا بقية شراب رسول الله ، فقال : ائتنى ببول أمك ، يقصد أن بول أمك

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (١٤٠٣) أن رسول الله ﷺ راح مهجراً فى ساعة كان لا يروح فيها فلقيه أسيد بن حضير فسلم عليه بتحية النبوة ثم قال : والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فيها . فقال رسول الله : أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبى زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيُخرج الأعز منها الأذل . قال : فأنت والله يا رسول الله العزيز وهو الذليل ثم قال : يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإنَّا لننظم الخرز لنتوِّجه ، فإنه ليرى أن قد استلبته مُلْكاً » الحديث . ومثله عند السهيلى فى الروض الأنف (٢١/٣) ولكن مع سعد بن عبادة .

أفضل منه .[١]

فغضب عبد الله وذهب إلى رسول الله فقال : يا رسول الله إن أبى كما تعلم وأعلم ، وأنا أخشى أنْ يزداد عليه حفيظة أحد المؤمنين فيقتلونه ، فإنْ كان ولا بد ذلك تأمرنى فأقتله حتى لا أجد على قاتل أبى شيئاً فى نفسى ، فقال له رسول الله ﷺ : ارفق به[٢] وكان بعد ذلك يكرم ابن أُبىّ لأجل ابنه عبد الله .

إذن : ظهرت قوة الإسلام وقوة العقيدة فى نفوس أتباع محمد فى المدينة بشكل لم يشهد التاريخ مثله ، ولك أنْ تتأمل قول عبد الله لرسول الله : دَعْنى أقتله . ولك أنْ تتأمل ما كان من المهاجرين والأنصار من مؤاخاة بلغت إلى أنْ يقول الرجل الأنصارى لأخيه المهاجر : عندى كذا من النساء فانظر أيتهن أعجبتك أطلقها وتتزوجها أنت .

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر من طريق الحكم عن عكرمة أن عبد الله بن أبى بن سلول كان له ابن يقال له حباب ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله وأنه جاء رسول الله فقال : يا رسول الله إن والدى يؤذى الله ورسوله فذرنى أقتله فقال له رسول الله ﷺ : لا تقتل أباك . فقال : يا رسول الله فذرنى حتى أسقيه من وضوئك لعل قلبه يلين فتوضأ رسول الله وأعطاه فذهب به إلى أبيه فسقاه ثم قال له : هل تدرى ما سقيتك ؟ فقال له والده : سقيتنى بول أمك ، فقال له ابنه : والله ولكن سقيتك وضوء رسول الله وقد أخرجه أيضاً عبد الرزاق فى مصنفه (٦٦٢٧) وكذا الطبرى فى تفسيره (المنافقون ٨) .

(٢) ذكر السهيلى فى الروض الأنف (٤/ ٣٥٠) أن عبد الله بن عبد الله بن أبى بلغه مقال عمر ابن الخطاب (يا رسول الله مُرْ عباد بن بشر فليأتك برأسه) فجاء عبد الله إلى رسول الله فقال : يا رسول الله إن كنت تريد أن تقتل أبى فيما بلغك عنه فمرنى به ، فوالله لأحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، والله لقد علمتْ الخزرج ما كان فيها رجل أبر بوالديه منى وما أكل طعاماً منذ كذا وكذا من الدهر ولا شرب شراباً إلا بيدى وإنى لأخشى يا رسول الله أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأدخل النار وعفوك أفضل ومنُّك أعظم . فقال رسول الله ﷺ : يا عبد الله ما أردت قتله ولا أمرت به ولنحسنن له صحبته ما كان بين أظهرنا » الحديث .

ومعلوم أن الإنسان يمكن أنْ يجامل بكل ما يملك إلا المرأة ، فهذه حالة من الإيثار لم يشهد لها التاريخ مثالاً ، لذلك قال تعالى عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[١] (٩) ﴾ [الحشر]

إذن : موالاة المنافقين لليهود شكلتْ جبهة ضد المسلمين ، فكان المنافق يخالط المسلمين وربما يصلى فى الصف الأول ثم يخرج فينقل أخبارهم إلى اليهود .

ومن هنا تأتى خطورة النفاق والمنافقين ، فهم أشدُّ خطراً من الكفار ومن اليهود ، لأن الكافر واليهودى عدو ظاهر العداوة ، والمنافق عداوته مستترة ، لذلك جعلهم الله تعالى فى الدرْك الأسفل من النار .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) ﴾ [المجادلة]

يعلمون أنهم كاذبون ، ويعلمون أن الله يُطلع رسوله على ما يدور فى نفوسهم وخواطرهم ، ولو كان عندهم نباهة لعلموا أنه ﷺ موصول بالسماء فآمنوا به وصدَّقوه .

والعجيب أنهم يحلفون على الكذب فى الدنيا ويكذبون على بعض ، وأيضاً يحلفون على الكذب فى الآخرة كما أخبر الله عنهم : ﴿ وَاللَّهِ

---

(١) خصاصة : فاقة وحاجة . يقول : ولو كان بهم حاجة وفاقة إلى ما آثروا به من أموالهم على أنفسهم . قاله الطبرى فى تفسيره وقال ابن كثير : أى يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدأون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك .

رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنعام] وقال : ﴿ يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ[١] الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الواقعة] يريدون أنْ يكذبوا على الله فى الآخرة ، وهنا يخبرنا بما ينتظرهم من الجزاء :

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

نعم أعدّ الله لهم - أى للمنافقين - عذاباً شديداً أشدّ وأعظم من عذاب الكافرين ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء]

﴿ **إِنَّهُمْ سَاءَ ..** ﴿١٥﴾ ﴾ [المجادلة] أى : قَبُح ﴿ **مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿١٥﴾ ﴾ [المجادلة]من إظهار الإيمان وإخفاء الكفر .

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يفضحهم ويكشف ألاعيبهم ، فهناك قال عنهم : ﴿ **وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ ..** ﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة] يحلفون أنهم ليسوا منافقين ، وهنا قال : ﴿ **اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ..** ﴿١٦﴾ ﴾ [المجادلة] الأيمان

---

(١) الحنث : فيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه الشرك . قاله ابن عباس والحسن والضحاك وابن زيد .

والثانى : الذنب العظيم الذى لا يتوبون منه ، قاله مجاهد .

والثالث : اليمين الغموس . قاله الشعبى .

والرابع : الشرك والكفر بالبعث . قاله الزجاج .

جمع يمين وهو الحلف ، فالحلف والأيمان وسيلة من وسائل الخداع التى يُجيدونها ويستترون خلفها .

﴿ جُنَّةً .. ﴿١٦﴾ ﴾ [المجادلة] الجُنّة هى الوقاية كأنهم اتخذوا الحلف مِجَناً يحتمون به كما يحتمى المقاتل خلف المجنّ أو الدرع .

ومادة (جنَّ) تعنى الستر والإخفاء ، ومنها (جن الليل) أى : أظلم وجُنَّ الإنسان ذهب عقله ، و(الجنينة) التى تستر مَنْ يسير بداخلها ، والدرع الذى يحمى صدر الجندى اسمه المجن ، ومنه قول الشاعر[١] :

وَكَانَ مجنيِّ دُونَ مَنْ كنتُ أَتَّقِى ... ثَلاثَ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ وَمُعْصِر[٢]

لذلك سيدنا علىّ رضى الله عنه اتخذ باب حصن خيبر مجناً له فى حرب خيبر ، والمجنّ يقى الصدر لا الظهر ، لذلك قال : « والله لا سلمتُ إنْ أسلمتُ ظهرى »[٣] .

---

(١) الشاعر هو عمر بن أبى ربيعة المخزومى القرشى أبو الخطاب ، ولد ٢٣ هـ ، أرق شعراء عصره من طبقة جرير والفرزدق ، ولد فى الليلة التى توفى فيها عمر بن الخطاب فسُمى باسمه ، له ديوان شعر ، توفى ٩٣ هـ فى غزوة فى البحر [موسوعة الشعر العربى]

(٢) البيت من قصيدة لعمر بن أبى ربيعة من بحر الطويل أولها :

أمن آل نُعم أنت غاد فمبكر ... غداة غد أم رائح فمهجِّر

من قصيدة عدد أبياتها ٦٩ بيتاً . وقد أخذ هذا البيت الشاعر جحظة البرمكى (توفى ٣٢٤ هـ) ووضعه فى قصيدة له من بحر الطويل أيضاً .

(٣) ذكر العصامى فى (سمط النجوم العوالى) (ص ٨٢١) أن على بن أبى طالب قلع باب خيبر وحمله واتخذه مجناً له رغم أن الباب لم يستطع حمله أربعون رجلاً فيما بعد . وقد ذكره الشامى فى (سبل الهدى والرشاد) عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ قال : خرجنا مع على بن أبى طالب حين بعثه رسول الله برايته ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده فتناول على باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله تعالى عليه ثم ألقاه من يده حين فرغ فلقد رأيتنى فى نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فلم نقلبه .

كذلك حال المنافقين اتخذوا أيمانهم الكاذبة جُنَّة تقيهم وتستر كفرهم ليعيشوا بين المسلمين لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، نحميهم ونحافظ على أموالهم إذن : خدعوا المؤمنين حينما أعلنوا إسلامهم وأبطنوا الكفر .

لكن ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء] ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال] يعنى : إنْ انتفعتم بالنفاق فى الدنيا وأخذتم به عرضاً زائلاً فسوف تجدون عاقبته فى الآخرة .

﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [المجادلة] صدّوا غيرهم عن سبيل الله فيتحملون وزرهم ووزر مَنْ صدُّوهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [المجادلة] العذاب المهين هو العذاب الذى يُذلهم ويُخزيهم .

وهكذا جمع الله عليهم كل ألوان العذاب ، فمرة قال : عذاب شديد ، وعذاب عظيم ، وقال : عذاب أليم وعذاب مهين . وكل هذا جزاءً وفاقاً لما أضرّوا بدعوة الإسلام وآذوا المسلمين ونافقوهم .

﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

أى : أموالهم التى نافقوا لحمايتها وأولادهم الذين نافقوا لحمايتهم ونجاتهم ، كلٌّ هؤلاء لن ينفعوهم ولن يدفعوا عنهم ألوان العذاب الواقع بهم .

﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [المجادلة] فهم والنار أصدقاء

لأنهم مُصاحبون لأسبابها ، عاشقون للذنوب التى تُوقعهم فيها ، فبينهم وبين النار مصاحبة ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [المجادلة] باقون فيها أبداً لا يفارقونها ولا تفارقهم .

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يعنى : عقدت ألسنهم على الكذب فلا يعرفون غيره ، كما كانوا يكذبون عليكم فى الدنيا يحلفون لكم أنهم ليسوا منافقين ، كذلك فى الآخرة سيحلفون لله ، كما حكى عنهم سبحانه : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنعام] وهذا أمر فى غاية العجب حتى فى الآخرة .

وبعد أنْ عاينوا الحق الذى أنكروه وعرفوا أن الله حقٌّ يكذبون عليه .

وكلمة (جميعاً) يعنى يوم القيامة يبعث الله اليهود والمنافقين الذين تولوهم يبعثهم معاً ، فمصيرهم واحد ، فقد كانوا فى الدنيا يُوالونهم ويناصرونهم ومَنْ أحب قوماً حُشر معهم[١] .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يُسلِّى رسول الله ﷺ ويُطمئنه ، فيقول له : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [المجادلة] يعنى : يا محمد انتظر هذا اليوم وسترى كيف أن الله يجازيهم بما يناسبهم .

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٥٧٠٣) عن عبد الله بن مسعود قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف تقول فى رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم ؟ فقال رسول الله : « المرء مع من أحب » . وكذا مسلم فى صحيحه (٤٧٧٩) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) ﴾ [المجادلة] أى : يظنون أنهم على شىء من الحق والصواب .

﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) ﴾ [المجادلة] فهم يظنون ذلك لكن انتبه فالحقيقة أنهم كاذبون . وكلمة ﴿ أَلا .. (١٨) ﴾ [المجادلة] تفيد التنبيه للحكم بعدها ، يعنى : لا يغب عن أذهانكم أن هؤلاء كاذبون مخادعون .

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾

أى : فعلوا ذلك ونافقوا لأن الشيطان ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ .. (١٩) ﴾ [المجادلة] استولى على كل خواطرهم وعلى كل أفكارهم ، لذلك ﴿ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ .. (١٩) ﴾ [المجادلة] فهذه مهمته التى أقسم عليها فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

وقال : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] يعنى : أقعد لهم فى طريق الطاعة لأفسدها عليهم ، لذلك قلنا إنه لا يذهب إلى الخمارة إنما يذهب إلى المسجد ليفسد على أهل الطاعة طاعتهم ، إذن : ما يأتيك فى الصلاة وسوسة شيطان ، وما عليك إلا أنْ تقول كما علَّمك الله : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (١٦) ﴾ [فصلت]

﴿ أُولَٰئِكَ .. (١٩) ﴾ [المجادلة] أى : المنافقون ﴿ حِزْبَ الشَّيْطَانِ

.. (١٩) ﴾ [المجادلة] وأيضاً تأتى (ألا) للتنبيه يعنى : انتبه إلى هذا الحكم ﴿ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾ [المجادلة] كلمة حزب من قولنا حزبه الأمر يعنى شغله وهمَّه ولا يقدر أنْ يدفعه عن نفسه.

فالحزب كلمة تطلق على كل جماعة تمالئوا على رأى واجتمعوا عليه ويخدمون هذا الرأى ويدعون إليه . لذلك سمَّى المؤمنين (حزب الله) وسمَّى الكافرين والمنافقين (حزب الشيطان) ، وحكم على حزب الله فقال : ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) ﴾ [المائدة] وقال فى حزب الشيطان ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾ [المجادلة]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) ﴾

قلنا : معنى ﴿ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٢٠) ﴾ [المجادلة] أى : يجعلون أنفسهم فى جانب ، والله ورسوله فى جانب فينفصلون عن الله ، والحدّ هو الفاصل بين الشيئين لمستحقين مختلفين .

﴿ أُولَٰئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (٢٠) ﴾ [المجادلة] جمع أذل ، فما دام العبد قد انفصل عن ربه فلا بدّ أنْ يذلّ وأنْ يُهانَ ، لأن عزّ الإنسان بربه حتى ولو كان كافراً ، لأن الله يرزق المؤمن ويرزق الكافر لأن الجميع عباده قد استدعاهم جميعاً لهذه الحياة ، لذلك تكفل برزقهم جميعاً .

تذكرون قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - لما جاءه ضيف

يطرق بابه ليلاً فسأله عن دينه ، فقال : أنا مجوسى فسدَّ الباب فى وجهه فانصرف الرجل ، وعاتب اللهُ تعالى نبيه إبراهيمَ فى شأن هذا الضيف ، فقال له : يا إبراهيم أسعه فى مُلْكى رغم كفره بى ، وأنت تريد منه أنْ يغير دينه لضيافة ليلة .

فأسرع سيدنا إبراهيم فى طلب الرجل حتى أدركه ودعاه إلى ضيافته ، فقال له : لقد جئتُ إليك فطردتنى ، فقال : ولكن ربى عاتبنى فيك ، فقال الرجل : عاتبك فىَّ أنا ؟ نعْم الرب الذى يعاتب أحبابه فى أعدائه ، ثم شهد ألا إله إلا الله .

وقوله سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) ﴾ [المجادلة] معنى ﴿ كَتَبَ اللَّهُ .. (٢١) ﴾ [المجادلة] أى : حكم وقضى ، والكتابة تعنى تسجيل الأمر تسجيلاً يضمن له البقاء ، فالغلبة لله ولرسل الله أمر وحكم قضاه الله وسجّله ، فلا مردّ له ولا رجعة فيه ، ولا يستطيع أحدٌ أنْ يحول بين الله وبين تنفيذ أحكامه وإبرام قضائه .

لذلك سمّى القرآن الكريم كتاباً لأنه مُسطَّر مكتوب ليكون باقياً خالداً مكتوباً فى السطور ، وسُمِّى قرآناً لأنه يُقرأ ويُحفظ فى الصدور .

والغلبة لله تعالى لأنه قوىٌّ بذاته سبحانه ، والغلبة للرسل بما منحهم من قوته تعالى وتوفيقه وقدرته ، فهم عباده وسفراؤه إلى خَلْقه ، فكيف يسلمهم أو يتخلَّى عنهم ؟

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] أيُعقل أنْ

يرسل الله رسولاً بمنهجه تعالى ودينه الذى ارتضاه ثم يتركه لينتصر عليه أهل الباطل ؟

كيف وما أرسل الرسولُ إلا لإقامة منهج الله والقضاء على الباطل الذى استشرى فى قومه : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف]

إذن : غلبة الحق وانتصاره على الباطل سُنَّة من سنن الله فى كونه ، فما لنا الآن نرى الباطل ينتصر على الحق ؟ قلنا : إذا رأيتَ أهل الإيمان ينهزمون أمام أهل الكفر فاعلم أن العلة فيهم لأنهم خالفوا شروط الجندية التى تضمن لهم النصر .

وقد رأينا هذه المسألة قديماً فى غزوة أحد لما خالف الرماة أوامر القائد فكان لا بد أنْ يتفوّق عليهم أعداؤهم[1]، كذلك رأيناها كثيراً فى العصر الحديث .

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يقرر هذه الحقيقة وأنْ يُرسِّخها فى نفوس المؤمنين ليزدادوا ثقة فى نُصْرة الله لهم ، فقوله تعالى ﴿ لَأَغْلِبَنَّ .. (٢١) ﴾ [المجادلة] اللام للقسم وللتوكيد كأنه سبحانه يقسم ويقول : وعزتى وجلالى لأغلبن أنا ورسلى ، ثم النون المشددة ﴿ لَأَغْلِبَنَّ .. (٢١) ﴾ [المجادلة]

---

(١) عن البراء بن عازب قال : لقينا المشركين يوم أحد وأجلس النبى ﷺ جيشاً من الرماة وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال : لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا ، فلما لقينا (المشركين) هربوا .. فأخذوا يقولون الغنيمة فقال عبد الله : عهد إلىَّ النبى ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً . الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٧٣٧) وأبو داود فى سننه (٢٢٨٨) وأحمد فى مسنده (١٧٨٥٣) .

ثم أكّد الضمير المستتر فى (لأغلبن) بالضمير المنفصل (أنا) كذلك أكّد الكلام بأكثر من مؤكد فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) ﴾ [المجادلة] فهذه علة الغلبة أنه سبحانه هو القوى الذى يغلب بذاتية قوته ، وهو سبحانه (العزيز) أى الذى لا يُغلب . ولو شاء سبحانه لانتصر منهم وأخذهم أخْذ عزيز مقتدر ، ولكن يريد أنْ يكون لكم أيها المؤمنون شرفُ الانتصار عليهم : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) ﴾ [التوبة]

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ(١) أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾

(لا) هنا نافية تعنى أنك أبداً لا تجد أهل الإيمان يُوادّون ويُوالون أهل الكفر والنفاق الذين يُحادون الله ورسوله ، لأن هذين

(١) عشيرتهم : عشيرة الرجل أهله الأدنون . وهو من العِشْرة أى الصحبة لأنها من شأن القربى .. وقيل من العشرة العدد المعروف وسُميت العشيرة بذلك لكمالهم لأن العشرة عدد كامل .

طرفان نقيضان لا يلتقيان . فمعنى ﴿ يُوَادُّونَ .. (٢٢) ﴾ [المجادلة] يعنى : من المودة والمحبة وهى أمر قلبى .

وقلنا ﴿ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٢٢) ﴾ [المجادلة] جعل نفسه فى جانب ، والله ورسوله فى جانب ، فحرَم نفسه من صلته بالله وقُربه منه سبحانه ، وهذه صفة الكفار والمنافقين .

وهذه من الآيات التى تمحَّك عندها المستشرقون الذين يتلمسون الخطأ فى كلام الله ، قالوا : كيف نجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا (١٥) ﴾ [لقمان]

فالأولى تأمر بعدم مودتهم ، وهذه تأمر بمصاحبتهم بالمعروف .

وهذه الشبهة ناتجة عن عدم فهمهم لمعانى القرآن وعدم تذوقهم للغة ، ففرق بين المودة والمصاحبة بالمعروف : المودة محبة قلبية ووُدّ ، وهذه لا تكون إلا من المؤمن لأخيه المؤمن ، أما المعروف فخير تقدمه لكل الناس للمؤمنين وللكافرين وجميل تُسديه للوالدين حتى إنْ كانا كافرين لأنهما أولاً سبب وجودك المباشر واحترامهما رياضة لك على احترام سبب وجودك الأعلى ، وهو الحق سبحانه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦) ﴾ [النساء] ومع ذلك ليس لهما الحق فى مودتك ومحبتك ، لأن اختلاف العقيدة واختيارهما لمحادة الله يحرمهما هذه المودة من الأبناء ، إذن العلاقات هنا ليست علاقة الدم والنسب ، إنما علاقة الدين والإيمان .

لذلك جاء هذا الحكم عاماً مهما استقرأت من علاقات فلن تجد أبداً

قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ومع هذا الإيمان يُوادون مَنْ حادَّ الله ورسوله ، هذه لا وجود لها ، ولو كان الذى حَادَّ الله ورسوله ﴿آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ..(٢٢)﴾ [المجادلة] فجمع كل مراتب ودرجات القرابة ، والعشيرة هم المعاشرون للإنسان غير هؤلاء المذكورين .

ثم يصف الحق سبحانه وتعالى أهل الإيمان الذين ينطلقون فى علاقاتهم من منطلق الإيمان بالله ولا يقدمون عليه أحداً مهما كان ، يصفهم بقوله تعالى : ﴿أُولَـٰئِكَ .. (٢٢)﴾ [المجادلة] أى : هؤلاء المؤمنون ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ..(٢٢)﴾ [المجادلة] يعنى : ثبَّته فى قلوبهم فلا يفارقهم ، وأيضاً ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ..(٢٢)﴾ [المجادلة] ليست هى الروح الأولى سبب الحياة ، إنما يؤيد إيمانهم بروح أخرى منه سبحانه ، روح خاصة من نوره تعالى وتوفيقه .

ومن ذلك قوله تعالى فى العبد الصالح : ﴿وَآتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾ [الكهف] يعنى : زيادة عن كيس الرسالة ، ومنه قوله سبحانه : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ..(٢٩)﴾ [الأنفال]

يعنى : إن تتقوا الله بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه التى جاءت فى القرآن يزيدكم فرقاناً آخر ، يعنى نوراً من عنده تعالى وإشراقاً خاصاً تفرِّقون به بين الحق والباطل ، فهذه تجليات خاصة من الله لأهل الإيمان ، لذلك قال العبد الصالح : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى .. (٨٢)﴾ [الكهف]

إذن : هناك روح للمادة تحيا بها الأجساد ، وهى الروح التى نفخها الله تعالى فى آدم وهو ما يزال فى مرحلة الطين ، وهناك روح للقيم وللمعنويات ، روح تحيا بها القلوب ، وهذه التى قال الله فيها : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ..(٥٢)﴾ [الشورى]

لذلك وقف المستشرقون أيضاً عند قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال] فقال : كيف يخاطبهم بهذا وهم أحياء بالفعل ؟ نقول : يحييكم أى حياة القلوب وحياة القيم ، لذلك قال سبحانه : ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

ثم يذكر جزاء هؤلاء : ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ..(٢٢)﴾ [المجادلة] فيُدخلهم الجنات التى هذه صفتها لأنه رضى عن كل أفعالهم ، ومَنْ رضى الله عنه أحلَّ عليه رضوانه فلا يسخط عليه أبداً ، وهذا الرضوان فضل من الله وزيادة بعد ما نالوه من نعيم الجنة .

وقد ورد فى الحديث القدسى بعد أن يُدخلهم الجنة ويرونَ من ألوان النعيم ما لا يتصورون فوقه يخاطبهم الحق سبحانه وتعالى ويقول لهم : « اليوم أُحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبداً »(١)

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٦٧ ، ٦٩٦٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٧) من حديث أبى سعيدَ الخدرى أن النبى ﷺ قال : إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يارب وأى شىء أفضل من ذلك فيقول : أحلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ..(٢٢) ﴾ [المجادلة] رضوا عن عطائه وفضله ، أو رضوا عنه فرضى عنهم وهذا الكلام أزلاً .

وكلمة ﴿ جَنَّاتٍ ..(٢٢) ﴾ [المجادلة] جمع تعنى أن المؤمن فى الآخرة له أكثر من جنة ، بدليل قوله تعالى فى سورة الرحمن : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ [الرحمن] وقالوا : جنات لأنه تعالى يخاطب متعددين فكل واحد منهم له جنة ، أو لأنه سبحانه يخاطب الثقلين الجن والإنس ولكلّ جنة .

﴿ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ..(٢٢) ﴾ [المجادلة] هناك قال فى الكفار والمنافقين ﴿ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ .. (١٩) ﴾ [المجادلة]

وحكم عليهم : ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾ [المجادلة] وهنا يتكلم عن أهل الإيمان ﴿ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ..(٢٢) ﴾ [المجادلة] وحكم عليهم ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [المجادلة]

ولك أنْ توازن بين الحزبين وأنْ تفرق بين الفريقين ، هناك خسارة وهنا فلاح ، فحزب الله هم الذين تحزّبوا لمنهج الله اجتمعوا عليه وناصروه وأيدوه وحملوا رايته ودافعوا عنها .

واستخدم هنا أيضاً أداة التنبيه (ألا) يعنى انتبه لهذا الحكم لا تنسَه ولا تغفل عنه ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [المجادلة] من الفلاح وفلاحة الأرض لما نحرثها ونعدها للزراعة ، هذا فلاح لاستبقاء الحياة المادية ، وهذا فلاح استبقاء نعيم الحياة الأخرى .

سُورَةُ الحَشْرِ

سورة الحشر(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) ﴾

أولاً نلاحظ الترابط بين أواخر سورة المجادلة وسورة الحشر ، ففى آخر المجادلة حدثتنا الآيات عن حزب الشيطان فقال ﴿ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾ [المجادلة] ثم حدثتنا عن حزب الله فقال سبحانه : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [المجادلة]

وهنا أراد الحق سبحانه وتعالى أنْ يعطينا نموذجاً تطبيقياً لكل من الحزبين ومثال عملى لهذه النظريات فى قوم كانوا من حزب الشيطان ماذا فعلوا ، وقوم كانوا من حزب الله ماذا فعلوا .

فقال سبحانه : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحشر]

وهذه الآية لها متشابهات ، ففى سورة الحديد قال سبحانه : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحديد] بدون ذكر (ما) والفرق بينهما أن تكرار الاسم الموصول (ما) يعنى أن لله جنوداً

---

(١) سورة الحشر هى السورة رقم (٥٩) فى ترتيب المصحف الشريف وهى سورة مدنية ، كان ابن عباس يسميها (سورة بنى النضير) لأنها نزلت فيهم . عدد آياتها ٢٤ آية ، نزلت بعد سورة البينة وقبل سورة (إذا جاء نصر الله) .

فى السموات فقط وجنوداً فى الأرض فقط ، وهناك جنود لله فى السموات وفى الأرض معاً .

فقوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الحديد] يعنى الجنود المشتركين معاً فى خدمة السموات والأرض ، وحين يقول : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾[الحشر] يريد ملائكة السموات وحدها ، وملائكة الأرض وحدها .

وهذا يعنى أن كل شىء فى الكون مُسبِّح لله ، قال سبحانه :﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ..﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] يعنى : ما من شىء فى الكون إلا وهو مُسبِّح لله ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

وهذا يعنى أن التسبيح من المخلوقات كلها تسبيح على وجه الحقيقة لا تسبيح دلالة كما يقول بعض المفسرين(١) ، ولو كان تسبيح دلالة ما قال سبحانه : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..﴿٤٤﴾ ﴾[الإسراء]

فكل شىء فى الكون إذن يسبِّح الله بلغته ، ونحن لا نفهم هذه اللغات ، فلكل جنس من المخلوقات لغته التى يتفاهم بها . ألم تقل النملة : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ..﴿١٨﴾ ﴾ [النمل] وقد سمع سليمان هذا القول وفهمه بما منَّ الله عليه من الفهم .

---

(١) أشهر من قال بأن تسبيح الكائنات هو تسبيح دلالة لا تسبيحاً حقيقياً هو الزمخشرى فى تفسيره الكشاف فى الآية ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] ، وهو معتزلى ، قال: « المراد أنها تسبِّح له بلسان الحال حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته فكأنها تنطق بذلك » ، ولكن الآية نفسها ترد عليه ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهوماً لكل أحد .

والهدهد قال ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النمل] وكان يفهم قضية التوحيد فهماً جيداً حينما قال : ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل]

وقال سبحانه عن الجماد : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء] إذن : هو تسبيح حقيقى بلغة منطوقة يفهمها مَنْ أعطاه الله هذا الفهم .

ومعنى التسبيح تنزيه الله التنزيه المطلق فى ذاته فليستْ ذاته كالذوات ، وتنزيه الله فى صفاته فليست صفاته كصفات غيره ، وتنزيه الله فى أفعاله فليس فعله كفعل غيره .

ولا بد أن نأخذ كل هذه المسائل فى إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ..﴿١١﴾ ﴾ [الشورى] وأن له سبحانه الكمال المطلق ، فإذا قرأنا مثلاً : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ.. ﴿٤﴾ ﴾ [الحديد] لا نقول : جلس أو استقر كجلوسنا ، إنما استوى استواءً يناسب جلاله سبحانه .

وإذا قرأتَ ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] لا تقل هذا فوق طاقة وقدرة البشر ، لأن محمداً ما أسرى بقوته البشرية ، إنما أُسْرِى به ، وفعل الله تعالى ليس كفعل الخلق ولا قوته كقوتهم .

ومادة سبّح وردت فى القرآن بمشتقاتها المختلفة فى أكثر من ١٧٩ موضعاً ، وردت بالاسم سبحان مضافاً إلى الاسم الظاهر مثل :

سبحان الله وسبحان الذى ، ومضافاً إلى ضمير الغائب سبحانه ، ومضافاً لكاف الخطاب سبحانك ، ووردت بصيغة الفعل الماضى سبّح ، والمضارع يسبح ، والأمر سبّح .

قوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ① ﴾ [الحديد] أى قبل أنْ يخلق الله الإنسانَ المسبِّح ، فلما خلق الإنسان سبح ، فقال تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. ① ﴾ [الحشر] سبح الإنسان ولا يزال يُسبِّح إلى قيام الساعة .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① ﴾ [الحشر] العزيز هو الشيء النادر الذى لا مثيل له ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ⑰ ﴾ [فاطر] ومن معانيها أنه الغالب الذى لا يُغلب .

والحكيم الذى يضع الشيء فى موضعه الذى يناسبه بدقة وإحكام ، فالله تعالى حكيم فى خَلْقه ، حكيم فى إرادته وقضائه وقدره . مثلاً انظر إلى الشعر فى جسم الإنسان تجد شعراً يُحلَق وشعراً يُقص وشعراً آخر لا يُحلق ولا يُقص كشعر الحاجب وشعر الرموش ، لأنه خلق لحكمة لا يستقيم معها أن نقصّه ، فالحكمة منه حماية العينين من ذرات التراب فلا يُحلق ولا يُقص .

انظر كذلك إلى درجة حرارة جسم الإنسان تجدها تعتدل عند ٣٧° والجسم يحتفظ بها عند هذه الدرجة ، فالإنسان عند خط الاستواء درجة حرارته كالذى يعيش عند القطب المتجمد ، بل الإنسان فى نفسه ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ㉑ ﴾ [الذاريات]

تجد فى الجسم الواحد عضواً حرارته ٤٠° وعضواً آخر فى نفس الجسم حرارته ٩° هو العينان ، ولا يحدث بينهما استطراق حرارى فتطغى حرارة الكبد مثلاً على حرارة العين ، هذه وأمثالها كثير من مظاهر حكمة الخالق سبحانه .

ثم تنتقل بنا الآيات لتحدثنا عن نموذج تطبيقى لحزب الله ولحزب الشيطان :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلۡأَبۡصَٰرِ ② ﴾

الضمير (هو) يعود إلى الحق سبحانه الذى يسبِّح له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ .. ② ﴾ [الحشر] المراد يهود بنى النضير[1] ، وكانت مساكنهم حول المدينة فأجلاهم رسول الله إلى خيبر ، وهذا هو أول الحشر .

واللام فى ﴿ لأَوَّلِ الْحَشْرِ .. ② ﴾ [الحشر] بمعنى عند ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ[2] الشَّمْسِ .. ⑱ ﴾ [الإسراء] وكان الحشر الثانى حينما أجلاهم المسلمون من الجزيرة العربية إلى الشام فى زمن سيدنا عمر رضى الله عنه .

---

(١) بنو النضير قبيلة من قبائل اليهود فى المدينة ، كانوا يسكنون فى ضاحية بأطراف المدينة تسمى « العوالى » بها خضرة ونخيل وماء ، ظل عهدهم مع الرسول ﷺ أربع سنوات ، ولكنهم أخذوا يتعاونون مع مشركى قريش لغزو المدينة فى غزوة الخندق ، فأمر الرسول ﷺ بإجلائهم من المدينة المنورة .

(٢) لدلوك الشمس أى عند دلوكها . قال أبو عبيدة : دلوكها من عند زوالها إلى أن تغيب ، وقال الزجاج : ميلها وقت الظهيرة دلوك ، وميلها للغروب دلوك . [تفسير زاد المسير لابن الجوزى] .

ومعنى الحشـر : أى جمعهم كلهم فى مكان واحد ضيق ، كما نقول : فلان انحـشر إذا دخل مكاناً يضيق حيِّـزه عن حجمـه ، يعنى حجم الشىء أكبر من الحيِّز الذى دخل فيه .

لكن لماذا أخرج اللهُ اليهود من حول المدينة إلى خيبر ثم إلى الشام ؟ قالوا : لأنهم نقضـوا عهدهم مع رسول الله وعادوه ، بل واسـتعدوا عليهم كفار مكة ، والعجيب أن العداوة أولاً كـانت بين اليـهود وكفـار مكة ، لأن اليهود أهل كتاب وأهل دين سماوى ، أما كفار مكة فكانوا عُبَّاد أوثان .

لذلك كان اليهود يستفتحون على الذين كفروا ويقولون لهم : لقد أظل زمـان رسول جـديد يأتى ونؤمن به ونقـتلكم به قتل عـاد وإرم[1] ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ..(٨٩)﴾ [البقرة]

فلما هاجر رسول الله إلى المدينة عادوه واسـتعدوا عليه كفار مكة بعد أن عاهدوه علـى ألاَّ يقفوا ضـده ، وقالوا : لا نكون مـعك ولا نكون عليك ، فلمـا نقـضوا هذا العـهـد وألَّبـوا عليه الكفـار فى مكة فـأرسلوا كـعب بن الأشرف إلى مكة فى أربعـين راكباً من اليهـود التقى بأبى سفـيان وخرج

(١) ذكر السهيلى فى الروض الأنف (١/٣٦٩) أن رجالاً من الأنصـار قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحـمة الله وهداه لمـا كنا نسمع من رجال يهـود كنا أهل شرك أصـحاب أوثان وكانوا أهل كـتاب عندهم علم ليس لنا ، وكـانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فـإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه تقارب زمان نبى يُبـعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم فلما بعث الله رسـوله ﷺ أجبناه حيث دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتـوعدوننا به فبادرناهم إليه فـآمنا به وكفروا به ، ففـينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة]

معـه فى أربعين مثلهم من كـفار مكة وذهبـوا إلى الكعبة ، وعند أسـتارها تعاهدوا على معاداة محمد ودعوته ، وأنْ يكونوا يداً واحدة عليه[1] .

ولكن الحَق سُبـحانه وتعالى أطلع رسـوله ﷺ على ما يُدبرون له فقـال : ﴿هُوَ الَّذِى أَخْـرَجَ الَّذِينَ كَـفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَـابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ ..(٢)﴾ [الحشر] فأجلاهم رسول الله إلى خيبر[2] .

والذى أجَّج العداوة بين الطرفين أنه كان هناك قـبيلة لها عهد مع بنى النضيـر ، فخرج عمرو بن أمـية الحضرمى وقتل من هـذه القبيلة اثنين ، وكان للنبى ﷺ عهد معهم ، فأحـبوا أنْ يشتركوا ليدفعوا الدية فذهـب رسول الله إلى بنى النضـير ، وقـال لهم : ساعـدونا فى الدية التى تحمَّلها الحضرمى فى الولدين . فـصاحبنا كعب بن الأشرف قال : لقد جاء محمد محتاجاً لنا .

(١) ذكره البغـوى فى تـفســيره لآية ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾ [الحشـر] وفيـه أن كعب بن الأشرف بعـد غزوة أحـد ركب فى أربعين راكـباً من اليهود إلى مكة فأتوا قـريشاً فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتـهم واحدة على محمد ﷺ ودخل أبو سـفيـان فى أربعين وكـعب فى أربعين من اليـهود الـمسجـد الحـرام وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبة ، ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة ونزل جبريل فأخبـر النبى ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان ، فـأمر النبى ﷺ بقتل كعب بن الأشرف فقتله محمد بن مسلمة .

(٢) خيبـر الآن مدينة سعودية تقـع شمال المدينة المنورة وهى بلد تاريخـى قديم وقد وردت عدة روايات فى تفسـير سبب التسمـية لعل من أهمها هو اشتـهارها بحصونها وقـلاعها ، فكلمة خـيبر تعنى الحصن بلـغة الأقوام السامـية التى سكنت خيبـر رسمياً ، وقـد تم فتح خيبر عام ٧ هجرية بعد نقض اليهود لعهدهم مع رسول الله . [موسوعة ويكيبيديا] .

وهم الذين قالوا : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ .. (٦٤) ﴾ [المائدة] وقالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ..(١٨١) ﴾ [آل عمران]

فقالوا : فرصة نكسر نفس محمد ، فأوحى كعب بن الأشرف إلى جماعة من المدينة أنْ يصعدوا على سطح المنزل ويُلقوا حجراً على رسول الله ليتخلصوا منه ﷺ ، ولكن الحق سبحانه وتعالى أخبر رسوله بما يدبرون له ، فخرج رسول الله من بينهم ومشى إلى أنْ خرج ، ولما لم يعد رسول الله إليهم سألوا عنه ، فقال رجل : أنا رأيته يدخل المدينة .[1]

ذهب رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة وهو أخو كعب من الرضاعة ، وحكى له ما كان من مؤامرة كعب لقتله ، وطلب منه أنْ يذهب ويقتل كعب بن الأشرف وأنْ يأخذ معه مَنْ يثق فيه ، فأخذ معه ثلاثة من بنى الحارث وذهب إلى حصن كعب ونادى : ياكعب - وكان بينهما ود لعلاقة الرضاعة - فقال : ما بك يا محمد ؟ قال : أنا أريد أنْ أستقرض منك ، فقال : أنت تعرف أنى لا أقرض إلا برهن ، فقال : هو معى .

---

(١) أخرج الطبرى فى تفسيره (١١٥٥٧) عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبى بكر قالا : خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير ليستعينهم على دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى ، فلما جاءهم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن ، فمَنْ رجل يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب : أنا . فأتى رسول الله ﷺ الخبر وانصرف عنهم فأنزل الله عز وجل ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ .. (١١) ﴾ [المائدة] وأورده السهيلى فى الروض الأنف (٢/٤٢١) .

فنزل إليه وكان فى أول ليلة عُرْسه ، فعروسه منعته من الخروج . وقالت له : إنى لأشُم من هذا الصوت رائحة الدم ، لكنه نزل فاحتضنه محمد وسار به حتى بَعُد ، وطعنه طعنة قتلته ، فأهاج ذلك بنى النضير ، فكان ما كان من تعاهدهم مع كفار مكة ضد رسول الله[1] .

وقوله : ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا .. (٢) ﴾ [الحشر] يخاطب الله المؤمنين حزب الله يقول لهم : ما كان يخطر ببالكم أنْ يخرج اليهود من حول المدينة ، فهذا أمر مستبعد ، لماذا ؟ لأنهم يروْن اليهود أهل مَنَعة وعزة ومعهم العدد والعُدة فكيف يستطيعون إخراجهم وهم قلة ؟

إذن : ظنُّ المؤمنين يرجح جانب عدم قدرتهم على إخراجهم ، لكنه ظنٌّ لا يصل إلى مرحلة اليقين ، وما يزال عندهم أمل فى إخراج اليهود ولهم فى ذلك أسوة بيوم بدر ، فقد كانوا قلة ومع ذلك تفوّقوا على الكثرة الكافرة وهزموهم .

وفى الوقت نفسه ﴿ وَظَنُّوا ..(٢) ﴾ [الحشر] أى اليهود ﴿ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ .. (٢) ﴾ [الحشر] وأيضاً ظن اليهود أنهم أصحاب حصون تمنعهم أنْ ينهزموا أمام المؤمنين ، مجرد ظن

---

(١) أورد ابن سيد الناس فى كتابه (عيون الأثر فى فنون المغازى) (١/٣٩٣) أن سلكان بن سلامة أبا نائلة وهو أخو كعب بن الأشرف من الرضاعة اتجه فى جمع إلى حصن كعب وهتف به ، وكان كعب حديث عهد بعرس فوثب فى ملحفة فأخذت امرأته بناحيتها وقالت : إنك امرؤ محارب وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى مثل هذه الساعة قال : إنه أبو نائلة لو وجدنى نائماً ما أيقظنى . فقالت : والله إنى لأعرف فى صوته الشر . فقال لها كعب : لو يُدعى الفتى لطعنة لأجاب ، فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه .. إلى أن استدرجوه خارج الحصن وأعملوا فيه سيوفهم .

لايرقى إلى اليقين ، لأنهم أيضاً تذكروا يوم بدر يوم انتصر المسلمون وهم قلة فى العدد والعدة .

ومن الاحتياط أنْ نعمل بالظن فى أمور الخير ، فإذا ظننتَ الخير فاصنعه قال تعالى : ﴿ **قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ..** (٢٤٩) ﴾ [البقرة] إذن : فى الخير العمل بالظنِّ أَوْلَى .

وهذه المسألة لها شواهد كثيرة فى حياتنا العملية ، مثلاً إذا أردنا أن نسافر إلى الأسكندرية ، فقال لنا رجل : والله الطريق كذا فيه أخطار أو أعطال فاسلكوا الطريق الآخر . فقال آخر : أبداً لقد سافرت على هذا الطريق بالأمس وليس عليه أخطار ولا أعطال ، فأىُّ القولين إذن أوْلَى أنْ نأخذ به ؟

القول الأول أوْلَى لأنه الأحوط فلن يضيرنا شىء إنْ سلكنا الطريق الذى دلّنا عليه الرجل الأول ، أما قول الآخر فهو غير مضمون وقد نسلكه فنجد فيه بالفعل أخطاراً أو أعطالاً .

والشاعر أبو العلاء المعرى[1] لما اعتدلت عقيدته صادم المنجمين والقائلين بعدم بعث الأجساد ، فقال مُعبراً عن هذه المسألة :

زعم المنجّم والطبيبُ كلاهُما لا تُبْعثُ الأجسادُ قُلْتُ إليكُمَا
إنْ صَحَّ قولكُما فَلستُ بخَاسِر أو صَحّ قوْلى فَالخسَارُ عَلَيْكمَا[2]

---

(١) المعرى : هو أحمد بن عبد الله التنوخى ، شاعر وفيلسوف من العصر الفاطمى ، ولد ٣٦٣ هـ فى معرة النعمان ، عمى وهو صغير السن ، لما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه ، كان يُحرم إيلام الحيوان ويلبس خشن الثياب ، له تصانيف كثيرة منها (الأيك والغصون) ، توفى عام ٤٤٩ هـ . [موسوعة الشعر العربى] .

(٢) أورده صلاح الدين الصفدى فى كتابه (الغيث المسجم فى شرح لامية العجم) (ص٩٥) وفيه الشطر الثانى : [أن لامعاد فقلت ذاك إليكما] وفى البيت الثانى [فالوبال عليكما] ولكن أورده ابن عربى فى الفتوحات المكية كما أورده الشيخ الشعراوى .

إذن : نحن أمام ظنين انتهيا إلى أن اليهود لن يخرجوا ، فالمسلمون ظنوا أن اليهود لن يخرجوا ، واليهود ظنوا أن حصونهم تمنعهم ، وحين يأتى الخير من حيث لا تحتسب تكون الفرحة به أعظم ، فكانت فرحة المسلمين بإخراج اليهود كبيرة ، وكذلك كانت حسرة اليهود كبيرة .

ثم تأمل اللفظ القرآنى فى ﴿ **وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم ..** (٢) ﴾ [الحشر] فاختار التعبير بالجملة الإسمية الدالة على الثبوت والدوام ولم يقُلْ : تمنعهم . لأن الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث .

وقولهم ﴿ **مِّنَ اللَّهِ ..** (٢) ﴾ [الحشر] دل على أنهم مؤمنون بالله مُصدِّقين بما بشرت به كتبهم من بعثة محمد ﷺ ، ولأنهم جحدوا رسالته لم يقولوا من رسول الله ، إنما قالوا (من الله)

وقوله تعالى : ﴿ **فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ..** (٢) ﴾ [الحشر] الله تعالى لا يأتى هؤلاء إنما أتاهم عقابه وعذابه ، ففزّعهم وهزمهم وأرعبهم ﴿ **مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ..** (٢) ﴾ [الحشر] من حيث لم ينتظروا ولم يقدروا ولم يظنوا ، يعنى أمر لم يخطر لهم على بال .

﴿ **وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ..** (٢) ﴾ [الحشر] ألقى فيها الرعب والهلع والقذف إلقاءً بشدة وعنف والقلوب مضخات الدم فى الأجساد ، وحين يُلقى الله الرعب والفزع فى القلوب تنقلها إلى كل أعضاء الجسم فيصيبه الهلع والفزع الشديد فى كل عضو من أعضائه .

والقذف يعنى أن المقذوف يدخل فى كلّ مسامّ المقذوف فيه ، مثل عمال العمارة عندما يرشُّون الحائط بالأسمنت ، لماذا ؟ لأنهم

يقذفون الأسمنت بقوة ليدخل فى كلِّ الفجوات التى تتخلل الحائط .

﴿ يُخْرِبُونَ بيوتَهم بأيديهِمْ وأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ .. (٢) ﴾ [الحشر] أى : بيوتهم الحصينة التى كانوا يظنون أنها مانعتهم يُخربونها بأيديهم ، نعم هم لم يفعلوا مباشرة إنما كانوا السبب فى أنْ تُخرب على أيدى المسلمين ، أو خربوها بالفعل لكى لا ينتفع المسلمون بها من بعدهم .

وهذه لها شواهد فى تاريخهم القديم والحديث أنهم يُخربون العامر ويقطعون الأشجار ويفسدون فى الأرض فلا يتركونها خلفهم إلا دماراً ، فكانوا إذا تركوا مكاناً خربوه وأخذوا ما فيه واقتلعوا منه الأبواب والشبابيك .[١]

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَـٰأُولِى الأَبْصَارِ (٢) ﴾ [الحشر] الاعتبار أنْ تستدل بما حدث فى الماضى على ما يحدث فى المستقبل ، ومنه عبر فلان البحر ، ومنها تعبير الرؤيا ، فاعتبروا : أى خذوا من الماضى عبرة تُعينكم على استقبال الحاضر ، ولا تتعجلوا الأشياء لأن الله معكم .

ومعنى ﴿ يَـٰأُولِى الأَبْصَارِ (٢) ﴾ [الحشر] الأبصار جمع بصر ، فالاعتبار يكون بداية بالبصر ثم بالبصيرة ، فالبصائر إنما تُربى بدقة البصر والرؤية الواعية التى تؤدى إلى قضية عقلية يقتنع بها الإنسان

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير (٣/٥٤٥) : « للمفسرين فيما فعلوا بمنازلهم أربعة أقوال :
أحدها : أن المسلمين كانوا كلما ظهروا على دار من دورهم هدموها ليتسع لهم مكان القتال ، وكانوا هم ينقبون دورهم فيخرجون إلى ما يليها ، قاله ابن عباس .
والثانى : أن المسلمين كانوا كلما هدموا شيئاً من حصونهم نقضوا ما يبنون به الذى خربه المسلمون ، قاله الضحاك .
والثالث : أنهم كانوا ينظرون إلى الخشبة فى منازلهم أو العمود أو الباب فيستحسنونه فيهدمون البيوت وينزعون ذلك منها ويحملونه معهم ويخرب المؤمنون باقيها ، قاله الزهرى .
والرابع : أنهم كانوا يخربونها لئلا يسكنها المؤمنون حسداً منهم وبغياً . قاله ابن زيد .

وتكون عنده هذه البصيرة ، ثم إن الحق سبحانه وتعالى هو الذى يُنمِّى هذه البصيرة بتوفيق من عنده .

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ[١] لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ (٣) ﴾

معنى ﴿ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ .. (٣) ﴾ [الحشر] أى : قضى عليهم به ﴿ الْجَلاءَ ..(٣) ﴾ [الحشر] الخروج بأهلهم من المدينة إلى خيبر أولاً ثم إلى أذرعات[٢] بالشام ، ولم يبْق منهم بالجزيرة العربية إلا ابن أبى الحقيق وحُيى بن أخطب أبو السيدة صفية أم المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا ..(٣) ﴾ [الحشر] أى بالقتل ﴿ وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ﴾ [الحشر] يعنى : إن أفلتوا من عذاب الدنيا فلن يفلتوا من عذاب الآخرة ، لذلك خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٤) ﴾

وقوله سبحانه ﴿ ذَٰلِكَ ..(٤) ﴾ [الحشر] أى ما حدث لهم من

---

(١) الجلاء هو خروجهم من أوطانهم . وذكر الماوردى بين الإخراج والجلاء فرقين : أحدهما أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد . والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد . والثانى أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة . والإخراج قد يكون لواحد ولجماعة . [زاد المسير لابن الجوزى] .

(٢) أذرعات قرية من عمل حوران داخل حدود سورية قرب مدينة درعة شمالاً شمال الطريق وأنت تقصد دمشق .

الإجلاء ﴿ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٤) ﴾ [الحشر] أى بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله حدث لهم ذلك ، وشاقوا من الشقاق أى جعلوا أنفسهم فى شقٍّ ، وجعلوا الله ورسوله فى شقٍّ ، والمراد : عادوا الله وحاربوه وحاربوا رسوله ﷺ ودعوته .

﴿ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) ﴾ [الحشر] قالوا : هذه الجملة معطوفة على التى قبلها ، لكن الصواب أنها جملة جديدة ، فالحق سبحانه بعد أنْ أخبر عن اليهود وما كان منهم بدأ عبارة جديدة معزولة عن التى قبلها تقرر قضية ومبدأ .

﴿ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ ..(٤) ﴾ [الحشر] يعاديه ويحارب منهجه فعاقبته العقاب الشديد من الله الذى عاداه بدل أنْ يتقرب إليه ويلتحم به . وهذه قضية إيمانية ينبغى ألاَّ يغفل عنها الإنسان .

ونلاحظ هنا أن التعبير القرآنى ذكر فى صدر الآية : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..(٤) ﴾ [الحشر] ثم فى الجملة الأخرى : ﴿ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ ..(٤) ﴾ [الحشر] ولم يذكر رسوله ﷺ ، وهذا يعنى أن طاعة الرسول من طاعة الله ، وأن مَنْ يُشاقق الله يشاقق فى الوقت نفسه رسول الله ، لأن الله تعالى هو القائل : ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ..(٨٠) ﴾ [النساء]

ومن ميزاته ﷺ التى تميَّز بها عن غيره من الرسل أن ربه عز وجل فوَّضه فى التشريع لأمته ، فقال سبحانه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ..(٧) ﴾ [الحشر]

وقد أراد قوم أنْ يزبطوا هذه الآية بمسألة الفىء والغنائم بعد غزوة حنين[1] .

ولكن القاعدة الشرعية أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

ثم يقول الحق سبحانه :[2]

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ[3] أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾

بعد أن حدث من اليهود ما حدث وأجلاهم رسول الله ﷺ أمره الله تعالى أنْ يقطع بعض نخيلهم إغاظةً لهم وإظهاراً لقوة شوكة الإسلام ،

---

(١) الذى قال بهذا القول هو الزمخشرى فى تفسير الكشاف (٧/٢٦) وهو معتزلى قال : « (وما آتاكم الرسول) من قسمة غنيمة أو فىء (فخذوه) (وما نهاكم عنه) عن أخذه منها (فانتهوا) عنه » وكذا قاله الشوكانى فى فتح القدير (٧/١٨٦) وعزاه للحسن البصرى والسدى ولكنه قال بعدها : « والحق أن هذه الآية عامة فى كل شىء يأتى به رسول الله ﷺ من أمر أو نهى أو قول أو فعل وإن كان السبب خاصاً فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » .

(٢) **سبب نزول الآية** : ذكر الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٣٧) أن رسول الله ﷺ لما نزل ببنى النضير وتحصنوا فى حصونهم أمر بقطع نخيلهم وإحراقها فجزع أعداء الله عند ذلك وقالوا : زعمت يا محمد أنك تريد الصلاح أفمن الصلاح عقر الشجر المثمر وقطع النخيل ؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد فى الأرض ؟ فشق ذلك على النبى ﷺ فوجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فساداً واختلفوا فى ذلك . فقال بعضهم : لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا . وقال بعضهم : بل اقطعوا ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾ [الحشر] تصديقاً لمن نهى عن قطعه وتحليلاً لمن قطعه ، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله تعالى .

(٣) لينة : هى النخلة من أى الأصناف كانت . وقال جعفر بن محمد : إنها العجوة خاصة . وقال البعض : إنها الفسيلة لأنها ألين من النخلة . نقله الماوردى فى تفسيره . وذكر ابن الجوزى ستة أقوال متقاربة فى معناه فى تفسيره (زاد المسير) .

فأمر رسول الله صحابته بذلك ، فمنهم مَنْ قطع ومنهم مَنْ أبقى ، فقال اليهود : يا محمد ألم تنه عن الفساد فى الأرض ؟ فأنزل الله : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ..﴿٥﴾ ﴾ [الحشر]

اللينة : النخلة الجيدة الكريمة أو هى نخلة العجوة الليِّنة الحلوة ﴿ قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الحشر] يعنى : واقفة لم تُقطع ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ..﴿٥﴾ ﴾ [الحشر] بأمره ، وما دام القطع جاء بأمر الله فليس لأحد أن يقول : هذا إفساد فى الأرض ، لأن قطع بعض النخلات فيه إصلاح فوق ما فيه من ضرر ، قطع النخلات فيه إصلاح للعقائد الفاسدة يفوق الضرر الواقع بقطعها .

والآية تُسوِّى بين القطع والإبقاء لأن بعض الصحابة قطع وقال : قطعت هذه لك يا رسول الله ، والآخر أبقى وقال : هذه أبقيتها لك يا رسول الله ، وهذا يعنى أن للقطع معنىً وللإبقاء معنىً .

﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الحشر] يُلحق الخزى والذِّلة بهم . والفاسق هو الخارج عن أوامر الله ومنهجه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ(١) عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾

---

(١) أوجفتم : أسرعتم فى السير . وما نافية ، والمعنى : أن ما ردَّ الله على رسوله من أموال بنى النضير لم تركبوا لتحصيله خيلاً ولا إبلاً ولا تجشمتم لها مشقة ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقة [فتح القدير للشوكانى ٧/١٨٥] .

الأشياء التى يأخذها المسلمون من الكفار أحلها الله لهم إما فىء وإما غنيمة : الفىء ما يؤخذ منهم دون حرب ، والغنيمة ما يُؤخذ منهم بعد أنْ يُهزموا ، فتصير أموالهم ومتاعهم غنيمة للمسلمين يُقسَّم بطريقة معينة .

قال تعالى فى شأن غنائم الحرب : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ(١) وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ..﴿٤١﴾ ﴾ [الأنفال] ثم يقسَّم الباقى بين المحاربين . وأما الفىء فلا يُعطى للمحاربين إنما يُعطى لله ولرسول الله وللفقراء .

الحق سبحانه وتعالى هنا يُحدِّثنا عن الفىء الذى أحله للمسلمين ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ..﴿٦﴾ ﴾ [الحشر] يعنى : ما أخذتموه من أموالهم دون مشقة ﴿ مِنْهُمْ ..﴿٦﴾ ﴾ [الحشر] من الكفار .

﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ..﴿٦﴾ ﴾ [الحشر] أوجفتم عليه يعنى : أسرعتم إليه ، فأوجف الدابة : أسرع بها ، وهذه صفة

---

(١) خُمْس الغنيمة يقسم خمسة أسهم :

- سهم الله تعالى ويُصرف لعمارة بيت الله إن كانت قريبة أو بيوت الله عامة .
- سهم رسول الله وقد كان له فى حياته بالإجماع وكان ينفق منه على نفسه وعياله ويدخر منه مؤونة سنة ، وقد كان يستحقه لإمامته دون رسالته فهو لا يأخذ أجراً على إبلاغه للرسالة ، والأكثرون من الشافعية أن خمس رسول الله بعد وفاته يصرف لسد الثغور وقضاة البلاد والعلماء المشتغلين بعلوم الشرع الأئمة والمؤذنين ولو كانوا أغنياء .
- سهم ذى القربى ويصرف لبنى هاشم وبنى عبد المطلب .
- سهم اليتامى ، وهو للفقراء منهم ويشترط إسلامه .
- سهم المساكين وابن السبيل يكفى فيهما قولهما أنهما مساكين وابن سبيل ولو بلا يمين .

[باختصار شديد من روح المعانى للألوسى فى تفسير آية الحشر ٧] .

الفارس الذى يعشق الحرب ويريد أنْ يموت شهيداً .

﴿ وَلا رِكَابٍ .. (٦) ﴾ [الحشر] الرِّكاب ما يُركب ويُسار به إلى الحرب ، والمراد هنا الإبل . والمعنى أن الله أنعم عليكم وساق لكم هذا الرزق حلالاً دون تعب ، ودون أنْ تبذلوا فى سبيله أىّ مجهود .

﴿ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ﴾ [الحشر] يعنى : أن هذا الفىء جاءكم فضلاً من الله وكرامة لرسول الله ، ليس لكم فيه فضل ولا حاربتم من أجله بل هى جنود الله سلَّطها عليها ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ .. (٢) ﴾ [الحشر]

فمعنى ﴿ رُسُلَهُ .. (٦) ﴾ [الحشر] أى : جنوده ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر] ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ﴾ [الحشر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ .. (٧) ﴾ [الحشر] الفىء : هو كل مال صار للمسلمين من غير حرب ولا قهر ، ومصارفها التى تُصرف فيها محددة بهذه الآية : ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ .. (٧) ﴾ [الحشر]

فالفىء لله وللرسول ، أى : لبيت مال المسلمين وفى سبيل الله وللرسول ﷺ لينفق منه ولذوى قرابته ثم لليتامى والمساكين وأبناء السبيل .

وليس للمقاتلين شىء من الفىء لأنه جاء صلحاً بدون حرب فليس لهم شىء ، إنما لهم فى الغنيمة وهى ما يأخذه المسلمون من أعدائهم المنهزمين نتيجة حرب ، فهذه للمقاتلين دور فيها فيحق لهم ما أقرَّه الله لهم : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ .. (٤١) ﴾ [الأنفال]

فالمقاتلون لهم فى الغنيمة أربعة أخماسها ، وأما الخمس فيُصرف فى نفس مصارف الفىء .

معنى : ﴿ كَيْ لا يَكُونَ .. (٧) ﴾ [الحشر] أى : المال ﴿ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ .. (٧) ﴾ [الحشر] أى : ملكاً متداولاً بينهم دون الفقراء والمساكين ، لذلك سيدنا رسول الله لما قسم هذه الأموال لم يُعْطِ من الأنصار أحداً ، وإنما أعطاها للفقراء من المهاجرين ، فلما لاحظ أن الأنصار فى نفوسهم شىء من هذا قال لهم : ألاَ ترضوْنَ أنْ يعودوا بالدنيا وتعودون أنتم برسول الله [(١)] ؟.

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٩٩٢) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أصاب يوم حنين غنائم كثيرة فقسم فى المهاجرين والطلقاء ولم يعط الأنصار شيئاً ، فقالت الأنصار : إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا ، فبلغه ذلك فجمعهم فى قبة فقال : يا معشر الأنصار ما حديث بلغنى عنكم ؟ فسكتوا فقال : يا معشر الأنصار ألا ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون برسول الله تحوزونه إلى بيوتكم ؟ قالوا : بلى . فقال النبى ﷺ : « لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شِعْباً لأخذت شِعْب الأنصار » .

ثم إنكم لستم فى حاجة إلى المال ، بل إنكم تُشركون إخوانكم المهاجرين فى أموالكم . وفى الأنصار نزل قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. ⑨ ﴾ [الحشر]

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ⑦ ﴾ [الحشر]

جاءت هذه الآية لترد على قوم أرادوا أنْ يحصروا هذه الآية فى هذا السبب ، فقال لهم بل هى عامة ، فالعبرة بعموم الموضوع لا بخصوص السبب .

ومن هذه الآية استدللنا على حقِّ رسول الله فى التشريع وأنه مفوَّض من ربه فى ذلك ، وبهذه الآية أيضاً نرد على الذين ينادون بأنْ نأخذ بالكتاب ونكتفى به دون السنة .

وقد قال رسول الله ﷺ : « يُوشك رجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بالحديث عنى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرَّمناه » (1) .

فمن حين لآخر يطلع علينا مَنْ ينكر سنة رسول الله ﷺ ويقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما كان فيه من حلال حللناه ، وما كان فيه من حرام حرمناه ، فهم ينكرون أحاديث رسول الله ويُشكِّكون فى صحتها حتى لا يأخذوا بها .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٩٨٨) والترمذى فى سننه (٢٥٨٨) وابن ماجه فى سننه (١٢) وأحمد فى مسنده (١٦٥٤٦) من حديث المقدام بن معد يكرب بلفظ : ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه ، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السبع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها »

وموقفهم هذا فى حد ذاته إثباتٌ لصدق رسول الله ، لأنه ﷺ لم يغفل هذه المسألة ، إنما أخبر عنها ونبهنا إليها وأعطانا المناعة اللازمة ضدها .

وهم لو لم يقولوا لقلنا : يا رسول الله لقد قلت : « يُوشك أنْ يقعد الرجل منكم على أريكته يُحدِّث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله » فكيف يا سيدى يا رسول الله ذلك ولم يقل أحد هذا الكلام ؟

إذن : فقولهم الأحمق دليلٌ على صدق الرسول فيما أخبر به ، ويسخِّرهم الحق سبحانه فينطقون بمثل هذا القول لنستدل من قول خصوم النبى على صدق كلامه ﷺ .

فهم من حيث لا يدرون أكدوا صدق رسول الله ، لقد فضحهم هذا الحديث وأبان ما عندهم من غباء ، هؤلاء الأغبياء يحلو لهم التعصب للقرآن الكريم ضد الحديث النبوى ، يقول لك أحدهم : حدِّثنى عن القرآن ، سبحان الله ، أتتعصَّب للقرآن ضد الرسول الذى بلَّغك القرآن ، وما عرفتَ القرآن إلا من طريقه ؟

ونقول لمن يُردد هذا الكلام : كم عدد ركعات الصبح وركعات الظهر والعصر والمغرب والعشاء ؟ وسوف يرد قائلاً : صلاة الصبح ركعتان ، والظهر أربع ، والعصر أربع ، والمغرب ثلاث ، والعشاء أربع ، فنقول : من أين أتيتَ بهذا ؟ يقول : من السنة .

نقول : إذن لابد من اتباع السنة حتى تستطيع أنْ تصلى ، ولن تفهم التطبيق العملى لكثير من الأحكام إلا باتباع السنة ، فمن أين علم أن المغرب مثلاً ثلاث ركعات ؟ أمن القرآن الذى يتعصب له ، أم من السنة التى يُنكرها ؟ إذن : كيف يتعبد على قول رسول الله ثم ينكره ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء] فالطاعة للرسول هى طاعة لله، وهذا أمر منطقى لأن الرسول إنما يبلغ عمَّنْ أرسله .

وإذا ما توارد أمر الطاعة من الله مع أمر من رسوله نطيع الاثنين ، وإذا كان الله قد جاء بأمر إجمالى كالزكاة والحج ، وجاء الرسول ففصّل ، فنطيع الله فى الأمر الإجمالى ونطيع الرسول فى الأمر التفصيلى .

والقرآن ليس كتابَ أحكام فحسب كالكتب السابقة ، إنما هو كتاب إعجاز ، ومع ذلك أدخل فيه بعض الأصول والأحكام وترك البعض الآخر لبيان الرسول وتوضيحه فى الحديث الشريف وجعل له ﷺ حقاً فى التشريع بنصِّ القرآن : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ﴿٧﴾﴾ [الحشر]

فالحق سبحانه أعطى رسوله ﷺ تفويضاً عاماً بالتشريع وتفصيل ما أجمله الحق سبحانه فى القرآن من أحكام ، وهذه ميزة تميَّز بها رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين .

فتشريعه مأمور به ومأذون فيه من صُلْب القرآن ، ولذلك إذا جاء لك حكم من الأحكام وقال لك المتعنت : هات لى هذا الحكم من القرآن فقد نظرتُ فى كتاب الله فلم أجد . فقل له : دليل الحكم فى القرآن هو قول الله : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ﴿٧﴾﴾ [الحشر]

وأىّ حكم من الأحكام يأتى ولا تجد له سنداً من كتاب الله ويُقال لك : ما سنده ؟ قل : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ﴿٧﴾﴾ [الحشر]

والحكم حينما يرد فى القرآن مجملاً ويُفصِّله رسول الله قولاً ثم يطبقه فعلاً تكون المسألة منتهية ، فالفعل أقوى ألوان النص فى الأوامر ، لأن الأمر قد يأتى كلاماً نظرياً وقد يتأول فيه البعض ، لكن عندما يفعل الرسول يكون الحكم لازماً ، لأن الذى فعل هو المشرِّع .

أرجم رسول الله أم لم يرجم ؟ قد فعل رسول الله ذلك ، وفعْله هو نصٌّ عمليّ ، إن الفعل ليس نصاً قولياً يتأول فيه ، لقد رجم الرسول ماعزاً والغامدية ، ورجم اليهودى واليهودية وكانا قد أحصنا بالزواج والحرية .

وفعْل الرسول ﷺ هو الأصل فى الحكم ، فدليلهم قد سقط به الاستدلال وبقى ما فعله المشرع وهو الرسول المفوَّض من الله فى أنْ يُشرِّع قولاً أو فعلاً أو تقريراً ، أى يرى أحداً يفعل فعلاً فيُقره عليه .

فللرسول مهمة داخلة فى إطار القرآن ، ومثال ذلك فى حياتنا نجد مَنْ يقول لموظف : إن الموظف الذى يغيب خمسة عشر يوماً فى قانون الدولة يفصلونه ، فيأتى موظف ومعه دستور البلاد ليرد ويقول : هذا هو الدستور وقد قرأته فلم أجد فيه هذا القانون ، وهذا الكلام الذى تقوله عن فصل الموظف غير دستورى .

نقول له : إن الدستور قال فى هذه المسألة : وتُؤلف هيئة تنظم أعمال العاملين فى هذا المجال . إذن : فبالتفويض توجد هيئة تضع نظاماً ليُطبَّق على العاملين فتكون هذه من الدستور ، فكلُّ بنود قانون العاملين تدخل فى التفويض الذى نصَّ عليه فى الدستور للهيئات أو اللجان التى تضع التشريعات الفرعية .

كذلك فنحن نصلى كما صلى رسول الله رغم أن كيفية الصلاة

وعدد ركعات كل صلاة لم ترد فى دستور الإسلام وهو القرآن ، بل جاء به قول رسول الله وفعله ونحن مأمورون بطاعة رسول الله .

ونحن كذلك نزكى بنصاب الزكاة الذى حدده رسول الله ، ونحج إلى بيت الله الحرام كما حج رسول الله ، أما عن الصلاة فقد قال رسول الله : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلى »[1] وعن الحج قال ﷺ : « خذوا عنى مناسككم »[2] .

ومثل هذا أيضاً ما جاء فى قوله تعالى : ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ .. (١٤٥)﴾ [الأنعام]

وعلى منطق التحريم للميتة والدم كان لا بدّ ألاّ نأكل الميتة من السمك ، وألاّ نأكل الدم المتمثل فى الكبد والطحال ، وإذا كان الحق سبحانه قد حرَّم الميتة والدم مُجملاً . فإن رسول الله المفوَّض بالتشريع من الحق سبحانه قال :

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٥ ، ٥٥٤٩ ، ٦٧٠٥) من حديث مالك بن الحويرث قال : أتينا إلى النبى ﷺ ونحن شببة متقاربون فأقمنا عنده عشرين يوماً وليلة ، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً ، فلما ظن أنّا قد اشتهينا أهلنا أو قد اشتقنا سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه قال : ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلّموهم ومروهم - وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها وصلوا كما رأيتمونى أصلى ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم .

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البيهقى فى سننه الكبرى (١٢٥/٥) عن جابر بن عبد الله قال : أفاض رسول الله وأمرهم بالسكينة وأوضع فى وادى محسر وأمرهم أن يرموا الجمار مثل حصى الخذف وقال : « خذوا عنى مناسككم لعلّى لا أراكم بعد عامى هذا » . وأصله فى صحيح مسلم (٢٢٨٦) دون قوله (عنى) .

« أحلَّت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال »[1] .

وذلك تخصيص من السنة لعموم القرآن ، فإنْ قال قائل : إن الله حرَّم الميتة ، والسمك والجراد ميتة ، فلماذا نأكلها ؟ نرد عليه : إن العرف جرى على أن السمك والجراد ليسا لحماً ، بدليل قولهم : « إذا كَثُر الجراد أرخص اللحم » وذلك يعنى أن الجراد ليس من اللحم .

أما بالنسبة للسمك فالسمك لم يكُن كالميتة التى حرمها الله ، لأن الميتة المحرمة هى كل ما يُذبح ويسيل دمه ، والسمك لا نفس سائلة له أى لا دم له ، والجراد أيضاً لا دم فيه .

إذن : فتحليل أكله وهو ميت إنما جاء بسبب عدم وجود نفس سائلة يترتب عليها انتقال ما يضر من داخله إلى الإنسان .

وكذلك الكبد والطحال أيضاً ليسا بدم ، فالدم له سيولة ، والكبد والطحال لحم متجمد متماسك ، خلاصة دم تكوّن منه عضو الكبد وعضو الطحال .

إذن : السنة لها دور فى بيان التحليل والتحريم ، فهناك تفويض من الحق سبحانه للرسول ﷺ ليكتمل البلاغ بمنهج الله بنصوص القرآن وبتفويض الله تعالى له أنْ يشرع .

ومن الأمثلة المهمة التى تبين دور حديث رسول الله فى بيان أحكام القرآن هو حالة طلاق المرأة ثلاثاً وكيف تحل لمطلقها ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥٤٦٥) وابن ماجه فى سننه (٣٣٠٥) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

الحق سبحانه يقول : ﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] ثم يقول بعدها : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا .. (٢٣٠) ﴾ [البقرة] أى الطلقة الثالثة ﴿ فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) ﴾ [البقرة]

فظاهر الآية فهم منه بعض الناس الذين يريدون أنْ يتحللوا من أحكام الدين فى أشياء قد ترهقهم ، فمثلاً الذى طلَّق امرأته ثلاث مرات واستوفى ما شرع له من مرات الطلاق حُكْمه أنه لا تحلّ له زوجته هذه إلا بعد أنْ تنكح زوجاً غيره .

فيأتى مَنْ يقول - بناءً على الآية السابقة - ما دام النكاح هنا بمعنى العقد فهو إذن كافٍ فى حالة المرأة التى طُلِّقت ثلاث مرات ، وأنها تحلّ لزوجها الأول بمجرد العقد على آخر .

فلو أن سنة رسول الله لم تتعرض لهذه المسألة لكان هذا الفهم جائزاً فى أن مجرد العقد يبيح عودة الزوجة لزوجها ثانية ، ولولا أن رسول الله وَضع شرطاً لعودتها إلى زوجها الأول ، وهو أنْ تتزوج زواجاً حقيقياً لا زواجاً صورياً ، لولا هذا لتلاعب الناسُ كما نسمع عن المحلل (١) .

(١) عن على رضى الله عنه رفعه إلى النبى ﷺ قال : « لعن الله المحلل والمحلَّل له » أخرجه أبو داود فى سننه (١٧٧٨) وابن ماجه فى سننه (١٩٢٥) وقد وصف رسول الله مَنْ يُحلّل امرأة لزوجها الأول دون زواج حقيقى بالتيس المستعار ، فعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : هو المحلل لعن الله المحلّل والمحلّل له » .

لذلك قال رسول الله : « حتى تذوق عُسَيْلته ويذوق عُسَيْلتها » (١) زواج حقيقى تُمارس فيه عملية المباشرة الزوجية وهى أصعب ما تكون على الزوج ، وهو أمر مقصود من المشرِّع ﷺ المفوّض من الله تأديباً للرجل الذى يظن أمر الطلاق والنطق به أمراً هيناً .

ونلحظ هنا أن دقة التشريع أو صعوبته فى كثير من المسائل لا يريد الله منه أنْ يُصعِّب على الناس ، وإنما يريد أن يرهّب من أن تفعل ذلك ، يريدك أن تبتعد عن لفظ الطلاق ، وألا تلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى .

وهؤلاء الذين يقولون : بيننا وبينكم كتاب الله ويرفضون حديث رسول الله ، ألم يقرأ هؤلاء قول الحق سبحانه فى كتاب الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (٥٩) ﴾ [النساء]

فالتنازع فى شىء لا بدّ أنْ يكون فى قضية داخلة فى نطاق مأمورات الطاعة ، ويجب أنْ يكون لها مردّ يُنهى هذا التنازع ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (٥٩) ﴾ [النساء]

فردّ الأمر يكون إلى الله سبحانه وإلى الرسول ، فكيف يجترىء

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءت امرأة رفاعة القرظى النبى ﷺ فقالت : كنت عند رفاعة فطلقنى فأبتّ طلاقى فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير إنما معه مثل هدبة الثوب . فقال : أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة ؟ لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٤٥، ٤٨٥٦ ، ٤٨٦٠ ، ٤٩٠٥ ، ٥٣٤٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٨٧ ، ٢٥٨٨) .

أحدٌ يريد هدم الإسلام ويريد أنْ لا يأخذ بسنة رسول الله ويظن أن التحليل والتحريم إنما هو ما ورد فى كتاب الله فقط .

وليحذر هؤلاء أنْ يكونوا ممنْ قال الله فيهم : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٣٣) ﴾ [المائدة]

فحرب النبى تكون فى ترك قول أو فعل أو تقرير له عليه السلام ، على سبيل الإنكار لأحاديث رسول الله .

ومثل هؤلاء الذين يقولون : إن أحاديث رسول الله كثيرة ونقول لهم : كانت مدة رسالة رسول الله ثلاثة وعشرين عاماً وكل كلامه حديث ، فكل كلمة خرجت من فمه حديث شريف ، ولو كنا سنحسب الكلام فقط لكان مجلدات لا حصر لها ، ناهيك عن أفضاله ﷺ .

وكل كلام سمعه وأقرّه من غيره حديث ، وكل فعل فعله غيره أمامه وأقرّه ولم يعترض عليه حديث ، فكم تكون أحاديث رسول الله ؟ إنها الأصل الثانى من أصول التشريع الإسلامى بعد القرآن ، فكيف نهدره من أجل أقوال شاذة خارجة وقد أنبأنا بها رسول الله ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ .. (٧) ﴾ [الحشر] أى : اتقوا الله فى المخالفة لأن المخالفة تبطل أعمالكم ، فطاعة الله لا تصح إلا بطاعة رسول الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) ﴾ [الحشر]

عندما تسمع قول الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) ﴾ [الحشر] فالذهن ينصرف إلى أن هناك ذنباً يستحق العقاب ، والعقاب هنا شديد لأن الذنب كبير وهو مخالفة رسول الله ، لأن الله يأمر بأن

نأخذ بما آتانا الرسول ﷺ وأن ننتهى عما نهى عنه رسول الله .

وعقاب الله للمخالف سيأتى فى وقت ليس للفرد فيه جاه من مال أو حسب أو نسب يحميه من الله ، فإن أطمعك ضعف المجتمع فى أن ترتكب الإثم أو تتعاون عليه فعليك أن تخاف الله لأن عقابه شديد .

ولكن كيف يأتى العقاب إلى المذنب ؟ والعقاب يتسلل إلى المذنب فى نفسه كمرض مؤلم لا يصرف المذنب فيه ما عنده من مال فقط ، لكنه قد يسأل الناس ليعالج نفسه ، أو يعالج من يحب ؟ وجنود عقاب الله قد لا تتأخر للآخرة بل تتسلل إلى حياة المذنب دون أن يعرفها ، وهذه هى شدة العقاب .

ونعلم أن العقاب لا يعم الناس إلا بقدر ذنوبهم ، فليس معنى أن الله شديد العقاب أن تصيب شدة العذاب من فعل ذنباً بسيطاً ، ولكن لكلٍّ جزاؤه على قدر ذنبه ، وهذا العقاب مهما كان بسيطاً فهو شديد أليم .

وإذا كان الحق سبحانه شديد العقاب لمن خالفه فإنه سبحانه غفور رحيم ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾ [البقرة] أى أنه غفور لما قد بدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتم ربكم منها ﴿ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾ [البقرة] بكم فلا يعاجلكم بالعقوبة شفقةً عليكم وحباً فى رجوعكم إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) ﴾

فالأَوْلَى بهذا الفىء هم المهاجرون الذين أُخرجوا من ديارهم وتركوا خلفهم كلَّ ما يملكون ﴿يَبْتَغُونَ ..﴿٨﴾﴾ [الحشر] يطلبون من خروجهم هذا ﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ..﴿٨﴾﴾ [الحشر] يطلبون فضل الله أى الزيادة فى رزق الدنيا ، فالفضل فى المعاش الدنيوى ، أما الرضوان ففى نعيم الآخرة .

لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ .. ﴿٧١﴾﴾ [النحل]

ثم يطلبون رضوان الله فى الآخرة ، لذلك ورد فى الحديث القدسى أن الحق سبحانه وتعالى يسأل أهل الجنة عن أحوالهم فيها فيقولون : لقد أعطيتنا فوق ما كنا نستحق ، فيقول سبحانه : ألا أزيدكم ؟ فيقولون : وهل أزيد من هذا ؟ قال : نعم أُحلّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعدها أبداً[1] .

وقوله تعالى : ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..﴿٨﴾﴾ [الحشر] أى : بهجرتهم وخروجهم من أموالهم وديارهم نُصرةً لدين الله ودعوة

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٦٧، ٦٩٦٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، ولفظ الحديث : « إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً » .

رسول الله ﴿أُوْلَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر] صادقون فى إيمانهم ، صادقون فى خروجهم وتحمُّل تبعاته .

ولولا هذا الصدق فى الإيمان ما هانَ عليهم كل شىء فى سبيل الإيمان ، وما خرجوا من ديارهم وأموالهم .

لذلك بعد الهجرة نظر سيدنا رسول الله إلى مصعب بن عمير[1] وهو يلبس ملابس خشنة من جلد جاف ، فقال : انظروا ما فعل الإيمان بصاحبكم[2] ، وكان مصعب بن عمير من أغنى أغنياء مكة ، ويسمونه فتى قريش المدلل ، حتى أن الناس كانوا يدفعون مالاً لتُغسل ملابسهم مع ملابس مصعب لكثرة ما فيها من عطور[3] .

---

(١) مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشى من بنى عبد الدار صحابى شجاع من السابقين إلى الإسلام ، أسلم فى مكة وكتم إسلامه فعلم به أهله وأوثقوه وحبسوه فهرب مع من هاجر إلى الحبشة ، ثم هاجر إلى المدينة وأسلم على يده أسيد بن حضير وسعد بن معاذ ، استشهد يوم أحد عام (٣ هجرية) كان يلقب (مصعب الخير) . [الأعلام للزركلى ٧/٢٤٨] .

(٢) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب (جلد) كبش قد تنطق به ، فقال النبى ﷺ : انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نوّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون . أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة (١/٢٠٦) وأبو نعيم فى الحلية (١/١٠٨) .

(٣) أخرج الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٤٨٩٢) عن محمد العبدرى قال : كان مصعب بن عمير فتى مكة شباباً وجمالاً ، وكان أبواه يحبانه ، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه ، وكان أعطر أهل مكة ، وكان رسول الله ﷺ يذكره ويقول : « ما رأيت بمكة أحسن لمة ، ولا أرق حلة . ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير » . وكذا ابن سعد فى الطبقات الكبرى (٣/١١٦) .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾

الكلام هنا عن الأنصار أهل المدينة ، يقول تعالى مادحاً موقفهم من إخوانهم المهاجرين ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] تبوأ يعنى : سكن واستوطن واستقر ، والدار هى دار الهجرة مدينة رسول الله ﷺ ﴿ وَالإِيمَانَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] فجعل الإيمان أيضاً شيئاً محسوساً يُتبوأ .

فالدار للقالب يأوى إليها الإنسان ليستريح من عناء اليوم وحركة الحياة ، والإيمان للقلب ، فكما أن الدار مرجع للقالب ، فالإيمان مرجع

(١) سبب نزول الآية : أورد السيوطى فى (أسباب نزول القرآن) عن يزيد بن الأصم أن الأنصار قالوا : يا رسول الله اقسم بيننا وبين إخواننا من المهاجرين الأرض نصفين . قال : ولكنهم يكفونكم المؤونة وتقاسمونهم الثمرة والأرض أرضكم . قالوا : رضينا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر]

أما قوله ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ دفع إلى رجل من الأنصار رجلاً من أهل الصُّفة ، فذهب به الأنصارى إلى أهله . فقال للمرأة : هل من شىء ؟ قالت : لا إلا قوت الصبية . قال : فنوميهم فإذا ناموا فأتينى فإذا وضعت فأطفئ السراج . قال : ففعلت وجعل الأنصارى يقدم إلى ضيفه ما بين يديه ، ثم غدا به إلى رسول الله ﷺ فقال : لقد عجب من فعالكما أهل السماء ونزلت ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] [أخرجه البخارى فى صحيحه ٤٥١٠] .

للقلب يُرجع إليه فى كُلِّ قضاياه ومواقفه ويلتزمه ويرضى به حكَماً ومُنظِّماً لحركة الحياة ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] أى أن الأنصار يحبون المهاجرين

﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] أى : أن الأنصار تطيب نفوسهم بما أخذه إخوانهم المهاجرون من أموال الفىء فلا يجدون فى أنفسهم حقداً ولا حسداً ولا ضغينة ، ولا يمنُّون عليهم بما أعطوهم .

فلم يُقلْ أحد منهم : فلان أخذ منى كذا وكذا ، وكلهم أخذوا من الأنصار إلا مَنْ عفَّ مثل عبد الرحمن بن عوف[1] الذى قال لأخيه ابن الربيع : احفظ عليك مالك وأهلك ودُلَّنى على السوق ، ثم كان بعدها من أغنى أغنياء المدينة[2] .

وكان له نحو ألف من العبيد ، ولما سألوهم عن حال عبد الرحمن معهم فقال أحدهم : والله لو أقبلتَ علينا وهو بيننا ما عرفته .

ومع ذلك رآه رسول الله ﷺ يُبطئ فى دخول الجنة فسأله : ما أبطأك يا ابن عوف . قال : سألونى يا رسول الله عن هذا وهذا .

(١) أحد العشرة المبشرين بالجنة ، ولد ٤٤ قبل الهجرة ، من أكابر الصحابة ، أحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم وأحد السابقين إلى الإسلام ، شهد بدراً وأُحداً والمشاهد كلها ، أعتق فى يوم واحد ثلاثين عبداً . تصدق يوماً بقافلة فيها ٧٠٠ راحلة تحمل الحنطة والدقيق والطعام . [الأعلام للزركلى ٣/٣٢١] .

(٢) عن أنس بن مالك أن عبد الرحمن بن عوف هاجر إلى المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد ابن الربيع فقال له سعد : يا عبد الرحمن إنى من أكثر الأنصار مالاً وأنا مقاسمك وعندى امرأتان فأنا مطلق إحداهما فإذا انقضت عدتها فتزوجها فقال له : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، أخرجه البخارى فى صحيحه بألفاظ أخرى (٣٤٩٦ ، ٣٤٩٧ ، ٤٦٨٤) وفيه : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلونى على السوق .

ولم يقف الأمر بالأنصار عند هذا الكرم والجود وإنما تعدَّاه إلى الإيثار قال تعالى بعدها : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩) ﴾ [الحشر] فالجود أنْ تعطى بعض ما عندك ، أما الإيثار فأنْ تعطى كلّ ما عندك ولا تُبقى على شىء .

فالأنصار كانوا يُؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم ويُعطونهم ما يحتاجونه .

وكلمة (خصاصة) مأخوذة من (الخُص) وهو عشة صغيرة يصنعونها من عيدان الحطب ، فهو شبه البيت لكنه لا يحمى صاحبه ولايصون أهله ، لذلك فهو بيت الفقير الذى لا يستطيع البناء .

فالخصاصة أى الفقر الشديد ، فرغم ما كان بهم من الفقر والحاجة إلا أنهم كانوا يُؤثرون إخوانهم على أنفسهم . وقلنا إنهم أى الأنصار قدَّموا لنا نموذجاً للعطاء لم يسبق له مثيل على مرِّ التاريخ .

ثم تُقرر الآيات هذه الحقيقة ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾ [الحشر] المفلح من وقاه الله وجنَّبه هذه الصفة الذميمة ، وكلمة الشح البعض يقول البخل ، لكن الشحّ أعم وأشدّ من البخل لأن البخل ينشأ عنها ، نقول : شحَّ الشىء إذا قلَّ ، وما دام قلَّ فلا بد أنْ تحافظ على هذا القليل حتى لا ينتهى وينفد من بين يديك .

فالشح إذن يُدخل فى جوارحك وتصرفاتك البخل ، ونستطيع أن نقول : الشح طبع القلب ، والبخل طبع القالب .

كلمة ﴿ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾ [الحشر] مأخوذة من فلاحة الأرض واستخراج خيراتها ، لذلك نقول فى الأذان : حىَّ على الفلاح : أى : الفوز بكلِّ خير .

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠) ﴾

مَنْ هم الذين جاءوا بعد المهاجرين والأنصار ؟ المهاجرون والأنصار هم جيل الصحابة ، والذين جاءوا من بعدهم هم التابعون لهم ، جيل التابعين هم أفضل الأجيال بعد صحابة رسول الله ويأخذ حكمهم فى الأفضلية كل مَنْ سار على منهجهم ، وبقدر التمسك بالمنهج تكون الأفضلية .

ومن دعاء هؤلاء التابعين قولهم ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ .. (١٠) ﴾ [الحشر] يدعون لهم لأن سبقهم للإيمان هو الذى أبقى لنا الإيمان الذى نفرح به ونعتز به ، فهذا الجيل أصحاب فضل على كل مسلم بعدهم ، لأنهم إما قتيل فى سبيل الله قدَّم حياته فى سبيل نُصْرة هذا الدين ، وإما عالم أفنى أيضاً حياته فى سبيل صيانة العلم ونَشْره .

ثم يقول : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠) ﴾ [الحشر]

لأنهم نالوا المنزلة العليا التى لم يبلغها غيرهم ، فانزع يارب غلّ قلوبنا فلا نحقد عليهم ولا نحسدهم .

والغل : الحقد على شخص لأنه أدرك ما لم تستطع أنت إدراكه ، والغلّ من غليان النفس[1] .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) ﴾ [الحشر] الرأفة : دفع الأذى ومنع العقوبة . والرحمة أنْ تبدل العقوبة إلى مثوبة ، مثلاً عندك عامل قصَّر فى عمله تقصيراً يستحق عليه العقاب فترأف به بأنْ ترفع عنه العقوبة ، ثم يرقّ له قلبك فتعطيه منحة .

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ فقال : يطلع الآن رجل من أهل الجنة فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته ماء من وضوئه ، معلِّق نعليه فى يده الشمال ، فلما كان من الغد قال رسول الله ﷺ : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلع ذلك الرجل على مثل مرتبته الأولى ، فلما كان من الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك فطلع ذلك الرجل ، فلما قام الرجل اتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إنى لاحيت أبى فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تحل يمينى فعلت . فقال : نعم .

قال أنس : فكان عبد الله بن عمرو يحدث أنه بات معه ليلة فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه كان إذا تقلب على فراشه ذكر الله وكبَّر حتى يقوم لصلاة الفجر فيسبغ الوضوء غير أنى لا أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الليالى الثلاث كدت أحتقر عمله قلت : يا عبد الله إنه لم يكن بينى وبين والدى غضب ولا هجرة ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات فى ثلاث مجالس : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت تلك المرات الثلاث . فأردت أن آوى إليك فأنظر ما عملك فإذا ما هو إلا ما رأيت فانصرفت عنه فلما وليت دعانى فقال : ما هو إلا ما قد رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى غلاً لأحد من المسلمين ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه . فقال له عبد الله بن عمرو : هذه التى بلغت بك وهى التى لا نطيق » . [أحمد فى مسنده ١٢٢٣٦] .

ثم يعود السياق بنا مرة أخرى إلى الحديث عن المنافقين :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يفضح اليهود والمنافقين ويُفشى أسرارهم ويخبر رسوله ﷺ بما قالوه سراً فيقول له : ﴿ أَلَمْ تَرَ .. (١١) ﴾ [الحشر] ومعناها أن إخبار الله لنبيه بشيء أوثق من رؤيته له ﴿ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا .. (١١) ﴾ [الحشر] وكان على رأسهم ثلاثة : عبد الله بن أُبى ، وعبد الله بن الأكتع ، ورافع بن زيد[1] .

فهؤلاء انتهزوا الفرصة وقالوا لبنى النضير : إذا أخرجكم محمد لا تخرجوا ، فلما أمرهم رسول الله بالخروج قالوا : أنظرنا يا أبا القاسم ، فالموت أهون علينا من هذا وأمامنا عشرة أيام لكى نستعد .

---

(١) ذكر السيوطى فى الدر المنثور عند تفسير الآية (الحشر ١١) أسماء هؤلاء المنافقين أنهم عبدالله بن أبىّ بن سلول ورفاعة بن تابوت وعبدالله بن نبتل وأوس بن قيظى ، وعزاه لعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر فى تفاسيرهم عن مجاهد . قلت : هذا هو الصواب فإن رافع بن زيد صحابى جليل شهد بدراً .

فأنظرهم رسول الله عشرة أيام ، فلما لم يخرجوا حاصرهم واحداً وعشرين يوماً حتى يئسوا ورفعوا راية التسليم .

الحق سبحانه وتعالى يكشف نفاق المنافقين فيقول : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ..(١١)﴾ [الحشر] أى : يقولون لليهود ووصفهم بالكفر لأنهم وإنْ كانوا فى بدايتهم على دين سماوى إلا أنهم لما جاءهم ما عرفوا من بعثته ﷺ وما بشرتْ به كتبهم كفروا به فسماهم كافرين .

لذلك قال تعالى فى أهل الكتاب : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)﴾ [آل عمران]

ومن هؤلاء عبد الله بن سلام(١) وتعلمون قصة إسلامه ، وهو القائل : والله إنى لأعرف محمداً حين رأيته كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد .

ماذا يقولون لهم ؟ ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ..(١١)﴾ [الحشر] أى : أخرجكم محمد من المدينة وما حولها ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ..(١١)﴾ [الحشر] قالوا هذا الكلام سراً بينهم وبين بعض .

وجعلهم إخواناً فقال تعالى : ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ..(١١)﴾ [الحشر]

---

(١) عبد الله بن سلام أبو يوسف صحابى قيل إنه من نسل يوسف بن يعقوب ، كان اسمه « الحصين » أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، سماه رسول الله ﷺ (عبد الله) ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية ، ولما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤ / ٩٠]

لأنهم بالفعل إخوان ، إخوان فى معاداة رسول الله ودعوة الحق ، أو إخوانَ لأنهم عقدوا عقد ولاء فيما بينهم ، أو إخوان فى الكفر بهذه الرسالة .

وقولهم : ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ..(١١)﴾ [الحشر] لانطيع أحداً يأمرنا بقتالكم ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ..(١١)﴾ [الحشر] ثم يشهد الله ويحكم على هذا القول أنه كذب ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١)﴾ [الحشر] لأنهم منافقون والكذب يجرى فى عروقهم .

ثم يفضح كذبهم ويكشف نواياهم ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ..(١٢)﴾ [الحشر] يفرون من المعركة ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢)﴾ [الحشر] وصدق الله فيما أخبر عنهم ، وهذا هو دأب المنافقين فى كل زمان ومكان ، يكذبون حتى على الله ، ويقولون ما لا يفعلون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣)﴾

هذا يعنى أنهم مهما تبجحوا وتظاهروا بالقوة إلا أنهم فى أنفسهم يَرْهبُون المسلمين ويخافونهم أشدّ من خوفهم من الله ، وهذا المعنى عبَّرت عنه الآيات فى قوله تعالى : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ..(١٤)﴾ [التوبة]

فلو أراد الحق سبحانه لانتقم منهم وأخذهم أَخْذَ عزيز مقتدر ، وساعتها سيقولون آية طبيعية لكن الحق سبحانه يريد أنْ يُذلهم ويذيقهم العذاب بأيدى المسلمين لأنهم هم المواجهون لهم .

لذلك يخافون منكم أشدّ من خوفهم من الله ، لأنهم قوم ماديون لايؤمنون إلا بالمادة وبما يشاهدونه ، لذلك حينما تقرأ فى التلمود[١] تجده يتكلم فى مسائل مادية ، ولا ذكر فيه لأمور تتعلق بالآخرة .

﴿ذَلِكَ .. (١٣)﴾ [الحشر] أى : خوفهم من المسلمين وعدم خوفهم من الله ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (١٣)﴾ [الحشر] نعم لا يفقهون لأن المسلمين لم يحاربوهم إلا بتوجيه من الله .

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤)﴾

لأنهم يخافون المسلمين ويرهبونهم يجبنون عن مواجهتهم فى حرب مفتوحة فى الصحراء ليس عندهم الشجاعة لمواجهة الجندى المسلم ، لذلك ﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ .. (١٤)﴾ [الحشر] وتحصين القرية يكون بحفر خندق حول القرية بحيث لا يستطيع

(١) التلمود هو تدوين لنقاشات حاخامات اليهود حول الشريعة اليهودية والأخلاق والأعراف وقصص من التراث اليهودى وهو مركب من عنصرين (الميشناه) و (الجمارا) وتمتاز المشنا بالإيجاز فهى تعبر عن القانون الواحد بقليل من السطور ، أما الجماريان فتذكران مختلف آراء كبار الأحبار عن نصوص المشنا .

أحدٌ أنْ يدخلها ، فلا بد أنْ يكون الخندق واسعاً وعميقاً ورأسياً بحيث لا يستطيع الفرس القفز فوقه ، أو النزول فيه . أو تُحصّن القرية ببناء سور حولها لا يستطيع أحدٌ تسلُّقه أى من وراء جُدر ، وأيضاً كانوا يُحصِّنون بيوتهم بسدِّ الأبواب بالمتاريس الخشب فلا يستطيع أحدٌ دخولها .

وقوله تعالى : ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ .. (١٤)﴾ [الحشر] أى أنهم يُظهرون المحبة فيما بينهم وهم فى الحقيقة يكره بعضهم بعضاً ويحقد بعضهم على بعض .

﴿تَحْسَبُهُمْ .. (١٤)﴾ [الحشر] أى : فى الظاهر ﴿جَمِيعًا .. (١٤)﴾ [الحشر] متحدين ﴿وَقُلُوبُهُمْ .. (١٤)﴾ [الحشر] فى الحقيقة ﴿شَتَّىٰ .. (١٤)﴾ [الحشر] مختلفة ومتفرقة ، كما كان بين بنى قريظة وبنى النضير ، وأمر طبيعى أنْ يختلف مثل هؤلاء ، وأنْ تتفرّق قلوبهم ، فليس هناك حَقٌّ يجمعهم ويُؤلِّف قلوبهم وجوارحهم .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (١٤)﴾ [الحشر] هناك قال : ﴿لا يَفْقَهُونَ (١٣)﴾ [الحشر] وهنا ﴿لاَّ يَعْقِلُونَ (١٤)﴾ [الحشر] فنفى عنهم التعقل الذى يُميِّزون به بين الحق والباطل والصواب والخطأ .

والعقل كما ذكرنا هو المرحلة الوسطى بين الحواس ، وهو الذى يغربل المدركات ، ويفاضل بينها ، فما اقتنع به ألقاه إلى القلب فيصير عقيدة راسخة ، فماذا تنتظر من قوم لا يعقلون ؟

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ[١] قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥)﴾

(١) اختلف أهل التأويل فى المقصود بـ (الذين من قبلهم) :
– قصد بذلك بنى قينقاع . قاله ابن عباس .
– قصد بهم مشركى قريش ببدر . قاله مجاهد .
قال الطبرى : أولى الأقوال بالصواب أن الله لم يخصص منهم بعضاً فى تمثيل هؤلاء بهم دون بعض .
وذكر ابن الجوزى فى زاد المسير ثلاثة أقوال ، فزاد أنهم بنو قريظة ولكن الصواب ما قاله ابن جرير الطبرى .

الحق سبحانه وتعالى يُشبِّه حال اليهود بحال إخوانهم من المشركين فى مكة ﴿قَرِيبًا ..(١٥)﴾ [الحشر] منْ عهد قريب ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ..(١٥)﴾ [الحشر] أى سوء عاقبة شركهم ومصادمتهم لدعوة الحق ، وهذا إشارة إلى ما حدث لهم فى غزوة بدر .

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥)﴾ [الحشر] يؤلمهم ، والعذاب - أعاذنا الله وإياكم منه - ورد فى القرآن الكريم بعدة أوصاف لكلٍّ منها مغزى يناسب حال المعذَّبين والعياذ بالله ، فواحدٌ عذابُه شديد ، وواحدٌ عذابه أليم ، وواحدٌ عذابه مهين .

وقلنا : إن منَ الناس مَنْ لا يؤلمه الضرب ولكنْ تُؤلمه كلمة جارحة ، لذلك دخل رجل على معاوية[1] وأراد أنْ يُظهر له قوة تحمّله وتجلُّده للأعداء الكارهين له ، فقال مُتمثلاً بالشاعر أبى ذؤيب الهذلى[2] :

وتجلُّدِى للشَّامِتِينَ أُرِيهمُوا أنِّى ... لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أتضعْضعُ[3]

فردَّ عليه معاوية ببيت آخر من نفس القصيدة لنفس الشاعر :

وَإذَا المنَيَّةُ أنشَبَتْ أظْفَارهَا ... أَلْفَيْتَ كلَّ تميمَةٍ لاَ تَنْفَعُ[4]

---

(١) معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية ، قرشى أموى ، مؤسس الدولة الأموية فى الشام ، ولد ٢٠ قبل الهجرة بمكة وأسلم يوم فتحها (٨ هـ) ، وقعت خصومة بينه وبين على بن أبى طالب وبعد مقتل على بويع بعده ابنه الحسن فسلم الخلافة إلى معاوية عام ٤١ هجرية حقناً للدماء ، دامت له الخلافة إلى سن الشيخوخة ، توفى (٦٠ هجرية) عن ٨٠ عاماً [الأعلام للزركلى ٧ / ٢٦٢] .

(٢) هو خويلد بن خالد أبو ذؤيب من بنى هذيل بن مدركة من مضر ، شاعر فحل مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وسكن المدينة واشترك فى الغزو والفتوح ، عاش إلى أيام عثمان ، مات بمصر عام (٢٧ هجرية) أشهر شعره عينية يرثى بها خمسة أبناء أصيبوا بالطاعون فى عام واحد ، ومنها البيت الذى معنا (وتجلدى للشامتين ...) .

(٣) بيت من قصيدة من بحر الكامل أولها :

أمن المنون وريبها تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

وهى قصيدة طويلة . والضعضعة الخضوع والتذلل . والضعضاع : الضعيف من كل شىء . [راجع لسان العرب] .

(٤) المنية : الموت . أنشبت أظفارها أى علقت بأظفارها فى الإنسان فلا تنفع أى تميمة تتخذها لتحميك منه .

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾

أى : أن ما حدث من المنافقين حينما عاهدوا اليهود إنْ أُخرجوا ليخرُجُنّ معهم ، ولئن قُوتلوا لينصرُنَّهم ثم تركوهم وتخلَّوْا عنهم مثل ما حدث من الشيطان حينما أغوى ابن آدم وأوقعه فى المحظور ، فلما طاوعه وكفر قال : إنى برىء منك لأنه أخذ حظّه منه وذهب ليبحثَ عن غيره .

إذن : هذا مَثَلٌ ، والمثَل يضربه الحق سبحانه لنا لتجلية أمر مجهول بآخر معلوم ، كما فى قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ..(٢٦١)﴾ [البقرة] فجزاء الصدقة غير معلوم يوضحه ما نشاهده من نبات الأرض وما يحدث فيها من مضاعفة الحبة إلى سبعمائة ضعف .

وقوله : ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الحشر] يخاف الله رب العالمين لأنه لما طُرِدَ من الجنة قال ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤)﴾ [الأعراف]

وقول الشيطان هنا ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الحشر] فحظ الشيطان أن يُوقعك فى المعصية ثم يتبرأ منك ، والشيطان خذول لمن يتبعه .

فإنه يمد لك حبال الأمل ، فإذا ما جاء وقت الحاجة إليه تخلّى عنك وتركك ، كذلك يفعل الشيطان بأوليائه .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ .. (٤٨) ﴾ [الأنفال] وفى موضع آخر يقول لأتباعه : ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

فالشيطان يؤكد أنه لن يفزع لأحد من الذين اتبعوه لينجده ، فالشيطان لن ينجد أحداً من عذاب الله ، إنهم يستصرخونه لينقذهم بعد أن اتبعوه واستجابوا لتزيين الشر لهم ، وها هو يتخلى عنهم ويقول ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

(١)

﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) ﴾

أى عاقبة الشيطان وعاقبة من اتبعه من الإنس على الكفر بالله وبرسوله وبأوامر الله سبحانه ، فجمع الحق سبحانه بينهما فى مصير واحد وهو الخلود فى النار ، لأن كليهما تمرد على الله سبحانه .

فمن أنكر الدين وأنكر منهج الله سبحانه سيُجازى بالخلود فى النار ، فحين يأتيك أمر مخالف لمنهج الله فعليك أن تُعلى منهج الله فوق كل أمر ، واعلم أن الشيطان الذى زيَّن لك الوقوع فى مخالفة منهج الله سيسبقك إلى النار وسيخلد فيها ، فلا أنت قادر على إخراجه منها ولا هو قادر على إنقاذك منها .

لقد ظلمتَ نفسك بالكفر بالله وبتكذيبه وتكذيب رسوله وردِّك أوامر الله ، والخلود فى النار هو جزاء الظالمين ، والظالمون هنا

---

(١) ضمير (هما) في قوله (عاقبتهما) يعود على الشيطان والإنسان الذى أطاعه فكفر بالله أنهما خالدان فى النار . قاله الطبرى في تفسيره لآية الحشر ١٧ .

بمعنى الكافرين الذين ارتكبوا الذنب الأكبر وهو الكفر بالله والشرك .

وقد قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

وعلاقة الشرك بالظلم أنك جئتَ بمن لم يخلق ومَنْ لم يرزق شريكاً لمن خلق ورزق ، وجعلت البشر شركاء مع الله فى التشريع ، فحرَّمت ما أحل الله ، وأحللت ما حرم الله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) ﴾

النداء بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٨) ﴾ [الحشر] أمر إلهى يجب أنْ نسمع إليه وأنْ ننظر فيه ماذا يريد الله منّا ، فكما أخذنا منه سبحانه عطاءَ الربوبية يجب علينا أنْ نأخذ أيضاً عطاءَ الألوهية وهو التكاليف الشرعية ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ .. (١٨) ﴾ [الحشر]

فبعد أنْ ناداهم بوصف الإيمان أمرهم بالتقوى ، وهذا يعنى أن الإيمان النظرى لا يكفى ولا بد أنْ يُسانده الإيمان العملى التطبيقى لأوامر الله .

﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ .. (١٨) ﴾ [الحشر] الأمر هنا مُؤكَّد بلام التوكيد ونفس نكرة تفيد العموم ، فمطلوب من كلِّ نفس إنسانية أنْ تنظر ماذا قدمتْ ليوم القيامة .

وقال ﴿ لِغَدٍ .. (١٨) ﴾ [الحشر] للدلالة على قُرْبه ، وهذا يعنى أن

منهج الله الذى ارتضاه لكم لينظم حركة حياتكم ويُسعدكم فى دنياكم ليس هو نهاية المطاف ، والذين صادموا هذا المنهج وخرجوا عن إطاره وعاثوا فى الأرض فساداً ، أو عاشوا على عرق الآخرين ودمائهم لم ينته أمرهم بانتهاء الحياة الدنيا ، بل هناك (غد) .

هناك الحساب والجزاء ، فلا تُغيِّبوا هذه الحقيقة عن أذهانهم وسيروا فى حركة الحياة على هُدىً منها ، وإياكم أنْ تفارق أنظاركم.

ولأهمية هذه القضية كرر بعدها الأمر بالتقوى ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** .. (١٨) ﴾ [الحشر] فالنظر إلى الأعمال ومراقبتها أمر بين أمرين بتقوى الله ، والتقوى كما قلنا هى الجانب العملى فى الإيمان كأنه سبحانه يقول لك : إياك أنْ تعرف غايتك ولا تعمل لها وتسعى إليها .

وبهذا المنهج يسعد الناس ويأمن الإنسان على ماله وعرضه ، ونفهم من ﴿ **وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ** .. (١٨) ﴾ [الحشر] أن كلَّ نفس تنظر إلى نفسها فى مسائل الإيمان ، انظر ماذا تريد وما هو هدفك ؟ وما هى غايتك ؟ لأن للآخرين أيضاً أهدافهم وأغراضهم فى الحياة .

فأنت الذى تملك نفسك ، وإياك أنْ تأخذ نفسك بنفس الغير ، فلكلٍّ واحد منّا غرضه فى الحياة وقد يلُفّ غرضه ويُغلِّفه بأشياء أخرى ، فاجعل نفسك واحدة ، لأن غيرك لا يُسأل عنك ولا تُسأل عنه ، لذلك أفرد كلمة ﴿ **نَفْسٌ** .. (١٨) ﴾ [الحشر]

والحق سبحانه وتعالى حينما يخاطبنا : ﴿ **وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** .. (١٨) ﴾ [الحشر] إنما يدعونا لمحاسبة النفس والنظر فيما قدمت لتدارك ما قد نراه فى سلوكنا من تقصير أو انحراف عن جادة الطريق .

فعمر الإنسان أقصر من أنْ يضيع ويتفلَّت من يده دون أنْ يشعر ،

فربّك عز وجل خلقك وتركك تتمتع بنعم الدنيا حتى سنّ الخامسة عشرة دون أنْ يُكلِّفك بشىء .

فما كلفك إلا بعد أنْ استويت واكتمل تكوينُك ومداركك ، ثم جعل لك وقفة مع نفسك فى سنِّ الأربعين وهى سنُّ النضج الأعلى وهى سنُّ النبوة .

اقرأ : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي**[1] **أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** (١٥) ﴾ [الأحقاف]

ثم يقرِّر سبحانه الجزاء ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** (١٦) ﴾ [الأحقاف]

انظر إذن إلى هذا الفضل من الله على عباده ، وهل بعد سنِّ الأربعين عُذْر لمعتذر ، ثم مَنْ يضمن البقاء حتى بلوغ الأربعين ؟ إذن : على العاقل أنْ يسابق الزمن بالأعمال الصالحات وأنْ يخطفها من الأيام خَطْفاً فقد لا تأتى سنُّ الأربعين .

الحق سبحانه وتعالى عبَّر عن الدار الآخرة بكلمة ﴿ **غَدٍ** .. (١٨) ﴾ [الحشر] ليدل على قربها بل الغد أبعد منها ، لأنها قد تأتيك بعد طرْفة عين ، وفى الحديث الشريف يقول ﷺ : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك »[2]

(١) أوزعنى : ألهمنى . قال ابن قتيبة : الأصل فى الإيزاع هو الإغراء بالشىء . ويقال : فلان موزع بكذا أى مولع به . [تفسير الماوردى للآية ١٥ سورة الأحقاف] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٧) والإمام أحمد فى مسنده (٣٤٨٥ ، ٣٧٢٨) وكذا البيهقى فى شعب الإيمان (٩٨٧٧) وأبو يعلى فى مسنده (٥١٥٧) وابن حبان فى صحيحه (٦٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود . وشراك النعل : سير النعل يكون فى وجه النعل يمسك النعل بالقدم . [لسان العرب - مادة شرك] .

ونفهم من كلمة ﴿لِغَدٍ ..(١٨)﴾ [الحشر] أنك فى الدنيا تعيش بالأسباب وفى غد تعيش بالمسبِّب سبحانه ، فليس هناك شمس ولا قمر ولا أرض تزرع ولا عمل ولا سعى .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن الآخرة قال : ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. (٦٩)﴾ [الزمر] لأن الشمس ليس لها وجود ، والنور هناك نور الذات الإلهية .

قوله سبحانه : ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ (١٩)﴾ [الحشر] هناك أمر بتقوى الله وتطبيق منهجه ، وهنا نهى عن نسيان الله ، يعنى : حين تُطبِّق منهج الله ينبغى ألاَّ يغيب اللهُ عن بالك أبداً لأنه ربُّك وإلهك الذى تعمل له .

ونلاحظ هنا أن الآية الكريمة لم تقُلْ لنا لا تنسوا الله ، وإنما ﴿لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ..(١٩)﴾ [الحشر] فكأن نسيانَ الله أمر غير متوقَّع أن يحدث من الذين آمنوا .

والنسيان أن تكون عندك معلومة ثم تنصرف عنها بمشاغل أخرى ، أو تغفل عنها حتى تنساها ، لأن العقل فيه بؤرة الشعور وحاشية الشعور ، فالمعلومة تدخل فى بؤرة الشعور وطالما هى فى بؤرة الشعور تتذكرها .

فإذا انتقلتْ إلى حاشية الشعور تنساها وتحتاج مَنْ يُذكِّرك بها لتعيدها إلى بؤرة الشعور مرة أخرى ، وإلا لو ظلَّ كل شىء فى بؤرة الشعور لما التفتَ الإنسان إلى شىء آخر .

قال تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. (٤)﴾ [الأحزاب] ومن نِعَم الله عليك أنك تستطيع أنْ تستدعى المعلومة من حاشية

الشعور حينما تحاول أنْ تتذكرها .

لكن كيف كان الله معلوماً لهم ثم نسُوا ذكره تعالى ؟ قالوا : الله عز وجل معلومٌ لكلِّ الخلْق منذ أنْ كانوا جميعاً فى مرحلة الذر وهم فى ظهر أبيهم آدم عليه السلام ، ومنذ أنْ أخذ الله عليهم العهد :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢)﴾ [الأعراف] فالحق سبحانه يخاطب فيك هذه الذرة التى أخذتها من أبيك آدم ، لأنه سبحانه القادر وحده على ذلك ، فيخاطب الذرة كما خاطب الأرض وكما خاطب النحل .

والحق سبحانه وتعالى أخذ علينا هذا العهد ليكون حجة علينا إذا غفلنا عن ذكره تعالى أو نسيناه ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف]

كأنه سبحانه يقول لك : إياك أنْ تقول هذا القول ، إياك أنْ تصيبك هذه الغفلة التى تُنسيك ذكر الله ، لأنه لا عذرَ لك فيه ، لأنه تعالى أخذ العهد علينا ثم توالتْ رسلُه وتتابعت تُذكِّرنا بهذا العهد .

فإذا ما حدث من الإنسان غفلة قامت هذه الذرة بدور المناعة فتذكِّره وتَرده إلى الله ، قالوا : هذه الذرة هى النفس اللوامة فى الإنسان ، فإذا ضعُفتْ فلم تَردع صاحبها فاستشرى فى المعصية يَردعه المجتمع .

فإذا لم يوجد فى المجتمع الرادع وكان المجتمع أيضاً فاسداً قلنا : تتدخل السماء برسول جديد .

إلى أنْ جاءت رسالة محمد ﷺ وجعل الله أمته خير أمة أُخرجت

للناس لأنها تولَّتْ مهمة الأنبياء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران] لذلك جعلهم الله شهداء على غيرهم من الأمم ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

وبهذا تحملتْ هذه الأمة مهمة الرسل وضمنا أن مجتمعنا لا يخلو أبداً من عناصر الخير وحاملى مشاعل الهداية ، ومهما انطمست الحقائق وأظلمتْ الصورة لانعدم وجود نموذج للخير وللهداية يردّ الناس إلى الجادة .

ومعنى ﴿ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ .. (١٩) ﴾ [الحشر] لأنهم نسوا الله ألهتْهم أموالهم وأولادهم عن الله وصرفتهم الدنيا وتواردت عليهم الغفلة فنسُوا حتى أنفسهم أى نسوا مصدر الخير لهم ، فكأنهم نسوا أنفسهم حينما حرموها من مصدر خيرها .

والإنسان حينما ينفصل عن ربه وخالقه يعيش فى ضَنْك مهما نال من نعيم الدنيا وزخرفها ، والمؤمن الموصول بربه يعيش سعيداً وإنْ كان لا يجد قوت يومه .

لذلك تجدهم أغنياء وأهل وجاهة ويذهبون إلى رجل (غلبان) يقول له : يا شيخ فلان ادع لنا . لأنهم يعرفون أنه يملك شيئاً لا يملكونه هم ، يملك أنه موصول بربه .

وإذا حدد الإنسان غايته هَانَ عليه الطريق وسَهُل عليه الوصول ، وما اختلف الناسُ هذا الاختلاف إلا باختلاف غاياتهم فى الحياة ، فتحديد الغاية أشقّ من الوصول إليها ، وهذا المعنى عبَّر عنه الشاعر فقال :[1]

---

(١) الشاعر هو ابن الرومى على بن العباس بن جريج أبو الحسن ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى ، رومى الأصل ولد (٢٢١ هـ) ولد ونشأ ببغداد ومات فيها عام (٢٨٣ هـ) عن ٦٢ عاماً . مات مسموماً بسبب هجائه لوزير المعتضد ، له ديوان شعر فى ثلاثة أجزاء . [الموسوعة الشعرية] .

أَلاَ مَنْ يُرِينى غَايَتى قَبْلَ مَذْهَبى ... وَمِنْ أيْنَ وَالغَايَات بَعْد المذَاهب[1]

والغاية الحقيقية هى الهدف الذى ليس بعده بعد ، ولو سلسلتَ غايات العالم كله ستجد أنها تنتهى عند الآخرة حيث الفوز والفلاح والنعيم الباقى الذى لا ينفد .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) ﴾ [الحشر] ويقال : فسقت الرطبة أى بعدت القشرة عن الثمرة ، فعندما تكون الثمرة أو البلحة حمراء تكون القشرة ملتصقة بالثمرة بحيث لاتستطيع أن تنزعها منها .

فإذا أصبحت الثمرة أو البلحة رطباً تسود قشرتها وتبتعد عن الثمرة بحيث تستطيع أن تنزعها عنها بسهولة .

هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله ، ينسلخ عنه بسهولة ويُسر لأنه غير ملتصق به ، وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه .

والفسق فسقان : فسق صغير ، وفسق كبير . وهنا مشاكل : أيكون الفسق هنا مجرد خروج عن منهج طاعة الرسول ؟ لكن هذا الخروج يُوصف به كل عاص . أى أن صاحبه مؤمن بمنهج وفسَق جزئياً .

إننا نقول عن كل عاص : إنه فسق أى أنه مؤمن بمنهج وخرج عن جزئية من هذا المنهج ، أما الفسق الذى يتحدث عنه الحق هنا فهو فسق القمة لأنه فسق عن ركب الإيمان كله .

---

(١) البيت من قصيدة لابن الرومى من بحر الطويل من قصيدة طويلة .

﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

هذا أمر منطقى وأمر طبيعى ، وهما لا يستويان فى دنيا الناس فكيف يستويان عند الله الحكَم العدل ؟ حاشا لله لأن المساواة بينهما حُمْق فى التكاليف ، كيف يستوى مَنْ سار فى الدنيا على حلِّ شعره يُعربد فيها كما يشاء مع مَنِ التزم بمنهج ربه وخالقه .

هذان فى الدنيا يمثلان الجنة والنار فى الآخرة ، وكما أن الجنة لا تستوى مع النار كذلك لا يستوى أصحابهما فى الدنيا .

وهذه المسألة نأخذها دليلاً على وجود الجنة والنار فى الآخرة ، فلو فعل أهل المعاصى معاصيهم وأفسدوا فى الأرض وآذوا العباد والبلاد ، ثم أفلتوا من العقاب وانتهى أمرهم بالموت لكانت الحظوة لهم والخسارة لأهل الإيمان والاستقامة ، وهذا أمر لا يصح ولا يقبله عقل .

ومن هؤلاء مَنْ يبرر لنفسه الانفلات من منهج الله ويقول حتى لو كان هناك جزاء وعقاب فسوف نُحرق فى النار وتنتهى القصة ، وغفل عن حقيقة الآخرة ، وأنها دار خلود وبقاء لا يفنى نعيمها ولا ينتهى عذابها .

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء] وأذكر أن هذه الآية لما تحدثنا بها ورددنا على جماعة من المستشرقين أسلم سبعة منهم فى جلسة واحدة ، لأنهم لاحظوا فيها

وجهاً من وجوه الإعجاز العلمى فى القرآن .

فالقرآن أول مَنْ أعلن أن الجلد مصدر الإحساس ومحل الإذاقة ، وكانوا قبل ذلك يقولون المخ هو المسئول عن الإحساس .

كلمة ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحشر] دلَّتْ على المصاحبة فكأن بينهما أُلْفة وصداقة ومصاحبة ، أهل المعاصى صاحبوا النار وأهل الطاعة صاحبوا الجنة ، وكل منهم ألِفَ صاحبه واطمأن إليه ورضى به بل ويشتاق إليه ، فالجنة تشتاق إلى أهلها وأصحابها وتنتظرهم ، والنار كذلك تلتهب وتفور شوْقاً إلى أهلها وأصحابها .

وقوله ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحشر] نعم فازوا بنعيم الجنة وفازوا برضا الله وارتاحوا من تعب الدنيا وعنائها ، وأصبحت خواطرهم هى التى تسيِّر حياتهم ؛ فبمجرد أنْ يخطر الشىء على باله يجده بين يديه دون تعب .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

نعم لو حدث ونزل هذا القرآن على جبل لكان هذا حاله ﴿ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ..﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر] فالجبل على ثباته وقوته يخشع ويتصدَّع يعنى يتفتت خوفاً من الله وتقوم كل ذرة من ذراته

تباشر مهمتها انقياداً لربها وخالقها ، هذا إنْ كان الجبل مكلّفاً ، لكنه جماد غير مكلَّف ..

فماذا يحدث له لو نزل عليه القرآن ؟ ينْدكّ كما اندكّ جبل الطور[1] فى قصة سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

ومعنى يندك يعنى يسيحُ فى الأرض لهول الموقف . والجبل بالطبع ليس مكلّفاً ، وقد عُرضت عليه الأمانة فأبى أنْ يتحملها .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] ولكن تكليفه أنْ يظل هكذا مخزناً للقوت والنماء ليعطى بنى البشر أقواتهم .

وأهل اللغة يقولون (لو) حرف امتناع لامتناع[2] ، فالإنزال لم

(١) جبل طور سيناء ويُعرف أيضاً باسم (جبل موسى) و (جبل حوريب) وهو اسم جبل فى شبه جزيرة سيناء ، وطور سيناء هى عاصمة محافظة جنوب سيناء ، وتقع على بُعد ٢٦٥ كيلو متراً من نفق الشهيد أحمد حمدى على خليج السويس .

(٢) قال فى الجنى الدانى فى حروف المعانى « عبارة أكثرهم : لو حرف امتناع لامتناع . أى تدل على امتناع الثانى (الجواب) لامتناع الأول (الشرط) عبارة ظاهرها أنها غير صحيحة .. والتحقيق فى ذلك أن لو حرف يدل على تعليق فعل بفعل فيما مضى فيلزم من تقدير حصول شرطها حصول جوابها . وفى شرح ألفية ابن مالك : الصحيح هو قول سيبويه : لو حرف لما كان سيقع لوقوع غيره . مثال هذا : لو طلعت الشمس لظهر النور فامتناع طلوع الشمس ليس بلازم أن يمتنع بسببه ظهور النور ، فالنور له أسباب أخرى منها المصباح . ولهذا كان قولهم فى معنى لو : حرف امتناع لامتناع . ليس بصحيح على كل حال .

يحدث ، لكنه لو حدث لرأيتَ الجبل خاشعاً متصدِّعاً بالفعل ، والتصدع أنْ يتفتت هذا الصخر فيصير تراباً ، أما فى قصة سيدنا موسى فالجبل ظل متماسك الذرات لكنه اندكّ فى الأرض كما يندكّ الوتد ، ولو أنك مثل الجبل لحدث لك هذا لأنك غير مُعدٍّ للرؤية ولا للتلقى المباشر عن الله .

فإن قلتَ : فكيف نرى الله فى الآخرة ؟ قلنا : لأن الله سيُعِدّنا إعداداً آخر وخلقاً آخر يصلح لهذه المسألة يخلقنا على هيئة قادرة على أنْ ترى الله ، ألا ترى أنك قد تكون فى الدنيا ضعيفَ النظر مثلاً فتذهب إلى طبيبِ العيون فيُجرى لك عملية فترى أفضل مما كنتَ ، هكذا .

لذلك قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

فقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الحشر] والأمثال جمع مثل وهو التشبيه الذى يقرِّب لنا المعنى ويعطينا الحكمة ، والأمثال باب من الأبواب العريقة فى الأدب العربى .

فالمثل أن تأتى بالشىء الذى حدث وقيل فيه قولة موجزة ومعبِّرة رأى الناس أن يأخذوا هذه المقولة لكل حالة مشابهة .

والحق سبحانه استخدم الأمثال فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع ليقرب من أذهاننا معنى الغيبيات التى لا نعرفها ولا نشاهدها .

ولذلك ضرب لنا الأمثال فى قمة الإيمان وحدانية الله سبحانه وضرب لنا المثل بنوره جل جلاله ، وضرب لنا الأمثال بالنسبة للكفار

وهنا يضرب لنا الحق سبحانه المثل بالجبل إذا نزل عليه القرآن لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، فيظهر الحق سبحانه الأمر المعنوى فى صورة حسية مشاهدة ليقرب الأمر للناس ويزيده وضوحاً ورهبة وهيبة وخشوعاً ، فلستم أقوى من الجبال .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر] أى : لعلهم يتفكرون فى منطق الحق ويخشون الله ، ويبعدون أنفسهم عن الوقوع فى الباطل حتى يكونوا فى وقاية من عذاب الله وسخطه .

وهو سبحانه يستثير فيهم التفكير بعد أن أثار فيهم عظمة وهيبة ما قد يحدث للجبل إذا أُنزل عليه القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر] من سمات الأداء القرآنى أنه يستخدم المثل لتوضيح القضايا ، والمثل أنْ تلحق شيئاً مجهولاً بآخر معلوم أمامك ، والشاعر لما أحب أنْ يصف الأحدب لرجل لا يعرف هيئة الأحدب قال :[1]

قَصُرَتْ أَخَادِعُه وَغَاصَ قَذَالُه[2] فكأنَّه مُتَرَبِّصٌ أنْ يُصْفَعَا
وكأنَّما صُفِعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً فَأحَسَّ ثَانِيةً لَهَا فَتَجَمَّعَا

(١) نسبت هذه الأبيات لابن الرومى (الموسوعة العربية) ونسبتها موسوعة الشعر العربى لعبد الله بن الطباخ فى وصف أحدب . وكذا عماد الدين الكاتب فى (خريدة القصر) ، ولكن نسبه ابن ليون التجيبى لأبى على بن رشيق .

(٢) القذال : هو جماع القفا فى مؤخره .

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾

قلنا : إن ضمير الغائب ﴿ هُوَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر] إذا أُطلق لا ينصرف إلا إلى الله تعالى لأنه سبحانه هو الحاضر الذى لا يغيب وإنْ ناديناه بضمير الغيبة . وفى آية أخرى قال : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام] أى قل فى الرد عليهم ﴿ اللَّهُ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام] فهذه اللفظة وحدها تكفى وتدل على أنه تعالى لا إله غيره .

وفى الحديث الشريف قال ﷺ : « خير كلمة قالها النبيون من قبلى لا إله إلا الله »[1] فكون سيدنا رسول الله يقولها ﴿ اللَّهُ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام] فكأنه سبحانه أعفى رسوله من مسألة النفى والاستثناء فى ﴿ لا إله .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر] يعنى لما أقول : لا إله ربما خرجتْ روحى قبل أنْ أكملها ، فقال لا ، لأن ربك يعرف أنك ستقولها فلن يأخذك قبل أنْ تُتمها .

كلمة ﴿ هُوَ اللَّهُ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر] هو تشير إلى الغائب لأنك فى كونٍ مخلوق لا ترى خالقه إنما تستدل عليه بعقلك ، فالذى لا تراه وهو غائب عنك هو الله ربك وخالقك . كذلك فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص] فأتى بالضمير الغائب أولاً ثم بتعريفه ﴿ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص] لأن الجملة الخبرية مرة يكون فيها المدلول

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ قال : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » . أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) .

عليها والدليل .

ففى قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] فمحمد علَمٌ ومعروف لهم والمجهول الذى يحتاج إلى تعريف هو رسول الله فكيف تخبر بمجهول عن معلوم ؟ قالوا : كأنه يقول لهم : محمد الذى تعرفونه وتعرفون تاريخه وطفولته وسيرته وأمانته هو الذى اخترتُه رسولاً لكم ، كأن المبتدأ هو دليل وجود الخبر ، إذن : جعل محمداً نفسه هو الدليل على صدق الرسالة .

﴿ اللَّهُ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر] علَم على واجب الوجود سبحانه واسمه الدال على ذاته تعالى وما عداه من الأسماء فهى صفات ، كما نقول : الحى القيوم القادر المحيى .. لذلك علَّمنْا رسول الله أن نبدأ كل شىء ذا بال ببسم الله ، لأنه الاسم الذى تنفعل له الأشياء ، وبه تطاوعك جوارحك وتنفعل لك .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِى لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ..﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر] نفىٌ لألوهية ما دون الله تعالى وإثباتها لله وحده لا شريك له ، وهذه الشهادة لا إله إلا الله أول مَنْ شهد بها شهد الله بها لنفسه سبحانه ، ثم شهد بها ملائكته ثم شهد بها أولو العلم : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

إذن : أول مؤمن لله هو الله ، وأول مَنْ آمن بالله هو الله ، وهذه شهادة الذات للذات ، ثم شهدت الملائكة شهادة مشهد ، ثم شهد أولو العلم شهادة العقل والدليل والبرهان .

وما دام أن الله تعالى شهد لنفسه بهذه الشهادة ولم يَقُمْ لها

معارض أو منازع فالدعوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر] قلنا : إن الدعوى تثبت لصاحبها حتى يأتى لها معارض ، فقال ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر] يعنى : لم يأتِ ولن يأتى لها معارض ، فالله عالم الغيب وعالم الشهادة أخبرنا بهذا .

والغيب : كل ما غاب عن الإدراك ، وما غاب عن الإدراك نوعان : نوع له مقدمات يمكن أنْ تُوصِّل إليه مثل تمارين الهندسة معطيات تُوصِّلك إلى المطلوب ، وهذا هو ما غاب عنك الآن لكن معك مقدمات توصِّلك إليه فيما بعد ، كالابتكارات التى تستجد (كالتليفزيون والراديو) فهو غيب لفترة ثم صار مشهداً .

وقد يكون الغيب غيباً عنك وليس غيباً عن غيرك ، فحين يُسرق منك شىء يصير غيباً عنك لكنه ليس غيباً عمَّنْ سرقه .

أما الغيب الذى اختصّ الحق سبحانه بعلمه ولم يُطلع أحداً عليه فهو الغيب المطلق لا يعلمه أحد إلا الله وليست له مقدمات تُوصِّل إليه أو تدل عليه ، لذلك قال سبحانه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن]

أما ﴿ الشَّهَادَةِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر] فالشهادة هى الشىء المشهود ، فما الميزة فى أنه سبحانه يعلم المشهود والخَلْق يعلمونه ؟ هذه المسألة وقفنا عندها فى قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنبياء] فالحق سبحانه يمتنُّ علينا بمعرفة ما يكتمه

الإنسان ، فماذا فى معرفة الجهر والجميع يعرفون الجهر ؟ قالوا : المراد الجهر الجمعى .

وقلنا : هَبْ أننا فى مظاهرة تهتف ضد شخص ما ، نعم هذا جهر ونحن نسمعه فهل تستطيع أن ترجع كل صوت فيه إلى صاحبه ؟ هذه لا يقدر عليها إلا الله الذى يعلم الجهر فى كلّ زمان ومكان ، يعلم الجهر فى اللحظة فى كلّ أنحاء الدنيا ، ومَنْ يقدر على هذه إلا الله ؟

﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢)﴾ [الحشر] ما علاقة الرحمن الرحيم بعالم الغيب والشهادة ؟ يعنى : أن عالم الغيب هو الرحمن الرحيم ليظل غيبُ كلّ الخلق مستوراً عن الخلق لتسير حركة الحياة آمنة ، فمن رحمة الله أنْ حفظ أسرارنا وغيبنا .

لذلك أباح الشارع الكريم أن تُفقأ عين مَنْ يتجسس عليك ويقتحم عليك بيتك دون أنْ تدرى به[1] .

والرسول ﷺ لما نظر إليه رجل من ثقب الباب قال : « والله لو رأيتُه لفقأتُ عينه »[2] .

ذلك لأن البيوت تُبنى للستر ، والإسلام يحفظ للمسلم

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لو اطلع رجل فى بيتك ولم تأذن له فحذفته بالعصا ففقأت عينه ما كان عليك جناح » [أخرجه الخرائطى فى مساوىء الأخلاق ٧٥٦] وصححه الألبانى فى الأدب المفرد للبخارى (١٠٦٨) .

(٢) عن سهل بن سعد الساعدى قال : اطلع على رسول الله رجل من ستر له وفى يد رسول الله مدرى ، فقال رسول الله : لو أعلم أنه ينظرنى لفقأت عينه . الطبرانى فى المعجم الأوسط (٢١٣) .

وقد أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢٤١) قال سعد : اطلع رجل من جحر فى حُجَر النبى ﷺ ومع النبى ﷺ مدرى يحك به رأسه فقال : لو أعلم أنك تنظر لطعنت به فى عينك ، إنما جُعِل الاستئذان من أجل البصر . وكذا عند مسلم فى صحيحه (٥٧٦٤) .

خصوصياته فى بيته له خصوصية ، وفى حجرته الخاصة له خصوصية ، وفى حجرة نومه له خصوصية . لذلك أمرنا الحق سبحانه بأدب الاستئذان وأمرنا أنْ نعلمه الأولاد الصغار ليشبُّوا عليه ، وحذَّرنا من التجسس وتتبُّع عورات الآخرين .

وفى الحديث الشريف : « مَنْ تتبَّع عورات المسلمين تتبَّع الله عورته حتى يفضحه فى عقر داره »[1] .

ذلك لأن تتبُّع العورات والبحث عنها من أعظم أسباب الفساد فى الأرض وإفساد العلاقات ، فأنت ترى الرجل يعجبك دينه وتصرفاته وتُرضيك حركته فى الحياة ، فلو تتبعتَ غيبه وبحثتَ عن عوراته زهدتَ فيه وفسد رأيك فيه .

فالستر أَوْلَى لسلامة العلاقات ، ومن الشر أنْ تزهد فى أهل الخير ودُعاة الخير ، وقد فطن الشاعر إلى هذا المعنى فقال[2] :

اعملْ بعِلْمى ولاَ تركنَنْ إلى عَملِى   واجْنِ الثّمارَ وخَلِّ العُودَ للنّارِ

فالله رحمن رحيم فى علمه للغيب ، ونحن نبدأ بها أعمالنا فنقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، فبها نُعان ونُوفّق ، وبها تنفعل لنا الأشياء ، فأنت لا تقدر على الفعل بذاتك إنما بتسخير الله لك ينفعل الشىء حتى

---

(١) عن أبى برزة الأسلمى قال قال ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه فى بيته » أخرجه أبو يعلى الموصلى فى مسنده (٧٤٢٣) .

(٢) ما وجدته فى هذا أن هذا البيت هو عبارة عن شطرين من بيتين مختلفين :

الأول : اعمل بعلمى ولا تنظر إلى عملى   ينفعك قولى ولا يضررك تقصيرى

ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد ونسبه للخليل بن أحمد .

الثانى : فإن رواة العلم كالنخل يانعاً   فكُلْ الثمار وخلِّ العود للنار .

ذكره صاحب معجم الأدباء ياقوت الحموى وعزاه لابن فضال .

لو كنتَ عاصياً لله خارجاً عن منهجه لا يحرمك عطاء الرحمن الرحيم ، ولا يؤاخذك بغبائك ، لأنك عبده وصنعته ، وهو ربُّك وخالقك الذى استدعاك لهذا الوجود .

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

تكرار هذه العبارة ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر] أفادت تأكيد أنه سبحانه وتعالى المتصف وحده بهذه الصفات التى جاءت بعدها ، فالله وحده الذى لا إله إلا هو ، هو عالم الغيب والشهادة ، الرحمن الرحيم ، الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر .

(الملك) اسم من أسمائه تعالى ، ومادة (ملك) منها مالك وهو الذى يملك شيئاً مهما كان صغيراً حقيراً ، حتى لو كان يملك الثوب الذى يلبسه يُسمَّى مالك فهو إذن كلّ مَنْ يحوز شيئاً ، ومنها الملكُ وهو الذى يملك من يملك ؛ فالحق سبحانه هو (الملك) الذى يملك الأشياء ويملك مالكيها فهم عباده وصنعته ، ولم يصف الحق سبحانه نفسه بأنه مالك إلا يوم القيامة ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة] فهو سبحانه فى هذا اليوم المالك حيث لا مالك غيره سبحانه ، ففى هذا اليوم تُنتزع الأملاك من أصحابها فلا أحدَ يملك شيئاً .

ومعنى ﴿ الْقُدُّوسُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر] مبالغة فى التنزّه عن كلِّ

نقيصة ، وزيادة فى الطهر الطهور الذى يُطهر كل شىء ، لذلك تقول الملائكة فى تسبيح الله : سبوح قدوسٌ رب الملائكة والروح[1] : أنت يا ربنا مسبَّح تُسبِّحك كل المخلوقات ، قدوس أى منزه عن كل عيب ونقيصة .

وهذه من الكلمات التى لا تُقال إلا له سبحانه ، لذلك قلنا فى دعائه تعالى : سبحانك ولا تُقال إلا لك . وبالفعل وجدناها فى دنيا الناس ، فكم فيها من عظيم مطاع آمر ناه ، تُقال له كل ألفاظ التكبير والتفخيم ، ومع ذلك لم نسمع أحداً يقول لأحد : سبحانك .

وقلنا ذلك أيضاً فى لفظ الجلالة (الله) ، فمع وجود الكفر والكافرين والملاحدة ومنكرى الألوهية لم نجد أحداً أبداً سمَّى ابنه (الله) لماذا ؟ لأنه لا يجرؤ على ذلك أحد ، يخاف أنْ يُؤخذ فى لحظتها أخْذ عزيز مقتدر .

لذلك قال سبحانه فى تعظيم نفسه ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ [مريم] والذين يأخذون بمبدأ الصرفة[2] يقولون : إن الله سبحانه هو الذى صرفهم عن هذا .

نقول : حتى لو لم يصرفهم ما جرءُوا على ذلك ، كما قالوا فى

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١٢ / ٧١٧) وعزاه لعبد بن حميد وأبى يعلي وابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهم عن أبى هريرة من حديث طويل قال : « والملائكة يحمل عرشه ثمانية وهم اليوم أربعة أقدامهم على تخوم الأرض السفلى والأرضون والسماوات إلى حجزهم والعرش على مناكبهم لهم زجل بالتسبيح فيقولون : سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، سبحانه ربنا الأعلى الذى يميت الخلائق ولا يموت » .

(٢) القول بالصرفة يعنى أن الله صرف البشر عن معارضة هذا القرآن ، وإلا فإن العرب قادرون على المعارضة . وهو كلام المعتزلة وقد رد عليهم أهل السنة (انظر شرح العقيدة الطحاوية ١ / ١٢٣ ، ٧٦٣) .

قضية إعجاز القرآن أن الله تعالى صرف العرب عن الإتيان بمثل هذا القرآن ، ولولا أن الله صرفهم لأتوا بمثله ، وهذا القول مجانب للصواب ، لأنهم لو لم يُصرفوا أيضاً لا يأتون بمثله .

ومعنى ﴿ السَّلامُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر] أى السلام فى ذاته تعالى ، والسلام مشتق من السلامة ، أى سلامة الجوارح من التعارض والتنافر مع ذاتها فهى منسجمة مع بعضها البعض .

لذلك عندما بُلِّغت السيدة خديجة : إن ربك يُحييك بالسلام قالت : الله السلام[1] ، ولم تقل وعلى الله السلام ، لأنه سبحانه هو السلام فى ذاته ، لذلك جعل تحية المسلمين السلام عليكم ، فحين يطرأ عليك طارئ لا تعرف أهو آتٍ بخير أم بشرٍّ .

فحين يقول : السلام عليكم نأمن جانبه ونأنس إليه ، لأنه جاء من باب السلام ونردّ عليه التحية : وعليكم السلام . أى : نحن أيضاً أهل سلام ولن ينالك منا إلا السلام .

لذلك جعلها الله تحية الملائكة لأهل الجنة : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر] ثم يُرقَى هذه التحية فيحيى بها الحق سبحانه وتعالى عباده وأهل جنته : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس]

وكلمة ﴿ الْمُؤْمِنُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر] أيضاً اسم من أسمائه تعالى

---

(١) أخرج ابن منده فى التوحيد (٢٠٦) عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لها : « هذا جبريل يقرأ عليك السلام . فقالت عائشة : الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام » وكذا حدث مع خديجة رضى الله عنها أن جبريل قال لرسول الله : الله يقرئها السلام فقالت : هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام ، أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٨٥٥٩).

وصفة من صفاته سبحانه . ومادة (أمن) تتعدّى بنفسها فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش] وقوله تعالى ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] أى : جعلناهم آمنين لا يخوفهم شئ .

وتتعدّى بالباء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [آل عمران] وهى هنا بمعنى اعتقده ، ومرة تتعدى باللام : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا .. ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف] أى : مُصدِّق .

فمعنى ﴿ الْمُؤْمِنُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر] الذى يُؤمِّن عباده مما يُخيفهم ، أو هو المؤمن بمعنى الإيمان ، فهو سبحانه أول مَنْ آمن بنفسه تعالى ، كما قلنا شهادة الذات للذات فى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران] وإذا كانت بمعنى التصديق فهو سبحانه المصدِّق لرسله بالمعجزات .

﴿ الْمُهَيْمِنُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر] المهيمن على الشيء يعنى القيِّم عليه المتصرِّف فيه ، قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة]

فالقرآن مهيمن على الكتب قبله والكلمة له والله تعالى المهيمن على خلْقه القائم عليهم المتصرِّف فيهم ﴿ الْعَزِيزُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر] هو الشيء النادر الوجود الذى لا مثيلَ له . والعزيز : هو الغالب الذى لا يُغلب .

﴿ الْجَبَّارُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر] صفة من صفات الجلال للحق سبحانه وتعالى يقهر بها المخالفين لمنهجه ، وهى أيضاً من صفات الخَلْق ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ .. (٤٥)﴾ [ق] يعنى : مسيطر عليهم تقهرهم على أنْ يؤمنوا .

والله سبحانه وتعالى أيضاً جابر نقول : يا جابر كل كسير ، وجابر العثرات يجبر كسر الفقير فيغنيه ، ويجبر كسر الجاهل فيعلمه ، ويجبر كسر الضعيف فيقويه .

وكذلك من الخَلْق من هو جابر العظام يسمونه مُجبِّر أو مجبراتى ، وهو الذى يعيد العظام إلى موضعها ويربط عليها بالجبيرة .

مع الفارق بين صفة الحق وصفة الخَلْق ، صفة الحق سبحانه ذاتية فيه والصفة فى الخَلْق موهوبة قد تُسلب منه . والجبروت فى الخلق فيه ظلم وتعدٍّ ، أما الجبروت فى حقه تعالى ففيه حلم وحكمة وعدالة .

ومعنى ﴿الْمُتَكَبِّرُ ..(٢٣)﴾ [الحشر] من الكبر وهى صفة مذمومة فى الخَلْق محمودة فى الخالق سبحانه ، فى الخلق صفة نقص وفى الخالق صفة عظمة وكمال .

والكبر صفة ذاتية فى الله تعالى وصفة مفتعلة فى المخلوق لأنه يتكبر بشىء موهوب له ليس ذاتياً فيه ، من الناس مَنْ يتكبّر بماله أو بصحته أو بجاهه ، وهذه كلها عوارٍ[1] مستردَّة وعَرَض زائل .

لذلك الله وحده هو المتكبر بحق وما سواه متكبر بالباطل ، الله متكبر لأنه الغنى عن خَلْقه لا ينقصه شىء وهو واهب كل شىء ، لذلك من نعم الله علينا أنه المتكبِّر لأن تكبُّره سبحانه يعنى أنه لا يظلم : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت]

---

(١) العوارى جمع العارية وهو تمليك المنفعة ، فالله يعطيك المال والصحة والجاه كحق منفعة تنتفع به طيلة حياتك ، فإذا مت استرد الله ما ملكك فيه وقد يرده إلى أولادك من بعدك . فهى على سبيل الإعارة لك ولستَ مالكاً حقيقياً لأى منها .

فهذه من كبريائه تعالى لأن الظلم يعنى أنْ تأخذ ما ليس لك لتزيد فيما عندك ، والله متكبر عن هذا لأنه مالك كلِّ شىء على الحقيقة ولا ينقصه شىء .

لكن هل جبّارية العبد تُخرجه عن جبّارية خالقه ؟ لا بل يظل تحت جبارية خالقه عز وجل لا ينفلت منها ، وكيف له ذلك ؟ لأن خالقه وإنْ جعله مختاراً فى أنْ يطيع أو يعصى ، أنْ يؤمن أو يكفر ، يفعل أو لا يفعل إلا أنه مقهور فى منطقة أخرى لا اختيارَ له فيها .

وهذه هى جبارية خالقه عليه لا تنفك عنه ، لذلك يُعجبنى قولهم : إذا دعتْك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكَّر قدرة الله عليك[1] .

ومن حظّ المخلوق أنْ تكون الكبرياء للخالق وحده فلكلٍّ واحد منا نصيب من هذا الكبرياء بالتساوى ، الكبرياء لله يعنى ألا يتكبَّر واحد منا على الآخر لأننا أمام كبرياء الله سواء ، ومن عرف أن الكبرياء لله وحده استحى أنْ يتكبّر على خَلْقه .

وقوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)﴾ [الحشر] يعنى : تنزيهاً لله تعالى عما يشركون به .

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)﴾

---

(١) هو من أقوال عمر بن عبد العزيز . قال ابن الجوزى أنه كتب إلى بعض عماله : أما بعد فإذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم فاذكر قدرة الله عليك فى نفاد ما يأتى إليهم وبقاء ما يأتى إليك .

أيضاً هنا يعيدها ﴿هُوَ اللَّهُ ..(٢٤)﴾ [الحشر] للمرة الثالثة لأن الآيات مستمرة فى ذكر أسماء الله تعالى وصفاته ، ومنها ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ..(٢٤)﴾ [الحشر] هكذا فى خيط واحد ، لأن هذه المعانى الثلاثة ما هى إلا مراحل متتالية للشىء الواحد .

فالله هو الخالق والخَلْق إيجاد من العدم ، والبارىء أى الذى يُسوِّى هذا المخلوق على هيئة صالحة ليؤدى مهمته التى جعل لها مثل ما تبرى القلم لتكتب به أو تبرى السهم ليصيب الهدف .

فالأشياء لا تؤدى مهمتها إلا إذا كانت على هيئة معينة ، الولد مثلاً كان أبوه حداداً فذهب معه إلى الورشة فوجده يأخذ عود الحديد المستقيم ويُعوجه ، فالولد تعجَّب لفعل أبيه كيف يعوج المستقيم .

فبيَّن له الوالد أنه يريد أن يصنع منه خطافاً ، والخطاف لا يؤدى مهمته إلا إذا كان هكذا مُعْوجاً .

ثم ﴿الْمُصَوِّرُ ..(٢٤)﴾ [الحشر] الذى يُصوِّر هذا المخلوق كيف يشاء ويُصوِّره على غير مثال سابق ، فقال فى الإنسان ﴿الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧)﴾ [الانفطار] وقال ﴿فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)﴾ [الانفطار] فهنا طلاقة قدرة ، أولاً قدرة قادرة على أنْ تُوجد من عدم وتُبرز إلى الوجود شيئاً لم يكن موجوداً وقبلها إرادة ترجح المطلوب .

وبعد ذلك يأتى المصوِّر فيعطيها الصورة اللائقة ، وتأمل الإعجاز فى خَلْق الإنسان وتصويره وطلاقة القدرة فى كثرة الأعداد وفى عدم

التطابق فى الأشخاص .

نحن نرى المهندس مثلاً لمنتج معين يصنع له قالباً يعطى نماذج متساوية ومتطابقة مثل الأكواب مثلاً ، أما الخالق سبحانه فيبدع فى الخَلْق بحيث يأتى كل إنسان خَلْقاً فريداً وحده لا يطابق غيره أبداً .

وتعرفون الآن الاختلاف فى بصمة اليد وبصمة الصوت وكل يوم يكتشفون فى الإنسان بصمة جديدة تُميِّزه عن غيره ، ولولا هذا التمايز فى خَلْق البشر لتشابهوا وتداخلت شخصياتهم وحدث خلط ولَبْس بحيث لا تستقيم حياة البشر إلا بهذا التميز ، وإلا لو حدثت جريمة كيف نعرف الفاعل وكيف نميِّزه عن غيره .

وقوله سبحانه : ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ..(٢٤)﴾ [الحشر] قلنا إن لفظ الجلالة (الله) هو علَم على واجب الوجود سبحانه وهو الاسم وغيره من الأسماء هى فى الحقيقة صفات ، فالخالق البارىء المصوِّر صفات للحق سبحانه وتعالى ولشهرتها انتقلت من الوصف إلى الاسم .

والدليل على أنها صفات أن الله وصفها بالحسنى ، والحسنى جمع لمؤنث ، ولو كانت أسماء لقلنا الأسماء الحسان ، إذن هى صفات لكن اشتهرتْ عنه سبحانه وخُصَّت به وحده فصارت اسماً له ، فحين نقول ﴿الْبَارِئُ ..(٢٤)﴾ [الحشر] فلا تُطلق إلا على الله .

المصوِّر لا تقال إلا له سبحانه وهكذا إذن هذه صفات ، ولما كانت لا تُطلق إلا على الله صارت اسماً له سبحانه ، فالوصف قد

يكون من الشهرة بحيث يلتصق بصاحبه ، فلا ينصرف إلا إليه كما نقول أمير الشعراء ، فلا تنصرف إلا إلى أحمد شوقى .

ومعنى ﴿ الْحُسْنَىٰ ..(٢٤) ﴾ [الحشر] أى التى تدلّ على صفات الكمال المطلق له سبحانه ، فلفظ الجلالة (الله) يدل على الوجود فقط وبه تنفعل لك الأشياء عندما تبدأ ببسم الله ، مثل القاضى حينما يجلس للحكم يقول : باسم الشعب ، لأن الشعب هو الذى جعله يجلس على هذه المنصة .

كذلك إنْ أردتَ عملاً فيه قدرة أو حكمة أو علم أو رحمة فقُلْ : يا الله ، لأنه الاسم الجامع لكلِّ هذه الصفات ولكلِّ التجليات فى هذه الأسماء .

وقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٢٤) ﴾ [الحشر] لاحظنا أن مادة (سبح) فى القرآن استوعبتْ الزمان كله فى الماضى والحاضر والمستقبل ، قال هنا ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٢٤) ﴾ [الحشر] وقال ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ (١) ﴾ [الحديد]

وقال ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) ﴾ [الأعلى]

فالله مُسبَّح فى كل وقت ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..(٤٤) ﴾ [الإسراء] بل إنه سبحانه مسبَّح قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّح .

قال هنا ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ .. (٢٤) ﴾ [الحشر] بضمير الغائب إشارة إليه سبحانه لأن الآيات السابقة بدأتْ بقوله تعالى ﴿ هُوَ اللَّهُ ..(٢٤) ﴾ [الحشر] فالله الذى هذه صفاته : الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر .. هو الذى يُسبِّح له ما فى السموات والأرض .

ومرة يقول : ﴿ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ..(١) ﴾ [الجمعة] قلنا : لأن السموات والأرض خَلْق عجيب ومُعجز بذاته ﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر] فالسموات والأرض تُسبِّح قبل أنْ يخلق الإنسان المسبح .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾ [الحشر] العزيز : قلنا النادر الذى لا مثيلَ له ، أو العزيز يعنى القوى الذى يَغلب ولا يُغلب . وهذه الغلبة مُنزَّهة عن البطش والظلم والتعدِّى لأنها محكومة بالحكمة .

﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾ [الحشر] والحكيم الذى يضع الشىء فى موضعه وضعاً يناسب مهمته ، فالقوة تُذمّ حينما تكون منفلتة لا ضابط لها .

سُورَةُ المُمتَحنَةِ

تنويه

تقتضى الأمانة العلمية التى التزمنا بها طيلة صفحات مجلدات خواطر الشعراوى تحقيقاً وتخريجاً وتوثيقاً لما قاله إمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله ورضى الله عنه .

فالشيخ رحمه الله قد توفاه الله وهو فى آخر آية من سورة الممتحنة ، وقد نهضت همتنا لإكمال خواطره رحمه الله على نفس منهجه الدعوى وأسلوبه المتميز من المزج بين الخواطر واللغويات والنواحى الأدبية والأسلوبية التى تبرز إعجاز هذا القرآن العظيم .

وقد استعنا فى هذا بمسموعات ومرئيات وبتفسيره أيضاً وصغناها بأسلوب قريب المتناول كما هى عادة الشيخ رحمه الله .

ولم نخرج فى هذا التفسير عن منهجه وروحه الدعوية ولم نألُ جهداً فى الرجوع أولاً إلى الكثير من التفاسير بمناهجها المختلفة سواءً التى تفسر القرآن بالقرآن ، أو التى تفسر القرآن بالمرويات والأحاديث أو التى تفسره من الناحية اللغوية كالبغوى أو تلك التى تفسره بالمنهج الفكرى فى الآيات كالرازى والألوسى .

قمنا بهذا العمل حسبة لله عز وجل ، ورجاء إيصال وتكملة هذا الكنز الذى ستذكره الأجيال بكل الخير .

قمنا بهذا العمل تحت إشراف ودعم فضيلة الشيخ / سامى متولى الشعراوى

الأستاذ / عادل أبو المعاطي

الشيخ / رجب فتحى محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الممتحنة(١)

يقول الحق سبحانه :(٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾

(١) سورة الممتحنة هى السورة رقم (٦٠) فى ترتيب المصحف ، عدد آياتها ١٣ آية ، وهى سورة مدنية نزلت بعد سورة الأحزاب وقبل سورة النساء فهى خامس سورة تنزل بالمدينة .

(٢) سبب نزول الآية : نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة وهو أنه أتى امرأة ادعت الإسلام فى المدينة وهى من قريش ، أتاها حاطب وأعطى لها كتاباً إلى أهل مكة وأعطاها عشرة دنانير على أن توصل إلى أهل مكة كتاباً وكتب فى الكتاب : من حاطب إلى أهل مكة أن رسول الله يريدكم فخذوا حذركم ، فخرجت سارة ونزل جبريل فأخبر النبى بما فعل حاطب ، فبعث رسول الله علياً وعماراً والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود وكانوا كلهم فرساناً وقال لهم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن فيها ظعينة معها كتاب من صاحب إلى المشركين فخذوه منها وخلوا سبيلها فإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها فخرجوا حتى أدركوها فى ذلك المكان فقالوا لها : أين الكتاب ؟ فحلفت بالله ما معها كتاب ، ففتشوا مكانها فلم يجدوا معها كتاباً فهمُّوا بالرجوع فقال على : والله ما كذبنا ولا كذبنى وسلَّ سيفه وقال : أخرجى الكتاب وإلا والله لأجزرنك ولأضربن عنقك .

فلما رأت الجد أخرجته من ذوائبها قد خبأته فى شعرها ، فخلوا سبيلها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله فأرسل رسول الله إلى حاطب فأتاه فقال له : هل تعرف الكتاب ؟ قال : نعم. قال : فما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا رسول الله والله ما كفرت منذ أسلمت ولاغششتك منذ نصحتك ولا أجبتهم منذ فارقتهم ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته وكنت غريباً فيهم وكان أهلى بين ظهرانيهم فخشيت على أهلى .. فنزلت . أسباب النزول للواحدى ص ٢٣٩ .

هذا نداء من الله عز وجل يقول : يا مَنْ آمنتم بى رباً وبأنِّى الإله الواحد الخالق الرازق التزموا منهجى الذى جاء به رسولى إليكم ، ففى هذا المنهج نجاتكم وسعادتكم فى الدنيا والآخرة ، واحذروا إغفال هذا المنهج أو الانصراف عنه لأنكم لو انصرفتم عنه أصابكم العطب ، وحدث الخلل فى حركة حياتكم ، ولن ينصلح حالكم إلا بالرجوع إليه والله لا يُغير ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم .

واعلموا أن التزامكم بمنهجى لايزيد شيئاً فى مُلْكى ولا صفة لم تكنْ لى ، بصفات الكمال فىَّ خلقتكم ، وما فرضتُ عليكم هذا المنهج إلا لصالحكم فأنتم صنعتى وكلُّ صانع يحب لصنعته النجاة والسعادة ، فخذوا عنى هذا التوجيه ﴿ **لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ..** ① ﴾ [الممتحنة] أى : لا تجعلوا منهم أولياء لأنهم أعداء ، والعدو لا يكون أبداً ولياً . العدو الذى يُعاديك ويصادمك .

وهذه الكلمة فى اللغة تلزم الإفراد مع المثنى والجمع ، تقول : هذا عدو وهذان عدو وهؤلاء عدو . ومن ذلك قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عن الأصنام ﴿ **فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ** ⑦⑦ ﴾ [الشعراء]

الحق سبحانه وتعالى قدَّم العداوة التى له سبحانه : ﴿ **لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي ..** ① ﴾ [الممتحنة] لأن عدوى سيكون بالتالى عدواً لكم فلا تجعلوا منهم أولياء ، والولى هو الذى تُواليه وتُقرِّبه وتتخذ منه نصيراً ومُعيناً ، ولو اتخذتم أولياء من أعداء الله أفسدوا عليكم حياتكم لأنهم مصادمون لمنهج الله فلا يُنتظر من ولايتهم خير .

وفى آية أخرى شرح لنا هذا المعنى فقال سبحانه : ﴿ **لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ**

فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً .. ②⑧ ﴾ [آل عمران] يعنى هذا الحكم ليس حكماً فى قالب حديدى ، فقد تضطرنا الأوضاع فى وقت ما لأنْ نُداهنهم إنْ كانوا أقوى منّا إلى أنْ نتمكن من مواجهتهم .

لكن إياك أنْ تستخدم مبدأ التقية[1] ، إياك أنْ تدخل من هذا الباب وأنت فى الواقع لا تقصده ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ **وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ②⑧ ﴾ [آل عمران]

وقال سبحانه موضِّحاً لنا هذه القضية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً[2] مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ..** ①①⑧ ﴾ [آل عمران] البطانة هم الحاشية والمقربون منك ، ومعنى ﴿ **مِّن دُونِكُمْ ..** ①①⑧ ﴾ [آل عمران] أى من غير المؤمنين ، فلا توالوا هؤلاء لأنهم ﴿ **لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ..** ①①⑧ ﴾ [آل عمران] لايُقصِّرون فى إفسادكم وإضعاف قوتكم .

فالله يريد لكم حركة مستقيمة وهم يريدون لكم حركة مُعوجة ﴿ **قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ..** ①①⑧ ﴾ [آل عمران]

وفضح نواياهم فقال : ﴿ **هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ..** ①①⑨ ﴾ [آل عمران] فليس لأحد بعد هذا البيان عذرٌ فى موالاتهم .

---

(١) التقية نوع من النفاق ويشتهر به الشيعة الرافضة الذين يلعنون الرافضة ويلعنون الشيعة أمام أهل السنة ويترضون على الصحابة فى الظاهر . وقد ظهرت هذه الفكرة (التقية) فى منتصف القرن الرابع . وقد جعلوها أصلاً من أصول فقههم للتخلص من تبعة رد كل سنة ثبتت عن النبى ﷺ حتى أنهم قالوا : لا إيمان لمن لا تقية له .

(٢) بطانة : أخصّاء وأصفياء . وبطانة الرجل ووليجته من يعرِّفه أسراره ثقة به . قاله أبو السعود فى تفسيره . واشتقاقه من بطانة الثوب .

وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ..(٥٧) ﴾ [المائدة] إذن : لأهمية هذه القضية أخذت رقعة واسعة فى كتاب الله حتى لا يقع المؤمنون فى هذا الفخ وهذا المنزلق الخطير .

وتأمل الأداء البيانى فى ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ..(١) ﴾ [الممتحنة] المراد تعطونهم وتخبرونهم بأسرار النبى ﷺ طلباً لمودتهم ، فجعل الأسرار التى تُفشَى كأنها مودة ومحبة بين الطرفين ، إما تُلقونها أنتم إليهم ، أو يُوقعون هم بكم ليأخذوها منكم .

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ..(١) ﴾ [الممتحنة] أى : كيف تفعلون ذلك مع مَنْ كفر بالحق الذى جاء به محمد ؟ ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ..(١) ﴾ [الممتحنة] أى يُخرجون رسول الله ويُخرجونكم بسبب إيمانكم بالله ، فالإيمان وحده علّة الإخراج ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ..(٢٨) ﴾ [غافر] أى : بسبب قوله ربى الله .

لذلك لم يُطِقْ كفار مكة وجود المؤمنين معهم فى مجتمع واحد ، لأن وجودهم سيقلب الموازين الاجتماعية ، وسيسحب بساط السيادة من تحت أقدامهم ، ولِمَ لا وهو دين يُسوِّى بين السادة والعبيد ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ..(١) ﴾ [الممتحنة]

يعنى : إنْ كان خروجكم من أجلى جهاداً فى سبيلى إعلاءً لدينى ونُصْرةً لرسولى وطلباً لمرضاتى فلا تتخذوا أعدائى أولياء ، كأنه تعالى يقول لهم : أكملوا مسيرة الإيمان وكما صدقتم فى خروجكم

من أجل الله فاصدُقوا معه ولا تتخذوا من أعدائه أولياء .

﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ..(١) ﴾ [الممتحنة] أى : تودونهم وتحبونهم وتجعلون ذلك سراً ، أو تُسرُّون إليهم بأخبار رسول الله ﷺ .

﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ..(١) ﴾ [الممتحنة] يعنى : احذروا مَنْ لا تخفى عليه خافية منكم .

﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ ..(١) ﴾ [الممتحنة] أى : يُوالى أعداء الله .

﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) ﴾ [الممتحنة] أى : انحرف عن الطريق المستقيم والنهج القويم .

والسواء هو الوسط . و(سواء السبيل) هو وسط الطريق . وهو الطريق السليم المستوي الموصل للغاية .

وقد كانت طرق العرب إما فيها رمال وإما بين الجبال ، وكانوا يختارون السير في وسط الطريق حتى لا ينالهم أذى من جرف هار من الرمال فيقع بهم ، أو أن تقع عليهم صخرة من جبل . ولذلك كانَ من لا يسير في سواء السبيل يضل لأنه يسلك سبيلاً لا يؤدى به إلى غاية خير .

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ(١) يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) ﴾

أى : أن عداوتهم لكم دائمة ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ ..(٢) ﴾ [الممتحنة] فى أى مكان وجدوكم فيه حتى لو مصادفة ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ..(٢) ﴾ [الممتحنة] ومن علامات هذه العداوة ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ ..(٢) ﴾ [الممتحنة]

(١) يثقفوكم : ثقف الشيء وجده وظفر به . أى حيث وجدتموهم وظفرتم بهم . [القاموس القويم ١ / ١٠٧]

بسط اليد عادة يكون بالخير ، أما هؤلاء فلن ينالكم منهم إلا الشر والأذى بالقول تارة وبالفعل أخرى ، وهذه نتيجة طبيعية لبُغضهم لكم وحقدهم عليكم .

﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الممتحنة] فليست بواطنهم بأقلّ حقداً من ظواهرهم ، فهم يؤذونكم فى الظاهر ويحبون أن تكونوا أمثالهم فى الكفر بالله كى لا تكون لكم قوة عليهم وتظل لهم السيطرة .

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾

كأنهم كانوا يوادون أعداء الله من أجل أرحامهم ومن أجل أولادهم وخوفاً عليهم ، وهؤلاء لن ينفعوهم ولن يُغنوا عنهم من الله شيئاً يوم القيامة ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس]

وقال سبحانه : ﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ..﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان]

إذن : لا تُوال أعداء الله من أجل أحد لأنهم لن يدفعوا عنك العذاب ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ .. ﴿٣﴾ ﴾ [الممتحنة] فهؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار .

وقالوا : نزلت هذه الآية فى حاطب بن أبى بلتعة[1] وكان مؤمناً

---

(١) حاطب بن أبى بلتعة : صحابى شهد الوقائع كلها مع رسول الله وكان من أشد الرماة وكانت له تجارة واسعة ، ولد (٣٥ ق. هـ) ، بعثه النبى ﷺ بكتابه إلى المقوقس صاحب الإسكندرية ، كان أحد فرسان قريش وشعرائها فى الجاهلية . توفى بالمدينة عام (٣٠ هـ) عن ٦٥ عاماً . [الأعلام للزركلى ٢/ ١٥٩] .

وهاجر إلى المدينة ، لكنه وقع فى زلة حيث إنه لما علم أن رسول الله ﷺ يستعد لفتح مكة أرسل إليهم كتاباً مع امرأة[1] أخفتْه فى شعرها ، وكتب فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش إن محمداً يريدكم فاحذروه .

فأوحى الله تعالى إلى رسوله بذلك ، فاستدعى كلاً من علىّ وعمار وعمر وطلحة والزبير وكانوا فرساناً وقال لهم : الحقوا بامرأة ظعينة[2] تجدونها بروضة خاخ[3] معها كتاب إلى قريش وائتونى به ، فلما لحقوا بها وسألوها عن الكتاب قالت : ليس معى شىء ، ففتشوها ومتاعها فلم يجدوا شيئاً وأرادوا الانصراف .

فقال علىّ رضى الله عنه : والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله ولا كذب الوحى على رسول الله ، وسَلَّ سيفه وقال لها : إما أنْ تُظهرى الكتاب وإما قتلتك ، فأخرجتْه من شعرها وعادوا به إلى رسول الله .

فاستدعى رسول الله حاطباً وقال له : ما حملك على هذا ياحاطب ؟ فقال : يا رسول الله إنى امرؤ ليس لى أهلٌ ولا عصبية ، ولى أقارب بمكة فأردتُ أنْ أتخذ عند قريش يداً ، وأعلم أن ذلك لن يضرك من الله بشىء وأنك منصور منصور ، فقال رسول الله ﷺ : صدقتَ .

---

(١) هذه المرأة هى سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب بن عبد مناف وكانت مغنية بمكة وكانت قدمت على رسول الله المدينة وطلبت منه الميرة وشكت الحاجة فأوقر لها بعيراً طعاماً فرجعت إلى قريش وارتدت عن الإسلام [السيرة الحلبية ٢/ ١١] .

(٢) يقال للمرأة ظعينة بمعنى مرتحلة ، ظعن ظعناً ارتحل . وهى أيضاً فعيلة بمعنى مفعولة لأن زوجها يظعن بها . ويقال : الظعينة فى الأصل وصف للمرأة فى هودجها . [المصباح المنير] .

(٣) روضة خاخ موضع بين مكة والمدينة بقرب حمراء الأسد من المدينة فى أحمائها ، وهى روضة كثيرة الماء والشجر وهى الآن من ضواحى المدينة إلى الجنوب منها يقع بأعلى العقيق بين وادى شوط وبين الناصفة بالقرب من أبيار الماشى .

فقال عمر : لا يا رسول الله دَعْنى أضرب عنقه ، فقال : لا يا عمر ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم – وكان حاطب من أهل بدر[(١)] .

إذن : الأرحام والقرابات لا تحملك أبداً على مخالفة منهج الله لأنك لا تدرى من أين يأتيك الخير ، لذلك الإسلام أعلى علاقة العقيدة فوق علاقة النسب ، والشواهد على ذلك كثيرة فى تاريخ الدعوة ، فعبيد الله بن عبد الله بن أُبى استأذن رسول الله فى أنْ يقتل أباه بدل أنْ يقتله أحدٌ من المسلمين غيره .

وابن أبى بكر يقول لأبيه : لقد رأيتُك يوم بدر ولكنى عزفتُ عنك، يعنى كان بإمكانى قتلك ولكن تركتُك رحمة بك ، فقال له أبو بكر : أما أنا فلو رأيتُك لقتلتُك[(٢)] .

والذين يحللون فلسفة التدين فى مسألة سيدنا أبى بكر وولده يقولون : هذا أمر طبيعى منطقى ، لأن ابن أبى بكر قارن بين أبيه ومعتقده حتى لو كان معتقده فى الإله الحق ، فمن الصعب عليه أنْ يقتل أباه ، أما أبو بكر فيقارن بين ربه الإله الحق وبين ولد من أولاده ، فاختار ربَّه على ولده .

---

(١) حديث طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٠٧ ، ٣٩٨٣ ، ٤٢٧٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٥٥٧) باب من فضائل أهل بدر . وأبو داود فى سننه (٢٦٥٢) وكذا الترمذى (٣٣٠٥) ، وأحمد فى مسنده (٦٠٠) من حديث على رضى الله عنه ، وكان معه الزبير والمقداد .

(٢) حدث هذا فى غزوة بدر . والصِّديق قاتلهم حتى قال له ابنه عبد الرحمن : قد رأيتك يوم بدر فصدفت عنك . فقال أبو بكر : ولكنى لو رأيتك لقتلتك . (كتاب أبو بكر الصديق لابن قاسم الحنبلى ص ٤٧) . وقال ابن برهان الدين الحلبى فى كتابه السيرة الحلبية (٢ / ٤١٤) أن عبد الرحمن لما أسلم قال لأبيه : لقد أهدفت لى أى ارتفعت لى يوم بدر مراراً فصدفت عنك أى أعرضت عنك فقال أبو بكر : لو هدفت لى لم أصدف أى أعرض عنك .

ومصعب بن عمر يقتل أخاه عبيد فى إحدى المعارك ، ويُؤخذ أخوه الآخر أسيراً فيقول لأبى اليسر الذى أسره : أشدد على أسيرك فإن أمه غنية وستفديه بمال كثير ، فنظر إليه وقال : أهذه وصايتك بأخيك يا مصعب ؟ قال : بل هو أخى لا أنت . إذن : كانت رابطة العقيدة أقوى وهى الأساس الذى انطلقوا منه .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) ﴾ [الممتحنة] يعنى : احذروا بصر الله إليكم وعينه التى لا تغفل ولا تنام ، واعلموا أنه يراكم ومُطلع على أفعالكم مهما أسررتُم موالاة أعدائه ، ومهما داريتم فهو بصير بكم .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ[(١)] أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) ﴾

بعد أنْ حدّثتنا الآيات عن حكم موالاة أعداء الله تعطينا نموذجاً فى ذلك واختارت له سيدنا إبراهيم عليه السلام أبا الأنبياء ، لأن له قصة وموقفاً فى دعوة أبيه وقومه :

---

(١) العداوة ضد الصداقة . والعدو ضد الصديق . والبغضاء شدة العداوة والكره والمقت .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [الشعراء]

إذن : خذوا أباكم إبراهيم قدوة وأسوة فى هذه المسألة ، ومعنى ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ..(٤)﴾ [الممتحنة] نموذج طيب فى عمل الخير تتأسون به وتفعلون مثله ، حيث تبرأ إبراهيم من الشرك والمشركين حتى لو كان فيهم أبوه أو عمه الذى ربّاه وله فضل عليه .

فكان لنا قدوة فى التبرى من الكافرين والمشركين ، وكلمة (بُرءاء) جمع برىء ، وهو الذى يتبرأ من الشىء وينفض يده منه ويتخلَّى عنه . ومعنى ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ .. (٤)﴾ [الممتحنة] أى : أنكرنا فعلكم وما أنتم عليه من الشرك .

ثم يقرر سيدنا إبراهيم والمؤمنون معه طبيعة العلاقة بينه وبين المشركين وأنها علاقة عداوة صريحة ﴿وَبَدَا..(٤)﴾ [الممتحنة] ظهر ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ .. (٤)﴾ [الممتحنة] وأيضاً ﴿وَالْبَغْضَاءُ .. (٤)﴾ [الممتحنة] هكذا عداء وكراهية لأننا على طرفى نقيض ، ولا يجتمع الإيمان أبداً مع الكفر .

وسيظل هذا العداء وهذه البغضاء موجودة ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ..(٤)﴾ [الممتحنة] إذن : علّة العداوة أنكم أشركتم بالله ، فلو آمنتم به وحده لتبدّلتْ هذه العداوة إلى مودة ومحبة .

لكن كلمة ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ ..(٤)﴾ [الممتحنة] لا تعطى دلالة على

أن عمه منهم .

﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ..(٤)﴾ [الممتحنة] هذا استثناء من الأسْوة الحسنة ، يعنى لكم أسوة حسنة فى إبراهيم فى كل شىء إلا فى هذه الكلمة لأن وعده لعمه بالاستغفار له يعنى أن قلبه مازال معه ، فلا تكُنْ هذه أسوة لأن فيها شيئاً من موالاة أعداء الله .

وفى موضع آخر ذكرت الآيات الحوار بين سيدنا إبراهيم وأبيه وأن سيدنا إبراهيم أنهى الحوار بقوله (سلام) ولها معنى فى هذا الموقف ، كما لو أنك تتناقش مع شخص آخر فزاد عليك فى الكلام فتنصرف عنه ، وتقول : يا شيخ سلام عليكم ، إذن : هو سلام موادعة لا سلام تحية .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾ [التوبة]

وظل إبراهيم عليه السلام يستغفر لعمه كما وعده إلى أن تبين له أنه عدو لله فانصرف عنه عند ذلك وتبرأ منه .

الحق سبحانه وتعالى أتى بسيدنا إبراهيم هنا على أنه أسوة للكون كله ، لأنه أبو الأنبياء وقال الله فيه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (١٢٠)﴾ [النحل] لأنه جمع من خصال الخير ما لا يوجد إلا فى أمة .

فالحق سبحانه وتعالى وزّع خصال الخير ونشرها بين خَلْقه ليحتاج كلُّ فرد منا إلى خصلة الخير فى أخيه ويحدث الترابط بين الناس فكانت هذه ميزة فى سيدنا إبراهيم لا توجد إلا فيه .

لذلك قال عنه ربه : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) ﴾ [النجم] وقال عنه : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. (٤) ﴾ [الممتحنة] لا أدفع عنك شيئاً من عذاب الله مجرد أنْ أستغفر لك ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) ﴾ [الممتحنة]

والتوكل عمل قلب وليس عمل جوارح ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ..(٤) ﴾ [الممتحنة] أخذنا بأسباب النجاة وتوكلنا بقلوبنا ليوفقنا إلى النجاة الحقيقية .

﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ..(٤) ﴾ [الممتحنة] أى : رجعنا وأفقنا مما كنا فيه فترك الدعاء والاستغفار لأبيه .

﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) ﴾ [الممتحنة] المصير المرجع ، فإلى الله مرجعنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) ﴾

هذا دعاء المؤمنين وعلى رأسهم سيدنا إبراهيم يقولون ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ..(٥) ﴾ [الممتحنة] كيف يكون المؤمن فتنة للكافر ؟ المؤمن يكون فتنة للكافر فى حالتين ، إذا انهزم المؤمنون فى معركة أمام الكافرين ، عندها يُفتن الكافر لأنه سيقول : لو كانوا مؤمنين بالله ما انهزموا .

أو لو كان لهم ربٌّ يدافع عنهم ما انهزموا ، أو يقولون لو كانوا صادقين فى إيمانهم ما انهزموا وهذه فتنة .

أو يفتن الكافر بالمؤمن حينما يرى أهل الإيمان يرتكبون المعاصى ولا يلتزمون بمنهج الله فيزهدون فى الإسلام ويكرهون الانتساب إليه .

وهذا واقع المسلمين الآن ، يُنفِّرون الناس من دين الله بدل أنْ يجذبوهم إليه ، لذلك قال علماؤنا : لا ينصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[1] .

والمؤمن يتحمل هذه المسئولية مسئولية الصدّ عن دين الله ، لذلك كان هذا الدعاء ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ..(٥) ﴾ [الممتحنة] اجعلنا مُنفِّذين لأوامرك تنفيذاً يُحبِّب الآخرين فى الدين ، ولا نكون حجة لهم فى الإعراض عن دينك .

وهذا يعطينا ضرورة التمسك بتعاليم الدين حتى لا ينظر أحد إلى المسلم أو المؤمن ويقول : هذا هو من يعلن الإيمان ويتصرف عكس تعاليم دينه ، فيكون سبباً فى فتنة آخرين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) ﴾

هذه أُسْوة أخرى غير الأُسْوة بسيدنا إبراهيم ، أسوة سيدنا إبراهيم كانت فى أنه لا يجامل أعداء الله ولا يوادهم حتى لو كانوا

(١) هذه قولة الإمام مالك : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » . (أشرح العقيدة الطحاوية ١ / ٩) . وما صلح به أولها هو العمل بكتاب الله وسنة رسوله .

أهله ، والأُسْوة هنا أسوة بمَنْ هم أهلٌ لتقبُّل ثواب الله ويطمعون فى الخير الذى ينتهى إلى ثواب الآخرة ورضوان الله سبحانه .

ومعنى ﴿ يَرْجُو اللَّهَ .. (٦) ﴾ [الممتحنة] يخاف عقابه ويطمع فى ثوابه ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ .. (٦) ﴾ [الممتحنة] أى عن هذا ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) ﴾ [الممتحنة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾

كلمة ﴿ عَسَى .. (٧) ﴾ [الممتحنة] تفيد الترجى ، وهو طلب شىء ممكن الحدوث ، فإنْ كان الرجاء من الله فهو مُتحقِّق وواقع ، تقول لصاحبك : تعال غداً عسى أن أقضى لك حاجتك ، هذا رجاء يمكن أن يتحقق . ويمكن أن يحول دون تحقيقه شىء ، لأنه رجاء مَنْ لا يملك كلّ أسباب التحقيق ، فإنْ كان الرجاء من الله فلا أحدَ يمنعه أو يحول دونه .

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ نهاهم عن موالاة الكفار يعلم سبحانه أن منهم للمؤمنين أقاربَ وأصدقاء ، وأن خواطر المؤمنين متعلقة بأقاربهم وأهليهم ممنْ لا يزال على الكفر .

فالحق سبحانه يُطيِّب خاطرهم كأنه يقول لهم : لا تحزنوا لمقاطعتكم لهم ، فعسى الله أنْ يُبدِّل هذه المعاداة إلى مودة وتحقق

هذا الرجاء بالفعل ، فرأينا كثيراً من هؤلاء فى ساحة الإيمان قبل أنْ يفارقوا هذه الدنيا .

صناديد الكفر وقادة الشرك أسلموا وحَسُن إسلامهم بل كانوا قادة فى صفوف المسلمين ، أمثال عمرو وخالد وعكرمة(1) ، سبحان الله عكرمة الذى كان من ألدِّ أعداء الإسلام والذى وقف وحده فى الخندق يوم الفتح ليرد المسلمين هداه الله للإسلام ، وأراد أنْ يبلى فى الإسلام بلاء يجبر به ما كان منه فى الجاهلية وفعلاً فى المعركة مزَّقته السيوف والرماح فيقول لسيدنا خالد : يا خالد أهذه ميتة تُرضى عنى الله ورسوله .

﴿ وَاللَّهُ قَدِيرٌ .. (٧) ﴾ [الممتحنة] أى أن الله سبحانه لا يُعجزه شىء ولا يخرج عن طاعته شىء ، إنه سبحانه على كل شىء قدير ، وهو سبحانه القادر الأعلى الذى يأتى بقلوب وأفئدة هؤلاء إليكم ويجعل بينكم وبينهم مودة .

وهذا مثل قوله سبحانه : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .. (١٠٣) ﴾ [آل عمران]

ثم يقول : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾ [الممتحنة] يغفر لهم ما اقترفوه قبل إسلامهم ويرحمهم بنعمته ويفيض عليهم برحمته وأنتم معهم فى هذا ، ففضل الله عظيم .

---

(1) هو عكرمة بن أبى جهل عمرو بن هشام القرشى ، من صناديد قريش فى الجاهلية والإسلام ، أسلم عكرمة بعد فتح مكة وحسن إسلامه فشهد الوقائع ، واستشهد فى اليرموك عام ١٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤/٢٤٤] .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾

قالوا : سبب نزول هذه الآية أن جماعة من المسلمين قالوا : إن لنا أقارب لم يؤمنوا فهل لنا أنْ نقدّم لهم شيئاً من المعروف ، فنزلت : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ ..﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة] لا ينهاكم الله عن برِّهم والإحسان إليهم ﴿ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة]

فشرط برِّهم ألاّ يقاتلوكم وألاّ يُخرجوكم من دياركم فلا مانع أنْ تبروهم ، وهذا معنى قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان]

وسبق أنْ بيّنا أن هذه الآية لا تتعارض مع قوله تعالى : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ[2] اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة]

(١) سبب نزول الآية : أخرج الطبري في تفسيره (٣٤٢٦٩) من حديث الزبير بن العوام قال : نزلت في أسماء بنت أبي بكر وكانت لها أم في الجاهلية يقال لها قتيلة ابنة عبد العزى فأتتها بهدايا ضباب وأقط وسمن فقالت : لا أقبل لك هدية ولا تدخلي عليّ حتى يأذن رسول الله ﷺ فذكرت ذلك عائشة لرسول الله فأنزل الله ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴿٨﴾ ﴾ إلى قوله ﴿ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

(٢) حاد الله ورسوله : خالفوا الله ورسوله فيما يأمران به وينهيان عنه . فحادّ الله ورسوله : عادى الله ورسوله . [تفسير القرطبي في تفسير الآية] .

لأن المودة ميْل قلبي وحب ، أما المعروف وأعمال الخير فهي بسطة يد . ولو على مَنْ تكره . وقالوا : البر فعل خير يسرُّ من فعل به ، والمراد هنا بـ ﴿ أن تَبَرُّوهُمْ ..﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة] يعني : إذا طلب منكم فبروهم ولا تبدأوهم أنتم بالعطاء .

ومعنى : ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ..﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة] مادة (قسط) في اللغة من الكلمات التي تدل على الشيء ونقيضه ، نقول : قسط يقسط قسطاً يعني عدل . ومنها قسط قسطاً وقسوطاً يعني ظلم وجار .

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن] وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات] ومقسط اسم فاعل من أقسط ، والهمزة هنا همزة الإزالة أي أزال القسط أو الجور .

ومن معاني ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة] نقول : أقسط يعني جعل الشيء أقساطاً أي أجزاء ، وليس جملة واحدة ، والمعنى أعطوهم شيئاً من أموالكم على هيئة أقساط كل شهر مثلاً تُعطوهم شيئاً يكفيهم ويرفع عنهم مذلّة الحاجة والسؤال ولا تجعله يأتيك ويذلّ نفسه .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [الضحى] لأنك لو نهرته لقال معترضاً على الله : لماذا أعطى هذا ومنعني ؟ وهذا المعنى شرحته الآية : ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى .. ﴿٢٦٣﴾ ﴾ [البقرة]

وسيدنا رسول الله يقول « إنكم لن تسعُوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم »[1] أي : بالكلمة الطيبة . لذلك قال تعالى هنا :

(١) أخرجه البزار في مسنده (٨٥٤٤ ، ٩٣١٩ ، ٩٦٥١) وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٦٥٥٠) وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٥٨٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحُسْن الخلق » .

﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ..﴾ (٨) [الممتحنة] فالبر يرفع عنهم الحاجة ، وتقسطوا إليهم برفع مذلة السؤال .

ويُروى عن أهل الخير أن سائلاً طرق الباب فخرج إليه ربُّ البيت وقضى له حاجته ، ثم عاد فوجدته زوجته يبكى فتعجَّبتْ لم تبكى وقد أعطيته حاجته ؟

فقال لها : إنما أبكى لأننى تركتُه يسأل . إذن : على أهل الخير أنْ يتحسَّسوا حالة مَنْ حولهم من أهل أو جيران أو معارف ويبحثوا عن أهل الحاجات فيبادرونهم ويذهبون إليهم ويحفظون عليهم ماء وجوههم ، فخَلْفَ الأبواب وخلف الجدران كثيرٌ من الفقراء الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف فابحثُوا عنهم .

ويُحكى أن جماعة من العرب يجلسون عند الكعبة يتناقشون : مَنْ هو أجود العرب ؟ واختلفوا حتى علتْ أصواتهم فقال أحدهم : سعد ابن عبادة . وقال آخر : عبد الله بن جعفر [١] ، وقال الآخر : بل عرابة الأوسى [٢] ، فقال أحدهم : لكى نعرف مَنْ أجودهم نبعث إلى كل واحد منهم رجلاً يسأله على أنه عابر سبيل ومنقطع ، وننظر ماذا يكون من عطائهم .

---

(١) عبد الله بن جعفر بن أبى طالب القرشى صحابى ، ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبواه إليها ، كان كريماً يسمى بحر الجود وللشعراء فيه مدائح ، كان أحد الأمراء فى جيش على بن أبى طالب يوم صفين ، مات بالمدينة (٨٠ هـ) . [الأعلام للزركلى ٤ / ٧٦] .

(٢) عرابة الأوسى هو : عرابة بن أوس بن قيظى الأنصارى ، من سادات المدينة الأجواد ، أدرك حياة النبى ﷺ وأسلم صغيراً ، وفد الشام فى أيام معاوية وله أخبار معه ، توفى بالمدينة نحو (٦٠ هـ) ، وهو الذى يقال فيه الشماخ المرى : « إذا ما راية رُفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين » . [الأعلام للزركلى ٤ / ٢٢٢]

فذهب الأول إلى سيدنا عبد الله بن جعفر فقال : يا بن بنت رسول الله سائلٌ انقطع به الطريق ، وكان عبد الله خارجاً للصيد وقد وضع رِجْلاً فى الرِّكاب والأخرى على الأرض ، فأنزل رجْله من الرِّكاب وقال للسائل : تعال ضع رِجلْك فى الرِّكاب وأعطاه حقيبة بها أربعة آلاف دينار وأربعة أثواب ، وأغلى ما فيها سيفٌ لعلى بن أبى طالب وقال له : انطلق وعاد هو ماشياً .

وذهب الثانى إلى سعد بن عبادة وطرق بابه فخرجت جارية وقالت له : ماذا تريد ؟ قال : أريد ابن عبادة ، فقالت : ولم ؟ قال : ابن سبيل ومنقطع ، فقالت : هو نائم ، وقضاء حاجتك أهون من إيقاظه ، والله ما عند سعد إلا كيس فيه سبعمائة دينار فخُذْها ، واذهب إلى معاطن الإبل فخُذْ لك راحلة وخادماً وامْض إلى سبيلك ، فلما استيقظ سعد أخبرتْه الجارية بما حدث فسُرَّ من فعلها وقال لها : اذهبى فأنت حُرة .

أما الثالث فذهب إلى عرابة الأوسى الذى قال عنه الشاعر [١] :

إذَا مَا رَايَةٌ رفِعَتْ لمجْدٍ ... تلَقَّاهَا عرَابة باليَمِينِ [٢]

لكن عرابة كان فى آخر أيامه وقد كُفَّ بصره ونفد ماله ولم يُبْقِ له كرمه شيئاً فرآه يسير بين عبدين له إلى المسجد ، فقال :

---

(١) هو الشماخ بن ضرار المازنى الذبيانى ، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، وهو من طبقة لبيد والنابغة ، كان أرجز الناس على البديهة ، شهد القادسية وتوفى فى غزوة موقان (٢٢ هجرية) . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيت من قصيدة للشماخ الذبيانى ، من بحر الوافر .

يا عرابة ابن سبيل ومنقطع فأعطنى شيئاً ، فقال : ويح عرابة لم تُبقِ له حقوقُ الناس شيئاً ، ثم سَلَّ نفسه من العبدين وقال له : خُذْ هذين العبدين لك ، قال : كيف أُخلِّى بينك وبين عكازك فى الطريق . قال : إلا تأخذهما فهما حُران .

ثم عاد الثلاثة إلى مجلسهم وحكى كلٌّ منهم ما حدث مع صاحبه ، وقد اتفقوا على أن عرابة أجودهم لأنه جاد بما عنده رغم حاجته[1] .

والجواد إذا لم يَجُدْ جاد ولو بكلمة طيبة فهى له صدقة ، لذلك قال الشاعر[2] :

لاَ خَيْلَ عنْدكَ تهديهَا وَلاَ مَالٌ ... فَلْيُسْعِدِ القَوْلُ إنْ لم يُسعِدِ الحَالُ[3]

وهنا ذُيِّلت الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)﴾ [الممتحنة] أى الذين يُعطون الناس شيئاً من أموالهم دون سؤال ، فالقسط هنا بمعنى الجزء من الشىء .

وقد قال رسول الله ﷺ : « المقسطون على منابر من نور عن

(١) ذكر هذه القصة بطولها ابن كثير فى كتابه (البداية والنهاية) والراوى لها الهيثم بن عدى . وذكر (قيس بن سعد) بدل (سعد بن عبادة) وفيه أنهم أجمعوا على أن أسخى الثلاثة عرابة الأوسى لأنه جاد بجميع ما يملكه وذلك جهد من مقل .

(٢) الشاعر هو : محمد الحسين كاشف الغطاء ، مجتهد إمامى ، أديب من زعماء الثورات الوطنية فى العراق ، ولد عام ١٨٧٧ م ، كان من الكُتّاب الشعراء الدعاة إلى الوفاق بين المسلمين . صنف كتباً كثيرة ، قصد إيران مستشفياً فتوفى بها ونُقل إلى النجف عام ١٩٥٤م ، [الموسوعة الشعرية] .

(٣) البيت من قصيدة من بحر البسيط ، وفيها (فليسعد النطق) بدل (فليسعد القول) .

يمين العرش . الذين يعدلون فى حكمهم وأهاليهم وما ولوا »[1] .

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ (٩)﴾

بعد أنْ حدَّثتنا الآيات عن فئة من الكافرين لهم حقّ البر ، وقال ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ .. (٨)﴾ [الممتحنة] أى : عن برِّهم والإحسان إليهم، يُبيِّن هنا الفئة الأخرى التى ليس لها هذا الحق ، فيقول سبحانه :

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ .. (٩)﴾ [الممتحنة] أى عن برِّهم والإحسان إليهم ﴿عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ .. (٩)﴾ [الممتحنة] أى : قاتلوكم بسبب تمسككم بدينكم ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ .. (٩)﴾ [الممتحنة] سعوا بأنفسهم إلى إخراجكم ﴿وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ .. (٩)﴾ [الممتحنة] عاونوا غيرهم على إخراجكم .

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ .. (٩)﴾ [الممتحنة] أى : تتخذوهم أولياء توالونهم وتناصرونهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ ... (٩)﴾ [الممتحنة] أى منكم ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾ [الممتحنة] نعم لأنهم ظلموا أنفسهم بالخروج عن أوامر الله ، وظلموا المؤمنين بموالاتهم للكافرين .

(١) أخرجه البزار فى مسنده (٢٣٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « المقسطون على منابر من نور يوم القيامة بين يدى الرحمن عز وجل بما أقسطوا فى الدنيا » .

ثم يقول الحق سبحانه[١] :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾

كان من شروط صلح الحديبية أن مَنْ يأتى من قريش إلى محمد مؤمناً يردّه إلى قريش ، ومَنْ يرتد ويذهب إلى قريش لا يردوه إلى محمد، وقد قبلَ رسول الله ﷺ هذا الشرط لأن فيه اعترافاً بمحمد ودعوته وإقراراً بأن الإسلام أصبح قوة قادرة على إبرام المعاهدات ، تعطى وتأخذ ، فلما أصبح الإسلام قوة قادرة على المواجهة أُلغِى هذا الحكم ، فقد قبلناه لفترة كانت المصلحة فى قبوله .

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : إن مشركى مكة صالحوا رسول الله ﷺ عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم ، ومن أتى أهل مكة من أصحابه فهو لهم ، وكتبوا بذلك الكتاب وختموه ، فجاءت سُبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبى ﷺ بالحديبية فأقبل زوجها وكان كافراً فقال : يا محمد ردّ علىَّ امرأتى ، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .
[أسباب النزول للواحدى النيسابورى ص ٢٤١]

والممتحنة هى المرأة المهاجرة تأتى رسول الله ﷺ مسلمة مؤمنة فلا تُردُّ إلى الكفار إنما تُمتحن أى تُختبر ﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ .. (١٠) ﴾ [الممتحنة] أى : اختبروهن لتعلموا حقيقة إيمانهن بأن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأنْ تقسم أنها ما خرجت إلا لحبِّها فى الإسلام ورسول الإسلام ، وما خرجتْ لا عن زوج تبغضه هناك ، ولا لزوج تريده هنا ، فإذا علمتم منها ذلك فلا تُرجعوها إلى الكفار[١] .

وكلمة ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ .. (١٠) ﴾ [الممتحنة] أن هذا الامتحان فى الأمور الظاهرة قولاً أو فعلاً ، أما البواطن فالله أعلم بها ، فطالما أن المرأة تعلن أنها مؤمنة فهى كذلك ، فلا يجوز أنْ تُردَّ إلى زوج كافر ، لأن المؤمنة لا تحلّ للكافر ولا الكافر يحلّ لها ﴿ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ .. (١٠) ﴾ [الممتحنة] للكافرين ﴿ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ .. (١٠) ﴾ [الممتحنة] للمؤمنات .

ومع هذا الفصل بين الإيمان والكفر لا يغفل الشارع الحكيم الحقوق المالية المتعلِّقة بالزوجين ، فالإسلام وعدالة الإسلام تحفظ الحقوق حتى للكافر ، فقد أخذنا منه زوجته لأنها مسلمة لا تحلّ له

(١) عن أبى نصر الأسدى قال : سئل ابن عباس : كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء ؟ قال : كان يمتحنهن بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله » أخرجه الطبرى فى تفسيره (٣٤٢٧٤) وابن كثير فى تفسيره (٨ / ٩٢) ، وهذا الامتحان للمؤمنات هو دليل أن الإسلام يضع المرأة المكانة اللائقة بها ويعطيها حقوقها فى المعتقد وأنها ليست مجرد تابعة لزوجها أو لأبيها فى هذا ، بل لها ذاتية وذمة منفصلة ، وأن الإسلام لا يريد قهرها على شىء لا عند المسلمين ولا بين الكافرين . [عادل أبو المعاطى] .

فلا بد أنْ نردَّ إليه ما أنفقه فى المهر ونفقات الزواج .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ..(١٠) ﴾ [الممتحنة] وهذا من عظمة عدالة الإسلام ، فهؤلاء الأزواج أنفقوا وبذلوا مالاً وضياعاً وغيره إلى زوجاتهم اللاتى أسلمن ولحقن بالمؤمنين فلتردوا عليهم ما أنفقوا فلا يُضاروا بإسلام زوجاتهم ، وهذا لا شك يؤثر فيهم ويلفتهم إلى عدالة هذا الدين ودقته فى عدم ظلم أحد .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ .. (١٠) ﴾ [الممتحنة]

ثم إن هؤلاء الزوجات اللاتى أسلمن لن يصبحن مشاعاً للمسلمين بل يجعل أمرهن للزواج بمن يُرِدْنَ على أن يعطوهُنّ حقوقهن التى كفلها الشرع لهن ، وذلك حتى لا يكون سعى المسلمين لغلبة غير المسلمين للحصول على نسائهم هكذا دون ضوابط .

وكذلك على الجانب الآخر ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ .. (١٠) ﴾ [الممتحنة] الكوافر جمع كافرة ، وهى المرأة المرتدة عن الإسلام ، فليس لزوجها المؤمن أنْ يُبقيها فى عصمته فليُطلِّقها لتعود إلى الكفار فى مكة ، وله أن يسأل ما أنفق عليها من مهر ومن نفقات .

فكما نعطى الزوج الكافر مهره نطلب منهم مهر المرأة المرتدة ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ..(١٠) ﴾ [الممتحنة] فهذه عدالة الإسلام التى لا تفرق بين مؤمن وكافر ، فالحقوق محفوظة لأصحابها حتى لو كانوا كافرين .

وسبق أنْ ذكرنا فى هذا المقام قصة اليهودى[1] الذى اتهمه المسلمون بالسرقة فأنصفه رسول الله وفيه نزلت : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ..(١٠) ﴾ [الممتحنة] وما دام حكم الله فلا يُرد ، حكم الله حكم عادل لا تردوه ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾ [الممتحنة]

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) ﴾

الكلام هنا على ما فات المؤمنين من حقوق وهى مهور المرتدات التى لم يدفعها الكافرون للمؤمنين ، الحق سبحانه وتعالى يُبيِّن حكمها ، فيقول للمؤمنين : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ..(١١) ﴾ [الممتحنة] أى المهور التى لم يردوها إليكم .

﴿ فَعَاقَبْتُمْ ..(١١) ﴾ [الممتحنة] العقاب يكون بهزيمتهم فى الحرب ،

(١) هو زيد بن السمين ، وقد أورد هذه القصة أبو إسحاق النيسابورى فى الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٣١ / ٣٨١) وكذا فى تفسير اللباب لابن عادل (١ / ١٥٩٧) أن رجلاً من الأنصار يسمى طعمة بن أبيرق سرق درعاً من جار له يقال له قتادة بن النعمان ، وكانت الدرع فى جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب حتى انتهى إلى الدار ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين ، فاتبعوا أثر الدقيق حتى بيت اليهودى فأخذوه منه واتهم اليهودى بالسرقة » الحديث .

وأخْذ أموالهم غنائم ، فعليكم أنْ تردّوا هذه المهور لأصحابها من أموال الغنائم ، يعنى من أموال الكفار التى غنمناها منهم ، نقضى ما عليهم من حقوق للمؤمنين[(١)] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٢) ﴾

فى فتح مكة جلس سيدنا رسول الله ﷺ على الصفا فبايع الرجال ، ثم جاء دور النساء فى المبايعة ، فكيف بايعهن رسول الله ؟ لقد بايع الرجال مصافحةً باليد ، فهل فعل هذا مع النساء وهو نبى الأمة ونساؤها جميعاً فى منزلة بناته ، كما قال سبحانه : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. (٦) ﴾ [الأحزاب]

قالوا : ما مسَّ رسول الله يد امرأة لا تحل له[(٢)] ، حتى فى مسألة

(١) فالإسلام راعى مصلحة جميع الأطراف ، المرأة التى آمنت وهاجرت رغبة فى الإيمان وحقها فى الاختيار ، وحق زوجها الكافر فى أن يأخذ ما أنفقه عليها ، وحق الزوج المؤمن فيما أنفقه على الكافرة التى لحقت بالكافرين أو طلقها ، ولو سيأخذ حقه هذا من غنائم غنمها المسلمون فى الحرب ، وكذلك حق المرأة فى أن تتزوج زواجاً شرعياً تأخذ فيه حقوقها بعد أن تركت زوجها الكافر [عادل أبو المعاطى] .

(٢) أخرج مسلم فى صحيحه (٤٩٤٢) عن عائشة قالت : ما مس رسول الله ﷺ بيده امرأة قط إلا أن يأخذ عليها فإذا أخذ عليها فأعطته قال : اذهبى فقد بايعتك . وفى نظم الدرر (٧ / ٥٦٨) فى قصة هند بنت عتبة « وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة لا تحل له » .

المبايعة التى تقتضى مصافحة لأن المبايعة عقد واتفاق ينشأ عنه بيع من هذا وشراء من هذا ، فكل منهما مُشْتر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ .. (١١١) ﴾ [التوبة]

فالله أُخذ من المؤمنين النفس والمال والثمن الجنة ، فهذه مبايعة وعلى كلِّ طرف أنْ يلتزم حقَّ العقد الذى أبرمه .

إذن : كيف بايعهن رسول الله ؟ قالوا : جاء رسول الله بإناء فيه ماء ووضع يده الشريفة فيه فلامستْ يده جزئيات الماء ، ثم جاءت كل امرأة تريد أنْ تبايع رسول الله فتضع يدها فى هذا الماء فتلامس يدها نفس الجزئيات التى لامستْ يد رسول الله وهكذا تمت المبايعة[(١)] .

فتأمل هذا الاحتياط من رسول الله مع منزلته من النساء المؤمنات، لذلك نعجب الآن ممن يبيح للرجال مصافحة المرأة الأجنبية ، يقول : وما فيها ؟

ورسول الله ﷺ يُعلِّمنا أن فيها شيئاً بل أشياء ، فيها الحلال والحرام ، إذا كان الشارع حرَّم النظر إلى المرأة الأجنبية وهو السيال المنقطع ، فهل يحلّ لك الملامسة وهى السيال المتصل وله ما له من التأثير فى الطرفين .

البعض يقول : هى عادة فى المجتمع ، نعم عادة سيئة لا تجوز ، وهل المجتمع مشرِّع ؟ إن للتشريع وبيان الحلال والحرام مصادرَ ،

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٤ / ٤٣٣) وعزاه لابن سعد وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كان رسول الله إذا بايع النساء دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه ثم يغمس أيديهن فكانت هذه بيعته ، وكذا فى نظم الدرر للبقاعى (٧ / ٥٦٨) .

فلا يصح أنْ نأخذ من غيرها .

إذن : لا يجوز مصافحة الأجنبية ، وإذا التزم المجتمع بهذا الأدب النبوى فهى مرة واحدة كافية للقضاء على هذه العادة أنْ تمدّ المرأة يدها للمصافحة فلا يمد الرجلُ يده ، أو يمد الرجلُ يده للمصافحة فلا تمدّها المرأة ، وعندها تنكسر هذه الشهوة وتنتهى[1] .

لما بايع رسول الله الرجال بايعهم على الإسلام وعلى الجهاد .

أما النساء فكان لهن شروط أخرى فى البيعة بيّنتها هذه الآية ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الممتحنة]

وكان فى النساء المبايعات لرسول الله هند بنت عتبة[2] زوجة أبى سفيان والتى استأجرت وحشياً[3] لقتل حمزة يوم أُحُد ، ولم تكتفِ

(١) عن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت رسول الله ﷺ فى نساء لنبايعه فأخذ علينا ما فى القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً الآية وقال : فيما استطعتن وأطقتن . قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا . قلنا : يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : إنى لا أصافح النساء إنما قولى لامرأة واحدة قولى لمائة امرأة » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٠٥١ ، ٢٧٠٥٣ ، ٢٧٠٥٤) .

(٢) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، صحابية قرشية ، هى أم الخليفة الأموى معاوية ابن أبى سفيان ، كانت فصيحة جريئة صاحبة رأى وحزم وأنفة . لم تسلم إلا فى فتح مكة مع زوجها وابنها معاوية . توفيت ١٤ هجرية [الأعلام للزركلى ٨ / ٩٨] .

(٣) هو : وحشى بن حرب الحبشى أبو دسمة مولى بنى نوفل ، صحابى من سودان مكة وهو قاتل الحمزة عم النبى ﷺ قتله يوم أحد ، ثم وفد على النبى ﷺ مع وفد أهل الطائف . توفى عام ٢٥ هجرية [الأعلام للزركلى ٨ / ١١١] .

بهذا بل شقّتْ بطنه بعد قتله واستخرجتْ كبده ولاكته بأسنانها[1] .

وهى اليوم مؤمنة تقف فى صفوف المؤمنات تبايع رسول الله ، فكانت أجرأ النساء وأكثرهن مناقشة لبنود هذه البيعة ، وقد وسعها صدر رسول الله ﷺ على ما كان منها .

فلما سمعت ﴿ وَلَا يَسْرِقْنَ .. (١٢) ﴾ [الممتحنة] قالت : يا رسول الله ولكن زوجى - يعنى أبا سفيان وكان موجوداً - رجلٌ شحيح وكنتُ آخذُ من ماله دون علمه ، فقال رسول الله : إنك أنت هند ؟ قالت : نعم اعْفُ عمّا سلف عفا الله عنك[2] ، وقال أبو سفيان لها : ما أخذتيه من مالى فى الغابر فهو حلال لك . وأباح رسول الله فى هذا الموقف للمرأة أنْ تأخذ من مال زوجها ما يكفيها وأولادها[3] .

(١) قال ابن إسحاق : قالت هند بنت عتبة : شفيت من حمزة نفسى بأحد حتى بقرت بطنه عن الكبد . السيرة النبوية لابن هشام (غزوة أحد) ويقول وحشى قاتل حمزة : هززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٥٤) : كانت هند بنت عتبة بن ربيعة التى شقت بطن حمزة متنكرة فى النساء فقالت : إنى إن أتكلم يعرفنى وإن عرفنى قتلنى وإنما تنكرت فرقاً من رسول الله ﷺ فسكت النسوة اللاتى مع هند وأبين أن يتكلمن فقالت هند وهى متنكرة : كيف تقبل من النساء شيئاً لم تقبله من الرجال ؟

فنظر إليها رسول الله ﷺ وقال لعمر : قل لهن : ولا يسرقن . قالت هند : والله إنى لأصيب من أبى سفيان الهنات ما أدرى أيحلهن لى أم لا ؟ قال أبو سفيان : ما أصبت من شيء مضى أو قد بقى فهو لك حلال . فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فدعاها فأخذت بيده فعاذرته فقال : أنت هند ؟ قالت : عفا الله عما سلف فصرف عنها رسول الله ﷺ فقال : ولا يزنين . فقالت : يا رسول الله وهل تزنى امرأة حرة ؟ قال : لا والله ما تزنى الحرة . قال : ولا يقتلن أولادهن ، قالت هند : أنت قتلتهم يوم بدر فأنت وهم أبصر . قال : ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، قال : ولا يعصينك فى معروف ، قال : منعهن أن ينحن وكان أهل الجاهلية يمزقن الثياب ويخدشن الوجوه ويقطعن الشعور ويدعون بالويل والثبور . قال ابن كثير : وهذا أثر غريب وفيه نكارة والله أعلم .

(٣) قالت هند بنت عتبة لرسول الله : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بنىّ ، فهل علىّ جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفى بنيك » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٥٧٤) .

ولما سمعت هند قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الممتحنة] قالت لرسول الله : ربَّيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً ، والله أعلم بك وبهم ، تقصد ولدها حنظلة الذى قُتل فى بدر ، وما كان من رسول الله إلا أنه تبسَّم[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴿١٢﴾ ﴾ [الممتحنة] البهتان هو القول أو الفعل الشنيع الذى تُبهت وتندهش إذا سمعته ، ويحتار فيه العقل لشناعته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة] يعنى : تحيَّر ولم يستطع أن يجيب .

ومعنى ﴿ يَفْتَرِينَهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الممتحنة] من الافتراء وهو تعمُّد الكذب ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الممتحنة] أى البطن ﴿ وَأَرْجُلِهِنَّ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الممتحنة] أى الفرج . وهذا التعبير كناية عما يحدث من المرأة حين تقول أن الولد الذى جاءت به من زوجها وهو ليس منه ، فهذا منها كذب وافتراء متعمد .

فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة[2] : « أيُّما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله فى شىء ولن يدخلها الله الجنة ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رءوس

---

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٦٠/٧) أن رسول الله ﷺ قال : « ولا تقتلن أولادكن » قالت : قد ربيناهم صغاراً وتقتلهم كباراً ؟ فتبسَّم رسول الله ﷺ . وعند ابن الأثير فى كتابه (الكامل فى التاريخ) أنها قالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم . فضحك عمر (٣٣٢/١)

(٢) آية الملاعنة هى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [النور] .

الأولين والآخرين[1] .

والشرع لما حكم فى هذه المسألة قال : الولد للفراش وللعاهر الحَجَر[2] يعنى الرجم ، ذلك ليحفظ كرامة الولد فلا يعيش ذليلاً تلتصق به هذه الفضيحة طوال عمره ، فهو ابن فلان طالما وُلد على فراشه ، أما المرأة فإنْ أقيمت عليها الحجة فلها الرجم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الممتحنة] أى : تأمرهن به ، وعندها قالت هند : والله ما جئنا إلا لهذا الخير الذى يأتى على يديك ، وكيف نعصيك وقد جئناك طائعات .

﴿ فَبَايِعْهُنَّ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الممتحنة] أى : إذا أقررْنَ بذلك ورضين به ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الممتحنة] لأن الذنب إما أن تستغفر منه أنت ، أو يستغفر لك رسول الله .

كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [النساء]

إذن : التوابية والرحمانية تأتى بشرط أنهم يأتون إليك يا محمد

---

(١) أخرجه النسائى فى السنن الكبرى (٥٦٤٥) والبيهقى فى معرفة السنن والآثار (٤٧٩٨) والحاكم فى مستدركه (٢٨١٤) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبى .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥٣ ، ٧١٨٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٣٦٨٦) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : اختصم سعد بن أبى وقاص وعبد بن زمعة فى غلام فقال سعد : هذا يا رسول الله ابن أخى عتبة بن أبى وقاص عهد إلىَّ أنه ابنه انظر إلى شبهه . وقال عبد بن زمعة : هذا أخى يا رسول الله وُلد على فراش أبى من وليدته فنظر رسول الله إلى شبهه فرأى شبهاً بيناً بعتبة ، فقال : هو لك يا عبد الولد للفراش وللعاهر الحجر ، واحتجبى منه يا سودة بنت زمعة فلم تره سودة قط .

يستغفرون الله ، وبعد ذلك تستغفر أنت لهم ، وهذا هو باب الهبة من الله الذى لا ينفعك غيره ، فأىُّ امرئ يأتيه من غير هذا الباب لا يدخله .

فإذا كان هذا حظّ المؤمنين برسول الله المعاصرين له أنْ يأتوه معترفين بذنوبهم فيستغفرون الله ويستغفر لهم رسول الله ، فما حظُّ المؤمنين به ممَّنْ لم يعاصروه ؟ ألهم مثل هذا الحظّ .

قالوا : نعم حظّ المؤمنين برسول الله منه واحد ، مَنْ رآه ومَنْ لم يَرَه ، فمنْ أذنب منا ذنباً عليه أنْ يستحضر وجود رسول الله معنا ، وكما أننا نسلّم عليه ونعتقد فى أنه يردُّ علينا السلام كذلك عندما نعترف له بذنوبنا ونقول له : يا رسول الله أذنبتُ ذنباً فاستغفر الله لى .

وبذلك نستوى جميعاً أمام المنهج لأن رسالته ﷺ عامة للناس جميعاً ، بل إن سيدنا رسول الله ﷺ يجعل لأجيال أمته المتعاقبة بعد عصره ﷺ ، يجعل لهم منزلة لا تقل عن منزلة أصحابه .

فقد رُوى أنه ﷺ قال فى مجلس أصحابه : متى ألقى أحبابى ؟ قالوا : أولسْنَا أحبابك يا رسول الله ؟ قال : لا بل أنتم أصحابى ، أحبابى قوم لم يَرَوْنى ، يودُّ الواحد منهم لو رآنى بملء الأرض ذهباً، عمل الواحد منهم بخمسين . قالوا : منّا أم منهم ؟ قال : بل منكم ، لأنكم تجدون على الخير أعواناً ، وهم لا يجدون على الخير أعواناً .

وفى حديث آخر قال ﷺ : « أنتم فى زمان مَنْ ترك عُشر ما

طُلب منه هلك ، وسيأتى زمان مَنْ فعل عُشر ما طُلب منه نجا »[1] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [الممتحنة] غفور صيغة مبالغة تدل على كثرة المغفرة ، فالله تعالى ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ .. (٣) ﴾ [غافر] غافر للذنب الواحد وغفور إذا تعددت الذنوب ، فجعل بين كلّ صلاة وصلاة مغفرة ، وبين كل جمعة وجمعة مغفرة ، وبين رمضان إلى رمضان مغفرة ، بل جعل لها باباً لا يُغلق ، ففى كل لحظة تستغفر الله يغفر لك .

فالعبد من صفاته أنْ يُذنب ، والربُّ من صفاته أنْ يغفر ، فوجود العبد المذنب يحقق صفة من صفات الكمال لله تعالى ، لذلك ورد فى الحديث القدسى : « والذى نفسى بيده ، لو لم تذنبوا لذهبَ الله بكم ولأتى بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر الله لهم »[2] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣ ﴾

يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٣) ﴾ [الممتحنة] وهو نداء

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير (١١٥٦) ، وفى المعجم الكبير (٢١١) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٣١٦/٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . لم يروه عن سفيان إلا نعيم بن حماد ولذلك ضعفه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١٤٢٥) وذكر قول أبى عبد الرحمن النسائى : هذا حديث منكر ونعيم بن حماد ليس بثقة .

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٧١٤١) وأحمد فى مسنده (٨٠٦٨) والطبرانى فى الدعاء (١٨٠٣) والبيهقى فى شُعب الإيمان (٦٧٠٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وعند آخرين عن غير أبى هريرة كابن عباس .

تكرر كثيراً فى القرآن ، يخاطب به الله مَنْ آمن بالله رباً وآمن بالمنهج بكلِّ ما يقتضيه من (افعل) و (لا تفعل) .

فعندما ينادى الحق سبحانه المؤمنين بقوله ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (١٣) [الممتحنة] نعرف أن الإيمان هنا هو سببُ التكليف . فالله لا يكلف مَنْ لم يؤمن به ، ولا يأمر بتكليف إلا لمن آمنوا ، فالكافر لا يُكلفه الله بشىء .

فالحق سبحانه حين يخاطب المؤمنين فهو يعطيهم أحكام الإيمان، فالله لا يكلف بحكم إلا مَنْ آمن به ، أما من لم يؤمن به فلا يكلفه بأى حكم ، لأن الإيمان التزام ، وما دمتَ قد التزمتَ بأنه إله حكيم فخُذْ منه أحكام دينك .

إذن : فهى صفقة تنعقد بينك وبين الله ، تبدأ أولاً بإيمانك بالله ، حينها يكون التكليف من الله ، افعل كذا ولا تفعل كذا .

فالحق سبحانه متصف بالعدل ، لذلك لم يكلفنا الله اقتحاماً على إرادتنا أو على اختيارنا ، وإنما كلَّفنا لأننا دخلنا إليه سبحانه من باب الإيمان به .

فالإيمان بالله هو حيثية كل حكم ، فأنت تفعل ذلك لماذا ؟ لا تقلْ لأن حكمته كذا وكذا . لا . ولكن قل : لأن الله الذى آمنتُ به أمرنى بهذه الأفعال ، سواء فهمتَ الحكمة منها أو لم تفهمها ، بل ربما كان إقبالك على أمر أمرك الله به وأنت لا تفهم له حكمة أدخل فى باب الإيمان من تنفيذك لأمر تعرف حكمته .

والحق سبحانه بدأ سورة الممتحنة بنداء ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا

عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ .. (١) ﴾ [الممتحنة] وأنهاها بنداء ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .. (١٣) ﴾ [الممتحنة]

فموضوع النداء واحد ، وموضوع النهى واحد ، فهو عَوْد على بَدْء ، وهذا يلفتنا إلى أن القضية التى تتحدث عنها الآيات تمثل أهمية كبيرة فى التكليف الإيمانى .

فالولاية نُصْرة ، والنُّصْرة انفعال الناصر لمساعدة المنصور ، فكيف تُوالون عدو الله وعدوكم ، وتنتظرون منهم نُصرة لكم وعوناً ، وهم خالفوا منهج الله وحرَّفوا ما بين أيديهم من كتب السماء ، كان أصلها الهدى فصارتْ إلى ضلال .

فالموالاة والنُّصرة والمعونة يجب أن تكون مع متحد معك فى الغاية العليا ، وما دام هناك مَنْ يختلف مع الإسلام فى الغاية العليا وهى الإيمان فلا يصح أنْ يأمنه المسلم ، فضلاً عن موالاته ونُصرته وإلقاء المودة إليه .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) ﴾ [المائدة] فـ ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ (٥١) ﴾ [المائدة] ، فهم يُوالون بعضهم البعض وهم عونٌ لبعضهم على المسلمين ، ولهم غايات تناقض الغايات العليا للإسلام ، فكيف توالونهم ؟

وقد يختلفون على السلطات الزمنية ولكنهم يتحدون معاً ويكونون أعواناً وأنصاراً لبعضهم حينما يتعلق الأمر بالإسلام ، يقول تعالى :

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ[1] يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا[2] إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)﴾ [الممتحنة]

فهم مجتمعون على إيذائكم بكلِّ السبل ، سواء بأيديهم بقوتهم وسلاحهم وعددهم وعُدَّتهم ، فإنْ لم يكن فبألسنتهم بإيذائكم وإيذاء رسولكم وشريعتكم ، وبالتفريق بينكم كمؤمنين وإيقاع الفتنة بينكم ، إلى أن تحين الفرصة لهم لإيذائكم بأيديهم .

فكيف تُوالون مثل هؤلاء وغايتهم ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)﴾ [الممتحنة] فهذه غايتهم ، وكيف تنسون قول الله عز وجل : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ..(١٢٠)﴾ [البقرة]

لذلك يقول الحق سبحانه ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ..(٥١)﴾ [المائدة]

لذلك كانت قضية الموالاة هى محور سورة الممتحنة ، وكأن الله يمتحن بها قلوب وأفعال المؤمنين به ، فهل هم مؤمنون به حقاً ، إذن فلا تتولوا أعداء الله الذين هم أعداء لكم أيضاً .

ويؤكد الحق سبحانه تمايز المؤمنين بالله عن غيرهم ، وأنْ لا تكون بينهم وبين أعداء الله موالاة أو نُصْرة ، فيقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤)﴾ [المجادلة]

---

(١) يثقفوكم : يظفروا بكم ويتمكنوا منكم فى وقت من الأوقات ومكان من الأماكن . مختصر من عدة تفاسير . قال الشيخ المراغى فى تفسيره (٢٨ / ٦١) : أصل الثقف : الحذق فى إدراك الشىء وفعله ومنه رجل ثقف لقف .

(٢) يبسطوا : بسط يده ليفعل بها شيئاً . قال تعالى : ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ (٢)﴾ [الممتحنة] أى أن يمدوا أيديهم إليكم بالأذى والقتال . [القاموس القويم ١/٦٦] .

فمن يوالون أعداء الله منافقون ، لا هم منكم ولا هم منهم أيضاً ، بل هم مُذبذبون بين هؤلاء وأولئك ، إنْ توالوهم وتُدخلوهم فيما أنتم فيه ينشروا بينكم الفتنة ويضعوا بينكم بذور الشقاق والنفاق .

يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً[1] مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا[2] وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)﴾ [آل عمران]

فمن الحمق والغفلة أن توالوا مَنْ يضركم ويود مشقتكم وعنتكم ، وصدورهم تُخفى بغضاً شديداً لكم ، وها نحن قد وضّحنا لكم الآيات وبيّنا لكم دخائل نفوسهم ، فهل تنتهون عن موالاتهم وتقريبهم منكم وإدخالكم إياهم فى شئونكم ؟

احموا إيمانكم وأجيالكم ، فلا تتداخلوا مع غير المؤمنين تداخلاً يفسد عليكم أمور دينكم ، فهم لا يُقصّرون فى الكيد لكم وإفساد أمركم .

﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ..(١١٩)﴾ [آل عمران] فلم تخدعون أنفسكم فتوالونهم وتستمرون فى موالاتكم وهم لا يحبونكم ؟

ثم يقول الحق سبحانه :﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ..(١٣)﴾ [الممتحنة]

فمَنْ هم القوم الذين غضب الله عليهم ؟ الحق سبحانه أوضح

---

(١) بطانة : أصلها بطانة الثوب واستعيرت البطانة لمن تختصه بالاطلاع على باطن أمرك وتجعله موضع سرك . [القاموس القويم ١ / ٧٣] .

(٢) خبالاً : الخبال : النقصان والخسارة والهلاك . وخبله : أفسده عقله بمعنى فسد وجنَّ . [القاموس القويم ١/١٨٦] . فالخبال يجعل عاقبة الأمر إلى فساد وخسران .

هؤلاء فى قرآنه وكشف عنهم للمؤمنين به ، حتى لا تكون لهم حجة عند الله ، أو يكون لهم تأويل فى ماهيةِ مَنْ غَضب الله عليهم .

فأول هؤلاء : الكافرون من المشركين والملحدين وغيرهم ، قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٤) ﴾ [النساء]

ولفظة (الكافرين) لفظةٌ عامة تشمل كلَّ مَنْ لم يؤمن بالله ومَنْ لم يؤمن بمحمد رسول الله ﷺ ، والحق سبحانه قد أخذ على المنافقين أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون الله ، فأوْلَى بالمومنين ألاّ يصنعوا ذلك ، فإياكم أنْ تفعلوا مثلهم .

فأنتم حينها تجعلون لله عليكم سلطاناً مبيناً واضحاً لإيقاعِ العذابِ بكم فى الدنيا بأنْ تكونوا تابعين أذلاء لغيركم ، وفى الآخرة بعذاب الله لأنكم فرّقتم المؤمنين بأنْ توليتم غيرهم .

وممَّنْ غضب الله عليهم : اليهود والنصارى فنهانا عن اتخاذهم أولياء ، قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ (٥١) ﴾ [المائدة]

وممَّنْ غضب الله عليهم : الذين اتخذوا ديننا هُزواً ولعباً ، قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) ﴾ [المائدة]

والهزو هو السخرية والتنكيت ، فهم قد اتخذوا آيات القرآن وآيات

الأحكام سُخرية واستهزاءً ، ولم يعبئوا بما فيها من نذارة لهم ، وهذا ديدن الخارجين على منهج الله فتجدهم يسخرون من أهل الصلاح ويهزأون من أصحاب الطريق المستقيم والمنهج القويم ، ويُسفِّهون آراءهم وأفعالهم .

فإياك أنْ توالى هؤلاء وتنصرهم أو تعاونهم أو تتخذهم أولياء تُلقى إليهم بالمودة ، فهذا يُنقص من دينك بمقدارِ ما تواليهم .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) ﴾ [الأنعام]

فهم يخوضون فى آيات الله استهزاءً وسخرية وطعناً ، فأعرضوا عنهم ولا تقعدوا معهم وهم على هذه الحالة وإلاَّ تكونوا مشاركين لهم فيما هم فيه من استهزاء فيهون عليكم أمرُ الدين وتشابهونهم فيما هم فيه .

وقد كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا فى رسول الله والقرآن ، فشتموه واستهزءوا به ، فأمر الله أنْ لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره .

فهؤلاء جميعاً قوم غضب الله عليهم فلا توالوهم ولا تظاهروهم ، وقد خصَّ الله اليهود بالحديث وبغضب الله ، وذلك بسبب ذنوبهم وعصيانهم ، فقال تعالى : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

حتى أصبح الغضب من كثرة عصيانهم كأنه سمةٌ من سماتهم ، لماذا ؟ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ

ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) ﴾ [البقرة]

أى : أنهم كانوا يكفرون بنعم الله ولا يشكرون ويكفرون بالآيات ويشترون بها ثمناً قليلاً ، ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يقتلون أنبياء الله بغير حق .

ويعطينا الحق سبحانه لفتة فى هذه الآية فيقول ﴿ لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا (١٣) ﴾ [الممتحنة] فجعل (قوماً) بصيغة المفرد ، ولم يقل أقواماً ، وكأنه سبحانه يقصد قوماً بعينهم . حتى أن الحق سبحانه ذكرهم فى فاتحة الكتاب ، فقال تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧) ﴾ [الفاتحة]

فالمغضوب عليهم هم الذين عرفوا المنهج فخالفوه وارتكبوا كلَّ ما حرَّمه الله فاستحقوا غضبه ، فهم غيَّروا وبدّلوا فى منهج الله ليأخذوا سلطة زمنية فى الحياة الدنيا ، وليأكلوا أموال الناس بالباطل.

وقد قال رسول الله ﷺ : « إن (المغضوب عليهم) اليهود ، وإن (الضالين) النصارى »[١] .

وقد يسأل سائل : رسول الله ﷺ يقول : « إن الغضب جمرة توقَّد فى القلب ، ألم تروا انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه »[٢] فكيف

(١) روى هذا الحديث عدى بن حاتم وقد كان مسيحياً وأسلم ، وقد أخرج الإمام أحمد الحديث فى مسنده (١٩٣٨١) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٣٦٩١) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١١٦٠٤) والطيالسى فى مسنده (٢٢٧٠) والحاكم فى مستدركه (٨٥٤٣) والترمذى فى سننه (٢٣٥٠) وقال : حديث حسن من حديث أبى سعيد الخدرى : « ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، فمَنْ أحسَّ بشىء من ذلك فليلتصق بالأرض » .

يُوصف الله بأنه يغضب ؟

نعم مَنْ يغضب تنتفخ أوداجه[١] ويحمرّ وجهه ويستمر هياجه وتبرق عيناه بالشر وتندفع يداه ، وهذا أمر يقع من البشر بل وقع من موسى عليه السلام وهو من أُولى العزم من الرسل .

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ .. (١٥٠) ﴾ [الأعراف]

ونعلم أن الألواح فيها المنهج ، ورغم هذا ألقاها موسى عليه السلام من يده بسبب غضبه ، وقدر موسى على أخيه فأخذ برأسه يجرُّه إليه ، وهذا نزوع غضبى ، منشؤه أن ما فعله قومه يستوجب غضب الله .

فالغضب انفعال نفسى يُحدث تغييراً فى كيماوية الجسم فترى الغاضب قد انتفخت أوداجه واحمرّ وجهه وتغيرت ملامحه ، فهذه أغيار تصاحب هذا الانفعال ، فهل غضب الله عز وجل من هذا النوع ؟

بالطبع لا ، لأنه تعالى ليس عنده أغيار ، وإذا كان الغضب يتناسب وقدرة الغاضب على العذاب ، فما بالك إنْ كان الغضب من الله ؟

فغضب الحق سبحانه هو طرد الكافرين من رحمة الله ومعاقبة العاصين والمنحرفين دون انفعال كيماوى كما فى البشر ، فإنه سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

(١) الأوداج : جمع ودج ، والأوداج ما أحاط بالحلق من العروق . [المحكم لأبى الحسن بن سيده] . وقيل : الودجان عرقان عظيمان عن يمين ثغرة النحر ويسارها . [تاج العروس] .

فالله موجود وأنت موجود ، فهل وجودك كوجوده ؟ الله حيٌّ وأنت حيّ . أحياتُك كحياته ؟ الله سميع وأنت سميع ، أسمعُك كسمعه ؟ الله بصير وأنت بصير . أبصرك كبصره ؟

إذن : ما دمتَ تعتقد أن الحق سبحانه له صفاتٌ مثلها فيك ، فتأخذها بالنسبة لله فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..(١١)﴾ [الشورى]

وقد وصف الحق سبحانه القوم الذين غضب الله عليهم فقال : ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)﴾ [الممتحنة]

فيأسهم من الآخرة صفةٌ لازمة لهم نتجتْ عندهم من فعلهم ما أغضب الله عليهم وطرده لهم من رحمته سبحانه ، وهو سببٌ أيضاً لغضب الله ، فيأسُهم من الآخرة هو نتيجة وسببٌ لغضب الله .

وليأسهم من أنْ يكون لهم فى الآخرة نصيبٌ صاروا يُبدِّلون كتب الله ويُحرِّفونها ويقتلون النبيين ويفسدون فى الأرض ويفترون على الله فهم يحسُّون أن الدنيا هى عالمهم .

لذلك كانوا غير صادقين عندما قالوا ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ..(١١١)﴾ [البقرة] وأيضاً ادعوْا أن لهم الدار الآخرة خالصةً لهم ، وهم كاذبون فى هذا .

فقال تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥)﴾ [البقرة]

فالله سبحانه يقول لرسول الله ﷺ : إن كانت الآخرة لهم وحدهم عند الله لا يشاركهم فيها أحد . فكان الواجب عليهم أن يتمنوا الموت ليذهبوا إلى نعيم خالد ، فما دامت لهم الدار الآخرة ، وما داموا موقنين من دخول الجنة وحدهم ، فما الذى يجعلهم يبقون فى الدنيا ؟

وهم كاذبون ، لذلك قال تعالى : ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)﴾ [البقرة]

ثم قال : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٩٥)﴾ [البقرة]

فذنوبهم ومعاصيهم وتجرؤهم على الله سيمنعهم أنْ يتمنوا الموت ، لأنهم فى الحقيقة يئسوا من ثواب الآخرة ومن أن يكون لهم نصيبٌ فيها .

وقد قال الحق سبحانه فى معرض الكلام عن اليهود وهم الذين غضب الله عليهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾ [آل عمران]

فهم قد انقطع أملهم من الآخرة ، وانقطاع أملهم ويأسهم من الآخرة وصل للذروة حتى أن يأسهم هذا شابه يأسُ الكفار من أصحاب القبور .

ويأس الكفار من أصحاب القبور قد ذكره لنا القرآن ، فقال : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)﴾ [يس]

وروتْه لنا كتب السيرة ، فقد جاء أُبيّ بن خلف الجمحى[1] إلى رسول الله ﷺ بعظم نخر ، فقال : أتعدنا يا محمد إذا بليتْ عظامنا

---

(١) أبى بن خلف الجمحى ، كان أحد صناديد قريش ، وكان أحد الذين أحاطوا ببيت رسول الله ليلة الهجرة يريدون قتله ﷺ وقد كان يلقى رسول الله بمكة فيقول : إن عندى قَعوداً أعلفها كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليه . فيقول رسول الله : بل أنا أقتلك إن شاء الله . فرجع أبى بن خلف يوم أحد وقد خدشته حربة رسول الله خدشاً غير كبير فقال : قتلنى والله محمد . فقالوا : ذهب والله فؤادك والله إنْ بك من بأس . فقال : إنه قد كان يقول بمكة : إنى أقتلك والله لو بصق علىَّ لقتلنى . فمات بسرف وهم قافلون بمكة . أورده القاضى عياض فى كتاب « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » .

فكانت رميماً أن الله باعثنا خَلْقاً جـديداً ، ثم جعل يفتّ العظم ويذروه فى الريح ، فيقول : يا محمد مَنْ يحيى هذا ؟

فقال رسول الله ﷺ : « نعم يُميـتك الله ، ثم يُحييك ، ويجعلك فى جهنم »(١) .

وقد استبعد الكافرون البعثَ بعد الموت واستبعدوا أن يقوم هؤلاء الأموات من قبورهم ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩)﴾ [الإسراء]

والرفات هو الفتات ومسحوق الشيء وهو التراب أو الحطام ، وقد استبعد هؤلاء البعث بعد الموت لأنهم غفلوا عن بداية الوجود وبداية خلق الإنسان .

فيأس هؤلاء الذين غضب الله عليهم كيأس الذين كفروا من بعث أصحاب القبور وإحيائهم بعد الموت ، لذلك لا تتولوهم ولا تُلقوا إليهم بالمودة حتى لا تكونوا من هؤلاء أو من أولئك .

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ ..(١٣)﴾ [الممتحنة] أى : من الثواب فيها ومن النجاة من عذابها ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)﴾ [الممتحنة] أى : كما يئس الكفار من عودة الميت بعد موته .

ونلاحظ أن ختام السورة هو نفس استهلالها ، فالمعنى الذى تدور حوله بداية السورة ونهايتها وجوب البراءة من أعداء الله وعدم موالاتهم فى استهلال السورة .

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس قال : جاء أبى بن خلف الجمحى إلى رسول الله بعظم نخر .. الحديث بهذا اللفظ . وقد ورد هذا أيضاً فى حق أبى جهل والعاص بن وائل بألفاظ مختلفة .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ..(١)﴾ [الممتحنة] وهؤلاء هم أنفسهم الذين وصفهم الله هنا بقوله ﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .. (١٣)﴾ [الممتحنة] وهم اليهود والكفار عامة .

فكأن آية الاستهلال وآية الختام عبارة عن قوسين جَمَعا فيما بينهما كلّ آيات البراءة من اليهود والكافرين وعدم موالاة أعداء الله على اختلاف أشكالهم .

فهناك سماهم أعداء الله ، وهنا ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .. (١٣)﴾ [الممتحنة] فما داموا أعداء الله وما داموا مغضوباً عليهم ، فكيف إذن تواليهم ؟ أتجير على الله ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ (٨٨)﴾ [المؤمنون]

والأحقُّ بالموالاة والنصرة هم مَنْ آمنوا معكم بالله وبرسوله وبالإحياء بعد الموت والبعث يوم القيامة ، يقول تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾ [التوبة]

وعَجُز هذه الآية يتوافق مع قوله تعالى فى سورة الممتحنة ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)﴾ [الممتحنة] ثم قال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)﴾ [الممتحنة] ثم قال ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧)﴾ [الممتحنة] ثم عَجُز آية ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾ [الممتحنة] ثم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾ [الممتحنة]

وهذا يتوافق مع ما بدأت به السورة بعدها وهى سورة الصف، فقد بدأت بتسبيح الله سبحانه ، فقال تعالى : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾ [الصف]

فالله يستحق منكم أنْ تُسبِّحوه وتُنزِّهوه عن كل نقص ، وأنْ لا تتخذوا عدوه وعدوكم أولياء من دون الله ، وأنْ لا تتولوا مَنْ غضب اللهُ عليه ، وإلا فهذا يخدش إيمانكم فلتُسبِّحوا الله منسجمين مع الكون من حولكم .

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الصف[١]

يقول الحق سبحانه :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①﴾

سورة الصف من السُّور التى يُطلق عليها العلماء (المسـبِّحات) وهى السُّور التى تبدأ بـ (سبَّح) أو (يُسبِّح) أو (سبِّح) .

وقد ذكر رسول الله ﷺ هذه السور بهذا الاسم فى حديثه النبوى ، فقد كان يقرأ المسبِّحات قبل أنْ يرقد ، ثم قال : إن فيهن آية[٢] أفضل من ألف آية ، يقصد التي فيها تسبيح الله سبحانه وتنزيهه .

---

(١) سورة الصف مدنية عدد آياتها ١٤آية ، قال القرطبى : مدنية فى قول الجميع فيما ذكر الماوردى ، وقيل إنها مكية ذكره النحاس عن ابن عباس وتسمى أيضاً سورة الحواريين وسورة عيسى عليه السلام . وهى السورة رقم (٦١) فى ترتيب المصحف الشريف نزلت بعد سورة التغابن وقبل سورة الفتح . أى أنها نزلت قبل صلح الحديبية .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٧٢٠٠) وأبو داود فى سننه (٥٠٥٩) والترمذى فى سننه (٢٩٢١) والنسائى فى سننه (٧٩٧٢) من حديث العرباض بن سارية رضى الله عنه .

وأنت تجد سور القرآن الكريم التى جاء فيها التسبيح مؤكدة أنه سبحانه مُنزَّه ، وله التسبيح من قبل أنْ يخلق الخَلْق ، ثم خلق الخَلْق ليسبِّحوا .

ففى سورة الحديد يقول سبحانه : ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ** ..(١) ﴾ [الحديد] . ويقول فى سورة الحشر : ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ..(١) ﴾ [الحشر]

ويقول هنا فى سورة الصف : ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (١) ﴾ [الصف]

فهل سبَّح كل مَنْ فى السماوات ومَنْ فى الأرض مرة واحدة وانتهى الأمر ؟ لا ، لأن الله سبحانه يقول : ﴿ **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ** .. (١) ﴾ [الجمعة]

ويقول سبحانه في سورة التغابن[1] : ﴿ **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (١) ﴾ [التغابن]

إذن : فالسُّبْحانية لله أزلاً ، وسبَّح ويسبح الخلق وكل الوجود بعد أنْ خلق الله سبحانه ، سماوات وأرضاً وما فيهما ومَنْ فيهما ، وما بقى إلا أنت أيها الإنسان ، فسبِّح باسم ربك الأعلى .

فقد ثبتتْ له السُّبحانية فى ذاته ، ثم أوجد الملائكة يُسبِّحونه الليل والنهار لا يفترون ، ثم خلق السماء والأرض فسبَّح ما فيهن

(١) التغابن : مصدر قياسى للخماسى تغابن مأخوذ من الغبن وهو فوت الحظ وهو مستعار من تغابن القوم فى التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً لنزول السعداء منازل الأشقياء التى كان سينزلها هؤلاء الأشقياء لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التى كان سينزلها هؤلاء السعداء لو كانوا أشقياء .

وما بينهن ، وجاء خَلْقه يُسبِّحون أيضاً ، فيا مَنْ آمنتَ بالله إلهاً سبِّح كما سبَّح كل الكون .

فالسُّبْحانية هى الدليل السائد الشامل الجامع لكلِّ الخَلْق ، فالتسبيح لغة الكون كله ، منه ما نفهمه ومنه ما لا نفهمه .

وكلُّ شىء فى الوجود مُؤتمر بأمره سبحانه ويُسبِّح بحمده ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وهو تسبيح حقيقى وإنْ كُنَّا لا نفهم ولا نفقه تسبيحهم ، فإنْ فقَّهك الله تعالى فى لغاتهم لَعلمتَ تسبيح الكائنات ، بدليل أنه علَّم سليمان عليه السلام منطق الطير .

والحق سبحانه يقول هنا ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ** ..(١) ﴾ [الصف] فاستخدم سبحانه (ما) التى لغير العاقل دلالة على أن الكون كله مسبِّح لله ، لا يتخلف منه أحد .

وقد قال تعالى فى آية أخرى ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ** .. (٤١) ﴾ [النور] فاستخدم سبحانه (مَنْ) التى للعاقل دلالة على تكامل الكون كله فى تسبيح الله سبحانه ، لا يشذ إلا مَنْ تمرد وكفر واستنكف تسبيح الله .

واعلم أن ذرات الكافر نفسه مؤمنة مُسبِّحة لله ، فأبعاض الكافر مُسبِّحة ولكن بغير إرادته ، لذلك سيعاقبه على كفره ، فأبعاضه وذرات جسمه يؤلمها ويغيظها أنَّ صاحبها عاص أو كافر ، فتطيعه وهى كارهة لفعله بدليل أنها ستشهد عليه يوم القيامة ، فإنْ كانت مُسخَّرة لمراداته فى الدنيا فإنها ستتحرر من هذه الإرادة فى الآخرة .

فاللسـان مُسخّر لصاحبه ، إنْ شاء نطق الشهـادتين ، وإنْ شاء نطق به كلمة الكفر ، لأنه مقهور لإرادته ، أما فى القيامة فلا إرادة إلا للحقِّ تبارك وتعالى .

وفى النوم ترتاح هذه الجوارح وهذه الذرات من سيئات صاحبها ومن ذنوبه و تستـريح من نكده وإكـراهه لهـا على مـعصيـة الله ، وأوضح سبحانه أن السماوات سبع وقـد جاءت مجموعة ، أما الأرض فجاء بـها مفردة ، فقـال تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتُ وَمَا فِى الأَرْضِ ..﴿١﴾ ﴾ [الصف]

لكنه جلَّ وعلا قال فى آية أخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتُ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ..﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق] فكمـا خلق سـبع سمـاوات خلق سبع أراضين ، ولماذا جاء بالسمـاء جمعاً وترك لفظ الأرض مفرداً ؟ لماذا لم يقُل : سبع أرضين ؟

لأن كلمة (أرضـين) ثقيلة على اللســان فتركـها لثـقلها ، وأتى بالسماوات مجموعة لخفَّتها ويُسْر نطقها ، وقد يسأل سائل : لكن أين هذه الأرضين السبع ؟

لقد أخبرنا القرآن أن السمـوات سبع ، وأخبرنا رسول الله أنه مرّ بها فى رحلة المـعراج [1] ، فقـال فى الأولى كذا وكذا ، وفى الثـانية

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٤٢٩) من حـديث أنس بن مالك حديث الإسراء والمعراج بطوله أن رسول الله ﷺ قال : « أُتيت بالبراق فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التى يربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركـعتين ، ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقـيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محـمد . قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قـد بُعث إليه . ففـتح لنا فإذا أنا بآدم . [ثم هكذا فى كل سماء ، فى الـثانية ابنا الخالة عيـسى بن مريم ويحيى بن زكريا . وفى الثـالثة يوسف . وفى الرابعة إدريس . وفى الخامسة هارون ، وفى السادسة موسى إلى آخره] .

كـذا وكذا ، ومـا دامت السمـاء كلَّ ما أظلك ، والأرض كل مـا أقلّك ، فالخلق فى السـماء الأولى مثـلاً سماؤهم السـماء الثانيـة ، وأرضـهم سماؤنا الأولى ، وهكذا وهكذا .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ [الصف] فهو سبـحانه العزيز الذى لا يُغلب لجبـروته ، فهو الغـالب فى مُلْكه ، ولا تقدر أنْ تحـتاط من أنه يهزمك أبداً ، فـهو سبـحانه القوىُّ الذى لا يغلبـه أحد على الإطلاق ، والقوى الشديد الذى لا ينال منه أحد .

فـسبحـانه له العـزة الذاتيـة الأزليـة الأبدية ، ولو أردتم العـزة الحقـيقـية التى تُغنيكم عن الطـلب من الأغيار مـثلكم ، فلتذهـبوا إلى مصدر العزة الذى لا تناله الأغيارُ ، وهو الحق سبحانه .

ووصْف الحق سبحانه هنا بأنه عزيز بعد سورة الممتحنة يعطينا لفـتـة ، فإنْ أردتم أنْ تـتعلمـوا طلب العـزة فـعليكم أنْ تغيـروا من أسلوبكم فى طلبها ، فأنتم تتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتبتغون عندهم العزة وهم من أهل الأغيار .

والأغيـار تتبدل من يوم إلى يوم ، فـإنْ كان الكفار أغنيـاء اليوم فغداً لن يكونوا كذلك ، وطلب العزة من الأغيار يعنى أنكم غير أعزاء ، فإنْ أردتم عـزَّةً حقيـقية فـاطلبوها ممَّنْ لا تـتغيـر عزَّته ، وهو الحق سبحانه : ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء]

وهو مع عـزَّته حكيم ، لا يصـدر منه الشىء إلا بحكمـه بالغـة ، فهو الحكيم فى فعله وتقديره ، فإذا أمركم بعدم موالاة أعداء الله فهذا مُطلَق حكمتـه سبحانه ليُـعزّكم ويرفع مقامكم كـمؤمنين عن أنْ تذلوا لغيركم .

ثم يقول الحق سبحانه :[1]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢

كَبُرَ مَقۡتًا[2] عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣ ﴾

الآية تخاطب الذين آمنوا ، فساعة ينادى الحقُّ سبحانه عباده الذين آمنوا به يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ٢ ﴾ [الصف] فمعناها : يا مَنْ آمنتم بى بمحض اختياركم ، وآمنتم بى إلهاً له كلُّ صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية .

فما دُمتم آمنتم بهذا الإله فاسمعوا من الإله الأحكام التى يطلبها منكم ، فهو سبحانه لم يُنادِ غير مؤمن ، وإنما نادى مَنْ آمن باختياره وبترجيح عقله .

وليعلم الذين آمنوا أن كلَّ ما يأتى بعد ندائهم بهذا الوصف إنما هو خير لهم إنِ التزموا بما أمر الله به فى ندائه ، أو انتهوا عمَّا نهاهم الله عنه .

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٢٨٩٩) من حديث عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفر من أصحاب النبى ﷺ فقلنا : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله عملنا فأنزل الله تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ٣ ﴾ [الصف] وقرأها علينا رسول الله . ومثله عند الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧٢) والترمذى فى سننه (٣٦٢٤) .

(٢) المقت : أشد البغض . والمقت : بُغض من أمر قبيح ركبه ، ومعنى الآية : أى عَظم ذلك فى المقت والبغض عند الله أى : أن الله يبغض بغضاً شديداً .

وهذه الآيات إنما نزلتْ فى ناس من المؤمنين قبل أنْ يُفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله دلَّنا على أحبِّ الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيَّه أن أحبَّ الأعمال إليه إيمانٌ بالله لا شكَّ فيه ، وجهادُ أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يُقروا به .

فلما نزل الأمر بالقتال كره ذلك أناسٌ من المؤمنين وشقَّ عليهم أمره ، فقال الله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ٢ ﴾ [الصف]

ونحن نسمع كلمة « يعمل » وكلمة « يفعل » وكلمة « يقول » . والعمل أهم الأحداث لأن العمل هو تعلُّق الجارحة بما نيطتْ به ، فالقلب جارحةٌ عملُها النية ، واللسان جارحةٌ عملُها القول ، والأذن جارحةٌ عملها الاستماع ، والعين جارحة عملها النظر .

إذن : فكلُّ جارحة من الجوارح لها حدث تُنشئه لتؤدى مهمتها فى الكائن الإنسانى ، إذن : فكلّ أداء مهمة من جارحة يُقال له « عمل » ، لكن الفعل هو تعلُّق كلِّ جارحة غير اللسان بالحدث .

أما تعلُّق اللسان فيكون قولاً ومقابله فعل . إذن : هناك قول وهناك فعل ، وكلاهما عمل ، فالعمل يشمل ويضم القول والفعل معاً .

وشغل اللسان بمهمته يُسمَّى « قولاً » ولا يُسمَّى فعلاً ، لماذا ؟ لأن الإنسان يتكلم كثيراً ، لكن أنْ يحمل نفسه على أنْ يعمل ما يتكلمه فهذه عملية أخرى ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ٢ ﴾ [الصف]

إذن : فالقول مقابله الفعل ، والكلُّ عمل ، لذلك قال الحق سبحانه

﴿ما لا تَفْعَلُونَ (٢)﴾ [الصف] ولم يقُل (ما لا تعملون) لأن القول نفسه عمل .

فمجرد قولك هو عمل ولكنه ليس فعلاً ، ولا بدَّ للمؤمن أنْ يتطابق القول مع الفعل ، فحين يكون القولُ شيئاً مختلفاً عن الفعل لا تتطابق النسبة ، فالصادقون هم الذين يصدقون فى سلوكهم ويتطابق فعلُهم مع قولهم .

وقد عابَ الحق سبحانه مَنْ يأمر الناس بالبر وينسى نفسه فلا يُطبِّق على نفسه ما يأمر به غيره ، ويفعل ما ينهى الناس عنه ، فقال تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ..(٤٤)﴾ [البقرة]

فالذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحمل منهج الله يريد أنْ يُخرج مَنْ لا يؤمن من حركة الباطل التى ألفها ، وإخراجُ غير المؤمن من حركة الباطل أمر شاقٌّ على نفسه لأنه خروج عن الذى اعتاده وبُعدٌ عما ألفه ، واعترافٌ أنه كان على باطل .

لذلك فهو يكون مفتوحَ العينين على مَنْ بيَّن له طريق الإيمان ، ليرى هل يُطبِّق ذلك على نفسه أم لا ؟ أيطبق الناهى عن المنكر ما يقوله ؟ فإذا طبَّقه عرف أنه صادق فى الدعوة ، وإذا لم يُطبقه كان ذلك عذراً ليعود إلى الباطل الذى كان يسيطر على حركة حياته .

إن الدين كلمة تُقال وسلوك يُفْعل ، فإذا انفصلتْ الكلمة عن السلوك ضاعت الدعوة .

لذلك استحقَّ هذا الأمر أنْ يضعه الحق سبحانه بعد نداء ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢)﴾ [الصف] ليكون من مطلوبات الإيمان ومقتضياته ، لماذا ؟

لأن مَنْ يراك تفعل ما تنهاه عنه يعرف أنك مخادع وغشاش ، وما لم ترتضه أنت كسلوك لنفسك لا يمكن أنْ تدعو إليه غيرك .

لذلك نقرأ فى القرآن ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾ [الأحزاب]

فمنهج الدين وحده لا يكفى إلا بالتطبيق ، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يأمر أصحابه بأمر إلا كان أسبقهم إليه ، فكان المسلمون يأخذون عنه القدوة قولاً وفعلاً .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين يريد أنْ يُقنِّنَ أمراً فى الإسلام يأتى بأهله وأقاربه ويقول لهم : لقد بدا لى أنْ آمر بكذا وكذا ، والذى نفسى بيده مَنْ خالف منكم لأجعلنَّه نكالاً للمسلمين .

وكان عمر بن الخطاب بهذا يغلق أبواب الفتنة لأنه يعلم من أين تأتى الفتن .

ولا بدَّ أنْ يكون العلماء قدوة لينصلح أمر الناس ، ففى كل علوم الدنيا القدوة ليستْ مطلوبة إلا فى الدين ، فأنت إذا ذُكِر لك عالم كيمياء بارع وقيل لك إنه يتناول الخمر أو يفعل كذا .

تقول : مالى وسلوكه ، أنا آخذ عنه علم الكيمياء لأنه بارع فى ذلك ، ولكن لا شأن لى بسلوكه ، وكذلك كلّ علماء الأرض ، ما عدا عالم الدين .

فإذا كان هناك عالم يُبصِّرك بالطريق المستقيم وتتلقَّى عنه علوم دينك ، ثم بعد ذلك تعرف أنه يشرب الخمر أو يسرق ، أتستمع له ؟ أبداً إنه يهبط من نظرك فى الحال ، ولا تحب أنْ تسمعه ، ولا تحب

أن تجلس فى مجلسه مهما كان علمه فستقول له : كفاك دَجلاً .

وهكذا فإن عالم الدين لا بدَّ أنْ يكون قدوة ، فلا ينهى عن منكر ويفعله ، أو يأمر بمعروف وهو لا ينفذه ، فالناس كلها مُفتَّحة أعينهم لما يصنع .

ولذلك نقول : أىُّ فائدة أنْ نقول : إننا مسلمون ونعمل بعمل غير المسلمين ؟

والإنسان المؤمن مطالب بأمرين : الأول ألاَّ يصنع المنكر . والثانى : أنْ ينهى عن المنكر . ولذلك إنْ جاء نُصح من إنسان ينهاك عن المنكر وهو قد فعله ، فلا تقُلْ له : أصلح نفسك واتبع أنت ما تنصح به أولاً ، لا تقُلْ له ذلك حتى لا يقول لك ما قاله الشاعر[(١)] :

خُذْ بعِلْمِى وَلاَ تَركَنْ إِلى عَملِى وَاجْنِ الثِّمارَ وَخَلِّ العُودَ لِلنَّارِ

لكن الأجدر بمَنْ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أنْ يكون أول العاملين بقوله ، حتى لا يدخل فى زمرة مَنْ قال الله فيهما هاتين الآيتين .

والإسلام قبل أنْ ينتشر بالمنهج العلمى انتشر بالمنهج السلوكى ،

---

(١) ذكر نشوان الحميرى فى كتابه (الحور العين) من قول ابن قتيبة وعزاه للخليل بن أحمد نحو هذا :

اعمل بعلمى ولا تنظر إلى عملى ينفعك علمى ولا يضرك تقصيرى

وذكره أيضاً ابن عبد ربه فى العقد الفريد فى فصل (الحكمة) وابن قتيبة فى (المعارف) و (عيون الأخبار) وهو من بحر البسيط .

والبيت بعده :

وانظر لنفسك فيما أنت فاعله من الأمور وشمِّر فوق تشميرى

وأكبر عدد من المسلمين اعتنق هذا الدين من أسوة سلوكية قادته إليه ، فالذين نشروا الإسلام فى الصين كان أغلبهم من التجار الذين تخلَّقوا بأخلاق الإسلام ، فجذبوا حولهم الكثيرين فاعتنقوا الإسلام .

ويُعطينا الحق سبحانه مثالاً لهذا من قصة شعيب عليه السلام ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود]

أى : أننى أطبِّق ما أدعوكم إليه على نفسى ، فلا أُنقِص كيلاً أو أُخْسِر ميزاناً ، ولا أبخس أحداً أشياءه .

فشعيب عليه السلام يوضح لهم أنه لا ينهاهم عن أفعال ليفعلها هو ، بل ينهاهم عن الذى لا يفعله ، لأن الحق سبحانه قد أمره بألاَّ يفعل تلك الأفعال .

وهناك ملمح آخر فى هاتين الآيتين ، يقول تعالى ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف]

فهؤلاء المؤمنون الذين اجتمعوا يتذاكرون أىَّ الأعمال أحبّ إلى الله ، فلما نزل الأمرُ بالقتال وأنَّ أحب الأعمال إلى الله هو أنْ يقاتل المؤمنون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص .

فلما نزل هذا كره بعض المؤمنين هذا الأمر ، لذلك كان عتاب الله عز وجل ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الصف] فما دُمتم تقولون وتتكلمون وتسألون عن أحبِّ الأعمال إلى الله ، فلماذا لا تستجيبون بفعلكم لأمر الله ؟

فهذا يجعل بينكم وبين المنافقين وَجْهَ تشابه ، الذين قال عنهم

الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (٢٠) ﴾ [محمد]

وهذا تشبيه لنظر المغشىِّ عليه من الموت . يعنى : المغمى عليه خوْفاً وهلَعاً ، فهم طلبوا سورة محكمة قاطعة ، فلما أُنزلتْ السورةُ وفيها ذِكْرٌ للقتال تجدهم منهارين وكأنهم مُغمى عليهم .

والمنافق سهلٌ عليه أنْ يذهب ويصلى مع الجماعة فى المسجد بل ويقف فى الصف الأول ، لكن إذا وصلت المسألة للقتال اختلف الأمر وانكشف المستور من النفاق .

﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) ﴾ [محمد]

فالطاعة لأمر الله وقوْل معروف أولَى لهم أنْ يفعلوه وأَوْلى من نفاقهم ، فلو صدقوا الله فى أوامره واتباع منهجه لكان خيراً لهم ، والخير هنا هو البراءة من الموت بعد ذلك ، لأنه جادَ بنفسه طواعيةً فى سبيل الله .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف] فقول (كَبُر) أى عَظم . والكاف والباء والراء تأتى لمعنيين : الأول كبر السن . وهى : كبر يكبر . والثانى : العظمة والتعظيم . إلا أن التعظيم يأتى ليبين أنه أمر صعب على النفس .

مثل قوْل الحق سبحانه : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥) ﴾ [الكهف] أى : أن هذه الكلمة التى خرجتْ من

أفواههم أمرٌ صعْب وشاقٌّ ، وهى ادعاء أن لله ولداً .

ومرة تكون العظمة من جهة أخرى ، مثل قوْل الحق سبحانه : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى] أى : عَظُم على المشركين وصَعُب على أنفسهم وشَقَّ عليهم ما تدعوهم إليه من أن الإله هو واحد أحد ، ولا سلطان إلا له سبحانه .

وهنا ﴿ كَبُرَ مَقْتًا .. (٣) ﴾ [الصف] أى : عظم بُغْضاً ، والمقت أشدّ البغض ، فهذا الأمر ممقوت عند الله يبغضه الله بُغْضاً كبيراً .

ومثله قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٣٥) ﴾ [غافر]

فقولكم ما لا تفعلون ممقوتٌ عند الله مُبغض أشدّ البُغْض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾

الصفُّ انسجامُ مجموعة بحيث لا يشذّ فيها فردٌ عن فرد ، فالصفُّ لا يعنى مجرد الجمع والحشد ، إنما هو الجمع فى انسجام وانضباط .

وقد روتْ لنا السنة أن النبى ﷺ كان فى استعراض الجنود فى المعركة يُسوِّى الصفوف ، فلما رأى رجلاً شذَّ عن الصف وخرج عنه فشكَّه فى بطنه ليستقيم فى مكانه من الصف .

وكان الرجل مُحباً لرسول الله فقال : أوجعتنى يارسول الله ، فقال رسول الله : هذه بطنى اقتصّ منها ، فأقبل الرجلُ يُقبِّل رسول الله ويقول : والله يا رسول الله لقد أمَّلتُ أنْ أستشهد . فأحببتُ أنْ يكون آخر عهدى بالحياة أنْ يمسَّ جسدى جسدك الشريف[1] .

والصفُّ دليل الانتظام والالتزام والاستعداد لتلقِّى الأوامر ، وهكذا تُصفُّ الملائكة فى انتظار الأوامر ، ليقوم كلٌّ منهم بمهمته ودوره .

وإذا استعرضتَ مادة (ص ف ف) فى القرآن الكريم تجدها تدور حول هذا المعنى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا** .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [طه] يعنى : مجتمعين مُتحدين ، كأنكم يد واحدة فهذا أهيَبُ لكم وأدخَلُ للرعب فى قلوب خَصمكم ، وهى نصيحة قدَّمها سحرة فرعون لبعضهم البعض فى مواجهة موسى عليه السلام .

حتى أن العَرْض على الله يوم القيامة يكون صفوفاً ، فيقول تعالى : ﴿ **وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا** ..﴿٤٨﴾ ﴾ [الكهف] وهذا كما يستعرض القائدُ الجنودَ فى العرض العسكرى مثلاً ، فيرى كلُّ واحد من جنوده (صفاً) أى : صفوفاً منتظمة .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٢٦٢) من حديث ابن أبى ليلى قال : كان أسيد بن حضير رجلا صالحاً ضاحكا مليحاً فبينما هو عند رسول الله ﷺ يحدث القوم ويضحكهم فطعنه رسول الله فى خاصرته فقال : أوجعتنى ، قال : اقتص قال : يارسول الله إن عليك قميصاً ولم يكن علىّ قميص . قال : فرفع رسول الله قميصه فاحتضنه ثم جعل يُقبِّل كشحه فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله أردت هذا . وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

أى : أنها عملية منظمة لا يَستطيع فيها أحدٌ التخفى ، ولن يكون لأحد منها مفرّ ، وهى صفوف متداخلة بطريقة لايُخفى فيها صفٌّ الصَّفَّ الذى يليه ، فالجميع واضحٌ بكلِّ أحواله .

ويقول تعالى عن الملائكة عموماً ﴿ **وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ** ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : نقف فى انضباط منتظرين الأوامر ، والصفُّ هنا يدل على الانسجام ، وأنه لا يتعالى أحدٌ على أحدٍ ، ويدلّ على الرهبة ممنْ أنت أمامه مصفوفٌ .

وفى الحديث عن البراء بن عازب[1] قال : كان رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة يمسح مناكبنا وصدورنا ، ويقول : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، إن الله وملائكته يُصلُّون على الصفوف الأولى ، وصلُّوا المناكبَ بالمناكب ، والأقدامَ بالأقدام ، فإن الله يحبُّ فى الصلاة ما يحبُّ فى القتال[2] ، وتلا قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴿٤﴾ ﴾ [الصف]

---

(١) البراء بن عازب : بن الحارث الخزرجى أبو عمارة ، أنصارى ، أسلم صغيراً وغزا مع رسول الله ﷺ ١٥ غزوة أولها غزوة الخندق كان أميراً على الرى (بفارس) سنة ٢٤ هـ والرى هى طهران الآن ، فتح أبهر غربى قزوين ، سكن الكوفة وتوفى فى زمن مصعب بن الزبير . [الأعلام للزركلى ٢/٤٦]

(٢) أخرج النسائى فى سننه (٨١١) عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله ﷺ يتخلل الصفوف من ناحية إلى ناحية يمسح مناكبنا وصدورنا ويقول : لا تختلفوا فتختلف قلوبكم وكان يقول : إن الله وملائكته يصلون على الصفوف المتقدمة ، وصححه الألبانى . وأورده فى شرح مُشْكل الآثار (٥٦٢٧) من حديث البراء أيضاً قال : كان رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة مسح صدورنا وقال : « رصوا المناكب بالمناكب والأقدام بالأقدام ، فإن الله تعالى يحب فى الصلاة ما يحب فى القتال كأنهم بنيان مرصوص » .

فالله سبحانه يحبُّ فى الصلاة الاصطفاف صفوفاً متراصَّة غير متخالفة ، كذلك فى القتال يحبُّ الله اصطفافَ المقاتلين فى صفوف القتال .

فالاصطفاف فى صفِّ الصلاة وفى صفِّ القتال يحتاج لطاعة الآمر بالاصطفاف ، ويحتاج لسُكون[(١)] والتزام بما يأمر .

لذلك كان ما حدث يوم أُحُد من مخالفة أمر رسول الله ﷺ كان هذا خَرْقاً وخَلَلاً فى الصفِّ فكانت الهزيمة ، فرسول الله جاء بالرماة وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير[(٢)] ، وهم يومئذ خمسون رجلاً ، وقال رسول الله ﷺ لهم : « قُوموا على مصافِّكم هذه ، فاحموا ظهورنا ، فإنْ رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا »[(٣)] .

---

(١) فالسكون عند مواجهة العدو يعطى المقاتل طمأنينة وثقة . وعليه أن يكثر من ذكر الله سبحانه ، يقول رسول الله ﷺ « طوبى لمن أكثر فى الجهاد فى سبيل الله من ذكر الله ، فإن له بكل كلمة سبعين ألف حسنة ، كل حسنة منها عشرة أضعاف مع الذى له عند الله من المزيد والنفقة على قدر ذلك » . أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير عن معاذ . ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (١٠٨٨١) .

(٢) عبد الله بن جبير : بن النعمان الأنصارى شهد العقبة وبدراً ، وكان أمير الرماة يوم أحد فاستشهد فيها عام (٣ هـ) [الزركلى الأعلام ٤/٧٦]

(٣) قال الواقدى فى مغازيه (١/٢٢٩) : « كلما أتى خالد من قبل ميسرة النبى ﷺ ليجوز حتى يأتى من قبل السفح فيرده الرماة حتى فعلوا ذلك مراراً ، ولكن المسلمين أتوا من قبل الرماة . إن رسول الله ﷺ أوعز إليهم فقال : قوموا على مصافكم هذا فاحموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد غنمنا لا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، فلما انهزم المشركون وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا حتى أجهضوهم عن العسكر ووقعوا ينتهبون العسكر . قال بعض الرماة لبعض : لم تقيمون هاهنا فى غير شىء ؟ قد هزم الله العدو وهؤلاء إخوانكم ينتهبون من العسكر فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم . الحديث لآخره .

لكنهم لم يقدروا على هذه ، لأن نفوسهم مالتْ إلى الغنيمة ، وخرجوا عن مقتضيات الائتمار بأمر القائد والاصطفاف ، فاتباعُ أمر القائد يجب أنْ يكون هو الأساس فى عملية الجندية .

وإنكم إنْ خالفتم الرسول فلا بدَّ أنْ تنهزموا ، كان لا بد أنْ يعيشوا التجربة وهم مع رسول الله ، فحينما هبّت ريح النصر على المؤمنين فى أول المعركة ، ابتدأ المقاتلون فى الانشغال بالأسلاب والغنائم .

فقال الرماة : سيأخذ الأسلابَ غيرنا ويتركوننا ونزلوا ليأخذوا الغنائم ، فانتهز خالد بن الوليد - وكان على دين قومه - حينها الفرصة وطوّقهم وحدث ما حدث .

فهو استغل فرصة نزول الرماة عن أماكنهم وتركوا مصافهم التى وضعهم عليها رسول الله فوق الجبل .

لقد كادوا يتسبَّبون فى قتل رسول الله ، فبعد أن انحلَّ القوم من الرماة عن أمره وحدثت الكرّة عليهم من المشركين القرشيين فرَّ الصحابة فى كل اتجاه هنا وهناك وانفرط عِقْد المسلمين .

وتكتل المشركون على رسول الله لدرجة أن ابن قمئة[(١)] أمسك بحجر وضرب به حضرة النبى عليه الصلاة والسلام فكسر رباعيته

---

(١) عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ رماه عبد الله بن قمئة بحجر يوم أحد فشجّه على وجهه وكسر رباعيته وقال : خذها وأنا ابن قمئة ، فقال له رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه : « مالك أقمأك الله .فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة . أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٧٤٧٦)

وانغرزت فى وجنتى رسول الله حلقتا المغفر[1] وسال منه الدم .

وحاول رسول الله أن يصعد على صخرة من الجبل ليعلوها فلم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله[2] فنهض به حتى استوى عليها[3] .

لذلك كان أحبّ الأعمال إلى الله للمقاتلين فى سبيل الله أنْ يكونوا صفاً كأنهم بنيان مرصوص .

والصفّ الواحد ليس فقط للمصطفين فى صَفّ الصلاة ، ولا للمقاتلين فى ساحة القتال ، إنما أيضاً لحاملى الدعوة إلى الله ، فيجب على هؤلاء الدعاة والعلماء أنْ يكونوا فى دعوتهم صفاً واحداً لا يشقُّه خلاف .

لذلك يرى بعض العلماء أن قوله تعالى ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) ﴾ [الصافات] له معنى أوسع ، وأنه يُراد به مجال نشْر الدعوة والإعلام بها والدفاع عنها وحماية الاختيار فى الإسلام وفى القتال .

---

(١) المغفر : زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس تلبس تحته القلنسوة . قاله الأصمعى وذكره صاحب الصحاح ،وهى ما نعرفه اليوم بـ (الخوذة) . وذكر ابن سيده فى المخصص (١/٣٢٧) : المغفر الذى يوضع على الرأس لأنه يغطيه ، والغفير يراد به أنهم قد غطوا الأرض من كثرتهم .

(٢) هو : طلحة بن عبيد الله أبو محمد صحابى شجاع وُلد ٢٨ قبل الهجرة ، هو أحد العشرة المبشَّرين بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى كان من دهاة قريش ومن علمائهم . ويقال له (طلحة الجود) ، شهد أحداً وثبت فيها مع رسول الله فأصيب بـ ٢٤ جرحاً ، قتل يوم الجمل وهو بجانب عائشة ودُفن بالبصرة عام (٣٦ هـ) عن ٦٤ عاماً [الأعلام للزركلى ٣/٢٢٩]

(٣) أورده فى الرحيق المختوم (١/٢٤٥) وفيه أن رسول الله ﷺ قال لطلحة : أوجب طلحة . أى وجبت لطلحة الجنة .

أى : من أجل الإعلام بدينه والدفاع عنه أمام أعدائه ، فالإعلام بالدين مهمة العلماء ، والدفاع عنه مهمة الجنود فى ساحة القتال ، وينبغى أنْ يكون هؤلاء وهؤلاء صفاً واحداً كأنه البنيانُ المرصوص .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ .. (٤) ﴾ [الصف]

فالقتال فى الإسلام لا بدَّ أنْ يكون فى سبيل الله ، لا فى سبيل شىء دنيوىٍّ من استيلاء على الأراضى أو الأموال ونهبها . فلا بدَّ أنْ تكون نية القتال فى سبيل الله ، لا أنْ يكون القتال بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان ، فلا قتالَ من أجل الجاه أو المال أو لضمان سوق اقتصادى ، وإنما القتال لإعلاء كلمة الله ونصرة دين الله ، هكذا هو غرض القتال فى الإسلام ، لتكون كلمة الله هى العليا[1] .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾ [النساء]

فقوله تعالى : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ .. (٧٤) ﴾ [النساء] يدلنا على أن هناك قتالاً فى غير سبيل الله ، كأنْ يقاتل الرجل حمية أو ليُعلم مكانه من الشجاعة .

ولذلك تساءل بعض الناس : من الشهيد ؟ قال العلماء : هو مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فيكون شهيداً . إذن : فالقتال مرة

---

(١) عن أبى موسى الأشعرى قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما القتال فى سبيل الله .فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقاتل حمية فرفع إليه رأسه ـ قال : وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً ـ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٣١)

يكون فى سبيل الله ، ومرة يكون فى سبيل النفس ، ومرة يكون فى سبيل الشيطان .

والله يُرغِّب المؤمنين فى أنْ يكونوا مجاهدين ، وأنْ يبذلوا الجهد لتكون كلمة الله هى العليا ، فإذا ما آمن الإنسانُ فليس له أن يتخلف عن الصفِّ الإيمانى ، لأنه ما دام قد اقتنعتْ نفسه بالإيمان لا ينضم إلى ركْب مَنْ ينفع سواه بالإيمان ؟

فكلمة ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا .. ④ ﴾ [الصف] تخصِّص لوناً من القتال ، فالإنسان قد يقاتل حمية أو دفاعاً عن جنسيته أو أى انتماء آخر ، وكلُّ هذه الانتماءات فى عُرف الدين لا قيمة لها إلا إذا نبعتْ من الانتماء إلى منهج الله لتكون كلمة الله هى العليا .

وبذلك يخرج المؤمن عن دائرة الاستعلاء والاستكبار فأنت لم تذهب للقتال من أجل الغنائم أو لتكسبَ مكانة فى مجتمعك كمقاتل ، بل أنت تقاتل حين يكون القتالُ مطلوباً ، وتسلك بالخلق الإيمانى اللائق فى إطار أنك من المتقين لله ، وتحارب لتكونَ كلمةُ الله هى العليا ، وهنا تكون معيةُ الله لك .

وما دام قتالكَ فى سبيل الله فلا بدَّ أنْ يكون محكوماً بمنهج الله ، فلا تغلّ ولا تعتد ولا تقتلْ امرأة أو طفلاً أو شيخاً كبيراً ، لأن فى قتال النساء والعجزة اعتداءً وتجاوزاً (1) .

(١) عن صفوان بن عسال المرادى قال : بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية فقال : « اغزوا بسم الله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً » أخرجه أحمد فى مسنده (١٨١٢٢) وفى المعجم الأوسط (٤/٢٦٨) عن ابن عباس قال : كان رسول الله إذا بعث سرية قال : اغزوا بسم الله وفى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا شيخاً .

ولأنه قتالٌ فى سبيل الله فلا بدَّ أنْ يتصف المقاتلون بأنهم ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ④ ﴾ [الصف]

فالمنهج الإيمانى يجعل المؤمنين جميعاً كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً ، لا سيما الذين فى ميدان القتال فى سبيل الله .

فقوله ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ④ ﴾ [الصف] تشبيه له دلالته لأن البنيانَ المرصوص يعنى أن اللبنة فيه ليس لها إرادةٌ فى الخروج عن الأخرى ، لأنها محكومةٌ بالبناء الذى وُضعتْ فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ⑤ ﴾

الحق سبحانه عندما أرسل موسى وهارون بآية دالّة على صدقهما إلى فرعون كانت مهمتهما الأساسية أخْذ بنى إسرائيل وإنقاذهم من طغيان فرعون ، وجاءت المسألة الإيمانية تبعية ، أما أصل مهمة موسى فكان ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ .. ㊼ ﴾ [طه]

فقد جئْنا لنأخذ أولادنا وننقذهم من هذا العذاب وهذا الاستضعاف ، وجاء لفرعون بمعجزات تثبت صدْق رسالته من الله ، ومع ذلك لم يَسْلم موسى عليه السلام من إيذاء فرعون ، فقال عنه : ﴿ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ㉔ ﴾ [غافر]

وقال : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ [1] ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف]

وطبيعىٌّ أنْ يُؤذَى موسى عليه السلام من فرعون وقد جاء ليبطل ألوهيته المزعومة ، لكن كيف يُؤذَى من بنى إسرائيل ، وهو الذى جاء لينقذهم من قبضة فرعون ، ومما كانوا فيه من العذاب والاستعباد ؟

لذلك يُعاتب موسى قومه من بنى إسرائيل ، وقال الحق سبحانه : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ .. ﴿٥﴾﴾ [الصف]

قال العلماء : إن بنى إسرائيل آذوا موسى حين آذوا مَنْ أرسله ، الله سبحانه وتعالى فقالوا له : ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ..﴿١٥٣﴾﴾ [النساء]

وهم بمثل هذا القول تعدوا مِنْ فعل الله إلى ذات الحق سبحانه ، فهم غرقوا فى المادية حتى إنهم أرادوا أنْ يروا الله متمثلاً أمامهم فى صورة حِسِّية مادية ، فهم لا يفهمون الغيب ولا يقتنعون به .

لذلك قال الحق سبحانه لمحمد ﷺ : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء]

وآذوا موسى حين قالوا معترضين على ما رزقهم الله من المنِّ

(١) ولا يكاد يبين : أى عيى اللسان . أى لا يكاد يفصح بالكلام فلا يأتى ببيان يُفهم ولا حجة ، فقد كانت فى لسانه حبسة ورتة ولثغة كانت فى لسانه .

والسَّلْوى [1] ، فقالوا : ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا [2] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ .. ﴿٦١﴾﴾ [البقرة]

ثم آذوا موسى يوم عبدوا العجل من دون الله ، حدث هذا منهم بمجرد خروجهم من البحر سالمين ، موسى عليه السلام أخذ النقباء وذهب لميقات ربه وترك أخاه هارون مع بنى إسرائيل .

هذا العجل صنعوه بأيديهم من الحلىِّ التى سرقوها من مصر وقد كانت أمانات عندهم ، ولكنهم عند خروجهم من مصر لم يردُّوا الأمانات إلى أهلها ، لذلك كانت وبالاً عليهم فصنع لهم السامرى ﴿عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ [3] فَقَالُوا هَـٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه]

وقد كان هذا مُؤذياً لموسى أىَّ إيذاء ، فهو ذهب ليتلقى وصايا الله وأحكامه وشرائعه وإذا بقومه قد عبدوا إلهاً غير الله الذى هو فى رحابه ، وهو الذى أنقذهم من سنين طويلة من العبودية والاستضعاف على يد فرعون مصر .

لذلك كانت غضبة موسى عليه السلام على قومه عارمة ، قال

(١) المن : ندى يشبه العسل كان الله يُنزله على الأشجار غذاء طيباً لبنى إسرائيل فجحدوا فضل الله عليهم فى ذلك فذكّرهم الله به مُبكتاً لهم على كفرهم فقال : ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ..﴿٥٧﴾﴾ [البقرة] . أما السلوى فهو السمانى وهو طائر صغير وهو من الطيور المهاجرة من أوربا فى الشتاء إلى البلاد الدافئة كمصر ، وأهل العريش بشمال سيناء مشهورون بصيده .

(٢) فومها : الفوم : الثوم . وهو من مُشهِّيات الطعام . وقيل : الفوم الحنطة . وقيل : الحمص . [القاموس القويم ٢/ ٩٢] .

(٣) الخوار : صوت الثور . وما اشتدّ من صوت البقرة . [لسان العرب - مادة خور]

الحق سبحانه عن هذا الموقف : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) ﴾ [طه]

لقد كان موسى شديدَ الحزن على ما حدث متألماً لما بدر من قومه ، حتى أنه قال لهم : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ .. (٥٤) ﴾ [البقرة]

وكانت توبتهم التى حدَّدها لهم نبيهم ورسولهم موسى عليه السلام ﴿ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ .. (٥٤) ﴾ [البقرة] وقيل : إنهم قتلوا مِنْ أنفسهم سبعين ألف نفس[1] .

ثم إنهم آذوا موسى عليه السلام فى شخصه ، حين اتهموه بقتل أخيه هارون حين صعدا الجبل ومات هارون هناك ، فقالوا : إن موسى حقد على أخيه فقتله ، فجعل الله الملائكة تحمل جسد هارون وتمرّ به على بنى إسرائيل وهو سليم لا جُرْح فيه[2] ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. (٦٩) ﴾ [الأحزاب]

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره (٥٢٨) أن سعيد بن جبير ومجاهد قالا فى قوله تعالى : (فاقتلوا أنفسكم) قالا : قام بعضهم إلى بعض بالخناجر فقتل بعضهم بعضاً لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد ، حتى ألوى موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم فكشف عن سبعين ألف قتيل ، وإن الله عز وجل أوحى إلى موسى أن حسبى فقد اكتفيت فذلك حين ألوى موسى ثوبه .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٢/١٥٢) تفسير آية الأحزاب ٦٩ وعزاه لابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وصححه ابن مردويه عن ابن عباس عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ ..(٦٩) ﴾ [الأحزاب] قال : صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون فقالت بنو إسرائيل لموسى : أنت قتلته كان أشد حباً لنا منك وألين فآذوه من ذلك فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بنى إسرائيل وتكلمت الملائكة بموته فبرأه الله من ذلك فانطلقوا به فدفنوه .

وقال آخرون[1] : أنهم آذوا موسى عليه السلام بأنْ اتهموه بأنه مصاب بمرض فى جسده ، لأنه كان شديد الحياء ستِّيراً يحتاط فى ستر نفسه عند استحمامه ، وعند قضائه حاجته فقالوا : ما فعل ذلك إلا لعيب يريد أنْ يستره .

ومنهم من قال : به برص ، ومنهم مَنْ تجرأ واتهمه بعيب فى أعضائه التناسلية ، فشاء الله أنْ يُبرئه مما قالوا ، فنزل ذات يوم النهرَ ليستحم ، فأمر الله حجراً فأخذ ثيابه بعيداً عنه ، فجرى موسى عليه السلام خلف الحجر وهو يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر . أى ثوبى يا حجر .

فرآه بنو إسرائيل مُبرّأ من العيوب التى اتهموه بها ، وهذا ما قاله رسول الله « حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وبَرَّأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه » .

وقد أشار الحق سبحانه إلى أن موسى عليه السلام لم يكُنْ به برص أو غيره فى قوله تعالى : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٣٢) ﴾ [القصص]

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يُرى من جلده شىء استحياء منه ، فآذاه مَنْ آذاه من بنى إسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إمّا برص وإما أدرة وإما آفة وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فو الله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً . فذلك قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ..(٦٩) ﴾ [الأحزاب] أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٠٤) .

فكلمة (بيضاء) أى منوَّرة دون مرض ، والبياض لا بد أنْ يكون عجيباً فى موسى عليه السلام لأنه كان أسمر اللون ، لذلك قال ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. ٣٢﴾ [القصص] حتى لا يظنوا به برصاً مثلاً ، فهو بياضٌ طبيعىّ مُعجز.

وقد كان من إيذائهم له أن قارون لما حصلت الخصومة بينه وبين موسى عليه السلام استأجر امرأة بغياً ، وقال لها : اتهمى موسى على مشهد من الناس ، فشاء الله أنْ يجتمع الناس وتنطق هى وتقول : قارون فعل كذا وكذا . فبرَّأه الله بذلك .

فقارون أغرى امرأة بغياً فأعطاها طستاً مملوءاً بالذهب على أن تدّعى على موسى وتتهمه ، فجاء موسى عليه السلام ليخطب فى الناس ويُبيِّن لهم الأحكام فقال : مَنْ يسرق نقطع يده ، ومَنْ يزنى نجلده إنْ كان غير مُحْصن ، ونرجمه إنْ كان محصناً ، فقام له قارون وقال : فإنْ كنتَ أنت يا موسى ؟ فقال : وإنْ كنتُ أنا .

وهنا قامت المرأة البغى وقالت : هو راودنى عن نفسى . فقال لها : والذى فلق البحر لتقولنَّ الصدق فارتعدتْ المرأة ، واعترفت بما دبَّره قارون ، فانفضح أمره وبدأت العداوة بينه وبين موسى عليه السلام (1) .

(١) ورد هذا فى أثر ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما أمر الله موسى عليه السلام بالزكاة قال : ارموه بالزنا ، فجزع من ذلك ، فأرسلوا إلى امرأة كانت قد أعطوها حكمها على أن ترميه بنفسها ، فلما جاءت عظم عليها ، وسألها بالذى فلق البحر لبنى إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت . قالت : إذ قد استحلفتنى فإنى أشهد أنك برىء وأنك رسول الله » ، أورده الطبرى فى تفسيره (١١٦/٢٠) وابن أبى حاتم فى تفسيره (٣٠٠٦/٩) وابن عساكر فى تاريخ دمشق (٩٧/٦١ – ٩٨) .

لذلك يقول موسى : ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ .. ٥﴾ [الصف]

فأنتم تعلمون أنِّى رسول الله إليكم ، و (قد) هنا للتحقيق والتوكيد ، فعلمكم بهذا علْم يقينى لا شبهةَ فيه ، فلِمَ تؤذوننى وأنا رسول الله ؟!

فما ترموننى به لا يليق بمقام النبوة والرسالة ، خاصة أن الله عزَّ وجلَّ لم يُبرئه فقط مما رموْه وآذوْهُ به ، بل قال تعالى عن موسى : ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً ٦٩﴾ [الأحزاب]

والوجاهة هيئة تدلُّ على أنه مقبول الرجاء ، مقبول الدعاء ، لا يجرؤ أحد أنْ يرميه بعيب ، فالوجاهة تعنى أنْ يكون للإنسان احترامٌ أو وزنٌ أو تقدير .

وهذه الأشياء لا يأخذها بلا سبب ، إنما سبقها عمل جعل له وجاهةً عند الناس ، فالناس فى العادة لا يحترمون إلا مَنْ يكون له من الفضل عليهم .

وقد تكون الوجاهة سببها العلم أو بفضل القوة ، بإعانة الضعيف أو بإكساب الخبرة للآخرين ، أو بتفريج كربة .

بنو إسرائيل لم ينظروا إلى أن موسى رسول الله ، وأنه كان سبباً فى إنقاذهم من فرعون وطغيانه وجبروته ، بل زاغوا عن الحقِّ ومالوا .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ .. ٥﴾ [الصف] والزيْغ هو الميل ، وهى مأخوذة من تزايُغ الأسنان أى : اختلاف منابتها ، فتجد سِنَّة داخلة وأخرى خارجة . والزيْغ أمر

طارىء على القلوب ، فالفطرة السليمة لا زيْغ فيها ، ولكن الأهواء هى التى تجعل القلوب تزيغ ، ويكون الإنسانُ عارفاً لحكم الله الصحيح فى أمر ما ، لكن هوى الإنسان يغلب فيميل الإنسانُ عن حكم الله .

وبنو إسرائيل كانوا يعلمون علمَ يقين أن موسى هو رسولٌ من عند الله ، ولكنهم زاغوا ومالوا عما عرفوا من الحق . وقد وجد الميل عند قلوبهم أولاً ، ثم بدأ الفكر يخضع للميل ، والعبارة تخضع للفكر وهكذا نرى أن الأصل فى الميل قد جاء منهم .

ولننظر إلى أداء القرآن الكريم حين يقول : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** .. (٥) ﴾ [الصف] كأنه يقول : ما دمتم تُريدون الميْل فسأُميلكم أكثر وأساعدكم فيه .

والحق سبحانه لا يبدأ إنساناً بأمر يناقض تكليفه ، لكن الإنسان قد يُميله هواه إلى الزيغ فيتخلى اللهُ عنه ويدفعه إلى هاوية الزيْغ .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ** (١٢٧) ﴾ [التوبة]

إنهم الذين بدأوا ، انصرفوا عن الله فصرف الله قلوبهم بعيداً عن الإيمان ، فالحق لم يعرفهم إلا باختيارهم ، حتى لا يقول أحدٌ إن الله هو مُصرِّف القلوب فما ذنبهم ؟ لا لقد انصرفوا هم باختيارهم لأنهم قوم لا يفقهون أى لا يفهمون .

لذلك يدعو المؤمنون ربَّهم فيقولون : ﴿ **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا** .. (٨) ﴾ [آل عمران]

والحق سبحانه لم يترك مسألة الهداية والضلالة هكذا ، فبيَّن مَنْ

يهديه ومَنْ يُضله ، وأىُّ هداية للإنسان بعد أنْ كفر بالله وفسق عن منهجه وأفسد فى البلاد وظلم العباد ؟

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ **وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** (٥) ﴾ [الصف] فحين ينفى الحق سبحانه الهداية عن إنسان فليس معنى هذا أنْ يقول الفاسق : الله لم يَهْدنى فماذا أفعل ؟ ويُحمِّل المسألة كلها لله ، بل نسأل الفاسق : لماذا لم يَهْدك الله ؟ لأنك فسقْتَ .

إذن : فعدم الهداية من الله لك كان بسبب أنك أخذتَ طريق الفسق والبُعْد عن منهج الله ، ومن هنا فالهداية المقصودة فى هذه الآية ليست هى الهداية بمعنى الدلالة على طريق الخير ، فالدلالة إلى طريق الخير تأتى من الله للمؤمن والكافر ، فمنهج الله الذى يُبلِّغ للناس كافة يُريهم طريق الخير ويدلُّهم عليه ، ولكن المقصود هنا هو الهداية الأخرى التى يعطيها الحق لمَنْ دخل فى رحاب الإيمان وآمن وحَسُن عمله ، وهى ما سميناه هداية المعونة .

إذن : فكلُّ مَنْ مشى فى طريق الإيمان أعانه الله عليه ، لا نقول أبداً : إن هؤلاء معذورون لأن الله لم يَهْدهم ، لأنه سبحانه قد هداهم ودلَّهم جميعاً على طريق الخير ، ولكنهم هم الذين أخذوا طريق الكفر والظلم والفسوق .

والفسق هو الخروج عن طاعة الله وعدم الالتصاق بمنهج الله ، وأصله من فسقتْ الرطبة أى بَعُدت القشرة عن الثمرة ، فعندما تكون الثمرة أو البلحة حمراء تكون القشرةُ ملتصقةً بالثمرة بحيث لا تستطيع أنْ تنزعها منها ، فإذا أصبحتْ الثمرة أو البلحة رطباً تسودّ قشرتها وتبتعد عن الثمرة بحيث تستطيع أنْ تنزعها عنها بسهولة .

هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله ، ينسلخ عنه بسهولة ويُسْر ، لأنه غير ملتصق به ، وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه .

والفسق هو أساس الفساد كله ، لأنهم يبتعدون عن منهج الله ولا يُطبِّقونه رغبةً فى المخالفة وإصراراً على العناد ، وهو سبحانه لا يهدى القوم الكافرين ولا القوم الفاسقين ولا القوم الظالمين .

فمَنْ يُرِدْ أنْ يخرج من هداية الله فليكفر أو يظلم أو يفسق ، ويكون فى هذه الحالة هو الذى اختار ، فحقّ عليه عقابُ الله ، لذلك قال الكافرون من بنى إسرائيل إن الله ختم على قلوبهم فهم لا يهتدون ، ولكنهم هم الذين اختاروا هذا الطريق ومشوا فيه ، فاختاروا عدم الهداية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾

جاءت شخصيات القرآن مُجهَّلة إلا قصة واحدة هى قصة عيسى بن مريم ومريم ابنة عمران ، لماذا ؟ لأنها معجزة لن تتكرر ، ولذلك عرضها الله لنا فقال : (مريم ابنة عمران) ، وقال : (عيسى بن مريم) حتى لا يلتبس الأمرُ وتدعى أىّ امرأة أنها حملتْ بدون رجل مثل مريم .

فمعجزة مريم لن تتكرر ، ولذلك حدَّدها الله تعالى بالاسم فلم يقُل لنا الله تعالى مَنْ هو فرعون موسى ولا مَنْ هم أهل الكهف ، ولا مَنْ هو ذو القرنين ، ولا مَنْ هو صاحب الجنتين ، إلى آخر ما جاء فى القرآن الكريم لأنه ليس المقصود بهذه القصص شخصاً بعينه .

وعيسى عليه السلام إنما أُرسل لبنى إسرائيل ، لذلك قال لهم عيسى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم .. (٦) ﴾ [الصف] وقد قال تعالى عن عيسى عليه السلام أنه قال : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

فهو جاء مبعوثاً إلى قوم مُعينين هم بنو إسرائيل ، فليستْ رسالتُه عامة لكلِّ البشر ، كما هو الحال فى رسالة محمد ﷺ .

وقد قال تعالى عن هود عليه السلام : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥) ﴾ [الأعراف] وقال عن أهل مدين[1] ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]

وهكذا حدد الحق سبحانه زمانَ ومكانَ القوم فى أىِّ رسالة سبقتْ رسالة محمد ﷺ ، فكل رسول إنما يبعثه اللهُ إلى بُقْعة خاصة وإلى أُناسٍ بعينهم وفى زمن خاص ، إلا محمداً ﷺ ، فقد بعثه الله إلى الناس كافة ، فرسالة محمد لها خاصية العمومية ويُعزز هذا قوْل الحق سبحانه لمحمد : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. (١٥٨) ﴾ [الأعراف]

(١) مدين : اسم قبيلة واسم مملكة وهى مدينة كانت موجودة فى شمال غرب الجزيرة العربية منطقة البدع حالياً تابعة لمنطقة تبوك شمال غرب السعودية وكان أهلها يعملون بالتجارة . وهى على الناحية المقابلة لمدينة دهب المصرية على البحر الأحمر ولكن وراء مرتفعات .

وكلُّ رسول يأتى مُصدِّقاً لمَنْ قبله من الرسل ولما جاء به ومُبشِّراً بمَنْ يأتى بعده من الرسل ، هكذا كان جميع الرسل إلا محمداً ﷺ ، فقد جاء مُصدِّقاً لمَنْ قبله ولكن لم يُبشِّر برسول يأتى من بعده لأنه خاتم الرسل ، وعيسى عليه السلام إنما جاء مُصدِّقاً لما بين يديه من التوراة ، وكلمة ﴿ مُصَدِّقًا .. (٦) ﴾ [الصف] تعنى أن ما جاء به عيسى بن مريم مطابقٌ لما جاء فى التوراة .

فـ (ما بين يدى) أى : الذى جاء قبله وصار أمامه ، وقد يسأل سائل : وما دام عيسى بن مريم قد جاء مُصدِّقاً لما بين يديه من التوراة فى زمانه ، وكانت التوراة موجودة ، فلماذا جاءت رسالته إذن ؟

نقول : ليس معنى التصديق أنه لا يأتى بأحكام جديدة ، فقد قال تعالى عن عيسى عليه السلام فى آية أخرى ﴿ **وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ** .. (٥٠) ﴾ [آل عمران]

فليس المهم هو التصديق فقط ، ذلك أن عيسى جاء ليُحل بعضاً من الذى حرّمته التوراة ، ومن الطبيعى أنْ نفهم أنَّ العقائد لا تتغير ولا تتبدل أحكامها ، وكذلك الأخبار والقصص لكن التبديل يشمل بعضاً من الأحكام .

وموكب الرسالات موكب متلاحم متساند متعاضد ، فلا تتصادم دعوةُ أىِّ رسول يأتى مع مَنْ قبله ولا مَنْ بعده ، ما دام مُصدِّقاً لما بين يديه من التوراة .

والتوراة لفظ عبرى صار علَماً على الكتاب الذى أُنزل على موسى عليه السلام ، وهذا لا يقدح فى أنَّ القرآن عربى ، فالقرآن نزل على محمد ﷺ ، وهذه الألفاظ دائرة على لسان العرب ، وإذا تمَّ النطق بها يُفهم معناها .

ومثال هذا فى عصرنا الحديث أننا أدخلنا فى اللغة كلمة (بنك) وتكلمنا بها ، فأصبحت عربيةً تُكتب بحروف عربية ، لأنها تدور على اللسان العربى ، فمعنى أن القرآنَ عربىٌّ أن الله حينما خاطب العربَ خاطبهم بألفاظ يفهمونها وهى دائرةٌ على ألسنتهم وإنْ لم تكُن فى أصلها عربية .

لذلك لا داعىَ لأنْ يحاول بعضُ العلماء أنْ يُوجد أصلاً أو معنى عربياً لمثل هذه الألفاظ ، ويحاول أنْ يعثر له على وزن من الأوزان العربية ، وأنْ يأتى له بصفة من الصفات العربية .

وإذا كان عيسى بن مريم مُصدِّقاً لما جاء به موسى فإنه أيضاً مبشر برسول يأتى من بعده ، وهذا ما قاله لقومه : ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ** (٦) ﴾ [الصف]

فاسمه فى الإنجيل أحمد[1] ، وقد ورد مرة واحدة فى هذه الآية ، ولكنه ورد باسمه محمد فى القرآن أربع مرات . قال تعالى : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ** .. (١٤٤) ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ**

(١) جاء فى التوراة العبرانية فى الأصحاح الثالث من سفر حبقوق : « وامتلأت الأرض من تحميد أحمد ، ملك بيمينه رقاب الأمم » . وفى النسخة المطبوعة فى لندن قديماً سنة ١٨٤٨ والأخرى المطبوعة في بيروت سنة ١٨٨٤ والنسخ القديمة تجد في سفر حبقوق النص فى غاية الصراحة والوضوح « لقد أضاءت السماء من بهاء محمد ، امتلأت الأرض من حمده .. زجرك فى الأنهار واحتدام صوتك في البحار ، يا محمد ادن لقد رأتك الجبال فارتاعت » .

﴿اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)﴾ [الأحزاب]

وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢)﴾ [محمد]

ويقول تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. (٢٩)﴾ [الفتح]

وكلمة (محمد) وكلمة (أحمد) مشتركتان فى أصل المادة ، لأنهما من (الحاء والميم والدال) فالمادة هى الحمد ، إلا أن التوجيه الاشتقاقى فى (محمد) غير التوجيه فى (أحمد) .

فكلمة (محمد) حين ننظر إليها فى الاشتقاق نجد أنها ذاتٌ يقع عليها الحمد من غيرها ، مثلما تقول : فلان مكرّم أى وقع التكريم من الغير عليه ، أما كلمة (أحمد) فنجدها ذاتاً وقع منها الحمد لغيرها .

و (أحمد) تتطابق مع أفعل التفضيل ، فنحن نقول : فلان كريم وفلان أكرم من فلان . إذن : فـ (أحمد) أى وقع منه الحمدُ لغيره كثيراً ، فلو كان الحمد قد وقع منه بقدر محدود لقلنا (حامد) .

إذن : فـ (أحمد) مبالغة فى (حامد) وقع منه الحمد لغيره كثيراً بل أكثر فصار أحمد . و (محمد) مبالغةٌ فى (محمود) ، وقع عليه الحمد من غيره كثيراً فصار محمداً .

إذن : فرسول الله ﷺ جمع له اللهُ بين الأمرين ، فهو محمد من الله وحامد لله ، لأن رسول الله ﷺ جمع اللهُ له بين مقامين : مقام الاصطفاء ، ومقام المجاهدة .

فبالاصطفاء كان (محمداً) و (محموداً) ، وبالمجاهدة كان (حامداً) و (أحمد) . إذن : نحن هنا أمام مقامين اثنين لرسول الله ﷺ ، قال رسول الله : « أنا محمد وأحمد والمقفِّى[1] والحاشر ونبى التوبة ونبى الرحمة »[2] .

والحق سبحانه يقول : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾ [النساء]

فمعنى هذا : ما أحدٌ من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولاً وعبداً وبشراً قبل أنْ يموت . وهذا لن يتحقق إلا إذا جاء بشحمه ولحمه ودمه ليقول لهم :

أنتم مُخطئون فى أنكم أنكرتم بشارتى بمحمد الخاتم ، وأنتم مُخطئون فى اتهامكم لأمى ، والدليل على خطئكم هى أننى جئتُ مبشِّراً برسول للناس كافة هو محمد بن عبد الله ، وهأنذا أصلى خلف واحد من أمة ذلك الرسول .

ويقول الحق سبحانه : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ .. (١٥٧)﴾ [الأعراف]

والتعبير القرآنى الدقيق لم يقُلْ : يجدون وَصْفَه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، إنما يقول الحق : ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ .. (١٥٧)﴾ [الأعراف]

---

(١) المقفى : يقال قفَّى عليه أى ذهب به ، فكأن المعنى أنه آخر الأنبياء فإذا قفّى فلا نبى بعده ، والمقفى : المتبع للنبيين . [تهذيب اللغة] قاله شمر .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٢٥١) من حديث جبير ابن مطعم أن النبى ﷺ قال : « أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يُمحى بى الكفر وأنا الحاشر الذى يُحشر الناس على عقبى وأنا العاقب » والعاقب الذى ليس بعده نبى .

كأنَّ الذى يقرأ التوراة والإنجيل يمكنه أنْ يرى صورة النبى عليه الصلاة والسلام من دقّة الوصف ، لقد عرفته التوراة وعرفه الإنجيل معرفة مفصَّلة وشاملة .

لقد كان السبب الذى جاء من أجله أهلُ الكتاب إلَى يثرب هو ما كانوا يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة أن نبياً سيأتى فى هذا المكان ولا بدّ أنْ يتبعوه .

كالميثاق الذى أخذه الله على النبيين ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ..(٨١)﴾ [آل عمران] وهذا الميثاق يقضى بأنْ يتولّى الرسلُ بلاغ الأمم التى بُعثوا إليها ، وأنْ يبلِّغ أهل الإيمان القادمين من بعدهم بأن هناك رسولاً قادماً من عند الله بالمنهج الكامل .

فالعارفون بالتوراة والإنجيل يعرفون وَصْفَ رسول الله ﷺ من هذه الكتب : ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (١٤٦)﴾ [البقرة]

وقد سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عبد الله بن سلام : أكنتم تعرفونه يا ابن سلام ؟ أى أكنتم تعرفون محمداً ﷺ ورسالته وأوصافه ؟

فقال ابن سلام وهو من أحبار اليهود : أعرفه كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد ، فلما سألوه : لماذا ؟ قال : لأن ابنى أخاف أنْ تكون امرأتى خانتنى فيه ، أما محمد ﷺ فأوصافه مذكورة بالدقة فى التوراة بحيث لا نخطئه[1] .

---

(١) أخرج الثعلبى من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن ابن عباس قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن سلام : قد أنزل الله على نبيه ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦)﴾ [البقرة] فكيف يا عبد الله هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله بن سلام : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى إذا رأيته مع الصبيان وأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى فقال عمر : كيف ذلك ؟ قال : إنه رسول الله حق من الله وقد نعته الله فى كتابنا ولا أدرى ما تصنع النساء . فقال له عمر : وفقك الله يا ابن سلام . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/٣٢)

إذن : فأهل الكتاب يعرفون رسول الله ويعرفون زمنه ورسالته ، ويعرفون أوصافه معرفة يقينية ، وكان يهودُ المدينة يقولون للكافرين فى يثرب : أطلَّ زمانُ رسول سنؤمن به ونقتلكم قتْل عاد وإرم[1] .

فلما جاء رسول الله كانوا أولَ كافر به ، وأولَ مَنْ حاربه وأنكر نبوته ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ**[2] **عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** (٨٩)﴾ [البقرة]

فرسالة محمد ﷺ لم تكُنْ مفاجئة لأهل الكتاب بل كانوا ينتظرونها ، وكانوا يؤكدون أنهم سيؤمنون بها كما تأمرهم بها كتبهم ، ولكنهم رفضوا الإيمان وأنكروا الرسالة عندما جاء زمنها .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ** (٦)﴾ [الصف] والضمير فى (جاءهم) يعود على مَنْ بشَّر به عيسى عليه السلام وهو أحمد ، أى فلما جاءهم أحمد ، أى لما ظهر أمره ﴿**قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ** (٦)﴾ [الصف]

فهؤلاء المرتابون لم يجدوا حجة يواجهون بها القرآن ، فقالوا ساحر ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ إذا كان ساحراً يسحر

---

(١) ذكر البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٧٦) عن عاصم بن عمر بن قتادة قال :حدثنى الأشياخ منا قالوا : لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله منا كان معنا يهود وكانوا أهل كتاب وكنا أصحاب وثن وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا : إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم قتل عاد وإرم فلما بعث الله عز وجل رسوله اتبعناه وكفروا به ففينا والله وفيهم أنزل الله عز وجل ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ..(٨٩)﴾ [البقرة] ونحوه فى سيرة ابن إسحاق (٢/٦٣)

(٢) يستفتحون : يستنصرون . [زاد المسير لابن الجوزى ١/٩٧) أى يستنصرون بالنبى الآتى على مشركى العرب ، ومعنى الاستفتاح : الاستنصار .

الناس فيدخلوا فى الإسلام ، فلماذا لم يسحركم أنتم ؟

ويبلغ الحق سبحانه رسوله عُتُوّ المتجبرين المنكرين واستكبارهم ، فيقول : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)﴾ [الأنعام]

فرغم أنهم سيلمسونه بأيديهم إلا أنهم سيقولون : ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)﴾ [الأنعام] ومثلُ هذا القول لا ينبع عن عقل أو تدبُّر أو حكمة .

لأن السحر إنما يغير من رؤية الناس للواقع . فكيف يقولون إنه سحر وهم لمسوه بأيديهم وتحقّقوا من أنه واقع ، وما دام رسول الله ﷺ متهماً بالسحر فلماذا لم يسحرهم هم ، ولماذا استعصوا هم بالذات على السِّحر ؟

وتحتمل الآية : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦)﴾ [الصف] أن المقصود بها عيسى عليه السلام ، فهو جاءهم بالبينات وهى المعجزات الحسية .

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ[1] وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠)﴾ [المائدة]

(١) الأكمه : الذى وُلد أعمى . [القاموس القويم ٢/١٧٥] والأبرص : البرص مرض جلدى يُحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة ، والأبرص من أصابه داء البرص .

فالله أقدره على أنْ يصنع من الطين كصورة الطير بإذن منه سبحانه ، وأن ينفخ فيه فيصير طيراً بإذنه سبحانه ، وكذلك أقدره الحق سبحانه أنْ يُبرِىء الأعمى من العمى ، وأنْ يعيد إلى الأبرص جلده الطبيعى ويشفيه ، وأجرى على يديه تجربة إعادة الموتى إلى الحياة بإذن منه سبحانه .

ولكنهم كفروا بما جاء به عيسى واعتبروا ما جاء به أعمال سحر ليس أكثر ، فإنّ ما كان يفعله مخالفٌ لقوانين الأشياء وهم ملتصقون بالأشياء .

لذلك لم يستوعبوا أن الله عز وجل من الممكن أنْ يُقدر بعض خَلْقه على أعمال قد يختصّ بها الله ، مثل إحياء الموتى وخَلْق الطير من الطين ، وإبراء وشفاء الأكمه والأبرص وغيرهم ؛ فظنَّ بعض من آمنوا بعيسى أنه الله ، ولا يغنى الظن من الحق شيئاً .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧)﴾

وهذه صيغة سؤال لن تكون إجابته إلا الإقرار ، فلا أحدَ أظلم ممنْ افترى على الله الكذب ، لأنه أولاً ظلم نفسه وظلم أمته ، وأولُ ظلم النفس أنْ يرتضى حياة زائلة وأنْ يترك حياة أبدية ، وأما ظلمه للناس فلأنه سيأخذ أوزارَ ما يفعلون لأنه قد افترى على الله الكذب .

فمعنى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ .. (٧)﴾ [الصف] أى لا أحدَ أظلم . والظلم : نَقْل الحق من صاحبه إلى غيره ، والظلم قد يكون كبيراً وعظيماً ،

وهو الظلم فى القمة فى العقيدة ، كما قال سبحانه : ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** (١٣) ﴾ [لقمان] وقد يكون الظلمُ بسيطاً هيِّناً .

فالذى افـترى على الله الكذبَ ، لا أحـدَ أظلمُ منه ، لأنه لو افـترى على مثله لكان أمره هيِّناً ، لكنه افـترى على مَنْ ؟ على الله فكان ظلمه عظيماً .

ومن الحُمقْ أنْ تفترى على الله ، لأنه سبـحانه أقوى منك يستطيع أنْ يُدلّل وأنْ يُبرهن على كذبك ويستطيع أنْ يدحرَكَ ، وأنْ يُوقفك عند حدِّك ، فمن اجترأ على هذا النوع من الظلم فإنما ظلم نفسه .

وقلنا : إن الافـتراء كـذبٌ ، لكنه كذبٌ مـتعـمد ، لأن الإنسـان قد يكذب حين يُخبر على مقتضى علمه ، إنما الواقع خلاف ما يعلم .

لذلك عـرَّف العلماء الصـدق والكذب ، فـقالوا : الصـدق أنْ يطابق الكلامُ الواقعَ ، والكذبُ أنْ يخـالف الكلامُ الواقعَ ، فـإنْ خالف كـلامى الواقع فالخبر كاذب ، لكن المخبر ليس بكاذب .

ففى قولـه : ﴿ **وَمَـنْ أَظْلَـمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** .. (٧) ﴾ [الصف] تحذيرٌ واضح ألاَّ يختلق أحدٌ على الله شيئاً لم ينزل به رسولٌ أو كتاب ، فمَنْ يفترى على الله الكذب لا يظلم إلا نفسه .

وحينمـا تستعرض الأمـر فلا تجد أظلم منه ، ولكن كيف يـفترى إنسـانٌ الكذبَ على الله ؟ كأنْ يبلغ الـناس ويدَّعى أنه نبىٌّ ، وهو ليس كذلك ، هنا تكون الفرْية على الله ، وإياك أنْ تظنَّ أنه يكذب على الناس ، لا إنه يكذب على الله لأنه أبلغ أن الله قد بعثه وهو لم يبعثْه .

وينطبق ذلك على النبوات التى ادُّعيتْ مثل مسيلمة الكذاب وسجاح

وطليحة الأسدى والأسود العنسى[(١)] ، كل هؤلاء ادعوا النبوة .

ومـن هـؤلاء مَنْ قال : سأُنزل مـثل هذا القرآن ، فإذا به يقول : « والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخـابزات خَبْزاً » ، ولماذا لم يأت بالمسـألة من أولها ويقـول : والزارعات زرعاً والحـارثات حرثاً . وكان عليه أنْ يُتبعها أيضاً : والآكلات أكلاً والهاضمات هضماً .

وطبـعاً هذا الكلام لونٌ من هُراء فـارغ ، فالحق إنمـا أنزل كـلامه موزوناً جاذباً لمعانٍ لها قيمتها فى الخبر .

وهم إنما يفـترون هذا الكذب ليُضلوا الناس ويصدوهم عـن كتاب الله ، مصـداقاً لقوله سبـحانه : ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِـلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (١٤٤) ﴾ [الأنعام] ، فهم يتعمدون الكذب على الله لإضلال الناس .

والكاذب إنما يكذب ليُـدلِّس على مَنْ أمامه ، فـهل يكذب أحدٌ على مَنْ يعلم الأمورَ على حـقيقـتها ؟ لا أحـدَ بقادر على ذلك ، ومَنْ يكذب على البشر المسـاوين له يظلمهم ؟ لكن الأظلم منه هو مَنْ يكذب على الله سبحانه .

---

(١) **مسـيلمة الكذاب** : هو مسـيلمة بن حبـيب الحنفى من بنى حنيفـة ، من أهل اليمامـة . اعتنق الإسـلام عـام ٩ هجرية ، ثم عاد إلى اليـمامة فـأعلن النبوة وادعى أن الأمر شـركة بينه وبين محمد ﷺ . قتل فى عهد أبى بكر على يد وحشى بن حرب فى معركة اليمامة .
أما **سجاح** فهى بنت الحـارث بن سويد ادعت النبوة بعـد وفاة النبى ﷺ . كانت نصـرانية ممن استـجاب لها مالك بن نـويرة ، تزوجها مسيلـمة بعد أن خليا ببـعضـهما وقـبضت نصف خراج أرضه . أما **طليحة الأسدى** فهو ابن خويلد ، كـان من قادة حروب الردة ولكنه ادعى النبوة بعد وفاة النبى ﷺ عام ١١ هجرية ، ولكنه هُزم على يد خالد بن الوليد ، ثم تاب وعاد إلى الإسـلام واستشهد فى معركة نهاوند عام ٢١ هجرية . أما **الأسود العنسى** فهو عبهلة بن كعب العنسى من مـذجح كان يُلقب بـ (ذى الخمار) كـان مشعوذاً يريهم الأعـاجيب ، ادعى النبوة بعد عودة رسول الله ﷺ من حجة الوداع مريضاً .

فلا ظلمَ أفدح ولا أسوأ من الذى يفترى الكذب على الله ، وما داموا قد كذبوا على ربِّهم فالمكذوب عليه هو الله ، ولا بد أنْ يطردهم من الرحمة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم[1] بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) ﴾ [طه] فقد خسر مَنْ افترى على الله كذباً فهو سيُسحتهم بعذاب . أى : يستأصلهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة .

لذلك يسأل الحق سبحانه وهو أعلم : ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٦٠) ﴾ [يونس] ماذا يظنون موقفهم يوم الحساب ؟ ألا يدرون أن الله مُنزَّه عن الغفلة ؟ فلو ظنُّوا أنه لا توجد آخرة ولن يُوجد حسابٌ فهم يُخطئون الظن .

ولو استحضروا ما أعدَّه الله لهم من العذاب والنَّكال يوم القيامة لما فعلوا ذلك ، وهم فى الحقيقة لا يؤمنون بأن هناك إلهاً سيُحاسبهم على افترائهم على الله .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) ﴾ [النحل]

ولا يتصف مؤمنٌ بكذب أبداً ، لذلك لما سُئِل رسول الله ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال : نعم . أيزنى المؤمن ؟ قال : نعم . أيكون

(١) يسحتكم : أسحته أباده واستأصله . فيهلككم ويستأصلكم . [القاموس القويم ١/٣٠٤] .

المؤمن جباناً ؟ قال : نعم . أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال : نعم . أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال : لا[1] .

فالصدق هو الخَصْلة التى لا يمكن لمؤمن أنْ يتنحى عنها لأنه لو تنحىَّ عنها ، فهذا يعنى التنحى عن الإيمان ، فالصدق هو جماع الخير ، وعلى الصدق تدور الحركة النافعة فى الكون ، أما الكذب فإنما ينشأ عنه الفساد ، فالكذب هو الذى يُخِلّ بحركة الحياة .

فالكذب هو أبعد الصفات عن المؤمن ، لماذا ؟ قالوا : لأن الكذبَ يخالف الواقع ويقلب الحقائق ، والمؤمن لا يكذب لأنه ينطق بلا إله إلا الله . فإنْ كان كاذباً ما يُدرينى أنه صدق فى هذه الكلمة ، فكأن الكذب يهدم الإيمان من أساسه ، فهو لا يُتصوَّر من مؤمن .

ورسول الله ﷺ يقول : « إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما زال الرجلُ يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً »[2] .

وإذا كان الكذب على الناس بهذه المنزلة ، فما بالكم بالكذب على الله ؟ ولكن مَن هم الذين يفترون على الله الكذب ؟

من هؤلاء الذين يأخذون التحليل والتحريم مهنةً لهم من دون الله ،

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (١٧٩٥) عن صفوان بن سليم مرسلاً أنه قال . قيل لرسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم .فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال : نعم . فقيل له : أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال : لا . وأخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٤٤٧٢) من طريق مالك .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤١٠٨) وأبو داود فى سننه (٤٩٩١) وابن أبى شيبة فى مصنفه (٢٦١١٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

يقول تعالى : ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـٰذَا حَلالٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) ﴾ [النحل]

فالحق سبحانه هو وحده صاحب التحليل والتحريم ، فإياك أنْ تُحلِّل شيئاً من عند نفسك ، أو تُحرِّم شيئاً حسْب هواك ، لأن هذا افتراءٌ على الله ، فالتحليل والتحريم إنما يأتى من الله وليس لمخلوق أنْ يُحلِّل أو يُحرِّم .

فالتحليل والتحريم هى سلطة الله ، لذلك عندما دخل عدى بن حاتم[١] على رسول الله ووجد فى عُنق الرجل صليباً من الذهب أو من الفضة قال سيدنا رسول الله ﷺ : « اخلع هذا الوثن »[٢] .

ومن أدب الرجل مع رسول الله خلع الصليب ، فقال ﷺ : « إنكم لتتخذون الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله . فقال الرجل : نحن لا نعبدهم . قال له رسول الله : أو لا تطيعونهم فيما حرَّموا وأحلُّوا ؟ قال : نعم . قال : تلك هى عبادتكم إياهم[٣] .

(١) عدى بن حاتم بن عبد الله الطائى ، أبو وهب ، أمير صحابى من الأجواد العقلاء كان رئيس طيء فى الجاهلية والإسلام ، كان إسلامه سنة ٩ هجرية وشهد فتح العراق . شهد الجمل وصفين والنهروان مع على . عاش أكثر من مائة عام توفى عام ٦٨ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤/٢٢٠] .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٩٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٣٦٧٣) من حديث عدى ابن حاتم رضى الله عنه قال : أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب فقال : ياعدى اطرح عنك هذا الوثن . وسمعته يقرأ فى سورة براءة ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٣١) ﴾ [التوبة] قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه .

(٣) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٦٦٣٢) وأورده القرطبى فى تفسيره وعزاه للترمذى .

ويقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) ﴾ [يونس]

فما دام الحق سبحانه هو الذى أنزل الرزق وبيَّن الحلال والحرام فلماذا تُدْخِلون أنوفكم فى الحلال والحرام ، وتجعلون بعض الحلال حراماً ، وبعض الحرام أو كل الحرام حلالاً ؟ لماذا لا تتركون التحليل والتحريم لمَنْ خلق ورزق ، وهو سبحانه أدْرَى بمصلحتكم .

﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ .. (٥٩) ﴾ [يونس] أى : هل أعطاكم الله سبحانه تفويضاً فى جَعْل الحلال حراماً والحرام حلالاً ؟ ﴿ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) ﴾ [يونس] أى : على الله تتعمدون الكذب .

ومن هؤلاء المفترين على الله أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً[١] (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠) ﴾ [النساء]

فهم يمدحون أنفسهم بالباطل ويُبرئون أنفسهم من العيوب ، ومن هؤلاء مَن ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وهم ليسوا كذلك .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ .. (١٨) ﴾ [المائدة] فإنْ كنتم أحباءه وأبناءه فلماذا يُعذِّبكم ؟

والتزكية التى فعلوها أنهم مدحوا أنفسهم بالباطل ، ووضعوا

(١) فتيلاً : الفتيل ما بين شقى النواة يشبه الخيط وهو يمسك جانبى القطمير . وهو القشرة الرقيقة على النواة ، وكلاهما يُضرب مثلاً للشىء التافه والقليل الذى لا يفيد ولا يغنى ، قال تعالى :﴿ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧) ﴾ [النساء]

أنفسهم فى منزلة لم يضعهم الله فيها ، ومن الحمق أنْ يُزكِّى الإنسانُ نفسه فى غير المواقف التى يحتاج فيها الأمرُ إلى تزكية .

انظر كيف يفترون على الله الكذب ، فيقولون : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ .. (١٨) ﴾ [المائدة] ويقولون : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ .. (١١١) ﴾ [البقرة]

ومن الكذب المبين والافتراء على الله قولهم ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) ﴾ [مريم] وهذا قولٌ قال عنه الله سبحانه : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا[1] (٨٩) تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) ﴾ [مريم]

فهذا الكلام منهم هو عبثٌ وافتراء على مقام الألوهية ، وهو افتراء كذب ومُسْتقبح ومُستْنكر وممقوت ، فالله مُنزّه عن الولد وما ينبغى له أنْ يكون له ولد ، فلا يريد الولدَ إلا المحتاجُ إليه الذى يريد امتداداً له ، يراه فى ولده ويساعده فى أعماله ومهامه ، والله ذو القدرة المطلقة مُنزَّه عن كلِّ هذا .

ومن افتراء الكذب على الله الارتداد والعودة إلى ملة الكفر ، لأن معنى الارتداد هو التكذيب بأن الإسلام حقٌّ ، وأن القرآن حقٌّ ، وأنه مُوحًى به إلى رسول ونبى حقّ ، وهذا تكذيب لله عز وجل وهو افتراء على الله .

يقول الحق سبحانه فى قصة شعيب عليه السلام : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا .. (٨٨) ﴾ [الأعراف]

(١) إدًّا : الإد : الداهية والأمر الفظيع والكذب الفاحش . قال تعالى :﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) ﴾ [مريم] أى منكراً وكذباً فاحشاً . [القاموس القويم ١/١٢]

فكان ردّ شعيب عليهم ﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا .. (٨٩) ﴾ [الأعراف]

فهم يعلمون أن العودة إلى مثل هذه الملة لونٌ من الكذب المتعمَّد على الله ، فإنك كنتَ عارفاً بالحقيقة ثم قلتَ غيرها ، فهذا افتراءٌ واختلاقٌ وكذب .

والذين آمنوا مع شعيب عليه السلام يعلمون أن الملة القديمة ملّة باطلة ، وهم قد شهدوا مع شعيب حلاوةَ الإيمان بالله ، لذلك رفضوا الكذب المتعمد على الله .

وقد ذكر الحق سبحانه افتراءَ الكذب على الله فى عدة آيات من القرآن ، ولكنه هنا فى آية سورة الصف أضاف لَفْتة لم تَرد فى سائر الآيات ، فقال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ .. (٧) ﴾ [الصف]

ونحن نأخذ قوْل الحق هذا فى سياقه من سورة الصف التى حدثتنا عن مواكب رسالات مُتتالية رؤوسها موسى ثم عيسى ثم خاتم الأنبياء محمد ﷺ .

وكأنَّ الآية تلفت نظرنا إلى أنّ مَنْ افترى على الله الكذب هنا هو أحدُ أتباع موسى من اليهود ، أو أحد أتباع عيسى عليه السلام المُطَالَبين بالإيمان بمحمد ليتحقَّق لهم الإيمان بالله .

لذلك قال : ﴿ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ .. (٧) ﴾ [الصف] فبدلاً من أنْ يستجيب لمَنْ يدعوه إلى الإسلام تجده يفترى على الله الكذب فتجده يدَّعى أنَّ القرآن ليس وَحْياً من عند الله ، وأنه من تأليف محمد ،

وهى الفِرْية التى ذكرها اللهُ فى قرآنه وردَّ عليها .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ[١] افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) ﴾ [الفرقان]

ولهؤلاء نقول : إذا كان محمد وهو بشر قد استطاع أنْ يفترى هذا القرآن ويُؤلفه ، فلماذا لا تفترون مثله ؟ لماذا لا تأتون بمثله ؟

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) ﴾ [يونس]

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) ﴾ [هود]

وما دُمتم ترونَ أن افتراءَ مثل هذا القرآن أمرٌ سهلٌ بالنسبة لكم ، فلماذا لا تأتون بمثل القرآن ولو بعشر سُور مثله ؟ وأنتم قد عشتم مع محمد منذ صغره ولم يكُنْ له شعر ولا نثر ولا خطابة ولا علاقة له برياضاتكم اللغوية ، ولم يشترك فى أسواق البلاغة والشعر التى كانت تُعقد فى الجاهلية مثل سوق عكاظ .

وإذا كان مَنْ لا رياضة له على الكلام ولا على البلاغة قد جاء بهذا القرآن فليكُنْ لديكم وأنتم أهلُ قدرة ودُربة ورياضة على البلاغة أنْ تأتوا ببعضٍ من مثله ، وإنْ كان قد افترى القرآن ، فلماذا لا تفترون مثله ؟

فلما فشل افتراؤهم على الله كذباً أنه لم يُنزل قرآناً ، وبالتالى لم

(١) إفك : الإفك : الكذب . وأفك أى كذب وافترى باطلاً . وأفاك : صيغة مبالغة أى كثير الكذب .
[القاموس القويم ١/٢٢]

يُرسل رسولاً اسمه محمد بدأوا يطعنون فى آيات القرآن وأنها متناقضة مع بعضها البعض .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) ﴾ [الصف] فهم ظالمون لأنفسهم وظالمون لله لأنهم افتروا عليه الكذب ، وظالمون لمَنْ كانوا سبباً فى ضلالهم وصدِّهم عن سبيل الله ، وهم لم يكتفوا برفضهم لدعوة الله ، بل أضافوا إلى هذا الافتراء على الله ، لذلك استحقُّوا ألاَّ يهديهم الله .

والهداية هنا ليست هى هداية الإرشاد والبيان والدلالة ، فهذا النوع من الهداية كفله اللهُ لكلِّ خَلْقه .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) ﴾ [الإنسان] ويقول تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) ﴾ [البلد] أى : هديناه طريق الخير وطريق الشر أى : دللناه عليهما وأوضحنا له طريق الخير من طريق الشر .

ولكن الحق سبحانه يختصُّ مَنْ آمن بهداية المعونة والتوفيق للقيام بمقتضيات المنهج ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

فالله لا يهدى القوم الظالمين ولكنه يهدى العادلين ، ولا يهدى القوم الفاسقين ولكنه يهدى الطائعين ، ولا يهدى القوم الكافرين لكنه يهدى المؤمنين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾

فالحق سبحانه يُحدِّثنا عن نور الله الذى يظنُّ الكافرون أن باستطاعتهم إطفاءه ، لقد نسُوا أو تعامَوا عن أن نورَ الله سبحانه وتعالى نورٌ شامل عام لا يدع مكاناً مُظلماً إلا أضاءه ، ولا مكاناً يختفى فيه شىء بسبب الظلام .

وإذا كانت التجربة قد أثبتتْ أنَّ نوراً من خَلْق الله وهو الشمس إذا سطعتْ فالجميع يُطفئون مصابيحهم ، فكذلك إذا ما جاء نورُ الهداية من الله سبحانه وتعالى فيجب أنْ تُطفأ بقية الأنوار .

إنه نورُ المنهج الذى يُنير لنا المعنويات ويُنير لنا القيم ، وما دام سبحانه قد أنزل نورَ الهدى منه فلا بدَّ أنْ نُطفىء جميع مصابيح الأفكار القائمة على الهوى ، ونأخذ النور كلّه من منهج الله القويم والصالح لكلِّ زمان ومكان ، كما نأخذ النور فى النهار من شمس الله .

فهل يستطيع أحدٌ إطفاءَ نور الشمس إذا سطعتْ على العالم والدنيا ؟ والجواب : لا أحدَ يستطيع هذا ، كذلك نور الله سبحانه وتعالى لا أحدَ يستطيعُ إطفاءه .

هم يريدون هذا ويشتهونه ، والاشتهاء طلبُ شهوة النفس من غير ارتباط بمنهج ، لكن ما الذى كان يشتهيه الكفار ؟ كانوا يشتهُون أنْ يطمِسُوا دعوة الحق ، فلم يُمكّنهم الله من طمْسها .

وهم يشتهون انطماس الدعوة لتبقى لهم سيادتهم التى نهبوها على حساب الضعفاء ، ولتظلّ لهم المكانة والتصرّف ، كذلك يشتهون انطماس الدعوة حتى لا تقفَ مناهجُ الله عقبةً أمام شهوات نفوسهم .

والحق سبحانه يقول لهؤلاء : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) ﴾ [الأنفال]

فهؤلاء المشركون قد كفروا بالله وصرفوا المال ليصدُّوا عن سبيل الله فلم يتحقق لهم ما أرادوا ولم يأتِ ذلك بأدنى نتيجة .

وكأن الحق سبحانه يُغرى الكافر بأنْ يتمادى فى الإنفاق ضد الإيمان ، فيخسر الكافر ماله ويتجرَّع آلام الحسرة ، لأن الله يغلبه من بعد ذلك ، فهم سيُغلبون مهما بذلوا من جهود ، ومهما صرفوا من أموال .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) ﴾ [آل عمران] فليستْ المسألة أنَّ أموالهم ستضيع منهم عَبَثاً فى محاولة إطفاء نور الله فحسب ، ولكن أيضاً سيُغلبون ويُهزمون ويروْنَ انتشار نور الله وتمامه بأعينهم مما يُسبِّب لهم حسرة وألماً ، ثم تكون عاقبتهم فى الآخرة أنْ يُحشروا ويُجمعوا ويُساقوا إلى جهنم .

وإذا كان الحق سبحانه قد ذكر الذين يريدون ليطفئوا نور الله بمالهم ، فإنه سبحانه فى آية سورة الصف وكذلك فى سورة التوبة ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾ [التوبة] ، فقال : (بأفواههم)

فذكر الحق سبحانه هنا وسيلة أخرى من وسائلهم لطمس دعوة

الحق ، وهى (أفواههم) ، والمقصود بها ممارسة دعوة مضادة لدعوة رسول الله .

وقد بذل كفارُ قريش جهداً كبيراً بأفواههم فى محاربة الدعوة إلى الدين الحق ، فاتهموا رسول الله اتهامات كثيرة ، مرة أنه ساحر ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص] ، ومرّة أنه مجنون ﴿ وَقَالُوا يَـٰأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر] ، ومرة أنه شاعر ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات]

فطعنوا فى شخص الرسول ﷺ وأثاروا حوله الدعايات لمحاولة صَرْف الناس عنه ، وقد ردَّ اللهُ فى قرآنه على افتراءاتهم هذه ردّاً أسكتهم ، حتى أنهم تباحثوا فى هذا الأمر ليتفقوا على رأى واحد فى محمد يقولونه للناس فلا يُكذِّبهم الناس .

فانتهوا إلى أن يقولوا عن محمد ﷺ : إنه ساحر يُفرِّق بين المرء وزَوْجه ، وبين الولد وأبيه[(١)] .

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة (١٧٨) عن سعيد بن جبير أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولاتختلفوا فيُكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به فقال : بل أنتم فقولوا وأسمع . قالوا نقول : كاهن . قال : ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هى بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا فنقول : إنه لمجنون . قال : ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول إنه شاعر . قال : ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشاعر . قالوا : فنقول ساحر . قال : ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما تقول ياأبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لمغدق وإن فرعه لجناة . وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن نقول ساحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك .

ثم إنهم قالوا ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] لقد أرادوا أنْ يُهوِّنوا من شأن محمد ، وأن هناك مَنْ هو أحقّ منه بأنْ ينزل عليه القرآن ، فأىّ منهما من مكة والطائف أعظم من محمد[(١)] .

ومن محاولة إطفائهم نور الله بأفواههم أنهم طعنوا فى القرآن نفسه ، ورغم أنهم كان عندهم الاستعداد لقبوله لو نزل على عظيم منهم .

فقالوا : ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٥﴾ ﴾ [الفرقان] ويقول تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال]

وقد كان من هؤلاء النضر بن الحارث الذى ذهب لفارس ورأى كتاباً هناك يضم أساطير وحكايات وجاء ليقول وسط قريش : هأنذا أقول مثل محمد ، لكن كلامه لم يحمل منهجاً ولم يكُنْ له هدف ، فالأساطير جمع أسطورة أى الحوادث والأحاديث الخرافية مثل ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة ، والإلياذة وغيرها من كتب الأساطير .

ومثلما طعنوا فى شخص الرسول ﷺ وفى الرسالة وهى القرآن طعنوا أيضاً فيمَنْ اتبعوا هذا النور واحتقروهم ، فشابهوا قوْل قوْم نوح له : ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سُئل عن قول الله ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] ما القريتان ؟ قال : الطائف ومكة . قيل : فمن الرجلان ؟ قال : عروة بن مسعود وخيار قريش ، أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٣/٢٠٠) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه .

نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا[(١)] بَادِىَ الرَّأْىِ ..(٢٧)﴾ [هود]

ولذلك حاول بعضٌ من أهل الكفر أنْ يعرضوا موقفاً وسطاً على رسول الله ﷺ ، فقالوا : إذا نحن جئنا فأقمْهم من عندك لنجلس معك ، فإذا قُمْنا من عندك فاجعلهم يجلسون[(٢)] .

وقد كان خصومُ الإسلام حينما يروْن الدعوة تنتشر شيئاً فشيئاً كانوا يحاولون إيقافها ، لا من جهتهم بالعدوان على مَنْ يؤمن فحسب ، ولكن أيضاً من جهته ﷺ فأرسلوا إلى رسول الله وفداً فقالوا : ننتهى إلى أمر هو وَسَط بيننا وبينك : دَعْكَ من هؤلاء الفقراء واصرف وجهك عنهم ولا تربط نفسك بهم ووجّه وجهك إلينا .

فأنزل الله ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. (٢٨)﴾ [الكهف]

وعندما نزلت هذه الآية قال ﷺ : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى مَنْ أمرنى أن أصبر نفسى معهم »[(٣)] .

---

(١) أراذلنا : أى أفقرنا وأحقر الناس فى نظرنا . والأرذلون هم أخسُّ الناس . [القاموس القويم ١/٢٦٣]

(٢) أخرج الطبرى فى تفسيره (١٣٢٥٥) عن ابن مسعود قال : مر الملأ من قريش بالنبى ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخبّاب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ هؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك . فلعلك إن طردتهم أنْ نتبعك . فنزلت ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٥٢)﴾ [الأنعام]

(٣) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٩/٥٢٢) وعزاه لأبى الشيخ عن سلمان الفارسى قال : قام رسول الله ﷺ يلتمسهم حتى أصابهم فى مؤخر المسجد يذكرون الله وقال : الحمد لله الذى لم يُمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى . معكم المحيا والممات .

ومن أعجب ما قالوه بأفواههم لإطفاء نور الله ما قالوه محاولين خداعَ الناس ، وكأنهم على الحق فعلاً ، يقول تعالى : ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

فهم كافرون يستبعدون أن ما جاء به رسول الله ﷺ هو الحق ، ولذلك يتجاسرون ويتحامقون فيطلبون أنْ يُمطر اللهُ عليهم حجارة ، أو يُنزل بهم عذاباً أليماً .

كلُّ هذا يدخل فى أساليبهم ووسائلهم لمحاربة الحق ولصرف الناس عنه ، وهذا قمة التغفيل الدالّ على أنها عصبية مجنونة ، لقد تمنوا الموت والقتل رَمْياً بالحجارة من السماء ، ولم يتمنوا اتباع الحق .

ألم يكُنْ الأجدر بهم أنْ يُعملوا العقل بالتدبر ويقولوا : إنْ كان هذا هو الحق من عندك فاهْدنا إليه .

لقد أعماهم كفرهم وحقدهم وحسدهم لرسول الله عن أنْ يروا الحق ويتبعوه ، وهذا لفرط حقدهم وضلالهم ، وهذا يكشف لنا تفاهة عقول الكفار .

والحق سبحانه لو استجاب لهؤلاء الذين دعوا على أنفسهم فقالوا : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ..(٣٢)﴾ [الأنفال] لكانت نهايتهم بجنس ما دعوا به وقضى عليهم ، ثم انتهوا بعد ذلك إلى عذاب الجحيم .

ولكن الحق سبحانه شاء لهم البقاء ليؤمن مَنْ يختار الإيمان ، أما

مَن اختار الكفر فعليه أنْ يتحمّل تبعة الطغيان التى تتمثل فى أنّ الواحد منهم لا يختار الكفر فقط ، بل يتجاوز الحدّ ويطلب ممَّنْ آمن أنْ يرتدَّ عن إيمانه .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف] ، وقد سُئلنا فى بعض رحلاتنا : القرآن يقول (والله متم نوره) فكيف تمَّ نور الله ومع الإسلام دياناتٌ أخرى كثيرة مازالت موجودة ، وأغلبها أكثر من الإسلام عدداً وقوة ؟

لقد فهم هؤلاء أن معنى (متم نوره) أنْ يصير الناسُ جميعاً مسلمين ، ولو كان الأمرُ كذلك ما قال الله ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف] ، وما قال ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾ [الصف]

إذن : الحق سبحانه يقرر وجود الشرك والكفر مع الإسلام .

والمعنى : أن الله مُتمّ نوره يعنى مع كفرهم ومع شركهم طوال المدة ، إلا أنهم لن يقدروا على إطفاء هذا النور ، فسوف يظل وسوف يتغلب على أحكامهم ويظهر عليها ، بحيث لا يجدون حلاً لأقضيتهم إلا فى هذا النور .

وكوْن الله سبحانه مُتم نوره هو أمر حتمىٌّ ، ولذلك قال تعالى فى آية سورة التوبة ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾ [التوبة]

لذلك قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً .. (٣) ﴾ [المائدة]

لقد تمَّ دين الله ودخل الناسُ إلى الإسلام أفواجاً ، ولن يُنسى القرآن نور الله ، ولن يكتم القرآن أحدٌ ، ولن يُحرِّف القرآنَ أحدٌ ، ولن يحدث للقرآن ما حدث للكتب السابقة من نسيان وكتمان وتحريف .

لقد يئسوا من أنْ يُغلب الإسلام ، بل إن الإسلام سيغلب ، وأرادوا أنْ يُطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أنْ يُتمَّ نوره ، وقد كمل الدين وجاء على كماله ، وقد أتم الله استمرار النعمة بتمام المنهج .

قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) ﴾ [الأنعام] وكلمة (تمت) تدل على أن المسألة لها بداية ولها خاتمة ، فما المراد بالكلمة التى تمتْ ؟ أهى كلمة الله العليا بنصر الإسلام وانتهاء الأمر إليه ؟ أو هو تمام الرسالة ؟ أو المقصود بها القرآن ؟

ونرى أن معنى (تمت) استوعبتْ كل أقضية الحياة إلى أنْ تقوم الساعة ، فليس لأحد أنْ يستدرك على ما جاء فى كتاب الله حكماً من الأحكام ، لأن الأحكام غطَّتْ كلَّ الأقضية ، لقد اكتملتْ كلُّ المسائل التى تضمن لنا استقامة الحياة .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف] وهم يكرهون نور الله ومنهجه على كل حال ، وقد أكّد الحق سبحانه هذه الحقيقة فى قرآنه فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ﴾ [محمد]

كرهُوا منهج الله لأنه سيسحب بساط السيادة والجبروت من تحت أقدامهم ، سيُسوِّى بينهم وبين عبيدهم بعد أنْ ألفوا السيادة والمكانة

والتسلّط على الخَلْق ، لذلك كرهوا نور الله الذى جاءهم به رسول الله ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾

الحق سبحانه يعطينا حيثيات أن الله مُتم نوره ومُكمله رغم أنف الكافرين ورغم ما يبذلونه ويُنفقونه ويدبرون له ويكيدون ، ذلك أن نور الله أولاً هو الهدى ، وثانياً هو دينُ الحق ، وثالثاً أنه أرسل به رسوله محمداً ﷺ وهو رسوله حقاً .

فكيف ينطفىء نورٌ له هذه العناصر الثلاثة .

أما أنه (الهدى) فالهدى علامات يضعها الخالق سبحانه لنهتدى بها ، لأنه لو تركها للخَلْق ليضعوها لاختلفتْ الأهواء ، والله سبحانه أغنى الأغنياء عن الخَلْق ، ولن ينتفع بأىِّ شىء من العباد ، أما البشر فلو وضعوا (هدى) فالواضع سينتفع به .

وقد رأينا ذلك رأْي العين ، فالذى يريد أنْ يأخذ مال الأغنياء ويغتنى يخترع المذهب الشيوعى ، والذى يريد أنْ يمتصَّ عرق الغير يضع مذهب الرأسمالية .

والهدى لكى يكون هدى لا بد أنْ يكون مجرداً من الهوى ومن انتفاع مَنْ شرَّع ، ولا بد أنْ يكون واضعُ الهدى عالماً بكل الجزئيات التى قد يأتى بها المستقبل ، وهذا لا يتأتى إلا فى إله عليم حكيم .

لذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة] وهدى الله طريق واحد ، أما هدى البشر فكلٌّ واحد له هدى ينبع من

هواه ، ومن هنا فإنها طرق متشعبة ومتعددة تُوصِّلك إلى الضلال ، ولكن الهدى الذى يُوصِّل للحق هو هدى واحد ، هدى الله عز وجل .

إنْ الله يريد أنْ يلفت خَلْقه إلى أنهم إذا أرادوا أنْ يصلوا إلى الهدف الثابت الذى لا يتغير فليأخذوه عن الله ، وإذا أرادوا أنْ يتبعوا الطريق الذى لا توجد فيه أىُّ عقبات أو متغيرات ، فليأخذوا طريقهم عن الله تبارك وتعالى .

إنك إذا أردتَ باقياً فخُذْ من الباقى ، وإذا أردتَ ثابتاً فخُذْ من الثابت ، وإذا أردتَ أنْ تُحقِّق سعادة فى حياتك وأنْ تعيش آمناً مطمئناً فخُذ الهدف عن الله وخُذ الطريق عن الله ، فإنَّ ذلك يُنجيك من قلق متغيرات الحياة التى تتغير وتتبدَّل ، إنه ينير حياتك كلَّها بفضل نور منهج الله .

وأما أنه (دين الحق) فلأنه يضم تشريعاً من إله خلق الجميع لا يُفرِّق بين أصناف البشر ، والدين الحق لا يخدع أحداً ، وهو يُقنع الناسَ بقوة حجته ، ويجذب قلوبهم بسماحته ، ولأنه دينُ الحق فإنه سينتصر سواء آمنَ الناسُ به أم لم يؤمنوا ، وسبحانه يريد بالمنهج الذى أنزله كلّ الخير والسعادة لعباده .

والدين الحق هو الذى يأتى موافقاً لما ارتضاه الله تعالى لخَلْقه ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ولا يتناقض ولا يزول ولا يتزحزح أى لا ينتهى ولا يتذبذب ، هذا هو الحق .

فقضية الحق فيما أنزله الله على رسله مُطردة فى منهجه ، فالله حَقّ ، خلق السماوات والأرض وكلّ الكون بالحق ، وأنزل كتابه بالحقّ ،

كلّه حَقٌّ ، نشأ الكونُ منه بقانون حق ، واستمرت سننُ الله فى الكون بالحق ، وهو دائماً ينصر الحق .

وقد أنزل اللهُ الكتابَ بالحق ، أى أنزله بالقضايا الثابتة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ، فهو ثابت لا ينقضه واقع ، وإنْ ظهر فى بعض الأحيان أن هناك مَنْ طمس الحق وأنّ الباطل تغلَّب عليه فهذا يعنى ظهور المفاسد فيصرخ الناسُ طالبين الحق .

وانتشار المفاسد هو الذى يجعل الناس تستدعى الحقّ وتتحمس له ، لأن الباطل حين يعضّ الناس تجدهم يتجهون إلى الحق ليتمسّكوا به .

لقد نزل القرآن بما هو حَقٌّ من إلهيات وملائكة ونبوات ومعجزات وأحكام وشرائع ، كلُّها حَقٌّ لا شكَّ فيه ، فنزل الحق الثابت من الله بواسطة مَن اصطفاه من الملائكة وهو جبريل على مَنْ اصطفاه من الناس وهو محمد ﷺ ، وفى طَىِّ ما نزل الحق الثابت الذى لا يتغير .

أما ثالث حيثيات أن الله مُتم نوره أنه أرسل محمداً بهذا المنهج ، ورسول الله نفسه نور ، يقول تعالى هنا : ﴿ **هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ** .. (٩) ﴾ [الصف] ، فالحق سبحانه أرسل رسوله ليُعدل منهج الغرائز البشرية .

وما دام الله قد أرسل إليكم رسوله بالتكاليف والمنهج فلا بدّ أنْ يكون سبحانه قد كلّف مَنْ هو مؤتمن عليكم ، ولذلك حمّله أمانة إبلاغكم هدى الله ودين الحق الذى ارتضاه الله لكم .

والغاية هى أن يُظهر الإسلامَ على الدين كلِّه ، وليس معنى هذا أنْ لا يوجد يهود أو نصارى أو كافرون ومشركون ، وإنما هو ظهور قوانين ، هو ظهور منهج الله على غيره من المناهج ؛ ظهور حجة

وبرهان ، لا ظهور قهر وتسلط وإذعان .

إن الإسلام سيظهر عليهم - أى يغلبهم - كنظام يُضطرون إليه ليحلّوا مشكلات مجتمعاتهم الكافرة فسيأخذون من أنظمة وقوانين الإسلام وهم كارهون ، ولذلك نجدهم يستقون قوانينهم وإصلاحاتهم الاجتماعية من تعاليم الإسلام . فاطمئنوا يا مَنْ آمنتم بمحمد ﷺ واتخذتم الإسلام ديناً ، إن تجارب الحياة ستأتى لتثبت لدى الجاحدين صدقَ دينكم وصدقَ الله فى تقنينه لكم .

فقد اضطرتهم ظروفُ الحياة وتعقيدات ما عندهم من مناهج أنْ يقننوا إباحة الطلاق فى إيطاليا الكاثوليكية[1] تقنيناً بشرياً لا بتقنين إلهى ، وإنْ كانوا أخذوا ما فى الإسلام فى هذا .

ومثل هذا يبين لنا مدى ثقتنا فى ديننا ، وأن مشكلات البشرية فى بلاد الكفر والشرك لن يحلها إلا الإسلام ، فإنْ لم يأخذوه كدين سيُضطرون إلى أخذه كنظام ليقود إلى سلام المجتمع ، واستقرار وأمن الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) ﴾

---

(١) وأيضاً الكنيسة البروتستانتية أباحت الطلاق لأسباب متعددة كالجنون أو المرض المزمن واستحالة العشرة ، وذلك لأن الحياة أجبرتهم على ما قال به الإسلام ، حتى الكنيسة الأرثوذكسية أخذت وقتاً طويلاً بلائحة ١٩٣٨ التى وضعها أقباط وأباحت الطلاق لتسعة أسباب ، وهذا خلافاً لمن تطرف منهم وحظر على الناس رحمة الله وقصره على علة الزنا .

قوله : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا (١٠) ﴾ [الصف] أى : يأيها الذين آمنتم بالله إلهاً ودخلتم معه فى عقد إيمانى ، فيا مَنْ آمنتَ بالله رباً وإلهاً وخالقاً خُذْ عن الله وافعل لأنك آمنتَ بمَنْ أمرك .

فالمعنى : يا مَنْ آمنتم بى بمحض اختياركم وآمنتم بى إلهاً له كلُّ صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية ، ما دُمتم قد آمنتُم بهذا الإله اسمعوا من الإله الأحكام التى يطلبها منكم .

إذن : فهو لم يُناد غيرَ مؤمن ، وإنما نادى مَنْ آمن باختياره وبترجيح عقله .

فإياك أيها المؤمن أنْ تقول : ما علّة هذا الأمر ؟ أو ما حكمة هذا ؟ فما دُمْتَ آمنتَ بالله فخُذْ أوامره ونواهيه دون مناقشة ، فإبليس كان مؤمناً بالله ولكنه ناقش الأمر وحكمته وردَّه على الآمر سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ .. (١٠) ﴾ [الصف] بعد ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠) ﴾ [الصف] تعطى معنىً عميقاً يُوجب على الخَلْق أنْ يُرهفوا آذانهم له سبحانه ، فالله يسأل المؤمنين إنْ كانوا يريدون من الله أن يدلّهم ، فهل تظن أنهم من الممكن أنْ يرفضوا دلالةَ الله لهم على الخير ؟

وكأنَّ الله وضع ذاته العلية موضعَ الدليل الذى يدل الناسَ فى الصحراء ، فيدلُّهم على الطريق الصحيح الموصِّلة إلى الغاية فيهديهم سواء السبيل ، فالدلالة الخطأ تذهب بك فى طرق أخرى ، وتصل بك إلى غاية لا تريدها ، فما بالك بأنْ الدَّالَّ لك هو الله ؟

فالله عندما يهدى ويدل إنما يدلكم إلى كلِّ نافع لكم ويُجنّبكم كلَّ أمر ضَارٍّ بكم .

والحق سبحانه وتعالى حين يتحدث عن الصفقة الإيمانية يستخدم كلمة التجارة ، وكلمة الشراء وكلمة البيع ، اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ (١١١) ﴾

[التوبة]

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ .. (١١) ﴾

[الصف]

ونعلم أن التجارة هى وساطة بين المنتج والمستهلك ، المنتج يريد أنْ يبيعَ إنتاجه ، والمستهلك محتاج إلى هذا الإنتاج ، والربح عملية تطول فترة وتقصر فترة مع عملية تحرُّك السلعة والإقبال عليها إنْ كان سريعاً أو بطيئاً .

وعملية التجارة استخدمها الله سبحانه وتعالى ليبينَ لنا أنها أقصرُ طريق إلى النفع ، فالتجارة تقوم على يد الإنسان ، يشترى السلعة ويبيعها ، ولكنها مع الله سيأخذ منك بعضاً من حرية نفسك ليعطيك أخلدَ وأوسع منها .

لذلك يقول العارفون بفضل الله : اختر مَنْ يُثمِّن عطاءك ، فأنت عندما تعطى شيئاً لإنسان فهو يُثمِّن هذا الشىء بإمكاناته وقدراته ، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك ، لكن العطاء لله كيف يُثمنه سبحانه ؟ لا بد أنْ يكون الثمنُ غالياً .

إذن : فالعاقل ينظر لمَنْ سيعطى النعمة ، ولنا الأُسْوة فى سيدنا عثمان رضى الله عنه عندما علم التجار أن هناك تجارة آتية

له ، جاء كل التجار ليشتروا منه البضاعة ثم يبيعوها ليربحوا ، وقال لهم : جاءنى أكثر من ثمنكم ، وفى النهاية قال لهم : أنا بعتُها لله .

إذن : فقد تاجر سيدنا عثمان مع الله ، فرفع من ثمن بضاعته ، وما دام سبحانه هو الذى يشترى فلا بدّ أنْ الثمن كبير ، لأنه يعطى النعيم الذى ليس فيه أغيار ، لذلك فالذى يُرائى الناسَ خاسرٌ ولا يعرف أصول التجارة ، لأنه لم يعرف طعْم التجارة مع الله .

فكلٌّ منّا فى حياته يجب أنْ يعقد صفقة مُربحة بأنْ يعطى شيئاً ويأخذ شيئاً أكبر منه ، ولذلك يقول تعالى : ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر]

هنا أيضاً تجارة ، وأنت حين تريد أنْ تعقدَ صفقة عليك أنْ تقارن الشىء الذى تُعطيه بالشىء الذى تأخذه ثم افرق بينهما ، ما الذى يجب أنْ يُضحى به فى سبيل الآخر ؟

والله يعاملنا بملحظ النفعية الإنسانية ، واللبق والفطن الذكى هو الذى يتاجر فى الصفقة الرابحة أو المضمونة أو التى تكون جدواها والفائدة منها أكثرَ من سواها ، فالتجارة تعتمد على أنك لا تُقبل على عقد صفقة إلا إذا غلب على ظنِّك أن هذه الصفقة سوف تأتى لك بأكثر مما دفعتَ فيها .

وهكذا عوّدنا ربُّنا تبارك وتعالى حين نُضحِّى بالقليل أنْ يعطينا

الكثير وبلا حدود فضلاً من الله وكرماً ، ألم ترَ أن الحسنةَ عنده تعالى بعشْر أمثالها وتضاعف إلى سبعمائة ضعف[1] ؟ .

أليستْ هذه تجارةً مع الله رابحة ، كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف]
وقال عنها ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر]

والذى يتاجر مع الله لا بد أنْ يكون ذكياً فطناً ، ولا بد أنْ يعرفَ الغاية قبل أنْ يعرف السبيل إلى الغاية ، وآفةُ الدنيا وأهلها أنهم يعيشون فيها ولا يعرفون غاياتهم النهائية ، إنما يعرفون غايتهم الجزئية .

والذكى هو مَنْ لا يذهب للغايات القريبة المنتهية ، بل ينظر إلى الغايات الأخرى ، لأن الناس يختلفون فى الغايات المنتهية ، فواحدٌ يعيش خمسين سنة ، وآخر يعيش ستين عاماً ، وثالث يعيش لمدة سنة .

إذن فلا بد أنْ تنظر إلى الغاية التى سيذهب لها الكل ، وآفة الناس أنهم يعملون للدنيا يعنى للغايات القريبة ، برغم أن (الدنيا) تعنى الأقل والأتفه ، ولذلك اسمها الدنيا ، وما دامت دنيا إذن فهناك عليا .

إننا لا نعرف كم سنحيا فى هذه الحياة الدنيا ، فالحياة مهما

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله يقول الله : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به يدع شهوته من أجلى ، للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه » أخرجه ابن ماجه فى سننه (١٦٣٨) .

طالتْ ذاهبةٌ ، أما حياةُ الآخرة فمتيقنة لا أجلَ لها ، إنها دائمة ونعلم أنّ نعيم الدنيا بالنسبة للإنسان هو على قدر الأسباب الموجودة لديه .

أما نعيم الآخرة فهو على قدر طلاقة قدرة المسبِّب وهو الله ، وعلى هذا تكون خسارة الذين كفروا كبيرة وفادحة ودامية لأنهم لم يتاجروا مع الله .

يقول تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا .. (٣١) ﴾ [الأنعام]

أما التجارة فهى تُحقّق لكم النفع الأبدى ، وأعظم النفع الأبدى هو قوله تعالى : ﴿ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف] ويقول الحق تعالى ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) ﴾ [الزمر]

فالله يُنجِّى المؤمنين من عذاب مؤلم مهين لمن لم يؤمن بل كذَّب وتولّى ، فالفوز الأكبر هو أنْ ينجو من النار ، يقول تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

ولم يقُل سبحانه : ومن أدخل الجنة فقد فاز ، لأن مجرد أنْ تُزحزح عن النار فوزٌ عظيم ، فأُولى درجات الفوز أنْ يُزحزح الإنسانُ عن النار ولو إلى الأعراف ، وهذا فوز عظيم يكفى أنك تمرُّ على الصراط المضروب فوق النار(1) ، وترى ما فيها من ألوان العذاب ، ثم

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ الرسل وكلام الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم . وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم يارسول الله . قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله عز وجل » أخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات (٢/١٨٤) وابن منده فى كتاب الإيمان (٢/٤١٨)وابن أبى عاصم فى السنة (٣٨٧) .

بعد ذلك تنجو من هذا الهول كله .

يكفى ذلك ليكون فوزاً عظيماً لأن الكافر فى هذه اللحظة يتمنى لو كان تراباً حتى لا يدخلَ النار ، فمرورُ المؤمن فوق الصراط ورؤيته للنار نعمة لأنه يُحسّ بما نجا منه ويعاين الأهوال التى عافاه الله منها ، بفضل الإيمان ورحمة الرحمن ؛ نجا ﴿ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف] وكلمة (عذاب) تعنى إيلامَ حيٍّ يُحسُّ بالألم . والعذاب هو للحىّ الذى يظل متألماً ، أما القتل فهو ينهى النفس الواعية وهذا ليس بعذاب ، بل العذاب أنْ يبقى الشخصُ حياً حتى يتألم ويشعر بالعذاب .

وقول الحق سبحانه : ﴿ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف] يلفتنا إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ(1) نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم(2) بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

وهو عذاب أليم لا يُطاق لأنه يأخذ قوته من قوة فاعله ، فإذا كان الحدثُ التعذيبى منسوباً إلى الله وله مطلق القوة والقدرة ، فكيف يكون عذابه ؟ وكيف يكون إيلامه ؟

والعذاب من الله يُوصف مرة بأنه عظيم ، ومرة أخرى يُوصف بأنه مهين ، وثالثة يُوصف بأنه أليم ، والسبب هو أن الوصف يختلف باختلاف المعذّبين ، وسيأخذ كلُّ مسىء وعاصٍ وكافر من العذاب ما يناسبه .

(١) أصلاه الله النار : أدخله إياها ومنه قوله تعالى ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) ﴾ [المدثر] أى سأدخله النار ، ويصلى النار : يقاسى حرّها ولهيبها . [القاموس القويم ١/٣٨٢] .

(٢) نضجت جلودهم : احترقت جلودهم . فالله تعالى يجدد لهم جلودهم غير الجلود التى احترقت . (أحكام القرآن للجصّاص ٣/١٧٢) . وفى البحر المديد (٣/٨٦) : لانت واحترقت .

فهناك إنسانٌ يحتمل العذاب ولا يحتمل الإهانة ، وهناك إنسانٌ يحتمل الإهانة ولا يحتمل الألم ، فكأن كلَّ واحد من الناس سيأتيه العذاب الذى يُتعبه ، فإنْ كان لا يتعبه إلا العذاب العظيم جاءه ، وإنْ كان لا يتعبها إلا الإهانة جاءتْه ، وإنْ كان لا يتعبه إلا الألم جاءه .

لذلك يخاطب اللهُ الذين آمنوا به فيقول : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف] الله يريد النجاة لعباده من العذاب ، لذلك يقول الله تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾ [النساء]

فإنْ تشكروا وتؤمنوا فلن يفعل اللهُ بعذابكم شيئاً أى : فقد أبعدتم أنفسكم عن استحقاق العذاب .

ثم يُحدِّد الحقّ سبحانه عناصر هذه التجارة مع الله التى تُنجى المؤمنين بالله من هذا العذاب الأليم :

﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [الصف]

فأول ما يطلبه اللهُ من الذين آمنوا أنْ يؤمنوا بالله ورسوله ، وقد يسأل سائل : كيف يطالب مَنْ آمن بأنْ يؤمن ؟ نقول : إنْ أردنا أنْ نفهم أن الخطاب للمؤمنين عامة بأنْ يؤمنوا فهذا طلبٌ للارتقاء بمزيد من الإيمان .

فالحقّ سبحانه يخاطبكم بلفظ الإيمان ويريد أنْ يتصلَ إيمانكم بعد كلامه الحقِّ مع إيمانكم قبل كلامه ، فلا ينقطع ولا ينفصم خيطُ

الإيمان أبداً ، بل لا بدّ من المداومة على الإيمان ، وألاّ يترك مؤمنٌ هذا الشرف ، فإنْ كان واحد منكم متصفاً بوصف ثم طُلِب منه نفس الوصف الذى هو فيه فليعلم أن المراد هو المداومة .

والحق سبحانه يخاطب هنا كلّ مَنْ آمن بالله ، ويدخل فيهم فى سورة الصف أهل الكتاب الذين ذكرهم الله هنا مُمثلين فى موسى وعيسى عليهما السلام .

فالإنسان إنْ آمن بالله فقط ، فهذا يقتضى أنْ يبحث المؤمن بالله عن مطلوب الله ، ومطلوب الله إنما جاء به رسول ، لذلك فالإيمان بالله يقتضى أنْ يؤمن الإنسانُ برسول ، لأن قصارى ما يُعطيك العقل أيها الإنسان أنْ تؤمن بأن وراء الكون إلهاً خلقه ويُدبره .

ولكن ما اسم هذا الإله ؟ لا يعرف الإنسانُ ذلك إلا عن طريق الرسول ، إن هذه أمورٌ لا تُعرف بالعقل ، ولكن لا بدّ من الإخبار بها ، وكذلك مطلوبات الله ، وكذلك جزاء المؤمنين على حُسْن إيمانهم ، ولذلك لا بدّ من مجىء رسول للبلاغ .

إذن : فلا بدّ مع الإيمان بالله أنْ تؤمن بالرسول ، وما دُمْتَ أيها المؤمن قد آمنتَ برسوله فلا بدّ أنْ تؤمن بالكتب التى جاءتْ على لسان الرسول .

وهذه الكتب تقول لك : إنَّ هناك خَلْقاً لله لا تراهم وهم الملائكة ، والملَك يأتى بالوحى وينزل به على الرسول ، على الرغم من أنك لم ترَ الملَك فأنت تؤمن بوجوده .

إذن : فالقمة الإيمانية هى أنْ تؤمنَ بالله ، ولازمها أنْ تؤمنَ

برسول الله ، وأنْ تؤمنَ بكتاب مع الرسول ، وهذا الأمر بالإيمان مطلوبٌ من أهل الكتاب لأنهم آمنوا برسلهم ، ويطلب منهم أنْ يؤمنوا برسول الله وبما أُنزل عليه .

ولذلك فإن كلَّ طلب لموجود هو طلبٌ لاستمرار هذا الموجود ، وهو يطلب منهم الالتزام بمواصفات الإيمان على مرِّ الأزمان ، بحيث تستقر العقيدة فى القلب فلا تطفو للذهن لتُناقش من جديد ونُسمِّى ذلك عقيدة . أى : أمراً معقوداً فى القلب .

فكأنَّ الحق سبحانه يقول للمؤمن : أنت آمنتَ قبل أنْ أُناديك ، وبسِرِّ الإيمان ناديتُك فحافظ على هذا الإيمان دائماً ، وجدِّد دائماً إيمانك لأننى ناديتُك بوصْف الإيمان الذى عرفتُه فيك .

والحق سبحانه يطلب الإيمان ممنْ آمن ليصبح عقيدة لا تتزلزل يمهد للمطلوب ليكونَ المؤمنُ متاجراً مع الله ، وهو الجهاد فى سبيل الله بالأموال والأنفس ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ .. (١١) ﴾ [الصف]

والآية تربط بين الإيمان بالله والجهاد فى سبيل الله ، فالجهاد فى سبيل الله ضمانٌ للمؤمن أنْ يظلَّ المنهج الذى آمن به موصولاً إلى أنْ تقوم الساعة ، وذلك لا يتأتَّى إلا بإشاعة المنهج فى العالم كلِّه .

والنفس المؤمنة إذا وقفتْ نفسها على أنْ تجاهد فى سبيل الله كان عندها شىء من الإيثار الإيمانى وتعرف أنها أخذتْ خيرْ الإيمان وتحب أنْ تُوصلّه إلى غيرها ، ولا تقبل أن تأخذَ خيرْ الإيمان وتحرم منه المعاصرين لها فى غير ديار الإسلام ، وتحرص على أنْ يكون العالمُ كله مؤمناً .

وإذا نظرنا إلى هذه المسألة نجدها تُمثِّل الفهم العميق لمعنى الحياة ، فالناس إذا كانوا أخياراً استفاد الإنسان من خيرهم كله ، وإذا كانوا أشراراً يناله من شرِّهم شىءٌ .

ولنعلم أنَّ حركة الحياة كلها جهاد ، وإياك أنْ تقصر فكرة الجهاد عندك على ساحة المعركة ، فقوله ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الصف] نأخذه على أنه جهادٌ فى سبيل منهج الله ، وندرس هذا المنهج ونفهمه وبعد ذلك نجاهد فيه باللسان وبالسِّنان ، ونجاهد فيه بالكتاب ، ونجاهد فيه بالكتيبة .

فقوله سبحانه ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الصف] يصنع أمة إيمانية مُتحضرة .

وكلمة الجهاد فى سبيل الله تُخصص لوْناً من الجهاد ، فالإنسان قد يجاهد حميةً أو دفاعاً عن جنسيته ، أو أى انتماء آخر ، وكل هذه الانتماءات فى عُرْف الدين لا قيمةَ لها إلا إذا نبعتْ من الانتماء إلى منهج الله لتكون كلمة الله هى العليا .

وقد شرع اللهُ القتالَ والجهاد لأمة محمد لا ليفرض به ديناً ، ولكن ليحمى اختيارك فى أنْ تختار الدين الذى ترتضيه ، وهو يمنع سدود الطغيان التى تحول دونك ودون أنْ تكون حُراً مختاراً فى أنْ تقبل التكاليف .

وهنا قد يثور تساؤل : إذا كان الأمرُ كذلك فلماذا كانت حروب المسلمين ؟ نقول : إن حروبَ الإسلام كانت لمواجهة الذين يفرضون العقائد الباطلة على غيرهم ، وجاء الإسلام ليقول لهؤلاء : ارفعوا أيديكم عن الناس واجعلوهم أحراراً فى أنْ يختاروا الدين المناسب .

حتى عندما فرض الجزية لم يفرضها لمجرد جباية الأموال ، بل فرضها ليعطيه الفرصة لأنْ يبحث ما هو عليه فى حرية ، فلو كان الإسلامُ يُكره الناس على اعتناقه لما كان هناك مَنْ نأخذ عليه جزية .

لذلك كان الجهاد فى الإسلام (فى سبيل الله) فلا بد أنْ تكون نية القتال فى سبيل الله ، لا أنْ تكون بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان ، فلا قتال من أجل المال أو لضمان سوق اقتصادى وإنما القتال لإعلاء كلمة الله[1] .

والجهاد يكون بالأموال أى إنفاقها فى سبيل الله ، أو ببذْل الأنفس والأرواح ، وكلاهما صَعْبٌ على النفوس التى لم تخالط قلوبها حلاوةُ الإيمان وحقيقتُه ، لذلك كان خطابُ الله ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..﴿١٠﴾ ﴾ [الصف] ثم قال ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الصف]

ثم يأتى محكّ الاختبار وميدانه ومجاله ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ..﴿١١﴾ ﴾ [الصف] والمال على الحقيقة ليس مالك ، وإنما أنت مُسْتخلَفٌ فيه منتفعٌ به فقط ، كذلك الأنفس على الحقيقة هى موهوبةٌ لنا من الله ، فلا نضن بها فى طريق الحق سبحانه .

لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم

(١) عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨١٠ ، ٣١٢٦ ، ٧٤٥٨) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٢٩ ، ٥٠٣١) .

بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة]

وكلمة (اشترى) تدل على أن هناك صفقة ، عملية بيع وشراء ، أى تجارة ، وإنْ كان هذا ملكاً لله فالله هو المشترى والله هو البائع .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ..﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة] فقد يفهم أحدٌ أن النفس سوف تضيع ، وأن الأموال سوف تُنفق ، وهذا قد يُقبض النفس فهذا فيه الموت وخسارة للمال ، وكان من الطبيعى أنْ يشحبَ وجه الإنسان ويفزع ويخاف .

ولكن ساعة يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ ..﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة] تجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور والبشْر ويحدث له تهلُّل وإشراق ، مع أنه هنا سيأخذ نفسه ، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة .

إذن قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أنْ تصيبنا بالخوف ، بل علينا أنْ نستقبلها بالبشْر والاستبشار ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا .. ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة] أى : فليظهر أثرُ ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً .

ولتعلموا أن ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الصف] فالإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس خيرٌ لكم من الدنيا وما فيها ، وخيرٌ لكم مما تجمعون .

وكلمة (خير) هنا تشمل خيراً فى الدنيا وخيراً فى الآخرة ، والله يُضاعف للمؤمنين الخير ليكون خيراً دائماً فى الدنيا والآخرة .

وقول ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الصف] أى : إنْ كنتم تتيقنون من قضية نسبية واقعة معتقدة تستطيعون أنْ تُدللوا عليها ، فكأن هناك مقدِّمات للعلم فإنْ لم يكونوا يعلمون فالله يعلمهم .

ذلك أن المجاهد الذى يجاهد بماله ونفسه يكون قد اقتنع بيقين أنه سوف يحصل من الجهاد على ما هو خير من المال والنفس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

فأول ما يُثاب به الشهيد هو مغفرةُ ذنوبه عند أول دفقة من دمه الزكىِّ ، كأنْ لم تكُنْ له ذنوبٌ اقترفها .

فالإنسان إذا ما قُتل فى سبيل الله ذهب إلى حياة أفضل وإلى عيش خَيْر من عيشه ، هذا يثابه الشهيد ، ولذلك فالحقُّ سبحانه عندما تأتيهم غرغرة الشهادة يُريهم ما هم مُقبلون عليه ، فيتلفظون بألفاظ يسمعها مَنْ لم يُقبل على الشهادة .

فهناك مَنْ يقول : هُبّى يا رياح الجنة[1] ، ويقول كلمة يتبين منها أنه ينظر إلى الجنة كى يُسمع مَنْ خلفه .

(١) ورد هذا القول عن عدة من صحابة رسول الله ﷺ ، ومنها ما ورد عن خالد بن الوليد فى غزوة مؤتة أنه قال : الله أكبر هُبى رياح الجنة .. الله أكبر هُبىَ رياح الجنة . ومنها ما ورد عن أنس بن النضير عندما قال لسعد بن معاذ : أى سعد والذى نفسى بيده إنى لأجد ريح الجنة دون أُحد . (الكشف والبيان للنيسابورى ٨/٢٣)

لذلك فى غزوة بدر لما سمع الصحابىُّ كلام رسول الله ﷺ عن أجر الشهيد ، وكان فى فمه تمرة يمصُّها فقال : يا رسول الله أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أُقتل فى سبيل الله ؟ قال : نعم . فألقى التمرة من فمه وخرج لتوّه إلى الجهاد ، لأنه واثقٌ تمام الثقة أنَّ ما سيذهب إليه بالشهادة خير مما ترك[1] .

لقد تيقَّن أنه ليس بينه وبين الجنة إلا أنْ يُقتل فى سبيل الله ، وكان فى يده تمرات يأكلها فألقاها ، ورأى أنَّ مدة شغله بمضغها طويلة ، لأنها تحول بينه وبين هذه الغاية ، ألقاها وأسرع إلى الجهاد لينالَ الشهادة ، لماذا ؟

لأنه مقارنةٌ بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة ، فالعاقل لو قارن بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة لاختار الآخرة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ[2] كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) ﴾ [آل عمران]

لقد أصاب المقاتلين مع النبى شيءٌ فلم يضعُفوا ولكنهم صبروا وطلبوا من الحق أنْ يغفر لهم ذنوبهم ، لقد عرفوا مصادر ضعفهم واستعانوا بالله على هذا الضعف ، فماذا فعل الله لهم ؟

نصرهم سبحانه بأن آتاهم ثواب الدنيا وحُسْن ثواب الآخرة والله يحبُّ

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٣) كتاب الجهاد - باب ثبوت الجنة للشهيد وكذا البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رجل للنبى ﷺ يوم أحد : أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة فألقى تمرات فى يده ثم قاتل حتى قتل .

(٢) ربيون : الرِّبِّيُّ : العالم التقى الصابر . والربىّ من ربيته وهم هنا من ربَّاهم النبى فقاتلوا معه وناصروه . [القاموس القويم ١/٢٥١] .

المحسنين ، وكلّ ذلك السلوك الإيمانى الذى يقىَ من الهزيمة وكيد العدو ، هو مـن تقـوى الله ، حتى يظلّ المؤمنـون فى معية الله ، وعندما يكـون المسلم فى معية الله لا يجرؤ خَلْق من خَلْق الله أنْ ينال منه .

لقـد بذل المؤمـنُ حياته ونفسه وماله لله سبحانه وتنـازل عن كلِّ ما يحبه فـى دنيـاه ووفد على الله سبحانـه ، والله كريم يكرم الوافديـن عليه سبحانه ، وأول إكرامـه سبحانه أنْ يغفر لهم ذنوبهم ويسقط عنهم تبعاتهم ويُعفيهم من إيقاع العقاب بهم على ارتكابها .

إنـه سبحانه يغفر لهم الذنوب التـى ارتكبوها فى حق الله ، أما الذنوب التى ارتكبوهـا فى حق الآخريـن فتبقى معلَّقة إلى أن يسامحهـم مَن ارتكبوها فى حقِّهم ويستعفيَهم الحق سبحانه يوم القيامة[١] .

وأيضاً لا يغفر الله الدَّيْن ، فعن أبى قتادة أن رجلاً قال : يا رسول الله أرأيت إنْ قُتلْتُ فـى سبيـل الله تكَفِّر عنـى خطايـاى . فقال له رسـول الله ﷺ : نعم إنْ قُتلتَ فى سبيل الله وأنت صابرٌ مُحتسبٌ مُقبلٌ غيـرُ مُدْبر . ثم قال رسـول الله : كيف قلت ؟ قال : أرأيت إنْ قتلت فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى فقال رسول

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال له عمر : ما أضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ؟ فقال ﷺ : رجلان جثيا من أمتى بين يدى رب العزة تبارك وتعالى فقال أحدهما : يا رب خذ لى مظلمتى من أخى . قال الله عز وجل : أعط أخاك مظلمته . قال : يا رب لم يبق من حسناتى شيء ، قال : رب فليحمل عنى من أوزارى قال : وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ، ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم فقال الله تبارك وتعالى للطالب : ارفع بصرك فانظر فى الجنان ، فرفع رأسه فقال : أى رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأىِّ نبى هذا؟ لأى صدِّيق هذا ؟ لأى شهيد هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن . قال : يا رب ومن يملك ذلك ؟ قال جل وعلا : أنت تملكه . قال : بماذا يا رب؟ قال : تعفو عن أخيك . قال : يا رب فإنى قد عفوت عنه . قال الله تعالى : خذ بيد أخيك . فأدخله الجنة .

ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك : فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين . [المطالب العالية لابن حجر ٥/٤٦] .

الله : نعـم وأنـت صابـر محتسب مقبـل غير مدبـر إلا الدَّيْن ، فـإن جبريل عليه السلام قال لى ذلك[١] .

فالديْن حقٌّ يتعلق بحقوق الناس ، والله لا يضيع حقوق الناس ولا يجيز هذا ، إنْ كان رَضى على مَنْ قُتل فى سبيل الله ، فما ذنب مَنْ له حَقٌّ عنده ؟

الله حكيم عادل لا يظلم أحداً ، ولا يجيز أَكْلَ أموال الناس بالباطل ، وإنْ كان بالموت فى سبيله سبحانه .

ثـم يـقـول الحـق سبحـانه : ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ..(١٢)﴾ [الصف]

والحـق تبارك وتعالى يُبشِّر المجاهدين فى سبيله والشهـداء منهم بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، والجنات جمع جنة ، وهى جمع لأنها كثيرة ومتنوعة ، وهناك درجاتٌ فى كلِّ جنة أكثر من الدنيا .

فالجنـات نفسها متنوعة ، فهناك جنـاتُ الفردوس ، وجنات عدن ، وجنات النعيـم ، وهنـاك دار الخلد ، ودار السلام وجنة المـأوى وهناك عليّون الذى هو أعلى وأفضل الجنات ، وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى .

لقد هيّأ الله للمؤمنين بـه المقاتلين فى سبيل نُصْرة دينه وإعلاء كلمته جنات تتخللهـا الأنهار ، وذلك هو الفوز والنجـاح الكبير ، والجنات معناها البساتين التى فيها أشجار وفيها ثمار وكلّ مـا تشتهى الأنفس .

والجنـة فـى أصل اللغة هى الستر ، والجنة تستر مَـنْ فيها من أشجار كثيرة

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١١٧) (٣/١٥٠١) باب من قتل فى سبيل الله كفرت خطاياه (٣٢) والنسائى فى السنن الكبرى (٤٣٦٥) والترمذى فى سننه (١٧١٢) وقال : حديث حسن صحيح .. وأحمد فى مسنده (٢٢٦٣٨) من حديث أبى قتادة .

بحيث مَنْ يمشى فيها لا يظهر لأنّ أشجارها تستره ، أو أنْ مَنْ يدخلها يجلس فيها ولا يراه أحد ، لأن كلَّ خير فيها لا يُلجئه أنْ يخرج منها .

والجنة – ولله المثل الأعلى – هى الحديقة الواسعة ، وهذا الاتساع مُوزَّع على كلِّ مرأى العيْن .

والحق سبحانه يصف الجنات هنا أنها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (١٢)﴾ [الصف] ووصفها سبحانه فى آية أخرى ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ (١٠٠) ﴾ [التوبة] ، فما الفرق بين الاثنين ؟

إن ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ (١٠٠) ﴾ [التوبة] تعنى أن الماء ينبع من مكان بعيد وهو يمرُّ ويجرى تحتها ، أما قوله تعالى : ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (١٢)﴾ [الصف] فكأنَّ الأنهار تنبع من تحتها ، حتى لا يخاف إنسانٌ من أن الماء الذى يأتى من بعيد يُقطع عنه أو يجفّ ، وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين أن نعيم الجنة باقٍ وخالد .

فلا يظن أحدٌ أن هناك مَنْ يستطيع أنْ يسدَّ عنك المياه من أعلى ، إنها أنهارٌ ذاتية ، تنبع من تحتها مباشرة لا تنقطع أبداً .

والفارق بين أنهار الدنيا وأنهار الجنة أن أنهار الدنيا عبارة عن شقوق فى الأرض لها شواطيء تحتضنها ، أما أنهار الآخرة فهى تسير على الأرض دون شواطيء تحجزها .

ونجد أنهار الخمر تسير أيضاً فى الأرض ولا تتداخل مع أنهار الماء ، وكذلك أنهار اللبن ، وكلّ ذلك من صنعة رَبٍّ حكيم قادر .

ويصف الحق سبحانه أنهار الجنة، فيقول تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ

الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِن مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ(١) وَأَنْهَارٌ مِن لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِمْ .. (١٥) ﴾ [محمد]

ولا يقتصر ثوابُ المجاهدين على مغفرة ذنوبهم ، أو إدخالهم الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، بل أيضاً قد أعدَّ الله لهم ﴿ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً.. (٧٢) ﴾ [التوبة] فالجناتُ ليست هى المساكن ، بل فى تلك الجنات مساكن ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ.. (٧٢) ﴾ [التوبة]

فالجناتُ هى الحدائق وفيها مساكن ونحن فى حياتنا نجد الفيلات فى وسط الحدائق ، فما بالنا بما يَعِدُ به الله من طِيب المساكن وسط الجنات ؟

وقد جعل اللهُ هذه المساكن الطيبة فى جنات عدن ، والعدنَ هو الإقامة الدائمة ، فجناتُ عدن هى جنات الإقامة الدائمة ، لأن الدنيا ليست دار إقامة .

فكلُّ نعيم فى الدنيا إما أنْ تفوته بالموت ، أو يفوتك هو بأغيار الحياة ، أما جنات عدن فهى جنات إقامة دائمة ، ففيها كلُّ ما يحتاجه الإنسانُ ، فلا حاجة له إلى غيرها .

هَبْ أنك دخلت أعظم حدائق وبساتين العالم ـ هايد بارك مثلاً ـ فقصارى الأمر أنْ تتنزه به بعض الوقت ، ثم يعتريك التعب ويصيبك الملل والإرهاق ، فتطلب الراحة من هذه النزهة ، أما الجنة فهى جنة عدن ، تحبّ أنْ تقيم فيها إقامة دائمة .

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ... (٦١) ﴾ [مريم] واختار

(١) آسن : أسن الماء تغيّرت رائحته . [القاموس القويم ١/ ٢٠] غير آسن أى غير متغير اللون ولا الطعم وغير منتن لطول مكثه ، صافٍ لا كدر فيه .

الحق سبحانه هنا اسم الرحمن ليُطمئن الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصى أنَّ ربهم رحمن رحيم ، إنْ تابوا إليه قَبلهم ، وإنْ وعدهم وعداً وفَّى .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) ﴾ [مريم] فما دام الرحمن تبارك وتعالى هو الذى وعد فلابدّ أنْ يكون وعدُه مأتياً أى مُحققاً وواقعاً لا شكّ فيه ، ووعْدُه تعالى لا يتخلّف .

﴿ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) ﴾ [التوبة] إن الله سبحانه سمَّى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز العظيم ، والذى يجعلنا نتحمل كلَّ ما نكره ونجاهد فى سبيل الله لنستشهد .

﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة] لقد هيّأ الله للمؤمنين به المقاتلين فى سبيل نُصرة دينه وإعلاء كلمته جناتٍ تتخللها الأنهارُ ، وذلك هو الفوز والنجاح الكبير ، فما هو الفوز ؟ إنه النصر والغلبة ، إنه النجاح والظفر بالمطلوب .

فإذا كان فوزنا فى الدنيا يُعطينا جائزة نفرح بها ، فالفرح قد يستمر مدة الدنيا التى يملكها الواحدُ منا ، فما بالنا بالفوز الذى يأتى فى الآخرة ، وهو فوز الخلود فى الجنة من صُنْع ربنا ، أليس ذلك فوزاً عظيماً ؟

إننا إذا كنا نفرح فى الدنيا بالفوز فى أمور جزئية ، فما بالنا بالفوز الذى يمنحه الحق ويليق بعظمته سبحانه ، ولو قِسْنا فوز الدنيا بفوز الآخرة لوجدنا فوزَ الآخرة له مطلق العظمة .

ومهما ضحَّى المؤمن فى سبيل الآخرة فهناك فوزٌ يُعوِّض كلّ التضحيات ويسمو على كلِّ هذا ، فالفوز العظيم هو النعيم الموصول الذى لا يمنعه أحدٌ ولا يقطعه شيءٌ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) ﴾

فإذا كان الحقُّ سبحانه قد وعد مَنْ تاجروا مع الله بأنْ آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، هؤلاء وعدهم الله بغفران ذنوبهم وإدخالهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار وإسكانهم فى مساكن طيبة تطيب فيها معيشتهم ، وتدوم فيها إقامتهم .

إذا كان هذا ، فإنَّ الحقَّ سبحانه لأنه ربٌّ يتصفُ بالربوبية فإنه عليمٌ بما يُحبه عباده ويريدونه ، لذلك فإنه سبحانه يَعدُهم بخُلة أخرى وزيادة تُحبُّونها .

وقال العلماء : أى لكم فى العاجل مع ثواب الآخرة أخرى تحبونها ، فالله يعلم من نفوس البشر أنهم يُحبون أنْ يروا ثمرة عملهم فى الدنيا نصراً على عدوهم وفتْحاً يُحقِّق لهم ما تصبو إليه نفوسهم من نُصرة الإسلام .

ومثل هذه الالتفاتة الربانية لوجدانات ومشاعر عباده قد جاء مثلها فى قوله تعالى : ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا[1] أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) ﴾ [التوبة]

(١) نكثوا أيمانهم نقضوا أيمانهم ، وأصله فى كل ما فُتل ثم حُلَّ ، فهى فى الأيمان والعهود مستعارة [تفسير القرطبى – التوبة ١٣] فهؤلاء إن أبرموا نقضوا ، أو أقسموا حنثوا ، أو عاهدوا نكثوا ، أو عاقدوا فسخوا . [خريدة القصر وجريدة العصر] لعماد الدين الكاتب (٢٧١/٢) .

فالنصر الذى سيُحققه المؤمنون بعوْن الله تعالى فى قتالهم مع الكفار سيشفى صدور المؤمنين الذين استذلهم الكفار واعتدوا عليهم ، فكأن هذا النصر يشفى الداء الذى ملأ صدور أولئك المؤمنين ويُذهب غيظ قلوبهم .

أى : يُخرج الغيظ والانفعال المحبوس فى الصدور . فكأنَّ قتال المؤمنين للكفار لا يُحقق فقط العذاب والخزى للكفار والنصر للمؤمنين عليهم ،ولكنه يعالج أيضاً قلوبَ المؤمنين التى ملأها الألم والغيظ من سابق اعتداء الكفار عليهم ومحاولتهم إذلالهم وأخْذ حقوقهم .

وليس صحيحاً ما ذهب إليه البعض[1] أن (أخرى) هنا معطوفة على (تجارة) فى قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف]

فليستْ هذه تجارة أخرى ، بل هى مثوبة أخرى غير مثوبة الآخرة ، فهى مكافأة أخرى غير إدخال الجنات ، بل هى مكافأة دنيوية .

﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ.. (١٣) ﴾ [الصف] فهو سبحانه وتعالى الناصر ، لكن إياكم أنْ تظنوا أن النصر من الله لا يصدر عن حكمة ، إن وراء نصر الله للمؤمنين حكمة .

وإنْ كان النصر المعروف بين الناس هو أنْ تأخذ أرضاً وتُبقى عليها فإنَّ للنصر معياراً آخر فى الإسلام ، فالنصر لا يُعتبر نصراً حقيقياً إلا إذا أصَّل صفات الخير فى الوجود كله ، وحين تتأصل صفات الخير فى الوجود كله

(١) قال الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٣٦٤) : "اختلف أهل العربية فيما نعتت به قوله (وأخرى) فقال بعض نحويىّ البصرة : معنى ذلك : وتجارة أخرى ، فعلى هذا القول يجب أن يكون أخرى في موضع خفض عطفاً على قوله ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف : ١٠] وكان بعض نحويىَ الكوفة يقول : هى فى موضع رفع . أىَ ولكَم أخرَى فى العَاجَلَ مع ثواب الآخرة ، ثم قال : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ مفسراً للأخرى . والصواب من القول فى ذلك عندى القول الثانى .

يكون المؤمن قد انتصر بحقٍّ .

والنصرُ لا يكون إلا من الله ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) ﴾ [آل عمران] ، ويقول أيضاً : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾ [الأنفال]

فأنتم لا تُنصرون بالكثرة ولا بعُدّتكم وحديدكم ، فإنما المؤمنون سَتْرٌ لِيدِ الله فى النصر ، فالنصر منه سبحانه وحده لمَنْ أخذ بالأسباب .

والعزيز الذى لا يُغلب ، والله أيضاً حكيم فهو لا يعطى النصر إلا لمن استأهله وتوافرتْ شروط أنْ يكون جندياً من جنود الله ، والمؤمنون حين يدخلون فى معركة مع غيرهم يستطيعون أنْ يحدِّدوا مركزهم الإيمانى من غاية المعركة .

فإن انتهتْ المعركة بنصرهم وغلبتهم علموا أنهم من جنود الله ، وإن هُزموا وغُلبوا فليراجعوا أنفسهم ، لأن الله أطلقها قضيةً إيمانية فى كتابه الذى حفظه، فقال : ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

فإنْ لم نغلب فلننظر فى نفوسنا : ما الذى أخللنا به من واجب الجندية لله ؟

فمثلاً فى غزوة أُحُد عندما طلب رسول الله ﷺ من الرماة ألاَّ يتركوا أماكنهم فخالفوه[1] ، هنا اختلّ شرط من شروط الجندية لله وهو طاعة الرسول ، فماذا كان يحدث لو أن هؤلاء الرماة خالفوا رسول الله وانتصروا ؟ لو حدث ذلك لهانت أوامر الرسول على المؤمنين .

(١) عن البراء بن عازب قال : جعل النبى ﷺ على الرجالة يوم أحد وكانوا خمسين رجلاً عبد الله بن جبير فقال : إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم فهزموهم ، فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن ، فقال أصحاب عبد الله بن جبير : الغنيمة أى قوم الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون ؟ فقال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ قالوا : والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة فلما أتوهم صُرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين فذاك إذ يدعوهم الرسول فى أخراهم فلم يبق مع النبى ﷺ غير اثنى عشر رجلاً فأصابوا منا سبعين ، وكان النبى ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً)) . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٣٩ ، ٣٩٨٦ ، ٤٠٦٧) .

ويوم حنين حين اعتقد المؤمنون أنهم سينتصرون بكثرتهم وليس بإيمانهم، وكانت النتيجة أنهم أصيبوا بهزيمة قاسية أول المعركة[١] لتكونَ لهم درساً إيمانيـاً ، ولذلك إذا رأيتَ إيماناً انهزم أمام كفر ، فاعلم أنَّ شرطاً من شروط الجندية الإيمانية قد اختلَّ .

والحق سبحانه لا يعدهم بالنصر فحسْب ، بل يعدهم أيضاً بفتح قريب ، فيقول تعالى : ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ .. (١٣)﴾ [الصف]

والفتح هو قمة النصر لأن فيه تمكيناً فى الأرض ، وسُمى فتحاً لأنه محكومٌ بضوابط شرع الله فى القتال من عدم النهب والسلب وقتْل الذرية والمرأة والشيخ الكبير والراهب فى صومعته وعدم التخريب وقطْع الأشجار .

وللعلماء كلام فى الفتح المقصود فى هذه الآية ، فالبعض قال إنه فتح مكة. وآخرون قالوا : إنه فتح فارس والروم ، وكله محتمل[٢] .

وقد ذكر الحق سبحانه الفتح عدة مرات فى كتابه ، منها قوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ [الفتح] وهو بمعنى النصر والغلبة والتمكين .

---

(١) عن عبد الله بن مسعود : كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وثبت معه ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار ، فنكصنا على أعقابنا نحواً من ثمانين قدماً ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة . قال : ورسول الله ﷺ على بغلته يمضى قدماً ، فحادت به بغلته فمال عن السرج فقلت له : ارتفع رفعك الله ، فقال : ناولنى كفاً من تراب فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً . قال : أين المهاجرون والأنصار ؟ قلت : هم أولاء . قال : اهتف بهم ، فهتفت بهم فجاءوا سيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب وولى المشركون أدبارهم . أخرجه أحمد فى مسنده (٤٣٣٦) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٣٥١) .

(٢) قال الشوكانى فى فتح القدير (٦ / ٤٨٩) : اختلف فى تعيين هذا الفتح . فقال الأكثر : هو صلح الحديبية والصلح قد يسمى فتحاً . وقال قوم : إنه فتح مكة . وقال آخرون : إنه فتح خيبر . والأول أرجح . وقيل : هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتوح . وقيل : فتح الروم . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير (٥ / ٣٨٢) : فى المراد بالفتح أربعة أقوال أحدها أنه كان يوم الحديبية . قاله الأكثرون .

وكلمة الفتح إنْ جاءت مُعرَّفة بأل فخيرها مضمون ، فاعلم أنها نعمة محروسة لكَ سينالك نفعُها ، فإنْ جاءت نكرة فلابدَّ لها من متعلق يُوضّح الغاية منها : أهذا الفتح لك أم عليك ؟

فقوله تعالى فى خطاب النبى ﷺ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ [الفتح] دلَّ على أن هذا الفتح لصالحه ﷺ، فهو غُنْم لا غُرْم ، لذلك اعتبر صلح الحديبية فتحاً لأنه كان فى صالح الإسلام لا ضدّه .

وقد نزلتْ سورة الفتح فى مُنصرف رسول الله من الحديبية بعد توقيع بنود الصلح بينه وبين قريش ، ويجوز أنْ يكون هو فتح مكة ، والحديبية مقدِّمة الفتح .

ولذلك عرَّف الله سبحانه الفتحَ فى سورة النصر ، فقال تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ [النصر] أى الفتح الموعود به وهو فتح مكة ، لأن رسول الله رآه ورأى الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً نتيجة لهذا الفتح .

وليس هذا تخصيصاً لآية سورة الصف ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ .. (١٣)﴾ [آل عمران] ، فالفتح هنا عام فى كلّ زمان يأتى للمؤمنين بالله ورسوله ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وتوفرتْ فيهم شروط النصر والتمكين .

ولذلك لم يكُن الخطاب فى هذه الآيات مُوجَّهاً لرسول الله كما هو فى سورة الفتح أو سورة النصر ، بل هو مُوجَّه لعموم المؤمنين ، اسمع قوله تعالى فى سورة الصف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)﴾ [الصف]

لذلك فقول مَنْ قال إن الفتح هنا مقصود به فتح فارس والروم قول صحيح أيضاً ، وهو فتح لم يره رسول الله ، ويجوز في كل فتح كفتح مصر وفتح القسطنطينية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)﴾ [الصف] فليعلموا أننى لن أدعهم وأتركهم ما داموا التزموا منهجى فبشِّرهم بنصر الله لهم ، وبفتح قريب ذلك فى الدنيا ، أما فى الآخرة فبشِّرهم بجنات عدن ولهم فيها حياة طيبة فى مساكن طيبة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ(١) مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

تكرَّر النداء بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٤)﴾ [الصف] فى هذه السورة ثلاث مرات ، فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢)﴾ [الصف] . وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)﴾ [الصف]

(١) الحواريون : جمع حوارى وهو الخالص النقى من كل شيء . وشاع استعماله فى الخلصاء والأصفياء للأنبياء . [القاموس القويم ١ / ١٧٧] وأصل التحوير التبييض ، والحواريون : القصَّارون الذين يُبيضون الثياب وقد كان الحواريون قصارين . ثم غلب حتى صار كل ناصر وكل حميم حوارياً . [لسان العرب – مادة : حور] .

ثم يقول هنا الحق سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ .. (١٤)﴾ [الصف]

فى النداء الأول يُواجه الحق سبحانه بعض مَنْ آمنوا بعيوبهم التى قد يتصف بها البعض ، يقولون ويتكلمون ولكن فعلهم لا يوافق قولهم ، فلا تجدهم عندما يحتاجهم الفعل والعمل .

يتشدقون بالكلام ولكن لا تجدهم مُصطفِّين فى الصف ، لا فى صفّ الدعوة ، ولا فى صفّ الجهاد ، ولا فى صفّ العمل الصالح ، ولا فى صف العبادة ، ولا حتى فى صفّ كفِّ شرهم وأذاهم عن الناس .

لذلك قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف]

أما فى النداء الثانى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)﴾ [الصف]

فإنه يُوجِّه نظر المؤمنين إلى سلوك آخر غير القعود للكلام واللغو والقول لمجرد القول ، يريد منهم أنْ يتطابق فعلُهم مع قولهم ، فيدلّهم على المجال المطلوب أنْ يعملوا فيه إنْ كانوا صادقين .

يدلهم على التجارة مع الله ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ .. (١١)﴾ [الصف]

إلى أنْ يأتى النداء الثالث ليضعهم على طريق وصَفٍّ يرتقى بهم إلى مكانة لا أعلى منها ، وهى أنْ يكونوا (أنصار الله) .

وقد يسأل سائل: وهل يحتاج الله إلى مَنْ ينصره؟ الحق سبحانه حينما تكلَّم عن النصر فى الإيمان قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم (٧)﴾ [محمد]

إذن: فالنصر منا لله بأنْ نُطبق دينه وهذا مراد الله، ولذلك يأتى النصر مرة من المؤمن لربه، ومرة من الربِّ لمربوبه، وأنت تضمن نصر الله لك إنْ كنتَ قد دخلت على أنْ تنصره.

ولكن كيف نعرف أننا ننصر الله؟ نعرف ذلك عندما تأتى النتيجة بنصرنا، لأنه سبحانه لا يعطى قضية فى الكون وبعد ذلك يأتى بالواقع ليُكذِّبها، فلا بد أنْ يقولوا: إن الواقع كذب هذه القضية.

فنصر الله مترتب على أنْ تدخل المعركة وأنت تريد أنْ تنصر الله وتنصره بماذا؟ بأنْ تحقق كلمته وتجعلها هى العليا، وليس هذا فقط بل تجعل كلمة الذين كفروا السفلى.

لذلك فإن لم تنصر الله فلا تلومنّ إلا نفسك إذا لم يأتك نصر الله، فلن تجد أحداً ينصرك، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِنْ بَعْده.. (١٦٠)﴾ [آل عمران]

فإنْ رأيتَ المؤمنين قد دخلوا معركة وانهزموا فلتبحثْ مصادر تخلّيهم عن منهج الحق، وما دمتَ قائماً على منهج الله فتأكد أنَّ الله ناصرك، فهذه قضية قرآنية مُسلَّم بها ومفروغ منها.

يقول تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنصُرُهُ.. (٤٠)﴾ [الحج] ويقول: ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ.. (٧)﴾ [محمد]

والحق سبحانه يريد أنْ نعرف أنه قد وضع فى يدنا مفتاح الجنة، ففى يد كلِّ واحد منا مفتاحَ الطريق الذى يقوده إلى الجنة أو إلى النار.

لذلك يقول تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ.. (٤٠)﴾ [البقرة] ويقول فى آية أخرى: ﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ.. (١٥٢)﴾ [البقرة]

فإذا وفيتَ بالعهد أوفى الله، وإذا ذكرتَ الله ذكرك، ومثلها إذا نصرتَ الله نصرك.

والحديث القدسى يقول: ((وإنْ تقرَّب إليَّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً، وإنْ تقرَّب إلىَّ ذراعاً تقرَّب إليه باعاً، وإنْ أتانى يمشى أتيته هرْولةً))[1].

هكذا يريد الحق سبحانه وتعالى أنْ يُنبِّهنا أن المفتاح فى يدنا نحن، فإذا بدأنا بالطاعة فإنَّ عطاء الله بلا حدود، وإذا تقرَّبنا إلى الله تقرَّب إلينا، وإذا بُعدنا عنه نادانا، هذا هو إيمان الفطرة.

ويقول تعالى: ﴿كُونُوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللهِ.. (١٤)﴾ [الصف]

جاء عيسى بن مريم ليعلن قضية جامعة مانعة، فقال ﴿إِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)﴾ [آل عمران] إنَّ فى ذلك تحذيراً من أنْ يقول أتباعُ عيسى أىَّ شيء آخر عن عيسى غير أنه عبدٌ لله خاضعٌ لله، مأمورٌ بالطاعة والعبادة لله.

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٧٠٠٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، وأوله: ((يقول الله عزَّ وجل: أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ...)) الحديث بتمامه.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ .. (٥٢)﴾ [آل عمران]

أى أنَّ كلّ صاحب فكرة ، وكلّ صاحب مهمة ، وكلّ صاحب هدف لابد أنْ يكون يقظَ الأحاسيس .

إن الداعيةَ مأمورٌ من الله أن يكون يقظاً لأنه إن اهتدى بكلماته أُناسٌ وسعدوا بها فإنه يُغضب أناساً آخرين ، فالداعية عليه أنْ يكون يقظَ الحسّ ، ويقظةُ الحِسّ معناها الالتفات إلى الأحاسيس الخفية الموجودة عند كلِّ إنسان.

وعندما أعلن عيسى بن مريم منهج الحق وجد أنصار الظلم وأنصار البغى، وأنصار الظلمات غير مُعجبين بالمنهج الواضح للإيمان بالله ، لذلك أحسّ منهم الكفر ، لقد كان مليئاً باليقظة والانتباه .

إنه يعلم أنه قد جاء برسالة من الله ليُخرج أناساً من مفسدة إلى مصلحة، وعندما أحسّ منهم الكفر أراد أنْ ينتدب جماعة ليُعينوه على أمر الدعوة ، فقال : ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ .. (٥٢)﴾ [آل عمران]

والدعوة تحتاج إلى معركة ، والمعركة تحتاج إلى تضحية والتضحية تكون بالنفس والنفيس ، لذلك لا بدّ أنْ يستثير ويُحرِّك مَنْ يجد فى نفسه العوْنَ على هذه المسألة .

ونلحظ هنا أنَّ الخطاب فى سورة آل عمران لم يكُن لأفراد محددين إنما طرح الدعوة ليأتى الأنصار الذين يستشرفون فى أنفسهم القدرة على حَمْل لواء الدعوة ، ولتكون التضحية بإقبال نفسٍ لا استجابة لداعٍ .

إنه لا يسأل عن أُناس يدخلون فى لواء الدعوة من أجل الغنيمة ، أو يدخلون من أجل الجاه أو غير ذلك ، إنه يسأل عن أهل العزم ليكون كلٌّ منهم متجهاً

بطاقته إلى نُصْرة الله وحده .

فالخطاب فى آية آل عمران عام ، أما فى سورة الصف فهو مُوجّه للحواريين خاصة من دون الناس فى زمن عيسى بن مريم ، لذلك قال : ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف]

وقد قال البعض أن آية سورة الصف توضح المخاطب فى سورة آل عمران ، أى أن الحواريين هم المخاطبون ، ولكن هل أحسَّ عيسى من الحواريين الكفر ؟ وهم حواريُّوه وخلصاؤه .

والحواريون مأخوذة من الحَوَر وهو شدة البياض ، وهم جماعة أشرقتْ فى وجوههم سِيماء الإيمان فكأنها مُشرقةٌ بالنور ، ونورُ الوجه لا يُقصد به البشرة البيضاء ، ولكن نور الوجه فى المؤمن يكون بإشراقة الإيمان فى النفس .

وكلمة الحوارى مأخوذة من المحسَّات ، فالحوارى تُطلق على الدقيق النقى الخالص ، وأُطلقت على كلِّ شىء نقيٍّ بصفاء خالص . والحوارى هنا تعنى المخلِص والمحبّ لمنهج الخير .

فالصواب أن سؤال عيسى بن مريم ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ .. (٥٢)﴾ [آل عمران] فى سورة آل عمران عام ، فانتدب الحواريون أنفسهم لنصرة عيسى ابن مريم وتأييده ومؤازرته فقالوا ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ .. (٥٢)﴾ [آل عمران]

أما سؤال عيسى بن مريم ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف] فى سورة الصف فقد كان مُوجهاً للحواريين ، قال تعالى : ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف]

وكأنه أراد عليه السلام أنْ يستوثق منهم ، لا أنْ يتهمهم ، أو أنه كان حاضراً

بينهم أحدُ مُدّعى الصفاء والنقاء وكأنه حوارىٌّ منهم .

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف] فكلُّ إنسان منهم يريد نصرة الله فينضم إلى الله ناصراً للمنهج ، وأهم مُقوِّمات نصرة الله هو الإيمان، وهو اطمئنانُ القلب إلى قضية ما .

وقد كان إيمان الحواريين بالله وبرسوله عيسى بن مريم مطلوبَ الله منهم، قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)﴾ [المائدة]

والوحى هنا هو بمعناه العام أى الإعلام بخفاء ، أى أن الحق ألهمهم أنْ يؤمنوا برسالة عيسى المبلِّغ عن الله ، أى : أعلمهم بخواطر القلب التى أعلم بها أم موسى أنْ تُلقى ابنها فى اليم ليُلقيه اليمُّ إلى الساحل .

وهو غير الوحى للرسول ، فالوحى للرسول هو الوحى الشرعى بواسطة رسول مبلِّغ عن الله هو سيدنا جبريل عليه السلام ، أما وحى الله إلى أم موسى أو إلى الحواريين فهو استقرار خاطر إيمانى يلتفت بعده الموحَى إليه ليجد الواقع يؤيد ذلك .

هذا الوحى إليهم والإلهام والخواطر جعلتْهم يُؤمنون بالله وبرسوله عيسى عليه السلام ، فعند طلب النُّصرة منهم وأنْ يكونوا أنصارَ الله نطقوا وفْق ما استقرَّ فى قلوبهم ، فقالوا : ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف]

حينما طلبَ منهم الإيمان آمنوا ، فقالوا : ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)﴾ [آل عمران]

والإيمان المقصود به هنا ما جاء به عيسى من عند الله ، فإعلان الحواريين

هو إعلانٌ بالإيمان بما جاء سابقاً على عيسى بن مريم من عقائد ، وبما جاء به عيسى بن مريم من أحكام وتشريعات .

فافترق الناسُ طائفتين وأصبحوا معسكرين ، معسكر إيمان ومعسكر كفر ، لذلك قال تعالى : ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ .. (١٤)﴾ [الصف]

وكلمة (طائفة) هى فى عُرْف اللفظ مفرد ، وعندما تجمعها تقول : طوائف . لكن هى لفظ مفرد يدل على جَمْع ، فمرة يلحظ المفرد ، ومرة يلحظ ما يؤديه المفرد من الجمع .

فالطائفة هم جماعة من البشر تجتمع لهدف ويطوفون حول شيء واحد ، فالبعض من بنى إسرائيل آمنوا بما جاء به عيسى بن مريم ، وآخرون كفروا بما جاء به .

ولكن لماذا يقول تعالى ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (١٤)﴾ [الصف] ؟

نقول : لأن المسيح عيسى بن مريم إنما هو مُرسَلٌ إلى بنى إسرائيل خاصة ، فرسالته ليستْ عامة .

لقد جاء عيسى عليه السلام رسولاً إلى بنى إسرائيل لعله يستلّ من قلوبهم المادية ، فمهمة عيسى جاءت لتكمل التوراة ويكمل ما أنقصه اليهود من التوراة .

وقد قال تعالى هنا فى سورة الصف ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ .. (٦)﴾ [الصف] فقد جاء مبعوثاً إلى بنى إسرائيل لصالح بنى إسرائيل .

ومشكلة بنى إسرائيل أنهم كانوا يتمردون على مناهج الرسل لأنها لا تأتى

بما تهواه أنفسهم ، وأول تمردهم التكذيب إلى أنْ يصل بهم هذا إلى التآمر على الأنبياء لإسكات دعوتهم ولو بقتلهم .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ[1] بَنِى إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) ﴾ [المائدة]

فـإذا كان الحواريون قـد آمنوا فإنَّ آخرين قد كفروا وأرادوا به السوء ، فكفَّ الله بنى إسرائيـل عنه عندمـا أرادوا إيذاءه وقتلـه ، وعندمـا رأوا كلَّ ذلك آمن بعضهم وكفر البعض ، واتهموا عيسى عليه السلام بأنه ساحر .

لقد كفرتْ هذه الطائفة من بنى إسرائيل بعيسى عليه السلام ، وقالوا البهتان العظيم على مريم .

ثـم يقـول تعـالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ [الصـف] فـكان الله فـى جانب الذين آمنوا ونصـروا رسوله ودعوته ، كان إلى جانبهـم بالتأييـد والنصرة ، فقال تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ .. (١٤) ﴾ [الصـف] وعدوهم هم مَنْ لم يؤمنوا بعيسى بن مريم رسولاً من عند الله .

وقـد غلبتْ الطائفة التى كفرتْ زماناً بعد رفْع عيسى عليه السلام ، حتى جاءت رسالة محمد فكانت تأييداً من الله لمَنْ آمن الإيمان الحق ، وذلك إلى يوم القيامة .

وقد وصف الحقُّ سبحانه بعضاً من أهل الكتاب فقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ[2]

(١) كففت : منعت وصرفت بنى إسرائيل يعنى اليهود عنك حين همُّوا بقتلك . ومن جمال اللغة العربية هنا أن الكاف والفاء تدل على كف اليد وهو أصل صحيح يدل على قبض وانقباض ، من ذلك كف الإنسان لأنها تقبض الشيء وتحجزه وتمنعه .

(٢) قسيسين : جمع قس والقسيس رئيس النصارى فى الدين والعلم . وجمع القس قسوس . [العباب الزاخر للصاغانى] وهى من أصل آرامى هو Gachicho ومعناه كاهن وشيخ . وذكر بعض علماء اللغة أن القس والقسيس العالم العابد من رؤوس النصارى . أما الراهب وجمعه الرهبان فهو المنقطع للعبادة فى الصوامع والبِيَع والقلايات ، هذا الأصل فيهم .

وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) ﴾ [المائدة]

فالباطـل مهمـا كانت له الغلبـة الظاهرة فى جَلَبة وعُلوّ صـوت إلاَّ أن الحقَّ يغلـب القلوب الصافيـة فتؤثر فـى وجداناتهم فتفيض أعينهم مـن الدمع ممَّا عرفوا من الحق .

﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ [الصـف] أى : عـالـين غالبـين . فتأتى ظهر بمعنـى « الغلبـة » وبمعـنى العلو فى قـوله تعـالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا .. (٩٧) ﴾ [الكهف] ومنه قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ (٤١) ﴾ [الروم] أى : غلب الفسادُ الصلاحَ وعلا عليه .

فالحق يعلو ولا يُعلَى عليه ، وهذا واضح فى قول النبى ﷺ : « لا تزال طائفةٌ مـن أمتى ظاهريـن على الحق لا يضرهم مَـنْ خذلهم حتى يأتـى أمرُ الله وهم كذلك »[1] .

(٢) عن معاوية بن أبى سفيان قال : سمعت رسول الله ﷺ قال : ((لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس)) . أخرجه أحمد فى مسنده (١٦٩٧٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجمعة[1]

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ① ﴾

المتتبع لألفاظ التسبيح فى القرآن الكريم يجد أنَّ التسبيح ثابتٌ لله تعالى قبل أنْ يخلق المسبِّحين فى قوله ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ.. (١) ﴾ [الإسراء] ثم بعد أنْ خلق اللهُ الخَلْق ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.. (١) ﴾ [الحشر]

وما زال الخَلْق يُسبِّح فى الحاضر ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.. (١) ﴾ [الجمعة] فتسبيحُ الله كان وما يزال إلى قيام الساعة ، لذلك يأمر الحق سبحانه نبيه ﷺ ومعه أمته ألاّ يخرج عن هذه المنظومة المسبِّحة ، فيقول له ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) ﴾ [الأعلى]

---

(١) سورة الجمعة هى السورة رقم (٦٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى ١١ آية ، وهى سورة مدنية فى قول الجميع . وقد قال السيوطى فى الدر المنثور (١٥١/٨) : أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الجمعة بالمدينة . نزلت بعد سورة التحريم وقبل سورة التغابن . وآية الجمعة فيها مما تأخر نزوله عن حكمه ، بمعنى أن آية الجمعة نزلت بالمدينة رغم أن الجمعة فرضت بمكة . ويؤيد هذا ما أخرجه ابن ماجة عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك أن أسعد بن زرارة كان أول من صلى بهم الجمعة قبل مقدم رسول الله من مكة . [الإتقان فى علوم القرآن ١٠٨/١] .

وجاء الأمر بذكر الله وبعد الأمر بتسبيحه تعالى وكأنه يقول لك كلما ذكرته: نزّهه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، فمن مصلحتك فى رحلة الحياة ألاّ يكونَ لله مثيلٌ ولا شبيهٌ ولا نظيرٌ ولا نِدّ ، لأن الجميع سيكونون تحت عدله سبحانه ، فتنزيهُ الله لمصلحتك أنت أيها المسبِّح .

فالله مُنزَّه ومُقدَّس عن أنْ يُقاس بالكائن الموجود ، تعالى اسمه وتعالتْ ذاته ، وتعالتْ صفاته وأفعاله ، فسبحانه عما يصفونه بأوصاف لا تليق بذاته .

فالله له التسبيح والتقديس ثابت قبل أنْ يفعل ، وسبحان الله قبل أنْ يُوجد المسبّح ، كما أنه تعالى خلق قبل أنْ يوجد مَنْ خلق ، فهو بالخالقية فيه أولاً خلق .

وكما نقول فى الريف (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) فوجود كبير فوق الجميع يحميك أنْ يتكبَّر أحدٌ عليه . إذن : عظمته تعالى وكبرياؤه من أعظم النعم علينا .

فساعة تُسبِّحه وتُنزِّهه احمد الله لأنه مُنزَّه ، احمد الله أنه لا شريك له وأنَّ الناسَ جميعاً عنده سواء ، احمد الله لأنَّ كلامه وأمره نافذ على الجميع ، احمد الله أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وليس بينه وبين أحد من خَلْقه نسب .

وقد جعل الحقُّ سبحانه ذكرك له وتسبيحك إيَّاه لصالحك أنت ، ومن النعم التى لا تُحصى أن السماوات والأرض وما فيها مُسبِّح لله مُنزِّه له مُقدِّس له سبحانه ، وتسبيحها هذا يقتضى أنها خاضعةٌ له منقادةٌ لأوامره غير مُتمرِّدة على أوامر الله سبحانه .

فليطمئن الإنسانُ أنْ الكونَ كلَّه مُسبِّح لله خاضعٌ له ، لأنه إنْ لم يكُن كذلك ما استطاع أنْ يعيش الإنسانُ على الأرض ، فالله عز وجل بموجب أنه مُسبَّح

من كلِّ الخلائق حكم عليها بأن تكون مُسخرةً للإنسان .

وقد قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (٢٠) ﴾ [لقمان]

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) ﴾ [الحج]

والحق سبحانه مُنزَّه عن كلِّ نقص ومُسبّح لأنه سبحانه متصف بكلِّ صفات الجمال ، فهو ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) ﴾ [الجمعة]

وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ فى الوتر بسبح اسم ربك الأعلى ، وقل يأيها الكافرون ، وقل هو الله أحد .. فإذا سلَّم قال : سبحان الملك القدوس ، سبحان الملك القدوس ، سبحان الملك القدوس . ورفع بها صوته[1] .

فهو سبحانه (الملك) وإذا كان كلُّ إنسان مالكاً لما فى حوزته ، مالكاً لثوبه ، أو مالكاً اللقمة التى يأكلها ، أو مالكاً البيت الذى ينام فيه ، أما المَلِك فهو الذى يملك ويملك مَنْ ملك .

فلكلِّ إنسان مِلْكية ما ، ولكن هناك فرْقٌ بين أن يملك إنسانٌ ما لا يقدر على الاحتفاظ به ، وقد ملَّك الحق سبحانه بعضنا أمرَ بعض ، فهناك مالكُ الطعام ومالكُ الثوب ، ولكن ليس كلُّ مالك ملكاً ، لأن الملك هو الذى يملك المالك ، وهذه سُنن الكون .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٥٣٩٠) والنسائى فى سننه (١٦٩٨) من حديث عبد الرحمن بن أبزى . وأخرجه البيهقى فى سننه (٥٠٥٧) والدار قطنى (١٦٧٩) من حديث ابن أبزى عن أبى بن كعب.

وفى الآخرة هناك مالكٌ واحد هو مالك يوم الدين ، يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) ﴾ [الأنعام] . وهل كان الملك يوماً لغير الله ؟

فربّنا سبحانه وتعالى فى دنيا الأسباب جعل لكلِّ واحد منّا مُلكاً ، وجعل لبعض علينا مُلكاً فبقوا ملوكاً ، لكن فى الآخرة لا يوجد شيءٌ من هذا ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

ففى الدنيا قد تملك مثلاً أنْ توظفنى عندك وتُعطينى أجراً ، وقد تملك أنْ تطبخ لى طعامى أو تُعطينى طعاماً ، أو تملك أنْ تخيط جلبابى ، لكن فى الآخرة لا يملك أحدٌ لأحد سبباً ، لأننا نحيا فى الدنيا بالأسباب التى منحنا الله إياها ، وفى الآخرة بالمسبب وحده دون أسباب .

لذلك نقول لكلّ ملك : إن هذا الملك ليس بذاتك ، لأنه لو كان بذاتك لما سلبك أحدٌ هذا الملْك أبداً ، وسبحانه القائل : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ.. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

إذن : فليس هناك مَنْ له الملك بذاته إلا الله ، والله له ملْك السماوات والأرض فلا يضيرك أحد أو شيء ولا يفوتك مع الله فائت .

أمّا اسم الحق سبحانه (القدوس) فهو المطهّر ، فالتقديس هو تطهير الله سبحانه وتعالى عن كلّ الأغيار ، ولأنك يا ربى قدوسٌ طاهر فلا يليق أنْ يُرفع إليك إلا طاهر ، ولا يليق أنْ يصدر عمَّنْ خلقته بيديك إلا طاهر .

ويقال : قدّس الله . أى نزّه . فالله ذات وليست كذات الإنسان وله سبحانه صفاتٌ مُنزَّهة أنْ تكون كصفاتك ، وهو سبحانه له أفعال ، ولكن أفعاله مقدَّسة ومطهَّرة مُنزَّهة أنْ تكون كأفعالك .

فحياته سبحانه مُنزهة وذاته ليست كذاتك ، وصفاته ليست كصفاتك ، فأنت قادر قدرة محدودة ، وله سبحانه طلاقةُ القدرة ، وهو سبحانه سميع والعبد سميع ، لكن سمع البشر محدود وسمعه سبحانه لا حدودَ له .

إذن فصفاته مُقدَّسة . أى : أن صفاته مُطهرة وهو سبحانه قدوس مُنزَّه عن كلِّ نقص .

وقد قالت الملائكة ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ.. (٣٠) ﴾ [البقرة] والتسبيح هو التنزيه عما لا يليق بذات المنزّه ، والتقديس هو التطهير ، مأخوذ من القدس وهو الدلو الذى كانوا يتطهرون به ، ولذلك نقول : سبّوح قدوس . سبوح أى مُنزَّه عن كلّ ما لا يليق بجلاله . وقدُّوس أى مطهّر .

والتسبيح تقديس الله وتنزيهه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، ذاتاً فلا ذاتَ مثل ذاته تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.. (١١) ﴾ [الشورى] لا فى الذات ولا فى الصفات ولا فى الأفعال ، فلا تقُلْ : إنَّ سمع الله كسمعك ، أو أنّ بصره تعالى كبصرك ، أو أنَّ فعله كفعلك .

والمعنى : نُسبِّحك ونُقدِّسك تقديساً يليق بألوهيتك الثابتة لك ، فلا نزيد شيئاً من عندنا ، والتسبيح يُورث المسبِّح لذة فى نفسه ، والطاعة من الطائع تُورثه لذةً فى نفسه ، كما قال النبى ﷺ : « وجُعلَتْ قُرَّة عينى فى الصلاة »[1] ، وكان ﷺ إذا حزبه أمر قامَ إلى الصلاة[2] .

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (١٢٣١٥ ، ١٣٠٧٩ ، ١٤٠٦٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه وتمامه : « حُبِّب إلىَّ من الدنيا : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » . وكذا أبو يعلى الموصلى فى مسنده (٣٤٨٢ ، ٣٥٣٠) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٣٤٧) عن حذيفة رضى الله عنه «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى». وحزبه أى هجم عليه أو غلبه . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (١٣١٩) والبيهقى فى سننه (٣١٨١ ، ٣١٨٢) وأبو نعيم فى معرفة الصحابة (٤٢١٦ ، ٤٢١٧) .

أما اسم الحق سبحانه (العزيز) فى قوله سبحانه : ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) ﴾ [الجمعة] فالعزيز الذى لا يُغلب لجبروته ولا يسأله أحد ، فلا يستطيع أحدٌ أنْ يدخل مع الله فى جدال ، إنما يدخل خَلْق الله مع خَلْق الله فى خلاف أو نضال .

لكن لا أحدَ يجرؤ على أنْ يدخل فى نضال مع الله لأنه عزيز لا يُغلب ، واعلم أنه لا يوجد مَنْ يغلبه على أمره ، فهو سبحانه الغالب على أمره ، ومع أنه غالبٌ على أمره فهو حكيم فى تصرّفه .

ويُعطينا الحق سبحانه لفتة لمعنى عزة الله مع حكمته سبحانه ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

والعزيز هو الذى لا يُغلب ولا تقدر أنْ تحتاط من أنه يهزمك أبداً ، فقد يقول كافر : لقد تلذذنا بالمعصية مرة لمدة خمس دقائق ، ومرة لمدة ساعتين فيما يضيرنى أنْ يحترق جلدى وتنتهى المسألة .

نقول له : لا إن الذى يُعذّبك لا يُغلب ، فسوف يُديم عليك العذاب بأنْ يُبدّل لك الجلد بجلد آخر ، وسبحانه حكيم فالمسألة ليستْ مسألة جبروت يستعمله ، لا هو يستعمل جبروته بعدالة .

والحق سبحانه عزيز ذو انتقام ، وهو سبحانه يعفو عما سلف ، أما مَنْ عاد ليرتكب نواهى الله فى هذا المجال فيعاقبه الحق فلا يقبل منه هدى ولا إطعامَ مساكين ولا صوماً لأن فى تكرار المخالفة إصراراً عليها ، لذلك ينتقم منه الله، وهو العزيز الذى لا يُغلب .

وحدَّثنا الحق سبحانه عن تقدير الكواكب والأجرام ، فقال تعالى : ﴿ الشَّمْسُ

وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[1] (٥) ﴾ [الرحمن] ، ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) ﴾ [يس] وكلمة العزيز تفيد الغلبة والقهر فلا يستطيع أحد أنْ يعلو عليه .

فهذه الأجرام التى تراها أقوى منك ولا تتناولها يدك ، إنها تؤدى لك مهمة بدون أنْ تقرب منها ، فأنت لا تقترب من الشمس لتضبطها ، مثلما تفعل فى الساعة التى اخترعها إنسانٌ مثلك .

والشمس لها قوة قد أمدَّها الله خالقها بها ولا شيءَ فى صنعته ولا فى خَلْقه يتأبّى عليه ، فهذا هو تقدير العزيز العليم ، وهو سبحانه يعطينا حيثيات الثقة فى كونها حسباناً لنحسب عليها ، فهو جلّ جلاله خالقها بتقدير عزيز لا يُغلب ، وهو عزيز يعلم علماً مطلقاً لا نهاية له ولا حدود .

واعلم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) ﴾ [هود] فالحق سبحانه مقتدر يأخذ كلّ كافر ولا يغلبه أحد ولا يُعجزه شيء . والعزيز على إطلاقه هو الله ، ولكنَّا نقول عن إنسان ما (عزيز قومه) ونقول الغنى على إطلاقه هو الله ، ولكن نقول (فلان غنى) و (فلان فقير) .

وأسماء الله إما أنْ تكون أسماءَ ذات ، وإما أنْ تكون أسماءَ صفات وأفعال، فإنْ كان الاسم لا مقابلَ له فهو اسمُ ذات مثل العزيز ، أما إنْ كان اسمَ صفة وفعلٍ مثل (المعز) فلابد أن له مقابلاً وهو هنا المذلّ .

ولو كان يقدر أنْ يُعز فقط ولا يقدر أنْ يُذل لما صار إلهاً ، ولو كان يضر فقط ولا ينفع أحداً لما استطاع أنْ يكون إلهاً ، ولو كان يقدر أنْ يبسط فقط ولا يقدر

(١) بحسبان : أى أن سيرهما بحساب دقيق ونظام ثابت [القاموس القويم – ١/١٥٢] . قال الأخفش : الحسبان جماعة (جمع) الحساب مثل شهاب وشهبان . [الصحاح فى اللغة] وقال الزبيدى فى تاج العروس : « من غريب التفسير أن الحسبان اسم جامد بمعنى الفلك من حساب الرحا وهو ما أحاط بها من أطرافها المستديرة . قاله الخفاجى ونقله شيخنا » .

أنْ يقبض لما استطاع أنْ يكون إلهاً .

وكلّ هـذه صفات لهـا مقابل ويظهر فعلُها فى الغير ، فسبحانه على سبيل المثال عزيز فى ذاته ومُعزٌّ لغيره ومُذل لغيره .

وهـو سبحانـه عزيز رحيم ، والله تعـالى عزيز يغلب ولا يُغلـب ، ومثال ذلك قولـه تعـالى : ﴿ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ.. (١٤) ﴾ [الأنعام] وقوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ.. (٨٨) ﴾ [المؤمنون]

وهو سبحانه مع عزته رحيم ، فهو تعالى رحيم حين يغلب ، لأنه ربّ الخلق أجمعين ، يرحمهم إنْ تابوا ويقبلهم إنْ رجعوا إلى ساحته .

جاء فى الحديث الشريف : « لله أفرحُ بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة[1] فانفلتتْ منـه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منهـا فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح »[2] .

فهـو سبحانه مع عزته رحيم بعبـاده يفتح بابَ التوبة لمن تـاب ، فلا يظننَّ أحدٌ أن فى صفة (العزيز) جبروتاً ، فهو تعالى رحيم أيضاً .

ومـن عظمة الأسلوب القرآنى أنْ يجمع بين هـاتـين الصفتين عزيز ورحيم ، وكأنـه يشير لنا إلى مبدأ إسلامى يُربى الإسلامُ عليه أتباعه ، ألاَ وهو الاعتدال

(١) فلاة : سميت فلاة لأنها فليت عن كل خير ، وقيل هى (الصحراء) التى لا ماء فيها . ومن أسمائها البيداء لأنها تبيد من يحلها . ومن أسمائها الملاة وهى الفلاة ذات حر وسراب . [المخصص لابن سيده] وفى المعجم الوسيط (الفلاة الأرض الواسعة المقفرة) .

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٧١٣٦) من حديث أنس بن مالك ، وقد أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) من حديث أنس بلفظ .. « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلَه فى أرض فلاة » وليس فيه ما ذكره مسلم « فانفلتت منه » إلى « أخطأ من شدة الفرح » .

فـلا تطغـى عليك صفة أو خصلة أو طبعٌ أو خُلق ، والزم الوسط لأن كلّ طبع فى الإنسان له مهمة .

وتأمـل قـوْل الله تعالى فى صفات المؤمنين : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ.. (٥٤) ﴾ [المائدة] فالمسلم ليس مجبـولاً على الذلة ولا على العزة ، إنما الموقف هو الذى يجعله ذليلاً أو يجعله عزيزاً ، فالمؤمن مَنْ يتصف بالذلة والخضوع للمؤمنين ، ويتصف بالعزة على الكافرين .

فعـزة العزيز علـى المتكبر رحمةٌ بالمتكبِّر عليه ، فعزَّته ورحمتـه لك أنت ، وليس هذا فحسب بل إنه أيضاً عليم ، فقد يكون عزيزاً لا يُغلب لكن لا علم عنده ، فالحق سبحانه عزيز عليم يضع العزة فى مكانها ، ويضع الذلة فى مكانها .

فعزتـه سبحانـه وقاهريتـه غالبة عالية ومـع ذلك فيُتبعها الحـق سبحانه بصفـة الرحمـة ليُحدثَ فـى نفس المؤمن التـوازن بين صفتى القهر والغلبة ، وبين صفة الرحمة .

وإنْ أردتم العزة الحقيقية فاطلبوها ممن لا تتغير عزته ، وهو الحق سبحانه وتعـالى : ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء] وفى هذا القول تصويب لطلب العـزة ، وليطلـب كلّ إنسان العزة إيمانـاً بالله ، فسبحانه الـذى يهب العِزة ولا تتغير عزته .

﴿ فَإِنَّ الْعِـزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء] وكلمة (جميعـاً) هذه دلَّتْ على أن العـزة لهـا أفراد شتى : عزة غنى وعزة سلطان ، وعزة جـاه ، فإنْ أراد واحد أنْ يعرفها ويعلمها فهى جميعاً فى الحق سبحانه .

إذن : سـاعـة يقـول الحق ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًـا (١٣٩) ﴾ [النساء] فمعناها إنْ أردت أيهـا الإنسـان عِزاً ينتظم ويفوق كلَّ عزٍّ فاذهب إلى الله ، لأنه سبحانه أعزَّنا فنحن خلقه .

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون] فالعزة لله لا تتعداه، ولكنه سبحانه شاء أنْ تكون عزة رسوله ﷺ وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى.

﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء] أى: فى كل ألوانها هِىَ لله سبحانه وتعالى، إنْ كانت عزة حكمة فهو الحكيم، وإنْ كانت عزة القبض علىَ الأمور فهو العزيز، وإنْ كانت عزةَ الحلم فهو الحليم، وإنْ كانت عزة الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبار.

أما اسم الحق سبحانه (الحكيم) فإطلاقُ صفة الحكيم على الخالق سبحانه وتعالى هو أنه جلَّ جلاله يحكم المخلوقات حتى لا تسير بغير هُدىً ودون دراية.

والحكمة فى الفقه أنْ يوضع هدفٌ لكلِّ حركة لتنسجم الحركاتُ بعضها مع بعض، ويصير الكون محكوماً بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والحكيم العليم الذى يضع لكلِّ كائن إطاره وحدوده، والحكمة هى أنْ يؤدى كلُّ شىء ما هو مطلوب منه ببراعة، والحكمة فى الفقه هى أنْ تستنبط الحكم السليم، والحكمة فى الشعر أنْ تزنَ الكلمات على المفاعيل.

والحكمة فى الطب أنْ تعرف تشخيص المرض والدواء الذى يعالجه، والحكمة فى الهندسة أنْ تصمم المستشفى طبقاً لاحتياجات المريض والطبيب وأجهزة العلاج ومخازن الأدوية وغير ذلك، أو فى تصميم المنزل للسكن المريح، وحكمة بناء منزل مثلاً تختلف عن حكمة بناء قصر أو مكان للعمل.

فإذا كان العزيز هو الذى لا يُغلب لجبروته ولا يسأله أحد، فإنَّ الحكيم هو

الذى لا يصدر منه الشيء إلا بحكمة بالغة.

والحكمة مأخوذة من (الحَكَمة) التى تُوضَع فى فم الفَرَس والتى نسميها اللجام، وهى كما نعرف تتكوَّن من قطعة من الجلد تدخل على اللسان وفيها قطعة من الحديد، فإنْ مالَ إلى غير الاتجاه الذى تريد يكون من السهل جَذْبه إلى الاتجاه الصحيح.

إنَّ وجود الحكمة يعنى وجودَ شيء يحكمه فلا ينحرف يميناً ولا يساراً، وما دام الله قد شهد أنه لا إله إلا هو وشهدتْ الملائكة وشهدَ أولو العلم، وانتهتْ القضية بعد هذه الشهادات إلى أنه لا إله إلا هو وأنه العزيز الحكيم، فكلُّ منهج منه يجب أنْ يسلم إليه وأنْ ينقاد له.

فما دام العبد قد آمن بالإله القادر الحكيم الخالق القيوم القدوس فليسمع من الإله ما يُصلح حياته، فهو سبحانه حكيم يضع الشيء فى موضعه الدقيق بحكمة، فلا ينظر إلى ظاهر معطيات الشيء الآن ويغفل ما قد يأتى به من مضرَّة.

فالله هو الحكيم العزيز لا يأتمر بأمر أحد من خَلْقه، ولا يعجل بعجلة العباد، وهو سبحانه الحكيم الذى لا يترك شيئاً للعبث، فهو المقدِّر لكلِّ أمرٍ بحيث يكون موافقاً للصواب، لذلك لا يمكن أنْ يصدر عن الواحد الحكيم أوامر متضاربة، ولكنَّ التضارب إنما ينشأ من اختلاف الآخر، أو من عدم حكمة الآمر.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) ﴾

لقد كان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى أمة أمية ، وجاء فى أمة أمية ليست لها ثقافة ، والقرآن إنما نزل ليخاطب أمة أمية وجاء على لسان رسول الله الأمى فى أمة لا تعرف المسائل العلمية الشديدة التعقيد والفلسفات والثقافات والحضارات .

فالله عز وجل لم يُنزل القرآن على أحد ممَّنْ تشبّع بفلسفات اليونان أو الإغريق أو الفراعنة إنما أنزله على نبيٍّ أمي لا يقرأ ولا يكتب فى أمة أمية ، وهذا له حكمة بالغة لأن معنى (أمى) أى أنه لم يأخذ علماً من البشر ، بل هو كما ولدتْه أمه ، إنما جاءتْ ثقافته وعلمه من السماء .

وقد قال قتادة بن دعامة السدوسي[1] فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) ﴾ [الجمعة] قال : كان هذا الحيّ من العرب أمة أمية ليس فيها كتاب يقرأونه ، فبعث الله فيهم محمداً رحمة وهُدىً يهديهم به .

وإذا كان الحق سبحانه وصف نفسه بأنه ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) ﴾ [الجمعة] وأن ما فى السماوات والأرض مُسبّح له مُنزه له سبحانه ، فإنه هنا يعطينا مقتضى هذه الصفات والأسماء الحسنى .

فهو سبحانه لأنه الملك لكلِّ ما فى الدنيا ، ولكلِّ ما فى السماوات والأرض، ولكل ما فى الآخرة من حساب وجنة ونار وميزان ، ولأنه سبحانه القدوس المنزَّه المطهر من العيوب والنقائص ولأنه عزيز لا يُغلب ، ولأنه حكيم يضع الأمور فى نصابها ولا يستخدم عزته سبحانه للقهر والجبروت .

(١) من التابعين ، يكنى أبا الخطاب بصرى ثقة كان ضرير البصر ، توفى بواسط فى الطاعون وهو ابن ست أو سبع وخمسين بعد موت الحسن البصرى بسبع سنين . روى عن أنس بن مالك ، وهو شيخ شعبة وأبى عوانة وغيرهم . كان حجة فى الحديث . [الثقات للعجلى] .

فإنه سبحانه يتجلى بكلِّ هذه الصفات على عباده فينذرهم ويحذرهم ويُبشِّرهم ويرسل إليهم الرسل بكُتُب من عنده إلى الناس ليهتدوا إلى طريق الحق .

ومن نعمته سبحانه أنه ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ .. (٢) ﴾ [الجمعة] هو لا غيره ، فإنه لا ربّ سواه ولا إله غيره يرسل الأنبياء والرسل ، وعلى مرِّ العصور والأزمان وتتابع الرسالات لم يدَّع أحدٌ النبوة أو الرسالة من عند إله آخر غير الله .

حتى الذين ادَّعَوا أنهم رسلٌ وهم ليسوا كذلك قالوا أنهم رسلُ الله أو أنبياءُ الله .

فهو سبحانه الذى بعث ، وهو سبحانه الذى أرسل ، لأنه هو سبحانه الذى خلق لا أحدَ غيره ، وهو سبحانه المتكفل بخَلْقه الذين خلقهم رزقاً وقواماً لحياتهم على الأرض ، وكذلك رسالةً ونبوة وكتاباً يهدى إلى القيم والأخلاق فى الدنيا ، ويُثيبهم الله الجنة فى الآخرة إنْ هم آمنوا .

ونلحظ أن الحق سبحانه قال ﴿ بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ .. (٢) ﴾ [الجمعة] ولم يقلْ : أرسل إلى الأميين . فمعنى الإرسال أنه أرسل إليهم منهم أو من غيرهم ، وكذلك (بعث إلى) ولكنه سبحانه بعث فيهم ، ومعنى البعث فيه التفات إلى إعادة الحياة ، وهو هنا إعادة الحياة لدين إبراهيم وإسماعيل الذى كان فى العرب منذ أزمان طويلة .

فمعلوم أن هذه الأرض كانت غير ذى زرع ولم تكُنْ مأهولة أو بها ناسٌ ، وقد منَّ الله على هذه الأرض بأنْ أوجد فيها إسماعيل بن إبراهيم وحيداً منفرداً مع أمه هاجر ، تركها إبراهيم بأمر من الله فى هذه البقعة الجرداء البعيدة عن أيِّ مصدر للماء ، ولذلك لم يعمرها الناسُ ولم يسكنوها .

ولم يسكنها الناسُ إلا بعد أن انبجستْ بئر زمزم تحت قدمى إسماعيل إلى أنْ رفع إبراهيمُ وإسماعيلُ القواعدَ من البيت وطهَّراه للعاكفين والركّع السّجود كما هو أمْر الله لهما .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ[1] مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) ﴾ [البقرة]

إذن : فبداية المقام فى هذا المكان كان لتوحيد الله وإقامة بيته ورفْع قواعده ليكون ظاهراً للناس ، وأنْ يكون آمناً ليهفو الناسُ إليه ويلجأون إليه ويسكنون حوله .

وبقيتْ مناسك الحج إلى بيت الله من طواف وسعى بين الصفا والمروة دليلاً على دين إبراهيم الأول فى هذا المكان ، ولكن مع تطاول الزمن أدخل العربُ عبادة الأصنام على يد عمرو بن لُحي[2] ، حتى أصبحتْ الأصنام داخل بيت الله .

لهذا كانت بعثة رسول الله تُسمى بعثة ، لأنها بعثتْ دين إبراهيم وإسماعيل من جديد ليطهِّر البيت من الأصنام ويجعله خالصاً لله وحده .

لذلك قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ .. (٢) ﴾ [الجمعة] والأميون هم الذين لا يعرفون كتاباً سماوياً ، والحق سبحانه يُسمِّى العرب المعاصرين لرسول الله أميين ، أى ليس عندهم شيءٌ من أسباب العلم .

---

(١) مثابة للناس : أى يعودون إليه فهم يثوبون إلى زيارته . وقال ابن عباد فى (المحيط فى اللغة) أى مجتمعاً بعد التفرق ومعاداً . والمثاب والمثابة : البيت والملجأ . والمثابة : الموضع الذى يُثاب إليه أى يُرجع إليه مرة بعد أخرى . [تاج العروس مادة ثوب] .

(٢) هو أبو خزاعة عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف ، قال عنه رسول الله ﷺ : « رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فى النار » وقال : « لأنه أول من غيَّر دين إسماعيل فنصب الأوثان وسيّب السائبة وبحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحامى » .

وهذه الصفة ، صفة الأمية فى رسول الله ﷺ وفى أمته كانت شهادة تفوق لأنها أمة لم تأخذ علمها بالقراءة عن حضارات الأمم السابقة ، وإنما أخذتْه عن الله لأنَّ أقصى ما يصل إليه غير الأميين فى علمهم أنْ يجيء إليهم العلمُ من بعضهم البعض .

ولكن أمة محمد ﷺ جاء لها العلم من الله وسادتْ الدنيا أكثر من ألف عام ، فهذه الأمية شرفٌ لهم كى لا يُقال : إنهم أصحابُ قفزة حضارية من أمة متمدينة ، وكانت هذه الأميةُ ملفتةً لأنَّ ما جاء فى تلك الأمة من تشريعات وقفت أمامه الأمم الأخرى إلى زماننا هذا باندهاش وتقدير .

والله عز وجل إنما بعث فى هؤلاء الأميين واحداً منهم أمياً مثلهم ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ .. (٢) ﴾ [الجمعة]

ويقول عنه الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت]

فما كنتَ تقرأ من قبله ، وما كنتَ تكتب ، وفرْقٌ بين أنْ تقرأ وبين أنْ تكتب ، فقد تقرأ لأنك تحفظ ، وتحفظ نتيجة السماع ، أما أنْ تكتبه فهذا شيء آخر .

فلو كان عنده ﷺ شيءٌ من القراءة أو الكتابة لكان لهم عذر ولكانَ فى الأمر شبهة تدعو إلى الارتياب فى أمرك ، لذلك وصفه ربُّه عز وجل بأنه ﴿ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ .. (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وإياك أنْ تظن أنَّ الأميةَ عيبٌ فى رسول الله ، فإنْ كانت عيباً فى غيره فهى فيه شرفٌ ، لأنَّ معنى أُميّ يعنى على فطرته كما ولدتْه أمه لم يتعلم شيئاً من أحد .

وكذلك رسول الله لم يتعلَّم من الخَلْق ، إنما تعلَّم من الخالق فعلَتْ مرتبته عن

الخلق ، وقد كانت هذه دعوة إبراهيم عليه السلام فقال : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ [البقرة]

فإبراهيم عليه السلام دعا الله سبحانه وتعالى ليُتمّ نعمته على ذريته ويزيد رحمته على عباده بأنْ يرسل لهم رسولاً يُبلغهم منهج السماء حتى لا تحدث فترةُ ظلام فى الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ويعبد الناسُ فيها الأصنامَ كما حدث قبل إبراهيم .

ومعنى ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ .. (١٢٩) ﴾ [البقرة] أى : يتلو عليهم آيات القرآن الكريم . ثم يقول ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .. (١٢٩) ﴾ [البقرة] يجب أنْ تعرف أنَّ هناك فرقاً بين التلاوة وبين التعليم ، فالتلاوة هى أنْ تقرأ القرآن ، أما التعليم فهو أنْ تعرف معناها وما جاءت به لتُطبِّقه وتعرف من أين جاءت .

وإذا كان الكتاب هو القرآن الكريم ، فإن الحكمة هى أحاديث رسول الله ﷺ التى قال الحق سبحانه فيها فى خطابه لزوجات النبى ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) ﴾ [البقرة]

فمؤدّى تلاوة آيات الله هى التزكية أى التطهير ، فآيات الله تطهر النفوس والقلوب من الدنس الذى قد يعلق بها ، فطهَّرهم من عبادة الأصنام ومن وأد البنات والخمر والميسر والربا . ومعنى التزكية أيضاً سَلْبُ المضار فكأنه جاءهم بالنفع وسلب منهم الضر .

وهو عندما يُزكّيهم ويُطهرهم إنما يقودهم إلى طريق الخير وتمام الإيمان، وهذا بتعليمهم الكتاب والحكمة ، والكتاب على إطلاقه ينصرف إلى القرآن الكريم، والحكمة هى وَضْع الشيء فى موضعه .

والكتاب يعطيك التكليف إما أنْ يأمرك بشيء ، وإما أنْ ينهاك عن شيء فهى دائرة بين الفعل والترك .

والحكمة أن تفعل الفعل الذى يُحقق لك خيراً أو يمنع عنك شراً ، وهى مأخوذة من الحَكَمة(١) أو الحديدة التى تُوضع فى فم الجواد لتحكم حركته فى السير والوقوف ، وتصبح كل حركة تؤدى الغرض منها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) ﴾ [البقرة] لأنكم أمة أمية ، فإنْ بهرتكم الدنيا بحضارتها فستبهرونهم بالإشعاعات الإيمانية التى تجعلكم متفوقين عليهم ، فكلُّ ما يأتيكم من السماء هو فوق كلِّ حضارات الأرض .

ونحن عندما ننظر إلى مقاصد بعْث رسول الله وإرساله نجدها مذكورة فى الآية الكريمة ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ .. (٢) ﴾ [الجمعة]

فأول هذه المقاصد تلاوة آيات الله يقول تعالى : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ .. (٢) ﴾ [الجمعة] ، وحدث التلاوة ليس قاصراً على رسول الله فقط ، بل هو جاء أيضاً فى حق الله سبحانه .

يقول تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) ﴾ [البقرة] ويقول أيضاً ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ

(١) الحَكَمة : حديدة تُجعل على حنك الفرس تمنعه من الجرى. فلما كانت الحكمة تأخذ بفم الدابة وكان الحنك متصلاً بالرأس جعلها رسول الله تمنع مَنْ هى فى رأسه من الكبر كما تمنع الحكمة الدابة من الفساد والجرى (ابن الأنبارى فى الزاهر فى معانى كلمات الناس) (١/٣٤٤).

(١٠٨) ﴾ [آل عمران] ويقول : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾ [الجاثية]

فتلاوة الله لآياته على رسوله تُثبِّت رسوله الكريم أنه من المرسلين للناس بآيات الله وكلماته ، وهو يدل على مدى اعتناء الله سبحانه بهداية البشر إلى طريق الحق ، فالله سبحانه لا يريد ظلماً للعالمين .

فهو سبحانه يُبلغهم رسالاته وكلامه عن طريق رسله لئلا تكون لهم الحجة يوم القيامة أنهم لم تبلغهم كلمات الله ، لا إنه يتلوها على رسله ليبلغوها إلى الناس بالحق كما بلَّغها لهم ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾ [الجاثية]

فالحق سبحانه لمطلق عدله ورحمته بعباده يرسل إليهم رسله بكتبه وصحفه ولا يُعذِّب أحداً دون أن تصله إنذاراتُ الله وبشاراته . يقول تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .. (٥٩) ﴾ [القصص]

ومعنى ﴿ أُمِّهَا ﴾ أى أم القرى ومنها مكة المكرمة كأم وكأصل للقرى، وتُسمَّى مكة المكرمة (أم القرى) لأن كل القرى تزورها ، والقرية لا تُطلق إلا على مكان تتسع فيه مقومات الحياة اتساعاً يكفى لمَنْ يطرأ عليها من الضيوف فيجد بها قرى[1] ، فإنْ كانت قرية كبيرة يأتيها الرزق الوفير من كل مكان كأنها أم نسميها (أم القرى) .

والحق سبحانه لا يُعذِّب أحداً إلا بعد أنْ يرسل له رسولاً يُبلغه أمر الله بافعل أو لا تفعل ، يقول الحق سبحانه ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

---

(١) القَرْىُ : الإحسان إلى الضيف ، قراه يقريه قِرَىً . والمقارى فى بعض الأشعار جفان يُقرَى فيها الأضياف . [العين للخليل بن أحمد] وقريت الماء فى المقراة : جمعته . وسميت القرية قرية لاجتماع الناس فيها . والمقراة : الجفنة سُميت لاجتماع الضيف عليها أو لما جُمع فيها من الطعام [مقاييس اللغة] .

والله عزَّ وجل إنما أمر رسوله بأنْ يتلو القرآن ، يقول تعالى : ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ .. (٢٧) ﴾ [الكهف] ويقول فى آية أخرى ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

فاقرأ يا محمد واتْلُ القرآن وداوم أنت على تلاوته وإنْ كذَّبوا به ، لعلَّ الله يأتى من هؤلاء بذرية تصفو قلوبهم لاستقبال إرسال السماء فيؤمنون بما جحده هؤلاء ، والأمر بالتلاوة لبقاء المعجزة .

فاقرأ ولا تعجز ولا تيأس ، فالقرآن سلوةُ نفسِك ، وما دام قومك قد كذَّبوك فارجع إليّ بأنْ تستمع إلى كتابى الذى أنزلته معجزةً لك تُؤيِّدك ، وانتظر قوماً يأتون يسمعون منك كلام الله فيصادف منهم قلوباً صافية فيؤمنون به .

وهذه هى ميزة معجزتك يا محمد أنك تستطيع أنْ تُكرِّرها فى كل وقت وأنْ تتلوها كما تشاء وأنْ يتلوها بعدك مَنْ سمعها وستظل تتردد إلى يوم القيامة .

والمسألة ليست أنه يتلو الآيات ليُعجبوا منها فحسب ، لا فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كلَّ سامع للقرآن إلى مَنْ خلق ذلك الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة .

ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذى يناسب جمال الكون . إذن : فالرسول ينقل المؤمنين إلى المنهج الذى يُزكِّى الإنسان .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ .. (٢) ﴾ [الجمعة] فأنت تعرف أنَّ يُزكيهم من الزكاة ، والزكاة أول معانيها التطهير والتنقية والنماء ، والآيات التى جاء بها رسول الله ﷺ إنما جاءتْ لتزكيهم .

وهذا التطهير لمصلحة المطهِّر أو المطهَّر ؟ إنه لمصلحة المطهَّر ، التنقية والنماء

لمصلحتكم أنتم ، فالتنقية لصالحنا ، والتطهير لصالحنا ، والنماء لصالحنا .

والتزكيـة هى تطهير وتنقية ونماء ، والتزكيـة تزكية فى الإنسان نفسه فى ذاته ، بدلاً من أنْ يكذب لسانه طهَّره عن الكذب ، بدل أنْ تمتد عينُه إلى محارم غيره طهَّر عينه من النظر للمحرمات ، وبدلاً من أنْ تمتدَّ يده خُفية وتسرق فهو لا يفعل ذلك .

الحق سبحانه يريد طهارةَ الإنسان والذرية التى تأتى ، وأنْ يجعل لها وعاءً شريفاً عفيفاً وإطاراً لا تشوبه شائبة ، فجاء المنهج ليُزكيكم فى كلِّ شيء يُزكى حركات جوارحكم ، فلا تتجه الحركة إلا لتحقق المطلوب منها عند مَنْ خلقها .

فالخالق قد أوضح : يا عين حدودك كذا ، يا لسان حدودك كذا ، يا يد حدودك كـذا ، يـا رجْل حدودك كذا ، يا قلـب حدودك كذا . وهكذا نرى أنَّ المنهج قد جاء يُزكيكم . أى : يُطهركم ويُنقيكم ويُنميكم فى كلِّ مجال من مجالات الحياة .

والتزكيـة لابـدّ أنْ تقترن بتعليم الكتاب والحكمة ، فهنـا أمور ثلاثة : تلاوة القـرآن ، والتزكيـة ، ثم تعليم الكتـاب . أى : تعليمهم ما جاء فـى هذا الكتاب ، يُعلمهم وينذرهم .

والرسـول لا يُعلمهـم الكتاب فقط بـل أيضاً يُعلمهم الحكمـة ، وهى أحاديث رسـول الله ، قـال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِـنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] فآيات الله آيات القرآن الكريم ، والحكمة أى حديث رسول الله وسُنته .

والحكمـة تقتضـى أنْ نعـرف إلى أىِّ الطـرق نهتـدى ونسـير ، ويقـول الحق سبحانـه : ﴿ يُؤْتِـي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَـاءُ وَمَنْ يُـؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَـيْرًا كَثِيرًا .. (٢٦٩) ﴾ [البقرة]

والحكمـة هى وَضْع الشيء فى موضعه النافـع ، فكأن الحق سبحانه يقول: كلّ ما أمرتكم به هو عيْن الحكمة لأنّى أريد أنْ أؤمِّن حياتكم الدنيا ، وأؤمِّن لكم سعـادة الآخرة ، فإنْ صنع العبدُ المؤمن ما يأمر به الله فهذا وَضْع الأشياء فى موضعها ، وهو أخْذٌ بالحكمة .

هـؤلاء الأُميـون الذيـن بعـث اللهُ فيهـم رسولاً منهـم ليتلو عليهـم آيات الله ويُزكيهـم ، ويُعلمهم الكتـاب والحكمة ، هؤلاء ﴿ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَـلالٍ مُبِينٍ (٢) ﴾ [الجمعة]

فمـا هو الضـلال ؟ يقولون : ضَلَّ فلانٌ الطريق أى مشى فى مكان لا يُوصِّله للغايـة أو يوصـل إلى ضد الغايـة ، فالضلال فى الدنيا والأمـور المادية قد لا تُوصلنى لغايتى المرجوة ، لكن فى الأمر القيمى ماذا يفعل ؟

إنه لا يُوصلك إلى الغاية المرجوة وهى الجنة فحسب ، ولكنه يوصل للمقابل وهو النار ، هذا هو الضلال المبين ، إنه ضلالٌ واضح ظاهر ، وهو ضلالٌ يعرفه صاحبه .

فالضـلال المبين الغيبة عن الحـق ، وهو مبين أى محيط فى صورة لا يمكن النفـاذ منها ، وهـو أيضاً ضلالٌ مقصـود وهو أن يعرف الإنسـانُ طريقَ الحق ويذهب إلى البـاطل ، وهنـاك ضلال غير مقصود مثل ضلال رجل يمشى فيسلك طرقـاً لا يعرفها فيضلّ عن مقصده .

وقـد وصـف جعفر بن أبـى طـالب[1] رضـى الله عنه وضع العـرب قبل بعثة

(١) هو جعفر بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هـاشم ، صحابى ، يقال له جعفر الطيار وهو أخو على بن أبى طالب ، وكان أسنّ من على بعشر سنين ، أسلم قبل دخول النبى دار الأرقم ، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ، قطعت يداه اليمنى ثم اليسرى وهو حامل الراية فى غزوة مؤتة حتى وقع شهيداً فقيل: إن الله عوضه عن يديه جناحين فى الجنة . توفى عام ٨ هجرية [الأعلام للزركلى ١٢٥/٢] ..

رسول الله ، وذلك فى موقفه أمام النجاشى ملك الحبشة فى الهجرة للحبشة .

قـال : « أيهـا الملـك كنَّا أهـلَ جاهلية نعبد الأصنـام ونأكل الميتـة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونُسـيء الجوار ، ويأكل القويّ منّـا الضعيف . فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانـا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلـع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء بـه مـن الله وحده لا نشرك بـه شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم علينـا ، وأحللْنَا ما أحلّ لنا »[1] .

وهـذا وصف لحالة ضلال العـرب قبل بعثة رسول الله ، وما أثّرتْ بعثته ﷺ فيهم من تزكية وتطهير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾

فإذا كان الحق سبحانه قد قال فى الآية السابقة ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ .. (٢) ﴾ [الجمعة] فى شأن قوم رسول الله ﷺ وفـى شـأن العرب ، فإنَّ رسالة محمد لم تكـن للعرب فقط ، إنما كانت للعالمين أجمعين .

(١) أورده ابن الأثير فى كتابه (الكامل) (١/٢٦٦) باب ذكر إرسال قريش إلى النجاشى فى طلب المهاجرين (أى إلى الحبشة) وذلك أنَّ قريشاً أرسلت عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى أمية ليرد النجاشى عليهم من هاجر من المسلمين ، فمن كلامهما أنهم جاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم . فكان أن النجاشى سألهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من الملل ؟

لقد كانت رسالة محمد ﷺ للعرب وغير العرب ، كتابيين وغير كتابيين ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ﴾ [الجمعة]

وفى هذا جاء حديث رسول الله الذى رواه لنا أبو هريرة رضى الله عنه : « كنا جلوساً عند النبى ﷺ فنزلـت عليه سورة الجمعة ، فلما قـرأ ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ .. (٣) ﴾ [الجمعة] قال رجل : مَنْ هؤلاء يا رسول الله ؟

قـال : فلـم يراجعه النبى ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثاً . قال : وفينا سلمـان الفارسـى ، فوضع النبى ﷺ يده على سلمان فقـال : « لو كان الإيمانُ عند الثريا لناله رجال من هؤلاء »[1] .

والثريـا نجـم فى السماء كانوا يهتـدون به فى الصحـراوات والفلوات حتى أن العربى كان يقول مثلاً : اجعل الثريا عن يمينك أو النجم القطبى أو سهيل أو غيرها، وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل]

فلـو كان الإيمانُ عند الثريا أو مُعلَّقاً بالثريا لناله وتناوله رجلٌ من هؤلاء أى أبنـاء فارس أو الأعاجـم عامـة ، وذلك لعلـو همتهم وعزيمتهم فـى الأخْذ بالإيمان .

وسلمان الفارسي[2] كان له دور عظيم فى نصرة الإسلام فى غزوة الخندق ، والحديـث لا يقصـد سلمان ولكنه يعنى (رجل من هؤلاء) أى : لقوم يأتون بعد سلمان وغيره رضى الله عنهم .

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٩٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٦٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وكذا أحمد فى مسنده (٩٣٩٦) .
(٢) سلمان الفارسى : أصله من مجوس أصبهان ، عاش عمراً طويلاً ، قرأ كتب الفرس والروم واليهود ، قصد بلاد العرب فلقيه ركب من بنى كلب فاستخدموه ثم استعبدوه وباعوه وأعانه المسلمون على شراء نفسه من صاحبه ثم أسلم ، هو الذى أشار بحفر الخندق . توفى عام ٣٦ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣/٣١١] .

والحق سبحانه لم يحرم العجم من الفضل ، بل إن رسول الله ﷺ حين قال لسلمان الفارسى : « سلمان منا آل البيت »[(١)] لم يقل له : أنت من العرب ، لا بل نسبه لآل البيت .

أى نسبه إلى إرث النبوة بما يتطلبه هذا الإرث من تطبيق المنهج بتمامه ، فليس هذا الإرث بالدم إنما بتطبيق المنهج نصاً وروحاً .

وقد سعى منهم الكثيرون بحثاً عن الحق ، ومنهم سلمان الفارسى الذى رأى رسول الله فى المدينة ، ورأى منه علامات كثيرة أحبّ أنْ يرى فيه علامة مادية يعرفها عن نبيٍ آخر الزمان ، فرأى فى كتف رسول الله ﷺ خاتم النبوة .

لذلك لما بلغ سلمان الفارسى أن بمكة نبياً جديداً ذهب إلى سيدنا رسول الله وأخذ يتأمله وينظر إليه بإمعان فوجد فيه علامتين مما ذكرت الكتب السابقة وهما أنه ﷺ يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة .

فراح ينظر هنا وهناك لعله يرى الثالثة ، ففطن إليه رسول الله ﷺ بما آتاه الله من فطنة النبوة التى أودعها اللهُ فيه ، وقال : لعلك تريد هذا ، وكشف له عن خاتم النبوة ، وهو العلامة الثالثة[(٢)] .

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٥٤١) والطبرانى فى المعجم الكبير (٦٠٤٠) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/١٨٩) (١٠١٣٧) : « رواه الطبرانى وفيه كثير بن عبد الله المزنى وقد ضعفه الجمهور وحسَّن الترمذى حديثه وبقية رجاله ثقات ». والحديث « أن رسول الله ﷺ خط الخندق عام حرب الأحزاب حتى بلغ المذاجح فقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً فاحتج المهاجرون : سلمان منا . وقالت الأنصار : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : سلمان منا أهل البيت ».

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٥٤٤) من حديث طويل عن سلمان الفارسى وفيه : فلما كانت الساعة التى أخبرتنى المرأة يجلس فيها هو وأصحابه خرجت أمشى حتى رأيت النبى ﷺ فإذا هو يحتبى، وإذا أصحابه حوله فأتيته من ورائه فعرف النبى ﷺ الذى أريد فأرسل حبوته فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه ، فقلت : الله أكبر . قال الحاكم : صحيح الإسناد . قال الذهبى : عبد القدوس ساقط .

ومن هؤلاء الذين قال الله فيهم (وآخرين منهم) صهيب الرومي[(١)] رضى الله عنه أبو يحى ، وقد كان فى مكة وقد كبر سِنّه وأسلم وأراد أنْ يهاجر ، فقال له الكفار : لقد جئتَ مكة فقيراً وآويناك إلى جوارنا ، وأنت الآن ذو مال كثير وتريد أنْ تهاجر بمالك .

فقال لهم : أإذا خليتُ بينكم وبين مالى أأنتم تاركونى ؟ فقالوا : نعم . قال : تضمنون لى راحلة ونفقة إلى أنْ أذهب إلى المدينة ؟ قالوا : لكَ هذا[(٢)] .

إنه قد شرى نفسه بهذا السلوك واستبقاها إيمانياً بثروته ، فلما ذهب إلى المدينة لقيه أبو بكر وعمر فقالا له : ربح البيع يا أبا يحى . قال : وأربح الله كل تجارتكم . وقال له سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر : إن رسول الله ﷺ أخبرنا أن جبريل أخبره بقصتك[(٣)] .

ويُروى أن الرسول قال له : ربح البيعُ أبا يحى .

فدعوة الإسلام عامة وليست خاصة بالعرب، ولذلك كتب رسول الله ﷺ كتباً

(١) صهيب الرومى : هو صهيب بن سنان بن مالك ، من بنى النمر بن قاسط ، وُلد ٣٢ ق . هـ ، صحابى من أرمى العرب سهماً ، وهو أحد السابقين إلى الإسلام ، ولد صهيب بالموصل فأغارت الروم على ناحيتهم فسبوا صهيباً وهو صغير فنشأ بينهم فكان ألكن ، أسلم وأقام بمكة واشتغل بالتجارة ، توفى بالمدينة ٣٨ هجرية [الأعلام للزركلى ٣/ ٢١٠] .

(٢) أورده الذهبى فى سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣) ، وابن الجوزى فى صفة الصفوة (١/ ١٧٠) ، وابن سعد فى (الطبقات) (٣/ ١٩٣) . قال صهيب : خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد كنت هممت بالخروج معه، فصدنى فتيان من قريش فجعلت ليلتى تلك أقوم لا أقعد . فقالوا : قد شغله الله عنكم ببطنه ولم أكن شاكياً فناموا فذهبت فلحقنى ناس منهم على بريد . فقلت لهم : أعطيكم أواقى من ذهبٍ وتخلونى ؟ ففعلوا فقلت : احفروا تحت أسكفة الباب تجدوها وخذوا من فلانة الحلتين ، وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ قباء ، فلما رآنى قال : يا أبا يحى ربح البيع . ثلاثاً . فقلت : ما أخبرك إلا جبريل .

(٣) أورده السعدى فى تفسيره (١/ ١٨٢) من قول ابن عباس وأنس أن عمر بن الخطاب تلقاه إلى طرف الحرة فقالوا له : ربح البيع . فقال : وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وما ذاك ؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ .. (٢٠٧)﴾ [البقرة] .

إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى اتباع ما جاء به[١] .

فالإسلام دعوة عالمية لكل زمان ولكل مكان ، فالدعوة ظلت تتسع فى بعض العشائر والبطون إلى أنْ دالتْ عاصمة الكفر ، وصارت مكةُ بيتَ الله الحرام كما شاء الله ، وأسلمتْ الجزيرة كلها لمنهج الله ، وأرسل ﷺ الكتب إلى الملوك والقياصرة ، وكلها تتضمن قوله ﷺ « أسلم تسلم »[٢] .

ودلتْ هذه الكتب على أن الدعوة الإسلامية هى دعوة ممتدة لكلِّ الناس ، تطبيقاً لما قاله الحق سبحانه لرسول الله أنه « رسول للناس كافة » .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. (٢٨) ﴾ [سبأ] لذلك أرسل رسول الله إلى حكام العالم المعاصرين له دعوة لدخول الدين الخاتم ، وقد ترك رسولُ الله تلك المهمة لمن يخلفونه ، ودعا ﷺ الجزيرة العربية تحت لواء (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) بعد أنْ كانت قبائلَ متعددة .

وهكذا صارت القبائل أمة واحدة بعد أنْ جمعهم محمد رسول الله فى وحدة

---

(١) أرسل رسول الله ﷺ هذه الكتب إلى الملوك فى أول سنة ٤ هجرية وبعث إليهم يدعوهم إلى الله واتخذ خاتماً من فضة نقش فيه [محمد رسول الله] ليختم به الكتب ، فبعث رسول الله عبد الله بن حذافة إلى كسرى بكتاب فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين ليدفعه إلى كسرى ، وبعث دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر وهو هرقل ملك الروم وأمره أن يدفع الكتاب إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل ، وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية ، وبعث عمرو بن أمية الضمرى إلى أصحم بن أبجر النجاشى ، فأما كسرى فمزق كتاب رسول الله فقال رسول الله لما بلغه ذلك : « مزق الله ملكه إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » .

(٢) كان نص كتاب رسول الله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و﴿ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾ [آل عمران] ». أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٧٠٧) وكذا البخارى فى صحيحه (٤٥٥٣) .

التكامل العقدى تحت لواء وراية الإسلام ، وهذه الأمة الأمية قال فيها الحق سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ .. (٢) ﴾ [الجمعة]

وبعد رحيله ﷺ إلى الرفيق الأعلى انساح صحابته بالدين الخاتم فى الدنيا كلها ، وخلال نصف قرن من الزمان صار للإسلام جناحان : جناحٌ فى الشرق ، وجناحٌ فى الغرب .

وهزم الإسلامُ أكبر امبراطوريتين متعاصرتين له ، هما امبراطورية فارس بحضارتها وامبراطورية الروم ، وكانت البلاد تتخطف الإسلام كمنهج حياة .

حدث بعد ذلك أنْ حارب الإسلامُ الامبراطوريتين فى آن واحد وأقبل الناس على الإسلام ليتحققوا من معجزته التى لمسوها فى خلق مَنْ سمعوا القرآن وحملوا رسالته ، ثم فى اكتشافهم لعدالة القرآن فى إدارة حركة الحياة .

وهكذا اكتشفوا أن معجزة الإسلام عقلية ، وأن رسوله ﷺ هو الرسول الخاتم الذى لم يأتِ لهم بمعجزة حسِّية ، وإذا كان القرآنُ معجزة فى اللغة للقوم الذين نزل فيهم رسول الله ، فالقرآن لمَنْ لم يعرفوا لغة القرآن كان معجزة فى العدالة والقيم النابعة منه .

وكان الناسُ يندفعون إلى الإسلام بقوة دَفْع من المؤمنين به وبقوة جَذْب من غير المؤمنين حين يروْنَ ألاّ فرْقَ بين الأمير وأصغر فرد تحت رايته ، وحين يلمسون عدالته ومساواته بين البشر .

ولم يكُن الإسلامُ معجزةً لقومه فقط بل لكلّ الدنيا ، ويتحقق دائماً قول الحق سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

ونجد مفكراً كبيراً من الغرب المعاصر يعلن إسلامه ، رغم أنه لم يقرأ القرآن

بل نظر فقط فى المبادىء التى قننَّها الإسلام وكيف أنها تحمل حلولاً لما عجزتْ عنه الحضارات المتعاقبة وأهل القوانين فى كل بلاد الأرض .

وفى مجال العلوم درس الألمانُ عملية إدراكات الحسِّ وكيف يشعر الإنسانُ بالألم ؟ وكيف يلمس الإنسانُ ببشرته شيئاً بملمس ناعم فيُسر منه ، ثم يلمس شيئاً خشناً فيتأذى منه .

واستمر الألمان يدرسون ذلك لسنوات كى يعرفوا مناط الإحساس وموقعه فى الإنسان ، هل هو فى المخ أم أين ؟ إلى أن انتهوا إلى أن مناط الإحساس فى كلّ إنسان هو فى الجلد ، وأنها خلايا منبسطة تحت الجلد مباشرة ، بدليل أن الإبرة حين نغرزها فى جسم الإنسان فهو يتألم فقط فى منطقة دخولها وليس أكثر .

ولفتَ ذلك نظر أحد العلماء ، فقال : لقد تحدّث القرآنُ عن ذلك حين قال :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

ومن الأمثلة المعاصرة فى العلوم الجنائية قصة شاب مسلم من سوهاج سافر إلى ألمانيا ليعد رسالة الدكتوراة فى القانون ووجدهم يقفون عند قضية التعسف فى استعمال الحق[١] ويعتبرونها من أهم الإنجازات القانونية فى القرن العشرين .

فأوضح لهم هذا الشاب أن الإسلام قد سبقهم فى تقدير هذه المسألة ووضْع الحكم المناسب فيها من أربعة عشر قرناً من الزمان ، وروى لهم أن رجلاً جاء

(١) يقصد بها فى الشرع : « استعمال الحق لتحقيق مصلحة غير مقصودة شرعاً ، أو للإضرار بالغير مما يفوت مقصد الشارع من تشريع الحق » . وهى قاعدة إسلامية صرفة جاء بها القرآن والسنة ، ويتفرع عنها قواعد فقهية عديدة لمنع التعسف فى استعمال الحق ، منها قصد الإضرار ، مثل من يراجع امرأته لا رغبة فيها ولكن قصد الإضرار بها ، وكذلك من يستعمل حقه فى الوصية لا رغبة فى هذا بل إضراراً بالورثة والدائنين ، وكذلك من يقصد غرضاً غير مشروع كالذى يتزوج امرأة – وهذا حقه – ولكن قصده تحليلها لزوجها الأول لطلاقها ثلاثاً . [الفقه الإسلامى وأدلته – د. وهبة الزحيلى] .

إلى رسول الله ﷺ قائلاً : إن لفلان عندى فى ساحة بيتى نخلة ، وهو يدخل بيتى كلّ ساعة بحجة رعاية تلك النخلة ، مرة بدعوى تأبيرها ، وأخرى بدعوى جنى ثمارها ، وثالثة بدعوى الاطمئنان عليها حتى جعل النخلة شُغله الشاغل .

وشكا الرجلُ للرسول ﷺ أنه يتأذّى هو وأهل بيته من اقتحام الرجل للحياة الخاصة له ، فأرسل ﷺ إلى صاحب النخلة وقال له : أنت بالخيار بين ثلاثة مواقف ، إما أن تهبه النخلة – وتلك منتهى الأريحية – وإما أنْ تبيعها له ، وإما قطعناها[١] .

وهكذا وضع ﷺ قواعد للتعامل فيما يسمى «التعسف فى استعمال الحق» . لذلك كان القرآن مُعجزاً مؤثراً فى إيمان غير العرب وإسلامهم لآثاره فى التطبيق ، لا لأنهم عرب أو قرأوا القرآن ، لذلك كان قول الحق سبحانه :

﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ.. (٣) ﴾ [الجمعة]

وقد ذهب العلماءُ إلى أن المقصود بهؤلاء هم الأعاجم ، وقال آخرون : إنما عنى بذلك جميع مَنْ دخل فى الإسلام من بَعْد النبى ﷺ ، كائناً مَنْ كان إلى يوم القيامة .

حتى أن الطبري[٢] قال : أوْلَى القولين فى ذلك بالصواب عندى قول مَنْ قال:

(١) عن سمرة بن جندب أنه كانت له عضد من نخل فى حائط رجل من الأنصار . قال ومع الرجل أهله قال: فكان سمرة يدخل إلى نخله فيتأذى به ويشقَ عليه فطلب إليه أن يبيعه فأبى ، فطلب إليه أن يناقله فأبى فأتى النبى فذكر ذلك له فطلب إليه النبى أن يبيعه فأبى فطلب إليه أن يناقله فأبى . قال: فهبه له ولك كذا وكذا . أمراً رغَّبه فيه فأبى فقال : أنت مُضارّ . فقال رسول الله للأنصارى : اذهب فاقلع نخله . أخرجه أبو داود فى سننه (٣٦٣٨) .

(٢) الطبرى : هو محمد بن جرير بن يزيد الطبرى أبو جعفر مؤرخ مفسر إمام ، ولد فى آمل طبرستان عام ٢٢٤ هـ ، استوطن بغداد وتوفى بها ٣١٠ هـ عن ٨٦ عاماً . رفض تولى القضاء والمظالم ، له (أخبار الرسل والملوك) و (جامع البيان فى تفسير القرآن) ، من ثقات المؤرخين ، كان أسمر أعين نحيف الجسم فصيحاً . [الأعلام للزركلى ٦/٩٦] .

عُنى بذلك كل لاحق لحق بالذين كانوا صحبوا النبى ﷺ فى إسلامهم من أىِّ الأجناس . ولم يخصص منهم نوعاً دون نوع ، فكلٌّ لاحق بهم فهو من الآخرين الذين لم يكونوا فى عداد الأولين الذين كان رسول الله يتلو عليهم آيات الله[1] .

وهذه الآية معجزة من معجزات القرآن لأنها تُنبئنا أن الإسلام سينتشر ولن يقف مدُّه عند حدود العرب فقط ، بل سيشمل الجميع وستتسع رقعة الإسلام شرقاً وغرباً .

فقوله سبحانه ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ.. (٣) ﴾ [الجمعة] أى : لم يجيئوا بعد وسيجيئون .

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ.. (٣٩) ﴾ [يونس] أى : لم يعرفوا بمراميه وبمجرد أنْ سمعوا عن رسالته ﷺ فجأة اتهموه بالكذب والعياذ بالله .

فهؤلاء القوم قد كذّبوا من قبل أنْ يأتى لهم التأويل ، كذلك ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ.. (٣) ﴾ [الجمعة] أى ممَّنْ آمن وأسلم ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ.. (٣) ﴾ [الجمعة] أى: لم يأتوا بعد وسيأتون .

ومن أدوات النفى (لم) مثل قولنا : « لم يجيء فلان » ، ونقول أيضاً : لما يجيء فلان ، والنفى فى الأولى جزم غير متصل بالحاضر ، كأنه لم يأتِ بالأمس .

أما النفى بـ (لما) فيعنى أن المجيء مُنتفٍ إلى ساعة الكلام أى الحاضر ، وقد يأتى من بعد ذلك لأن (لما) تفيد النفى وتفيد توقّع الإثبات .

والحق سبحانه يقول عن الأعراب ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن

(١) قاله الطبرى فى تفسيره للآية [الجمعة ٣] [المجلد ٢٢ / ٦٣١] طبعة دار هجر القاهرة .

قُولُوا أَسْلَمْنَا.. (١٤) ﴾ [الحجرات] فهم لم يؤمنوا ، وحين سمعوا قول الله بعده ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ.. (١٤) ﴾ [الحجرات] قالوا : الحمد لله لأن معنى ذلك أن الإيمانَ سوف يدخل قلوبهم .

وكذلك قول الحق سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴾ [آل عمران]

فحين سمعوا ذلك قالوا : إذن وثقنا أنه سيأتى علم الله سبحانه بنا كمجاهدين وصابرين ، وهكذا نعرف أنَّ (لما) تعنى أن المنفى بها متوقّع الحدوث .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.. (٣) ﴾ [الجمعة] وقد ناسب هنا الإتيان باسم الله (العزيز) فالعزة الغلبة . والآية تُحدّثنا عن نصرة الإسلام وظهوره على الدين كله واتساع رقعته وغلبته ، فناسب هذا أنه سبحانه عزيز .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر] وهو مع عزته وغلبته وقوته ونصره للمؤمنين به على أعدائهم هو أيضاً (الحكيم) ، والحكمة وضع الشيء فى مكانه وموضعه ليؤدى مهمته ، فهو سبحانه يصنع كل شيء بحكمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾

(ذلك) كلمة تتكوَّن من اسم الإشارة (ذا) ثم اللام التى للبُعْد ، ثم (ك) التى للخطاب . واسم الإشارة هنا إنما يشير إلى ما جاء فى الآيات قبل ، وهو قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ.. (٢) ﴾ [الجمعة]

فاسم الإشارة (ذَا) يشير إلى نبوّة رسول الله ﷺ ، فنُبوته فضل تفضَّل به الله على محمد أولاً ثم على أمته ﴿ بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ.. (٢) ﴾ [الجمعة] ثم على العالمين ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ.. (٣) ﴾ [الجمعة]

والفضل هو الأمر الزائد عن حاجتك الضرورية ، ولذلك يقول رسول الله ﷺ: « مَنْ كان معه فضْل ظهر فليعُدْ به على مَنْ لا ظهر له ، ومَنْ كان معه فضْل زاد فليعُدْ به على مَنْ لا زاد له »[1] .

وفضْل مال أى مال زائد على حاجته ، هذا عن الفضل بالنسبة للبشر ، أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فإنّ كل ما فى الكون الآن وفى الآخرة هو فضل الله لأنه زائدٌ على حاجته ، فالله غير محتاج لخلْقه ، ولا لكلِّ نعمه التى سبقتْ والتى ستأتى .

والفضْل هنا هو نُبوة محمد ، وقد اعترض الكفارُ على نزول القرآن على محمد ﷺ وقالوا :﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

لذلك ردّ عليهم الحق سبحانه ، فقال : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا[2] وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾ [الزخرف]

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٦٥) وابن حبان فى صحيحه (٥٤١٩) وأبو يعلى فى مسنده (١٠٦٤) ولفظ الحديث : بينما نحن مع رسول الله فى سفر إذ جاء رجل على ناقة له فجعل يصرفها يميناً وشمالاً . فقال رسول الله : « من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » حتى ظننا أنه لا حقَّ لأحد منا فى الفضل . ومعنى يصرف راحلته أنه كان يريد أن يتصدق عليه أحد ، وفطن رسول الله لهذا ، فكان هذا الحديث .

(٢) سخرياً : فيها قراءتان (سخريا) بضم السين ، ومعناها : يستخدم الأغنياء الفقراء بأموالهم فيلتئم قوام العالم . و(سِخريا) بكسر السين ومعناها : ليملك بعضهم بعضاً بالأموال فيتخذونهم عبيداً . [زاد المسير لابن الجوزى] .

هم اعترفوا بعظمة القرآن رغم أنهم حاولوا أنْ يجدوا فى القرآن ثغرة فلم يجدوا ، وهم أمة فصاحة وبلاغة ولسان ، ولكن الأمر الذى وقف فى حلوقهم هو أن القرآن نزل على محمد ﷺ ، فقالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ.. (٣١) ﴾ [الزخرف]

الأمر عندهم حسدٌ منهم ، لذلك قال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ.. (٥٤) ﴾ [النساء]

وكلمة الناس تطلق على الإنسان الذى يجمع خصائص متعددة ، والحق سبحانه هنا وصف رسولَ الله ﷺ بالناس ونحو هذا الرجل الذى ذهب للمؤمنين يخبرهم باستعداد المشركين لقتالهم نزل فيه[1] قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ.. (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

إنه إنسان واحد ، ومع ذلك وصفه اللهُ بالناس ، كأنه بتنبيهه للمسلمين يكون قد جمع كلّ صفات الخير التى فى الناس .

والحسد هنا لرسول الله ﷺ ، لأن الحق سبحانه قد اصطفاه واختاره للرسالة ، إنهم يحسدون محمداً أنْ أنزل عليه القرآن ويحسدون الناس أنْ جاءهم محمد .

والحسد لا يتأتّى إلاّ عن قلب حاقد ، قلب متمرد على قسمة الله فى خَلْقه ، لأن الحسد هو أنْ تتمنى زوال نعمة غيرك ، هذا التمنِّى معناه أنك تكره أنْ تكون عند غيرك نعمة ، ولا تكره أنْ يكون عند غيرك نعمة إلا إذا كنتَ متمرداً على مَنْ يعطى النعم .

(١) أخرج ابن جرير الطبرى عن السدى قال : لما ندم أبو سفيان وأصحابه على الرجوع عن رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا : ارجعوا فاستأصلوهم ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب فهزموا فلقوا أعرابياً فجعلوا له جُعلاً فقالوا له : إن لقيت محمداً وأصحابه فأخبرهم أنّا قد جمعنا لهم ، فأخبر الله رسوله ﷺ فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد فلقوا الأعراب فى الطريق فأخبرهم الخبر فقالوا : (حسبنا الله ونعم الوكيل) ثم رجعوا من حمراء الأسد ، فأنزل الله فيهم وفى الأعرابى الذى لقيهم ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ..(١٧٣)﴾ [آل عمران] . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤/١٤٤] .

إنهم حسدوه فى أنْ يأخذ هذا الفضل وهذه النعمة ، حتى اليهود وأهل الكتاب حسدوه فى أنْ يكون نبياً ، ونسُوا أن الله أعطى سيدنا إبراهيم الملْك، وأعطى لداود الملك ، وأعطى لسليمان الملك ، وأعطى ليوسف الملك ، فلماذا الحسد إذن عندما أراد الله سبحانه وتعالى أنْ يكرم الفرع الثانى من إبراهيم ، وهو إسماعيل عليه السلام ؟ .

لقد كرَّم الله سبحانه الفرع الأول فى إسحاق ، وجاء من إسحاق يعقوب ، ومن يعقوب يوسف ، ثم جاء موسى وهارون ثم داود وسليمان ، كلُّ هؤلاء كرِّموا .

وعندما يُكرّم سبحانه الفرع الثانى لإبراهيم وهو ذرية إسماعيل ويرسل منهم رسولاً يحزنون ويقفون هذا الموقف ؟ وينسون أنه ليس لأحد أنْ يختار الرسول ، فالرسول مصطفى من الله .

والحق سبحانه لم يضع مفاتيح الرسالة فى أيدى المشركين أو غيرهم ليوزعوا هم الأمور ويقوموا بتدبير الأمر ، بل هو سبحانه الذى يوزع المواهب فى البشر رزقاً منه ليعتمد كلُّ إنسان على الآخرين فى مواهبهم التى يعجز عنها ، ويعتمد عليها الآخرون فى موهبته التى يعجزون عنها .

ومسألة النبوة هى اصطفاء إلهى يكبر ويسمو على كل مقامات الدنيا ، وقد عبَّر عنها الحق سبحانه بقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] فالرحمة هى عطاءات ألوهية .

وإذا كان المولى سبحانه قد قسم رزقهم فى الأدنى وهو معيشتهم ، فكيف يريدون هم أنْ يتصرَّفوا فى الأعلى ، عليهم أنْ يتأدبوا مع الله سبحانه ، فهو لم يُوكلهم فى اختيار مَنْ يُنزل عليه رحمته ورسالته ، ولكنه سبحانه هو الذى يختار ، فالرسالة رحمة من الله يختص بها مَنْ يشاء من عباده .

﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤) ﴾ [الأنعام] فالرسالة إنما تجىء لتنشر خيراً فى الجميع ، والرسول قد جاء لينشر خيره للآخرين ، وهو نفسه لا ينال من هذا الخير إلا البلاغ به ، ويأمر سيدنا رسول الله قبل أنْ يموت ألاَّ يأخذ أهله الزكاة ، أما ما تركه فقد صار صدقةً للناس[1] .

أى أنه لم ينتفع به فى الدنيا ، لذلك فهو مأمون على الرسالة ، ولم يرد أنْ يأخذ الدنيا ليرثها أهله من بعده ، وقد أراده الله كذلك ليكون خيره لكلِّ الناس .

فالرسالة تكليفٌ والنبوة ليس جزاؤها هنا ، بل مِنْ عظمة الجزاء أنه فى الآخرة ، لذلك لا تقولوا لماذا أرسل محمداً بالتحديد ؟ فإنَّ هذا تدبير الله عز وجل الذى قال : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ .. (٢) ﴾ [يونس]

كيف يتعجبون وقد جئناهم برسول من أنفسهم ، فما كان يصح أنْ يكون أمراً عجيباً لأنه أمر منطقى وطبيعى ، وذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) ﴾ [آل عمران]

وما دام الفضلُ بيد الله فلن تستطيعوا يا أهل المكر بالمسلمين أنْ تخدعوا الناس عن دينهم وعن رسولهم وقرآنهم ، فالفضل حين يؤتيه الله لمَنْ آمن به فلن ينزعه إلا الله .

(١) اجتمع ربيعة بن الحارث وعباس بن عبد المطلب فقالا : والله لو بعثنا هذين الغلامين ، فقال لى وللفضل بن عباس إلى رسول الله ﷺ فأمرهما على هذه الصدقات فأدّيا ما يؤدى الناس وأصابا ما يصيب الناس من المنفعة ، فبينما هما فى ذلك جاء على بن أبى طالب فقال : ماذا تريدان ؟ فأخبراه بالذى أرادا . قال : فلا تفعلا فوالله ما هو بفاعل فقال : لمَ تصنع هذا فما هذا منك إلا نفاسة علينا ، لقد صحبت رسول الله ﷺ ونلت صهره ، فما نفسنا ذلك عليك ... فقلنا : يا رسول الله جئناك لتؤمرنا على هذه الصدقات فنصيب ما يصيب الناس من المنفعة ونؤدى إليك ما يؤدى الناس . قال : فسكت رسول الله ﷺ ورفع رأسه إلى سقفه حتى أردنا أن نكلمه . قال : فأشارت إلينا زينب بنت جحش زوج رسول الله – وقد كانوا فى حجرتها – من وراء حجابها كأنها تنهانا عن كلامه وأقبل . فقال : ألا إن الصدقة لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس . [أخرجه أحمد فى مسنده (١٧٥١٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٣٠)] .

لذلك حينما يقول الحق سبحانه ﴿ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ .. (١٤٠) ﴾ [البقرة] فالسؤال هنا لا يوجد له إلا ردّ واحد ، لأنهم لن يستطيعوا أنْ يقولوا نحن أعلم من الله ، والله لا شكّ أعلم وهذا واقع .

والذى يصطفيه الله ليحمل رسالته إلى الناس إنما يصطفيه لمهمة وتكون مهمته صعبة ، وهو يصطفيه حتى يشيع اصطفاؤه فى الناس ، كأنَّ الله قد خصَّه بالاصطفاء من أجل الناس ومصلحتهم ، سواء أكان هذا الاصطفاء لمكان أم لإنسان أم لزمان ليشيع اصطفاؤه فى كل ما اصْطُفِى عليه .

والاصطفاء من الحق سبحانه يبرئه من كلِّ ما يمكن أنْ يقع فيه نظيره من الاختيارات غير المُرضية ، والحق سبحانه يريده نموذجاً لا يقع منه إلا الخير .

والمثال الكامل على ذلك اصطفاء الحق سبحانه لرسوله محمد ﷺ من أول الأمر وجَعْله لا يفعل إلا السلوك الطيب من أول الأمر ، وذلك حتى يعطينا الرسولُ القدوة الإيمانية فى ثلاث وعشرين سنة هى مدة الرسالة المحمدية .

والحق سبحانه هو الأعلم بمَنْ يصطفى ، ومشيئة الاصطفاء والاجتباء والاختيار إنما تتم بمواصفات الحق سبحانه ، فهو القائل : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

وفضْل الله بإرسال محمد قد أصاب العالمين جميعاً عربهم وعجمهم ، فهو ﷺ كان رحمة للعالمين ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

فالله رحمهم برسول الله وأعطاهم فضْل هذا الدين الخاتم ، فرحمة الله تعالى بمحمد ليستْ رحمةً خاصة به ولا بالعرب ، بل هى رحمة عامة لجميع العالمين ، وهذه منزلة كبيرة عالية .

وقد قال رسول الله ﷺ : « إن الله بعثنى رحمة للعالمين »[١] فقد بُعث رسول الله ليسعد ويُسعد معه قومه والناس أجمعون ، لا ليشقى ويشقى معه الناس .

فقمة رحمة الله للعالمين وفضله أنه سبحانه أرسل محمداً رسولاً خاتماً لا يُستدرك عليه برسول بعده ، لذلك جاءت رسالته الخاتمة متسعة لكلِّ أقضية الحياة التى تعاصرها أنت ويعاصرها مَنْ خلفك إلى يوم القيامة .

والحق سبحانه يختم الآية بقوله : ﴿ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) ﴾ [الجمعة] أى : ذو الفضل الهائل الزائد على حاجته ، لأنه ربما يكون عندى فضل ولكنى أُبقيه لأننى سأحتاج إليه مستقبلاً .

والفضل الحقيقى هو الذى من عند الله ، لذلك فإن الله سبحانه وتعالى هو ذو الفضل العظيم لأنه غير محتاج إلى كلِّ خَلْقه أو كوْنه ، لأن الله سبحانه كان قبل أنْ يوجد شيء وسيكون بعد ألاَّ يوجد شيء ، وهذا ما يُسمَّى بالفضل العظيم .

وحين يُوصف الفضل بأنه عظيم فمعنى ذلك أن هناك فضلاً أقلّ من عظيم ، كما أن هناك فضلاً يعلوه تمييزاً ، ونعلم أن التفاضل موجود عند البشر ، هذا يتفضّل على هذا بطعام أو يتفضّل عليه بملبس ، أو يتفضّل عليه بشراب ، أو يتفضّل عليه بمسكن .

أى : أن هناك أنواعاً متعددة من الفضل ، لكنها لا تُوصف بالعظمة لأن الفضل العظيم يكون من الله تعالى فقط ، لأنه سيؤول إليه كلُّ فضْل من دونه .

فكلُّ فضل هو من الله ومآله مردود إلى الله ، وهذا هو الفضل العظيم ، ونجد أيضاً أن الذى يتفضل على واحد لابد أنه يبغى من وراء هذا الفضل شيئاً مثل

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٧٨٠٣) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه قال نبى الله ﷺ : « إن الله بعثنى رحمة للعالمين وهدى للعالمين » . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢٢٣٦١) والطيالسى فى مسنده (١١٣٤) .

كمال الذات ، وأنه يودّ الحمد والثناء ويبغى راحة نفس .

فالذى يتفضّل إنما يريد شيئاً ، إما كمال مال أو ثناء وإطراء وراحة نفس من مناظر الإيلام التى يراها ، وهذا دليل على أنه يعانى من نقص ما ويريد أنْ يكمله ، فإذا كان اللهُ عز وجل هو صاحب الفضل أعندَ الله نقصٌ فى كمال ؟! لا .

إذن فهذا هو الفضل العظيم ويمنحه لعباده تفضُّلاً منه دون رغبة فى كمال أو ثناء ، وأيضاً فكلُّ فضل من دون الله يتضمن المنّ ، لكن فضْل الله ليس فيه منّ ، وليس فيه ذلة لأحد ، فالحياة نفسها كلّها هبة منه سبحانه .

وكل مظهر من مظاهر وجودك فى الحياة ومظاهر استبقاء حياتك ومظاهر نعيمك كلها إنْ نسبتها فستصل إلى الله ، وكلُّ شيء فى حياتك إنْ سلسلته ستجد أن أيدى المخلوقات من البشر تنتهى عند خَلْق الله وهبه للإنسان ، وهذا هو الفضل العظيم .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) ﴾ [البقرة]

فمن فضْل الله على أمة محمد قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ(١) إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ(٢) أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

فالله يعلم أن الإنسان لا يقوى على الصوم كلّ الوقت عن الشهوة ، فعندما تركك تختان نفسك ثم أنزل لك الترخيص هنا تشعر بفضل الله عليك .

---

(١) الرفث : ما لا يحسُن التصريح به ويكنى به عن الجماع أو الإفضاء إلى النساء . [القاموس القويم ١/ ٢٧٠] . والرفث : الجماع وغيره مما يكون بين الرجل وامرأته يعنى التقبيل والمغازلة ونحوهما مما يكون فى حالة الجماع . [لسان العرب – مادة : رفث] .

(٢) يختانون : أى تخونون أنفسكم وتُعرضوها لعذاب الله وذلك بمباشرة النساء فى ليالى رمضان قبل إباحة الأكل والشرب والمباشرة طول الليل ، فقد كان ذلك التحريم فى أول فرض الصوم ثم أحلّ الله الأكل وغيره من المغرب إلى الفجر [القاموس القويم ١/ ٢٢٥] .

ومن فضل الله عليكم أنه احترم أثر عملكم ونسبه لكم حتى وإن احتاج أخوك فهو سبحانه يقول : ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة] فجعلها الله قرضاً له سبحانه .

فمن فضل الله على الإنسان أنه سبحانه حين يطلب من الإنسان بعضاً من المال المتبقى من حركته فهو يطلبه كقرض ويردّه مضاعفاً بعد ذلك .

ومن فضْل الله تبديل السيئات حسناتٍ ، ومن فضل الله أنه جعل المنهج من عنده للناس جميعاً حتى لا يتبع إنسان إنساناً آخر حتى لا يكون هوى إنسان مسيطراً على مقدرات إنسان آخر ، والحق سبحانه لا هوى له .

ومن فضل الله أنه أخفى غيْب الناس عن الناس ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ .. (١٧٩) ﴾ [آل عمران] فكلُّ إنسان له هزات مع نفسه ، وقد تأتى له فترة يضعف فيها فى شيء من الأشياء ، فلو كان مَنْ حوله يعرفون غيبه لاستغلوا ما علموه من ضعفه .

وإياك أنْ تظن أن عملك هو الذى سيعطيك الجزاء . إنما فضل الله هو الذى سيعطيك الجزاء . يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس] فالفضل هو الذى يُفرح قلب المؤمن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا
كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ
الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥ ﴾

يعطينا الحق سبحانه مثل الذين حُمِّلوا التوراة وهم اليهود ، فهناك صنف يحمل التوراة وهو لا يعرف عنها شيئاً ، فهم حُملوا التوراة ولكنهم لم يحملوها منهجاً وعملاً فكانوا كالحمار .

والحمار لا يستحق الذم لأنه لم يفقه ما فى الأسفار التى يحملها فوق ظهره، ذلك لأن مهمته ليس منها فقه وفهم ما فى الأسفار ، بل مهمته أنْ يحملها فقط وينقلها من مكان لآخر دون أن يفقه ما فيها ولا يعمل بما فيها .

وكأن الحق سبحانه يقول : لا تكونوا مثل الحمار الذى يكتفى من الخير بأنْ يحمله ، ولكن أريد منكم أنْ تحملوا المنهج ، وأنْ تنتفعوا بما يحويه من التشريع .

وقد قال تعالى : ﴿ يَـيَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ .. (١٢) ﴾ [مريم] ويحى من أنبياء بنى إسرائيل . ومعنى ﴿ خُذِ الْكِتَابَ .. (١٢) ﴾ [مريم] أى : التوراة وفيها منهج الله الذى ينظم لهم حركة حياتهم ﴿ بِقُوَّةٍ .. (١٢) ﴾ [مريم] أى : بإخلاص فى حِفْظه وحِرْص على العمل به .

فالعلم السماوى والمنهج الإلهى الذى جاءكم فى التوراة ليس المراد أنْ تعلمه فقط بل ولتعمل به ، وإلا فقد قال تعالى فيهم : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. (٥) ﴾ [الجمعة]

فقد حمّلهم الله التوراة فلم يحملوها ولم يعملوا بها ، وهم حُملوا التوراة فحملوها بمعنى عرفوها وحفظوها فى كتبهم وفى صدورهم ،ولم يحملوها أى لم يؤدوا حَقَّ حملها ولم يعملوا بها .

أما لفظ (التوراة) فبعض العلماء حين يتعرضون للفظ من الألفاظ فهم يحاولون أنْ يجعلوه من اللغة العربية ، ويحاولون أنْ يعثروا له على وزن من

الأوزان العربية ، وأنْ يأتوا له بصفة من الصفات العربية .

فقال بعضهم عن التوراة : إنها (الوَرْى) بسكون الراء ، وكان الناسُ قديماً يُشعلون النار بضرب عود فى عود آخر . ويقولون : الزند قد ورى . أى قد خرجتْ ناره ، وقال بعضهم : إن الإنجيل من النجْل وهو الزيادة .

وأقول لهؤلاء العلماء : لقد نظرتم إلى هذه الألفاظ على أنها ألفاظ عربية ، لكن التوراة لفظ عبرى ، والإنجيل لفظ سريانى أو لفظ يونانى ، وصارت تلك الكلمات عَلَماً على تلك الكتب وجاءت إلى لغتنا .

ولا تظنوا أن القرآن ما دام قد نزل عربياً فكلُّ ألفاظه عربية ، لا ، صحيح أن القرآن عربى ، وصحيح أيضاً أنه قد جاء وهذه الألفاظ دائرة على لسان العرب ، وإذا تم النطق بها يُفهم معناها .

والمثال على ذلك أننا فى العصر الحديث أدخلنا فى اللغة كلمة (بنك) وتكلمنا بها فأصبحت عربية ، لأنها تدور على اللسان العربى ، فمعنى أن القرآن عربى أن الله حينما خاطب العرب خاطبهم بألفاظ يفهمونها وهى دائرة فى ألسنتهم وإنْ لم تكُنْ فى أصلها عربية .

والتوراة هى كتاب اليهود ، وقد ذهب موسى عليه السلام لميقات الله ومعه نقباء[1] قومه ليتلقى المنهج والتوراة ، وعندما عاد موسى بالتوراة وبالألواح وجدوا فى تعاليمها مشقة عليهم ، وقالوا : نحن لا نطبق هذا التكليف وفكَّروا ألاَّ يلتزموا به وألا يقبلوه .

والتكليف هو من الله وهم يقولون : إن الله كلَّفهم ما لا يطيقونه ، مع أن الله

(١) النقباء : جمع نقيب ، وهو الرئيس على من تحته يتعرف أحوالهم وينقب عن احتياجاتهم ويضمن مـ
يُطلب منهم ، فهو نقيب عليهم ، قال تعالى : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا .. (١٢) ﴾ [المائدة] .

جلّ جلاله لا يُكلّف نفساً إلا وُسْعها ، فاليهود عندهم التوراة وهم مع ذلك لا يتبعون كتابهم .

ومثال أنهم لا يتبعون ما جاء فى كتابهم ولا يريدون هذا ويتحايلون للتفلّت من أمر الله لهم باتباع التوراة أنهم كانوا إذا عَرَض لهم أمر أو حُكْم يُحكّمون رسول الله ﷺ فيه .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) ﴾ [المائدة]

فالحق سبحانه يوضح : كيف يأتونك طلباً للحكم منك وعندهم التوراة ، وهم لم يؤمنوا يا محمد بك رسولاً من الله ، فكيف يرضاك مَنْ لم يؤمن بك حكماً ؟

لا بدّ أن فى ذلك مصلحة مناقضة لما فى التوراة ، ولو لم تكن تلك المصلحة مناقضة لنفّذوا الحكم الذى عندهم ، وهم إنما جاءوك طمعاً فى أنْ تعطيهم حكماً فيه شيء من التسهيل ، وظنُّوا والعياذ بالله أنك قد توفر لهم أكل السُّحْت وسماع الكذب .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ .. (٤٣) ﴾ [المائدة]
وهى مسألة عجيبة يجب أنْ يُفطن لها ، لأن عندهم التوراة فيها حكم الله ، فلو أنهم حكّموك فى أمر ليس فى التوراة لكانَ الأمر مقبولاً .

ولكن أنْ يُحكّموك فى أمر موجود فى كتابهم التوراة ، فهذا معناه أنهم رغبوا فى الاحتيال وعدم الالتزام بما أنزله الله لهم فى التوراة . وقد استحفظ اللهُ الربانيين والأحبار التوراة ، أى طلب منهم أنْ يحفظوها ، وكان هذا أمراً تكليفياً ، والأمر التكليفى عُرْضة لأنْ يُطاع وعُرْضة لأنْ يُعصى ، واستحفظهم الله التوراة والإنجيل ﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. (١٤) ﴾ [المائدة]

وصار أمر المنهج منسياً وليس على بالهم كثيراً ، لأن الأمر إذا توارد على البال واستقرّ دائماً فى بؤرة الشعور يَظل فى الذهن ، لكن النسيان يأتى عندما يكون الأمرُ بعيداً عن البال .

والحق سبحانه طلب منهم أنْ يحفظوا المنهج ولكنهم ما عدا النبيين لم ينفذوا، وكلّ أمر تكليفى يدخل فى دائرة الاختيار ، ولذلك نجد أن الأحبار والربانيين قد نسُوا وما لم ينسُوه كتموه ، وأول مرحلة من مراحل عدم الحفظ أنهم نسُوا ، والمرحلة الثانية هى كتمان ما لم ينسوه ، والثالثة هى ما لم يكتموه حرّفوه ولووا به ألسنتهم .

ويا ليتهم اقتصروا على هذه المراحل فقط ، ولكنهم جاءوا بأشياء وقالوا : هى من عند الله . وهى ليست من عند الله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ .. (٧٩) ﴾ [البقرة]

إذن : فالحفظ منهم لم يتم ، لذلك لم يدع الله القرآن للحفظ بطريق التكليف، لأنه سبحانه اختبر البشر من قبل ولأنه سبحانه أراد القرآن معجزةً باقية لذلك لم يكلْ الحق سبحانه أمر حفْظه إلى الخَلْق ، ولكنه تكفَّل سبحانه بأمر حفْظ القرآن ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

والحق سبحانه يضرب لنا المثل ليقرِّب لنا الشيء المعنوى فيمثله بأمر حِسىّ نراه ونلمسه بأيدينا ، فحمْل التوراة ليس المقصود به حَمْله حِسْياً فعلاً ، وإلا أصبح على كلِّ يهودى أنْ يحملَ كتاب التوراة فى يده أو بأىّ طريقة أخرى .

ولكن المقصود هو الحمل المعنوى أى العمل بالتوراة والأخذ بمنهج الله ، فهم طُلب منهم الالتزام بالتوراة وأحكامها ، ولكنهم لم يلتزموا بل تحايلوا على الانفلات من أحكامها بدعوى أنها شاقة .

حتى أنهم لم يلتزموا إلا بعد رفع جبل الطور فوق رؤوسهم ، وهذا يحكيه لنا الحق سبحانه فيقول : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا[1] الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) ﴾ [الأعراف]

أى : خذوا ما آتاكم فى الكتاب بجدٍّ واجتهاد فى الواقع العملى والواقع القيمى ، ولا تأخذوا التكليف بتخاذل ، والإنسانُ عادة يأخذ بقوة ما هو نافع له ، ولذلك فطبيعة مناهج الله أنْ تُؤخذ بقوة وبيقين لتعطى خيراً كثيراً بقوة ويقين .

وإذا أخذتَ منهج الله بقوة فقد أؤتمنتَ عليه وصدرك قد انشرح ، وتريد أنْ تأخذ أكثر .

فهم لم يستجيبوا لأمر الله إلا بعد أنْ رفع الله الجبل فوق رؤوسهم ، فهم لا يرضخون إلا بالآيات المادية ، لذلك رفع الله فوقهم الجبل ، فإما أنْ يأخذوا ما آتاهم الله بقوة ، ويُنفذوا المطلوب منهم ، وإما أنْ ينطبق عليهم الجبل .

حتى أن القرآن عابَ عليهم كيفية تنفيذهم لأمره لهم بذبح بقرة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً.. (٦٧) ﴾ [البقرة]

فالله أعطى الأمر أولاً ليختبر قوة إيمان بنى إسرائيل ومدى قيامهم بتنفيذ التكليف دون تلكؤ أو تمهل ، ولكنهم بدلاً من أنْ يفعلوا ذلك أخذوا فى المساومة والتباطؤ .

فلو أن إنساناً يعقل أدنى عقل ثم يُطلب منه أنْ يذبح بقرة ، أهذه تحتاج إلى

(١) نتقنا الجبل : زعزعناه ورفعناه . والنتق : الزعزعة والهز والجذب والنفض . ونتق الشيء : جذبه واقتلعه . قال الفراء : كان نتق الجبل أنه قُطع منه شيء على قدر عسكر موسى فأظلّ عليهم قال لهم موسى : إما أن تقبلوا التوراة ، وإما أن يسقط عليكم . [لسان العرب – مادة : نتق] .

إيضاح ؟ لو كانوا ذبحوا بقرة أى بقرة لكان كلّ شيء قد تم دون أيِّ جهد ، فما دام الله قد طلب منهم أنْ يذبحوا بقرة ، فكلّ ما عليهم هو التنفيذ .

ولكن انظر إلى الغباء حتى فى السؤال ، إنهم يريدون أنْ يفعلوا أىّ شيء لإبطال التكليف ، فهم أُمروا بالتكليف ولكنهم لم يعجبهم التنفيذ ، ولم يكُنْ موافقاً لهواهم .

وتعاليم الله ومنهجه بالنسبة لهم ما هى إلا أسفار وكتب ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا.. (٩١) ﴾ [الأنعام]

فالكتاب هنا هو الكتاب الذى أنزله الله على موسى وهو التوراة ، وقد جعلوه قراطيس أى جعلوه أوراقاً منفصلة يُظهِرون منها ما يريدون ويُخفون منها ما لا يريدون ، مثلما فعلوا فى مسألة الرجم كعقاب للزنا .

وذلك أن اثنين من يهود خيبر ، رجل وامرأة زَنَيا ، وكان الاثنان من أشراف القوم وأراد قومهما ألاَّ يُبرزوا حكم الله الذى جاء بالتوراة وهو الرجْم ، فاحتالوا حيلة وهى أنْ يذهبوا إلى رسول الله .

إن مجرد ذهابهم إلى رسول الله يعطينا فكرة عنهم ، لقد كانوا يريدون حُكماً مخفّفاً غير الرجم ، إنهم أرادوا أنْ يستنقذوا الزانيين من حكم الرجم لأنهما من أشراف خيبر ، فذهبوا ومعهم الأحبار الذين يريدون أنْ يلووا حكم الله السابق نزوله فى التوراة وهو الرجم .

وعندما دخلوا على رسول الله كان هناك أحدهم يسمى عبد الله بن صوريا[1]

(١) عبد الله بن صوريا : كان من بنى ثعلبة بن الفطيون ، وقد كان أعور ، ولم يكن بالحجاز فى زمانه أحد أعلم بالتوراة منه [الروض الأنف للسهيلى] وهناك اختلاف فى إسلامه [الإصابة فى تمييز الصحابة – ابن حجر العسقلانى – ترجمة (٤٧٨٢)] .

فقال لهم رسول الله ﷺ : أيُّكم أعلم بالتوراة ؟ فأشاروا إليه ، فأعطوه التوراة وقالوا : اقرأ فجلس عبد الله بن صوريا يقرأ ، فلما مَرَّ على آية الرجم وضع كفَّه عليها ليُخفيه وقرأ غيرها .

وكان عبد الله بن سلام حاضراً فقال : يا رسول الله أما رأيته قد ستر بكفِّه آية وقرأ ما بعدها ؟ وزحزح ابن سلام كفَّ الرجل وقرأ هو فإذا هى آية الرجم[1] .

والحق سبحانه عندما يعطينا المثل بالحمار أو الكلب ليس هذا تحقيراً للحمار أو الكلب ، فالحق سبحانه عندما يُمثِّل الذين حُمِّلوا التوراة ولكنهم لم يحملوها ولم يلتزموا بها ولا بتكاليف الله ومنهجه وهو شيء سيء ، فليس معنى هذا أن هذا تحقير للحمار .

وكذلك عندما قال الحق سبحانه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) ﴾ [الأعراف]

فالحَمْل على الكلب ، فأنت حين تجلس ويقبل الكلب عليك وتزجره وتطرده

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٢٨٠) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاؤوا إلى النبى ﷺ برجل منهم وامرأة وقد زنيا ، فقال لهم : كيف تفعلون بمن زنى منكم ؟ قالوا : نحممهما ونضربهما . فقال : لا تجدون فى التوراة الرجم . فقالوا : لا نجد فيها شيئاً . فقال لهم عبد الله بن سلام: كذبتم . فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ، فوضع مدراسها الذى يدرسها (وهو عبد الله ابن صوريا) منهم كفَّه على آية الرجم فنزع يده عن آية الرجم ، فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم فنزع يده عن آية الرجم فقال : ما هذه ؟ فلما رأوا ذلك قالوا : هى آية الرجم فأمر بهما فرُجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد فرأيت صاحبها يجنأ عليها يقيها الحجارة .

وتنهره ، فهذا تفسير لقوله « تحمل عليه » أى أنك تحمل عليه طرْداً أو زجْراً لذلك يلهث ، وإنْ تركتَ الكلب دون حمل عليه طرداً أو زجراً فهو يلهث ، لأن طبيعته أنه لاهث دائماً ، وهذه الخاصية فى الكلب وحده ، حيث يتنفس دائماً بسرعة مع إخراج لسانه .

والحيوانات لا تفعل مثل هذه المسألة إلا إذا كانت جائعة أو متعبة أو مهاجمة ، لكن الكلب وحده هو الذى يفعلها جائعاً أو شبعان ، عطشان أو غير عطشان ، مزجوراً أو غير مزجور إنه يلهث دائماً .

ولكن لماذا يُشبِّهه سبحانه بالكلب اللاهث ؟ فالذى ينسلخ من آيات الله ، ولاحظ أنه يتشابه مع الذى حُمِّل كتاب الله ولكنه لم يحمله ، ولم يُؤدِّ ما عليه فيه ، فالذى يظهر بهذه الصورة تجده مكروهاً دائماً لأنه مُتبِّع لهواه وتتحكَّم فيه شهواته .

وحين تتحقق له شهوة الآن يتساءل : هل سيفعل مثلها غداً ؟ وتتملك الشهوةُ كلَّ وقته ، لذلك يعيش فى كرْب مستمر لأنه يخاف أنْ يفوته النعيم أو أنْ يفوت هو النعيم ، ويصير حاله كحال الكلب يلهث آمناً أو غير آمن ، جائعاً أو غير جائع ، عطشان أو غير عطشان .

وكما قال الحق سبحانه عن الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الجمعة] قال أيضاً عمَّن انسلخ من آيات الله ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (١٧٦) ﴾ [الأعراف]

والذين كذَّبوا بآيات الله هم الكافرون وهم المشركون وهم الذين يرفضون

الإسلام ، ويحاربون الدين ، وهؤلاء جميعاً حدَّد الله لنا مصيرهم .

والذين كذَّبوا بآيات الله هم إما مَنْ كذَّب الرسول فى الآيات الدالة على صدقه ، وهو المبلِّغ عن الله ، وهؤلاء دخلوا فى دائرة الكفر ، وإما هم الذين كذَّبوا بآيات المنهج فلم يستخدموا المنهج على أصوله وانحرفوا عن الطريق المستقيم والطريق السَّوى .

هم إذن كذّبوا بآيات الله وكذَّبوا باليوم الآخر ولم يعملوا وفْق منهج الإيمان، فلهم جزاء وعقاب من الحق الذى أنزل هذا المنهج ، ولكنهم أعرضوا عنه وكذَّبوه .

والذين كذَّبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بإله ويؤمنون برسول ، ولكن لا يؤمنون بما أُنزل على رسول الله ﷺ .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) ﴾ [الجمعة] فالمطرودون من هداية الله فى المعونة على الإيمان هم الظالمون ، وهو سبحانه منع إعانته للهداية عن ثلاثة أنواع من الناس ، الكافرين والظالمين والفاسقين .

ولكن هل هو سبحانه منع معونة الهداية أولاً ؟ أم أنهم هم الذين ارتكبوا من الضلال ما جعلهم لا يستحقون هداية الله ؟

هم الذين رفضوا حَمْل أمانة الله فى الكتاب الذى أُنزل عليهم ، ورفضوا الالتزام بمنهج الله وبما جاء به أنبياؤهم من عند الله ، وكانوا كالحمار يحمل أسفاراً وكتباً لا يفهم ممّا فيها شيئاً ، فهكذا هؤلاء أغلقوا قلوبهم عن فَهْم ما يطلبه الله منهم أنْ يلتزموا به .

لذلك لم يستحقوا هداية الله وتوفيقه وإعانته لهم على الإيمان وعلى حُسْن

الإيمان بالله وبرسالاته وأخْذ الكتاب الذى أُنزل عليهم بقوة وعزيمة وحُسْن إقبال .

والحق سبحانه يختم الآية بقوله ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .. (٥) ﴾ [الجمعة] لا يهديهم إلى برهان ولا إلى دليل ولا إلى حجة ، لأن وليَّهم الشيطان .

ونعرف أن الظلم هو نقل حَقٍّ إلى غير صاحبه ، وأعلى مراتب الظلم هو الشرك بالله ، وهو الظلم العظيم ، والسبب فى عدم هدايتهم هو ظلمهم .

فظلمهم هو الذى يمنعهم من الهداية ، والحق سبحانه جعل للعبد أنْ يختار الهداية أو أن يختار الضلال ، وما يفعله العبد ويختاره لا يفعله قَهْراً عن الله، لأنه سبحانه لو لم يخلق كُلاً منا مختاراً لما استطاع الإنسانُ أنْ يفعل غير مراد الله .

ولكنه خلق الإنسان مختاراً ، وساعة ما تختار – أيها الإنسان– الهداية أو تختار الضلال فهذا ما منحه اللهُ لك ، وسبحانه قد بيَّن أنَّ الذى يظلم والذى يفسق هو أهْلٌ لأنْ يُعينه الله على ضلاله ، تماماً كما يعين مَنْ يختار الهداية ، لأنه أهْلٌ أنْ يُعينه الله على الهداية .

فعدم وجود الخير بدأ من ناحيتهم ، وسبحانه القائل : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة] فهم إذن سبقوا بالكفر فلم يَهْدهم الله .

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة] وهم سبقوا بالظلم فلم يهدهم الله سبحانه وتعالى القائل ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة] وهم سبقوا بالفسق فلم يهدهم الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ ﴾

النداء لونٌ من ألوان الأساليب الكلامية ، والبلاغيون يُقسِّمون الكلام إلى خبر ، وهو أنْ تخبر عن شيء بكلام يحتمل الصدق والكذب . وإنشاء وهو أنْ تطلب بكلامك شيئاً ، والإنشاء قوْل لا يحتمل الصدق أو الكذب .

والنداء من الإنشاء ، لأنك تريد أنْ تنشىء شيئاً من عندك ، فلو قلت : يا محمد فأنت تريد أنْ تنشيء إقبالاً عليك ، فالنداء إذن طلب الإقبال عليك .

وقد تنوَّع النداء فى القرآن الكريم تنوعاً كبيراً ، منه ما هو نداء من الله عز وجل إلى خمسة عشر صنفاً من الناس والجمادات وغيرها ، ومنه ما هو نداء من الرسل لأقوامهم[1] ، ومنه ما هو نداء من الأمم والأقوام لرسلها[2] ، ومنه ما هو نداءٌ من وإلى الملائكة ، ومنه أنواع أخرى كثيرة من النداءات .

---

(١) وهذا كثير فى القرآن ، منه نداء موسى لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ باتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ.. (٥٤) ﴾ [البقرة] ، ومنه نداء نوح لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. (٥٩) ﴾ [الأعراف] ، ومنه نداء هود لقومه : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) ﴾ [الأعراف] ، ومنه نداء صالح لقومه ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾ [الأعراف] ، ومنه قول شعيب لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا .. (٨٨) ﴾ [هود] .

(٢) أما نداء الأمم لرسلها ، فمنها ما نادى به قوم نوح نوحاً ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) ﴾ [الشعراء] . وكذلك هود : ﴿ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) ﴾ [هود] . وكذلك صالح : ﴿ يَٰصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) ﴾ [هود] وكذلك شعيب : ﴿ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ .. (٨٧) ﴾ [هود] .

وأكثر نداء ورد فى القرآن الكريم كان من الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين ، فجاء نداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فى آيات كثيرة جداً تزيد على الثمانين آية ، تخاطب الذين آمنوا بالله وبرسوله ، ولذلك كانت النداءات لهم كلها تأتى وتطلب تكليفات يطالب بها كلّ مَنْ آمن بالمنهج .

والله عز وجل خاطب ونادى المؤمنين مباشرة دون أنْ يقول لمحمد ﷺ (قل) فلم تأت آية نداء للذين آمنوا تبدأ بـ (قُلْ) .

وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ [البقرة] وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) ﴾ [آل عمران]

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) ﴾ [المائدة] وغيرها كثير .

فهو نداء مباشر من الله سبحانه للمؤمنين ، أما عندما خاطب الحق سبحانه الذين هادوا[1] قال : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) ﴾ [الجمعة]

وهو النداء الوحيد الذى جاء بهذه الصيغة للذين هادوا ، ومع هذا جاء مُصدَّراً بقوله (قُل) أى قُل يا محمد ، وهذا يعطى لفتةً أن الله قد غضب عليهم ، وأن هذا إبعادٌ لهم عن أنْ يكونوا أولياء لله ، فضلاً عن أنْ يكونوا أبناءً له وأحباء الله .

فأنت عندما تغضب من أحد بعد أنْ قرَّبته إليك وأحسنتَ إليه وأنعمتَ عليه

---

(١) هادوا : هاد إلى الشيء يهود هَوْداً : رجع إليه وتاب وأناب . [القاموس القويم ٢/٣٠٩] وقال الخليل ابن أحمد فى كتاب (العين) : يقال : نُسبوا إلى يهودا وهو أكبر ولد يعقوب ، وحُولت الذال إلى الدال حين عُربت . [باب الهاء والدال] .

ووقفتَ معه فى محنه وأنقذته من عدوه ، ولكنه تنكَّر لكلٍّ هذا ، حينها لا تخاطبه، وإنْ خاطبتَه جعلتَ بينك وبينه حاجزاً وواسطة تُكلِّمه من خلالها .

والحق سبحانه قد تفضَّل على اليهود بأفضال ، وأنعم عليهم كثيراً ، قال تعالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾ [البقرة]

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ[1] الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٨١) ﴾ [طه]

ولكن بنى إسرائيل لم يرعَوا حَقَّ الله فيما أنعم عليهم به ، بل افتروا على الله الأكاذيب وقتلوا أنبياءهم .

والحق سبحانه عندما يقول : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا .. (٦) ﴾ [الجمعة] يقصد أتباع موسى عليه السلام ، وجاء الاسم من قولهم ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ .. (١٥٦) ﴾ [الأعراف] أى : عُدْنا إليك . فالذين هادوا هم اليهود .

وهاد أى رجع . و (هدنا إليك) أى : رجعنا إليك ، وهذا كلام موسى عن نفسه وعن أخيه وعن القوم الذين عبدوا العجل ثم تابوا .

وتوبتهم كانت حدثاً قاسياً على بنى إسرائيل ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) ﴾ [البقرة]

لقد عبدوا غير الله والأنكى من هذا أنهم عبدوا عجلاً صنعه لهم السامريُّ من

(١) الطور : فى كلام العرب الجبل . وقال الفراء : هو الجبل الذى بمدين الذى كلَّم الله تعالى موسى عليه تكليماً . وقال البغوى فى تفسيره : الطور جبل بين مصر ومدين . ومعنى ﴿ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ .. (٨٠) ﴾ [طه] أى يمين موسى ، وكانت الشجرة فى جانب الجبل عن يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر، قاله الطبرى وغيره فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال .

الذهب الذى أخذوه معهم من مصر بعد أنِ ائتمنهم أهلُ مصر عليه .

وعندما نزل حكم الله بأنْ يقتلوا أنفسهم تكفيراً عن شركهم بالله وقف بنو إسرائيل صفوفاً ، وقال لهم : إن الذى لم يعبد العجل يقتل من عبده ، ولكنهم حين وقفوا للتنفيذ كان الواحد منهم يجد ابن عمه وأخاه وذوى رحمه أمامه فيشقّ عليه التنفيذ ، فرحمهم الله بأنْ بعث ضباباً يسترهم حتى لا يجدوا مشقة فى تنفيذ القتل ، وقيل : إنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألفاً[1] .

وقوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ .. (٥٤) ﴾ [البقرة] لأن هذه الأنفس بشهوتها وعصيانها هى التى جعلتهم يتمردون على المنهج ، إنَّ التشريع هنا بالقتل هو كفارة الذنب ، لأن الذى عبد العجل واتخذ إلهاً آخر غير الله ثم يُقدِّم نفسه ليُقتل يعترف بأن العجل الذى كان يعبده إله باطل .

وهو بذلك يعيد نفسه التى تمردتْ على منهج الله إلى العبادة الصحيحة وهذا أقسى أنواع الكفارة ، وهو أنْ يقتل نفسه إثباتاً لإيمانه بأنه لا إله إلا الله ، وندماً على ما فعل وإعلاناً لذلك ، فكأن القتل هنا شهادةٌ صادقة للعودة إلى الإيمان .

لذلك أصبح ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ .. (١٥٦) ﴾ [الأعراف] دليلاً على وقوعهم فى الشرك الأعظم الذى اقتضى منهم قتْل بعضهم البعض ، وأصبح اسم اليهود دليلاً على هذا الجُرْم الذى محاه قتْل أنفسهم ، ولكنهم لم يكفُّوا عن قتْل الأنبياء والتطاول عليهم ، بل والتطاول على الله عز وجل .

ومن تطاولهم على الله عز وجل أنهم قالوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .. (١٨١) ﴾

(١) قال الزهرى : لما قيل لهم : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ .. (٥٤) ﴾ [البقرة] قاموا صفين وقتل بعضهم بعضاً حتى قيل لهم : كفوا . وقال بعض المفسرين : أرسل الله عليهم ظلاماً ففعلوا ذلك . وقيل: وقف الذين عبدوا العجل صفاً ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم . [أورده القرطبى فى تفسيره ١/ ٤٠١] وقد قال القرطبى : قال أرباب الخواطر : « ذللوها بالطاعات وكفوها عن الشهوات . والصحيح أنه قتل على الحقيقة هنا » .

[آل عمران] وذلك فى قوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ﴾ [آل عمران]

وتروى لنا السيرة أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه دخل بيت المدراس[(١)] فوجد من يهود ناساً كثيرين قد اجتمعوا على رجل منهم يُقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فو الله إنك لتعلم أن محمداً رسولُ الله من عند الله ، قد جاء بالحق من عنده تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل .

فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر إنه إلينا لفقير ، ما نتضرَّع إليه كما يتضرَّع إلينا وإنَّا عنه لأغنياء ، ولو كان عنّا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويُعطينا ، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا .

فغضب أبو بكر رضى الله عنه فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً وقال : والذى نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربْتُ عنقك يا عدو الله فأكذبُونا ما استطعتم إنْ كنتم صادقين .

فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أبصر ما صنع بى صاحبك، فقال رسول الله : ما حملك على ما صنعتَ يا أبا بكر ؟ فقال : يا رسول الله إنَّ عدواً لله قال قولاً عظيماً يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبتُ لله

(١) بيت المدراس : هو الذى يدرسون فيه الكتب ، والمدراس صاحب دراسة كتبهم . [لسان العرب – مادة: درس] . فبيوت المدراس مواضع يتدارس فيها رجال دينهم أحكام شريعتهم وأيامهم الماضية وما جاء فى التوراة والمشنا . فهو إذن مجمع الأحبار والرؤساء وأصحاب الشرف فيهم . [المفصل فى تاريخ العرب] .

مما قال فضربتُ وجهه فجحد فنحاص ذلك ، وقال : ما قلتُ ذلك[(١)] .

فأنزل الله فيما قال فنحاص ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .. (١٨١) ﴾ [آل عمران] هؤلاء لم يفطنوا إلى عظمة الله عز وجل وتطاولوا عليه سبحانه .

ورغم هذا ادعوْا وزعموا أنهم أبناءُ الله وأحباؤه ، قال الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ .. (١٨) ﴾ [المائدة] فيبطل الحق سبحانه زعمهم الباطل فيقول : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ .. (١٨) ﴾ [المائدة]

فلو كنتم أبناءَ الله حقيقةً وأحباءه لكنتم نجوتُم من العذاب على ما ارتكبتموه من ذنوب ، والحقيقة أنكم ﴿ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ .. (١٨) ﴾ [المائدة] وستدخلون فى مشيئة المغفرة ، أو المشيئة المعذّبة .

فهم يتوهمون أنهم مهما فعلوا من ذنوب فإن الله لن يعذبهم يوم القيامة، ولكن عدْلَ الله يأبى ذلك ، كيف يُعذِّب بشراً بذنوبهم ثم لا يعذِّب اليهود بما اقترفوا من ذنوب .

فكلُّ هذا غرور وافتراءات ، حتى أنهم ادعوْا أنهم لن تمسّهم النارُ إلا أياماً معدودات[(٢)] ، وزعموا أيضاً أنه ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى .. (١١١) ﴾ [البقرة]

فاليهود قالوا أنهم سيدخلون الجنة وحدهم ، وقال النصارى نفس القول ،

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٤٦٣٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما . وذكره الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (١/١٢٦) وأخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٨٣٠٠) .

(٢) وهم قصدوا بالأيام المعدودات الأربعون يوماً التى عبدوا فيها العجل ، ثم يُخرجهم ربهم منها . [تفسير الطبرى] وأورد الشوكانى فى تفسيره (فتح القدير) عن مجاهد قال : يعنون الأيام التى خلق الله فيها آدم .

فاحتكرتْ كلُّ طائفة الجنة لنفسها ، وقد ردّ عليهم الحق سبحانه هذه الادعاءات فقال ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ .. (١١١) ﴾ [البقرة]

والأماني هي أنْ تُعلِّق نفسك بأمنية ، وليس لهذه الأمنية سند من الواقع يُوصلك إلى تحقيق هذه الأمنية ، فالأماني هي مطامع الحمقى لأنها لا تتحقق .

ولذلك يقول لهم الحق سبحانه هنا ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا .. (٦) ﴾ [الجمعة] وكأنه سبحانه يُذكِّرهم بما تابوا منه سابقاً ، فلا تتمادوا في ادعاءاتكم ومزاعمكم الباطلة ، فسبق أن أخطأتم ثم هُدْتم إلينا وعُدْتم وتبتم ، فلماذا استمرأتم الافتراء ؟

وها هم يزعمون زعماً آخر ، فيقول لهم الحق سبحانه : ﴿ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ .. (٦) ﴾ [الجمعة]

وأولياء الله تأتي أحياناً بمعنى المعين للعباد المؤمنين فيكون الله وليّ الذين آمنوا ، أي مُعينهم ومُقوّيهم ، وأولياء الله أيضاً هم الذين ينصرون الله فينصرهم الله .

فمرة تُطلق (الولي) ويُراد بها (المعين) ، ومرة أخرى تُطلق كلمة (الولي) ويُراد بها المُعان ، لأنك إنْ كنتَ أنت وليّ الله والله وليّك فإنْ الحق سبحانه معينٌ لك وأنت مُعان .

فكلمة (ولي) من وليه يليه أي : قريب منك ، وهو أول مَفْزع يَفزع إليه إنْ جاءه أمرٌ يحتاج فيه إلى معاونة من غيره ، وإن احتاج إلى نُصْرة فهو ينصره وخيره يفيض على مَنْ والاه .

فالوليّ هو القريب الناصر المعين الموالي ، فإذا كنتم أولياء الله كما تقولون يُواليكم وينصركم ويُفيض عليكم من فضله وخيره مهما ارتكبتم من الذنوب ، ولن تمسّكم النار إلا أياماً معدودات ، وأنه لن يدخل أحدٌ الجنة إلا إذا كان يهودياً ، فلماذا لا تتمنوا الموت ؟

والحق سبحانه يسألهم هذا ، وهو يعلم تمام العلم أنهم لن يتمنوا الموت أبداً ، لأنهم كما قال عنهم في آية أخرى : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) ﴾ [البقرة]

فإنْ كانت الآخرةُ لهم وحدهم عند الله لا يشاركهم فيها أحد ، فكان الواجب عليهم أنْ يتمنوا الموت ليذهبوا إلى نعيم خالد ، فما دامتْ لهم الدار الآخرة ، وما داموا موقنين من دخول الجنة وحدهم ، فما الذي يجعلهم يبقون في الدنيا ؟

ألاَ يتمنون الموت ليدخلوا الجنة ؟

وقد قال لهم رسول الله ﷺ : « إنْ كنتُم في مقالتكم صادقين قولوا اللهم أمتْنا ، فو الذي نفسي بيده لا يقولها رجل منكم إلا غُصَّ بريقه فمات مكانه ، فأبَوْا أنْ يفعلوا وكرهوا ما قال لهم فنزل ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٩٥) ﴾ [البقرة] يعني : عملته أيديهم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) ﴾ [البقرة] إنهم لن يتمنوه فقال رسول الله ﷺ عند نزول هذه الآية : والله لا يتمنونه أبداً[1] .

ولأن زعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس زعمٌ كاذب فهم ليسوا على يقين من دخولهم الجنة فعلاً ، بل قد يكون مصيرهم النار .

وقد قال لهم رسول الله ﷺ : « لو أن اليهود تمنَّوْا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار »[2] .

إنها الحسرة الكبرى أنْ يجدوا أنفسهم من أهل النار ، حينها ينكشف أمرهم

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (١/ ٤٧١) وعزاه للبيهقي في دلائل النبوة ، وهو هناك قال البيهقي: حدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . دلائل النبوة (٦/ ٢٧٤) .
(٢) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٢٢٢٥) عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه . قال ابن عباس : فقال رسول الله : لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم في النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً . وكذا أخرجه البزار في مسنده (٤٨١٤) والنسائي في السنن الكبرى (١٠٩٩٥) وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٢٦٠٤) .

وأنهم ادعوا ادعاءات ليس لها أساس، وقائمة على غرورهم وادعائهم أنهم شعبُ الله المختار.

وهم غير صادقين، ولن يتمنوا الموت أبداً بما قدَّمتْ أيديهم من الذنوب والمعاصى على الاجتراءات على الله، ويعلمون جيداً أنهم سيُحاسبون عليها، لذلك قال تعالى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) ﴾ [البقرة]

والدليل على أنهم لن يتمنوا الموت أبداً أنهم أحرصُ الناس على الحياة، قال تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ .. (٩٦) ﴾ [البقرة]

حتى أنهم حريصون على الحياة حرصاً يفوق حرصَ الذين أشركوا، فالمشرك حريص على الحياة لأنه يعتقد أن الدنيا هى الغاية، واليهود أشدُّ حرصاً على الحياة من المشركين لأنهم يخافون الموت لسوء أعمالهم السابقة.

لذلك كلما طالتْ حياتهم ظنُّوا أنهم بعيدون عن عذاب الآخرة، الحياة لا تجعلهم يُواجهون العذاب، ولذلك فهم يفرحون بها، ولكن لماذا هم حريصون على الحياة أكثر من المشركين؟

إن المشرك لا آخرةَ له، فالدنيا هى كل همِّه وكلّ حياته، لذلك يتمنى أنْ تطول حياتُه بأىِّ ثمن وبأىِّ شكل، لأنه يعتقد أن بعد ذلك لا شيء، ولا يعرف أن بعد ذلك العذابَ، واليهود أحرصُ من المشركين على حياتهم.

حتى أن الحق سبحانه وتعالى يصفهم فيقول: ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ .. (٩٦) ﴾ [البقرة] فهم يحبون أنْ يعيشوا ألف سنة أو أكثر وهم يظنون أن طول أعمارهم وبلوغ الواحد منهم ألف سنة أن هذا سيُنجيهم من العذاب.

ولكن الحق سبحانه يقطع أملهم من هذا، فيقول: ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ .. (٩٦) ﴾ [البقرة] فهَبْ أنه عاش ألفَ سنة أو حتى أكثر من ذلك

أيُزحزحه هذا عن العذاب؟ لا، طول العمر لا يغير النهاية.

فما دامت النهاية هى الموت يتساوى مَنْ عاش سنواتٍ قليلة ومَنْ عاش ألوفَ السنين فلن يهرب من العذاب.

والحرص هو تعلُّق النفس وتعبئة جهوده للاحتفاظ بشيء نرى أنه يجلب لنا نفعاً أو يذهب بضُرٍّ، وهو استمساك يتطلب جهداً.

وقد أعطانا الحق سبحانه مثالاً عملياً على حب اليهود للحياة، حتى أنهم رفضوا نُصْرة موسى عليه السلام ونُصرة الله ودينه، قال موسى لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) ﴾ [المائدة]

ولكنهم قالوا: ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) ﴾ [المائدة] فخلاصة قولهم لموسى عليه السلام: لا تُرهق نفسك ووفّر عليك جهدك، فنحن لن ندخل هذه الأرض ما دام هؤلاء العمالقة[1] فيها، وإنْ كنت مُصراً على دخولنا هذه الأرض فاذهب أنت وربُّك فقاتلا، ونحن بانتظاركما هنا قاعدون.

هكذا بلغ بهم الخوف والحرص على حياتهم أنْ سخروا من موسى وربِّ موسى، إنهم دائماً يعصُون نبيهم موسى عليه السلام بل أنبياءهم جميعاً، وقد قتلوا البعض منهم، ومن عصيانهم لمن جاء بعد موسى عليه السلام أن الله عز وجل قال عنهم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا

(١) العمالقة المقصودون هنا هم القوم الجبارون الذين ذُكروا فى الآية. قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٧٥) أى ذوى خلْقٍ هائلة وقوى شديدة. ومدينة الجبارين هذه هى مدينة أريحا. قاله عكرمة والسدى. قال البغوى (٣/٦٣): كانوا من العمالقة وبقية قوم عاد.

نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

إنهم يخافون الموت حتى لو كان دفاعاً عن أبنائهم وديارهم ، فهم يدَّعون الالتزام بمنهج الله حتى أنهم قالوا لنبى لهم : ﴿ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

ولكنهم عند التنفيذ ﴿ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة] وحتى عندما بعث الله لهم طالوت ملكاً ليقاتل جالوت المتجبر رفضوا هذا ، يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ .. (٢٤٧) ﴾ [البقرة]

إن أعينهم على الدنيا دائماً ومقياسهم للأشياء دائماً دنيوى ، المال والثروة عندهم هو الأساس ، وكذلك عنصريتهم المستمدة من الاعتداد بجاههم وسلطانهم ، ثم ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ .. (٢٤٧) ﴾ [البقرة]

ولكن الله يلفت نظرهم أن مقياسكم خاطىء ، إنما المقياس هو أنه مصطفى من الله ، والله يعلم المصلح من المفسد ، اختاره الله بعلم وحكمة ، ولأن الله اختاره بعلم وحكمة فإنَّ الله يعطينا ويعطى اليهود مسوِّغات تكليف طالوت .

﴿ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ .. (٢٤٧) ﴾ [البقرة] فهو جاء لمهمة تقتضى أنْ يكون قوياً على الحرب والقتال (بسطة فى الجسم)، وأنْ يكون عالماً عليماً حكيماً يقود الأمة بعلم وحكمة (بسطة العلم) .

ولكن لأنهم لا يريدون الآخرة بل يريدون الدنيا تمرَّد الكثير منهم على طالوت، وقد امتحنهم فى طاعته فسقطوا ، يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ

طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ .. (٢٤٩) ﴾ [البقرة]

لقد كان الاختبار فى منعهم مما تصبو إليه نفوسهم ، لأنهم ساعة يرون ما يحبونه ويشتهونه فسيندفعون إليه وينسون أمر الله ، ومَنْ كانت هذه صفته فهو غير مأمون أنْ يكون فى جند الله .

أما الذى يرى الماء ويمتنع عنه وهو فى حاجة إليه فهو صابر قادر على نفسه ، وسيكون من جند الله لأنه آثر مطلوب الله على مطلوب بطنه ، وهو أهْلٌ لأنْ يُبتلى .

فى البداية سبق لهم أنْ تولّوْا وأعرضوا عن القتال إلا قليلاً ، وهنا امتنع عن الشرب قليلٌ من قليل ، وهذه غرابيل الاصطفاء أو مصافى الاختبار .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾

القرآن تحدَّاهم أنْ يتمنوْا الموت ولم ولن يتمنوه أبداً ، وكان الكلام المنطقى أنه ما دامت الدارُ الآخرة خالصةً لهم والله تحداهم أنْ يتمنوا الموت إنْ كانوا صادقين لتمنوه ليذهبوا إلى نعيم أبدى .

ولكن الحق سبحانه حكم مُسْبقاً أن ذلك لن يحدث منهم ، لماذا ؟ لأنهم كاذبون ، ويعلمون أنهم كاذبون ، لذلك فهم يهربون من الموت ولا يتمنونه .

ولكن لماذا قطع الحق سبحانه بأنهم ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا .. (٧) ﴾ [الجمعة] يوضح الحق سبحانه الأمر فيقول : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٧) ﴾ [الجمعة]

أى : أن أعمالهم السيئة تجعلهم يخافون الموت ، أما صاحب الأعمال الصالحة فهو يسعد بالموت ، ولذلك نسمع أن فلاناً حين مات كان وجهه أشبه بالبدر لأن عمله صالح ، فساعة الموت يعرف فيها الإنسانُ يقيناً أنه ميِّت .

وقد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أحب لقاء الله أحبَّ اللهُ لقاءه ، ومَنْ كره لقاء الله كره اللهُ لقاءه . فقالت عائشة – أو بعض أزواجه – إنّا لنكره الموت . قال: ليس ذاك ، ولكن المؤمن إذا حضر الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته ، فليس شيءٌ أحبّ إليه مما أمامه فأحبّ لقاء الله وأحبَّ الله لقاءه .

وإن الكافر إذا حُضر[1] بُشِّر بعذاب الله وعقوبته ، فليس شيءٌ أكره إليه مما أمامه ، كرِهَ لقاءَ الله وكره اللهُ لقاءه »[2] .

فالمهتدون الذين التزموا الطريق الموصِّل للغاية ، والغاية أن تغمرهم صلوات من ربهم ورحمة ، هؤلاء يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ [البقرة]

هؤلاء يحبون لقاءَ الله ويحب اللهُ لقاءهم لأنهم مُقدِمون على خير مما هم فيه من الدنيا ، فتجد علامات البشرى على وجوههم لحظة الاحتضار بما عملوا من الصالحات .

أما الذين أسلموا فى الدنيا وظلموا أنفسهم بالتمرد على منهج الله كهؤلاء اليهود الذين يحفل سجلُهم التاريخى – منذ أنْ كان هناك شعبٌ يهودى –

(١) حُضِر : واحتُضر مبنى للمفعول يقالان فيمن حضره الموت . قاله ابن طريف . وقال برهان الدين الخوارزمى فى (المغرب فى ترتيب المعرب) احتضر : مات لأن الوفاة حضرته أو ملائكة الموت ويقال : فلان محتضر أى قريب من الموت . (٢/٨) .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٧) وأورده ابن الأثير فى جامع الأصول فى أحاديث الرسول (٧٣٦٧) وعزاه للبخارى ومسلم والترمذى والنسائى ، وعند بعضهم اقتصروا على (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) دون زيادة ما قالته عائشة .

يحفل سجلهم بمعصية الله والتحايل على عدم تنفيذ أوامر الله .

هؤلاء تجدهم يكرهون لقاءَ الله لأنهم يدركون ما فعلوه فى الدنيا وما قدَّمَتْ أيْديهم فيخافون من لقاء الله ويودُّون لو لم يكُنْ هناك بَعْثٌ أو حساب .

والإنسان إذا مرض يأمل فى الشفاء ويستبعد الموت ، ولكن ساعة الغرغرة يتأكد الإنسان أنه ميت ويستعرض حياته فى شريط عاجل ، فإنْ كان عمله صالحاً تنبسط أساريره ويفرح لأنه سينعم فى الآخرة نعيماً خالداً ، لأنه فى هذه الساعة – والروح تغادر الجسد – يعرف الإنسانُ مصيره ، إما إلى الجنة وإما إلى النار .

وتتسلَّمه إما ملائكة الرحمة وإما ملائكة العذاب ، فالذى أطاع الله يستبشر بملائكة الرحمة ، والذى عصى وفعل ما يُغضب الله يستعرض شريط أعماله ، فيجده شريطَ سوء وهو مُقْبِل على الله ، وليست هناك فرصة للتوبة أو لتغيير أعماله .

عندما يرى مصيره إلى النار تنقبض أساريره وتُقبض روحه على هذه الهيئة، فيقال : مات فلان وهو أسود الوجه منقبض الأسارير . إذن : فالذى أساءَ فى دُنياه لا يتمنى الموتَ أبداً ، أما صاحب العمل الصالح فإنه يستبشر بلقاء الله .

وقد يسأل سائلٌ : الله يطلب منهم أنْ يتمنوا الموت ، كيف ورسول الله ﷺ نهى عن تمنِّى الموت فقال : « لا يتمنينَّ أحدكم الموتَ ولا يدعو به من قبْل أنْ يأتيه إلا أنْ يكون قد وثق بعمله »[1] .

نقول : إنَّ تمنى الموت المنهى عنه هو تمنِّى اليأس وتمنِّى الاحتجاج على المصائب، يعنى يتمنى الموت لأنه لا يستطيع أنْ يتحمل قَدَرَ الله فى مصيبة حدثتْ له .. أو يتمناه احتجاجاً على أقدار الله فى حياته ، هذا هو تمنِّى الموت المنهيّ عنه .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٨٥٩٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . بهذا اللفظ وتمامه : «فإنه إن مات أحدكم انقطع عنه عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً » . قال شعيب الأرناؤوط : صحيح دون قوله « إلا أن يكون قد وثق بعمله » فإنها زيادة منكرة . وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٧٥٧٠) : « فيه ابن لهيعة وهو مدلس وفيه ضعف وقد وُثِّق وبقية رجاله رجال الصحيح » .

أما صاحب العمل الصالح فمستحبٌّ له أن يتمنى لقاء الله ، واقرأ قوله تعالى فى آخر سورة يوسف : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف] ثم قال ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف]

وقوْل رسول الله ﷺ أى : لا تتمنوا الموت جزعاً مما يصيبكم من قدر الله ، ولكن اصبروا على قدر الله .

وقد ورد الحديث الشريف الذى يُرشدنا إذا ضاقتْ بنا الحياة ألاَّ نتمنى الموت، بل نقول : « اللهم أحْينى ما كانت الحياةُ خيراً لى ، وتوفَّنى ما كانت الوفاةُ خيراً لى »[1] .

وقُلنا : إنَّ تمنى الموت المنهيّ عنه ما كان فيه اعتراضٌ على قدر الله وتمرّد على إرادته سبحانه ، كأن تكره الحياة والعيش إذا ضاقَ بك فتتمنَّى الموت ، أما أنْ تتمنى الموت لعلمك أنك ستصير إلى خير مما تركتَ فهذا أمر آخر .

ومَنْ يَعْصِ الله ويتمرَّد على أمره لا يتمنى الموت بما قدَّمت يداه ، ولكن هل معنى ذلك أن كل المعاصى من تقديم اليد فقط ؟ إن هناك معصيةً للعين ، ومعصية للسان ، ومعصية للرِّجْل ، ومعصية للقلب ، ولا حصرَ للمعاصى .

فلماذا إذن قال الحق سبحانه ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٧) ﴾ [الجمعة] قال الحق ذلك لأن الأعمال الظاهرة تُمارس عادة باليد ، فاليد هى الجارحة التى نفعل بها أكثر أمورنا ، وعلى ذلك يكون قوْل الحق ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٧) ﴾ [الجمعة] مقصودٌ به بما قدَّموا ، بأيِّ جارحة من الجوارح .

(1) أخرج البخارى فى صحيحه من حديث أنس بن مالك (٦٣٥١) قال قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحد منكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنياً الموت فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » . وكذا أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٩٩٠) .

فالذنوب إما أقوال وإما أفعال وإما عمل من أعمال القلب ، كالحقد مثلاً أو النفاق .. إلخ لكن فى الغالب ما تُزاول بالأيدى .

ولكن ما الذى قدَّمته أيدى اليهود ، وبسبب ما قدمته أيديهم لنْ يتمنوا الموت لأنهم يخافون من عقابهم الأبدى ، على ما قدَّموه ؟

فمما قدَّمته أيديهم عبادتهم العجل ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) ﴾ [الأعراف]

لقد احتالوا على أهل مصر وأخذوا منهم الحُليّ كسُلْفة سيردُّونها من بعد ذلك، ثم جاء رحيلهم فأخذوا الحُلىَّ معهم ، وغرق قوم فرعون وبقيتْ الحُلىُّ مع قوم موسى ، وصنع موسى السامرى من ذهب هذه الحُلىِّ عجلاً .

وقد صنعه من الذهب وكأنه يريد أنْ يتميز عن الآلهة التى كانت من الأحجار، وحاول أنْ يجعله إلهاً نفيساً فصنعه من الحلى المسروقة .

لقد اتخذوا العجل بعد أنْ أتمَّ الله عليهم المنَّة العظيمة حين أنجاهم من فرعون وجنوده ، بل أغرق فرعون وجنوده وحاشيته .

وحدث أنه بعد أنْ جاوز الحقُّ سبحانه ببنى إسرائيل البحر ومرُّوا على قوم يعبدون الأصنام ، فقالوا لموسى عليه السلام : ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ..(١٣٨) ﴾ [الأعراف]

لقد قالوا ذلك وهم ما زالوا مغمورين فى نِعَم الله إنجاءً من عدو واستخلافاً فى الأرض ، ومع ذلك فبمجرد أنْ خرجوا إلى البَرِّ ورأوا جماعة يعبدون صنماً طالبوا موسى أنْ يجعل لهم صنماً يعبدونه .

لذلك توعدهم الحقُّ سبحانه فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ

مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) ﴾ [الأعراف]

وقد نالهم الغضب من ربهم ونالتهم الذلّة والخزى فى الحياة الدنيا بأنْ أمرهم بأنْ يقتلوا أنفسهم إنْ كانوا من التائبين ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) ﴾ [البقرة]

وهذه مخالفة خطيرة لمنهج الله ، وهى مخالفة فى القمة ، فى عبادة الله وحده .

ومما قدَّمتْ أيديهم أنهم طلبوا رؤية الله جَهْرة فهم لم يؤمنوا حقيقة ، إنما هم مؤمنون بالمادة المحسَّة المرئية لهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) ﴾ [البقرة]

فبعد أنْ تاب الله على قوم موسى بعد عبادتهم للعجل عادوا مرة أخرى إلى عنادهم وماديتهم ، فهم كانوا يريدون إلهاً مادياً ، إلهاً يرونه ، ولكن الإله من عظمته أنه غَيْب لا تدركه الأبصار .

إنهم يطلبون رؤية جهرية واضحة يدركونها بحواسِّهم ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، بسبب اجترائهم هذا ، فأنت عندما ترى شيئاً بعينيك تكون قد حدّدته فى حيِّز ، وهذا لا يجوز على الحق سبحانه .

وقد قدَّمت أيديهم أربعة جرائم أخرى ارتكبوها ويرتكبونها ، يقول الحق سبحانه : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ[1] بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) ﴾ [النساء]

هذه أربع جرائم ما زالوا يرتكبونها وهم قائمون عليها ، لذلك عبَّر الحق

(١) غلف : قال ابن عباس : غلف : مملوءة علماً لا تحتاج إلى علم محمد ﷺ ولا غيره [الدر المنثور للسيوطى ١/ ٤٦٠] ومن قوله أيضاً : فى غطاء ، فى أكنة ، هى القلوب المطبوع عليها ، عليها غشاوة . ذكره مجاهد . وقال قتادة : لا تفقه .

سبحانه بذكر الاسم لا الفعل ، فقال (نقضهم) (كفرهم) (قتلهم الأنبياء) (قولهم قلوبنا غلف) .

فالاسم يفيد الديمومة والاستمرار بعكس الفعل الذى يُعبر عن زمن ويكون محدوداً بصيغته .

فهم مستمرون على نَقْض المواثيق والعهود ، ومستمرون على كفرهم بآيات الله سواء التى نزلتْ فى التوراة تُبشر برسول الله ، أو آيات القرآن الكريم الذين طُولبوا بالإيمان به فرفضوا ، وقد ذهبوا بعيداً فى الاجتراء على الله فقتلوا أنبياءه .

ومما قدَّمته أيديهم أنهم كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يدَّعون أنه من عند الله ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ [البقرة]

فالله سبحانه يريد هنا أنْ يُبين لنا مدى تعمد هؤلاء للإثم ، فهم لا يكتفون مثلاً بأنْ يقولوا لغيرهم : اكتبوا ، ولكن لاهتمامهم بتزييف كلام الله سبحانه وتزويره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا أن الأمر قد تمَّ كما يريدون تماماً .

فليستْ المسألة نزوة عابرة أو أمراً عارضاً ، بل هو مع سَبْق الإصرار والترصُّد ، لذلك استحقُّوا عقابَ الله ، وقد بدأت الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ .. (٧٩) ﴾ [البقرة] ثم جاء قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ [البقرة]

فساعة الكتابة لها ويل وعذاب ، وساعة بيْع الصفقة لها ويل وعذاب ، والذى يكسبونه هو ويل وعذاب .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ [البقرة] ومن اشترائهم الضلالة بالهدى أولئك الذين نزل فيهم قول الله

عز وجل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا .. (٧٧) ﴾ [آل عمران]

فواقعة الحال التى نزلت فيها الآية هى أن جماعة فى عهد جدب ومجاعة دخلت على كعب بن الأشرف[١] اليهودى يطلبون منه الميرة أى الطعام والكسوة، فقال لهم : هل تعلمون أن هذا الرجل رسولُ الله ؟ قالوا : نعم . قال : إنِّى هممتُ أَنْ أطعمكم وأَنْ أكسوكم ، ولكن الله حَرَمكم خيراً كثيراً ، وتساءلوا : لماذا حرمنا اللهُ خيراً كثيراً ؟

وجاءتهم الإجابة : لقد أعلنتم الإيمان بمحمد : فلما وجدوا أنفسهم فى هذا الموقف قالوا لكعب بن الأشرف : دَعْنا فترة لأنه ربما غلبتْنا شبهة فلنراجع فيها أنفسنا .

وبعدما مرَّتْ الفترة فضَّلوا الطعام والكسوة على الإيمان، وقالوا لكعب ابن الأشرف : لقد قرأنا فى كتبنا الموجودة لدينا خطأ ، ومحمد ليس رسولاً فأعطاهم كعبٌ القوتَ والكسْوة[٢] .

فهل تظنون أن أناساً كهؤلاء من الممكن أنْ يتمنوا الموت ؟ أولئك الذين يقول الله فيهم ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا

(١) كعب بن الأشرف : رجل من نبهان من طيىء وأمه من بنى النضير . كنيته أبو نائلة . كان أبوه قد أصاب دماً فى الجاهلية فقدم المدينة وحالف يهود بنى النضير وتزوج عقيلة بنت أبى الحقيق فولدت له كعباً ، وكان شاعراً ناصب الإسلام العداء .

(٢) أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (١٠٦/١) من قول الكلبى : إن ناساً من علماء اليهود أولى فاقة أصابتهم سنة فاقتحموا إلى كعب بن الأشرف بالمدينة فسألهم كعب : هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله فى كتابكم ؟ قالوا : نعم وما تعلمه أنت ؟ قال : لا فقالوا : فإنا نشهد أنه عبد الله ورسوله .. قال : لقد حرمكم الله خيراً كثيراً لقد قدمتم عليَّ وأنا أريد أن أميركم وأكسو عيالكم فحرمكم الله وحرم عيالكم . قالوا : فإنه شُبِّه لنا ، فرويداً حتى نلقاه ، فانطلقوا فكتبوا صفة سوى صفة ، ثم انتهوا إلى نبى الله فكلّموه وسائلوه ثم رجعوا إلى كعب وقالوا : لقد كنا نرى أنه رسول الله ، فلما أتيناه إذا هو ليس بالنعت الذى نعت لنا ، ووجدنا نعته مخالفاً للذى عندنا وأخرجوا الذى كتب فنظر ومارهم وأنفق عليهم . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قَلِيلًا مِّنْهُمْ .. (١٣) ﴾ [المائدة]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا[١] لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ .. (٤٦) ﴾ [النساء]

ويقول تعالى : ﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) ﴾ [آل عمران]

فهم يفتلون بعض المعانى المستنبطة من الكلمات حتى يُوهموا المؤمنين بأن هذه المعانى غير المرادة وغير الصحيحة هى معانٍ مُرادة لله وصحيحة المعنى ، إنهم يدَّعون على المنهج المنزَّل من السماء ما ليس فيه .

ولذلك يقول سبحانه : ﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ .. (٧٨) ﴾ [آل عمران] إنهم عندما يلوون ألسنتهم بالكتاب يُحرِّفونه رغبةً فى التلبيس والتدليس عليكم لتظنوا أنه من الكتاب المنزَّل من عند الله على رسولهم .

وهم لم يكتفوا بتحريف كتابهم والدسّ فيه وكتمان ما فيه ، بل عمدوا إلى صَدِّ المؤمنين عن الإسلام والقرآن ، فأرادوا أنْ يُشككوا المسلمين فى أمر المنهج، لذلك اصطنعوا حيلةً ذكرها الحق سبحانه فى قوله :

﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ[٢] النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) ﴾ [آل عمران]

وهذا خلطٌ للحق بالباطل وخداع للمؤمنين ، فحاول بعض أهل الكتاب من اليهود أنْ يخدعوا المؤمنين بإعلان الإيمان أوّل النهار ثم إعلان الكفر آخره،

(١) راعنا : التى تقصدون بها – أيها المؤمنون – الرعاية والمراقبة بقصد الخير وحفظ الجانب ، فاغتنمها اليهود لموافقة كلمة سيئة عندهم فصاروا يلوون بها ألسنتهم ويقصدون بها الرعونة وهى إفراط الجهالة ، فنهاهم عن موافقتهم فى القول [محاسن التأويل للقاسمى] .

(٢) وجه النهار : أوَّله . فوجه النهار : أول النهار . قال مجاهد وقتادة والزجاج . [زاد المسير لابن الجوزى ٣٦٣/١] .

والهدف بطبيعة الحال هو إشاعة الشكِّ وزرع البلبلة فى نفوس المؤمنين بخصوص هذا الدين .

فقد يقول بعض القرشيين أو العرب : لقد اختبر أهلُ الكتاب هذا الدين الجديد وهم أهلُ علمٍ بمناهج السماء ، ولم يجدوه مطابقاً لمناهج السماء .

ولذلك عندما سألهم أهل قريش عن هذا الدين وسألوهم : أنحن أهدى أم محمد ؟ قالوا : بل أنتم الذين على الهدى . يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ[1] وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) ﴾ [النساء]

فقد سأل كعبُ بن الأشرف أبا سفيان : ماذا فعل محمد معكم ؟ قال له : فارقَ دين آبائه وقطع رحمه وتركهم وفرّ إلى المدينة ونحن على غير ذلك ، نحن نسقى الحجيج ونقري[2] الضيف ، ونفك العاني[3] ونصل الرحم ، ونعمر البيت ، ونطوف به .

وعظّم أبو سفيان فى أفعال قريش ، فقال الذين أوتوا الكتاب لعداوتهم لمحمد قالوا لأبى سفيان وقومه : أنتم أهدى من محمد سبيلاً[4] .

---

(١) الجبت : قال ابن الجوزى فى زاد المسير (٢/٤٥) : فيه سبعة أقوال : السحر ، الأصنام ، حى بن أخطب ، كعب بن الأشرف ، الكاهن ، الشيطان ، الساحر . وذكر لكل قول قائلاً . قال أبو هلال العسكرى فى كتاب (الفروق اللغوية) : قيل : الجبت والطاغوت هما كل ما عُبد من دون الله من حجر أو صورة أو شيطان . (١/١٥٤) .

(٢) قرى الضيف قرى : أضافه . واستقرانى : طلب منى القرى . والمقراة : القصعة التى يقرى الضيف فيها. [المحكم والمحيط الأعظم – مادة قرى] .

(٣) العانى : الأسير . ويقال : العانى العبد والعانية الأمَة : وقال فى المعجم الوسيط : العانى الذليل والأسير . وكل من ذل واستكان فقد عَنَا .

(٤) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٢٤٩) أن كعب بن الأشرف خرج فى سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أُحد ليحالفوا قريشاً على قتال رسول الله ﷺ ، فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه ونزلت اليهود فى دور قريش فتعاقدوا وتعاهدوا ليجتمعن على قتال محمد ، فقال أبو سفيان : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم ، فأينا أهدى سبيلاً وأقرب إلى الحق . نحن أم محمد ؟ فقال كعب : أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد .

لذلك قال عنهم الحق سبحانه : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) ﴾ [النساء] وذلك جزاء صدهم عن سبيله وتفضيلهم الكافرين الوثنيين على مَنْ بشّرت به كتبهم ، بل زوّروا القول ، إذا كيف يصير المشركون عبدة الأصنام أهدى من محمد سبيلاً .

فكيف يلاقى هؤلاء الحقَّ سبحانه يوم القيامة ؟ فبأيِّ وجه يقفون أمام الله؟ لذلك كان من المستحيل عليهم أن يتمنوا الموت أو يُحبون لقاء الله ، فهم قد أُشربوا حُبَّ معصية الله والتمرد على أوامره .

فلا هم يستطيعون تصوُّر أنهم سيموتون ويُحاسبون على ما قدمت أيديهم، وما فعلوه وما اكتسبوه ، ولا هم يستطيعون الخروج عن طبائعهم الشريرة الدنية .

لذلك كانوا ظالمين لأنفسهم قبل أنْ يكونوا ظالمين لمن أضلوهم ، ويقول سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) ﴾ [الجمعة]

فالله عليم بظلمهم ومعصيتهم ، هذا الظلم والمعصية هو الذى يجعلهم يخافون الموت ولا يتمنونه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾

فالحق سبحانه يخاطب نبيه ورسوله محمداً ﷺ أنْ يقول لهؤلاء الناس من أهل الكتاب الذين يظنون أنهم لن يموتوا ، أو أنهم مخلدون فى الأرض ، أو أنهم

يستطيعون أن يفروا من الموت .

فالحق سبحانه يقول له (قل) ، فالله تعالى لم يُرد أنْ يخاطبهم مباشرةً لعِظم ما افتروا على الله سبحانه ، ولعظيم ما منَّ الله عليهم به طوال تاريخهم ، فلغضبه سبحانه من أفعالهم وصنيعهم وجَّه نبيه ﷺ أنْ يخاطبهم .

لقد كانوا سابقاً الأمناء على وحى الله وكتبه واستُحفِظوا عليها ولكنهم نقضوا عهودهم ومواثيقهم مع الله ، فانتقل ميراث النبوة منهم إلى غيرهم ، فانتقل الوحى إلى محمد ﷺ .

لقد أصبحوا مخاطبين من قِبَل رسول الله ، فالله يرسل إليهم ما يريده من خلال رسول الله محمد ، فقال لنبيه (قل) .

إنهم يريدون أنْ يفروا من الموت لأنهم لم يفعلوا شيئاً حسناً يكون لهم ذُخراً يوم يقابلون الله فى يوم لابدَّ أنه آتٍ ، لقد نسوا أنَّ الموتَ مُقدَّر على الناس جميعاً ، وأن الحياة الدنيا هى مرحلة بين قوسين .

القوس الأول هو أن الله يخلقنا ويُوجدنا وتمضى رحلة الحياة إلى القوس الثانى الذى تخمد فيه بشريتنا وتتوقف حياتنا وهو الموت . أى أننا فى رحلة الحياة من الله وإليه ، إذن : فحركة الحياة الدنيا هى بداية من الله بالحق ونهاية بالموت .

ولا أحدَ يملك الحياة أو الموت ، فإنْ كان أحدٌ يملك هذا فليمنع إنساناً واحداً أنْ يموت ، والموت نقْضٌ للحياة ، وقد أخفى الله تبارك وتعالى عنّا الموت زماناً ومكاناً وسبباً وعمراً ، لم يُخفه ليحجبه ، وإنما أخفاه حتى نتوقعه فى كلِّ لحظة .

وهذا إعلامٌ واسع بالموت حتى يُسرع الناسُ إلى العمل الصالح وإلى المثوبة،

لأنه لا يوجد عمر مُتيقَّن فى الدنيا فلا الصغيرُ آمنٌ على عمره ، ولا الشابُّ آمنٌ على عمره ، ولا الكهلُ آمن على عمره ، ولذلك يجب أنْ يسارع كلٌّ منّا فى الخيرات حتى لا يفاجئه الموت ، فيموت وهو عَاصٍ .

فصاحب الالتزام بالمنهج يطمئن إلى لقاء ربه ، ويطمئن إلى جزائه ، والذى لا يؤمن بالآخرة أخذ من الله الحياة فأفناها فيما لا ينفع ، ثم بعد ذلك لا يجد شيئاً إلا الحساب والنار .

والنعمة التى أنت فيها زائلة عنك ، إما أنْ تتركها بالموت ، أو تتركك هى وتزول عنك ، وتخرج من الدنيا تحمل أعمالك فقط ، كلّ شيء زال وبقيتْ ذنوبك تحملها إلى الآخرة .

وعند مواجهة الموت ونهاية العمر يصبح الإنسانُ مقهوراً وليس مختاراً ، فهو لا يملك شيئاً لنفسه ولا يستطيع أنْ يقول لن أموت الآن ، انتهتْ بشريته ، وانتهتْ سيطرته على نفسه حتى أعضاؤه تشهد عليه .

والحق سبحانه يؤكد أمر ملاقاة الموت هنا باستخدام لفظ (إن) ويستخدمه مرتين فى نفس الآية فيقول : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ .. (٨) ﴾ [الجمعة]

فلا يحسب أحدٌ أنه سيفلت من الموت وملاقاة الله سبحانه لأنه كما يقول عز وجل : ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا .. (١٤٨) ﴾ [البقرة] أى : أنه ليس هناك مكانٌ تستطيعون أنْ تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالى .

فالحقُّ جلَّ جلاله يريدنا أنْ نعرف يقيناً أننا لا نستطيع أنْ نفرَّ من علمه ولا من قَدَره ولا من عذابه ، وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أنْ نفرَّ إلى الله ، وأنه لا منجاةَ من الله إلا إليه ، ولذلك لا يظنّ كافر أو عاصٍ أنه سيفلت من الله .

والإنسان قد يستقبلُ الموت فى أيّ لحظة ، فلا أحدَ بقادر على الاحتياط من الموت لا زماناً ولا مكاناً ، وها هو ذا الحق سبحانه يقول : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ .. (٧٨) ﴾ [النساء]

فالعقل البشرى الذى يتوهم أنَّ بإمكانه الاحتياطَ من الموت مكاناً عليه أنْ يعى جيداً أنه لا يستطيع ذلك ، فوجود الشخص عند ظرف ما لا يدفع ولا يمنع عنه الموت .

فالموت مخلوق بسرٍّ دقيق للغاية يناسب دقَّة الصانع ، وهو لطيف يأتى الإنسان ويدهمه فى لحظة ومكان غير معلوميْن له ، والحق سبحانه يقول : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ .. (٧٨) ﴾ [النساء]

وكلمة (يدرككم) دليل على أن الإنسان عندما تدبّ فيه الروح ينطلق الموت مع الروح إلى أنْ يدركها فى الزمن الذى قدَّره الله .

وكلمة (يدرك) توضح لنا أنَّ الموتَ يلاحق الروحَ حتى إذا أدركها سلبها ، وكما قال الأثر الصالح عن ملاحقة الموت للحياة : « حتى إذا أدركها جرتْ لا أحدٌ منكم إلا هو مُدْرَك » .

ولذلك يقول أهل المعرفة والاستشراق : « الموت سهم أُرسل إليك وإنما عمرك هو بقدر سفره إليك » .

فالموت يلاحق حياة الإنسان ويجرى وراء روحه حتى يدركها ، فالموت سهم أُرسِل وعمرك بقدر سفره إليك[1] ، فالموت واقع لا محالة .

والدليل على هذا هو استخدام الحق سبحانه للفظة (تفرون) فهم يفرون من الموت ، هم يجرُون والموت يجرى وراءهم ، إنهم يفرُّون هرباً لعدم ملاقاة الموت وخشية أنْ يدركهم ويلحق بهم .

---

(١) أورده الثعالبى فى كتاب (الإعجاز والإيجاز) من قول عبد الله بن المعتز (الموت سهم مرسل إليك عمرك بقدر سفره إليك) .

ولكن الحق سبحانه يقطع أملهم فى هذا ، ويحبط آمالهم وتمنياتهم بأنهم يستطيعون الفرار من الموت والهرب منه ، فيقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ .. (٨) ﴾ [الجمعة]

والقرآن يتميز بأسلوبه البديع فى التعبير عن الحدث وتصويره فى صورة حسّية مُشاهدة بالأبصار ، أناس يفرُّون من شيء ما ، وهذا الشيء يطاردهم حتى يدركهم ، فقال : ﴿ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ .. (٧٨) ﴾ [النساء]

ولكنه هنا يقول لمحة أخرى ﴿ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ .. (٨) ﴾ [الجمعة] ، والملاقاة فيها معنى المقابلة وجهاً لوجه ، وهذا غير تعبير (يدرككم) الذى يعنى الملاحقة والإدراك .

ومعنى الإدراك والدرك يتضح فى قوْل الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

فعندما لحق فرعون وجنوده بموسى وقومه ، وصار كلٌّ منهما يرى الآخر ، عندها ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

فالحال أن البحر من أمامهم وجنود فرعون من خلفهم ، فلا مناصَ ولا مهرب ، ولكن الحق سبحانه طمأنهم وطمأن موسى عليه السلام فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ[1] بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى (٧٧) ﴾ [طه]

فمعنى ﴿ لا تَخَافُ دَرَكًا .. (٧٧) ﴾ [طه] أى : لا تخفْ من فرعون أنْ يدركك . فسيدنا موسى عليه السلام عندما أراد أنْ يأخذ بنى إسرائيل من فرعون ويخرج بهم وقبل أنْ يصل بهم إلى البحر تنبَّه لهم قوم فرعون وجاءوا بجيوشهم وكان

---

(١) أسر بعبادى : أى سر بهم ليلاً من أرض مصر . [تفسير البغوى ٥/٢٨٦] قال علم الدين السخاوى فى تفسيره : الإسراء لا يكون إلا ليلاً . وقال فى مختار الصحاح : سرى يسرى بالكسر سُرى ومسرى وأسرى أى سار ليلاً .

قوم فرعون من ورائهم والبحر من أمامهم .

فقال قوم موسى إيماناً بالأسباب ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] فماذا قال موسى ؟ لم يقلْ مثلما قال قومه ولكنه نظر للمسبِّب الأعلى ، فقال بملء فيه : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] فموسى المرسَل من الله علم أن الله لن يخذله ، لأنه يريد أنْ يُتمَّ نعمة الهداية على يديه ، فقد كان موسى ممتلئاً باليقين والثقة .

وإذا كان الموتُ يدرك الإنسان فيصيبه وينال منه فإنه فى نفس الوقت يُلاقيه ، ويصبح الإنسان وجهاً لوجه مع ما كان يفرُّ منه ، فالموت مصير الإنسان وهو سابقه ، إنه سيسبقك وينتظرك عند اللحظة التى قدَّرها الله ، وفى المكان الذى سيشاؤه الحق سبحانه .

وهذا يعطى لفظة (يدرككم) معنى الإحاطة ، إن الموت سيأتى خلفك ، ولكنه فجأة يصبح أمامك ، أى أنك لا تعرف من أين أتى ، أهو من خلفك أم من أمامك؟

وملاقاةُ الموت ليستْ بالأمر الهيِّن ، خاصة على مَنْ أنفق حياته فى معصية الله ، فالعاصى والكافر الذى كان يعتقد أن لا موت ، أو كان يعتقد أنه من الممكن أن يفر منه تتكشَّف له الحقائق حينما تحضره سكرات الموت ويرى ما لا نراه نحن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ [1] (٢٢) ﴾ [ق]

حينها يتمنى الإنسان أن يرجع إلى الدنيا وهو ما يزال يحتضر ، لماذا ؟ لأنه رأى الحقيقة التى كان ينكرها ويُكذِّب بها ولا يريد أنْ يواجهها ، لقد عاين ما كان يفر منه فإذا به يُلاقيه .

(١) حديد : قال مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٣/ ٢٧١) : « يعنى يشخص بصره ويديم النظر فلا يطرف حتى يعاين فى الآخرة ما كان يكذب به فى الدنيا » . وقال الطبرى فى تفسيره (٢٢/ ٣٥٢) : فأنت اليوم نافذ البصر عالم بما كنت عنه فى الدنيا فى غفلة .

والذين يشاهدون حال الموتى ساعة الاحتضار يرون منهم إشاراتٍ تدل على أنهم يروْنَ أشياء لا نراها نحن ، كُلٌّ حسب حاله وخاتمته .

يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) ﴾ [الواقعة]

فمَنْ حضره الموت ويُعاين شدَّته ويرى ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب حسب عمله ، يوقن أنه لا محالة منتقلٌ من هذه الدنيا ، وأن فرصة عمله للصالح من الأعمال أو الإيمان قد انتهتْ .

حينها يرى ما كان محجوباً عنه فى الدنيا ، حينئذ يستعرض أعماله ، فإنْ رأى شريط الحياة حُلواً منيراً ابتسم وانفرجتْ أساريره فيُقبض على هذا الوضع .

أما مَن امتلأتْ حياتُه بالسوء والمعاصى فوجهه يسودّ وتنقبض أساريره فيُقبض على هذا الوضع ، وهذا ما نُسميه الخاتمة ، فلحظة الاحتضار فيها يقينُ الموت ، تماماً كساعة الامتحان ، حيث تجد التلميذ الخائب مُصفرّ الوجه مرتعداً أو مُتشنجاً ، أما التلميذ المجتهد فيكون مبتسماً منفرج الأسارير .

وفى ساعة الاحتضار يخلو الذهن من أى شيء إلا صحيفة عمله ، فهى التى تبقى فى بؤرة شعوره ، حينها لا يجد الميت فى بؤرة شعوره خاطراً آخر يناقض أو يزاحم أمر الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه عن خروج روح الكافر والمنافق : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

فساعةُ الموت تكون شاقة وصعبة على الكافر والمنافق ، لأنه يترك الأموال والأولاد والمساكن الطيبة والبروج التى شيَّدوها ويذهبون إلى العذاب .

والبروج التى شيَّدوها لن تحميهم من نزول الموت بهم فإنه لا يمنعه مانع مهما كان ، ولا يدفعه دافع ، ونلاحظ أن فكر اليهود من أهل الكتاب متجهٌ لإقامة الحصون والبروج والجدران ، يظنون أنها ستمنع نزول عذاب الله بهم .

يقول تعالى عنهم : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا(1) مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ .. (٢) ﴾ [الحشر]

وقد كان لهم فى المدينة حصونٌ وقلاع كحصن خيبر ، وقد كانوا من أصحاب الحصون وأصحاب الزراعات ويعيشون على الربا ، لقد غفلوا عن أنهم لو كانوا جميعاً معتصمين بحصونهم وبأبراج مُحاطة بأبراج أخرى ، كأنه حِصْن مُحصَّن ، فالحصون فى بعض الأحيان يتم بناؤها وكأنها نقطة محاطة بدائرة صغيرة ، وحول الدائرة دائرة أخرى أوسع .

وبذلك تجد الحصن نقطة محاطة بعدد من الحصون ، والموت يدرك البشر ولو كانوا فى برج محاط ببروج ، فالحق سبحانه له القدرة المطلقة فى إنفاذ أمره بالموت .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (٨) ﴾ [الجمعة] والردّ إلى الله تعالى هو الرجوع إليه سبحانه بالبعث والإعادة يوم القيامة .

وكلمة (تردون) تفيد أنه كان التقاء به أولاً ، وبعد ذلك سوف يُرجعون ، فهم كانوا منه سبحانه إيجاداً ، ثم ردُّوا إليه حساباً ثواباً وعقاباً .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ .. (٣٠) ﴾ [يونس]

---

(١) معنى ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .. (٢) ﴾ [الحشر] أى الذين كفروا بمحمد وكفروا بالقرآن الذى أنزل عليه ، واكتفوا بكتابهم وبنبيهم واتهموا محمداً بالكذب ، فكان تكذيبهم وكفرهم به ﷺ تكذيباً لله وكفراً به سبحانه .

فكلمة (ردُّوا إليه كذا) لا تدل على أنهم كانوا مع الضد وجاءوا له ، بل تدل على أنهم كانوا معه أولاً ثم ذهبوا إلى الضد ، ثم رُدُّوا إليه ثانياً .

وهذا مثل قوْل الحق سبحانه عن موسى عليه السلام : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ .. (١٣) ﴾ [القصص] فدلّتْ على أن موسى كان مع أمه ثم فارقها ، ثم رُدّ إليها .

ولا يحسبنَّ أحدٌ أنه بمفازة من الرجوع إلى الله والبعث والإعادة يوم القيامة، والحق سبحانه يحسم هذا الأمر فيقول : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) ﴾ [الكهف] أى : جمعناهم ليوم الحساب ، لأنهم فارقوا الدنيا على مراحل من لَدُن آدم عليه السلام ، والموت يحصد الأرواح وقد جاء اليوم الذى يُجمع فيه هؤلاء .

﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) ﴾ [الكهف] أى : لم نترك منهم واحداً حتى ولو كان ممَّنْ كانوا يدَّعُون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، فالكل سيُعرض على الله .

وكلمة نغادر تُؤدى مادتها معنى الترك ، فالغدر مثلاً ترك الوفاء وخيانة الأمانة ، حتى (غدير) وهو جدول الماء الصغير سُمِّى غديراً لأن المطر حين ينزل على الأرض يذهب ويترك شيئاً قليلاً فى المواطىء .

وإذا كان المطر يترك شيئاً فى الغُدران ، فإن الله – وله المثل الأعلى – لن يترك أحداً فلا يُعرض عليه ، فلن يُفلت واحدٌ ولا حتى ذرة من ذرات جسده من الوقوف بين يدى الله للحساب .

وهم سيُردُّون إلى ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (٨) ﴾ [الجمعة] وهذا تعبير دقيق، فالحق سبحانه ما دام أنه عالمُ الغيب فمن باب أوْلَى أنه يعلم المشهود .

فهو سبحانه يعلم ما خَفِى من حجاب الماضى أو المستقبل وكلّ ما غابَ عن الإنسان ويعلم المشهود من الإنسان ، فلم يقتصر عِلْمه على الغيب وترْك المشهود بغير علم منه ، لا بل هو يعلم الغيب ويعلم المشهود .

والمراد بالغيب الغيب المطلق يعنى ما غاب عنك وعن غيرك ، فنحن الآن مشهد لمَنْ حضر مجلسنا هذا ، إنما نحن غَيْبٌ لمن غاب عنه ، ومنه الكهرباء والجاذبية وغيرهما من اكتشافات البشرية ، فهذه الأشياء كانت غيباً عمَّنْ قبلنا مع أنها كانت موجودة ، فلما توصَّلنا إلى مُقدِّماتها ظهرت لنا وصارتْ مشهداً .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ.. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] إذن: المعلوم لغيرك وغيبٌ عنك ليس غيباً ، وكذلك الغيب عنك وله مقدمات توصِّل إليه ليس غيباً ، إنما الغيبُ هو الغيب المطلق الذى غاب عنك وعن غيرك .

ولأنه سبحانه عالمُ الغيب والشهادة فإنه لا يغيب عن علمه شيءٌ من أفعال الناس وأقوالهم ، فإنه سبحانه يعلم ما هو أخفى من هذا ، يقول تعالى : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فالجهر بالقول عند الله مثل السرِّ ، فكما يعلم الله الجهرَ يعلم السرَّ ، بل هو يعلم ما هو أخفى من السِّرِّ ، والسرُّ هو أنْ تخصَّ واحداً بأنْ تضع فى أذنه كلاماً لا تحب أنْ يشيع عند الناس وتهمس فى أذنه بأنك المأمونُ على هذا الكلام ، وأنت ترتاح نفسياً حين تُلقى بسرِّك إلى مَنْ تثق فيه وتأمن ألاَّ يذيعه .

ولكن هناك ما هو أخفى من السر ، فإنْ كان سرّك قد خرج من فمك إلى أذن سامعك فهناك سرٌّ احتفظتَ به لنفسك ولم تتفوَّه به لأحد ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) ﴾ [الملك]

أى أنه سبحانه عليمٌ بمكنونات الصدور قبل أنْ تصير كلاماً . لكن بعض العارفين يقول : وهناك فى علم الله ما هو أخفى من الأخْفى ، فما هو ؟ يقول : إنه تعالى يعلم ما سيكون فى النفس قبل أن يكون .

إذن : لدينا جهر وسِرٌّ وأخفى من السرِّ وما هو أخفى من الأخفى كلٌّ هذا يعلمه الله ، وعندما يُرد الناس إلى عالم الغيب والشهادة سيخبرهم الله بكل ما عملوه، يقول تعالى : ﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [الجمعة] والإنباء هو الإخبار .

والحق سبحانه لم يقُلْ إنه سيُنبئهم بما كانوا يفعلون أو يصنعون ، بل بما كانوا يعملون ، فالفعل مختصٌّ بما تعمله أيديكم أو أرجلكم وكذلك ما يصنعون، أما (يعملون) فهى تشمل كل ما يعمله الإنسان ولو كان بلسانه ، فما يلفظه اللسان مِنْ قول هو عمل وليس فعلاً .

لذلك قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور] فجمع الألسنة مع الأيدى والأرجل فيما كانوا يعملون .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) ﴾ [فصلت]

وعمل السمع والبصر ليس كعمل الأيدى والأرجل ، ولكنه سبحانه جمعها كلها فى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ (٢٠) ﴾ [فصلت] فالأذن سمعت ما حرَّم الله ، والبصر نظر إلى ما حرم الله ولكنه ليس فعلاً بل عملاً ، بمعنى أنه لم يفعل فعلاً إيجابياً فى المقابل له ، فمَنْ سمع قد يكون قد سمع أمراً سيئاً ، ولكنه لم يضر غيره بما سمعه فهذا عمل .

ورسول الله يحدد لنا أعقلَ الناس وأضبطهم لمعرفة حقيقة الدنيا ، وأن العاقل فيها مَنْ يعرف ويوقن أن الحياة الدنيا ما هى إلا معبر إلى الحياة الآخرة، الحياة الحقيقية التى وصفها الحق سبحانه فقال : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

فقال ﷺ : « الكيِّس[١] مَنْ دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله »[٢] .

أى أن العاقل هو مَنْ حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت ، لأن الموت هو الحاجز بيننا وبين الحياة الآخرة ، وأننا لابدَّ أنْ يلاقينا الموت ، فكلُّ نفس ذائقة الموت .

ولا يخدعنَّ أحدٌ نفسه فيظن أنه سيستطيع أنْ يفرَّ من مصيره المحتوم ، وإلاَّ أصبح عاجزاً وعنده قصور فى عقله ، فتجده يتبع هوى نفسه ويتمنَّى على الله، كيف وأنت لم تعمل لما بعد الموت الأعمال التى تُنزلك منازل المكرمين بل أنزلتَ نفسك منازل المهانين المعذبين بما قدَّمتْ يداك ، وبما لم تفعل من الخير ولم تزددْ من الحسنات .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ ﴾

فالحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أنْ يجتمعوا كلَّ أسبوع مرة ، لأنك قد تُصلِّى فرضاً فى مصنعك أو فى مزرعتك أو فى أيِّ مكان ، إنما يوم الجمعة لابدّ

(١) الكيِّس : العاقل . والكيْس العقل . وقال الجوهرى فى الصحاح فى اللغة : الكيْس : خلاف الحمق . وقال الصغانى فى العباب الزاخر : لأنه مجتمع الرأى والعقل . وقال أبو هلال العسكرى فى (الفروق اللغوية) : الكيس هو سرعة الحركة فى الأمور والأخذ فيما يعنى منها دون ما لا يعنى .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٥٩) . وابن ماجه فى سننه (٤٢٦٠) وأحمد فى مسنده (١٧١٦٤) ، والبزار فى مسنده (٣٤٨٩) وأبو داود الطيالسى فى مسنده (١٢١٨) من حديث شداد بن أوس .

أنْ تجتمع مع غيرك ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أنك تذلّ لله بينك وبينه ، وتخضع وتسجد ، وتبكى بينك وبين الله .

لكنه سبحانه يريد هذا الأمر أمام الناس ، لترى كل مَنْ له سيادة وجاه يسجد ويخشع معك لله ، وفى الحج ترى كل مَنْ له جاه ورئاسة يؤدى المناسك مثلك ، فتقول بينك وبين نفسك أو تقول له : لقد استويْنا فى العبودية ، فلا يرتفع أحدٌ على أحد ولا يذلّ له ، بل كلُّنا عبيدٌ لله ونخضع له وحده .

وهناك يومان فى الأسبوع ذُكِرا فى القرآن بالاسم ، وهما يوم الجمعة ويوم السبت ، بينما أيام الأسبوع سبعة ، خمسة أيام منها لم تُذكر فى القرآن بالاسم، وهى الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس .

الجمعة هى عيد المسلمين الذى شُرِع فيه اجتماعهم فى المساجد وأداء صلاة الجمعة ، ونلاحظ أن يوم الجمعة لم يأخذ اشتقاقه من العدد ، فأيام الأسبوع نُسبتْ إلى الأعداد فيما عدا الجمعة والسبت .

لذلك تجد الأحد منسوباً إلى واحد ، والاثنين منسوب إلى اثنين ، والثلاثاء منسوب إلى ثلاثة ، والأربعاء منسوب إلى أربعة ، والخميس منسوب إلى خمسة.

كان المفروض أنْ يُنسب يوم الجمعة إلى ستة ولكنه لم يُنسب ؟ لماذا ؟ لأنه اليوم الذى اجتمع فيه للكون نظامُ وجوده ، فسمَّاه الله تبارك وتعالى الجمعة وجعله له عيداً .

ورسول الله ﷺ يُحدِّثنا عن يوم الجمعة فيقول : « إن يوم الجمعة سيِّدُ الأيام وأعظمها عند الله ، وهو أعظم عند الله من يوم الأضحى ويوم الفطر. فيه خمس خلال : خلق اللهُ فيه آدم ، وأهبط اللهُ فيه آدمَ إلى الأرض ، وفيه توفَّى اللهُ آدم، وفيه ساعةٌ لا يسأل اللهَ فيها العبدُ شيئاً إلا أعطاه ما لم يسأل حراماً، وفيه

تقوم الساعة ، ما من ملك مُقرَّب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا وهُنَّ يُشفقن من يوم الجمعة »[١] .

والعيد هو اجتماع كلِّ الكون فى هذا اليوم ، اجتماع نعمة الله فى إيجاده الكون وتمامها فى ذلك اليوم ، فالمؤمنون بالله يجتمعون اجتماعَ حفاوة بتمام خَلْق الكون لهم ، وكان تمام الخَلْق يوم الجمعة .

وقد شرع اللهُ اجتماعَ الجمعة لأمر اجتماعى ، وهو أنْ يتفقَّد الإنسان كلَّ أخ من إخوانه ، ما الذى أقعده ؟ أحاجة أم مرض ؟ أحدث أم مصيبة ؟ وحتى لا يُحوجه إلى أنْ يذلّ ويسأل ، وحين يفعل ذلك يكون له فطنة الإيمان .

وقد طلب بنو إسرائيل يوماً يرتاحون فيه من العمل ويتفرغون فيه لعبادة الله ، وقد اقترح عليهم نبيهم موسى عليه السلام أن يكون يوم الجمعة ، فهو اليوم الذى أتمَّ اللهُ فيه خَلْق الكون فى ستة أيام ، وهو اليوم الذى اختاره الخليل إبراهيم ، ولكنهم رفضوا الجمعة واختاروا هم يوم السبت .

وقالوا : إن الله خلق الدنيا فى ستة أيام ، بدأها بيوم الأحد وانتهى منها يوم الجمعة وارتاح يوم السبت ، وكذلك نحن نريد أنْ نرتاح ونتفرغ لعبادة الله يوم السبت ، وهكذا كانت هذه رغبتهم واختيارهم .

أما العيسويون فرفضوا أنْ يتبعوا اليهود فى يوم السبت ، أو إبراهيم عليه السلام فى يوم الجمعة ، واختاروا الأحد على اعتبار أنه أول بدء الخلق .

أما أمة محمد ﷺ فقد اختار لها اللهُ يوم الجمعة يوم الانتهاء وتمام النعمة .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (١٠٨٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (٤٣٨٧) والبيهقى فى شُعب الإيمان (٢٧١٢) وابن أبى شيبة فى مصنفه (٨١٥) ، وأبو نعيم الأصبهانى فى معرفة الصحابة (٢٤٠٥) من حديث أبى لبابة بن عبد المنذر .

وهذا التكليف فى صلاة الجمعة المفروضة كصلاة الجماعة والجماعة مطلوب فيها ، ومن الضرورى أنْ نتواجد فيها كجمع ، لأن الجماعة مشروطةٌ فيها ، فلا تصحّ بدون الجماعة .

وقوْل الحق سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

فهذان أمران أحدهما فى الدين والثانى يتعلق بالدنيا ، وكلاهما من منهج الله ، فالله لا يريدك أنْ تتاجر وتعمل وقت الصلاة ، ولا أنْ تترك عملك بلا داعٍ وتبقى فى المسجد بعد الصلاة .

إذا نُودى للصلاة فإلى المسجد .. وإذا قُضيَتْ الصلاة فإلى السعى للرزق .

والحق سبحانه يخاطب مَنْ آمن بالمنهج ، فيقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

وعندما يرتفع صوتُ المؤذن بقوْل الله أكبر فهذه دعوةٌ للإقبال على الله ، إقبالٌ فى ساعة معلومة لتقفوا أمامه سبحانه وتعالى وتكونوا فى حضرته يُعطيكم الله المدد .

وعندما يحضر الإنسانُ لحضرة ربِّه بالصلاة ويُكبِّر : الله أكبر فهو منذ تلك اللحظة يوجد فى حضرة الله .

وتلتفت ساعةَ يقول المؤذن (الله أكبر) أن الكلَّ قد جاء الغنيُّ قبل الفقير ، والخفير مع الأمير ، ويخلع الجميعُ أقدارهم خارج المسجد مع نعالهم ليتساووا

المعنى الآخر أن يكون الذكرُ صادراً من العبد لله ، يعنى : ولذكر الله خارجَ الصلاة أكبرُ من ذكر الله فى الصلاة ، كيف ؟ قالوا : لأنك فى حضرة ربك بعد تكبيرة الإحرام ، فإذا ما انتهتْ الصلاة وخرجتَ منها إلى حركة الحياة فذكْرك لله وأنت بعيدٌ عن حضرته ، وأنت مشغولٌ بحركة حياتك أعظم وأكبر من ذِكْرك فى الحضرة .

ولا تظنوا أنَّ الذكرَ قاصرٌ على الصلاة فقط ، إنما يجب ألاَّ يغيبَ ذِكْرُ الله عن بالك أبداً ، لأن ذكركَ لربِّكَ خارج الصلاة أكبرُ من ذِكْرك له سبحانه فى الصلاة .

وربُّك لا ينتظرك أنْ تأتيه ، إنما يدعوك لزيارته ، يُقبل عليك قبل أنْ تُقبل عليه ، ألم يقُل فى الحديث الشريف : « إنّ ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى نفسى ، ومَنْ ذكرنى فى ملأ ذكرتُه فى ملأ خَيْر منه ، ومَنْ أتانى يمشى أتيتُه هَرْولة ، ومَنْ تقرَّب منّى ذراعاً تقرَّبتُ منه باعاً »(١) .

إذن : فالزمام فى يدك أنت ، ونِعْم الربُّ ربٌّ يعامل عباده هذه المعاملة ، ويُحسن إليهم كلَّ هذا الإحسان .

والسعى إلى ذكر الله وترْك البيع من أجل ذلك يعطى الإنسان طاقةً إيمانية يظهر آثارُها فى الحركة الثانية من حركات الإنسان ، ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

والحق سبحانه إنما ناداهم لإعلان الولاء الجماعى ، وهو إعلانُ كل مؤمن بالعبودية لله أمام بقية المخلوقات ، فحين يُناديك الله تعالى ويستدعيك لأداء فريضته يقول (الله أكبر) لأن حركة الحياة وضروريات العيش عند الله أمرٌ

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٦٩٨١) وأحمد فى مسنده (٩٣٤٠، ١٠٢٥٨) والبيهقى فى الأربعين الصغرى (٤٣) والطبرانى فى الدعاء (١٨، ١٨٦٥، ١٨٧٠) وابن حبان فى صحيحه (٨١١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

كبير وأمرٌ هام لا يُغفل .

لكن إنْ كانت حركةُ الحياة والسعى فيها أمراً كبيراً فالله أكبر ، فربُّك يُخرِجك للصلاة من عمل ، ويدعوك بعدها إلى العمل .

ولنا ملحظ فى (الله أكبر) ، فأكبر أفعل تفضيل نزل على المبالغة ودون أكبر نقول (كبير) وكأنها إشارة إلى أن العمل والسعى ليس شيئاً هيِّناً أو تافهاً ، إنما هو كبير ينبغى الاهتمام به ، لأنه عَصَب الحياة ، ولا تستقيم الأمورُ فى عمارة الأرض إلا به .

لكن ، إنْ كان العملُ كبيراً فالله أكبر ، فربُّك عز وجل لا يُزهِّدك فى العمل ، ولا يُزهِّدك فى الدنيا ، لأنه خالقها على هذه الصورة جاعلٌ للعمل فيها دوراً .

ويلفتنا الحق سبحانه إلى إعجاز فى الأسلوب القرآنى لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

فالحق سبحانه لم يقُلْ : للصلاة يوم الجمعة ، بل قال ﴿ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ .. (٩) ﴾ [الجمعة] فلفظة (من) أفادتْ تحديدَ زمن الصلاة المقصودة ، وهى صلاة الجمعة كصلاةٍ مخصوصةٍ بوقت الظهر ، وتُؤدَّى ركعتين لا أربعاً كالظهر .

وهذا من أسلوب القرآن الدقيق ، فإن ﴿ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ .. (٩) ﴾ [الجمعة] لا تخصّ زمناً معيناً بل يشيع فرضية الاجتماع للصلاة فى كلِّ الصلوات فى يوم الجمعة ، وهذا فيه مشقة ، والله لا يريد بعباده مشقة .

يقول الحق سبحانه : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ .. (١٨٥) ﴾ [البقرة] ويقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .. (٧٨) ﴾ [الحج]

فالله لا يريد أنْ يُعنتكم ، أو يُضيِّق عليكم ، أو يعسِّر عليكم الأمور ، إنما جعل الله الأمر كله يُسْراً ، وشرعه على قدْر الاستطاعة ورخَّص لكم ما يُخفِّف عنكم ،

ويُذهب عنكم الحرج والضيق .

أما قوله ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ .. (٩) ﴾ [الجمعة] فالسَّعى هنا هو التوجّه والسير إلى مساجد الله ، ولابد أنْ نعرف أننا ما دُمْنا قد خَصَصْنا مكاناً لعبادة الله ، فلابد أنْ نصحب هذ التخصيص فى المكانية إلى التخصيص فى المهمة التى يدخل الإنسانُ من أجلها للمسجد فيتجه إلى الله .

فالمسجد خاصٌّ لعبادة الله ، ومع أن الأرضَ كلها تصلح للصلاة فإنه لابدَّ حين تأتى إلى المسجد أنْ تصحب معك أخلاقَ التعبُّد .

ويجب أنْ يكونَ الانفعالُ والتفاعلُ والحركة والنشاط كله فى الله ، ولذلك فأفضل ما تفعله ساعةَ تدخل المسجد هو أنْ تنوى الاعتكاف ، فتنزع نفسك ممَّنْ ينوى أنْ يتكلم معك فى أحوال الدنيا .

وقد ورد الأثر بالنهى عن الحديث فى المساجد لأنه يحبط العمل ويمحو الحسنات[1] ، وأنت قد تصنع الحسنات كثيراً خارج المسجد ولكن عليك ألاَّ تدخل المسجد إلا بأدب المسجد ، فالحضور بين يدى الله تعالى فى مسجده وفى بيته له آدابه .

فيجب عليك ألاَّ تتخطى الرقاب ، وهذه تحتاج إلى تنظيم ، بمعنى ألاّ تجعل الأماكن فى الأمام خالية وفى الخلف مزدحمة حتى يستطيع أنْ يجلس كلّ مَنْ يحب أنْ يصلى دون أنْ يتخطى الرقاب ، ويكون الجلوسُ فى المسجد الأولَ فالأول ، وهكذا يتحقق الأدبُ الإيمانى فى المساجد .

ورسول الله ﷺ قال لسلمان الفارسى يوماً : « أتدرى ما يومُ الجمعة ؟ قال :

---

(١) هو مما ورد على ألسنة الناس من نحو «الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش». أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (١/١٣٦) وقال الحافظ العراقى فى تخريجه : لم أقف له على أصل . وقال السبكى فى طبقات الشافعية : لم أجد له إسناداً . ذكره الألبانى فى السلسلة الضعيفة (١/٦٠) وقال : لا أصل له .

الله ورسوله أعلم . قالها ثلاثَ مرات . ثم قال فى الثالثة : هو اليوم الذى جُمِع[1] فيه أبوكم آدم ، أفلا أحدِّثكم عن يوم الجمعة ؟ لا يتطهر رجلٌ فيُحسن طهوره ويلبس أحسن ثيابه ، ويصيب من طيب أهله إنْ كان لهم طيب وإلاَّ فالماء ، ثم يأتى المسجد فيجلس ويُنصت حتى يقضى الإمام صلاته إلا كانتْ كفّارة ما بين الجمعة ما اجتُنبَتْ الكبائر ، وذلك الدهر كله »[2] .

فهذا اليوم هو يوم الجمعة ، ولتعظيم هذا اليوم قال رسول الله ﷺ : « أفلا أُحدِّثكم عن يوم الجمعة ؟ » أى : ما يستحقه هذا اليوم من اهتمامنا بالتطهُّر فيه فيُحسن الطهور ويلبس أحسن ثيابه .

فتمام النعمة على المخلوق من الخالق أنْ يتطهرَ الإنسانُ بما حدده الله له ، وأنْ يسعى إلى بيت الله حيث يُذكر الله سبحانه ، والمسلم حين يغتسل غسل الجمعة أو يتوضأ يكون قد حدث له أمران : التطهُّر والطُّهر .

ويُحدِّثنا رسول الله ﷺ عن أثر الوضوء فى تطهر المسلم وطُهْره ونقاء أعضائه من الدَّنَس والذنوب ، قال ﷺ : « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كلُّ خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قَطْر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كلّ خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطْر الماء ، فإذا غسل رجليْه خرجتْ كلُّ خطيئة مشتْها رجلاه مع

---

(١) أخرج ابن جرير الطبرى والبيهقى فى الأسماء والصفات وابن عساكر عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : بعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض : أعوذ منك أن تنقص منى فرجع ولم يأخذ شيئاً وقال : يا رب إنها أعاذت بك فأعذتها ، فبعث الله ميكائيل كذلك ، فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء – فلذلك خرج بنو آدم مختلفين – فصعد به فبلَّ التراب حتى صار طيناً لازباً . أورده السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٢٥٤) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٧٦٩ ، ٢٣٧٨٠) وابن خزيمة فى صحيحه (١٧٣٢) والبزار فى مسنده (٢٥٢٦) والنسائى فى السنن الكبرى (١٦٧٧ ، ١٧٣٧) والحاكم فى مستدركه (١٠٢٨) والطبرانى فى المعجم الكبير (٥٩٦٧) من حديث سلمان الفارسى .

الماء ، أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب »[١] .

وعلى المسلم الساعى إلى مساجد الله حيث يذكر الله ألاَّ يجرى ويُسرع ليلحق بالإمـام ويدرك الخطبة أو الصـلاة لأنه فى صـلاة من لحظة أنْ توضـأ وخرج من بيته للصـلاة ، وإياك أنْ تفعل حركة تتناقض مع الصـلاة ، وادخل المسجد بسكينة ووقار لتؤدِّى الصلاة مع الإمام[٢] .

وقد جعل الحق سبحانه أول وَصْف للمؤمنين الذين أفلحوا ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) ﴾ [المؤمنون] فلم يقُل مثلاً : مؤدُّون . لأن أمر أداء الصلاة فى حَقِّ المؤمنين مفروغٌ منه ، العبرة هنا بالكيفية والهيئة ، العبرة بالخشوع والخضوع وسكينة القلب وطمأنينته واستحضار الله الذى تقف بين يديه .

كما تقول لولدك : اجلسْ أمام المعلم باهتمام واستمع إليه بإنصات ، فأنت لا تُوصيه بالذهاب إلى المدرسة أو حضور الدرس فهذا أمر مفروغٌ منه ، لذلك نهتم بجوهر الموضوع والحالة التى ينبغى أنْ يكون عليها .

والخشوع أنْ يكون القلبُ مطمئناً ساكناً فى مهمته هذه ، فلا ينشغل بشيء آخر غير الصلاة ، لأن الله ما جعل لرجل من قلبين فى جوفه .

وما دام فى حضرة ربه عز وجل فلا ينبغى أنْ ينشغل بسِواه ، حتى إنَّ بعض العارفين لمعنى الخشوع يقول : إن الذى يتعمد معرفة مَنْ على يمينه أو مَنْ على

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٦٠٠) ، والترمذى فى سننه (٢) وقال : حسن صحيح . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٨٠٠٧) وابن خزيمة فى صحيحه (٤) وابن حبان فى صحيحه (١٠٤٠) والبيهقى فى السنن الكبرى (٣٨٥ ، ٣٨٧) كلهم من حديث أبى هريرة وفى الباب عن عبد الله الصنابحى .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إذا نودى بالصلاة فأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموه » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٩١) والترمذى فى سننه (٣٢٧) وأحمد فى مسنده (٧٦٤٩ ، ٨٢٠٧) والبزار فى مسنده (٧٦٦٤) والبيهقى فى سننه الكبرى (٣٧٥٩ ، ٣٧٧٠ ، ٣٧٧٢) من حديث أبى هريرة .

يساره فى الصف تبطل صلاته[١] .

ولما دخل سيدنا عمر رضى الله عنه على رجل يصلى ويعبث بلحيته فضربه على يده وقال : لو خشع قلبك لخشعتْ جوارحك[٢] .

بل إن الحق سبحانه جعل هؤلاء من عباد الرحمن ، قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا .. (٦٣) ﴾ [الفرقان]

يعنى : برفق وفى سكينة وبلين دون اختيال أو تكبُّر أو غطرسة ، لماذا ؟ لأن المشى هو الذى سيُعرِّضك لمقابلة مجتمعات متعددة ، وهذا الأدب الربانيّ فى المشى يُحدِث فى المجتمع استطراقاً إنسانياً يُسوِّى بين الجميع .

وفى موضع آخر يُعلِّمنا الحق سبحانه أدبَ المشى ، فيقول : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ[٣] مِنْ صَوْتِكَ .. (١٩) ﴾ [لقمان] وقالوا : إن المراد بالمشى الهون ، وهو الذى يسير فيه الإنسانُ على سجيته دون افتعال للعظمة أو الكِبْر ، لكن دون انكسار وذلة .

وسيدنا عمر رضى الله عنه حينما رأى رجلاً يسير متماوتاً ضربه ونهاه عن الانكسار والتماوت فى المشية ، وهكذا فمشية المؤمن وسطٌ ، لا متكبر ولا

(١) أورده أبو حامد الغزالى فى (إحياء علوم الدين) (١/١٦٠) قال : « عن معاذ بن جبل : من عرف من على يمينه وشماله متعمداً وهو فى الصلاة فلا صلاة له » . وقال القشيرى فى رسالته القشيرية : «قيل شرط الخشوع فى الصلاة أن لا يعرف من على يمينه ومن على شماله » . وذكره السهروردى فى عوارف المعارف (١/٣٠٦) وعزاه لابن عباس من قوله .

(٢) المعروف أنه من قول سعيد بن المسيب ، أورده البيهقى فى سننه الكبرى (٣٦٩٢) ومحمد بن نصر المروزى (١٥١) فى كتاب « تعظيم قدر الصلاة » وابن أبى شيبة فى مصنفه (٦٨٥٤) وعبد الله بن المبارك فى الزهد (١١٨٨) ، وقد ذكره الحكيم الترمذى (٤/٢١٠) من حديث أبى هريرة مرفوعاً قال الألبانى (١١٠ – الضعيفة) : الحديث موضوع مرفوعاً ، ضعيف موقوفاً .

(٣) اغضض من صوتك : أى اخفض من صوتك عن الملأ ، فأمره بالاقتصاد فى صوته . فاجعله قصداً إذا تكلمت أى معتدلاً ، قاله يزيد بن أبى حبيب وذكره الطبرى فى تفسيره . وقال القرطبى : أى انقص منه فلا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج إليه .

متماوت متهالك[1] .

والحق سبحانه يطلب منَّا حين يُنادينا للصلاة أنْ نسعى للمسجد ، ومع أن الأرض كلها مسجد وكلها طهور لكن المسجد خُصِّص للصلاة فينبغى أنْ تُؤدَّى فيه ، وأنت فى صلاة ما دُمْت تسعى للصلاة ، فمَنْ كان بعيدَ البيت عن المسجد عليه أنْ يأتى الصلاةَ فى سكينة ووقار ، ولا يخرج عن هذا السَّمْت حتى وإنْ تأخَّر عن تكبيرة الإحرام .

فلنجعل الجلوس فى المسجد خاصاً بالمنعِم ، وهو الله سبحانه ، أما فى خارج المسجد وفى سائر الأوقات فنحن نعيش مع النعمة التى أنعم اللهُ بها علينا .

والحق سبحانه عندما يأمرك بالسعى إلى ذكر الله فى بيوت الله فإنما يدعوك إلى بيته ليُريحك وليحمل عنك همومك ، ويُصلح ما فسد فيك ويفتح لك أبوابَ الفرج .

والمسجد مكانٌ للعبادة لا يُعصى اللهُ فيه أبداً على خلاف البيوت والأماكن الأخرى ، فعظَّم الله بيوته أنْ يُعصى فيها ، وعظَّم روادها أنْ يشتغلوا فيها بسفاسف الأمور الحياتية الدنيوية ، فعليك أنْ تترك الدنيا على باب المسجد كما تترك الحذاء .

لذلك نهى الإسلامُ أن نعقد صفقةً فى بيت الله ، أو حتى ننشد فيه الضالة ، لأن الصفقة التى تُعقد فى بيت الله خاسرةٌ بائرة .

كيف تعيش كلَّ وقتك لأمور الدنيا على مدار اليوم والليلة ، ثم تستكثر على ربك الدقائقَ التى تُؤدِّى فيها فرضَ الله عليك ، فتُجرجر الدنيا معك حتى فى بيت الله ؟

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ .. (١٩) ﴾ [لقمان] أى توسط فيه ، والقصد ما بين الإسراع والبطء . يقال: قصد فلان فى مَشيته : إذا مشى مستوياً لا يدب دبيب المتماوتين ولا يثب وثوب الشياطين . قاله الشوكانى فى فتح القدير (٥/ ٤٩٠) .

ألا تعلم أنَ بيوتَ الله ما جُعلتْ إلا لعبادة الله ؟ لابدَّ للمؤمن أنْ يترك دُنْياه خارج المسجد ، وأنْ ينوى الاعتكاف على عبادة ربه والمداومة على ذِكْره فى بيته ، فلا يليق بك أنْ تكون فى بيت الله وتنشغل بغيره .

فإن التزمتَ بآداب المسجد تلقيتَ من ربك نوراً على نور ، وزال عن كاهلك الهمُّ والغمُّ ، وحُلَّت مشاكلك من حيث لا تحتسب ، فاجعل لحظاتك فى المسجد لله ، فالمسجد مكان للعبادة .

لذلك أقول لمن يُحدِّثنى فى المسجد بأىِّ شىء يتعلق بحركة الحياة : أبشر بأنها لن تنفع لأنك دخلتَ المسجد للعبادة فقط ، إن لحظة دخولك المسجد هى لحظة جئت فيها لتقترب من ربك وتناجيه وتعيش فى حُضْن عنايته ، فلماذا تأتى بالدنيا معك ؟

وليكُنْ لنا فى أحد الصحابة قدوة حسنة ، كان يقول : كنا نخلع أمر الدنيا مع نعالنا ، وزاد صحابيٌّ آخر فقال له : وزد يا أخى أننا نترك أقدارنا مع نعالنا .

انظر إلى الدقة ، إن الصحابى المتبع لا يخلع الدنيا مع نعله فقط على باب المسجد . ولكن يخلع أيضاً قدْره فى الدنيا ، فيمكن أنْ تأخذك الدنيا ساعات كثيرة ، والمسجد لن يأخذ منك إلا الوقتَ القليل فضَعْ قدرك مع نعلِكَ خارج المسجد ، وادخُلْ بلا قدر إلا قَدْر إيمانك بالله .

واجلس فى المكان الذى تجده خالياً فلا تتخطَّ الرقاب لتصل إلى مكان معين فى المسجد ، فأنت تدخل بعبودية الله .

وقد يأتى مجلسك بجانب مَنْ يخدمك ، والصغير يقعد بجانب الكبير ، ولا نلحظ لك قدراً إلا قدرك عند الله .

إن النبى ﷺ كان يجلس حيث ينتهى به المجلس[1] أى عندما يجد مكاناً له، وهذا خلاف زماننا حيث يحجز إنسان مكاناً لإنسانٍ آخر بالسجادة .

وقد يدخل إنسانٌ ليتخطى الرقاب ويجلس فى الصف الأول ، وهو لا يعلم أن الله قد صَفَّ الصفوف قبل أنْ يأتى هو إلى المسجد .

وما دُمْنا سنترك أقدارنا فلا تقل : أين سأجلس وبجوار مَنْ ؟ بل اجلس حيث ينتهى بك المجلس ، ولا تتخطَّ الرقاب ، وانْوِ الاعتكاف ، ولا تتكلم فى أىّ أمر من أمور الدنيا حتى لا تدخلَ فى دعوة رَسول الله بألاَّ يبارك الله لك فى الضالة التى تنشدها وتطلبها[2] .

وقد نهى النبى ﷺ أنْ يُوطِّن الإنسانُ لنفسه مكاناً فى المسجد يجلس فيه باستمرار[3] ، لأن الأصل أنْ يجلس المصلى حيث ينتهى به المجلس ، فيجلس الناسُ بأولوية الحضور كلّ حسب مكانه ومبادرته للصلاة ، فلا يتخطى الرقاب ولا يفرق بين اثنين .

ونرى بعض المصلين يسارع إلى الصفِّ الأول مثلاً ويضع سجادته ليحجز بها مكاناً ثم ينصرف لحاجته ، فإذا ما تأخر عن الصلاة أتى ليتخطى رقابَ الناس ليصل إلى مكانه ، فإذا بالناس يضيقون من هذا التصرف ويُنحّون سجادته جانباً ويجلسون مكانها .

---

(١) أخرج الطبرانى فى معجمه الكبير (١٧٨٦٨) من حديث هند بن أبى هالة التميمى وكان وصافاً عن حلية النبى ﷺ من حديث طويل « أنه ﷺ كان إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك » . وأخرجه عنه البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٢٩٠) .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد فيه ضالة لا رد الله عليك » . أخرجه الترمذى فى سننه (١٣٢١) وابن خزيمة فى صحيحه (١٣٠٥) والبزار فى مسنده (٨٢٦٠) .

(٣) عن سلمان الفارسى قال قال النبى ﷺ : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨٨٣ ، ٩١٠) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٦١) وابن حبان فى صحيحه (٢٧٧٦) .

إنه تصرُّف لا يليق ببيوت الله التى تُسوِّى بين خَلْق الله جميعاً ، وتُحقِّق استطراقَ العبودية لله ، فأنت اليوم بجوار فلان ، وغداً بجوار آخر ، الجميع خاضع لله راكع وساجد ، فليس لأحد أنْ يتعالى على أحد .

فمن أخطر ما مُنى به المسلمون أن تُجعل فى المسجد أماكن خاصة لنوعية معينة يُخلَى لها المكان ، ويصاحبها الحرس حتى فى بيت الله ، ثم يأتى فى آخر الوقت ويجلس فى الصف الأول ، وآخر يفرش سجادته ليحجز بها مكاناً لحين حضوره فيجد المكان خالياً .

وينبغى على عامة المسلمين أن يرفضوا هذا السلوك ، وعليك أن تُنحِّى سجادته جانباً وتجلس أنت ، لأن أولوية الجلوس بأولوية الحضور ، فقد صفَّها اللهُ فى المسجد إقبالاً عليه .

وهذه العادة السيئة تُوقِع صاحبها فى كثير من المحظورات حيث يتخطّى رقاب الناس ويُميِّز نفسه عنهم دون حق ، ويحدثُ انتقاص عبوديٌّ فى بيت الله.

فالله تعالى قد وزَّع الأماكن على حسْب الورود ، فإتيانك إلى بيت الله أولاً يُعطيك ثوابَ الصف الأول ، وإنْ صليتَ فى الصفِّ الأخير .

وعدم توطين الأماكن ينشر الأُلْفة بين الناس ، ويزيل الفوارق ويساعد على التعارف ، فكلُّ صلاة أنت بجانب شخص جديد تتعرَّف عليه وتعرف أحواله .

فإذا جلس فى مكانه فليُنصت إلى خطبة الإمام لأنها تشتمل على آيات من القرآن ، والحق سبحانه قال : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) ﴾ [الأعراف]

ونبّه البعضُ إلى أن الإنصاتَ للخطبة ثبت بدليل قوْل النبى ﷺ : « إذا

قلتَ لصاحبك والإمامُ يخطب يوم الجمعة أنصِتْ فقد لغَوْتَ »[١] إذن : الإنصات للخطبة جاء بدليل من السنة .

والخطبة مأخوذة من مادة (الخاء) و (الطاء) و (الباء) ، وتدل على أمور تشترك فى عدة معالم : منها خُطبة بضم الخاء ، ومنها خَطْب وهو الأمر العظيم، ومنها الخِطْبة بكسر الخاء .

وكلّ هذه المعالم تدل على أن هناك الأمر العظيم الذى يُعالج ، فالخَطْب أمر عظيم ، لأنه أمرٌ فاصل بين حياتين : حياة الانطلاق وحياة التقيد بأسرة وبنظام ، وكلّها معَانٍ مشتركة فى أمر ذى بال وأمر خطير .

وأمْر صلاة الجمعة يقتضى منك أنْ تأخذ عندها زينتك ، مصداقاً لقوْل الحق سبحانه : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ .. (٣١) ﴾ [الأعراف]

وهذا ما عناه رسول الله ﷺ فى حديثه النبوى : « أفلا أُحدِّثكم عن يوم الجمعة ؟ لا يتطهّر رجلٌ فيُحسن طهوره ويلبس أحسن ثيابه ، ويُصيب من طِيبِ أهله إنْ كان لهم طِيبٌ ، وإلا فالماء ، ثم يأتى المسجد »[٢] .

وقوله ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ .. (٣١) ﴾ [الأعراف] فالزينة إذا سمعتها تنصرف إلى تجميل فوق قوام الشيء ، وهذا يعنى أنْ يذهب المسلم إلى المسجد بأفخر ما عنده من ملابس .

ونحن نعلم أن المسجد هو مكانُ اجتماع عباد الله ، وهم متنوِّعون فى

(١) أخرجه مالك فى الموطأ (٢٣٢) والبخارى فى صحيحه (٩٣٤) ومسلم فى صحيحه (٢٠٠٢) وأبو داود فى سننه (١١١٤) والنسائى فى سننه (١٤٠٢ ، ١٥٧٧) وغيرهم .

(٢) وعن سلمان الفارسى قال قال رسول الله ﷺ : « يا سلمان ، هل تدرى ما يوم الجمعة ؟ قلت : هو الذى جُمِع فيه أبوك أو أبوكم . قال : لا ولكن أحدثك عن يوم الجمعة ، ما من مسلم يتطهر ويلبس أحسن ثيابه ويصيب من طيب أهله إن كان لهم طيب وإلا فالماء ، ثم يأتى المسجد فينصت حتى يخرج الإمام ثم يصلى إلا كانت كفارة له بينه وبين الجمعة الأخرى ما اجتنبت المقتلة وذلك الدهر كله » . أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥٩٦٧) .

مُهمات حياتهم ، وكلّ مهمة فى الحياة لها زِيُّها ولها هندامها . فالذى يجلس على مكتب لمقابلة الناس له ملابس ، ومَنْ يعمل فى الحدادة له زِىٌّ خاصٌّ مناسبٌ للعمل .

ولكن إذا ذهبتم إلى المسجد لتجتمعوا جميعاً فى لقاء الله ، أيأتى كل واحد بلباس مهنته ليدخل المسجد ؟ لا ، فليجعل للمسجد لباساً لا يضايق غيره .

فإنْ كانت ملابس العمل فى مصنع أو غير ذلك لا تليق ، فاجعل للمسجد ملابسَ نظيفة حتى لا يُؤذى أحد بالوجود بجانبك ، لأننا نذهب إلى المسجد لعمل مشترك يحكم الجميع ، وهو لقاء الله فى بيت الله ، فلابد أنْ تحتفى بهذا اللقاء .

وفى حديث آخر عن سلمان الفارسى أيضاً قال قال ﷺ : « مَن اغتسل يوم الجمعة وتطهَّر بما استطاع من طُهْر ثم ادَّهن أو مسَّ من طيب ، ثم راح فلم يفرق بين اثنين فصلّى ما كُتب له ، ثم إذا خرج الإمام أنصتَ غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى »[١] .

ثم إن الحق سبحانه الآمر بالسعى إلى الصلاة من يوم الجمعة ، هو سبحانه يأمر المؤمنين أنْ يذروا البيع من أجل صلاة الجمعة فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

والحق سبحانه لم يقل : اتركوا الزراعة أو اتركوا الصناعة أو اتركوا التدريس، بل اختار من كلِّ حركات الحياة حركةَ البيع على وجه الخصوص ، لأن فيه تجارة ، والتجارة هى الجامعة لكلِّ حركات الحياة .

والحق سبحانه إنما أخرجهم من البيع إلى الصلاة ولم يُخرجهم من فراغ ، بل أخرجهم من حركة البيع ، وجاء بـ (البيع) لأنه العملية التى يأتى ربحها مباشرة لأنك عندما تزرع زَرْعاً ستنتظر مدة تطول أو تقصر لتُخرج الثمار ،

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٩١٠) وابن حبان فى صحيحه (٢٧٧٦) والبيهقى فى السنن الكبرى (٦١٠٣) ، والدارمى فى سننه (١٥٤١) وابن حبان فى صحيحه (٢٧٧٦) من حديث سلمان الفارسى.

لكن البيعَ تأتى ثمرتُه مباشرة ، تبيع فتأخذ الربح فى الحال .

والبيع ينتظم كلّ حركات البيع ، لأن معنى البيع أنه وسط بين منتج ومستهلك ، فعندما تبيع سلعة ، هذه السلعة جاءت من منتج ، والمنتج يبحث عن وسيط يبيعها لمستهلك ، وهذا المستهلك تجده منتجاً أيضاً ، والمنتج تجده أيضاً مُستهلكاً .

فالإنتاج والاستهلاك تبادلٌ وحركة ، الحياة كلُّها فى البيع وفى الشراء ، وما دام هناك بيعٌ فهناك شراء ، فهذا استمرار لحركة الحياة ، فيوضح الله سبحانه : اتركوا هذه العملية التى يأتى ربحها مباشرة ، ولبُّوا النداء لصلاة الجمعة .

وحين يذر الإنسانُ البيعَ فهو يذرُ الشراءَ من باب أَوْلَى ، لأن البيع والشراء وجهان لعملية واحدة ، الخلاف فقط أن المشترى قد يشترى السلعة وهو كارهٌ لأنْ يشترى ، لأنه يستهلك نقوده فيما يشتريه .

أما البائع فيريد أنْ يحصل على ثمن البيع فوراً ، وغالباً ما يحصل على ربح من وراء ذلك ، وتلك هى قمة الكسْب ، فكسْب الزارع على سبيل المثال يأتيه بعد شهور من الزراعة ، كسْب الموظف يأتيه أول الشهر ، أما البائع فيحصل على الكسب فوراً . ولذلك يأمرنا الحق أنْ نذرَ البيع إذا سمعنا نداء الصلاة يوم الجمعة .

ولو نظرنا إلى دقَّة الأداء فى البيع لوجدناها قمة الأخْذ المباشر للرزق ، فجاء الحق سبحانه بالبيع لأنه قمة النفعية العاجلة .

لقد جاء الأمرُ بترْك هذه الثمرة العاجلة لأداء صلاة الجمعة ، ويتضمن هذا الأمر ترْك كلِّ الأمور التى قد تأتى ثمراتها من بعد ذلك لأداء الصلاة .

إن البيع هو التعبير الدقيق لأن المتكلمَ هو الله ، والحق لم يتكلم هنا مثلاً عن الشراء ، لأن المشترى قد يشترى وهو كاره ، لكن البائع يملؤه السرور وهو يبيع ، فقد يذهب رجلٌ لشراء أشياء لبيته فيسمع الأذان فيُسرع إلى الصلاة ويقول

لأهله من بعد ذلك : لقد ذهبت إلى الشراء لكن المؤذنَ قد أذَّن لصلاة الجمعة .

ذلك لأن الإنسان لا يحب أنْ يدفع نقوداً ، أما البائع فيستفيد بقيمة الفائدة ، فشهوة الإنسان متعلقة بالبيع لا بالشراء ، فالشراء يحتاج منَّا إلى مال على خلاف البيع الذى يجلب المال .

لذلك يحزن البائع إذا لم يبع ، أما المشترى فيقول حين لا يجد الشيء أو يجد المحلّ مُغلقاً : بركة يا جامع .

واعلم أنك إنْ أقبلتَ على الله أعطاكَ من الفُيوضات ما يُعوِّضك مكاسبَ الدنيا وتجارتها ، إنْ تركتها لإجابة النداء ، لذلك كان شعار الأذان الذى ارتضاه رسول الله ﷺ (الله أكبر) . أى : أكبر من أيِّ شيء غيره .

فإنْ كنتَ فى نوم فالله أكبر من النوم ، وإنْ كنتَ فى تجارة فالله أكبر من التجارة ، وإنْ كنتَ فى عمل فالله أكبر من العمل .. إلخ .

وعجيبٌ أنْ نرى مَنْ يُقدِّم العمل على الصلاة بحجة امتداد الوقت وإمكانية الصلاة بعد انتهاء العمل ، وهذه حجة واهية ، لأن ربَّك حين يناديك (الله أكبر) يريدك أنْ تستجيب على الفَوْر لا على التراخى ، وإلاَّ كيف تُسمِّى الاستجابة للنداء إذا تأخرتْ عن وقتها ؟

فطول الوقت خاصة بين الصبح والظهر ، وبين العشاء والصبح لا يعنى أنْ تصلى فى طُول هذا الوقت ، لأن النداء يقتضى الإسراع والاستجابة .

وقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (٩) ﴾ [الجمعة] هو الإشارة إلى ما سبق من السعى إلى ذِكْر الله ، وهو صلاة الجمعة واقترانه بترْك البيع .

و (ذا) اسم إشارة و (الحكيم) تشير للخطاب ، لأن الحق سبحانه وتعالى يخاطب جماعة . وبعض مَنْ لا يفهم اللغة يقول (ذلكم) كلمة واحدة خطاباً

أو إشارة ، وتقول لهم : لا بل هى كلمتان إشارة وخطاب . والإشارة هنا لشيء واحد والخطاب لجماعة .

﴿ خَيْرٌ لَكُمْ .. (٩) ﴾ [الجمعة] وخير هى أفعل تفضيل أصلها أخْيَر . أى : يعطيك منفعةً ما وربحاً سريعاً ، وهذا شيء طيِّب يحمل خيراً للإنسان .

إذا كان هذا خيراً فإنَّ الأشدَّ خيْريَّة منه هو الاستجابة لنداء الصلاة من يوم الجمعة وترْك البيع ، والسعى إلى ذِكْر الله حيث ينادى به .

﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة] والعلم هو أنْ تأخذ قضية تعتقدها ولها واقع وتستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، وإنْ اختلَّ شَرطٌ فيها فهذا خروجٌ عن العلم .

نقول ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة] أى : تتيقَّنون من قضية نسبية واقعة معتقدة تستطيعون أنْ تُدلِّلوا عليها ، فهناك موازين نعرف بها ما هو خَيْر وما هو شَرٌّ ، وحينما يقول الحق سبحانه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة] فكأنَّ هناك مقدماتٍ للعلم ، فإن لم يكونوا يعلمون فالله يعلمهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

فالحق تبارك وتعالى حينما يُحدِّثنا عن الصلاة من يوم الجمعة يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

وهكذا أخرجنا الحق سبحانه إلى الصلاة من عمل ، وبعد الصلاة أمرنا بالعمل والسَّعى والانتشار فى الأرض والابتغاء من فضْل الله .

فمخالفة الأمر فى ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة] كمخالفة الأمر فى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

فالإسلام لا يعرف التكاسل ولا يرضى بالتنبلة والقعود ، ومَنْ أراد السكون فلا ينتفع بحركة متحرك ، وسيدنا عمر رضى الله عنه حينما رأى رجلاً يقيم بالمسجد لا يفارقه سأل : ومَنْ ينفق عليه ؟ قالوا : أخوه . قال : أخوه أعبدُ منه[1]. لماذا ؟ لأنه يسهم فى حركة الحياة ويوسع المنفعة على الناس .

إذن : فكل عمل نافع عبادةٌ شريطةَ أنْ تتوفر له النية ، فالكافر يعمل وفى نيته أنْ يرزق نفسه ، فلو فعل المؤمن كذلك ، فما الفرق بينهما ؟ المؤمن يعمل نعم ليقُوت نفسه ، وأيضاً لييسِّر لإخوانه قُوتهم وحركة حياتهم .

فسائق التاكسى مثلاً إذا عمل بمبلغ يكفيه ، ثم انصرف إلى بيته وأوقف سيارته ، فمَنْ للمريض الذى يحتاج لمن يُوصِّله للطبيب ؟ والبائع لو اكتسب رزقه ثم أغلق دكانه فمَنْ يبيع للناس ؟

إذن : اعمل لنفسك وفى بالك أيضاً مصلحة الغير وحاجتهم ، فإنْ فعلتَ ذلك فأنت فى عبادة ، تعمل على قدر طاقتك ، لا على قدر حاجتك ، ثم تأخذ حاجتك من منتوج الطاقة ، والباقى يُردّ على الناس إمّا فى صورة صدقة ، وإما بثمن، وحسْبُك أنْ يسَّرت له السبيل .

(١) ما ذكره الغزالى فى الإحياء (٢/٣٥٠) هو من قول عيسى عليه السلام أنه قال للرجل : أخوك أعبد منك . وقد أخرجه أبو بكر الدينورى بسنده فى كتابه (المجالسة وجواهر العلم) (٧٥٣) وابن قتيبة فى عيون الأخبار (١/١٣٧) . أما ما ورد عن عمر بن الخطاب إنما هو قوله لأحد المتبطلين : « إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة» . ذكره أبو حامد الغزالى (٢/٣٥١) قال عمر : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول : اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » .

إذن : نقول العبادة كل حركة تُوَدِّى خدمةً فى الكون نيتُك فيها لله ، والعبادة هى طاعة العابد للمعبود ، فلا تأخذها على أنها العبادات التى نفعلها فقط من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، لأن هذه أركانُ الإسلام .

وما دامت هذه هى الأركان والأسس التى بُنى عليها الإسلام ، إذن : فالإسلام لا يتكوَّن من الأركان فقط ، بل الأركان هى الأسس التى بُنى عليها الإسلام .

والأسس التى بُنِى عليها البيت ليست هى كل البيت ، لذلك فالإسلام بُنيان متعدد ، فالذين يحاولون أنْ يأخذوا من المصطلح التصنيفى أو المصطلح الفنى فى العلوم ، ويقولون : إن العبادات هى الصلاة وما يتعلّق بها والزكاة والصوم والحج لأنها تُسمَّى فى كتب الفقه « العبادات » .

فلقد قلنا : إنَّ هذا هو الاسم الاصطلاحى، لكن كلّ أمر من الله فهو عبادة ، ولذلك فبعضُ الناسِ يقولون : نعبد الله ولا نعمل . نقول لهم : إن العبادةَ هى طاعة عابد لأمر معبود ، ولا تفهموا العبادة على أساس أنها الشعائر فقط ، فالشعائر هى إعلانَ واستدامةُ الولاء لله .

والشعائر تُعطى شحنة لتستقبل أحداثَ الحياة ، ولكن الشعائر وحدها ليستْ كلّ العبادة ، فالمعاملات عبادة ، والمفهوم الحقيقى للعبادة أنها تشمل عمارة الأرض .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ.. (١٠) ﴾ [الجمعة] فإنْ أطعنا الله فى الأمر الأول ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ.. (٩) ﴾ [الجمعة] فالأمر فى ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ.. (١٠) ﴾ [الجمعة] يستوجب الطاعة كذلك .

فكل حركة فى الحياة عبادة ، ثم ألاَ تحتاج الصلاةُ لقوام حياة ؟ لابد أنْ تتوافر لك مقومات حياة حتى تصلى ، فما هى مُقوِّمات حياتك ؟ إنها طعام

وشراب ومسكن وملبس ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

مثال ذلك أن الإنسان حين يصلى فهو يحتاج إلى قوة ، والقوة تتولد فى الجسم نتيجة تناول الطعام . إذن : عملية صناعة الطعام أمر واجب ، وكلّ ما يترتب على ذلك عملية واجبة .

لذلك عندما يأتى واحد ويقول : أريد أنْ أنقطع للعبادة وأعتزل حركة الحياة نقول له : افعلْ ذلك بشرط واحد هو ألاَّ تنتفعَ بحركة متحرك واحد فى الحياة ، ولا تتناول أيَّ طعام ، ذلك أن الرغيف الذى يُقدِّمه لك إنسان هو من عمل بشر كثيرين لم ينقطعوا عن الحياة .

ونقول له أيضاً : لماذا ترتدى هذا الجلباب ؟ إنه نتيجة حركة حياة بشر آخرين ، فهناك مَنْ زرع القطن ، وآخر حلج هذا القطن ، وثالث حوّله إلى غَزْل، ورابع نسجه ، وخامس قام بتفصيل هذا الجلباب .

ولتنظر إلى ما خلف كل واحد من الآلات ، وإياك أنْ تنتفع بحركة واحد مشغول بالأسباب ما دُمْتَ قد قررت الانقطاع عن حركة الحياة .

إن الشغل بالأسباب عبادة ، لأن العبادة لا تتم إلا به ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولذلك نتعلم المهارات المفيدة للحياة ، وهى فرض كفاية .

والفَرْض الواجب على الإنسان أحد اثنين : إما فرض عين وهو الأمر المكلَّف به الفرد ، ولابدَّ أنْ يؤديه ولا يجوز أنْ يؤديه أحدٌ نيابةً عنه كالصلاة .

وإما فرض كفاية ، وهو ما لا يتم الواجب إلا به ، لذلك كان واجباً ، فكلٌّ منّا يريد الطعام ، لذلك لابدَّ من تقسيم العمل ، فهذا يزرع وهذا يصنع ، فلا بدَّ من زراعة القمح ، ولابدَّ من إقامة المطاحن ، ولابدَّ من إقامة الأفران ، ولابدَّ من مهندسين يُصمِّمون هذه الآلات .

وكل ذلك أمور تُسهِّل للإنسان أنْ يمتلكَ القوة لأداء الصلاة ، وأنْ يقف بين يدى الحق ليؤدى الصلاة ، ولكن ماذا بعد انتهاء الصلاة ؟ ها هو الحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

إذن : فلا يقولنَّ أحدٌ أنا منقطع طوال حياتى للصلاة ، فلن يستطيع أحدٌ أنْ يذهب إلىَ الصلاة ما لم يكُنْ يملك مقوِّمات حياته ، ومقومات الحياة تقتضى أنْ يضربَ الإنسانُ فى الأرض ، ولابدَّ أنْ يبتغى الإنسانُ من فضل الله .

لقد أمر الحق سبحانه عباده المؤمنين بالانتشار فى الأرض ، لأن له هدفاً وغاية ، فالهدف السَّعى وطلب الرزق ، ومن معانى الانتشار السياحة وهى مأخوذة من ساح الماء إذا فاض وأخذ حيِّزاً أكبر .

والانتشار أو السياحة فى الأرض ينبغى أنْ تكون منظمة ، كما تنتشر نقطة الماء على القماش فتُحدث فيه دائرة منتظمة ، كذلك فى انتشاركم فى الأرض للسعى فى طلب الرزق يجب أنْ يكون بنظام معين ، بحيث لا يحدث تكدُّسٌ فى مكان أو زحام ، فى حين يخلو مكان آخر لا يجد مَنْ يعمره ويستنبط خيراته .

والسياحة فى الأرض أو الانتشار فيها الله تعالى يريده منا لغايتين : الأولى الضرب فى الأرض وابتغاء رزق الله وفضله ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [المزمل]

والضَّربُ فى الأرض ليس مجرد الانتشار فيها ، إنما المراد العمل والكفاح واستخراج خيراتها ، لأن الخالق سبحانه نَثَر القُوتَ فى أنحاء الأرض بالتساوى ونثر فيها الخيرات .

لذلك كلّ يوم تُعطينا الأرضُ جديداً من نِعَم الله ، كنَّا لا نعرف من خيرات الأرض إلا الزراعة ، فلما تقدمتْ العلوم والاكتشافات وتطورت أدواته عرفنا المعادن والبترول والكنوز المطمورة فى أرض الله ، وكلُّ أثر كنزيٍّ فى الأرض لا نستخرجه ولا نعرفه إلا بالضرب فى الأرض ، وسبق أنْ قلنا : الضرب إيقاع شيء بقوة .

كنّا نتعجب من الناس الذين يسكنون البوادى والصحراء ونشفق عليهم ، كيف يعيشون فى هذا الجَدْب والقَحْط ؟ ولماذا لا يتركون هذا المكانَ إلى غيره ؟

والآن وبعد هذه الاكتشافات البترولية صاروا هم أغنى الناس وتأتيهم كلّ خيرات الدنيا تحت أقدامهم ، لماذا ؟ لأنهم تمسَّكوا بأرضهم وبلادهم وصبروا عليها ، حتى آنَ الأوانُ لجنى خيراتها ، ولو أنهم يئسوا منها ما نالوا كلَّ هذا الخير .

أما الغاية الثانية للسياحة فى الأرض والضرب فيها أنْ تكون السياحة للاعتبار والتأمل فى آيات الله فى كَوْنه ، فبالتنقُّل والسير فى الأرض أرى آياتٍ ليستْ موجودة فى بيئتى .

وفى ذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾ [العنكبوت]

ويقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١) ﴾ [الأنعام] والمعنى أنَّ السير فى الأرض لابتغاء الرزق ينبغى أنْ يصاحبه نظرٌ وتأملٌ لآيات الله .

وإياك أنْ تظنَّ أن الله يريد أنْ تذكره ساعةً فحسب ، إنما اذكره دائماً وأبداً ، وإنْ كانت الصلاة لها ظرفٌ تُؤدّى فيه فذِكْر الله لا وقتَ له ، لذلك جعله الله يسيراً سهلاً لا مشقةَ فيه ، لا بالوقت ولا بالجهد .

فيكفى فى ذكر الله أنْ تتأمل المرائى التى تمرُّ بها ويقع عليها نظرك لترى فيها قدرة الله ، ومن كرمه سبحانه أنْ يُثيب العبد على كلِّ حركة خَيْر فى دنياه، لأن هذه الحركة مطلوبةٌ للإيمان .

وأنت إذا أردتَ أنْ تؤدِّى فرْضَ الله فى الصلاة مثلاً ، فأنت تحتاج إلى قوة لتؤدى هذه الفريضة ، ولن تجد هذه القوة إلا بالطعام والشراب .

ولنأخذ أبسط ما يمكن تصوّره من الطعام .. رغيف العيش .. فانظر كم يد شاركتْ فيه منذ كان حبَّةَ قمح تُلْقى فى الأرض إلى أنْ أصبح رغيفاً شهياً .

إن هؤلاء جميعاً الذين أداروا دولاب هذه العملية يؤدون حركة إيجابية فى الحياة هى فى حَدِّ ذاتها عبادة ، لأنها أعانتْك على عبادة .

أيضاً إذا أردتَ أنْ تصلى فواجبٌ عليك أنْ تستر عورتك ، انظر إلى هذا القماش الذى لا تتم الصلاة إلا به ، كل مَنْ أسهم فى زراعة القطن أو تربية الضأن لأخذ الصوف وصناعته حتى وصل إليك جميعهم يؤدون عبادة بحركتهم فى صناعة هذا القماش .

إذن : كل شيء يُعينك على عبادة الله فهو عبادة ، وكل حركة فى الكون تؤدى إلى شيء من هذا فهى عبادة .

والحق سبحانه حينما استدعى المؤمنين لصلاة الجمعة قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

لم يأخذهم من فراغ بل من عمل ، فإذا انقضتْ الصلاة أمرنا بالعودة إلى العمل والسعى فى مناكب الأرض ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

واعلم أن ما تنتشر إليه من الرزق وما تبتغيه إنما هو من فَضْل الله ، فإياك أنْ يشغلك انتشارُك فى الأرض وابتغاؤك من فضل الله والأخْذ بأسباب الدنيا عن واجبك نحو الله ، بل عليك أنْ تذكره سبحانه .

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ[1] وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) ﴾ [الأعراف]

أى : لا تكُنْ من الغافلين عن مطلوبات الله بالحدود التى بيَّنها الله عز وجل ، لأن الغفلة معناها انشغال البال بغير خالقك ، وأنت إنْ جعلتَ خالقك فى بالك دائماً فإنك لا تغفل عن مطلوباته فى الغدوِّ والآصال ، وفى كل وقت سواء كنتَ فى الصلوات الخمس ، أو كنتَ تضرب الأرض بأىِّ معنى من المعانى .

ونداء ربك أكبر من حركة الحياة ، فعليك أنْ تستجيب له ، لأن نداءَ ربك هو الذى سيمنحك القوة والطاقة ، ويعطيك الشحنة الإيمانية فتُقبل على عملك بهمَّة وإخلاص .

ولننظر إلى الدقة فى قوله تعالى : ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة] فالانتشار يعنى أنْ ينساح البشر لينتظموا فى كل حركات الحياة ، وبذلك تعمر كلّ حركة فيها ، فكلُّ حركة فى الحياة هى عبادة .

وكأنك ذهبتَ للمسجد لتأخذَ شحنة إيمانية تُعينك وتُسيطر على كلِّ حواسك ، فى حركتك فى التجارة ، وفى الإنتاج وفى الاستهلاك ، وفى كلِّ ما ينفعك ويُنمى حياتك .

وحين يأمرك ربُّك أنْ تفرُغَ لأداء الصلاة لا يريد من هذا الفراغ أنْ يُعطِّل لك حركة الحياة ، إنما ليعطيك الوقود اللازم لتصبح حركةُ حياتك على وفق ما أراده الله .

---

(١) الآصال : جمع أصيل – آخر النهار . وهو ما بين العصر والمغرب . وهو المساء . وفى البحر المديد : الآصال : صلاة الظهر والعصر والعشاءين . وهو ما بين العصر إلى الليل .

وما أشبه هذا الوقت الذى نختزنه من مصالح دنيانا فى عبادة الله بشحن بطارية الكهرباء ، فحين تذهب بالبطارية إلى جهاز الشحن لا نقول : إنك عطلت البطارية ، إنما زدتَ من صلاحيتها لأداء مهمتها وأخْذ خيرها .

فالمطلوب من المؤمن أنْ يسهم فى حركة الحياة مساهمةً إيجابية بنّاءة نافعة فى الحياة مُعينة على التدين ، فلو أخذنا مثلاً سَتْر العورة وهى واجب لا تتم الصلاة إلا به ، فلكى تستر عورتك لتصلى تحتاج إلى ثوبٍ تلبسه ، كيف يتوفر لك هذا الثوب ؟

إنه يحتاج إلى خياط يخيطه ، ويحتاج إلى تاجر التجزئة الذى تشترى منه القماش ، ثم تاجر الجملة ، ثم مصنع النسيج والغزل والصباغة والحلج ، ثم الفلاح الذى يزرع القطن ويجمعه .

كلُّ هذه العملية تحتاج إلى عِدَد وماكينات وآلات وأيْد عاملة ، فكُلُّ هذه الحركة من أجلك تخدمك وتعينك ، فهذه الأعمال الدنيوية التى لا تقوم الديانة إلا بها هى واجبة لا يُستهان بها ، بل ينبغى المحافظة عليها وتقديسها لأنها فى منزلة الواجب .

وحين يأخذك ربُّك من هذه الأعمال إلى الصلاة مثلاً لا يأخذك من عمل تافه هيِّن لا قيمةَ له ، إنما يأخذك من عمل هو فى حَدِّ ذاته عبادة ، لذلك جعله كبيراً، أما الذى يناديك للصلاة فأكبر من هذا كله .

لذلك لم يُناد الحق سبحانه المؤمن فى صلاة إلا فى صلاة الجمعة ، حيث قال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

فإذا ما انتهت الصلاة ردّك ربُّك إلى العمل الذى استدعاك منه وأعادك إلى دنياك .

إذن : لا تستهنْ بعمل الدنيا ولا تظنه بعيداً عن الدين بل هو جزء منه ، وما لا

يتم الواجبُ إلا به فهو واجب ، فأمرنا بالعودة إلى حركة الحياة لأنها الوسيلة للدار الآخرة والمزرعة التى تعد فيها الزاد للقاء الله تعالى .

إذن : الدنيا أهم من أنْ تُنسى من حيث هى معونة للآخرة ، ولكنها أتفه من أنْ تكونَ غايةً فى حَدِّ ذاتها ، أعطاك الحق سبحانه العقل لتفكر ، وأعطاك الطاقة لتفعل، وسخَّر لك الكون بالمطمور فيه من الرزق لتستخرجه وتتعيَّش منه .

وهكذا يتضح لك أنَّ كلَّ شيء يحتاج منك أنْ تتحرك ، وأنت فى حركتك تحتاج لطاقة تأخذها من الأعلى منك وتعطى للأدنى منك ، فأنت عندما تُدْعى إلى تلبية نداء الله تشحن طاقتك ، وتخرج للحياة بعد أنْ تُجدِّد ولاءك لمَن خلقك وخلق الأكوان كلها ، وإنْ أحسنتَ الوقوف بين يدى الله سيأتى مستقبلك مبنياً على هذا الإحسان .

ومن عظم شعور التابعين بآيات الله عز وجل ذلك الذى رُوى عن عراك بن مالك[1] أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد وقال : اللهم أجبتُ دعوتك ، وصليْتُ فريضتك ، وانتشرتُ كما أمرْتنى ، فارزقنى من فضلك، وأنت خيْرُ الرازقين[2] .

وقد قلتَ وقولك الحق : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

(١) عراك بن مالك : أحد بني غفار بن مليل . توفى زمن يزيد بن عبد الملك فى منفاه عام ١٠٤ هجرية بدهلك ، كان شيخاً كبيراً ، تابعى ثقة من خيار التابعين وكان زاهداً عابداً ، كان من أشد أصحاب عمر ابن عبد العزيز على بنى مروان فى انتزاع ما حازوا من الفىء ، والمظالم من أيديهم .

(٢) ذكر هذا القرطبى فى تفسيره (١٨/١٠٩) وكذا ابن كثير (٨/١٢٢) وفخر الدين الرازى فى تفسيره مفاتيح الغيب (سورة الجمعة) ؛ وذكره أيضاً ابن رجب الحنبلى فى كتابه (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) (ص ٥٤٦) .

وكان عبد الله بن بسر[١] إذا صلى الجمعة خرج من المسجد قدراً طويلاً ، ثم رجع إلى المسجد فيصلى ما شاء الله أنْ يصلى . فقيل له : يرحمك الله لأيِّ شيء تصنع هذا ؟ قال : لأنِّى رأيتُ سيد المسلمين ﷺ هكذا يصنع »[٢] يعنى النبى .

والذيـن يريـدون أنْ يعزلوا الدين عـن حركة الحياة يقولـون : إن الدين يهتم بالعبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، لهؤلاء نقول : أنتم تتكلمون عمَّا بلغكم من دين لم يجيء لينظم حركة الحياة ، وإنما جاء ليعطى الجرعة المفقودة عند اليهود وهى الجرعة الروحية .

أمـا الدِّين الإسلامى فقد جاء خاتمـاً للأديان ، مُنظِّماً لحركـة الحياة ، فكلُّ أمـر فى الحياة وكلُّ حركة فيها داخلة فى حدود الطاعة ، فالإسلام أوسع من الأركان الخمس ، فالأركان هى الشحنة التى يستدعيك ربُّك إليها ، فتأخذ من لقائه المدد الذى يُعينك على القيام بحركة الحياة .

ومثّلنا ذلك بالبطارية حين تذهب بها إلى الشحن ، فنحن لا نستفيد بها فى فترة الشحن ، إنما نعطيها الشحنة اللازمة لنعملَ بها بعد ذلك .

ومن عجيب أمر الرحمة الإلهية أن الله تعالى جعل الذهاب إلى شحنة الطاقة فرضاً تكليفياً لا بدَّ لك من القيام به ، لابدَّ لك أنْ تقابلنى خمس مرات فى اليوم والليلة ، ولابدَّ لك أنْ تسعى للصلاة من يوم الجمعة .

فأنت خَلْقى وصـنعتى ، والصـانع أعلم بما يُصلح صـنعته ، وتصوَّر صنعة تُعرض على صـانعها خمس مرات فى اليوم والليلة ، هل يبقى فيها عَطَب ؟

---

(١) عبد الله بن بسر المازنى أبو صفوان من بنى مازن بن منصور صحابى كان ممن صلى إلى القبلتين توفى بحمص بالشام عام ٨٨ هجرية عن ٩٥ عاماً ، وهو آخر الصحابة موتاً بالشام . [الأعلام للزركلى ٤/٧٤] وصفه الذهبى فى سير أعلام النبلاء (٣/٤٣٠) بأنه بركة الشام .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (سورة الجمعة) وعزاه لأبى عبيد وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه. وأورده الألوسى فى روح المعانى (١٤/٢٩٨) .

هـذا فـى الصـانع إنْ كان من البشر ، فما بالك بالصـانع إنْ كان هو ربّ البشر وخالقهم سبحانه ؟

الصـانع من البشر يُصلح صنعته بشيء مادى ، ذلك لأن المهندس وصنعته شيءٌ مادى فيصلح بالمادة ، أما الخالق سبحانه فغيْب فحين يصلحك من عطب فيك يُصلحك بالغيب فلا تشعر به ولا تراه .

إذن : نقول لابد أنْ نفهم الدين على حقيقته ، وأنْ نفهم أنَّ لكل منا مهمةً فإذا تفـوَّق عليـك غيرُك فاعلم أنَّ تفوّقه لصـالحك وعائدٌ عليك ، لأنـه بتفوّقه يؤدى إليك خدمة فى حين أنه لا يستفيد منك .

وممـا يُلفـت إليه قـوْل الحق سـبحانه : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعـة] ثـم قوله ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

فالخطـاب كلُّه للرجال ، فالرجال هم المكلَّفون بصلاة الجمعة حيث يُنادى بها ، وهم فى الغالب القائمون بعملية البيع ، ولاحظ أن الحق سبحانه لم يذكر الشراء وهو قد يقع من المرأة أكثر .

ثـم يأتـى ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة] فالانتشار فى الأرض والسعى على الرزق إلا لضرورة ألجأتْها لهذا ، وعلى المجتمع أنْ لا يجعل المرأة عُرْضة لتحكم الضرورات بها وبحياتها .

فالرجل هو المكلَّف والمُطالَب بالتحرُّك فى هذا الكون ، أما المرأة فتدير بيتها لتكون سكناً لزوجها ولأولادها ، ولتخرج رجالاً لهذا المجتمع ، أما إذا ألجأتها الظـروف وضرورات الحياة فلها أنْ تتحرك لكسـب الرزق ، ولكن بقدر ما يُحقِّق لهـا الاحـترام والتقدير مـن المجتمع ، وعلـى المجتمع أنْ يكفيهـا احتياجاتها فيحفظ لها مكانتها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة] ، فالحق سبحانه حين يخاطب المسلمين لا يقول كما يقول لبنى إسرائيل : اذكروا نعمة الله .

وإنما يقول (اذكروا الله) لأن بنى إسرائيل ماديون ودُنيويون ، فكأنَّ الحق سبحانه يقول لهم : ما دُمتم ماديين ودنيويين فاذكروا نعمة الله المادية عليكم.

ولكننا نحن المسلمين أمةٌ غير مادية ، وهناك فَرْقٌ بين أنْ يكونَ الإنسانُ مع النعمة وأنْ يكون مع المنعم ، الماديون يحبون النعمة ، وغير الماديين يحبون المنْعِم ويعيشون فى معيته سبحانه .

ولذلك فخطابه سبحانه للمسلمين ﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ .. (١٠) ﴾ [الجمعة] لأننا نحن مع المنعِم ، بينما خطابه سبحانه لبنى إسرائيل ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ .. (٦) ﴾ [إبراهيم]

والحق تبارك وتعالى يقول مرة : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) ﴾ [الأحزاب] ومرة يقول : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ .. (٤١) ﴾ [آل عمران]

فقوله ﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ .. (١٠) ﴾ [الجمعة] بلفظ الجلالة (الله) يستشعر سامعها التكاليف لأنَّ الله هو المعبود ، والمعبود هو المطاع فى الأوامر والنواهى .

أما قوله ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ .. (٤١) ﴾ [آل عمران] فهو تذكير لك بما حَبَاك به من أفضال ، خَلَقك وربّاك وأعطاك من فيض نعمه ما لا يُعدُّ ولا يُحصى ، فاذكر ربك لأنك إنْ لم تعشقه تكليفاً فأنت قد عشقته لأنه مُمدُّك بالنعم ، وسبحانه يتفضَّل علينا ويُوالينا جميعاً بالنعم .

واذكر ربك على حالين : الأول تضرعاً أى بذلَّة لأنك قد تذكر واحداً بكبرياء ، إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أنْ تذكره بذلَّة عبوديةٍ لمقام الربوبية .

واذكر ربك خِيفة أى خائفاً متضرعاً ، لأنك كلما ذللتَ له يعزك ، ويطلق الذكر على تذكر الله دائماً .

وهو سبحانه القائل ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة] أي : اذكرونى بالطاعة أذكركم بالخير والتجليات ، فإذا كان الذكر بهذه المعانى ، فنحن نجد الاطمئنان فى أيِّ منها ، فالذكر بمعنى القرآن يُورِثُ الاطمئنان .

ولذلك يعطى رسولُ الله لنا المثل فيقول : « مَثَلُ الذي يذكر ربَّه ، والذي لا يذكر ربَّه مثل الحيِّ والميت »[١]

وعمليةُ الذِّكر نفسها عملية معنوية ، ولكى يُقرِّبه رسول الله ﷺ للأذهان ضرب مثلاً ، فمثَّله بالحى والميت ، فالحى كائن حَيّ يتحرك ويشعر ويسمع ويبصر ويتكلم أى فيه حياة ، أما الميت فقد ماتت فيه الأحاسيس ، بل هو جسد لا حِراكَ له .

فالذى يذكر الله قلبُه حَيٌّ وضميره حَيٌّ وأحاسيسه حيَّة تستقبل كلام الله بقلبٍ مفتوح وعقلٍ مستوعب ، أما الميت فلا تنتظر منه خيراً لأنه ببساطة ميت .

ولا تظنوا أن الذكرَ قاصرٌ على الصلاة فقط ، إنما ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

فيجب ألاَّ يغيبَ ذكرُ الله عن بالك أبداً ، لأن ذِكْرك لربك خارج الصلاة أكبر من ذكرك له سبحانه في الصلاة .

ورُوى عن عطاء بن السائب[٢] أن ابن عباس سأل عبد الله بن ربيعة[٣] : ما

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٠٧) وأورده أبو محمد عبد الحق الإشبيلى فى كتابه (الأحكام الشرعية) (١٤١/٣) ، وأخرجه البغوى فى شرح السنة (١٢٤٣) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

(٢) عطاء بن السائب إمام حافظ محدث الكوفة أبو السائب ، كان من كبار العلماء ، لكنه ساء حفظه قليلاً فى أواخر عمره . قال أبو حاتم : كان محله الصدق قديماً قبل أن يختلط ثم تغير حفظه . [سير أعلام النبلاء للذهبى] .

(٣) عبد الله بن ربيعة بن فرقد السلمى ، قيل : له صحبة ، فإن لم تكن فحديثه من قبيل المرسل نزل الكوفة، توفى بعد الثمانين . قال ابن ربيعة : صليت خلف عمر الفجر فقرأ سورة الحج وسورة يوسف قراءة بطيئة . (سير أعلام النبوة ١١٦ - ٥٠٤/٣) .

تقول فى قوله تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

فقال : قراءة القرآن حسن ، والصلاة حسن ، وتسبيح الله حسن ، وتحميده حسن ، وتكبيره حسن ، والتهليل له حسن ، لكن أحسن من ذلك أنْ يكونَ ذكرُ الله عند طروق المعصية على الإنسان ، فيذكر ربه فيمتنع عن معصيته .

فماذا قال ابن عباس مع أن هذا القول مخالفٌ لقوله فى الآية ؟ قال : عجيبٌ والله . فأُعجب بقول ابن ربيعة وبَارك فَهْمه للآية ، ولم ينكر عليه اجتهاده ، لأن الإنسان طبيعى أنْ يذكر الله فى حال الطاعة فهو متهيىءٌ للذكر .

أما أنْ يذكره حال المعصية فيرتدع عنها فهذا أقوى وأبلغ ، وهذا أكبر كما قال سبحانه ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

لذلك جاء فى الحديث الشريف « سبعة يُظلُّهم الله فى ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه – ومنهم : ورجل دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنصبٍ وجمال فقال : إنى أخاف الله »[1] .

هذا هو ذكر الله الأكبر ، لأن الدواعى دواعى معصية فيحتاج الأمر إلى مجاهدة تُحوِّل المعصية إلى طاعة .

﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] فإياك أنْ تظنَّ أنَّ الله يريد أنْ تذكره ساعةَ الصلاة فحسب ، إنما اذكره دائماً وأبداً ، وإنْ كانت الصلاة لها ظرفٌ تُؤدَّى فيه ، فذِكْر الله لا وقتَ له .

لذلك جعل اللهُ الذكرَ سَهْلاً يسيراً ، لا مشقة فيه ، لا بالوقت ولا بالجهد ، فيكفى فى ذكر الله أنْ تتأمل المرائى التى تمرُّ بها ويقع عليها نظرك لترى فيها قدرةَ الله .

فذِكْر الله لا يُكلِّفك شيئاً ولا يشقّ عليك ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (١٧٠٩) والبخارى فى صحيحه (٦٦٠) ومسلم فى صحيحه (٢٤٢٧)، وأحمد فى مسنده (٩٦٦٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

.. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] يعنى : أكبر من أيِّ طاعة أخرى لأنه يسيرٌ على لسانك ، تستطيعه فى كلِّ عملٍ من أعمالك وفى كلِّ وقت وفى أيِّ مكان .

فذِكْر الله أكبر من أىِّ عبادة ، لأن العبادات كما ذكرنا تحتاج إلى استعداد وإلى وقت وإلى مشقة وإلى تفرُّغ وعدم مشغولية ، أما ذكر الله فهو يجرى على لسانك فى أيِّ وقت ، وبدون استعداد أو مشقة ويلهج به لسانك فى أىِّ وقت وعلى أيِّ حال أنت فيه .

واقرأ فى ذلك قوله تعالى فى سورة الجمعة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

فما دام أن الذكر هو أنْ تجعلَ اللهَ على بالك وعلى لسانك ، فلا يمنعْك من ذلك سعيٌ ولا عمل ، لأن الذكر أخفّ العبادات وأيسرها على النفس وأثقلها فى الميزان .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) ﴾ [الأحزاب]

فالحقّ سبحانه أمرنا بذكره ذِكراً كثيراً ، لأن الذكرَ عمدةُ العبادات وأيسرُها على المؤمن ، لذلك نجد ربّنا يأمرنا به عند الانتهاء من العبادات كالصلاة والصيام والحج .

والذكر شَغْل الذاكرة وهى منطقة فى المخ . قلنا : إنّ المعلومة يستقبلها الإنسانُ فى بُؤرة شعوره ، فإذا أراد أنْ يحتفظَ بها لحين الحاجة إليها حفظها فى الحافظة أو فى حاشية الشعور .

فأنت مثلاً ترى شخصاً فتقول : هذا الرجل لم أره منذ عشرين سنة ، وآخر مرة رأيته كان فى المكان الفلانى .

إذن : الذكر لشيء كان موجوداً فى بؤرة الشعور ، الذكر يعنى قضية موجودة عندك بواقع كان لها ساعة وجودها ، لكن حصلتْ عنها غفلةٌ نقلتْها إلى حاشية الشعور أو الحافظة بعد ذلك نريد منك ألاَّ تنساها فى الحاشية أو فى منطقة بعيدة بحيث تحتاج إلى مجهود لتذكّرها ، إنما اجعلها دائماً فى منطقة قريبة لك ، بحيث يسهل عليك تذكُّرها دون عناء .

وكذلك ينبغى أنْ يكون ذكرُكَ لله ، فهو القضية الحيوية التى ينبغى أنْ تظلَّ على ذِكْر لها دائماً وأبداً ، وكيف تنسى ذكر ربك وقد أخذ عليك العهد وأنت فى عالم الذر ، وأخذ منك الإقرار بأنه سبحانه ربك .

والذكر هو العبادة الوحيدة التى لا تُكلِّفك شيئاً ولا تعطل جارحةً من جوارحك ، ولا يحتاج منك إلى وقت ولا إلى مجهود وليس له وقتٌ مخصوص .

فمن ذكر الله قائماً ، أو ذكر الله على جَنْبه عُدَّ من الذاكرين ، هذا بالنسبة لوضعك حين الذكر ، ومن ذكر الله بُكرةً ، أو ذكر الله أصيلاً أو غُدواً أو عشياً أصبح من الذاكرين ، هذا بالنسبة لزمان ذكرك .

ومَنْ قال سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حوْلَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم ثلاثين مرة فى اليوم كُتب من الذاكرين(١) ، ومَن استيقظ ليلاً فأيقظ أهله وصلى ركعتين فهو من الذاكرين(٢) .

إذن : فذكْر الله مسألةٌ سهلة تستطيع أنْ تذكر الله وأنت تعمل بالفأس أو تكتبَ بالقلم ، تذكر الله وأنت تأكل أو تشرب .. إلخ ، فذكْر الله وإن كان أكبر إلا أنه على المؤمن سهلٌ وهيِّن .

(١) عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ لأبى بكر : ألا أدلك على صدقة تملأ ما بين السماء والأرض : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله فى يوم ثلاثين مرة . أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (٢٩٧٢٨) .

(٢) أخرجه البيهقى فى سننه الصغرى (٦٠٩) عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « من استيقظ من الليل فأيقظ أهله فصليا ركعتين جميعاً كُتب ليلتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » .

واعلم أن ذكر الله سبحانه وتعالى يجعلك فى ركن ركين لا يصل إليك مكروهٌ ولا شَرٌّ ، إنَّ ذكر الله المنعم يُعطينا حركة الحياة فى كلِّ شيء ، فذكر الله يُوجد فى القلوب الخشوعَ ، ويُقلِّل من المعاصى وينتفع الناسُ كلُّ الناس به ، ويجعل حركة الحياة مستقيمة .

وقد كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر(١) ، وفى الحديث « كان رسول الله يُكثر الذكر »(٢) لماذا ؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطالٌ حركة بحركة، فمَنْ كان قائماً فقعد فقد أدَّى حركة هى القعود ، ومَنْ كان جالساً فقام فقد أدَّى حركةً هى القيام ، وكان الرسول ﷺ يذكر الله فى كل حركة شاكراً نعمة الخالق عز وجل .

وربُّ العزة سبحانه يقول فى الحديث القدسى : « أنا عند ظَنِّ عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإنْ ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى نفسى ، وإنْ ذكرنى فى ملأ ذكرتُه فى ملأ خيْرٍ منه ، وإنْ تقرَّب إليَّ بشبر تقرَّبتُ إليه ذراعاً ، وإنْ تقرَّب إليَّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، وإنْ أتانى يمشى أتيتُه هرولة »(٣) .

فأنت بإيمانك بالله تُعزِّز نفسك وتُقوِّيها بمعونة الله لك ، فإنْ أردتَ أنْ يذكرك الله فاذكر الله ، فإنْ ذكرتَهُ فى نفسك يذكرك فى نفسه ، وإنْ ذكرتَهُ فى ملأ يذكرك فى ملأ خيْر منه ، وإنْ تقرَّبْتَ إليه شبراً تقرَّب إليك ذراعاً .

(١) أخرجه البيهقى فى « شعب الإيمان » (١٣٦٢) عن الحسن بن على بن أبى طالب قال : سألت خالى هند ابن أبى هالة وكان وصافاً ، فكان منه : « فسألته عن مجلسه فقال : كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس » ، وكذا أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧٨٦٨) .

(٢) عن عبد الله بن أبى أوفى قال : « كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر ويقل اللغو ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة ولا يأنف أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى له الحاجة » . أخرجه النسائى فى سننه (١٤١٤) والحاكم فى مستدركه (٤٢٢٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٣٧٧) .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٩٨١ ، ٧٠٠٨) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) وابن ماجه فى سننه (٣٨٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فماذا تريد أكثرَ من ذلك ، خاصةً أنك لن تضيف إليه شيئاً ، إذن : فالموقف فى يدك ، فإذا أردتَ أنْ يكونَ الله معك فسرْ فى طريقه تأتكَ معونته فوراً ، وهكذا يكون الموقفُ معك وينتقل إليك ، وذلك بإيمانك بالله وإقبالك على حُبِّ الارتباط به وذِكْره سبحانه .

ويُحدِّثنا الحقُّ سبحانه عن أثر ذِكْر الله فى القلوب والأبدان ، فيقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ[1] قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ﴾ [الأنفال]

فذِكْر الله يُحدِثُ فى قلوب المؤمنين وَجَلاً وخشيةً ، والوَجَل هو الخوف فى فزع ينشأ منه قشعريرة واضطرابٌ فى القلب ، ولكن إذا كان ذكْر الله عز وجل يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل ألاَ يتناقض هذا مع قوْل الحق سبحانه : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

وفى الحقيقة لا يوجد تعارض بين القولين ، لأن ذكرَ الله تعالى يأتى بأحوال متعددة ، فإنْ كان الإنسانُ مُسرفاً على نفسه فهو يرجف حين يذكر الله الذى خالف منهجه .

وإنْ كان الإنسانُ يُراعى حقَّ الله فى كلِّ عمل قَدْر الاستطاعة فلابدَّ أنْ يطمئنَّ قلبه لحظة ذِكْر الله ، لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

إذن : فالخوف والوَجَل إنما ينشأ من مهابة وسطوة صفات الجلال ، والاطمئنان إنما يجيء من إشراقات وحنانِ صفات الجمال ، ولذلك تجمعها آية واحدة هى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ .. (٢٣) ﴾ [الزمر]

(١) وجلت قلوبهم : أى خافت من الله جلّ وعلا . وقال فى أيسر التفاسير : وجلت : فزعت ورقت استعظاماً وهيبة . الوجل هو الخوف لاسيما عند ذكر وعده ووعيده .

فالجلود تقشعرُّ خوفاً ووجلاً ومهابةً من الله عز وجل ، ثم تلين اطمئناناً وطمعاً فى حنان المنان سبحانه وتعالى ، لأن ربنا قال : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ [الحجر]

وذِكْر الله يتأكد عند أقسى اللحظات على الإنسان وهو فى مواجهة العدو فى ساحة القتال ، فيقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) ﴾ [الأنفال]

وسبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية ، وهو العليم بها حين تكون أمام قوة لم تحسب حسابها ، وكيف تعانى النفس من كرْبٍ عظيم ، خصوصاً إذا كان ذلك فى ميدان القتال .

لذلك طلب من المؤمنين أنْ يتذكَّروا دائماً أنهم ليسوا وحدهم فى المعركة ، وأنه سبحانه وتعالى معهم فليذكروا هذا كثيراً ليُوالى نصرهم على عدوِّهم ، لأنهم إذا ما داوموا على ذِكْر الله تعالى فسيُقوِّى هذا الذكرُ إيمانهم ، ويجعل فى قلوبهم الشجاعة اللازمة لتحقيق النصر .

وقوْل الحق سبحانه هنا ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا .. (١٠) ﴾ [الجمعة] يعنى أن الإنسان لابدّ أنْ يذكر الله على كلِّ حال ، فى الرخاء والشدة .

وقد وصف الحق سبحانه الذاكرين اللهَ كثيراً بأنهم أولو الألباب ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾ [آل عمران]

ثم وصفهم فقال : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ .. (١٩١) ﴾ [آل عمران] وقال بعض العلماء فى تفسيرهم للآية : إن المقصود بذلك هو الصلاة ، فمَنْ لا يستطيع الصلاة قائماً يُصلِّى قاعداً ، ومَنْ لا يستطيع الصلاة

قاعداً فليصل مُضطجعاً(١) .

ونقول لهؤلاء العلماء : لقد خصصتُم هذا المعنى حيث المقام للتعميم ، وحتى لا يظنّ أحدٌ أنّ الفروض الخمسة هى التى يُذكر فيها الله فقط قال سبحانه :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣) ﴾ [النساء]

فذِكْر الله أمر متصلٌ واجب فى الصلاة وفى غيرها . أى : اجعلوا الله دائماً على بالكم . والقلوب إنما تطمئن بذكر الله ، فالاطمئنان مستوعبٌ لكلِّ القلوب ، فكلُّ إنسانٍ له زاوية يضطرب فيها قلبه، وما أنْ يذكر الله حتى يجد الاطمئنان ويتثبَّت قلبه .

وذكر الله إنْ جاء بعد المخالفة لابدَّ للنفس أنْ تخاف وتَوْجَل وتضطرب هيبةً لله عزَّ وجل ، أما إنْ جاء ذكرُ الله بعد المصيبة أو الشدة فإنَّ النفسَ تطمئنُّ به وتأنس لما فيها من رصيد إيمانى ترجع إليه عند الشدة وتركن إليه عند الضيق والبلاء .

وما دام المؤمن قد ثبت قلبه بذكر الله وبالإيمان وبالقول الثابت فهو لا يتعرَّض لزيغ القلب ولا يتزعزع عن الحق .

ولكن ما هو الذكر ؟

الذكْر هو الحفظ من النسيان ، لأن روتينَ الحياة يجعلنا ننسى المُسبِّب للنعم، فالشمس تطلع كل يوم ، مَنْ منَّا يتذكر أنها لا تطلع إلا بإذن الله فيشكره ،

(١) عن الحسين بن على رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « يصلى المريض قائماً إن استطاع فإن لم يستطع صلى قاعداً ، فإن لم يستطع أن يسجد أومأ وجعل سجوده أخفض من ركوعه ، فإن لم يستطع أن يصلى قاعداً صلى على جنبه الأيمن مستقبل القبلة ، فإن لم يستطع أن يصلى على جنبه الأيمن صلى مستلقياً رجله مما يلى القبلة » أخرجه البيهقى فى سننه (٣٤٩٣) .

والمطر ينزل كل فترة ، مَنْ منَّا يتذكر أن المطر يُنزله الله فيشكره .

فالذكر يكون باللسان وبالقلب ، والله سبحانه وتعالى غيْبٌ مستور. وعظمته أنه مستورٌ ، ولكن نِعَم الله سبحانه تدلُّنا عليه ، فبالذكر يكون الله فى بالنا دائماً ، وبنعمه يكون ذكره وشكره دائماً .

فالله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر ، وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم ، فرغبةُ الكريم فى أن يعطى بشرط أنْ نكون أهلاً للعطاء لأنه يريد أنْ يعطيك أكثر وأكثر .

فقوله تعالى : (اذكرونى) أى : اذكروا الله فى كلِّ شيء فى نعمه ، فى عطائه، فى سَتْره ، فى رحمته ، فى توبته .

يقول بعض الصالحين : سمعتُ فيمَنْ سمع عن حبيبى رسول الله ﷺ أنك إذا ما أقبلت على شرب الماء فقسِّمه ثلاثاً : أول جرعة قل باسم الله واشربها ، ثم قل الحمد لله ، وابدأ شرب الجرعة الثانية وقل باسم الله ، وبعد الانتهاء منها قل الحمد لله .

ثم قل باسم الله واشرب الجرعة الثالثة واختمها بقولك الحمد لله ، فما دام هذا الماء فى جوفك فلن تُحدِّثك ذرة من جسدك بمعصية الله(١).

جرِّبها يوماً فى نفسك وقُلْ باسم الله واشرب ، وقُل الحمد لله وكرِّرها ثلاث مرات فإنك تكون قد استقبلتَ النعمة بذكر المُنعِم ، وأبعدتَ عن نفسك حوْلَك وقوتك ، وأنهيتَ النعمة بالحمد لله .

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يشرب فى ثلاثة أنفاس ، إذا أدنى الإناء إلى فيه سمَّى الله ، فإذا أخَّره حمد الله ، يفعل به ثلاث مرات . أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٣٢) ، وكذا فى المعجم الأوسط (٨٤٠) . وأخرجه أبو الشيخ الأصبهانى فى (أخلاق النبى) (٦٥٦) من حديث ابن مسعود قال : « كان رسول الله ﷺ إذا شرب تنفس على الإناء ثلاثة أنفاس ، يحمد الله على كل نفس، ويشكره عند آخرهن » .

والذكْر مطلقاً هو ذكرُ الله بآلائه وعظمته وقُدرته وصفات الكمال له ، والتسبيح هو التنزيه لله ، لأن ما فعله الله لا يمكن أنْ يحدث مِنْ سواه .

فسبحان الله معناها تنزيه الله ، لأنه القادر على أنْ يفعل ما لا تفعله الأسبابُ ولا يقدر أحدٌ أنْ يصنعه ، إنه يريد أنْ يشكر الحقَّ الذى يرزق مَنْ يشاء بغير حساب .

فيُراد بالذكر أحياناً التسبيح والتحميد ، انظر إلى قوله الحق ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ .. (٣٧) ﴾ [النور]

وهو ذِكْر ، لأن هناك مَنْ يُسبّح له فيها بالغدو والآصال ، وهم رجال موصوفون بأنهم لا تُلهيهم تجارة ولا بَيْع عن ذِكْر الله ، وقد يُطلق الذكر ويُراد منه خيرُ الله على عباده ، ويُراد به كذلك ذِكْر عبادتهم له بالطاعة ، فسبحانه يذكُرهم بالخير وهم يذكرونه بالطاعة .

فذكْره لهم بالنِّعَم والخيرات فَضْل وإحسانٌ وهو الكبير المتعال ، فهناك إذن ذكْرٌ ثانٍ ذكر أقل منه وهو العبادة لربهم بالطاعة ، ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة] أى : اذكرونى بالطاعة أذكركم بالخير .

ومحلُّ ذِكْر الله قد يكون المسجد أو غير المسجد ، داخله وخارجه ، فى بيتك ، فى عملك ، فى مَشْيك ، عند نومك ، فى انتباهتك من نومك ، وفى كل حين وفى كلِّ مكان .

ولكن آكد ما يكون ذكر الله يكون فى المساجد بيوت الله ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا .. (١١٤) ﴾ [البقرة]

فلا يوجد أحدٌ أظلمَ من ذلك الذى يمنع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه ، فهذا هو الظلم العظيم وهو ظلم القمة ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا .. (١١٤) ﴾ [البقرة] أى : فى إزالتها أو بقائها غير صالحة لأداء العبادة ، والسعى فى خراب المسجد هو هدمه .

إننى أحذر كلَّ مؤمن أنْ يتخاذل أو يضعف أمام أولئك الذين يحاولون أنْ يمنعوا ذكر الله فى مساجد الله ، لأنه فى هذه الحالة يكون مرتكباً لذنبهم نفسه وربما أكثر ، ولا يتركه الله يوم القيامة بل يسوقه إلى النار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا
وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ
وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾

اثنا عشر رجلاً بقَوْا مع رسول الله ﷺ فيهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، لم يتركوه قائماً يخطب كما تركه آخرون ، بل بقوا معه ﷺ لأنهم أصحابُ يقين أن الخير فى معية الحبيب المصطفى ، فهم معه يكونون فى ضيافة الحق سبحانه .

لذلك ثبتُوا مع رسول الله حينما نظر آخرون إلى الدنيا ومتاعها الزائل فانفضوا عنه ﷺ ، وخرجوا يستقبلون قافلة جاءت من الشام مصحوبةً بلَهْوٍ وطَبْل .

وشاء الحق سبحانه أنْ لا يعاقبهم أو يُعذِّبهم بما فعلوه لوجود رسول الله الذى كان أماناً لهم من أنْ ينزلَ بهم عذابٌ ، ولابد أنْ نعلم أنَّ المدينة كانت قد أصبحتْ منزلاً ينزل فيه ناسٌ من بقاعٍ شتى طالبين التعرُّف على الدين الجديد،

وكان فى المدينة الكثيرُ من حُدثاء عهدٍ بالإسلام أو منافقون .

وقد روى جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يخطب قائماً يوم الجمعة ، فجاءت عِيرٌ من الشام فانفتل[(١)] الناسُ إليها حتى لم يبْقَ إلا اثنى عشر رجلاً[(٢)] ، فأنزلت هذه الآية التى فى الجمعة ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

وللقرآن دقة فى الأداء الأسلوبى واللغوى ، ومن هذا أن القرآن هنا يقول ﴿ وَإِذَا رَأَوْا .. (١١) ﴾ [الجمعة] فكلمة رأى تُطلق ويُراد بها العلم ، مثل قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ .. (٤٣) ﴾ [الفرقان] أى : أعلمتَ .

فهؤلاء الذين كانوا فى مسجد رسول الله يستمعون لخطبته ﷺ فى يوم الجمعة لم يروا العير والقافلة التى جاءتْ رؤية العين ، إنما علموا بها أو سمعوا جلبةً وضوضاءَ للقافلة الآتية ، فإذا بهم يخرجون ويتركون رسول الله قائماً إلا اثنى عشر رجلاً فيهم أبو بكر وعمر .

ومثال أنّ (رأى) قد تأتى بمعنى (علم) أن الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل]

يعنى : ألم تعلم علمَ اليقين ، فرسول الله وُلد عام الفيل فلم يَرَ هذه الحادثة ، وكأنَّ الله يُخبره بها ويقول له : ألم تعلم وكأنه يقول له : اعلم علماً يقينياً كأنك

(١) انفتل : التوى وانصرف ويقال انفتل عن رأيه وعن حاجته وانفتل وجهه عنهم . (المعجم الوسيط – باب الفاء) . وانفتل من الصلاة : انصرف .

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٣٤٤٦٠) وذكره القرطبى فى تفسيره أنه فى صحيح مسلم وقال : فى رواية فيهم أبو بكر وعمر . (أى فى الذين بقوا مع رسول الله ﷺ) . وعند الدارقطنى أن الذين بقوا أربعون ، وقد ذكر الشوكانى فى فتح القدير (٧/٢٢٣) أنه كان بأهل المدينة فاقة وحاجة ، والحديث فى مسلم (٢٠٣٤) وصحيح ابن خزيمة (١٨٢٣) وأبو يعلى فى مسنده (١٨٨٨) والبيهقى فى سننه الكبرى (٥٨٣٢) .

تراه ، لأن ربك أوثقُ من عينيك .

هؤلاء رأوا عيناً ، أو رأوا سماعاً أو علماً ، رأوا تجارة أو لهواً ، رأوا تجارة كانوا ينتظرونها لِسَدِّ حاجتهم ، ولكن هذا لا يبيح لهم تَرْكَ رسول الله وهو يخطب فيهم ، لذلك كان عتابُ الحق سبحانه لهم وحِلمه عليهم فلم يُعذِّبهم بما فعلوه .

والتجارة كانت تمثل أهمَّ نشاطٍ اقتصاديٍّ للعرب فى ذلك الوقت ، تجارة وقوافل وعير تنطلق إلى اليمن فى الشتاء ، وتنطلق إلى الشام فى الصيف ، وهو ما مَنَّ الله به على أهل قريش ، فقال تعالى :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ [قريش]

فالتجارة كانت هى سِرّ معاشهم لجلب البضائع من الشمال والجنوب لبيعها للزائرين للبيت الحرام فى مكة فى الجاهلية ، أو بيع تجارة الشام لأهل اليمن ، وبيع تجارة اليمن لأهل الشام .

فهما رحلتان كانتا لقريش فى العام : رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، وكانت تسلك سبلاً متعددة فتهتدى بالنجوم فى طريقها ، ولذلك كانوا أصحابَ قوة وأصحابَ مال .

وقد حقَّق الله لهم الأمن والطمأنينة فى طريق التجارة بما كان لهم من السيادة على بيت الله الحرام ، والإنسان لا يطمئنُّ إلا فى المكان الخالى من المنغِّصات والذى يجد فيه كلَّ مُقوِّمات الحياة ، فالأمن والطمأنينة هما سِرُّ سعادة الحياة واستقرارها .

وحينما امتنَّ الله تعالى على قريش قال : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وقال الحق سبحانه عن مكة ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [القصص]

فهذه القريـة كان يأتى إليها الرزقُ من كلِّ مكان ، أما المدينة فلم يكُنْ فيها البيتُ الحرام ، وتجارتها كانت مع الشام فقط ، فالطريق إلى اليمن كان محفوفاً بالمخاطر ، لأن قريشاً لم تكُنْ لتترك قوافلَ المسلمين تذهب إلى اليمن .

والروايات تروى أن صـاحب القافلة[1] التى دخلتْ المدينة وقتذاك كان هو عبد الرحمن بن عوف ، وهو مَنْ هو فى عالم التجارة حتى أنه عندما هاجر من مكة إلى المدينة رفض أنْ يقاسم الأنصارى ماله وأهله وقال له : دُلَّنى على السوق[2] .

والتجارة بيعٌ وشراء ، وهى وسـاطةٌ بين المنتج والمسـتهلك ، المنتج يريد أنْ يبيعَ إنتاجه ، والمسـتهلك محتاجٌ إلى هذا الإنتاج ، وعملية الاتجار اسـتخدمها الله سبحانه ليبيِّن لنا أنها أقصر طريق إلى النفع .

فالتجـارة هـى الجامعة لأعمـال الحياة ، فتكون تجارة فـى منتج زراعى أو صناعى أو خدمى ، لذلك كانت التجارةُ جامعةً لذلك كله .

وقـد كانـت هذه التجارةُ تتم علـى ظهور الجمال ، وكانـت تأخذ وقتاً طويلاً حتى تعودَ إلى المدينة والجميع ينتظرها ، ووافق رجوعها وقت أنْ كان رسـول الله ﷺ قـائماً يخطب خطبة الجمعة ، فما ثبتَ جالسـاً يسـتمع إلى رسول الله إلا

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (١٨/١٠٩) دار الكتب المصرية أن الذى قدم بالقافلة هو دحية بن خليفة الكلبى ، وذكره صاحب التحرير والتنوير عن مجاهد ومقاتل . وقد ذكر مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٣/٣٦١) أن دحية وهو من بنى عامر بن عوف أقبل بتجارة من الشام قبل أن يسلم ، وكان يتلقاه أهل المدينة بالطبل والتصفيق ووافق قدومه يوم الجمعة .

(٢) عن أنس رضى الله عنه قال : قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى ، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله ، فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك دلنى على السوق ، فربح شيئاً من أقط وسمن ، فرآه النبى ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة فقال النبى ﷺ : مهيم يا عبد الرحمن . قال : يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار . قال : فما سقت فيها فقال : وزن نواة من ذهب . فقال النبى ﷺ : أولم ولو بشاة . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٧) .

اثنى عشر رجلاً ، والباقون خرجوا لمقابلة القافلة .

أما اللهو فهو قَتْل الوقت فى عمل قد ينقضـى ويشـغل الإنسـان عن الواجب. فمعنـى اللهـو أنْ ننصرفَ إلى عمل لا هـدفَ له ولا فائدةَ منـه ، وإنْ نظرنا إلى الحياة مجردة من منهج الله فهى لعبٌ ولهو .

واللعب قد يكون لهواً وقد لا يكون ، فإذا شـغلك اللعبُ عن شـيء مطلوبٍ منك فهـو لهـو ، لأنك لهيتَ عن أمر واجب عليك ، فحين تُوجِّه طاقتك إلى ما هو أدنى من المهم فهذا هو اللهو .

وتجـد خيبةَ اللهو ثقيلةً ، لأن الإنسـانَ اللاهى يـترك الأمرَ المهمّ ويذهب إلى الأمـر غير المهـم ، فيجلس إلى لعبة النرد[1] وهـى الطاولة ويـترك العمل الذى يُعطيه دخلاً يعيش منه .

وليتَ هذا اللهو مقصورٌ على اللاهى ، ولكنه يجذب أنظار غير اللاهى ويأخذ وقته ، هذا الوقت الذى كان يجب أنْ يُستغلَّ فى طاقة نافعة ، وفساد المجتمعات كلها إنما يأتى من أنَّ بعضـاً من أفرادها يسـتغلون طاقاتهم فيما لا يعود على ذواتهم ولا على أمتهم بالخير .

إذن : فاللهـو طاقـة معطلة ، ومثال اللاهـى الذى لا يُحقِّق شـيئاً فى حياته ذلك الطالب الذى لا يذهب إلى المدرسة ولا يذاكر ، ولكن يقضى وقته فى اللعب واللهـو وقد أعطى نفسـه ما تريد ولكنه أخذ متعة محـدودة ، ثم بعد ذلك يعيش فى شقاء بقية عمره .

أمـا الـذى قيَّد حركته بالمذاكرة فقد منع شـهوات نفسـه فى اللعب واللهو ، وتكون الثمرةُ أنه يُحقِّق لنفسه مستقبلاً مُريحاً ومرموقاً بقية عمره .

(١) أخرج الإمام مسلم فى صحيحه (٦٠٣٣) عن بريدة أن النبى ﷺ قال : « من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده فى لحم خنزير ودمه » . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (٤٩٤١) وابن ماجه (٣٧٦٣) وأحمد فى مسنده (٢٣٠٢٩ ، ٢٣٠٧٥ ، ٢٣١٠٦) .

فكلٌّ من الطالب الذى يجتهد وذلك الذى يلهو ويلعب ، كلٌّ منهما أخذ لوناً من المتعة ولكنَّ أحدهما أخذ متعة قصيرة جداً ، ثم أصبح من صعاليك الحياة ، أما الثانى فقد قيَّد نفسه سنوات معدودة ليستمتع بمستقبل ناجح .

كذلك أنت فى الدنيا إنْ قيَّدتَ نفسك بالتكاليف (افعل) و (لا تفعل) ، فظاهرُ الأمر أنك قيدتَ حريتك وإنْ فعلتَ ذلك برضاً ، فالله يعطيك راحة واطمئناناً ومتعةً فى النفس .

أما العمل النافع الذى ينبغى أنْ ينشغلَ الإنسانُ به فهو الذى يضعه لك مَنْ هو أعلى منك وأن يكون حكيماً مُحباً لك ، وهذه المواصفات لا تجدها إلاَّ فى الإله ، لذلك كلّ ما يُلهيك عمَّا يضعه لك إلهك فهو لهو لأنه شغلك عما هو أهمّ .

ومن اللهو ما ذكره الحق سبحانه فى سورة لقمان ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ .. (٦) ﴾ [لقمان]

قال العلماء : لهو الحديث هو كلُّ ما يُلهى عن مطلوب الله ، وإنْ لم يكُنْ فى ذاته فى غير مطلوب الله لهواً ، وعليه فالعمل الذى يُلهى صاحبه من صناعة أو زراعة .. الخ يُعد من اللهو إنْ شغله مثلاً عن الصلاة أو عن أداء واجب الله تعالى .

لذلك قال تعالى فى سورة النور : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ[1] فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ [النور]

فالحق سبحانه وصف هؤلاء الذين يعمرون بيوت الله بالذكر والتسبيح بأنهم ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ.. (٣٧) ﴾ [النور]

(١) تتقلب فيه القلوب : أى تضطرب وتتغير من الهول والفزع وتبلغ إلى الحناجر . أو تتقلب القلوب إلى الإيمان بعد الكفران . (البحر المديد ٥/١٢٥) وفى التفسير الميسر (٦/٢٤١) : تتقلب فيه القلوب بين الرجاء فى النجاة والخوف من الهلاك .

وكلمة ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ .. (٣٧) ﴾ [النور] لا تعنى تحريم التجارة ، فالإنسان الصادق لا تلهيه التجارة عن ذكر الله . وقد كان يسع هؤلاء أنْ ينتظروا حتى ينتهى رسولُ الله من خطبته للجمعة وينتظروا انتهاء الصلاة ، ثم يتوجهون للعير التى قدمتْ للتجارة ، ساعتها لن يكون انشغالهم بالتجارة لهواً .

وقد يسأل سائل : الله عز وجل يقول ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا .. (١١) ﴾ [الجمعة] هذان أمران تجارة ولهو ، فلماذا قال بعدها ﴿ انْفَضُّوا إِلَيْهَا .. (١١) ﴾ [الجمعة] ولم يقل : انفضوا إليهما .

الحق سبحانه استخدم المفرد معهما فقال ﴿ انْفَضُّوا إِلَيْهَا .. (١١) ﴾ [الجمعة] لأن التجارة واللهو لهما عمل واحد ، هو شَغْل المؤمنين عن العبادة والذكر واستماع الخير .

والانفضاض هو الانصراف عن شيء كانوا مجتمعين عليه أو مجتمعين له ، ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا .. (٧) ﴾ [المنافقون]

لقد أخطأوا الظنَّ بمَنْ آمنوا برسول الله ، فظنُّوا أنهم إنْ لم ينفقوا عليهم فسيرتدون عن إيمانهم ، ونسُوا أن المؤمنين المهاجرين قد تركوا أموالهم وتركوا بلادهم ، فمَنْ ترك أمواله للهجرة فى سبيل الله أيكفر به عندما لا يجد شيئاً ؟ لا لأنه ترك كلَّ شيءٍ فى سبيل الله .

فعندما يقول المنافقون كعبد الله بن أُبىّ للأنصار : لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضوا . أى : يرتدوا ويبتعدوا عن دين محمد ﷺ ، لكنهم لم ينفضُّوا ، لقد كان مقصدهم تجويع مَنْ عند النبى ﷺ فينفضُّوا من حوله .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة] وهذا القيام

كان فى الخطبة ، ويروى جابر بن عبد الله رضى الله عنه فيقول : ما رأيت رسول الله ﷺ فى الخطبة إلا وهو قائم[١] .

وسُئل عبد الله بن مسعود[٢] : أكان النبى ﷺ يخطب قائماً أو قاعداً ؟ فقرأ ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة]

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يخطب خطبتين يجلس بينهما[٣] .

حتى أن كعب بن عجرة[٤] دخل المسجدَ وعبد الرحمن بن أُمِّ الحكم[٥] يخطب قاعداً ، فقال : انظروا إلى هذا الخبيث يخطب قاعداً[٦] وقد قال الله ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة]

(١) الحديث عن جابر بن سمرة وليس جابر بن عبد الله ، وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٢٠٩٠٣ ، ٢٠٩٢٧) ولفظه : ما رأيت رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة قط إلا وهو قائم ، فمن حدثك أنه رآه يخطب وهو قاعد فقد كذب .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه (١١٠٨) وأبو يعلى فى مسنده (٥٠٣٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (٩٨٦٠) من حديث عبد الله بن مسعود . وفى الأنجم الزاهرات : « لا نزاع فى سنيته . قال ابن المنذر : وعليه أهل العلم فى الأمصار . وحكى ابن عبد البر إجماع العلماء على أن الخطبة لا تكون إلا قائماً لمن أطاقه . قلنا : ومن لا يطيقه فله أن يعتمد على عصا » . وقد فعله رسول الله ﷺ .

(٣) عن جابر بن سمرة قال : كانت للنبى ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويُذكِّر الناس . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٣٢) وأبو داود فى سننه (١٠٩٦) وابن ماجه فى سننه (١١٠٣) من حديث ابن عمر .

(٤) هو : كعب بن عجرة بن أمية بن عدى البلوى ، حليف الأنصار ، صحابى يكنى أبا محمد . شهد المشاهد كلها ، سكن الكوفة ، توفى بالمدينة عام ٥١ هجرية عن ٧٥ عاماً . الأعلام للزركلى (٥/٢٢٧) .

(٥) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان الثقفى بن أم الحكم . وأم الحكم هى أخت معاوية ، ولاه معاوية الكوفة . وقد ذكره محمد بن حبيب البغدادى فى كتابه « المحبّر » ضمن (حمقى ثقيف) أسلمت أمه فى فتح مكة ، أما أبوه فقد مات كافراً فى الطائف . عزله خاله معاوية عن الكوفة بسبب إقدامه على قتل أحَد أهل الذمة .

(٦) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٣٨) والبيهقى فى السنن الكبرى (٥٩١٤) ، وقد أخرجه أبو عروية فى كتاب الأوائل (١/١٥٦) ، فذكر أن أول من جلس فى الخطبة يوم الجمعة معاوية ، ثم ذكر عبد الرحمن ابن أم الحكم .

واعتبره طاوس بن كيسان[١] بدعة ، فقال : الجلوس على المنبر يوم الجمعة بدعة[٢] . وهذا لمن استطاع القيام فلا يجوز له أنْ يجلس وهو يخطب . وللعلماء فى هذا تفصيلات كثيرة بين المذاهب الفقهية .

لقد كان الأوْلَى بهؤلاء الذين تركوا رسول الله قائماً يخطب وخرجوا وانفضوا أنْ يتأدَّبوا بخُلقى الحلْم والأنَاة والصبر ، وقد قال الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) ﴾ [الحجرات]

لقد كان عليهم إذا لم يظهر لهم رسول الله فى المسجد أنْ ينتظروا خروجه وألاّ يُزعجوه ، فهو ولا بدّ فى مهمة من هذه المهمات ، وربما كان مشغولاً فى خُلْوة مع ربه عز وجل أو مع أهله .

وهؤلاء نادَوْا رسولَ الله كما ينادى بعضهم بعضاً ولم يراعوا حُرْمة رسول الله ومنزلته ، لذلك وُصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون ، فالعقل يقضى خلاف هذا التصرف .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ .. (٥) ﴾ [الحجرات] نعم لو صبروا لكان خيراً لهم أى أكثرَ خيرية ، فإنهم بعد أنْ نادوه واضطروه للخروج أطلقَ نصف الأسرى الذين جاءوا فى فكاكهم ، وقال : والله لو صبروا حتى

(١) طاوس بن كيسان اليمانى ، مولى أبناء الفرس ، مات بمكة حاجاً سنة ١٠٦ هـ ، كان فقيهاً جليلاً (طبقات الحفاظ) (١/٧٣) ، أدرك خمسين صحابياً من كبار التابعين فى الفقه ورواية الحديث ، كان ذا جرأة على وعظ الخلفاء والملوك ، صلى عليه هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٤/٤٨٨) طبعة دار هجر – وعزاه لابن أبى شيبة عن طاوس . وقد أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (٥٢٢٨) .

أخرج إليهم لأطلقتُ الأسرى كلهم[1] .

فلرسول الله حَقٌّ فى أنْ تتأدب معه ، سواء فى ندائه أو فى عدم تركه وهو يتحدّث أو يخطب أو فى التعامل مع سُنته ﷺ .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

فما عند الله لا خَوْفٌ عليه بل هو يُضاعف ويزداد ، وما عند الله لا حُزْن عليه لأن الإنسانَ يحزن إذا فاته خَيْرٌ ، ولكن ما عند الله باقٍ لا يفوتك ولا تفوته ، فلا يوجد شيء عند الله سبحانه وتعالى تحزن عليه لأنه فات .

﴿ إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ .. (٩٥) ﴾ [النحل] فالخير هو فى الحقيقة ليس فى متاع الدنيا مهما كثُر ، بل فيما عند الله تعالى ، فحظُّ الإنسان من دُنياه عَرَضٌ زائل ، فإما أنْ تفوته بالموت ، أو يفوتك هو بما يجرى عليك من أحداث ، أما ما عند الله فهو باقٍ لا نفادَ له .

فما عند الله خَيْر من لهوكم ومن تجارتكم ، فلا يجدر بكم ترك رسول الله لتخرجوا للهو أو حتى لتجارة ، فأنتم إنما أتيتم للجمعة بنداء الله لكم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

---

(١) ذكره البغوى فى تفسيره معالم التنزيل (٧/٣٣٣) دار طيبة . قال ابن عباس : بعث رسول الله ﷺ سرية إلى بنى العنبر وأمَّر عليهم عيينة بن حصن الفزارى ، فلما علموا أنه توجه نحوهم هربوا وتركوا عيالهم ، فسباهم عيينة بن حصن وقدم بهم على رسولِ الله ﷺ ، فجاء بعد ذلك رجالهم يفدون الذرارى ، فقدموا وقت الظهيرة ، ووافقوا رسول الله قائلاً فى أهله ، فلما رأتهم الذرارى أجهشوا إلى آبائهم يبكون ، وكان لكل امرأة من نساء رسول الله ﷺ حجرة فعجلوا أن يخرج إليهم رسول الله ﷺ فجعلوا ينادون : يا محمد اخرج إلينا حتى أيقظوه من نومه فخرج إليهم فقالوا : يا محمد فادنا عيالنا، فنزل جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً ، فقال لهم رسول الله : أترضون أن يكون بينى وبينكم سبرة بن عمرو وهو على دينكم ؟ فقالوا : نعم . فقال سبرة : أنا لا أحكم بينهم إلا وعمى شاهد وهو الأعور بن بشامة فرضوا به . فقال الأعور : أرى أن تفادى نصفهم وتعتق نصفهم . فقال رسول الله : قد رضيت ففادى نصفهم وأعتق نصفهم .

فأنتم إذا تركتم مشاغل الدنيا لتلبُّوا نداء الله ، فكيف بعد أنْ لبَّيتم نداءه تنفضُّون عنه إذا رأيتم تجارة أو لهواً ، فالخير فيما عند الله وعند رسوله .

وإذا كنتم تبتغون الرزقَ فى ذهابكم للتجارة ، فأين ستبتغون الرزق ، أليس عند الله سبحانه ؟ أليس هو الرزاق ؟ بل هو سبحانه ﴿ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

والرزق ليس مالاً فقط ولا طعاماً فقط ، بل الملبس رزقٌ والعلم رزقٌ ، والحلم رزق، وكل شيء تنتفع به هو رزقٌ من عند الله ، والعبد سببٌ فى الرزق لأن الله تعالى هو خالق الرزق أولاً ، ثم أعطاك إياه تنتفع به وتعمل فيه وتُعطى منه للغير .

فالرزقُ منك مناولةٌ عن الرازق الأول سبحانه ، فأنت بهذا المعنى رازق ، وإنْ كرهوا أنْ يسمى الإنسان رازقاً حتى لا يفهم أحدٌ أنَّ الرزقَ من الناس .

لذلك نسمع كثيراً من العمال البسطاء أو موظفاً صغيراً أو بوابَ عمارة مثلاً حين يفصله صاحبُ العمل يقول له : يا سيدى الأرزاقُ بيد الله ، كيف وقد كنتَ تأخذ راتبك من يده ومن ماله ؟ قالوا : لأنه نظر إلى المناول الأول للرزق ، ولم ينظر إلى المناول الثانى .

وبعضُ القاصدين للطعن فى القرآن يقولون : قوله ﴿ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة] تجعل شراكةً فى صفة الرزق ، فغيره سبحانه يرزق أيضاً ، لكن هو خَيْر الرازقين لأنه يرزقُ الخَلْق بأصول الأشياء التى يرزقون منها غيرهم ، فإنْ كنت ترزق غيرك طعاماً مثلاً فهو سبحانه أصلُ هذا الطعام ومصدره .

وقوله تعالى : ﴿ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة] مثله مثل قوله تعالى (أرحم الراحمين) أو (خير الوارثين) أو (أحسن الخالقين) وكل جَمْع هو وصف لله وإنه بهذا يدعو خَلْقه إلى التخلُّق بهذا الخُلق ويُوصف به خَلْقه .

واعلم أن الله لم يحرمهم من وصفهم بهذه الصفات لأن لهم فيها عملاً وإنْ كان محدوداً يتناسب مع قدرتهم ومخلوقيتهم وعبوديتهم فضلاً على أنها عطاء ومنحةٌ منه سبحانه ، أما صفاتُ الله فهى صفاتٌ لا محدودة ولا متناهية جلالاً وكمالاً وجمالاً .

فإذا كان خَلْق الله هو (أرحم الراحمين) فهذا يعنى أنه سبحانه لم يمنع الرحمة من خَلْقه على خَلْقه ، فمن رحم أخاه سُمى رحيماً وراحماً ، ولكن الله أرحمُ الراحمين .

كذلك ﴿ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) ﴾ [الأعراف] فالمغفرة قد تكون من الإنسان للإنسان ، ولكنا نعرف أن مغفرة الحق سبحانه فوق مغفرة الخَلْق ، لأن الغافر من البشر قد يغفر رياءً ، وقد يغفر سمعةً ، وقد يغفر لأنه خاف بطش المقابل ، لكنه سبحانه لا يخاف من أحد ، وهو خير الغافرين من غير مقابل .

ونلاحظ هنا أن هذه الآية ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة]

هى تمهيدٌ وتوطئة ومقدمة للسورة الآتية بعدها ، وهى سورة (المنافقون) التى فضحتْهم وكشفَتْ أفعالهم .

وما موقفهم من ترك رسول الله قائماً يخطب إلا ردّ فعل لمَا فى نفوسهم من النفاق ، لذلك لم يستطيعوا أنْ يتحكّموا فى ردِّ فعلهم ، فـ (انفضوا) تشعر فيها بسرعة الانصراف دون وعى ، لأن هذا هو حقيقة ما فى قلوبهم وعقولهم .

إنهم لا يؤمنون حقيقةً ، وإنْ أعلنوا إسلامهم وصلّوا مع رسول الله ومع المسلمين ، ولكنهم فى الحقيقة يُبطنون الكفر والنفاق وقد أُشربوا فى قلوبهم حُبّ الدنيا والمال وزينة الحياة الدنيا ، لذلك كان انفضاضهم سريعاً إلى ما يحبونه ويأملونه من دنياهم ، وليس لهم فى الآخرة من نصيب .

فهرس آيات المجلد الرابع والعشرون

سورة القمر	الصفحة	سورة القمر	الصفحة	سورة الرحمن	الصفحة
الآية : ٢	١٤٧٥٣	الآية : ٤٣ إلى ٤٦	١٤٧٨٧	الآية : ٢٤ إلى ٢٨	١٤٨٢٥
الآية : ٣	١٤٧٥٦	الآية : ٤٧ إلى ٤٨	١٤٧٩٠	الآية : ٢٩ إلى ٣٠	١٤٨٢٦
الآية : ٤ إلى ٥	١٤٧٥٩	الآية : ٤٩ إلى ٥٠	١٤٧٩١	الآية : ٣١ إلى ٣٢	١٤٨٢٧
الآية : ٦ إلى ٨	١٤٧٦١	الآية : ٥١ إلى ٥٣	١٤٧٩٣	الآية : ٣٣ إلى ٣٤	١٤٨٣١
الآية : ٩	١٤٧٦٣	الآية : ٥٤ إلى ٥٥	١٤٧٩٤	الآية : ٣٥ إلى ٤٠	١٤٨٣١
الآية : ١٠ إلى ١٤	١٤٧٦٦	**سورة الرحمن**		الآية : ٤١ إلى ٤٥	١٤٨٣٣
الآية : ١٥ إلى ١٦	١٤٧٦٨	الآية : ١	١٤٧٩٩	الآية : ٤٦ إلى ٥٣	١٤٨٣٤
الآية : ١٧	١٤٧٦٩	الآية : ٢ إلى ٤	١٤٨٠٠	الآية : ٥٤ إلى ٥٩	١٤٨٣٨
الآية : ١٨ إلى ٢١	١٤٧٧٤	الآية : ٥ إلى ٦	١٤٨٠٩	الآية : ٦٠ إلى ٦٥	١٤٨٣٩
الآية : ٢٢	١٤٧٧٦	الآية : ٧ إلى ٩	١٤٨١٢	الآية : ٦٦ إلى ٦٩	١٤٨٤٠
الآية : ٢٣ إلى ٢٦	١٤٧٧٧	الآية : ١٠ إلى ١٣	١٤٨١٤	الآية : ٧٠ إلى ٧٧	١٤٨٤١
الآية : ٢٧ إلى ٣١	١٤٧٧٩	الآية : ١٤ إلى ١٦	١٤٨٢٠	الآية : ٧٨	١٤٨٤٢
الآية : ٣٢ إلى ٣٥	١٤٧٨٢	الآية : ١٧ إلى ١٨	١٤٨٢٢	**سورة الواقعة**	
الآية : ٣٦ إلى ٤٠	١٤٧٨٣	الآية : ١٩ إلى ٢١	١٤٨٢٣	الآية : ١ إلى ٢	١٤٨٤٧
الآية : ٤١ إلى ٤٢	١٤٧٨٥	الآية : ٢٢ إلى ٢٣	١٤٨٢٤	الآية : ٣ إلى ٦	١٤٨٤٩

سورة الواقعة	الصفحة	سورة الواقعة	الصفحة	سورة الحديد	الصفحة
الآية : ٧ إلى ١٢	١٤٨٥١	الآية : ٩٢ إلى ٩٤	١٤٨٨٩	الآية : ١٤	١٤٩٣٢
الآية : ١٣ إلى ١٦	١٤٨٥٥	الآية : ٩٥ إلى ٩٦	١٤٨٩٠	الآية : ١٥	١٤٩٣٤
الآية : ١٧ إلى ١٩	١٤٨٥٦	**سورة الحديد**		الآية : ١٦	١٤٩٣٦
الآية : ٢٠ إلى ٢٤	١٤٨٥٨	الآية : ١	١٤٨٩٧	الآية : ١٧ إلى ١٨	١٤٩٣٨
الآية : ٢٥ إلى ٣٤	١٤٨٦٠	الآية : ٢	١٤٨٩٨	الآية : ١٩	١٤٩٣٩
الآية : ٣٥ إلى ٤٠	١٤٨٦٣	الآية : ٣	١٤٩٠١	الآية : ٢٠	١٤٩٤٠
الآية : ٤١ إلى ٥٠	١٤٨٦٥	الآية : ٤	١٤٩٠٢	الآية : ٢١	١٤٩٤٣
الآية : ٥١ إلى ٥٦	١٤٨٦٨	الآية : ٥ إلى ٦	١٤٩٠٧	الآية : ٢٢	١٤٩٤٩
الآية : ٥٧ إلى ٦١	١٤٨٧٠	الآية : ٧	١٤٩١٠	الآية : ٢٣	١٤٩٥٣
الآية : ٦٢ إلى ٦٧	١٤٨٧٣	الآية : ٨	١٤٩١٣	الآية : ٢٤	١٤٩٥٦
الآية : ٦٨ إلى ٧٠	١٤٨٧٥	الآية : ٩	١٤٩١٧	الآية : ٢٥	١٤٩٥٨
الآية : ٧١ إلى ٧٤	١٤٨٧٦	الآية : ١٠	١٤٩١٩	الآية : ٢٦	١٤٩٦٧
الآية : ٧٥ إلى ٨٠	١٤٨٧٧	الآية : ١١	١٤٩٢٢	الآية : ٢٧	١٤٩٦٩
الآية : ٨١ إلى ٨٧	١٤٨٨٣	الآية : ١٢	١٤٩٢٩	الآية : ٢٨	١٤٩٧٣
الآية : ٨٨ إلى ٩١	١٤٨٨٦	الآية : ١٣	١٤٩٣١	الآية : ٢٩	١٤٩٧٤

سورة المجادلة	الصفحة	سورة المجادلة	الصفحة	سورة الحشر	الصفحة
الآية : ١	١٤٩٧٩	الآية : ١٨	١٥٠٢٥	الآية : ١٣	١٥٠٧٥
الآية : ٢	١٤٩٨٣	الآية : ١٩	١٥٠٢٦	الآية : ١٤	١٥٠٧٦
الآية : ٣ إلى ٤	١٤٩٨٤	الآية : ٢٠ إلى ٢١	١٥٠٢٧	الآية : ١٥	١٥٠٧٧
الآية : ٥	١٤٩٩٣	الآية : ٢٢	١٥٠٣٠	الآية : ١٦	١٥٠٧٩
الآية : ٦	١٤٩٩٧	**سورة الحشر**		الآية : ١٧	١٥٠٨٠
الآية : ٧	١٥٠٠٠	الآية : ١	١٥٠٣٧	الآية : ١٨ إلى ١٩	١٥٠٨١
الآية : ٨	١٥٠٠٣	الآية : ٢	١٥٠٤١	الآية : ٢٠	١٥٠٨٨
الآية : ٩	١٥٠٠٥	الآية : ٣ إلى ٤	١٥٠٤٩	الآية : ٢١	١٥٠٨٩
الآية : ١٠	١٥٠٠٦	الآية : ٥	١٥٠٥١	الآية : ٢٢	١٥٠٩٣
الآية : ١١	١٥٠١١	الآية : ٦	١٥٠٥٢	الآية : ٢٣	١٥٠٩٨
الآية : ١٢	١٥٠١٤	الآية : ٧	١٥٠٥٤	الآية : ٢٤	١٥١٠٣
الآية : ١٣	١٥٠١٦	الآية : ٨	١٥٠٦٥	**سورة الممتحنة**	
الآية : ١٤	١٥٠١٨	الآية : ٩	١٥٠٦٨	الآية : ١	١٥١١١
الآية : ١٥ إلى ١٦	١٥٠٢٢	الآية : ١٠	١٥٠٧١	الآية : ٢	١٥١١٥
الآية : ١٧	١٥٠٢٤	الآية : ١١ إلى ١٢	١٥٠٧٣	الآية : ٣	١٥١١٦

فهرس آيات المجلد الرابع والعشرون

سورة الممتحنة	الصفحة	سورة الصف	الصفحة	سورة الجمعة	الصفحة
الآية : ٤	١٥١١٩	الآية : ٦	١٥١٨٨	الآية : ٧	١٥٣١٧
الآية : ٥	١٥١٢٢	الآية : ٧	١٥١٩٧	الآية : ٨	١٥٣٢٧
الآية : ٦	١٥١٢٣	الآية : ٨	١٥٢٠٨	الآية : ٩	١٥٣٣٨
الآية : ٧	١٥١٢٤	الآية : ٩	١٥٢١٦	الآية : ١٠	١٥٣٥٨
الآية : ٨	١٥١٢٦	الآية : ١٠ إلى ١١	١٥٢١٩	الآية : ١١	١٥٣٨١
الآية : ٩	١٥١٣١	الآية : ١٢	١٥٢٣٢		
الآية : ١٠	١٥١٣٢	الآية : ١٣	١٥٢٣٩		
الآية : ١١	١٥١٣٥	الآية : ١٤	١٥٢٤٤		
الآية : ١٢	١٥١٣٦	**سورة الجمعة**			
الآية : ١٣	١٥١٤٣	الآية : ١	١٥٢٥٧		
سورة الصف		الآية : ٢	١٥٢٦٧		
الآية : ١	١٥١٥٩	الآية : ٣	١٥٢٧٨		
الآية : ٢ إلى ٣	١٥١٦٤	الآية : ٤	١٥٢٨٧		
الآية : ٤	١٥١٧١	الآية : ٥	١٥٢٩٥		
الآية : ٥	١٥١٧٩	الآية : ٦	١٥٣٠٦		